فتح القدير

الجامع

بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

الإمام محمد بن علي الشوكاني

١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق

راجعه وقابل أصوله وصنع فهارسه

د. عبد الرحمن بن محمد العنزي

الجزء السابع

دار ابن الجوزي

فتح القدير

٧

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشوكاني، محمد علي

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير./ محمد علي الشوكاني؛ محمد صبحي حلاق؛ عبد الرحمن بن محمد العيزري.- الدمام، ١٤٤٢هـ

١٠مج.

ردمك: ٩ ـ ٧٤ ـ ٨٢٩٨ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٧ ـ ٨١ ـ ٨٢٩٨ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٧)

١ ـ القرآن ـ تفسير أ. حلاق، محمد صبحي (محقق) ب. العيزري، عبد الرحمن بن محمد (محقق) ج. العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٢/٤٠٧٩

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣ - ٠١٣٨٤١٢١٠٠

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ

الباركود الدولي: 9786038298749

فتح القدير

الجامع

بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

الإمام محمد بن علي الشوكاني

١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق

راجعه وقابل أصوله وصنع فهارسه

د. عبد الرحمن بن محمد العيزري

الجزء السابع

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ النُّورِ

[سورة النور مدنية بالإجماع]:

هي مدنية[١] وآياتها أربع وستون آية.

أخرج ابن مردويه[٢]، عن ابن عباسٍ، وابن الزبير قالا: أُنْزِلت سورة النور بالمدينة.

وأخرج الحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، عن عائشة[٣] مرفوعاً: «لا تُنْزلوهنّ الغُرَفَ، ولا تعلموهنَّ الكتابة؛ يعني: النساءَ، وعلموهنّ الغَزْل، وسورة النور».

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي، عَنْ مجاهد[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «علِّموا رجالكم سورة المائدة، وعلِّموا نساءكم سورة النور»، وهو مرسل.

وأخرج أبو عُبيد[٥] في «فضائله»، عن حارثة بن مُضرِّب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن تعلموا سورة النساء، والأحزاب، والنور.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾.

---

(١) وهي مدنيَّة بالإجماع. «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٠٠)، و«زاد المسير» (٦/ ٣).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٤).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٩٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٤٥٣)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبي، فقال: «بل موضوع، وآفته عبد الوهاب». قال أبو حاتم: «كذاب...».

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٢٤٢٨) بسند ضعيف لإرساله.

(٥) أخرجه أبو عُبيد في «فضائله» (ص١٣٨)، رقم (٤٤٢) وسنده صحيح.

[حدّ الزانية والزاني]:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾.

السورة في اللغة[1]: اسم للمنزلة الشريفة، ولذلك سُميت السورة من القرآن سورة، ومِنْه قول زهير[2]:

أَلَـم تَـر أنَّ الـلَّـهَ أعـطـاكَ سُـورةً ... تَـرى كُـلَّ مَـلْـكٍ دونـهـا يَـتَـذبـذبُ

[توجيه قراءة «سورةٌ» بالرفع]:

أي: مُنزلة. قرأ الجمهور ﴿سُورَةٌ﴾ بالرفع[3] وفيه وجهان:

أحدهما: أنْ تكون خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هذه سورة، ورجحه الزجاج[4]، والفراء[5]، والمبرد[6]، قالوا: لأنها نكرة، ولا يبتدأ بالنكرة في كل موضع.

والوجه الثاني: أنْ يكون مبتدأ وجاز الابتداء بالنكرة لكونها موصوفة بقوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾ والخبر ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ ويكون المعنى: السورة المنزلة المفروضة كذا وكذا، إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة لها مبدأ ومَخْتم، وهذا معنى صحيح، ولا وجه لما قاله الأولون من تعليل المنع من الابتداء بها كونها نكرة، فهي نكرة مُخَصّصة بالصفة، وهو مجمع على جواز الابتداء بها.

وقيل: هي مبتدأ محذوفُ الخبر على تقدير: فيما أُوحينا إليك سورةٌ، وردّ بأن مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة، لا بيان أن في جملة ما أوحي إلى النبيّ ﷺ سورة شأنها كذا وكذا.

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٣/ ٤٧)، و«الصحاح» (٢/ ٦٩٠).

(٢) كذا في المخطوط وصوابه النابغة. انظر: «ديوانه» (ص١٨).

(٣) «جامع البيان» (١/ ١٠١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٣)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١١٥).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٧).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤٣).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٠١).

[توجيه قراءة ﴿سُورَةٌ﴾ بالنصب]:

وقرأ الحسن بن عبد العزيز وعيسى الثقفي وعيسىٰ الكوفي ومجاهد وأبو حيوة وطلحة بن مُصرّف بالنصب[(١)] وفيه أوجه:

الأوّل: أنها منصوبة بفعل مقدّر غير مفسّر بما بعده، تقديره: اتلُ سورةً، أو اقرأْ سورةً.

والثاني: أَنّها منصوبة بفعل مُضْمر يفسّره ما بعده على ما قيل في باب اشتغال الفعل عن الفاعل بضميره؛ أي: أنزلنا سورةً أنزلناها، فلا محل لأنزلناها هاهنا؛ لأنّها جملة مفسرة، بخلاف الوجه الذي قبله، فإنها في محل نصب على أنها صفة لسورة.

الوجه الثالث: أَنّها منصوبة على الإغراء؛ أي: دونَك سورةً، قاله صاحب الكشّاف[(٢)]. وردّه أبو حيان[(٣)] بأنّه لا يجوز حذف أداة الإغراء.

الرابع: أنها منصوبة على الحال [٣/٢٩٠] مِنْ ضمير أنزلناها.

قال الفرّاء[(٤)]: هي حال من الها والألف، والحال من المكنى يجوز أن تتقدّم عليه، وعلى هذا فالضمير في ﴿أَنزَلْنَهَا﴾ ليس عائداً على ﴿سُورَةٌ﴾؛ بل على الأحكام؛ كأنه قيل: أنزلنا الأحكام حال كونها سورة من سور القرآن.

قرأ ابنُ كثير، وأبو عَمْرو «وفرّضناها» بالتشديد[(٥)]، وقرأ الباقون بالتخفيف[(٦)].

[أوجه القراءة في قوله: ﴿وَفَرَضْنَهَا﴾]:

قال أبو عمرو[(٧)]: فرّضناها بالتشديد؛ أي: قطّعناها في الإنزال نجماً نجماً،

---

(١) «التبيان» (٢/ ٩٦٣ ـ ٩٦٤)، و«الفريد» (٣/ ٥٨٥)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ٩٩). القراءة بالنصب شاذة، وهي رواية شاذة عن أبي عمرو، «البحر» (٨/ ٦).

(٢) في «الكشاف» (٤/ ٢٥٦).

(٣) في «البحر المحيط» (٨/ ٦).

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤٣).

(٥) «التيسير» (ص١٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦)، و«جامع البيان» (١٧/ ١٣٧)، و«النشر» (٢/ ٢٣٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٠٠).

(٦) «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٣٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٢٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦ ـ ٧).

(٧) «التيسير» (ص١٦١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٠١).

والفَرْض: القَطْعُ، ويجوز أن يكون التشديد للتكثير أو للمبالغة، ومعنى التخفيف: أوجبناها وجعلناها مقطوعاً بها، وقيل: ألزمناكم العملَ بها، وقيل: قدّرنا ما فيها من الحدود، والفَرْضُ: التقدير، ومنه ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القصص: ٨٥].

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾؛ أي: أنزلنا في غضونها وتضاعيفها، ومعنى كونها بينات: أنّها واضحةُ الدلالة على مدلولها، وتكريرُ أنزلنا لكمال[١] العناية بإنزال هذه السورة، لما اشتملتْ عليه من الأحكام. ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ هذا شروع في تفصيل ما أُجمل مِنْ الآيات البينات، والارتفاع على الابتداء[٢]، والخبر ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾، أو على الخبرية لسورة كما تقدّم.

والزنا هو: وطءُ الرجل للمرأة في فَرْجها مِنْ غير نكاح، ولا شُبْهة نكاح. وقيل: هو إيلاج فرجٍ في فرجٍ مُشْتهىً طبعاً، مُحرّم شرعاً[٣].

والزانية: هي المرأة المطاوعة للزنا، الممكّنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المُكْرهة، وكذلك الزاني، ودخول الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط على مذهب الأخفش، وأمّا على مذهب سيبويه[٤] فالخبر محذوف.

والتقدير: فيما يُتلى عليكم حكمُ الزانية، ثم بين ذلك بقوله: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾، والجلد الضرب، يقال: جَلَده إذا ضرب جلده، مثل بَطَنَه إذا ضرب بطنه، ورَأَسَه إذا ضرب رأسَه.

وقوله: ﴿مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ هو حدّ الزاني الحر البالغ البكر وكذلك الزانية، وثبت بالسُّنَّة زيادة على هذا الجلد، وهي: تغريب[٥] عام.

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ١٦٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٨٩).

(٢) «التبيان» (٢/ ٩٦٤)، و«الفريد» (٣/ ٥٨٦).

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٣/ ١٣١).

(٤) في «الكتاب» (١/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٥) من حديث أبي هريرة ﷺ وفيه: «والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتاب الله: الوليدةُ والغنم ردٌّ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام...».
[أحمد (٤/ ١١٥ ـ ١١٦)، والبخاري رقم (٦٨٥٩)، ومسلم رقم (٢٥/ ١٦٩٧، ١٦٩٨)، =

وأمَّا المملوك والمملوكة، فجلد كلّ واحد منهما خمسون جلدة لقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

وهذا نصٌ في الإماء وأُلحق بهنّ العبيد لعدم الفارق.

[الرجم حدّاً للزاني المحصن]:

وأَمَّا مَنْ كان مُحْصناً من الأحرار، فعليه الرجم بالسُّنَّة الصحيحة المتواترة، وبإجماع أهل العلم بل وبالقرآن المنسوخ لفظه، الباقي حكمُه وهو: «الشيخُ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة»(١).

وزاد جماعة من أهل العلم مع الرجم جلد مائة، وقد أوضحنا ما هو الحق في ذلك في شرحنا(٢) للمنتقى.

وقد مضى الكلام في حدّ الزنا مستوفىً، وهذه الآية ناسخة(٣) لآية الحبس وآية الأذى اللّتين في سورة النساء.

وقرأ عيسى بن عُمر الثقفي، ويحيى بن يَعْمُر، وأبو جعفر، وأبو شيبة «الزانيةَ والزاني» بالنصب(٤)، قيل: وهو القياس عند سيبويه(٥)؛ لأنَّه عنده كقولك: زيداً

= وأبو داود رقم (٤٤٤٥)، والترمذي رقم (١٤٣٣)، والنسائي رقم (٥٤١٠)، وابن ماجه رقم (٢٥٤٩) وغيرهم].

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (ج٢٤ رقم ٨٦٧)، من حديث أبي أمامة بن سهل عن خالته العجماء.
وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢٦٥)، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.
وأخرجه ابن حبان في «صحيحه» رقم (٤٤٢٨)، والحاكم (٢/ ٤١٥).
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
قلت: وفي سنده عاصم بن أبي النجود صدوق له أوهام وباقي السند رجاله ثقات على شرط الشيخين. وعاصم بن أبي النجود حديثه في «الصحيحين» مقرون.

(٢) انظر: «نيل الأوطار» (١٣/ ٢٢٥ ـ ٢٦٠) ط. ابن الجوزي.

(٣) «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ١٦٢)، و«الإيضاح لناسخ القرآن» لمكي (ص٣٥٩)، و«فتح الباري» (١٢/ ١١٩).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص١٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٠). القراءة المتواترة بالرفع، وأما النصب فشاذة، وهي رواية شاذة عن أبي جعفر.

(٥) في «الكتاب» (١/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

أضرب. وأما الفرّاء[١] والمبرّد[٢] والزجاج[٣] فالرفع عندهم أَوجَه، وبه قرأ الجمهور[٤].

[ما وجه تقديم الزانية على الزاني؟]:

ووجه تقديم الزانية على الزاني هاهنا: أَنَّ الزنا في ذلك الزمان كان في النساء أكثر حتى كانت لهنّ رايات[٥] تُنصب على أبوابهنّ؛ ليعرفهنّ مَنْ أراد الفاحشة منهنّ.

وقيل: وجه التقديم أنَّ المرأة هي الأصل في الفعل، وقيل: لأن الشهوة فيها أكثر، وعليها أغلب.

وقيل: لأنَّ العار فيهنّ أكثر إذ موضوعهنّ الحجبة والصيانة، فقدّم ذكر الزانية تغليظاً واهتماماً.

والخطاب في هذه الآية للأئمة[٦] ومَنْ قام مقامهم، وقيل: للمسلمين أجمعين؛ لأنَّ إقامة الحدود واجبة عليهم جميعاً، والإمام ينوب عنهم، إذْ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ يقال: رأفَ رأفةً على وزن فعلة، ورآفة على وزن فَعالة، مثل النشأة، والنشاءة وكلاهما بمعنى: الرقّة، والرحمة، وقيل: هي أرق الرحمة.

قرأ الجمهور «رأْفة»[٧] بسكون الهمزة، وقرأ ابنُ كثير بفتحها[٨]، وقرأ ابن جُريج «رآفة» بالمد[٩] كفَعالة، ومعنى: «في دين الله» في طاعته وحكمه، كما في

---

(١) في «معاني القرآن» (١/ ٣٠٦). (٢) في «الكامل» (٢/ ٨٢٣).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٧).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٠٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ١٧٠).
(٥) «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٦٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٠٤).
(٦) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣١٤)، و«المغني» (١٢/ ٣٣١)، و«البيان» (١٢/ ٣٥٦)، و«عيون المجالس» (٥/ ٢٠٨٧).
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٩)، و«النشر» (٢/ ٣٣٠)، و«التيسير» (ص١٦١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٣٣).
(٨) «التيسير» (ص١٦١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩). وهما قراءتان متواترتان.
(٩) «القراءات الشاذة» (ص١٠٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ١٨٥). قراءة ابن جُريج قراءة شاذة.

قولِه: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، ثم قال: مُثبّتاً للمأمورين ومهيجاً لهم ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ كما تقول للرجل تحضّه على أمر: إن كنتَ رجلاً فافعلْ كذا؛ أي: إنْ كنتم تصدّقون بالتوحيد، والبعث الذي فيه جزاء الأعمال فلا تعطّلوا الحدودَ ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليحضره[1] زيادةً في التنكيل بهما، وشيوع العار عليهما، وإشهار فضيحتهما.

والطائفة: الفِرْقة التي تكون حافة حول الشيء من الطوف، وأقلّ الطائفة ثلاثة، وقيل: اثنان، وقيل: واحد، وقيل: أربعة، وقيل: عشرة.

ثم ذكر سبحانه شيئاً يختص بالزاني والزانية، فقال: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾.

قد اختلف أهل[2] العلم في معنى هذه الآية على أقوال:

الأوّل: أن المقصود منها تشنيع الزنا وتشنيع أهله وأنه محرّم على المؤمنين، ويكون معنى الزاني لا ينكح: الوطء لا العقد؛ أي: الزاني لا يزني إلّا بزانية، والزانية لا تزني إلّا بزانٍ، وزاد ذكر المشركة والمشرك لكون الشرك أعمّ في المعاصي من الزنا.

وردّ هذا الزجّاج[3] وقال: لا يُعرفُ النِّكاح في كتاب الله إلّا بمعنى التزويج، ويُردّ هذا الردّ بأنّ النكاح بمعنى الوطء ثابت في كتاب الله سبحانه، ومنه قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] فقد بيَّنه النبيّ ﷺ، بأنّ المراد به الوطء، ومن جملة القائلين بأنّ معنى الزاني لا ينكح إلّا زانية: الزاني لا يزني إلا بزانية: سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة، كما حكاه ابن جرير[4] عنهم، وحكاه الخطّابي[5] عن ابن عباس.

---

(١) «المغني» (١٢/ ٣١١)، و«المبسوط» (٩/ ٥١ ـ ٥٢)، و«البيان» للعِمْراني (١٢/ ٣٩١).
(٢) «روح المعاني» (١٨/ ١٨٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١١٦ ـ ١١٧)، و«جامع البيان» (١٧/ ١٤٩ ـ ١٥٠).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٩).
(٤) في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٧ ـ ١٥٨).
(٥) في «معالم السنن» (٣/ ١٨١).

القول الثاني: أن الآية هذه نزلت في امرأة خاصة كما سيأتي بيانه فتكون خاصةً بها كما قال الخطّابي[(١)].

القول الثالث: أنّها نزلت في رجل من المسلمين، فتكون خاصة به قاله مجاهد[(٢)].

الرابع: أنها نزلت في أهل الصُّفَّة، فتكون خاصة بهم قاله أبو صالح[(٣)].

الخامس: أنّ المراد بالزاني والزانية: المحْدودان حكاه الزجَّاج[(٤)]، وغيره عن الحسن قال: وهذا حكم مِنْ الله فلا يجوز لزانٍ محدود أن يتزوّج إلّا محدودة. وروي نحوه عن إبراهيم[(٥)] النخعي وبه قال بعض أصحاب الشافعي[(٦)].

قال ابن العربي[(٧)]: وهذا معنى لا يصح نظراً كما لم يثبت نقلاً.

السادس: أن الآية هذه منسوخة بقوله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] قال النحاس[(٨)]: وهذا القول عليه أكثرُ العلماء.

القول السابع: أنّ هذا الحكم مؤسّس على الغالب، والمعنى: أن غالب الزناة لا يرغب إلّا في الزواج بزانيةٍ مثلِه، وغالب الزواني لا يرغبن إلّا في الزواج بزانٍ مثلهن، والمقصود: زجُر المؤمنين عَنْ نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا، وهذا أرجحُ[(٩)] الأقوال وسبب النزول يشهد له كما سيأتي.

وقد اختُلف في جواز تزوّج الرجل بامرأةٍ قد زُنى هو بها، فقال الشافعي[(١٠)] وأبو حنيفة[(١١)]: بجواز ذلك. وروي عن ابن عباس[(١٢)].

---

(١) في «معالم السنن» (٣/ ١٨١).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٢) بسند صحيح.
(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٧٣)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١١٧).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٠).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١١٨).
(٦) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣١٨).
(٧) في «أحكام القرآن» له (٣/ ١٣١٨).
(٨) في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩).
(٩) «جامع البيان» (١٧/ ١٦٠ ـ ١٦١).
(١٠) «البيان» للعمراني (١٢/ ٥٨٩)، و«زاد المعاد» (٥/ ١٠٤)، و«الأم» للشافعي (٦/ ٣٩٩).
(١١) «البناية في شرح الهداية» (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).
(١٢) انظر: «المغني» (٩/ ٥٦٤).

وروي[(١)] عن عمر وابن مسعود وجابر: أنَّه لا يجوز.

قال ابن مسعود[(٢)]: إذا زنى الرجلُ بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك فهما زانيان أبداً وبه قال مالك[(٣)]، ومعنى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: نكاح الزواني، لما فيه مِنْ التشبه بالفسقة، والتعرّض للتهمة، والطعن في النسب. وقيل: هو مكروه فقط، وعبّر بالتحريم عَنْ كراهة التنزيه مبالغة في الزجر.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[(٤)] في قوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ قال: بيَّنَّاها.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عمر[(٥)]: أن جاريةً لابن عمر زنت فضرب رجليها وظهرها، فقلتُ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال: يا بنيّ ورأيتني أخذتني بها رأفة؟ إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجلد رأسها، وقد أوجعتُ حيثُ ضربتُ.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. عن ابن عباس[(٦)] ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: الطائفة الرجلُ فما فوقه.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه، والضياء المقدسي في «المختارة» من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس[(٧)] في قوله:

---

(١) أخرجه عنهم ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤/ ٢٤٨ ـ ٢٥٠).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ١٥١)، وعبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٢٨٠٢)، وسعيد بن منصور رقم (٨٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٣٣٦ رقم ٩٦٧٠).

(٣) «عيون المجالس» (٥/ ٢٠٨٧)، و«التهذيب في اختصار المدونة» (٤/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٣٨) بسند صحيح.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٣٥٠٣)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٦٣، ٦٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥١٩) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٢٠) بسند صحيح.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٥١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤/ ٢٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٢١ ـ ٢٥٢٢)، والبيهقي (٧/ ١٥٤)، والضياء المقدسي (١٠/ ١٥٠ رقم ١٤٨) بسند صحيح.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ﴾ قال: ليس هذا بالنكاح، ولكن الجماعُ، لا يزني بها حين يزني إلّا زانٍ أو مُشْرك ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: الزنا.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن مجاهد[١] في قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ قال: كنّ نساءٌ في الجاهلية [٣/٢٩١] بَغيّات، فكانت منهنّ امرأة جميلة تدعى أمّ جميل، فكان الرجل من المسلمين يتزّوج إحداهنّ لتنفق عليه من كسبها، فنهى الله سبحانه أن يتزوّجهنّ أحد من المسلمين، وهو مرسل.

وأخرج عبد بن حميد، عن سليمان بن يسار[٢] نحوه مختصراً.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عطاء، عن ابن عباس[٣] قال: كانت بغايا في الجاهلية بغايا آل فلان، وبغايا آل فلان، فقال الله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ الآية، فأحكم الله ذلك في أمر الجاهلية.

وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، عن الضحاك[٤] في الآية قال: إنما عنى بذلك الزنا، ولم يعن به التزويج.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، عن سعيد بن جبير[٥] نحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة[٦]، عن عكرمة نحوه.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، عن ابن عباس[٧] في هذه الآية قال: الزاني مِنْ أهل القبلة لا يزني إلّا بزانية مثله من أهل القبلة، أو مشركة من غير أهل القبلة، والزانية من أهل القبلة لا تزني إلّا بزانٍ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤/ ٢٧١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٢) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٤) بسند ضعيف، ابن جريج لم يسمع من عطاء، وكذلك عطاء لم يسمع من ابن عباس.

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٢٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٧١) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤/ ٢٧٢)، وعبد الرزاق (٢/ ٥١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٨) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٢٢، ٢٥٢٥) بسند صحيح.

مثلها من أهل القبلة، أو مشرك من غير أهل القبلة، وحُرّم الزنا على المؤمنين.

[سبب نزول الآية ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾**]:**

وأخرج أحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، عن عبد الله بن عمرو(١) قال: كانت امرأة يقال لها: أمّ مهزول، وكانت تسافح، وتشترط أن تُنفق عليه، فأراد رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوّجها، فأنزل الله ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي من حديث عمرو بن شعيب(٢)، عن أبيه، عن جدّه قال: كان رجل يقال له: مَرْثَد، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بغيّ بمكة يقال لها: عَناق، وكانت صديقةً له، وذكر قصة وفيها: «فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟، فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «يا مَرْثد: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلا تنكحها».

وأخرج ابن جرير، عن عبد الله بن عمرو(٣) في الآية قال: كنّ نساء معلومات، فكان الرجل مِنْ فقراء المسلمين يتزوّج المرأة منهنّ لتنفق عليه، فنهاهم الله عن ذلك.

وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن عباس(٤): أنها نزلت في بغايا مُعْلِنات كنّ في الجاهلية وكنّ زواني مشركات، فحرّم الله نكاحهنّ على المؤمنين.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٦٤٨٠، ٧٠٩٩٢)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٣٥٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٢٥)، والحاكم (٢/ ١٩٣، ١٩٤)، والبيهقي (٧/ ١٥٣). وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٠ ـ ١٥١) بسند حسن.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ١٥٤) بسند حسن.

(٤) ابن جرير (١٧/ ١٥٣)، والبيهقي (٧/ ١٥٤).

حاتم، وابن مردويه من طريق شعبة مولى ابن عباس[1] قال: كنتُ مع ابن عباس، فأتاه رجل، فقال: إنّي كنت أتبع امرأةً، فأصبت منها ما حرّم الله عليّ، وقد رزقني الله منها توبةً، فأردت أن أتزوّجها، فقال الناس: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾، فقال ابن عباس: ليس هذا موضع هذه الآية، إنما كنّ نساء بغايا متعالنات يَجْعلن على أبوابهنّ راياتٍ يأتيهنّ الناس يُعْرفن بذلك، فأنزل الله هذه الآية، تزوّجها فما كان فيها مِنْ إثم فعليّ.

وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عديّ، وابن مردويه، والحاكم عن أبي هريرة[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلّا مثله».

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عن عليّ بن أبي طالب[3]: أنّ رجلاً تزوّج امرأةً، ثم إنّه زنى فأقيم عليه الحدّ، فجاؤوا به إلى عليّ ففرق بينه وبين امرأته، وقال: لا تتزوّج إلّا مجلودة مثلك.

[حدُّ القذف]:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

[قذف الرجل زوجته]:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ استعار الرمي للشتم بفاحشة الزنا لكونه جناية بالقول كما

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٧٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٢١) بسند حسن.

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٢٠٥٢)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٢٤)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٨١٧)، والحاكم (٢/ ١٦٦). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٧٣).

قال النابغة(١):

وجُـرح الـلِّـسـان كـجُـرح الـيـدِ

وقال آخر:

رَمَـانـي بـأمـرٍ كـنـتُ عـنـه وَوَالـدي   بَـرياً ومـن أجـل الـطَّـوى رَمَـانـي(٢)

ويُسمّى هذا الشتم بهذه الفاحشة الخاصة قَذْفاً، والمراد بالمحصنات: النساء، وخصهنّ(٣) بالذكر لأنّ قذفهنّ أشنع، والعار فيهنّ أعظم، ويلحق الرجال بالنساء في هذا الحكم بلا خلاف بين علماء(٤) هذه الأمة، وقد جمعنا في ذلك رسالة رددنا بها على بعض المتأخرين مِنْ علماء القرن الحادي عشر لما نازع في ذلك.

وقيل: إن الآية تعمّ الرجال، والنساء، والتقدير: والأنفس المحصنات، ويؤيد هذا قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٤] فإن البيان بكونهنّ من النساء يشعر بأن لفظ المحصنات يشمل غير النساء، وإلّا لم يكن للبيان كثير معنى، وقيل: أراد بالمحصنات: الفروج كما قال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١] فتتناول الآية الرجال والنساء.

[تغليب النساء على الرجال نادر في لغة العرب]:

وقيل: إنّ لفظ المحصنات، وإنْ كان للنساء لٰكنه هاهنا يشمل النساء والرجال تغليباً، وفيه أنّ تغليب النساء على الرجال غير معروف في لغة العرب، والمراد بالمحصنات هنا العفائف، وقد مضى في سورة النساء ذكر الإحصان، وما يحتمله مِنْ المعاني.

وللعلماء في الشروط(٥) المعتبرة في المقذوف والقاذف أبحاث مطوّلة مستوفاة في كتب الفقه، منها ما هو مأخوذ من دليل، ومنها ما هو مجرّد رأي بحت.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٢٢).
بل هو لامرئ القيس. انظر: «ديوانه» (ص١٨٥)، وصدره:
ولـو عـن نـثـاغـيـره جـاءنـي
(٢) هو لعمرو بن أحمر الباهلي.
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٢٣)، و«جامع البيان» (١٧/ ١٦١).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٢٣)، و«روح المعاني» (١٨/ ١٩٧).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٢٠ ـ ١٣٢١).

قرأ الجمهور «المُحصَنات» بفتح الصاد[١]، وقرأ يحيىٰ بن وثّاب بكسرها[٢]. وذهب الجمهور[٣] من العلماء: أنه لا حدّ على مَنْ قذف كافراً أو كافرة.

قال الزهري[٤]، وسعيد بن المسيب، وابن أبي ليلى: إنّه يجب عليه الحدّ. وذهب الجمهور[٥] أيضاً: أنّ العبد يجلد أربعين جلدة.

وقال ابن مسعود[٦]، وعمر بن عبد العزيز، وقبيصة: يجلد ثمانين.

قال القرطبي[٧]: وأجمع العلماء على: أنّ الحرّ لا يجلد للعبد إذا افترى عليه لتباين مرتبتهما.

وقد ثبت في الصحيح[٨] عنه ﷺ: «أنّ مَنْ قذف مملوكه بالزنا أُقيم عليه الحدّ يوم القيامة إلّا أَنْ يكون كما قال».

[شرط إقامة الحد على من قذف المحصنات]:

ثم ذكر سبحانه شرطاً لإقامة الحدّ على من قذف المحصنات فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾؛ أي: يشهدون عليهنّ بوقوع الزنا منهنّ، ولفظ «ثُمّ» يدلّ على: أنه يجوز أن تكون شهادة الشهود في غير مجلس القذف، وبه قال الجمهور[٩]، وخالف في ذلك مالك[١٠].

وظاهر الآية: أنّه يجوز أن يكون الشهود مجتمعين ومفترقين، وخالف في ذلك الحسن[١١] ومالك[١٢]، وإذا لم تكمل الشهود أربعة كانوا قذفة يحدّون حدّ القذف.

وقال الحسن والشعبي: إنه لا حدّ على الشهود، ولا على المشهود عليه، وبه

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ١٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٢٣)، و«التيسير» (ص٩٥).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان متواترتان فالجمهور بفتح الصاد، والكسائي بكسر الصاد.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٢٥). (٤) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٢٤).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٢٦).
(٦) «الاستذكار» (٢٤/ ١١٩)، و«الإشراف» (٢/ ٦٤).
(٧) في «تفسيره» (١٥/ ١٢٦).
(٨) أخرجه البخاري رقم (٦٨٥٨)، ومسلم رقم (١٦٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٩) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٢٢). (١٠) «الاستذكار» (٢/ ١١٩).
(١١) «الإشراف» (٢/ ٥٣ ـ ٥٤). (١٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٢٤).

قال أحمد[١]، وأبو حنيفة[٢]، ومحمد بن الحسن[٣].

ويردّ ذلك ما وقع في خلافة[٤] عمر رضي الله عنه من جلده للثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالزنا، ولم يخالف في ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنهم.

قرأ الجمهور[٥] «بأربعةِ شهداء» بإضافة أربعة إلى شهداء، وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار، وأبو زرعة بن عَمْرو بتنوين[٦] أربعة.

[أوجه إعراب كلمة ﴿شُهَدَآءَ﴾ في الآية]:

وقد اختلف[٧] في إعراب شهداء على هذه القراءة.

فقيل: هو تمييز. وردّ بأن المميز من ثلاثة إلى عشرة يضاف إليه العدد كما هو مقرّر في علم النحو.

وقيل: إنه في محل نصب[٨] على الحال. وردّ بأن الحال لا يجيء من النكرة التي لم تخصص.

وقيل: إن شهداء في محل جرّ نعتاً لأربعة، ولما كان فيه ألف التأنيث لم ينصرف.

وقال النحاس[٩]: يجوز أن يكون شهداء في موضع نصب على المفعولية؛ أي: ثم لم يحضروا أربعة شهداء، وقد قوّى ابن جني[١٠] هذه القراءة، ويدفع ذلك قول سيبويه[١١]: إن تنوين العدد وترك إضافته إنما يجوز في الشعر.

---

(١) «المغني» (١٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨).

(٢) «شرح معاني الآثار» (٤/ ١٥٣)، و«بدائع الصنائع» (٧/ ٦١).

(٣) انظر: «الإشراف» (٢/ ٥٤)، و«الاستذكار» (٢٤/ ١٢٠).

(٤) علقه البخاري في «صحيحه» قبل الحديث رقم (٢٦٤٨)، وعبد الرزاق رقم (١٣٥٦٤، ١٣٥٦٥، ١٣٥٦٦)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٩٢)، والعماري في «شرح المعاني» (٤/ ١٥٣)، والبيهقي (٨/ ٢٣٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (٧٢٢٧)، والحاكم (٣/ ٤٤٨).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٣١)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١١٦).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٠١)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣). والقراءة بتنوين أربعة شاذة.

(٧) «التبيان» (٢/ ٩٦٥)، و«الفريد» (٣/ ٥٨٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١١٦).

(٨) انظر: المصادر المتقدمة.

(٩) في «إعراب القرآن» له (٣/ ١٢٨).

(١٠) في «المحتسب» (٢/ ١٠١).

(١١) في «الكتاب» (١/ ٢٠٨).

ثم بيَّن سبحانه ما يجب على القاذف فقال: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ الجلد: الضرب كما تقدّم، والمجالدة المضاربة في الجلود أو بالجلود، ثم استعير للضرب بالعصى، والسيف، وغيرهما، ومنه قول قيس بن الخَطيم(١):

أُجَالِدهم يومَ الحديقةِ حَاسِرا ... كأنَّ يدي بالسَّيفِ مخراقُ لاعبِ

وقد تقدّم بيان الجلد قريباً، وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر، وجلدة منتصبة(٢) على التمييز.

[تفسير القاذف وردّ شهادته]:

وجملة ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ معطوفة على اجلدوا؛ أي: فاجمعوا لهم بين الأمرين: الجلد، وترك قبول الشهادة؛ لأنهم قد صاروا [٣/٢٩٢] بالقذف غيرَ عدولٍ بل فسقة كما حكم الله به عليهم في آخر هذه الآية.

واللّام(٣) في (لهم) متعلقة بمحذوف هو: حال من شهادة ولو تأخرت عليها لكانت صفة لها، ومعنى ﴿أَبَدًا﴾: ما داموا في الحياة.

ثم بيَّن سبحانه حكمهم بعد صدور القذف منهم، وإصرارهم عليه، وعدم رجوعهم إلى التوبة، فقال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وهذه جملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها، والفسق: هو الخروج عَنْ الطاعة، ومجاوزة الحدّ بالمعصية، وجوّز أبو البقاء أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال.

ثم بيَّن سبحانه أن هذا التأبيد لعدم قبول شهادتهم هو مع عدم التوبة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ وهذه الجملة في محل(٤) نصب على الاستثناء؛ لأنه من موجَب، وقيل: يجوز أن يكون في موضع(٥) خفض على البدل، ومعنى التوبة قد تقدّم تحقيقه.

ومعنى ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾: من بعد اقترافهم لذنب القذف، ومعنى ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾: إصلاح أعمالهم التي من جملتها ذنب القذف، ومداركة ذلك بالتوبة، والانقياد للحدّ.

---

(١) انظر: «ديوان قيس بن الخطيم» (ص٢٠٧). (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٣٣).

(٣) «الفريد» (٣/ ٥٨٧)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٤).

(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٦٤ ـ ١٦٥)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٤)، و«الفريد» (٣/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٥).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

وقد اختلف[١] أهل العلم في هذا الاستثناء هل يرجع إلى الجملتين قبله؟ وهي: جملة عدم قبول الشهادة، وجملة الحكم عليهم بالفسق، أم إلى الجملة الأخيرة؟.

وهذا الاختلاف بعد اتفاقهم على أنه لا يعود إلى جملة الجلد بل يجلد التائب كالمُصرّ، وبعد إجماعهم أيضاً على أنّ هذا الاستثناء يرجع إلى جملة الحكم بالفسق، فمحل الخلاف هل يرجع إلى جملة عدم قبول الشهادة أم لا؟.

فقال الجمهور[٢]: إنّ هذا الاستثناء يرجع إلى الجملتين، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته، وزال عنه الفسق؛ لأنّ سبب ردّها هو ما كان متصفاً به من الفسق بسبب القذف، فإذا زال بالتوبة بالإجماع كانت الشهادة مقبولة.

وقال القاضي[٣] شُريح، وإبراهيم النخعي، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، ومكحول، وعبد الرحمٰن بن زيد، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة[٤]: إن هذا الاستثناء يعود إلى جملة الحكم بالفسق، لا إلى جملة عدم قبول الشهادة، فيرتفع بالتوبة عَنْ القاذف وصف الفسق، ولا تقبل شهادته أبداً. وذهب الشعبي، والضحاك إلى التفصيل فقالا: لا تقبل شهادته، وإنْ تاب إلّا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذٍ تقبل شهادته.

وقول الجمهور هو الحقُّ؛ لأن تخصيص التقييد بالجملة الأخيرة دون ما قبلها مع كون الكلام واحداً في واقعة شرعية من متكلم واحد خلاف ما تقتضيه لغة العرب، وأولوية الجملة الأخيرة المتصلة بالقيد بكونه قيداً لها لا تنفي كونه قيداً لما قبلها، غاية الأمر: أن تقييد الأخيرة بالقيد المتصل بها أظهر من تقييد ما قبلها به، ولهذا كان مجمعاً عليه، وكونه أظهر لا ينافي قوله فيما قبلها ظاهراً.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٣٣)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٢٧٢)، و«جامع البيان» (١٧/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٢) «المغني» (١٢/ ٣٧٠)، و«روضة الطالبين» (٧/ ٣١٦)، و«الذخيرة» (١٢/ ٧٧)، و«الهداية شرح بداية المبتدي» (٢/ ٣٩٧).

(٣) «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٣٣)، و«المغني» (١٢/ ٣٧٠).

(٤) «الهداية شرح بداية المبتدي» (٢/ ٣٩٧).

وقد أطال أهل[١] الأصول الكلام في القيد الواقع بعد جمل بما هو معروف عند من يعرف ذلك الفنّ، والحق هو هذا، والاحتجاج بما وقع تارة من القيود عائداً إلى جميع الجمل التي قبله، وتارة إلى بعضها لا تقوم به حجة، ولا يصلح للاستدلال، فإنه قد يكون ذلك لدليل كما وقع هنا من الإجماع على عدم رجوع هذا الاستثناء إلى جملة الجلد.

ومما يؤيد ما قررناه ويقوّيه أن المانع من قبول الشهادة، وهو الفسق المتسبب عن القذف قد زال، فلم يبق ما يوجب الردّ للشهادة.

[اختلاف العلماء في صورة توبة القاذف]:

واختلف العلماء في صورة توبة القاذف، فقال عمر بن الخطاب[٢] والشعبي والضحاك وأهل المدينة[٣]: إن توبته لا تكون إلّا بأن يكذّب نفسه في ذلك القذف الذي وقع منه، وأقيم عليه الحدّ بسببه.

وقالت فرقة، منهم مالك وغيره: إن توبته تكون بأن يحسن حاله، ويصلح عمله، ويندم على ما فرط منه ويستغفر الله من ذلك، ويعزم على ترك العود[٤] إلى مثله. وإن لم يكذب نفسه، ولا رجع عن قوله.

ويؤيد هذا الآيات والأحاديث الواردة في التوبة، فإنها مطلقة غير مقيدة بمثل هذا القيد.

[توبة القاذف تمحو ذنوبه]:

وقد أجمعت الأمة على أن التوبة تمحو الذنب، ولو كان كفراً فتمحو ما هو دون الكفر بالأولى هكذا حكى الإجماع القرطبي[٥].

قال أبو عبيد[٦]: الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة، وليس من رمى غيره بالزنا بأعظم جرماً من مرتكب الزنا، والزاني إذا تاب قبلت شهادته؛ لأن «التائب من

(١) «المحصول» للرازي (٣/ ٤٣)، و«إحكام الفصول» للباجي (ص٢٧٧).
(٢) انظر: «جامع البيان» (١٧/ ١٦٣ ـ ١٦٤).
(٣) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٥٠٢).
(٤) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٧٥).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٣٤).
(٦) في «الناسخ» (ص١٥١).

الذنب كمن لا ذنب له»[١]، وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول أولى، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن منها قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤] ولا شك أن هذا الاستثناء يرجع إلى الجميع.

قال الزجاج[٢]: وليس القاذف بأشدّ جرماً من الكافر، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته، قال: وقوله: ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: ما دام قاذفاً، كما يقال: لا تقبل شهادة الكافر أبداً فإن معناه: ما دام كافراً. انتهى.

وجملة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لما تضمنه الاستثناء من عدم المؤاخذة للقاذف بعد التوبة، وصيرورته مغفوراً له، مرحوماً من الرحمٰن الرحيم، غير فاسق، ولا مردود الشهادة، ولا مرفوع العدالة.

[قذف الزوج المرأة التي تحته بعقد نكاح]:

ثم ذكر سبحانه بعد ذكره لحكم القذف على العموم، حكمَ نوعٍ من أنواع القذف، وهو قذف الزوج للمرأة التي تحته بعقد النكاح فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾؛ أي: لم يكن لهم شهداء يشهدون بما رموهنّ به من الزنا (إلا أنفسُهم) بالرفع[٣] على البدل من شهداء.

قيل: ويجوز النصب[٤] على خبر يكن. قال الزجاج: أو على الاستثناء على الوجه المرجوح ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ﴾.

قرأ الكوفيون برفع[٥] «أربعُ» على أنها خبر لقوله: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾؛ أي: فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حدّ القذف أربعُ شهادات.

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٤٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٠٢٨١)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٠٠): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أنَّ أبا عبيدة لم يسمع من أبيه». وهو حديث حسن.

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣١).

(٣) «الفريد» (٣/ ٥٨٨)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٣٣)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١١٧).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «التيسير» (ص١٦١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٣٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٦ ـ ١٧)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٥). الرفع قراءة أهل الكوفة عدا أبا بكر عن عاصم فيقرأ بالنصب.

وقرأ أهل المدينة، وأبو عمرو «أربعَ» بالنصب[(١)] على المصدر. ويكون ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ خبر مبتدأ[(٢)] محذوف؛ أي: فالواجب شهادةُ أحدهم، أو مبتدأ[(٣)] محذوف الخبر؛ أي: فشهادة أحدهم واجبةٌ.

وقيل: إنَّ أربع[(٤)] منصوب بتقدير: فعليهم أَنْ يشهد أحدُهم أربعَ شهادات وقوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بشهادة أو بشهادات.

وجملة ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هي المشهود به، وأصله: «على أنّه» فحذف الجار وكسرت إنّ، وعلق العامل عنها.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ قرأ السبعة وغيرهم «الخامسةُ» بالرفع[(٥)] على الابتداء، وخبرها ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وقرأ أبو عبد الرحمن، وطلحة، وعاصم في رواية حفص «والخامسةَ» بالنصب[(٦)] على معنى وتشهد الشهادة الخامسة.

ومعنى ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ أي: فيما رماها به من الزنا.

قرأ الجمهور بتشديد[(٧)] «أنّ» من قوله: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ وقرأ نافع بتخفيفها[(٨)]، فعلى قراءة نافع يكون اسم أنْ ضمير الشأن، و(لعنةُ الله) مبتدأ، وعليه: خبرُه، والجملة خبر أَنْ، وعلى قراءة الجمهور تكون لعنة الله اسم أنَّ، قال سيبويه[(٩)]: لا تخفف أنّ في الكلام وبعدها الأسماء إلا وأنت تريد الثقيلة.

وقال الأخفش[(١٠)]: لا أعلم الثقيلة إلّا أجود في العربية.

---

(١) «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٣٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٧)، و«النشر» (٢/ ٣٣٠).

(٢) «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١١٧)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٥ - ٩٦٦)، و«الفريد» (٣/ ٥٨٨ - ٥٨٩).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «الفريد» (٣/ ٥٨٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٣٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١١٧).

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ١٧)، و«التيسير» (ص١١٦)، و«النشر» (٢/ ٣٣١)، و«زاد المسير» (٦/ ١٥).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة. القراءة المتواترة برفع (الخامسة) وأما النصب فشاذة، ورواية النصب عن حفص شاذة.

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ١٧)، و«النشر» (٢/ ٣٣٠)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٦).

(٨) «البحر المحيط» (٨/ ١٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٣٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٣٤).

(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٢٩).

(١٠) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ١٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٢٩).

﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾؛ أي: عَنْ المرأة، والمراد بالعذاب: الدنيوي وهو الحدّ، وفاعل يدرأ قولُه: ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ والمعنى: أنّه يدفع عن المرأة الحدّ شهادتُها أربع شهادات بالله: أنّ الزوج ﴿لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. ﴿وَالْخَامِسَةَ﴾ بالنصب[١] عطفاً على أربع؛ أي: وتشهد الخامسة، كذلك قرأ حفص والحسن والسلمي وطلحة والأعمش.

وقرأ الباقون بالرفع[٢] على الابتداء، وخبره ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ﴾ الزوج ﴿مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما رماها به من الزنا.

[لم خُصّص الغضب بالمرأة؟]:

وتخصيص الغضب بالمرأة للتغليظ عليها لكونها أصلَ الفجور ومادّته، ولأنّ النساء يُكْثرن اللعن في العادة، ومع استكثارهنّ منه لا يكون له في قلوبهنّ كبير موقع بخلاف الغضب.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ جواب لولا محذوف[٣].

قال الزجاج[٤]: المعنى: ولولا فضل الله لنال الكاذب منهما عذاب عظيم.

ثم بيَّن سبحانه كثير توبته على مَنْ تاب، وعظيم حكمته البالغة فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: يعود على من تاب إليه، ورجع عن معاصيه بالتوبة عليه، والمغفرة له، حكيم فيما شرع لعباده من اللعان، وفرض عليهم من الحدود.

وقد أخرج أبو داود في ناسخه، وابن المنذر، عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قال: تاب الله عليهم من الفسوق، وأما الشهادة فلا تجوز.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، عن عمر بن الخطاب[٦]، أنه قال لأبي بكرة: إنْ تبتَ قبلتُ شهادتك.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ١٧)، و«النشر» (٢/ ٣٣١)، و«التيسير» (ص١١٦).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ١٧)، و«التيسير» (ص١١٦)، و«التبصرة» (ص٦٠٩).

(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٢٤٧).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٣).

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٣١).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٦٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٥٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٦٩) من طريق سفيان، عن الزهري، عن سعيد، عن عمر.

وأخرج ابن مردويه[1] عنه قال: توبتهم إكذابهم أنفسهم، فإن أكذبوا أنفسهم قبلت شهادتهم.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس[2] قال: من تاب وأصلح فشهادته في كتاب الله تقبل.

وفي الباب روايات عن التابعين. وقصة قذف المغيرة في خلافة عمر مروية من طرق معروفة.

[قصة قذف هلال بن أمية امرأته]:

وأخرج البخاري، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن عباس[3]: «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سَحْماء، فقال النبي ﷺ: البينة، وإلّا حدّ في ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدُنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول: البينة وإلّا حدّ في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلنّ الله ما يبرئ ظهري من الحدّ، ونزل جبريل فأنزل عليه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد، والنبي ﷺ يقول: الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب [٣/٢٩٣]؟، ثم قامت فشهدت، فلما كانت عند الخامسة وقفوها، وقالوا إنها موجبة، فتلكأت ونكصتْ حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فمضت، فقال النبيّ ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الألْيتين خَدَلَّج الساقين فهو لشريك بن سحماء، فجاءت به كذلك، فقال النبيّ ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن».

وأخرج هذه القصة أبو داود الطيالسي، وعبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٣١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٧٢)، والبيهقي (١٠/ ١٥٣) بسند صحيح.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٢٦٧١، ٤٧٤٧)، والترمذي رقم (٣١٧٩)، وابن ماجه رقم (٢٠٦٧).

ابن عباس[١] مطوّلة.

وأخرجها[٢] البخاري، ومسلم، وغيرهما، ولم يسموا الرجل ولا المرأة. وفي آخر القصة: أن النبيّ ﷺ قال له: «اذهب فلا سبيل لك عليها، فقال: يا رسول الله مالي، قال: لا مال لك، إنْ كنتَ صدقت عليها، فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنتَ كذبت عليها، فذاك أبعد لك منها».

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما، عن سهل بن سعد[٣] قال: «جاء عويمر إلى عاصم بن عديّ، فقال: سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله، أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ: فعاب رسول الله ﷺ السائل، فقال عويمر: والله لآتينّ رسول الله ﷺ لأسألنه، فأتاه، فوجده قد أنزل عليه، فدعا بهما، فلاعن بينهما. قال عويمر: إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها، ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ، فصارت سُنَّة للمتلاعنين، فقال رسول الله ﷺ: أبصروها، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين، فلا أراه إلّا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة، فلا أراه إلّا كاذباً، فجاءت به مثل النعت المكروه»، وفي الباب أحاديث كثيرة، وفيما ذكرنا كفاية.

[المتلاعنان لا يجتمعان أبداً]:

وأخرج عبد الرزاق عن عمر بن الخطاب[٤]، وعليّ[٥]، وابن مسعود، قالوا: لا يجتمع المتلاعنان أبداً.

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢١٣١)، وعبد الرزاق رقم (١٢٤٤٤)، والطيالسي رقم (٢٧٨٩)، وأبو داود رقم (٢٢٥٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٨٠ ـ ١٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٣٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٢٣٧)، والبيهقي (٧/ ٣٩٤). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٥٣٤٩، ٥٣٥٠)، ومسلم رقم (١٤٩٣).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٢٣، ٥٣٠٩)، ومسلم رقم (١٤٩٢)، وأبو داود رقم (٢٢٤٥)، والنسائي رقم (٣٤٠٢)، وابن ماجه رقم (٢٠٦٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٨٦)، وعبد الرزاق رقم (١٢٤٤٦)، والطبراني رقم (٥٦٧٤، ٥٦٧٨).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٢٤٣٣).

(٥) أخرجه عنهما عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٢٤٣٤) و(١٢٤٣٦).

[قصة الإفك]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

خبر (إنّ) من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ هو: ﴿عُصْبَةٌ﴾، و﴿مِّنكُمْ﴾ صفة لعصبة، وقيل: هو ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾، ويكون عصبة[(١)] بدلاً من فاعل جاءوا.

قال ابن عطية[(٢)]: وهذا أنسق في المعنى، وأكثر فائدة من أن يكون الخبر عصبة.

وجملة لا تحسبوه، وإنْ كانت طلبيةً، فجعلها خبراً يصح بتقدير كما في نظائر ذلك.

والإفك[(٣)]: أسوأُ الكذب وأقبحه، وهو مأخوذ من أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه.

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٢٥٢)، و«الإملاء» (٤/ ٧٣)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٦)، و«الفريد» (٣/ ٥٩١).

(٢) في «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٧٨).

(٣) «الصحاح» (٤/ ١٥٧٢ ـ ١٥٧٣)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٣٩٥)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٩).

فالإفك هو: الحديثُ المقلوب، وقيل: هو البُهْتان.

وأجمع المسلمون[١] على أنّ المراد بما في الآية: ما وقع من الإفك على عائشة أمّ المؤمنين، وإنما وصفه الله بأنّه إفك؛ لأن المعروف من حالها رضي الله عنها خلاف ذلك.

قال الواحدي[٢]: ومعنى القلب في هذا الحديث الذي جاء به أولئك النفر: أن عائشة رضي الله عنها كانت تستحق الثناء بما كانت عليه مِنْ الحصَانة، وشرف النسب والسبب لا القذف، فالذين رموها بالسوء قلبوا الأمر عَن وجهه، فهو إفكٌ قبيح، وكذب ظاهر.

والعُصْبة: هم الجماعة مِنْ العشرة إلى الأربعين، والمراد بهم هنا: عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، ومَنْ ساعدهم.

وقيل: العُصْبة من الثلاثة[٣] إلى العشرة، وقيل: من عشرة إلى خمسة عشر[٤]، وأصلها في اللغة[٥] الجماعة الذين يتعصّب بعضُهم لبعضٍ.

وجُملة ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ إنْ كانت خبراً لإنّ فظاهرٌ، وإن كان الخبر عصبة كما تقدّم، فهي مستأنفة، خوطب بها النبي ﷺ، وعائشة، وصفوان بن المعطّل الذي قُذف مع أمّ المؤمنين، وتسلية لهم، والشرّ[٦] ما زاد ضرّه على نفعه، والخير[٦] ما زاد نفعه على ضرّه، وأما الخير الذي لا شرّ فيه فهو: الجنة، والشرّ الذي لا خير فيه فهو: النار.

ووجه كونه خيراً لهم أنه يحصل لهم به الثواب العظيم مع بيان براءة أمّ المؤمنين، وصيرورة قصتها هذه شرعاً عامًّا ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ﴾ ـ أي: ـ ﴿مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾: بسبب تكلّمه بالإفك.

---

(١) «روح المعاني» (١٨/٢٥٦). (٢) في «الوسيط» (٣/٣٠٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٣١٦)، عن ابن عباس بسند ضعيف الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٣١٦)، عن مجاهد بسند صحيح.

(٥) «تهذيب اللغة» (٢/٤٥)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٦٨).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/١٦٤).

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قرأ الحسنُ، والزهري، وأبو رجاء، وحميد الأعرج، ويعقوب، وابن أبي عبلة، ومجاهد، وعمرة بنت عبد الرحمٰن بضمّ الكاف[١].

قال الفرّاء[٢]: وهو وجه جيد؛ لأن العرب تقول: فلان تولى عظيم كذا وكذا؛ أي: أكبره، وقرأ الباقون بكسرها[٣]. قيل: هما لغتان، وقيل: هو بالضم معظم الإفك، وبالكسر البداءة به، وقيل: هو بالكسر الإثم.

فالمعنى: إن الذي تولى مُعظم الإفك من العُصْبة له عذاب عظيم في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما.

[من الذي تولّى كبره؟]:

واختلف في هذا الذي تولى كبره من عصبة الإفك من هو منهم؟، فقيل: هو عبد الله بن أبيّ، وقيل: هو حسان، والأوّل هو الصحيح[٤].

وقد روى محمد بن إسحاق[٥] وغيره أنَّ النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة، وهم مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش.

وقيل: جلد عبد الله بن أبيّ، وحسان بن ثابت، وحمنة، ولم يجلد مسطحاً؛ لأنه لم يُصرّح بالقذف، ولكن كان يسمع ويشيع من غير تصريح. وقيل: لم يجلد أحداً منهم[٦].

[من حُدُّوا في حادثة الإفك]:

قال القرطبي[٧]: المشهور من الأخبار، والمعروف عند العلماء: أن الذين حُدّوا: حسان، ومسطح، وحمنة. ولم يسمع بحدّ لعبد الله بن أبيّ، ويؤيد هذا ما

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠١)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٣ ـ ١٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢١).
قراءة ضم الكاف مِنْ كلمة «كُبره» متواترة وبها قرأ يعقوب كما ذكره المؤلف.

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤٧).

(٣) «النشر» (٢/ ٣٣١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢١)، و«جامع البيان» (١٧/ ١٩٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٥٦).

(٤) «جامع البيان» (١٧/ ١٩٧).

(٥) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣٠٢).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٦٨)، عن القُشَيْري.

(٧) في «تفسيره» (١٥/ ١٧٠).

في سنن أبي داود[١] عن عائشة، قالت: لما نزل عُذْري، قام النبي ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدّهم، وسماهم: حسّان، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش.

واختلفوا[٢] في وجه تركه ﷺ لجلد عبد الله بن أُبيّ، فقيل: لتوفير العذاب العظيم له في الآخرة، وحُدّ من عداه ليكون ذلك تكفيراً لذنبهم كما ثبت عنه ﷺ في الحدود أنَّه قال: «إنَّها كفارة لمن أقيمت عليه».

وقيل[٣]: ترك حدّه تألفاً لقومه، واحتراماً لابنه، فإنّه كان من صالحي المؤمنين، وإطفاء لثائرة الفتنة، فقد كانت ظهرت مباديها مِنْ سعد بن عبادة ومن معه كما في «صحيح مسلم»[٤].

ثم صرف سبحانه الخطاب عن رسول الله ﷺ ومن معه إلى المؤمنين بطريق الالتفات[٥] فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ «لولا» هذه هي التحضيضية[٦] تأكيداً للتوبيخ، والتقريع، ومبالغة في معاتبتهم؛ أي: كان ينبغي للمؤمنين حين سمعوا مقالة أهل الإفك أن يقيسوا ذلك على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم، فهو: في أمّ المؤمنين أبعد.

قال الحسن[٧]: معنى بأنفسهم بأهل دينهم؛ لأنّ المؤمنين كنفس واحدة ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

قال الزجّاج[٨]: ولذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضاً: إنهم يقتلون أنفسَهم.

قال المبرّد[٩]: ومثله قوله سبحانه: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٤٧٤)، وأحمد رقم (٢٤٠٦٦)، والترمذي رقم (٣١٨١)، وابن ماجه رقم (٢٥٦٧). وهو حديث حسن.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٧٠ ـ ١٧١). وحديث «إنَّها كفارة لمن أقيمت عليه» بهذا اللفظ لم يرد، وقد جاء بمعناه عند البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً وفيه: «ومَنْ أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له».

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٣/ ١٧٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٥٦/ ٢٧٧٠) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٢١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٦١).

(٦) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٩٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٦١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢١).

(٧) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣١١). (٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٦).

(٩) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣١١).

قال النحاس(١): بأنفسهم بإخوانهم، فأوجب الله سبحانه على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً، ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أَنْ يُنكروا عليه ويُكذّبوه.

قال العلماء(٢): إن في الآية دليلاً على أن درجة الإيمان والعفاف لا يزيلها الخبر المُحتمل وإنْ شاع ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: قال المؤمنون عند سماع الإفك: هذا إفك ظاهر مكشوف.

وجملة ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ من تمام ما يقوله المؤمنون؛ أي: وقالوا: هلّا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الخائضون في الإفك ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ أي: في حكم الله تعالى هم الكاذبون الكاملون في الكذب ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هذا خطاب للسامعين، وفيه زجرٌ عظيم.

﴿وَلَوْلَا﴾ هذه هي لامتناع الشيء لوجود غيره ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك، يقال: أفاض في الحديث، واندفع وخاض.

والمعنى: لولا أنّي قضيتُ عليكم بالفضل في الدنيا بالنِّعَم التي من جملتها الإمهال، والرحمة في الآخرة بالعفو، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك(٣).

وقيل(٤): المعنى: لولا فضلُ الله عليكم لمسّكم العذاب في الدنيا والآخرة معاً، ولكن برحمته ستر عليكم في الدنيا [٣/٢٩٤]، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ الظرف منصوب(٥) بمسّكم، أو بأفضتم.

---

(١) في «إعراب القرآن» له (٣/ ١٢٩).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٧٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٤٣).
(٣) «الوسيط» (٣/ ٣١١)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٢٨٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٧٣)، و«جامع البيان» (١٧/ ٢١٤).
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٢٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٧٣)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٣١١).
(٥) «التبيان» (٢/ ٩٦٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢)، و«الفريد» (٣/ ٥٩٢).

قرأ الجمهور[١]: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ مِنْ التلقّي، والأصل تتلقونه، فحذف إحدى التاءين.

قال مقاتل[٢]، ومجاهد[٣]: المعنى يرويه بعضُكم عن بعض.

قال الكلبي[٤]: وذلك أنّ الرجلَ منهم يلقى الرجل فيقول: بلغني كذا، وكذا، ويتلقونه تلقياً.

قال الزجَّاج[٥]: معناه يلقيه بعضُكم إلى بعض.

وقرأ محمد بن السَّميفع[٦] بضم التاء، وسكون اللام، وضم القاف، من الإلقاء، ومعنى هذه القراءة واضح.

وقرأ أُبيّ، وابن مسعود «تتلقونه»[٧] مِنْ التلقي، وهي كقراءة الجمهور.

وقرأ ابن عباس[٨]، وعائشة، وعيسىٰ بن عمر، ويحيىٰ بن يَعْمُر، وزيد بن عليّ بفتح التاء، وكسر اللام، وضم القاف، وهذه القراءة مأخوذة من قول العرب، وَلَق الرجل يَلِقُ وَلْقاً: إذا كَذَبَ.

قال ابن سِيْده[٩]: جاءوا بالمتعدّي شاهداً على غير المتعدّي.

قال ابن عطية[١٠]: وعندي أنّه أراد يلقون فيه، فحذف حرف الجرّ، فاتصل الضمير.

قال الخليل[١١]، وأبو عَمْرو[١٢]: أصل الوَلْق الإسراع، يقال: جاءت الإبل تَلِقُ؛ أي: تُسْرع، ومنه قول الشاعر:

---

(١) «التيسير» (ص٤٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٧٣)، و«جامع البيان» (١٧/ ٢١٥).
قراءة الجمهور هي المتواتر، وما عداها من القراءات التي ذكرها المؤلف فشاذة.

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣١١).

(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣١١)، وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٤٨) بسند صحيح.

(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣١١).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٨).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٢٢)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠٠).

(٨) «المحتسب» (٢/ ١٠٤)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢).

(٩) في «المحكم» كما في «البحر المحيط» (٨/ ٢٢).

(١٠) في «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٨٢).

(١١) في كتاب «العين» (ص١٠٦٧).

(١٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٧٤).

لـمَّـا رأوا جَـيْـشـاً عـلـيـهـم قـد طَـرَقْ جـاءُوا بـأسـرابٍ مـن الـشَّـامِ وَلَـقْ[١]

وقال الآخر:[٢]

جـاءت بـه عَـنْـسٌ مـن الـشـام تَـلِـقْ[٣]

قال أبو البقاء[٤]: أي: يسرعون فيه.

قال ابن جرير[٥]: وهذه اللفظة؛ أي: «تلقونه» على القراءة الأخيرة مأخوذة من الولق، وهو: الإسراع بالشيء بعد الشيء كعدد في إثر عدد، وكلام في إثر كلام.

وقرأ زيد بن أسلم[٦]، وأبو جعفر «تَأْلِقُونه» بفتح التاء، وهمزة ساكنة، ولام مكسورة، وقاف مضمومة من الألق، وهو: الكذب.

وقرأ يعقوب[٧] «تِيلَقُونه» بكسر التاء من فوق بعدها ياء تحتية ساكنة، ولام مفتوحة، وقاف مضمومة، وهو: مضارع ولِق بكسر اللّام.

ومعنى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أن قولهم هذا مختصّ بالأفواه من غير أن يكون واقعاً في الخارج معتقداً في القلوب.

وقيل: إنّ ذكر الأفواه للتأكيد كما في قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ونحوه، والضمير في تحسبونه راجع إلى الحديث الذي وقع الخوض فيه والإذاعة له ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾؛ أي: شيئاً يسيراً لا يلحقكم فيه إثم.

وجملة ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في محل نصب على الحال[٨]؛ أي: عظيمٌ ذنبُه وعقابه.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ هذا عتاب لجميع المؤمنين؛ أي: هلّا إذا سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيباً للخائضين فيهم المفترين له ما ينبغي

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٧٤).
(٢) هو: للشمّاخ بن ضرار الذبياني. انظر: «ديوانه» (ص٤٥٢ ـ ٤٥٣).
(٣) وصدر البيت:
إنَّ الـجُـلَـيـد زَلِـقٌ وزُمَّـلِـقْ ....
الجليد: هو الجليد الكلابي. والعنس: الناقة الصلبة.
(٤) في «التبيان» (٢/ ٩٦٧).
(٥) في «جامع البيان» (١٧/ ٢١٦).
(٦) «روح المعاني» (١٨/ ٢٦٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢).
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١٠٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٦٥).
(٨) «روح المعاني» (١٨/ ٢٦٦).

لنا، ولا يمكننا أن نتكلم بهذا الحديث، ولا يصدر ذلك منا بوجه من الوجوه.

ومعنى قوله: ﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ التعجّب[١] من أولئك الذين جاءوا بالإفك، وأصله التنزيه لله سبحانه، ثم كَثُر حتى استُعمل في كلّ متعجب منه، والبهتان هو: أن يقال في الإنسان ما ليس فيه؛ أي: هذا كذب عظيم لكونه قيل في أمّ المؤمنين رضي الله عنها، وصدوره مستحيل شرعاً من مثلها.

[الإيمان يقتضي عدم الوقوع في قذف المحصنات]:

ثم وعظ سبحانه الذين خاضوا في الإفك فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾؛ أي: ينصحكم الله، أو يُحرّم عليكم، أو ينهاكم كراهةَ أن تعودوا، أو مِنْ أن تعودوا، أو في أنْ تعودوا لمثل هذا القذف مدّةَ حياتكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي عدم الوقوع في مثله ما دمتم، وفيه تهييج[٢] عظيم وتقريعٌ بالغ.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ في الأمر والنهي لتعملوا بذلك، وتتأدبوا بآداب الله، وتنزجروا عن الوقوع في محارمه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما تبدونه وتخفونه ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيراته لخلقه.

ثم هدّد[٣] سبحانه القاذفين، ومَنْ أراد أن يتسامع الناس بعيوب المؤمنين، وذنوبهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: يحبون أن تفشو الفاحشة وتنتشر، من قولهم: شاع الشيء يشيع شيوعاً، وشيعاً، وشيعاناً: إذا ظهر وانتشر.

والمراد بالذين آمنوا: المُحْصنون العفيفون، أو كلّ من اتصف بصفة الإيمان، والفاحشة هي: فاحشة الزنا، أو القول السيء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بإقامة الحدّ عليهم ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ بعذاب النار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميعَ المعلومات ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إلّا ما علمكم به وكشفه لكم، ومن جملة ما يعلمه الله عظم ذنب القذف، وعقوبة فاعله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ هو: تكرير لما تقدّم تذكيراً للمنّة منه سبحانه على عباده بترك المعاجلة لهم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن رأفته بعباده أن لا

(١) «تفسير أبي السعود» (٥/٩٨)، و«روح المعاني» (١٨/٢٦٦).
(٢) «روح المعاني» (١٨/٢٧١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٩٨).
(٣) «جامع البيان» (١٧/٢١٩ ـ ٢٢٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/١٧٧).

يعاجلهم بذنوبهم، ومن رحمته لهم أن يتقدّم إليهم بمثل هذا الإعذار والإنذار.

وجملة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ معطوفة على فضل الله، وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ أي: لعاجلكم بالعقوبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ الخُطوات[١] جمع خطوة، وهي: ما بين القدمين، والخَطْوة بالفتح المصدر؛ أي: لا تتبعوا مسالك الشيطان ومذاهبه، ولا تسلكوا طرائقه التي يدعوكم إليها.

قرأ الجمهور[٢] «خُطُوات» بضم الخاء، والطاء، وقرأ عاصم، والأعمش بضم الخاء، وإسكان الطاء.

﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ قيل: جزاء الشرط محذوف أُقيم مقامه ما هو علة له، كأنّه قيل: فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأنّ دأبه أَنْ يستمرّ آمراً لغيره بهما، والفحشاء: ما أُفرط قبحه، والمنكر ما ينكره الشرع، وضمير إنه للشيطان.

وقيل: للشأن، والأولى أَنْ يكون عائداً إلى من يتبع خطوات الشيطان؛ لأن من اتبع الشيطان صار مقتدياً به في الأمر بالفحشاء والمنكر ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ قد تقدّم بيانه، وجواب[٣] «لولا» هو قوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾؛ أي: لولا التفضّل، والرحمة مِنْ الله ما طهر أحد منكم نفسه مِنْ دنسها ما دام حياً.

قرأ الجمهور[٤] «زكى» بالتخفيف، وقرأ الأعمش، وابن محيصن، وأبو جعفر بالتشديد[٥]؛ أي: ما طهره الله.

وقال مقاتل[٦]: أي: ما صلح.

---

(١) «تهذيب اللغة» (٧/ ٤٩٥)، و«الصحاح» (٦/ ٢٣٢٨).

(٢) «التيسير» (ص٧٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٧٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٧٤)، و«حاشية الجمل» (٣/ ٢١٤). الذي قرأ بضم الطاء مع الخاء هو قنبل عن ابن كثير والبزي في وجه عنه وحفص عن عاصم وابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب، وقرأ الباقون بإسكان الطاء وهو الوجه الثاني للبزي.

(٣) «التبيان» (٢/ ٩٦٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، و«الفريد» (٣/ ٥٩١).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٢٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٧٨)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٧).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١٠١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣١).

(٦) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣١٢).

والأولى تفسير زكى بالتطّهر والتطهير، وهو الذي ذكره ابن قتيبة[(١)].

قال الكسائي[(٢)]: إنّ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ مُعْتَرِض.

وقوله[(٣)]: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ جواب لقوله: أوّلاً، وثانياً، ولولا فضل الله.

وقراءة التخفيف[(٤)] أَرْجح لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾؛ أي: من عباده بالتفضّل عليهم، والرحمة لهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولونه ﴿عَلِيمٞ﴾ بجميع المعلومات، وفيه حثّ بالغ على الإخلاص[(٥)]، وتهييج عظيم لعباده التائبين، ووعيد شديد لمن يتبع الشيطان، ويحبّ أن تشيع الفاحشة في عباد الله المؤمنين، ولا يزجر نفسه بزواجر الله سبحانه.

[سبب نزول الآيات واختصار أحداث حادثة الإفك]:

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وأهل السُّنن، وغيرهم حديث عائشة[(٦)] الطويل في سبب نزول هذه الآيات بألفاظٍ متعدّدة، وطرق مختلفة. حاصله: أن سبب النزول هو: ما وقع من أهل الإفك الذين تقدّم ذكرهم في شأن عائشة ﵂، وذلك أنها خرجت من هودجها تلتمس عِقْداً لها انقطع من جزع، فرحلوا وهم يظنون أنها في هودجها، فرجعت وقد ارتحل الجيش والهودج معهم، فأقامت في ذلك المكان، ومرّ بها صفوان بن المُعطّل، وكان متأخراً عن الجيش، فأناخ راحلته، وحملها عليها؛ فلما رأى ذلك أهل الإفك قالوا ما قالوا، فبرَّأها الله مما قالوه.

هذا حاصل القصة مع طولها، وتشعب أطرافها فلا نطول بذكر ذلك.

وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، وأهل السُّنن الأربع، وابن

(١) في «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٠٢).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٧٩). (٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٧٩).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٢٤)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٧)، وقد تقدم ذكره.
(٥) «روح المعاني» (١٨/ ٢٧٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٠١).
(٦) أخرجه البخاري رقم (٤٧٥٠)، ومسلم رقم (٢٧٧٠)، وأحمد رقم (٢٥٦٢٣)، وعبد الرزاق رقم (٩٧٤٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٩٧ ـ ٢٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٣٩ ـ ٢٥٤٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٠٢٨).

المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن عائشة(١) قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ على المنبر فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسّان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس(٢) قال: الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبيّ ابن سلول، ومسطح، وحسان، وحمنة بنت جحش.

وأخرج البخاري، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن الزهري(٣) قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولى كبره منهم عليّ، فقلتُ: لا، حدثني سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كلهم سمع عائشة تقول: الذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبيّ، قال: فقال لي: فما كان جرمه؟ قلت: حدّثني شيخان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام أنهما سمعا عائشة تقول: كانَ مسيئاً في أمري.

[الذي تولى كبره هو عبد الله بن أُبيّ]:

وقال يعقوب بن شيبة(٤) في «مسنده»: حدّثنا الحسن بن عليّ الحلواني، حدّثنا الشافعي، حدّثنا عمي قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان الذي تولى كبره مَنْ هو [٣/٢٩٥]؟ قال: عبد الله بن أُبيّ. قال: كذبْتَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٥٥)، وفي «المصنف» رقم (٩٧٤٩)، وأحمد رقم (٢٤٠٦٦)، وأبو داود رقم (٤٤٧٤)، والترمذي رقم (٣١٨١)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (٧٣٥١)، وابن ماجه رقم (٢٥٦٧)، وابن مردويه كما في «فتح الباري» (٨/ ٤٥٦)، والطبراني (ج١٣ رقم ٢٦٣)، والبيهقي (٤/ ٧٤). وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٦/ ١٩٥ ـ ١٩٦)، والطبراني (ج٢٣ رقم ١٦٩) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٧٤٩)، والطبراني (ج٢٣ رقم ١٨٠)، وابن مردويه كما في «فتح الباري» (٨/ ٤٥١)، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٧٢).

(٤) ذكره الحافظ في «فتح الباري» (٧/ ٤٣٧).

هو عليّ. قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهري فقال: يا ابن شهاب مَنْ الذي تولّى كِبرَه؟ فقال: ابن أُبيّ. قال: كذبتَ هو عليّ. قال: أنا أكذبُ؟ لا أبا لك، واللهِ لو نادى منادٍ مِنْ السماء أن الله قد أحلّ الكذب ما كذبت، حدّثني عروة، وسعيد، وعبد الله، وعلقمة عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن مسروق(١) قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشبّب وقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزنُّ بريبةٍ وتُصبحُ غَرْثى من لُحومِ الغَوَافلِ

قالت: لكنّك لستَ كذلك، قلتُ: تدعين مثل هذا يدخل عليك، وقد أنزل الله ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقالت: وأيّ عذاب أشدّ مِنْ العمى؟.

[موقف أبي أيوب وزوجه من أهل الإفك]:

وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عن بعض الأنصار(٢): أن امرأة أبي أيوب قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى وذلك الكَذِبُ، أكنتِ أنتِ فاعلة ذلك يا أمّ أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة واللهِ خيرٌ منك، وأطيب، إنما هذا كذب وإفك باطل؛ فلما نزل القرآن ذكر الله مَنْ قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك.

ثم قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: كما قال أبو أيوب، وصاحبته.

وأخرج الواقدي، والحاكم، وابن عساكر عن أفلح مولى أبي أيوب(٣): أن أمّ أيوب، فذكر نحوه.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤١٤٦، ٤٧٥٦)، ومسلم رقم (٢٤٨٨/١٥٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩٤/١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٥٤٥/٨)، والطبراني (ج٢٣ رقم ١٧٦ ـ ١٧٩).

(٢) أخرجه ابن إسحاق (٣٠٢/٢ ـ «سيرة ابن هشام»)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢١٢)، وفي «تاريخه» (٦١٧/٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٥٤٦/٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/١٦، ٤٩) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه الواقدي في «المغازي» (٤٣٤/٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٩/١٦ رقم ٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (٢١٧/١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٥٤٨/٨)، =

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس(١) ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ قال: يُحرّج الله عليكم.

وأخرج البخاري في الأدب، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن عليّ بن أبي طالب(٢) قال: القائل الفاحشة والذي يُشيعُ بها في الإثم سواء.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس(٣) في قوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ قال: ما اهتدى أحد من الخلائق لشيء من الخير.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾؛ أي: يَحْلِف(٤)، وزنُه: يَفْتعل من الألْية، وهي اليمين، ومنه قول الشاعر:

= والطبراني (ج٢٣ رقم ١٩٨)، والحاكم كما في «فتح الباري» (٨/ ٤٨٢)، والفريابي كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٦٥).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٤٩)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٢٠٨) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٣٢٤)، والبيهقي رقم (٩٣٨٨). وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٥٣) بسند صحيح.

(٤) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٣٢٢).

تَـألَّـى ابـنُ أوسٍ حَـلْـفـةً لـيـردَّنِـي إلـى نِـسـوةٍ كـأنَّـهـنَّ مَـفَـائـدُ[١]

وقول الآخر:

قـلـيـلُ الأَلَايـا حـافـظٌ لـيـمـيـنـهِ وإنْ بَـدَرتْ مـنـه الأَلْـيـةُ بَـرَّتِ[٢]

يقال: ائتلى يأتلي إذا حلف. ومنه قوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦].

وقالت فرقة[٣]: هو من ألوتُ في كذا إذا قصرتُ، ومنه لم آل جهداً: أي: لم أُقصّر، وكذا منه قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨] ومنه قول الشاعر:

ومـا الـمَـرءُ مـا دامـت حُـشـاشـة نـفـسِـه بـمـدرك أطـرافِ الـخُـطـوب ولا آل

والأوّل أولى بدليل سبب النزول، وهو ما سيأتي.

والمراد بالفضل: الغنى والسعة في المال. ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: على أنْ لا يؤتوا.

قال الزجّاج[٤]: أنْ لا يؤتوا فحذف لا، ومنه قول الشاعر:

فـقـلـتُ يـمـيـنُ الـلَّـهِ أبـرحُ قـاعِـدا ولو قطَّعوا رأسي لديكِ وأَوْصَالي[٥]

وقال أبو عبيدة[٦]: لا حاجة إلى إضمار لا.

والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يُحْسنوا إلى المستحقين للإحسان، الجامعين لتلك الأوصاف، وعلى الوجه الآخر يكون المعنى: لا يُقصّروا في أن يحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم شحناء لذنب اقترفوه.

وقرأ أبو حيوة «إن تؤتوا» بتاء[٧] الخطاب على الالتفات.

ثم علمهم سبحانه أدباً آخر، فقال: ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عن ذنبهم الذي أذنبوه عليهم،

---

(١) البيت لزيد الفوارس بن حصين الضبي. انظر: «خزانة الأدب» (١٠/ ٦٥)، و«شرح ديوان الحماسة» (٢/ ٥٥٧).

(٢) هو لكثير. انظر: «ديوانه» (ص٨٥)، وقد تقدم، وفيه: فإن سبقت، بدل: وإن بَدَرت.

(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٨٦).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٦).

(٥) البيت لامرئ القيس. انظر: «ديوانه» (ص٣٢).

(٦) في «مجاز القرآن» (٢/ ٦٥).

(٧) «القراءات الشاذة» (ص١٠١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٧٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥). وهي قراءة شاذة.

وجنايتهم التي اقترفوها، مِنْ عفا الرَّبْعُ(١): أي: دَرَسَ، والمراد محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الرَّبع ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ بالإغضاء عن الجاني، والإغماض عن جنايته، وقُرئ بالفوقية(٢) في الفعلين جميعاً.

ثم ذكر سبحانه ترغيباً عظيماً لمن عفا وصفح، فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ بسبب عفوكم وصفحكم عن الفاعلين للإساءة عليكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده مع كثرة ذنوبهم، فكيف لا يقتدي العباد بربهم في العفو والصفح عَنْ المسيئين إليهم؟.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ قد مرّ تفسير المحصنات، وذكرنا الإجماع(٣) على أنّ حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حدّ القذف.

وقد اختُلف في هذه الآية هل هي خاصة أو عامة؟

فقال سعيد بن جبير(٤): هي خاصة فيمن رمى عائشة رضي الله عنها.

وقال مقاتل(٥): هي خاصة بعبد الله بن أبيّ رأس المنافقين.

وقال الضحاك(٦)، والكلبي(٧): هذه الآية هي في عائشة وسائر أزواج النبيّ ﷺ دون سائر المؤمنين والمؤمنات، فمن قذف إحدى أزواج النبيّ ﷺ، فهو مِنْ أهل هذه الآية.

[توبة القاذف]:

قال الضحّاك(٨): ومن أحكام هذه الآية: أنه لا توبة لمن رمى إحدى

---

(١) «تهذيب اللغة» (٣/ ٢٢٢)، و«الصحاح» (٦/ ٢٤٣١ ـ ٢٤٣٢).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠١)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٧٨). القراءة بالفوقية شاذة.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٨٢).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ١٦٢، ٢٢٧)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٢٢٧) من طريق ابن نفيل، به.

(٥) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣٤).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) بسند حسن.

(٧) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣٤).

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٨٢)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣٤).

أزواجه ﷺ، ومَنْ قذف غيرهنّ فقد جعل الله له التوبة كما تقدّم في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النور: ٥].

وقيل: إنّ هذه الآية خاصة بمن أصرّ على القذف ولم يتب.

وقيل: إنها تعم كلّ قاذف ومقذوف من المحصنات والمحصنين، واختاره النحاس[(١)]، وهو: الموافق لما قرّره أهل الأصول من أَنّ الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقيل: إنها خاصة بمشركي مكة[(٢)]؛ لأنهم كانوا يقولون للمرأة إذا خرجت مهاجرة: إنما خرجت لتفجر.

قال أهل العلم[(٣)]: إنْ كان المراد بهذه الآية المؤمنون من القذفة، فالمراد باللعنة الإبعاد، وضرب الحدّ، وهجر سائر المؤمنين لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة، والبُعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين.

وإنْ كان المراد بها من قذف عائشة خاصة كانت هذه الأمور في جانب عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين.

وإنْ كانت[(٤)] في مشركي مكة فإنهم ملعونون ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

والمراد بالغافلات: اللّاتي غَفَلْن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهنّ ولا يفطنّ لها، وفي ذلك من الدلالة على كمال النزاهة وطهارة الجيب ما لم يكن في المحصنات.

وقيل: هنّ السليمات الصدور، النقيات القلوب ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ هذه الجملة مقرِّرة لما قبلها مُبيِّنة لوقت حلول ذلك العذاب بهم، وتعيين اليوم لزيادة التهويل بما فيه من العذاب الذي لا يحيط به وصف.

وقرأ الجمهور «يوم تَشْهد» بالفوقية[(٥)]، واختار هذه القراءة أبو حاتم[(٦)].

---

(١) في «إعراب القرآن» له (٣/ ١٣٢).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٨٢)، والرازي في «تفسيره» (٢٣/ ١٧٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٨٣)، و«جامع البيان» (١٧/ ٢٣٠)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «النشر» (٢/ ٢٣١)، و«التيسير» (ص١٦١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٨٣).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٨٣).

وقرأ الأعمش، ويحيىٰ بن وثّاب، وحمزة، والكسائي، وخَلَفٌ بالتحتية[١]، واختار هذه القراءة أبو عُبيد[٢]؛ لأنّ الجارّ والمجرور قد حال بين الاسم والفعل.

والمعنى: تشهد ألسنة بعضهم[٣] على بعض في ذلك اليوم.

وقيل: تشهد عليهم ألسنتهم في ذلك اليوم[٤] بما تكلموا به.

﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ بما عملوا بها في الدنيا، وإن الله سبحانه ينطقها بالشهادة عليهم، والمشهود به محذوف، وهو: ذنوبهم التي اقترفوها أي: تشهد هذه عليهم بذنوبهم التي اقترفوها، ومعاصيهم التي عملوها.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: يوم تشهد عليهم جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله جزاءهم[٥] عليها موفّراً، فالمراد بالدِّين هاهنا الجزاء، وبالحق الثابت الذي لا شك في ثبوته.

قرأ زيد بن عليّ «يُوفِيهم»[٦] مخففاً من أوفى، وقرأ مَنْ عداه بالتشديد[٧] من وفّى.

وقرأ أبو حيوة، ومجاهد «الحقُّ» بالرفع[٨] على أنه نعت لله، وروي ذلك عن ابن مسعود.

وقرأ الباقون بالنصب[٩] على أنه نعت لدينهم.

قال أبو عُبيد[١٠]: ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع؛ ليكون

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦)، و«التيسير» (ص١٦١)، و«النشر» (٢/ ٢٣١)، و«جامع البيان» (١٧/ ٢٢٩).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٨٣).

(٣) «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٠)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٦).

(٤) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٣١٤).

(٥) «جامع البيان» (١٧/ ٢٣١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٨٤)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٦).

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٨٧). والقراءة بالتخفيف شاذة.

(٧) «التبيان» (٢/ ٩٧٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧).

(٨) «القراءات الشاذة» (ص١٠١)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٢٨٧). هي شاذة.

(٩) «جامع البيان» (١٧/ ٢٣١، ٢٣٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٨٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧).

(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ١٨٤)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٣٢).

نعتاً لله ﷻ، ولتكون موافقة لقراءة أُبيّ، وذلك أن جرير بن حازم قال: رأيتُ في مصحف[(١)] أبيّ: «يوفيهم اللهُ الحقُ دينَهم».

قال النحاس[(٢)]: وهذا الكلام من أبي عُبيد غير مرضيّ؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم، ولا حجة أيضاً فيه؛ لأنه لو صحّ أنه في مصحف أبيّ كذلك جاز أن يكون دينهم بدلاً من الحقّ ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: ويعلمون عند معاينتهم لذلك، ووقوعه على ما نطق به الكتاب العزيز: أن الله هو: الحقّ الثابت في ذاته[(٣)]، وصفاته، وأفعاله، المُبين[(٤)]: المُظهِر للأشياء كما هي في أنفسها، وإنما سمي سبحانه الحقّ؛ لأن عبادته هي الحقّ دون عبادة غيره.

وقيل: سُمّي بالحقّ؛ أي: الموجود لأن نقيضه الباطل، وهو المعدوم.

ثم ختم سبحانه الآيات الواردة في أهل الإفك بكلمة جامعة فقال: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾؛ أي: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال؛ أي: مختصة بهم لا تتجاوزهم، وكذا الخبيثون مختصون بالخبيثات لا يتجاوزونهن، وهكذا قوله:

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠١)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٧).

(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٣٢).

(٣) الحق: يوصف الله ﷻ بأنّه الحق ﷻ، وهو اسم ثابت له بالكتاب والسُّنَّة.
قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].
وعن ابن عباس ﵄ مرفوعاً: «.. أنت الحق وقولك الحق».
أخرجه البخاري رقم (٧٣٨٥).
قال السعدي في «تفسيره» (٥/ ٣٠٥): «الحق: في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً، فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه حق، وعبادته وحده حق لا شريك له الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

(٤) يوصف الله ﷻ بأنه المُبين، وهو اسم له ثابت بالكتاب العزيز.
قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٢): «ويعلمون يومئذ أنَّ الله هو الحق الذي يُبينُ لهم حقائق ما كان يعدهم في الدنيا من العذاب، ويزول حينئذ الشكُّ فيه عن أهل النفاق الذين كانوا فيما كان يعدُهم في الدنيا يمترون».

﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ قال مجاهد[١]، وسعيد بن جبير[٢]، [٣/٢٩٦] وعطاء[٣]، وأكثر المفسرين[٤]: المعنى: الكلماتُ الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الكلمات، والكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات.

قال النحاس[٥]: وهذا أحسن ما قيل.

قال الزجاج[٦]: ومعناه لا يتكلّم بالخبيثات إلّا الخبيث من الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات إلّا الطيب من الرجال والنساء، وهذا ذمّ للذين قذفوا عائشة بالخبث، ومدح للذين برّءوها.

وقيل: إنّ هذه الآية مبنية على قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣] فالخبيثات الزواني، والطيبات العفائف، وكذا الخبيثون، والطيبون.

والإشارة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إلى الطيبين، والطيبات؛ أي: هم مبرّءون مما يقوله الخبيثون، والخبيثات.

وقيل: الإشارة إلى أزواج النبيّ ﷺ، وقيل[٧]: إلى رسول الله ﷺ وعائشة وصفوان بن المُعطّل، وقيل[٨]: عائشة وصفوان فقط.

قال الفرّاء[٩]: وجُمِعَ كما قال: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، والمراد[١٠] أخوان ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ أي: هؤلاء المبرّءون لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلوا عنه البشر من الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وهو رزق الجنة.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٦) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧) بسند صحيح.
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٨٥)، و«جامع البيان» (١٧/ ٢٣٢)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٢١٥).
(٥) في «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٥١٦).
(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٧).
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٨٥).
(٨) «الوسيط» (٣/ ٣١٤ ـ ٣١٥)، و«جامع البيان» (١٧/ ٢٣٨).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤٩).
(١٠) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٨٦)، و«الوسيط» (٣/ ٣١٥).

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ الآية، يقول: لا يُقْسموا أن لا ينفعوا أحداً.

وأخرج ابن المنذر[(٢)]، عن عائشة قالت: كان مسطح بن أثاثة ممن تولّى كبره من أهل الإفك، وكان قريباً لأبي بكر، وكان في عياله، فحلف أبو بكر: أن لا ينيله خيراً أبداً، فأنزل الله ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ الآية، قالت: فأعاده أبو بكر إلى عياله، وقال: لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيراً منها إلّا تحلّلتُها، وأتيت الذي هو خير.

وقد روي هذا من طرق عن جماعة من التابعين.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس[(٣)] في الآية قال: كان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد رموا عائشة بالقبيح وأفشوا ذلك، وتكلموا فيها، فأقسم ناس من أصحاب النبيّ ﷺ منهم أبو بكر: أن لا يتصدّقوا على رجل تكلم بشيء من هذا، ولا يَصِلوه، فقال: لا يُقْسم أولوا الفضل منكم والسعة أن يصلوا أرحامهم، وأن يعطوهم من أموالهم كالذي كانوا يفعلون قبل ذلك، فأمر الله: أن يغفر لهم، وأن يعفى عنهم.

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه[(٤)] في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية، قال: نزلت في عائشة خاصة.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عنه[(٥)] أيضاً في الآية قال: هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ، ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة،

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٥٣) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٦٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٢٥) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٥٦ ـ ٢٥٥٧) بسند ضعيف لضعف عبد الله بن خراش. ولكنه توبع فقد أخرجه الحاكم (٤/ ١٠) من طريق يزيد بن هارون، عن العوام، به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٢٨، ٢٢٩)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٢٣٤)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٠): «رواه الطبراني بأسانيد، وفي هذا الإسناد راوٍ لم يسم وبقية رجاله ثقات».

وجعل لمن رمى امرأة مِنْ المؤمنات مِنْ غير أزواج النبي ﷺ التوبة، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [النور: ٤ ـ ٥].

وأخرج أَبو يعلى، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أبي سعيد[(١)]: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عرّف الكافر بعمله فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك، فيقول: كذبوا، فيقال: أهلك وعشيرتك، فيقول: كذبوا، فيقال: احلفوا، فيحلفون، ثم يصمتهم الله، وتشهد عليهم ألسنتُهم، وأيديهم، ثم يدخلهم النار».

وقد روي عن النبيّ ﷺ من طريق جماعة من الصحابة ما يتضمن شهادة الجوارح على العصاة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٢)] في قوله سبحانه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ قال: حسابهم، وكلّ شيء في القرآن الدِّين، فهو الحساب.

وأخرج الطبراني، وابن مردويه عن بهز بن حكيم[(٣)]، عن أبيه، عن جدّه: أن النبيّ ﷺ قرأ «يومئذٍ يوفيهم الله الحقّ دينهم».

وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس[(٤)] في قوله: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ قال: من الكلام ﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾ قال: من الرجال ﴿وَٱلۡخَبِيثُونَ﴾ من الرجال ﴿لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ من الكلام ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ من الكلام ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ من الناس ﴿لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ من الكلام، نزلت في الذين قالوا في زوجة النبيّ ﷺ ما قالوا من البهتان.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،

---

(١) أخرجه أبو يعلى رقم (١٣٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٥٨). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٦٠) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الطبراني (ج١٩ رقم ١٠٢١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٠): وفيه عون بن ذكوان وثقه ابن حبان وقال: «يخطئ ويخالف، وبقية رجاله ثقات».

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٦٠، ٢٥٦٢، ٢٥٦٣)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٢٤٨، ٢٥٠) بسند ضعيف.

وابن أبي حاتم، والطبراني، عن مجاهد(١) نحوه.

وأخرج ابن جرير، والطبراني، عن قتادة(٢) نحوه أيضاً.

وكذا روي عن جماعة من التابعين.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني عن ابن زيد(٣) في الآية قال: نزلت في عائشة حين رماها المنافقون بالبُهْتان، والفرية، فبرّأها الله من ذلك، وكان عبد الله بن أُبيّ هو: الخبيثُ، فكان هو أولى بأن تكون له الخبيثة، ويكون لها، وكان رسول الله ﷺ طيباً، فكان أولى أَنْ تكون له الطيبة، وكانت عائشة الطيبة، وكانت أولى بأن يكون لها الطيب، وفي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ قال: هاهنا بَرِئتْ عائشة.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة(٤) قالت: لقد نزل عُذْري من السماء، ولقد خُلقت طيبةً، وعند طيّب، ولقد وُعدتُ مغفرة، وأجراً عظيماً.

[الاستئذان وآدابه]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنا والقذف شرع في ذكر الزجر(٥) عن دخول البيوت بغير استئذان؛ لما في ذلك من مخالطة الرجال بالنساء، فربما يؤدّي

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٥٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٣، ٢٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٦١ ـ ٢٥٦٥)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٢٤٤، ٢٥٧) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٦، ٢٣٩)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٢٥٢، ٢٥٩) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٦٢، ٢٥٦٤)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٢٤٠، ٢٥٨) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٦٨).

(٥) «روح المعاني» (١٨/ ٢٩٣).

إلى أحد الأمرين المذكورين، وأيضاً إن الإنسان يكون في بيته، ومكان خلوته على حالة قد لا يحبّ أن يراه عليها غيرُه، فنهى الله سبحانه عن دخول بيوت الغير إلى غاية، هي قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾، والاستئناس: الاستعلامُ، والاستخبار؛ أي: حتى تستعلموا مَنْ في البيت، والمعنى: حتى تعلموا أنّ صاحب البيت قد علم بكم، وتعلموا أنه قد أذن بدخولكم، فإذا علمتم ذلك دخلتم، ومنه قوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]؛ أي: علمتم.

[الاستئناس ومعناه]:

قال الخليل[١]: الاستئناس: الاستكشافُ، مِنْ أنس الشيء إذا أبصره كقوله: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠، النمل: ٧]؛ أي: أبصرتُ. وقال ابن جرير[٢]: إنه بمعنى وتُؤنسوا أنفسَكم.

قال ابن عطية[٣]: وتصريف الفعل يأبى أَنْ يكون من أنس. ومعنى كلام ابن جرير هذا: أنّه من الاستئناس الذي هو خلاف الاستيحاش؛ لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيُؤذن له أم لا؟ فهو: كالمستوحِش حتى يؤذن له، فإذا أذن له استأنس، فنهى سبحانه عن دخول تلك البيوت حتى يؤذن للداخل.

وقيل: هو من الإنس، وهو: أن يتعرّف هل ثَمّ إنسان أم لا؟ وقيل: معنى الاستئناس: الاستئذان؛ أي: لا تدخلوها حتى تستأذنوا.

قال الواحدي[٤]: قال جماعة المفسّرين: حتى تستأذنوا، ويؤيده ما حكاه القرطبي[٥] عن ابن عباس[٦]، وأبيّ[٧]، وسعيد بن جبير[٨]: أنهم قرءوا «حتى تستأذنوا». .

قال مالك فيما حكاه عنه ابن وهب: الاستئناس فيما يرى، والله أعلم:

---

(١) في كتاب «العين» (ص٤٤).
(٢) في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).
(٣) في «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٩٠).
(٤) في «الوسيط» (٣/ ٣١٥).
(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٨٩).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤١) بسند صحيح، ومستند ابن عباس قراءة أُبي وهي قراءة منسوخة.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤٠) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤٠) بسند صحيح. وهي مخالفة للرسم في شاذة.

الاستئذان[١].

وقوله: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ قد بيّنه النبي ﷺ كما سيأتي بأن يقول: «السلام عليكم أدخل؟» مرّة، أو ثلاثاً كما سيأتي.

واختلفوا هل يقدّم الاستئذان على السلام، أو العكس؟ فقيل: يقدّم[٢] الاستئذان، فيقول: أدخل سلام عليكم، لتقديم الاستئناس في الآية على السلام.

وقال الأكثرون[٣]: إنّه يقدّم السلام[٤] على الاستئذان فيقول: السلام عليكم أدخل؟ وهو الحقّ؛ لأن البيان منه ﷺ للآية كان هكذا.

وقيل: إنْ وقع بصرُه على إنسان قدّم السلام، وإلّا قدّم الاستئذان ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ الإشارة إلى الاستئناس، والتسليم؛ أي: دخولكم مع الاستئذان، والسلام خير لكم من الدخول بغتةً.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أن الاستئذان خير لكم، وهذه الجملة متعلقة بمقدّر؛ أي: أُمرتم بالاستئذان، والمراد بالتذكر الاتعاظ، والعمل بما أمروا به ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾؛ أي: إنْ لم تجدوا في البيوت التي لغيركم أحداً ممن يُستأذن عليه فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم بدخولها مَنْ جهة من يملك الإذن.

وحكى ابن جرير[٥] عن مجاهد أنه قال: معنى الآية فإنْ لم تجدوا فيها أحداً؛ أي: لم يكن لكم فيها متاع، وضعّفه[٦].

---

(١) «جامع البيان» (١٧/ ٢٤٦). (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ١٩٠).

(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٢٩٧)، و«جامع البيان» (١٧/ ٢٤٦).

(٤) قال النووي في شرحه لـ«صحيح مسلم» (١٤/ ١٣١): الصحيح المختار تقديم التسليم على الاستئذان.

(٥) في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤).

(٦) قال ابن جرير: «وهذا القول الذي قاله مجاهد... قولٌ بعيد من مفهوم كلام العرب؛ لأن العرب لا تكاد تقول: ليس بمكان كذا أحدٌ. إلا وهي تعني: ليس بها أحدٌ من بني آدم، وأمَّا الأَمتعة وسائر الأشياء غير بني آدم، ومن كان سبيله سبيلهم، فلا تقول ذلك فيها».

وهو حقيق[١] بالضعف، فإنّ المراد بالأحد المذكور أهل البيوت الذين يأذنون للغير بدخولها، لا متاع الداخلين إليها.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾؛ أي: إن قال لكم أهل البيت: ارجعوا، فارجعوا، ولا تعاودوهم بالاستئذان مرّة أخرى، ولا تنتظروا بعد ذلك أن يأذنوا لكم بعد أمرهم لكم بالرجوع.

ثم بيَّن سبحانه: أن الرجوع[٢] أفضل من الإلحاح، وتكرار الاستئذان، والقعود على الباب فقال: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾؛ أي: أفضل وأطهر ومِنْ التدنس بالمشاحة على الدخول لما في ذلك من سلامة الصدر، والبُعد من الريبة، والفرار مِنْ الدناءة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: لا جناح عليكم في الدخول بغير استئذان إلى البيوت التي ليست بمسكونة.

وقد اختلف الناس في المراد بهذه البيوت، فقال محمد بن الحنفية[٣]، وقتادة[٤]، ومجاهد[٥]: هي الفنادق التي في الطُرق السابلة، الموضوعة لابن السبيل يأوي إليها.

وقال ابن زيد[٦]، والشعبي[٧]: هي حوانيت القيساريات.

قال الشعبي[٧]: لأنّهم جاءوا ببيوعهم، فجعلوها فيها، وقالوا للناس: هلمّ [٣/٢٩٧].

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره» (١٥/١٩٨): «وكذلك هو في غاية الضعف».
(٢) «روح المعاني» (١٨/٣٠١)، و«جامع البيان» (١٧/٢٤٧).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٥٦٩) بسند حسن.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٤٩) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٤٩) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٥١) بسند صحيح.
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/٢٠١)، و«المحرر الوجيز» (١١/٢٩٣).
• القيساريات: جمع قيسارية، وهي الخان الكبير الذي يشغله التجار والمسافرون، وقد يشتمل على سوق مسقوفة.
«معجم الألفاظ والألقاب التاريخية» (ص٣٥٧).

وقال عطاء[١]: المراد بها الخِرب التي يدخلها الناس للبول، والغائط، ففي هذا أيضاً متاع.

وقيل: هي بيوت مكة روي ذلك عَنْ محمد بن الحنفية[٢] أيضاً، وهو موافق لقول مَنْ قال: إن الناس شركاء فيها، ولكن قد قيد سبحانه هذه البيوت المذكورة هنا بأنّها غير مسكونة. والمتاع: المنفعة عند أهل اللغة، فيكون معنى الآية: فيها منفعة لكم، ومنه قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وقولهم: أمتع الله بك، وقد فسر الشعبي المتاع في كلامه المتقدّم بالأعيان التي تباع.

قال جابر بن زيد[٣]: وليس المراد بالمتاع الجهاز، ولكن ما سواه من الحاجة.

قال النحاس[٤]: وهو حسن موافق للّغة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾؛ أي: ما تُظهرون وما تخفون، وفيه وعيدٌ لمن لم يتأدّب بآداب الله في دخول بيوت الغير.

وقد أخرج الفريابي، وابن جرير من طريق عديّ بن ثابت[٥] عن رجل من الأنصار قال: قالت امرأة: يا رسول الله إني أكون في بيتي على الحالة التي لا أُحبّ أن يراني عليها أحد، ولد ولا والدٌ، فيأتيني الأب فيدخل عليّ، فكيف أصنع؟ ولفظ ابن جرير: وإنّه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي، وأنا على تلك الحالة، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ الآية.

وأخرج الفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وابن منده في غرائب شعبة، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الشعب، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ قال: أخطأ الكاتب «حتى تستأذنوا» ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٥١) بسند ضعيف، ابن جريج لم يسمع من عطاء.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٥٠ ـ ٢٥١) بسند ضعيف.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٠١)، والنحاس في «ناسخه» (٢/ ٥٤٩).
(٤) في «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٤٩).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٣٩ ـ ٢٤١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٦٦)، والحاكم (٢/ ٣٩٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٨٨٠١ ـ ٨٨٠٤)، والضياء =

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي، عن إبراهيم النخعي[(١)] قال في مصحف عبد الله: «حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا».

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة[(٢)] مثله.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس[(٣)] قال: الاستئناس: الاستئذان.

وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي، والطبراني، وابن مردويه، وابن أبي حاتم، عن أبي أيوب[(٤)] قال: «قلتُ: يا رسول الله أرأيتَ قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَآ﴾ هذا التسليم عرفناه فما الاستئناس؟ قال: يتكلم الرجل بتسبيحةٍ، وتكبيرة، وتحميدة، ويتنحنح، فيؤذن أهل البيت». قال ابن كثير[(٥)]: هذا حديث غريب.

وأخرج الطبراني عن أبي أيوب[(٦)]: أن النبي ﷺ قال: «الاستئناس أن يدعو الخادم حتى يستأنس أهل البيت الذين يسلم عليهم».

وأخرج ابن سعد، وأحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي في الشعب من طريق كلدة[(٧)]: «أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح

= (١٠/ ٩٠، ٩١ رقم ٨٦، ٨٧).
قال ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٧): «وهذا غريب جداً»، عن ابن عباس.
وقال أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٣٠ ـ ٣١): وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ معناه: تستأذنوا، ومن روى عن ابن عباس أن قوله: ﴿تَسْتَأْنِسُواْ﴾ خطأ أو وهم من الكاتب وأنه قرأ حتى تستأذنوا فهو طاعن في الإسلام ملحد في الدين، وابن عباس بريء من هذا القول.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٨٨٠٠) بسند ضعيف. ولو صح السند فالقراءة شاذة ومخالفة للرسم.

(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٧١).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤١) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٤١٩)، والحكيم الترمذي (٣/ ٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٦٧)، والطبراني رقم (٤٠٦٥). وهو حديث ضعيف.

(٥) قاله ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٢١١).

(٦) أخرجه الطبراني رقم (٤٠٦٤)، وهو أثر ضعيف. فيه واصل بن عطاء وهو ضعيف، وأبو سورة قال فيه البخاري: منكر الحديث يروي عن أبي أيوب مناكير لا يتابع عليها.

(٧) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ٤٥٧)، وأحمد رقم (١٥٢٤٥)، والبخاري في =

بلبأ وضغابيس، والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت عليه، ولم أسلم، ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: ارجع، فقل: السلام عليكم أأدخل؟» قال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلّا من حديثه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود، والبيهقي في السنن من طريق ربعيّ[1]، قال: «حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ، وهو في بيت، فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قل: السلام عليكم أأدخل؟».

وأخرج ابن جرير[2] عن عمر بن سعيد الثقفي نحوه مرفوعاً، ولكنه قال: «إن النبيّ ﷺ قال لأمةٍ له يقال لها روضة: قومي إلى هذا فعلميه».

[الاستئذان من أجل البصر]:

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي سعيد الخدريّ[3] قال: كنت جالساً في مجلس من مجالس الأنصار، فجاء أبو موسى فزعاً، فقلنا له: ما أفزعك قال: أمرني عمر أن آتيه فأتيته فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: قد جئتُ، فاستأذنت ثلاثاً، فلم يؤذن لي، وقد قال رسول الله ﷺ: إذا استأذن أحدكم ثلاثاً، فلم يؤذن له، فليرجع: قال: لتأتيني على هذا بالبينة، فقالوا: لا يقوم إلّا أصغر القوم، فقام أبو سعيد معه ليشهد له، فقال عمر لأبي موسى: إنّي لم أتهمك، ولكن الحديث عن رسول الله ﷺ شديد.

وفي «الصحيحين»، وغيرهما من حديث سهل بن سعد[4] قال: «اطلع رجل

= «الأدب» رقم (١٠٨١)، وأبو داود رقم (٥١٧٦)، والترمذي رقم (٢٧١٠)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٦٧٣٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٨٨٠٩). وهو حديث صحيح.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٤١٨، ٤١٩)، وأحمد رقم (٢٣١٢٧)، والبخاري في «الأدب» رقم (١٠٨٤)، وأبو داود رقم (٥١٧٧ ـ ٥١٧٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٣٤٠). وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤١، ٢٤٢) من طريق هشيم، به.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٢٤٥)، ومسلم رقم (٢١٥٣)، وأبو داود رقم (٥١٨٠).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٥٩٢٤، ٦٢٤١، ٦٩٠١)، ومسلم رقم (٢١٥٦)، والترمذي رقم (٢٧٠٩)، والنسائي (٤٨٧٤).

من جُحْر في حجرة النبيّ ﷺ، ومَعْه مِدْرياً يحكّ بها رأسه، قال: لو أعلم أنك تنظر لطعنتُ بها في عينك، إنما جُعل الاستئذان من أجل البصر».

وفي لفظ: «إنما جُعل الإذن من أجل البصر»[١].

وأخرج أبو يعلى، وابن جرير، وابن مردويه، عن أنس[٢] قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله في هذه الآية، فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع فأرجع وأنا مُغْتبِط لقوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

وأخرج البخاري في الأدب، وأبو داود في الناسخ والمنسوخ، وابن جرير عن ابن عباس[٣] قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، فنسخ، واستثنى من ذلك، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾.

[غضُّ البصر وحكم النظر على العموم]:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

لما ذكر سبحانه حكم الاستئذان، أتبعه بذكر حكم النظر على العموم، فيندرج

---

(١) انظر: التعليقة المتقدمة.

(٢) أخرجه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» رقم (٤٠٥٦)، عن الحسن عن بعض المهاجرين، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٤٨)، عن قتادة، عن رجل من المهاجرين.
قال البوصيري: هذا إسناد ضعيف لجهالة بعض رواته.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (١٠٥٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤٢، ٢٥٣). وهو حديث صحيح.

تحته غضّ البصر من المستأذِن، كما قال: «إنما جُعل الإذن من أجل البصر»، وخص المؤمنين مع تحريمه على غيرهم، لكون قطع ذرائع الزنا التي منها النظر، هم أحق مِنْ غيرهم بها، وأولى بذلك ممن سواهم.

وقيل: إنّ في الآية دليلاً على أنّ الكفار غير مخاطبين[١] بالشرعيات كما يقوله بعض أهل العلم، وفي الكلام[٢] حذف، والتقدير ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ غضوا ﴿يَغُضُّوا﴾.

ومعنى غضّ البصر: إطباقُ الجفن على العين بحيث تمتنع الرؤية، ومنه قول جرير[٣]:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنَّكَ مِن نُميرٍ فَلَا كَعْباً بَلَغْت وَلَا كِلَابا

وقول عنترة[٤]:

وَأَغضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جَارَتي حَتَّى يُوارِي جَارَتي مَأْواها

و«من» في قوله: ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ هي: التبعيضية[٥]، وإليه ذهب الأكثرون، وبينوه بأنّ المعنى: غضّ البصر عمّا يحرم، والاقتصار به على ما يحل. وقيل: وجه التبعيض: أنّه يعفى للناظر أوّل نظرة تقع من غير قصد.

وقال الأخفش[٦]: إنها زائدة، وأنكر ذلك سيبويه[٧]. وقيل: إنها لبيان الجنس قاله أبو البقاء[٨].

واعتُرض عليه: بأنّه لم يتقدّم مبهم يكون مفسَّراً بمِنْ، وقيل: إنها لابتداء الغاية قاله ابن عطية[٩].

وقيل: الغضّ النقصان[١٠]، يقال: غَضّ فلان مِنْ فلان أي: وضع منه،

---

(١) انظر: «روح المعاني» (١٨/ ٣٠٧).
(٢) «روح المعاني» (٣٠٥)، و«الفريد» (٣/ ٥٩٤).
(٣) انظر: «ديوانه» (ص٦٣). (٤) انظر: «ديوان عنترة» (ص٧٦).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٣٢ ـ ٣٣)، و«الفريد» (٣/ ٥٩٤)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٨ ـ ٩٦٩).
(٦) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٣٣).
(٧) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٣٢ ـ ٣٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٠٣).
(٨) في «التبيان» (٢/ ٩٦٩)، وانظر: «البحر المحيط» (٨/ ٣٣).
(٩) في «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤). (١٠) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٦٠٧).

فالبصر إذا لم يمكن من عمله، فهو: مغضوض منه، ومنقوص، فتكون ﴿مِنْ﴾ صلة[١] للغضّ، وليست لمعنى مِنْ تلك المعاني الأربعة.

وفي هذه الآية دليل على تحريم النظر إلى غير مَنْ يحلّ النظر إليه.

ومعنى: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾: أنه يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم. وقيل: المراد[٢] ستر فروجهم عَنْ أن يراها من لا تحلّ له رؤيتها، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج.

قيل: ووجه المجيء بمن في الأبصار دون الفروج أنّه موسع[٣] في النظر فإنه لا يحرم منه إلّا ما استُثنى، بخلاف حفظ الفرج فإنّه مضيق فيه، فإنه لا يحلّ منه إلّا ما استثنى.

وقيل: الوجه أن غضّ البصر كله كالمتعذر، بخلاف حفظ الفرج فإنه ممكن على الإطلاق.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذُكر من الغضّ، والحفظ، وهو مبتدأ، وخبره ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: أظهر لهم من دنس الريبة[٤]، وأطيب من التلبس بهذه الدنيئة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء مِنْ صنعهم، وفي ذلك وعيد لمن لم يغضّ بصره، ويحفظ فرجه.

[تأكيد غض البصر للنساء]:

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ خصّ سبحانه الإناث بهذا الخطاب على طريق التأكيد لدخولهنّ تحت خطاب المؤمنين تغليباً كما في سائر الخطابات القرآنية، وظهر التضعيف في يغضضن، ولم يظهر في يغضوا؛ لأنّ[٥] لام الفعل من الأوّل متحرّكة، ومن الثاني ساكنة، وهما في موضع جزم[٦] جواباً للأمر، وبدأ سبحانه

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٠٥)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٨ ـ ٩٦٩)، و«الفريد» (٣/ ٥٩٤).

(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧)، و«جامع البيان» (١٧/ ٢٥٦).

(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٣٠٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٢ ـ ٣٣).

(٤) «جامع البيان» (١٧/ ٢٥٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٥٥).

(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٣٣).

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٣٢)، و«التبيان» (٢/ ٩٦٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٠٥).

بالغضّ في الموضعين قبل حفظ الفرج؛ لأن النظر وسيلة إلى عدم حفظ الفرج، والوسيلة مقدّمة على المتوسل إليه.

ومعنى: يغضضن من أبصارهنّ كمعنى: يغضوا مِنْ أبصارهم، فيستدلّ به على تحريم نظر النساء إلى ما يَحرم عليهنّ، وكذلك يجب عليهنّ حفظ فروجهنّ على الوجه الذي تقدّم في حفظ الرجال لفروجهم ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾؛ أي: ما يتزينّ به من الحلية، وغيرها.

وفي النهي عن إبداء الزينة نَهيٌ عن إبداء مواضعها من أبدانهنّ بالأولى. ثم استثنى سبحانه من هذا النهي، فقال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

[الاختلاف في الزينة الظاهرة وترجيح المصنف]:

واختلف الناس في ظاهر الزينة ما هو؟ فقال ابنُ مسعود[1]، وسعيد بن جبير: ظاهر الزينة هو الثياب، وزاد سعيد بن جبير: الوجه.

وقال عطاء، والأوزاعي: الوجه والكفان.

وقال ابن عباس[2]، وقتادة، والمسور بن مخرمة: ظاهر الزينة هو: الكُحْل، والسواك، والخِضاب إلى نصف الساق، ونحو ذلك، فإنه يجوز للمرأة أن تبديه.

وقال ابن عطية[3] [٣/٢٩٨]: إنّ المرأة لا تبدي شيئاً من الزينة، وتخفي كل شيء من زينتها، ووقع الاستثناء فيما يظهر منها بحكم الضرورة.

ولا يخفى عليك أن ظاهر النظم القرآني النهي عَنْ إبداء الزينة إلّا ما ظهر منها كالجلباب، والخمار، ونحوهما مما على الكف، والقدمين من الحلية، ونحوها.

وإنْ كان المراد بالزينة: مواضعها كان الاستثناء راجعاً إلى ما يشق على المرأة ستره كالكفين والقدمين، ونحو ذلك.

[النهي عَنْ إظهار الزينة يستلزم النهي عن إظهار مواضعها]:

وهكذا إذا كان النهي عن إظهار الزينة يستلزم النهي عن إظهار مواضعها بفحوى الخطاب، فإنّه يحمل الاستثناء على ما ذكرناه في الموضعين؛ وأما إذا كانت الزينة تشمل مواضع الزينة، وما تتزين به النساء فالأمر واضح، والاستثناء يكون من الجميع.

---

(١) سيأتي تخريج هذه الأقوال.
(٢) سيأتي تخريج هذه الأقوال.
(٣) في «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٩٥).

قال القرطبي[١] في «تفسيره»: الزينة على قسمين: خَلْقية، ومكتسبة؛ فالخلقية: وجهها فإنّه أصل الزينة، والزينة المكتسبة: ما تحاوله المرأة في تحسين خلقها كالثياب، والحلى، والكحل، والخضاب، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣١] وقول الشاعر:

يأخُذن زينتهنّ أحسنَ ما تَرَى … وإذا عَطلن فهنّ خَيرُ عَوَاطِلِ[٢]

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ قرأ الجمهور[٣] بإسكان اللام التي للأمر.

وقرأ أبو عَمْرو بكسرها[٤] على الأصل[٥]؛ لأن أصل لام الأمر الكسر، ورُويت هذه القراءة عن ابن عباس.

والخُمُر[٦]: جمع خِمار، وهو ما تُغطّي به المرأة رأسَها، ومنه اختمرت المرأة، وتخمّرت. والجيوب[٧]: جمع جيب، وهو: موضع القطع من الدرع، والقميص، مأخوذ من الجوب، وهو: القطع.

قال المفسّرون[٨]: إن نساء الجاهلية كنّ يسدلن خمرهنّ من خلفهنّ، وكانت جيوبهنّ من قدّام واسعة، فكانت تنكشف نحورهنّ، وقلائدهنّ، فأمرن: أن يضربن مقانعهنّ على الجيوب لتستر بذلك ما كان يبدو، وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء الذي هو: الإلصاق.

قرأ الجمهور[٩] «بِخُمُرِهنّ» بتحريك الميم، وقرأ طلحة[١٠] بن مصرف بسكونها.

---

(١) في «تفسيره» (١٥/ ٢١٤).

(٢) البيت منسوب للعديل العجلي كما في «الوافي» (١٩/ ٥٣٧).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٣٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢١٤)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣١٣).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص١٠١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٤)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣١٤).

(٥) والمتواتر عنه كقراءة الجمهور. والرواية عن أبي عمرو بكسر اللّام شاذة.

(٦) «تهذيب اللغة» (٧/ ٣٧٩)، و«الصحاح» (٢/ ٦٤٩)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٩٨).

(٧) «تهذيب اللغة» (١/ ٢١٨)، و«الصحاح» (١/ ١٠٤)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢١٠).

(٨) «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٩٦)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٥٦).

(٩) «التيسير» (ص١٦١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٤)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣١٤)، و«النشر» (٢/ ٢٢٦).

(١٠) انظر: المصادر المتقدمة. القراءة بإسكان الميم شاذة.

وقرأ الجمهور[١] «جُيوبهنّ» بضم الجيم، وقرأ ابن كثير، وبعضُ الكوفيين بكسرها[٢]، وكثيرٌ مِنْ متقدمي النحويين لا يجوّزون هذه القراءة.

وقال الزجَّاج[٣]: يجوز: أن يبدل من الضمة كسرة، فأما ما روي عن حمزة مِنْ الجمع بين الضم والكسر فمحال لا يقدر أحد أن ينطق به إلّا على الإيماء، وقد فسّر الجمهور الجيوب بما قدّمنا، وهو: المعنى الحقيقي.

وقال مقاتل[٤]: إن معنى على جيوبهنّ: على صدورهنّ، فيكون في الآية مضاف محذوف أي: على مواضع جيوبهنّ.

[المستثنون من إبداء الزينة لهم]:

ثم كرّر سبحانه النهي عن إبداء الزينة لأجل ما سيذكره من الاستثناء، فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ البعل هو: الزوج، والسيد في كلام العرب، وقدّم[٥] البعولة؛ لأنّهم المقصودون بالزينة، ولأن كل بدن الزوجة والسرية حلال لهم، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٦].

ثم لما استثنى سبحانه الزوج أتبعه باستثناء ذوي المحارم، فقال: ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ فجوّز للنساء أن يبدين الزينة لهؤلاء لكثرة المخالطة، وعدم خشية الفتنة لما في الطباع من النفرة عن القرائب.

وقد روي عن الحسن والحسين رضي الله عنهما[٦]: أنهما كانا لا ينظران إلى أمهات المؤمنين ذهاباً منهما إلى أنّ أبناء البعولة لم يذكروا في الآية التي في أزواج النبي ﷺ وهي قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

والمراد بأبناء بعولتهنّ ذكور أولاد الأزواج، ويدخل في قوله: ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾ أولاد الأولاد، وإن سفلوا، وأولاد بناتهنّ، وإن سفلوا، وكذا آباء البعولة، وآباء

---

(١) «التيسير» (ص١٦١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢١٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣١٤). الصواب في قراءة هذه الكلمة: أن ابن كثير وابن ذكوان عن ابن عامر وشعبة في وجهٍ له عن عاصم وحمزة والكسائي قرأوا بكسر الجيم. وقرأ باقي العشرة بضم الجيم وهو الوجه الثاني لشعبة أمّا ما ذكره المؤلف عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر فرواية شاذة عنه.

(٢) «النشر» (٢/ ٢٢٦)، و«التيسير» (ص١٦١). (٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣٨).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢١٦).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢١٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣١٤).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢١٨).

الآباء، وآباء الأمهات، وإن علوا، وكذلك أبناء البعولة، وإن سفلوا، وكذلك أبناء الإخوة، والأخوات.

وذهبَ الجمهور[١] إلى أنّ العمّ والخال كسائر المحارم في جواز النظر إلى ما يجوز لهم، وليس في الآية ذكر الرضاع، وهو كالنسب.

وقال الشعبي، وعكرمة[٢]: ليس العمّ والخال من المحارم.

ومعنى ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ هنّ: المختصات بهنّ الملابسات لهنّ بالخدمة، أو الصحبة، ويدخل في ذلك الإماء، ويخرج من ذلك نساء الكفار من أهل الذمة، وغيرهم، فلا يحل لهنّ أَنْ يبدين زينتهنّ لهنّ لأنهن لا يتحرّجن عن وصفهنّ للرجال.

وفي هذه المسألة خلاف[٣] بين أهل العلم، وإضافة النساء إليهن تدل على اختصاص ذلك بالمؤمنات.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيد، والإماء مِنْ غير فرق بين أن يكونوا مسلمين أو كافرين، وبه قال جماعة[٤] من أهل العلم، وإليه ذهبت عائشة، وأمّ سلمة، وابن عباس، ومالك.

وقال سعيد بن المسيب[٥]: لا تغرّنكم هذه الآية ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ إنما عني بها الإماء، ولم يعن بها العبيد.

وكان الشعبي[٦] يكره أن ينظر المملوك إلى شَعَر مولاته، وهو قول عطاء[٧]، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين.

وروي عن ابن مسعود، وبه قال أبو حنيفة، وابن جريج.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ قرأ الجمهور[٨] «غيرِ» بالجر.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢١٩).

(٢) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢١٩)، والرازي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٠٧).

(٣) «التمهيد» (١٦/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٢٩٦)، و«جامع البيان» (١٧/ ٢٦٦).

(٤) «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦)، و«التمهيد» (١٦/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٣٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ٢٣٥).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٤/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥).

(٧) أخرجه عنهم ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٤/ ٣٣٥).

(٨) «البحر المحيط» (٨/ ٣٥)، و«النشر» (٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، و«التيسير» (ص١٦١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٢٠).

وقرأ أبو بكر، وابن عامر بالنصب[١] على الاستثناء، وقيل: على القطع.

والمراد بالتابعين: هم الذين يتبعون القومَ فيصيبون مِنْ طعامهم لا همة لهم إلّا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، قاله مجاهد[٢]، وعكرمة[٣]، والشعبي[٤]، و(من الرجال) في محل[٥] نصب على الحال.

وأصل الإرْبة، والإرب[٦]، والمأربة: الحاجة، والجمع: مآرب: أي: حوائج، ومِنْه قوله سبحانه: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] ومنه قول طرفة[٧]:

إذا المَرْءُ قَالَ الجهلَ والحُوبَ والخَنَا ... تَقدّم يَوْماً ثم ضَاعَتْ مآرِبُهُ

وقيل: المراد بغير أولي الأربة من الرجال: الحَمْقى[٨] الذين لا حاجة لهم في النساء، وقيل: البُلْه[٩]، وقيل: العنين[١٠]، وقيل: الخصي[١٠]، وقيل: المخنّث[١١]، وقيل: الشيخ الكبير[١٢].

ولا وجه لهذا التخصيص؛ بل المراد[١٣] بالآية ظاهرها، وهم: مَنْ يتبع أهل

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٧)، والبيهقي (٧/ ٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٨) بسند صحيح.
(٣) انظر: «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٠).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٨)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣١٨)، والبيهقي (٧/ ٩٦) بسند ضعيف.
(٥) «التبيان» (٢/ ٩٦٩)، و«الفريد» (٣/ ٥٩٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٢١).
(٦) «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٥٥)، و«الصحاح» (١/ ٨٧)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٢).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٢١).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٥٨)، عن الزهري بسند صحيح.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٨)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣١٨) بسند ضعيف، عن مجاهد.
(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٢١).
(١١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٩)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣١٩)، عن عكرمة بسند صحيح.
(١٢) انظر: «التمهيد» (٢٢/ ٢٧٤).
(١٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٢٢)، و«التمهيد» (٢٢/ ٢٧٤).

البيت، ولا حاجة له في النِّساء، ولا يحصل منه ذلك في حال من الأحوال، فيدخل في هؤلاء من هو بهذه الصفة ويخرج من عداه.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ الطفل[١]: يطلق على المفرد، والمثنّى، والمجموع، أو المراد به هنا: الجنس الموضوع موضع الجمع بدلالة وصفه بوصف الجمع، وفي مصحف[٢] أُبيّ «أو الأطفال» على الجمع، يقال للإنسان طفل: ما لم يراهق الحلم[٣].

ومعنى ﴿لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾: لم يطّلعوا، مِنْ الظهور بمعنى الاطلاع، قاله ابن قتيبة[٤].

وقيل معناه: لم يبلغوا حدّ الشهوة، قاله الفراء[٥]، والزجاج[٦]، يقال: ظهرت على كذا: إذا غلبته، وقهرته.

والمعنى: لم يطّلعوا على عورات النساء ويكشفوا عنها للجماع، أو لم يبلغوا حدّ الشهوة للجماع.

قراءة الجمهور «عَوْرات» بسكون[٧] الواو تخفيفاً، وهي لغة جمهور العرب. وقرأ ابن عامر في رواية بفتحها[٨]. وقرأ[٩] بذلك ابن أبي إسحاق، والأعمش.

ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، وهي لغة هُذيل بن مُدْركة، ومنه قول الشاعر الذي أنشده الفراء:

أَبُو بَيَضَاتٍ رائحٌ متأوِّبٌ رَفيقٌ لمسحِ المِنْكَبينِ سَبُوحُ[١٠]

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٣٤)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٢٩٨)، و«الصحاح» (٥/ ١٧٥١).
(٢) وذكره القرطبي (١٥/ ٢٢٥)، حيث قال: «وفي مصحف حفصة». وانظر: «البحر المحيط» (٨/ ٣٥). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٣) «المحرر الوجيز» (١١/ ٢٩٨).
(٤) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣٠٤).
(٥) في «معاني القرآن» (٢/ ٢٥٠).
(٦) في «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٢).
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٢٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٢٢).
(٨) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٢٢). الرواية عن ابن عامر بفتح الواو شاذة عنه، والصحيح عنه كقراءة العشرة.
(٩) انظر: المصادر المتقدمة.
(١٠) انظر: «شرح المفصل» (٥/ ٣٠)، و«خزانة الأدب» (٨/ ١٠٢).

واختلف[١] العلماء في وجوب ستر ما عدا الوجه والكفين مِنْ الأطفال، فقيل: لا يلزم لأنّه لا تكليف عليه، وهو الصحيح؛ وقيل: يلزم لأنها قد تشتهي المرأة.

وهكذا اختُلف[١] في عورة الشيخ الكبير الذي قد سقطت شهوته، والأولى بقاء الحرمة كما كانت، فلا يحلّ النظر إلى عورته، ولا يحلّ له أَنْ يكشفها.

[اختلاف العلماء في حد العورة]:

وقد اختلف العلماء في حدّ العورة:

قال القرطبي[٢]: أجمع المسلمون على أن السوءتين عورة من الرجل، والمرأة، وأن المرأة كلها عورة إلّا وجهها، ويديها على خلاف في ذلك.

وقال الأكثر[٣]: إنّ عورة الرجل مِنْ سرّته إلى ركبته.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾؛ أي: لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها مَنْ يسمعه من الرجال، فيعلمون أنها ذات خلخال.

قال الزجاج[٤]: وسماع هذه الزينة أشدّ تحريكاً للشهوة من إبدائها.

ثم أرشد عباده إلى التوبة عن المعاصي، فقال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه الأمر بالتوبة، ولا خلاف بين المسلمين في وجوبها، وأنّها فرض مِنْ فرائض الدين، وقد تقدّم الكلام على التوبة في سورة النساء.

ثم ذكر ما يرغبهم في التوبة، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: تفوزون[٥] بسعادة الدنيا، والآخرة.

وقيل: إنّ المراد بالتوبة هنا هي عمّا كانوا يعملونه في الجاهلية، والأوّل أولى لما تقرر في السُّنَّة [٣/٢٩٩] أن الإسلام يجبّ ما قبله.

وقد أخرج ابن مردويه[٦] عن عليّ بن أبي طالب قال: «مرّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة، ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان: أنّه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلّا إعجاباً به، فبينما الرجل يمشي

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٦٣). (٢) في «تفسيره» (١٥/ ٢٢٦).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٢٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٣٣).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٠). (٥) «روح المعاني» (١٨/ ٣٢٥).
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٧٦).

إلى جنب حائط، وهو ينظر إليها، إذ استقبله الحائط، فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدمّ حتى آتي رسول الله ﷺ، فأُعلِمَه أمري، فأتاه، فقصّ عليه قصته، فقال النبيّ ﷺ: هذا عقوبةُ ذنبك، وأنزل الله ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ الآية».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ قال: يعني مِنْ شهواتهم مما يكره الله[1].

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، والترمذي، والبيهقي في سننه عن بريدة[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة، فإنّ الأولى لك وليست لك الأخرى».

وفي مسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، عن جرير البجلي[3] قال: «سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة، فأمرني أن أصرف بصري».

وفي «الصحيحين»، وغيرهما من حديث أبي سعيد[4] قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا: يا رسول الله ما لنا بدّ من مجالسنا نتحدّث فيها، فقال: إنْ أبيتم فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: غضّ البصر، وكف الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

وأخرج البخاري، وأهل السُّنن، وغيرهم عن بهز بن حكيم[5]، عن أبيه، عن جدّه قال: «قلتُ: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها، وما نذر؟ قال: احفظ عورتك إلّا مِنْ زوجتك، أو ما ملكت يمينك، قلت: يا نبيّ الله إذا كان القوم بعضهم في بعض، قال: إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها، قلت: إذا كان أحدنا خالياً، قال: فالله أحق أن يستحيا منه من الناس».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٠) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٢٤)، وأبو داود رقم (٢١٤٩)، والترمذي رقم (٢٧٧٧)، والبيهقي (٧/ ٩٠). وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٢٤)، ومسلم رقم (٢١٥٩)، وأبو داود رقم (٢١٤٨)، والترمذي رقم (٢٧٧٦)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٩٢٣٣).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٢٤٦٥)، ومسلم رقم (٢١٢١).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٢٧٨) تعليقاً، وأحمد رقم (٢٠٠٣٤)، وأبو داود رقم (٤٠١٧)، والترمذي رقم (٢٧٦٩، ٢٧٩٤)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٨٩٧٢)، وابن ماجه رقم (١٩٢٠). وهو حديث حسن.

وفي «الصحيحين»، وغيرهما من حديث أبي هريرة[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين السماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخَطْو، والنفس تتمنّى، والفرْجُ يصدّق ذلك أو يكذبه».

وأخرج الحاكم وصحّحه عن حذيفة[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «النظرة سهم مِنْ سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن مقاتل قال: بلغنا، والله أعلم: أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدّث أن أسماء بنت يزيد كانت في نخل لها لبني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما في أرجلهن، يعني: الخلاخل، وتبدو صدورهنّ وذوائبهنّ، فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فأنزل الله ذلك ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ الآية، وفيه ـ مع كونه مرسلاً ـ مقاتل.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وعبد بن حُميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود[٤] في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ قال: الزينة: السِّوار، والدُّمْلُج، والخَلْخَال، والقُرْط، والقِلادة، ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الثياب والجلباب.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٦١٢)، ومسلم رقم (٢٦٥٧)، وأحمد رقم (٧٧١٩، ٨٢١٥)، وأبو داود رقم (٢١٥٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١٤)، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله:
إسحاق ـ هو ابن عبد الواحد القرشي ـ واهٍ، وعبد الرحمٰن ـ هو الواسطي ـ ضعفوه.
وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (١٠٦٥): ضعيف جدّاً.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٣) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٥٦)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٨٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٣، ٢٥٧٤)، والطبراني رقم (٩١١٥ ـ ٩١١٧)، والحاكم (٢/ ٣٩٧)، وصححه ووافقه الذهبي. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٢): «رواه الطبراني بأسانيد مطولاً ومختصراً»، ورجال أحدها رجال الصحيح.

[الزينة الظاهرة والباطنة]:

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه[١] قال: الزينة: زينتان زينة ظاهرة، وزينة باطنة لا يراها إلّا الزوج، فأما الزينة الظاهرة، فالثياب، وأما الزينة الباطنة، فالكُحْل، والسِّوار، والخاتم.

ولفظ ابن جرير[٢]: فالظاهرة منها: الثياب، وما خفي: الخلخالان، والقرطان، والسواران.

وأخرج ابن المنذر[٣] عن أنس في قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكُحْل والخاتم.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن ابن عباس[٤] ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: الكحل، والخاتم، والقُرط، والقلادة.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد عنه[٥] قال: هو خضاب الكفّ، والخاتم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد عن ابن عمر[٦] قال: الزينة الظاهرة: الوجه والكفان.

وأخرجا عن ابن عباس[٧] قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: وجهها، وكفاها، والخاتم.

وأخرجا أيضاً عنه[٨] قال: رقعة الوجه وباطن الكفّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٨٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٥٦) من طريق أبي إسحاق الهمداني، به.

(٢) في «جامع البيان» (١٧/ ٢٥٦).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٧٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٥٨)، والبيهقي (٢/ ٢٢٥) بسند ضعيف، لضعف مسلم بن كيسان الملائي.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٥٦) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤/ ٢٨٤).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤/ ٢٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٤) من طريق الأعمش، به.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٤)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٨٣)، وهو أثر صحيح. صححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم (١٧٩٠).

[أقوال العلماء في الزينة الظاهرة]:

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وعبد بن حُميد، وابن المنذر، والبيهقي في سننه عن عائشة[(١)]: أنها سئلت عن الزينة الظاهرة قالت: القُلْب، والفَتَخْ، وضمت طرف كُمّها.

وأخرج أبو داود، وابن مردويه، والبيهقي عن عائشة[(٢)]: «أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلّا هذا، وأشار إلى وجهه وكفه».

قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي، هذا مرسل لأنه من طريق خالد بن دريك عن عائشة، ولم يسمع منها.

وأخرج البخاري، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن عائشة[(٣)]: قالت: رحم الله نساء المهاجرات الأولات لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققنَ أكثف مروطهنّ، فاختمرن به.

وأخرج ابن جرير، والحاكم وصححه، وابن مردويه[(٤)] عنها بلفظ: أخذ النساء أزرهنّ، فشققنها من قبل الحواشي، فاختمرن بها.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٨٣)، والبيهقي (٧/ ٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود رقم (٤١٠٤)، والبيهقي (٢/ ٢٢٦).
قال أبو داود: «هذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة».
وقال الألباني في «جلباب المرأة المسلمة» (ص٥٨): «وسعيد بن بشير ضعيف» كما في «التقريب» رقم (٢٢٧٦).
لكن الحديث قد جاء من طرق أخرى يتقوى بها:
١ ـ أخر أبو داود رقم (٤٣٧) في «مراسيله» بسند صحيح، عن قتادة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إن الجارية إذا حاضت لم يصلح أن يُرى منها إلا وجهها ويداها إلى المفصل».
٢ ـ أخرج الطبراني في «الكبير» (ج٢٤ رقم ٣٧٨)، وفي «الأوسط» رقم (٨٣٩٤)، والبيهقي (٢/ ٢٢٦) من طريق ابن لهيعة عن عياض بن عبد الله أنّه سمع إبراهيم بن عبيد بن رفاعة يخبر عن أبيه أظنه عن أسماء بنت عميس.
وخلاصة القول أنَّ الحديث حسن لغيره.

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٧٥٨، ٤٧٥٩)، وأبو داود رقم (٤١٠٢)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٣٦٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٢، ٢٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٥)، وابن المنذر كما في «فتح الباري» (٨/ ٤٨٩)، والبيهقي (٢/ ٢٣٤)، وابن مردويه كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٦٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٢)، والحاكم (٤/ ١٥٣، ٢٠٦)، والبيهقي =

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، والزينة الظاهرة الوجه، وكُحْل العينين، وخضاب الكفّ، والخاتم، فهذا تظهره في بيتها لمن دخل عليها، ثم قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الآية، والزينة التي تبديها لهؤلاء قُرْطها، وقلادتها، وسوارها، فأما خلخالها، ومِعْضَدُها، ونحرها، وشعرها، فإنها لا تبديه إلّا لزوجها.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس[(٢)] ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ قال: هنّ: المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية، وهو النحر، والقُرط، والوشاح، وما يحرم أن يراه إلّا مَحْرَم.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقي في سننه، عن عمر بن الخطاب[(٣)]: أنه كتب إلى أبي عُبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فانهَ مَنْ قِبلك عن ذلك، فإنه لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلّا أهل ملتها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، عن ابن عباس[(٤)] قال: لا بأس أن يرى العبد شَعَر سيدته.

وأخرج أبو داود، وابن مردويه، والبيهقي عن أنس[(٥)]: «أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهب لها، وعلى فاطمة ثوب إذا قنع به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا

= (٢/ ٢٣٤)، والبخاري في «صحيحه» رقم (٤٧٥٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٩٣).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٦/ ٢٣٠) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٨٣)، وأخرجه عبد بن حميد كما في «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٢٢١) بسند ضعيف، لضعف الكلبي. وهو محمد بن السائب بن بشر الكلبي، وقد صرح بأن كل ما رواه عن أبي صالح عن ابن عباس كذب. «تقريب التهذيب» رقم (٥٩٣٨).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور كما في «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٢٢٠)، والبيهقي (٧/ ٩٠٥) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٣٤).

(٥) أخرجه أبو داود رقم (٤١٠٦)، والبيهقي (٧/ ٩٥). وهو حديث صحيح.

غطت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبيّ ﷺ ما تلقى قال: إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك»، وإسناده في سنن أبي داود هكذا: حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس فذكره.

وأخرج عبد الرزاق، وأحمد عن أم سلمة[(١)]: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحداكنّ مُكاتب، وكان له ما يؤدي، فلتحتجب منه»، وإسناد أحمد هكذا: حدّثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عَنْ نبهان: أن أم سلمة، فذكره.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير عن ابن عباس[(٢)] في قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ قال: هذا الذي لا تستحيي مِنْه النساء.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس[(٣)] في الآية قال: هذا الرجل يتبع القومَ، وهو مغفل في عقله، لا يكترث للنساء، ولا يشتهي النساء.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر[(٤)] عنه في الآية قال: كان الرجل يتبع الرجل في الزمان الأوّل لا يغار عليه، ولا ترهب المرأة أن تضع خمارها عنده، وهو الأحمق الذي لا حاجة له في النساء.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[(٥)] عنه أيضاً في الآية قال: هو المخنّث الذي لا يقوم زُبّه.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، عن عائشة[(٦)] قالت: كان رجل

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢٦٤٧٣، ٢٦٦٢٩، ٢٦٦٥٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» رقم (١٥٧٢٩) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣١٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٨) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٨)، والبيهقي (٧/ ٩٦) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٦٦) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧٩)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣١٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٠)، عن عكرمة بسند صحيح.

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٥٧)، ومسلم رقم (٢١٨١)، وأبو داود رقم (٤١٠٧)، والنسائي في =

يدخل على أزواج النبيّ ﷺ مُخَنّث، فكانوا يعدّونه من غير أولي الإربة، «فدخل النبيّ ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه، وهو ينعت امرأة قال: إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمانٍ، قال النبيّ ﷺ: ألا أرى هذا يَعْرِف ما ها هنا لا يدخلنّ عليكم» فحجبوه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[1] في قوله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ وهو: أنْ تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال، أو يكون في رجلها خلاخل فتحركهن عند الرجال، فنهى الله عن ذلك؛ لأنه من عمل الشيطان.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾.

[الأيم من لا زوج لها بكراً كانت أو ثيِّباً]:

لما أمر سبحانه بغضّ الأبصار، وحفظ الفروج أرشَد بعد ذلك إلى ما يحلّ للعباد مِنْ النكاح الذي يكون به قضاء الشهوة، وسكون دواعي الزنا، ويسهل بعده غضّ البصر عن المحرّمات، وحفظ الفرج عمَّا لا يحل، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ الأيّم: التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً، والجمع أيامى، والأصل أيايم، والأيم بتشديد [٣/٣٠٠] الياء، ويشمل الرجل والمرأة.

= «الكبرى» رقم (٩٢٤٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٦٩، ٢٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٥٧٩)، والبيهقي (٧/٩٦).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٥٧٩، ٢٥٨٠) بسند صحيح.

قال أَبو عَمْرو، والكسائي: اتفق أهلُ اللغة[١] على أنَّ الأيّم في الأصل هي: المرأة التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً.

قال أبو عُبيد[٢]: يقال رجل أيم، وامرأة أيم، وأكثر ما يكون في النِّساء، وهو كالمستعار في الرجال، ومنه قول أُمية ابن أبي الصلت[٣]:

لـلّـهِ دَرُّ بَـنِـي عَـلـي ... أيِّـم مـنُـهـمْ ونَـاكِـحُ

ومِنْه أيضاً قول الآخر[٤]:

لَقَد إمِتُ حتى لامَني كلُّ صاحبٍ ... رجاءَ بسَلْمَى أن تئيمَ كما إمِتُ

والخطابُ في الآية للأولياء، وقيل: للأزواج، والأوّلُ أرجحُ[٥]، وفيه دليل على أنّ المرأة لا تنكح[٦] نفسَها، وقد خالف في ذلك أبو حنيفة[٧].

[حكم النكاح]:

واختلف أهل العلم في النِّكاح هل مباح، أو مستحب، أو واجب؟، فذهب إلى الأوّل الشافعي[٨]، وغيره، وإلى الثاني مالك[٩]، وأبو حنيفة[١٠]، وإلى الثالث[١١] بعض أهل العلم على تفصيل لهم في ذلك، فقالوا: إن خشي على نفسه الوقوع في المعصية وجب عليه وإلّا فلا.

والظاهر أنّ القائلين بالإباحة والاستحباب لا يخالفون في الوجوب مع تلك الخشية، وبالجملة، فهو مع عدمها سُنَّة مِنْ السنن المؤكدة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح[١١] بعد

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٣٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٢٩).
(٢) ذكره أبو عبيد في «الغريبين» (١/ ١٢٧)، عن أبي عبيدة. وهو في «مجاز القرآن» (٢/ ٦٥).
(٣) انظر: «ديوان أُمية بن أبي الصلت» (ص٣٦).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٣٠).
(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٦٤).
(٦) «المغني» (٩/ ٣٤٥)، و«فتح الباري» (٩/ ١٨٧)، و«البيان» (٩/ ١٥٢).
(٧) «المبسوط» للسرخسي (٥/ ١٠ ـ ١١)، و«البناية في شرح الهداية» (٤/ ٥٧٤).
(٨) «البيان» للعمراني (٩/ ١٤٨)، و«الإنصاح عن معاني الصحاح» (٨/ ٥).
(٩) «المفهم» (٤/ ٨٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٦٤)، و«المعلم بفوائد مسلم» (٢/ ٨٥).
(١٠) «المبسوط» (٥/ ٨ ـ ١٠)، و«البناية في شرح الهداية» (٤/ ٥٧٠).
(١١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤١)، والبخاري رقم (٥٠٦٣)، ومسلم رقم (٥/ ١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.

ترغيبه في النكاح: «ومَنْ رغب عن سُنّتي فليس مني». ولكن مع القدرة عليه وعلى مُؤنهِ كما سيأتي قريباً».

والمراد بالأيامى هنا: الأحرار والحرائر، وأمّا المماليك فقد بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ قرأ الجمهور[١] «عبادكم»، وقرأ الحسن[٢] «عبيدكم».

قال الفراء[٣]: ويجوز «وإماءكم» بالنصب بردّه على الصالحين، والصلاح هو الإيمان.

وذكر سبحانه الصلاح في المماليك دون الأحرار لأنّ الغالب في الأحرار الصلاح بخلاف المماليك، وفيه دليل على أن المملوك لا يزوّج نفسَه، وإنما يزوّجه مالكُه.

وقد ذهب الجمهور[٤] إلى أنه يجوز للسيد أن يُكْرِه عبدَه وأمته على النكاح.

وقال مالك[٥]: لا يجوز.

ثم رجع سبحانه إلى الكلام في الأحرار، فقال: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾؛ أي: لا تمتنعوا من تزويج الأحرار بسبب فقر الرجل والمرأة، أو أحدهما، فإنهم إنْ يكونوا فقراء يُغْنهم الله سبحانه، ويتفضل عليهم بذلك.

قال الزجاج[٦]: حثّ الله على النكاح، وأعلم أنّه سبب لنفي الفقر.

ولا يلزم[٧] أن يكون هذا حاصلاً لكل فقير إذا تزوّج فإن ذلك مقيد بالمشيئة.

وقد يوجد في الخارج كثير من الفقراء لا يحصل لهم الغنى إذا تزوّجوا. وقيل: المعنى إنه يغنيه بغنى[٨] النّفْس.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٢٨).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٣١). قراءة الحسن شاذة.
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥١).
(٤) «المغني» (٩/ ٤٠٨)، و«فتح الباري» (٩/ ١٩٢ ـ ١٩٣)، و«البيان» (٩/ ١٧٩)، و«مختصر اختلاف العلماء» (٢/ ٣١٢).
(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٦٦)، و«المدونة» (٢/ ١٤٠)، و«التمهيد» (١١/ ٣٧).
(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٠). (٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٣٢).
(٨) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٦٧).

وقيل: المعنى إنْ يكونوا فقراء إلى النِّكاح يغنهم الله من فضله بالحلال ليتعففوا عن الزنا.

والوجه الأوّل أولى، ويدلّ عليه قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨]. فيُحمل المطلق هنا على المقيد هناك.

وجملة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ مؤكِّدة لما قبلها، ومقرّرة لها، والمراد: أنه سبحانه ذو سعة لا ينقص مِنْ سعة مُلكه غِنى مَنْ يغنيه من عباده، عليم بمصالح خلقه، يغني مَنْ يشاء، ويُفْقِر مَنْ يشاء.

ثم ذكر سبحانه حال العاجزين عن النكاح بعد بيان جواز مناكحتهم؛ إرشاداً لهم إلى ما هو الأولى، فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ استعفّ طلبَ أَنْ يكون عفيفاً؛ أي: ليطلب العفةَ عَنْ الزنا والحرام مَنْ لا يجد نكاحاً؛ أي: سبب نكاح وهو المال.

وقيل: النكاح هنا ما تُنكح به المرأة من المهر والنفقة؛ كاللِّحاف اسم لما يلتحف به، واللِّباس اسم لما يلبس، وقيّد سبحانه هذا النهي بتلك الغاية، وهي ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: يرزقهم رزقاً يستغنون به ويتمكنون بسببه من النكاح، وفي هذه الآية ما يدل على تقييد الجملة الأولى. وهي: إن يكونوا فقراء يغنهم الله[1] بالمشيئة كما ذكرنا، فإنّه لو كان وعداً حتماً لا محالة في حصوله لكان الغنى والزواج متلازمين، وحينئذٍ لا يكون للأمر بالاستعفاف مع الفقر كثير فائدة، فإنّه سيغنى عند تزوّجه لا محالة، فيكون في تزوّجه مع فقره تحصيل للغنى، إلّا أن يقال: إنّ هذا الأمر بالاستعفاف للعاجز عَنْ تحصيل مبادئ النكاح، ولا ينافي ذلك وقوع الغنى له مِنْ بعد أن ينكح، فإنه قد صدق عليه أنه لم يجد نكاحاً إذا كان غير واجد لأسبابه التي يتحصل بها وأعظمها المال.

ثم لما رغب سبحانه في تزويج الصالحين مِنْ العبيد والإماء، أرشد المالكين إلى طريقة يصير بها المملوك من جملة الأحرار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ الموصول في محل رفع[2] على الابتداء، ويجوز أن يكون في محل

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٣/ ٢١٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٦٧).

(٢) «الفريد» (٣/ ٥٩٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٣٦).

نصب[١] على إضمار فعل يُفسِّره ما بعده؛ أي: وكاتبوا الذين يبتغون الكتاب، والكتاب: مصدر كاتب كالمكاتبة، يقال: كاتب، يُكاتب، كِتاباً، ومكاتبة، كما يقال: قاتل، يُقاتل، قِتالاً، ومُقاتلة.

وقيل: الكتاب ها هنا: اسمٌ عين للكتاب الذي يكتب فيه الشيء، وذلك لأنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه، وعلى أنفسهم بذلك كتاباً، فيكون المعنى: الذين يطلبون كتابَ المكاتبة.

ومعنى[٢] المكاتبة في الشرع: أَنْ يكاتب الرجلُ عبدَه على مالٍ يؤديه منجّماً، فإذا أدّاه فهو حرّ.

وظاهر قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾: أنّ العبد إذا طلب الكتابة مِنْ سيده وجب[٣] عليه أن يكاتبه بالشرط المذكور بعده، وهو ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، والخير هو: القُدرة على أداء ما كوتب عليه، وإن لم يكن له مال، وقيل: هو المال فقط، كما ذهب إليه مجاهد[٤]، والحسن[٥]، وعطاء[٦]، والضحاك، وطاوس[٧]، ومقاتل.

وذهب إلى الأوّل[٧] ابن عمر[٨]، وابن زيد[٩]، واختاره مالك[١٠]، والشافعي[١١]،

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٦٩)، و«التعريفات» للجرجاني (ص١٦٢)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ١٥٠).
(٣) «المحلى» (٩/ ٢٢٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٣٧).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٨١) بسند صحيح.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٢٣٧).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٨١) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٩)، عن مجاهد وطاووس بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٧٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٨/ ٣٧٤)، والبيهقي (١٠/ ٣١٨) من طريق سفيان، به.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٢٩) بسند صحيح.
(١٠) «التمهيد» (٢٢/ ١٦٤)، و«الاستذكار» (٢٣/ ٢٤٨).
(١١) «روضة الطالبين» (١٢/ ٢٠٩)، و«البيان» للعمراني (٨/ ٤١٠).

والفراء[1]، والزجاج[2].

قال الفراء[1]: يقول: إنْ رجوتم عندهم وفاءً وتأديةً للمال.

وقال الزجاج[2]: لما قال «فيهم» كان الأظهر الاكتساب، والوفاء، وأداء الأمانة.

وقال النخعي[3]: إن الخير: الدِّينَ والأمانة.

وروي مثل هذا عن الحسن[4].

وقال عَبيدة[5] السلماني: إقامة الصلاة.

قال الطحاوي[6]: وقول مَنْ قال: إنه المال لا يصح عندنا؛ لأن العبد مال لمولاه، فكيف يكون له مال؟ قال: والمعنى عندنا: إن علمتم فيهم الدين والصدق.

قال أبو عمر بن عبد البرّ[7]: مَنْ لم يقل: إنّ الخير هنا المال أنكر أن يقال: إن علمتم فيهم مالاً، وإنما يقال: علمت فيه الخير، والصلاح، والأمانة، ولا يقال: علمت فيه المال. هذا حاصل ما وقع من الاختلاف بين أهل العلم في الخير المذكور في هذه الآية.

وإذا تقرّر لك هذا، فاعلم: أنّه قد ذهب إلى ظاهر ما يقتضيه الأمر المذكور في الآية من الوجوب. عكرمة[8]، وعطاء[9]، ومسروق[10]، وعمرو بن دينار[10]، والضحاك[10]، وأهل الظاهر[11]، فقالوا: يجب على السيد أن يكاتب مملوكه إذا طلب منه ذلك، وعلم فيه خيراً.

وقال الجمهور[12] من أهل العلم: لا يجب ذلك، وتمسكوا بالإجماع على أنه

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥١). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٠ ـ ٤١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (١٥٥٧٥)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٠٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠) بسند صحيح.

(٤) أخرجه عبد الرزاق رقم (١٥٥٧٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٠١) بسند صحيح.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٥٥٧٣).

(٦) في «مختصر اختلاف العلماء» (٤/ ٤١٢ ـ ٤١٣).

(٧) في «الاستذكار» (٢٣/ ٢٤٩).

(٨) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٣٧).

(٩) ذكره عنه المرتضى في «البحر الزخار» (٤/ ٢١٢).

(١٠) ذكره ابن حزم في «المحلى» (٩/ ٢٢٣). (١١) في «المحلى» (٩/ ٢٢٢).

(١٢) «فتح الباري» (٥/ ١٨٧)، و«روضة الطالبين» (١٢/ ٢٢٣)، و«الاختيار» (٤/ ٢٧٧)، و«عيون المجالس» (٤/ ١٨٤٦).

لو سأل العبد سيده أَنْ يبيعه مِنْ غيره لم يجب عليه ذلك، ولم يجبر عليه، فكذا الكتابة لأنها معاوضة.

ولا يخفاك أن هذه حجة واهية، وشبهة داحضة، والحق ما قاله الأوّلون، وبه قال عمر بن الخطاب(١)، وابن عباس(٢) واختاره ابن جرير(٣).

ثم أمر سبحانه الموالي بالإحسان إلى المكاتبين، فقال: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ففي هذه الآية: الأمرُ للمالكين بإعانة المكاتبين على مال الكتابة، إما بأنْ يعطوهم شيئاً مِنْ المال، أو بأن يحطوا عنهم مما كوتبوا عليه.

وظاهر الآية عدم تقدير ذلك بمقدار، وقيل: الثلث(٤)، وقيل: الربع(٥)، وقيل: العشر(٦)، ولعلّ وجه تخصيص الموالي بهذا الأمر هو كون الكلام فيهم، وسياق الكلام معهم فإنّهم المأمورون بالكتابة.

وقال الحسن(٧)، والنخعي(٨)، وبريدة(٩): إن الخطاب بقوله: وآتوهم لجميع الناس.

وقال زيد بن أسلم(١٠): إنّ الخطاب للولاة؛ بأن يعطوا المكاتبين من مال الصدقة حظهم كما في قوله سبحانه: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧، التوبة: ٦٠]، وللمكاتب أحكام معروفة إذا وفى ببعض مال الكتابة.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٧٦)، والبيهقي (١٠/٣١٩)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٨/٣٧١، ٣٧٢) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٧٦ ـ ٢٧٧) بسند ضعيف.
(٣) في «جامع البيان» (١٧/٢٧٨).
(٤) واستحسنه ابن مسعود والحسن بن أبي الحسن. «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/٢٤٩).
(٥) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٥٥٩٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (٥٠١٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٨٣)، عن علي رضي الله عنه من طريق عطاء بن السائب، به.
(٦) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (١٥٥٩٤).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٨٨) من طريق ابن عبلة، به.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٨٨) بسند صحيح.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٥٨٦) بسند حسن.
(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٢٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٥٨٦، ٢٥٨٨) بسند صحيح.

[النهي عن إكراه الفتيات على البغاء]:

ثم إنه سبحانه لما أرشد الموالي إلى نكاح الصالحين من المماليك، نهى المسلمين عمَّا كان يفعله أهل الجاهلية من إكراه إمائهم على الزنا، فقال: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ والمراد بالفتيات: هنا الإماء، وإنْ كان الفتى والفتاة قد يطلقان على الأحرار في مواضع أخر.

والبِغاء: الزنا، مصدر بغتِ المرأةُ تبغي بِغاءً: إذا زنت، وهذا مختصّ بزنا النِّساء، فلا يقال للرجل إذا زنا: إنه بغيّ، وشرط الله سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾؛ لأنّ الإكراه لا يتصور إلّا عند إرادتهم للتحصن، فإن مَنْ لم ترد التحصن لا يصح أن يقال لها: مكرهة على الزنا، والمراد بالتحصن هنا: التعفف والتزوج.

وقيل: إن هذا القيد[1] راجع إلى الأيامى.

قال الزجّاج[2]، والحسن بن الفضل[3]: في الكلام تقديم وتأخير؛ أي: وأنكحوا الأيامى، والصالحين من عبادكم، وإمائكم إن أردن تحصناً.

وقيل: هذا الشرط ملغى[4].

وقيل: إن هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه، فإنّهم كانوا يكرهونهنّ وهنّ يردن التعفف، وليس لتخصص النهي بصورة إرادتهنّ التعفف.

وقيل: إنّ هذا الشرط خرج مخرج الغالب[5]؛ لأنّ الغالب: أن الإكراه لا يكون إلّا عند إرادة التحصّن، فلا يلزم منه جواز الإكراه عند عدم إرادة التحصن، وهذا الوجه أقوى هذه الوجوه، فإنّ الأَمَة قد تكون غير مُريدةً للحلال ولا للحرام كما فيمن لا رغبة لها في النّكاح والصغيرة فتوصف بأنها مكرهة على الزنا مع عدم إرادتها للتحصّن فلا يتم ما قيل: مِنْ أنه [٣/٣٠١] لا يتصور الإكراه إلّا عند إرادة التحصّن، إلّا أنْ يقال: إن المراد بالتحصن هنا مجرّد التعفف، وأنّه لا يصدق على مَنْ كانت تريد الزواج أنها مريدة للتحصن، وهو بعيد.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٥٣). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٠).
(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ٣٤٤).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٥٣)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).
(٥) «روح المعاني» (١٨/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١١٢ ـ ١١٣).

فقد قال الحبر ابن عباس[١]: إن المراد بالتحصن التعفف، والتزوّج، وتابعه على ذلك غيرُه.

ثم علَّل سبحانه هذا النهي بقوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهو: ما تكسبه الأَمَة بفرجها، وهذا التعليل[٢] أيضاً خارج مخرج الغالب، والمعنى: أن هذا العَرَض هو الذي كان يحملهم على إكراه الإماء على البغاء في الغالب؛ لأن إكراه الرجل لأمته على البغاء لا لفائدة له أصلاً لا يصدر مثله عن العقلاء فلا يدلّ هذا التعليل على أنّه يجوز له أن يكرهها إذا لم يكن مُبتغياً بإكراهها عَرَض الحياة الدنيا.

وقيل: إنّ هذا التعليل للإكراه هو باعتبار أنّ عادتهم كانت كذلك، لا أنه مدار للنهي عن الإكراه لهنّ، وهذا يلاقي المعنى الأوّل ولا يخالفه. ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا مقرّر لما قبله، ومؤكد له.

والمعنى: أن عقوبة الإكراه راجعة إلى المكرهين لا إلى المكرهات، كما تدلّ عليه قراءة ابن مسعود[٣]، وجابر بن عبد الله، وسعيد بن جبير: «فإنّ الله غفور رحيم لهنّ».

قيل: وفي هذا التفسير بُعد؛ لأنّ المكرهةَ على الزنا غير آثمة.

وأجيب: بأنّها، وإن كانت مكرهة، فربما لا تخلو في تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة إمّا بحكم الجبلّة البشرية أو يكون الإكراه قاصراً عَنْ حدّ الإلجاء المزيل للاختيار.

وقيل: إن المعنى: فإن الله من بعد إكراههنّ غفور رحيم لهم: إما مطلقاً أو بشرط التوبة.

ولما فرغ سبحانه مِنْ بيان تلك[٤] الأحكام، شرع في وصف القرآن بصفات ثلاث:

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٣٤٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٥٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤١).

(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٣٤٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١١٣).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٥٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٤٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤١). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

(٤) «جامع البيان» (١٧/ ٢٩٤).

الأولى: أنه ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات في أنفسهن، أو موضِّحات، فتدخل الآيات المذكورة في هذه الصورة دخولاً أوّلياً.

والصفة الثانية: كونه ﴿وَمَثَلًا﴾ مِنْ الذين خلوا من قبل هؤلاء؛ أي: مثلاً كائناً مِنْ جهة أمثال الذين مضوا من القَصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة، فإنّ العجب من قصة عائشة رضي الله عنها، هو كالعجب من قصة يوسف، ومريم، وما اتُهما به، ثم تبين بطلانه، وبراءتهما سلام الله عليهما.

والصفة الثالثة: كونه ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ينتفع بها المتقون خاصةً، فيقتدون بما فيه من الأوامر، وينزجرون عما فيه من النواهي.

وأما غير المتقين، فإنّ الله قد ختم على قلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة عَنْ سماع المواعظ، والاعتبار بقصص الذين خلوا، وفَهِمِ ما تشتمل عليه الآيات البينات.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَٰمَىٰ﴾ الآية، قال: أمر الله سبحانه بالنكاح، ورغَّبهم فيه، وأمرهم أن يزوّجوا أحرارهم، وعبيدهم، ووعدهم في ذلك الغنى، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم(٢)، عن أبي بكر الصدّيق قال: أطيعوا الله فيما أمركم من النكاح يُنْجِزْ لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وعبد بن حميد، عن قتادة(٣) قال: ذكر لنا: أن عمر بن الخطاب قال: ما رأيت كرجل لم يلتمس الغنى في الباءة، وقد وعَد اللهُ فيها ما وعد، فقال: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٨٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٨٢) بسند منقطع.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٠٣٩٣) من طرق بسند منقطع، قتادة لم يسمع من عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة[١]، عنه نحوه من طريق أخرى.

وأخرج ابن جرير[٢]، عن ابن مسعود نحوه.

وأخرج البزار، والدارقطني في العلل، والحاكم، وابن مردويه، والديلمي من طريق عروة عن عائشة[٣] قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنكحوا النساء، فإنهنّ يأتينكم بالمال».

وأخرجه ابن أبي شيبة، وأبو داود في «مراسيله»، عن عروة[٤] مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ، ولم يذكر عائشة، وهو مرسل.

وأخرج عبد الرزاق، وأحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في «السنن»، عن أبي هريرة[٥] قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حقّ على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله».

وقد ورد في «الترغيب» في مُطلق النكاح أحاديث كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

وأخرج الخطيب[٦] في «تاريخه» عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قال: ليتزوّج مَنْ لا يجد فإن الله سيغنيه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٣٨٥) بسند ضعيف. وهذه الطرق يقوي بعضها بعضاً.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٥) بسند ضعيف، القاسم بن الوليد لم يسمع من ابن مسعود.

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (١٤٠٢ ـ «كشف»)، والدارقطني (٥/ق١٢٤ ـ أ)، والحاكم (٢/ ١٦١)، وابن مردويه كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٤٣، ٤٤٤)، والديلمي في «مسنده» رقم (٢٢٩٠). وهو حديث ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٢٧)، وأبو داود في «مراسيله» (ص١٤٠). وقال الدارقطني: «المرسل أصح».

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٩٥٤٢)، وأحمد رقم (٧٤١٦)، والترمذي رقم (١٦٥٥)، والنسائي رقم (٣١٢٠، ٣٢١٨)، وابن ماجه رقم (٢٥١٨)، وابن حبان رقم (٤٠٣٠).

(٦) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (١/ ٣٦٥) بسند ضعيف جدّاً.

• وقد أورد له الذهبي هذا الحديث وقال: «قال أبو حاتم: ليس حديثه بشيء»، وقال ابن حبان: «لا يجوز أن يحتج به». «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٥٦).

وأخرج ابن السكن[١] في «معرفة الصحابة»، عن عبد الله بن صَبيح، عن أبيه قال: كنتُ مملوكاً لحويطب بن عبد العُزّى، فسألته الكتابة، فأبى، فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير عن أنس بن مالك[٢] قال: سألني سيرينُ المكاتبةَ، فأبيت عليه، فأتى عمر بن الخطاب، فأقبل عليّ بالدرّة، وقال: كاتبه، وتلا ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، فكاتبته. قال ابن كثير[٣]: إنّ إسناده صحيح.

وأخرج أبو داود في «المراسيل»، والبيهقي في «سُننه»، عن يحيى بن أبي كثير[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال: إن علمتم فيهم حرفةً، ولا ترسلوهم كَلّاً على الناس».

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس[٥] ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ قال: المال.

وأخرج ابن مردويه[٦] عن عليّ مثله.

وأخرج البيهقي، عن ابن عباس[٧] في الآية قال: أمانةً ووفاء.

وأخرج عنه[٨] أيضاً قال: إن علمت مكاتبك يقضيك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عنه[٩] في الآية

---

(١) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٤٠٧)، وعزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٨٩).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٥٥٧٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٦) بسند صحيح.
(٣) في «تفسيره» (١٠/ ٢٢٩).
(٤) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص١٣٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٣١٧) بسند معضل، يحيى بن أبي كثير، تابع تابعي.
(٥) أخرجه عبد الرزاق رقم (١٥٥٧٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٠٢)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٨٤)، والبيهقي (١٠/ ٣١٨) بسند صحيح.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٢).
(٧) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٣١٧).
(٨) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٣١٧).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٨٣، =

قال: إن علمتم لهم حيلة، ولا تلقوا مؤنتهم على المسلمين ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْۚ﴾؛ يعني: ضعوا عنهم من مكاتبتهم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي، عن نافع[١] قال: كان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة، ويقول: يطعمني مِنْ أوساخ الناس.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس[٢] في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ الآية: أمر المؤمنين أَنْ يعينوا في الرقاب. وقال عليّ بن أبي طالب[٣]: أمر الله السيد أن يدع للمكاتب الربع من ثمنه، وهذا تعليمٌ من الله ليس بفريضة ولكن فيه أجر.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وعبد بن حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والروياني في «مسنده»، والضياء المقدسي في «المختارة»، عن بُريدة[٤] في الآية قال: حثّ الناسَ عليه أن يُعطوه.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، ومسلم، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي من طريق أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله[٥] قال: كان عبد الله بن أُبيّ يقول لجارية له: اذهبي فابغينا شيئاً، وكانت كارهةً، فأنزل الله «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههنّ فإن الله من بعد إكراههنّ لهنّ[٦] غفور رحيم» هكذا كان يقرؤها.

= ٢٥٨٤، ٢٥٨٧)، والبيهقي (١٠/ ٣١٧، ٣٣٠) بسند صحيح.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٧٨)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٨/ ٣٧٤)، والبيهقي (١٠/ ٣١٨) من طريق عبد الكريم الجزري، به.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٨٦) بسند ضعيف.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٨٦).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٨٦).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ومسلم رقم (٢٦/ ٣٠٢٩)، والبزار كما في «تفسير ابن كثير» في «تفسيره» (١٠/ ٢٣٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩١)، والبيهقي (٨/ ٩).

(٦) «المحتسب» (٢/ ١٠٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٤٩). =

وذكر مسلم في «صحيحه» عن جابر[١]: أنّ جارية لعبد الله بن أبيّ: يقال لها: مُسَيْكة، وأخرى يقال لها: أُميمة، فكان يريدهما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبيّ ﷺ، فأنزل الله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾ الآية.

وأخرج البزار، وابن مردويه، عن أنس[٢] نحو حديث جابر الأوّل.

وأخرج ابن مردويه، عن عليّ بن أبي طالب[٣] في الآية قال: كان أهل الجاهلية يُبَغِّين إماءَهم، فنهوا عن ذلك في الإسلام.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن ابن عباس[٤] قال: كانوا في الجاهلية يُكْرهون إماءهم على الزنا، يأخذون أجورهنّ، فنزلت الآية.

وقد ورد النهي منه ﷺ عن مهر البغيّ[٥]، وكسب الحجام[٦]، وحلوان الكاهن[٥].

= وقال النووي في شرحه لـ«صحيح مسلم» (١٨/ ١٦٣): «هكذا وقع في النسخ كلها: (لهن غفور رحيم) وهذا تفسير، ولم يرد به أنه لفظة: (لهنَّ) منزلة، فإنّه لم يقرأ بها أحد، وإنما هي تفسير وبيان يردان المغفرة والرحمة لهنَّ لكونهنَّ مكرهات، لا لمن أكرههنَّ».

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٧/ ٣٠٢٩).

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٤٠ ـ «كشف»).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٣): «وفيه محمد بن الحجاج اللخمي وهو كذاب».

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣) بسند ضعيف.

(٥) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو قال: «نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب، ومهر البغيِّ، وحلوان الكاهن».
[أخرجه أحمد (٤/ ١١٨، ١١٩، ١٢٠)، والبخاري رقم (٢٢٣٧)، ومسلم رقم (٣٩/ ١٥٦٧)، وأبو داود رقم (٣٤٨١)، والترمذي رقم (١٢٧٦)، والنسائي رقم (٤٦٦٦)، وابن ماجه رقم (٢١٥٩)].

(٦) عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النّبيّ ﷺ نهى عن كسب الحجَّام، ومهر البغي، وثمن الكلب.
[أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٩٩)، وأبو داود رقم (٣٤٨٤)، والنسائي (٧/ ١٩٠)، وابن ماجه رقم (٢١٦٠)، والبيهقي (٦/ ١٢٦)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٤/ ٥٣)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» رقم (٢٠٣٨). وهو حديث صحيح].

[﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾]:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ
كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ
لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ
﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ
فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن
يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

لما بيّن سبحانه من الأحكام ما بيَّن، أردف ذلك بكونه سبحانه في غاية الكمال، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾، وهذه الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها، والاسم الشريف[(١)] مبتدأ، ونورُ السمٰوات والأرض خبرُه، إما على حذف مضاف: أي: ذو نور السمٰوات والأرض، أو لكون المراد المبالغة في وصفه سبحانه بأنه نور لكمال جلاله، وظهور عدله، وبسطه أحكامه، كما يُقال: فلان نور البلد، وقمر الزمن، وشَمْس العصر، ومنه قول النابغة:[(٢)]

فإنَّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا ظهرتَ لم يبقَ فيهنّ كوكبُ

وقول الآخر[(٣)]:

[هلَّا قَصَدتَ مِن البِلَادِ لمُفضِلِ][(٤)] ... قَمَرِ القَبَائلِ خالدِ بنِ يزيدِ

ومن ذلك قول الشاعر:

---

(١) «التبيان» (٢/ ٩٦٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٦١)، و«الفريد» (٣/ ٥٩٧).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١٨).

(٣) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (١/ ٣٩٤).

(٤) كذا في المخطوط، والذي في «الديوان».

كنتَ الربيعَ أمامهُ ووراءهُ

إِذَا سارَ عبدُ اللَّهِ من مَرْوَ ليلةً فقد سارَ منها نورُها وجمالَها[١]

وقول الآخر:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمسِ الضُّحى نوراً ومن فَلَق الصَّباحِ عمُودا[٢]

[النور لُغةً]:

ومعنى النور في اللغة[٣]: الضياء، وهو: الذي يُبيّن الأشياء، ويُري الأبصار حقيقة ما تراه، فيجوز إطلاق النور على الله سبحانه على طريقة المدح، ولكونه أوجد الأشياء المنوّرة، وأوجد أنوارها، ونوّرها، ويدلّ على هذا المعنى قراءة[٤] زيد بن عليّ، وأبي جعفر، وعبد العزيز المكي «اللهُ نَوَّرَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ» على صيغة الفعل الماضي، وفاعله ضمير يرجع إلى الله، [٣/٣٠٢] والسماوات مفعوله.

فمعنى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾: إنه سبحانه صيّرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما، وكمال تدبيره ﷻ لمن فيهما، كما يقال: الملك نوّر البلد، هكذا قال الحسن[٥]، ومجاهد[٦]، والأزهري[٧]، والضحاك[٨]، والقرظي[٩]، وابن عرفة[١٠]، وابن جرير[١١]، وغيرهم، ومثله قول الشاعر[١٢]:

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٥٥).
(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» (١/ ٤١٣).
(٣) سيأتي ذكره.
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٤٣)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٦١)، و«زاد المسير» (٦/ ٤٠)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠١). هي قراءة شاذة، والرواية عن أبي جعفر شاذة، والمتواتر عن العشرة (نُوْرُ) اسمٌ بضم فسكون.
(٥) «النكت والعيون» (٤/ ١٠٢)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٤٥)، ط. دار طيبة.
(٦) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٤٥). (٧) في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٣٠).
(٨) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٤٥).
(٩) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٤٥)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٢٠).
(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٥٦).
(١١) في «جامع البيان» (١٧/ ٢٩٥).
(١٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٥٦)، ونسبه لجرير، ولم نقف عليه في «ديوانه». وانظره في: «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٣٥).

وأنتَ لَنَا نورٌ وغَيْثٌ وعِصْمةٌ ... ونَبتٌ لمن يرجُو نَدَاكَ ورِيْقُ

وقال هشام(١) الجواليقي وطائفة مِنْ المجسّمة: إنه سبحانه نور لا كالأنوار، وجسمٌ لا كالأجسام.

[القول في «المشكاة»]:

وقولُه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ مبتدأ(١)، وخبره ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾؛ أي: صفة نوره الفائض عنه، الظاهر على الأشياء كمشكاة، والمشكاة الكُوّة في الحائط غير النافذة، كذا حكاه الواحدي(٢) عن جميع المفسرين، وحكاه القرطبي عن جمهورهم.

ووجه تخصيص المشكاة: أَنّها أجمع للضوء الذي يكون فيه من مصباح، أو غيره، وأصل المشكاة: الوعاء يُجعل فيه الشيء. وقيل: المشكاة عمود(٣) القنديل الذي فيه الفتيلة.

وقال مجاهد(٤): هي القنديل. والأوّل أولى، ومنه قول الشاعر:(٥)

كأنَّ عينيهِ مشكاتانِ في حَجرٍ(٦)

ثم قال: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو السراج ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ قال الزجاج(٧): النور في الزجاج، وضوء النار أبين منه في كلِّ شيء، وضوءه يزيد في الزجاج، ووجه ذلك: أنّ الزجاج جسمٌ شفاف يظهر فيه النور أكمل ظهور.

ثم وصف الزجاجة، فقال: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾؛ أي: منسوب إلى الدرّ لكون فيه من الصفاء والحسن ما يشابه الدرّ.

وقال الضحاك(٨): الكوكب الدرّي: الزهرة.

---

(١) «الفريد» (٣/ ٥٩٧).
(٢) في «الوسيط» (٤/ ٣٢٠).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٥٧).
(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٠٢).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٢٥٧).
(٦) وعجز البيت:

قِيضا اقتياضاً بأطراف المناقير

(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٣ ـ ٤٤).
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٥٨)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١١/ ٣٠٦).

[أوجه القراءة في كلمة ﴿دُرِّيٌّ﴾]:

قرأ أبو عمرو(١) «دِرِّيّ» بكسر الدال. قال أبو عمرو: لم أسمع أعرابياً يقول: إلّا كأنّه كوكبٌ دِرّيّ بكسر الدال، أخذوه من درأت النجومُ تدرأ إذا اندفعت.

وقرأ حمزة بضم(٢) الدال مهموزاً، وأنكره الفراء(٣)، والزجاج(٤)، والمبرد(٥).

وقال أبو عبيد(٦): إنْ ضممت الدال وجب أن لا تهمز؛ لأنه ليس في كلام العرب.

والدّراري هي المشهورة مِنْ الكواكب كالمشتري، والزهرة، والمريخ، وما يضاهيها مِنْ الثوابت.

ثم وصف المصباح بقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ و«من» هذه هي الابتدائية: أي: ابتداء إيقاد المصباح منها، وقيل: هو على تقدير مضاف؛ أي: يوقد مِنْ زيتِ شجرةٍ مباركة، والمباركة: الكثيرة المنافع.

وقيل المنمّاة، والزيتون مِنْ أعظم الثمار نماءً، ومنه قول أبي طالب يرثي مُسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس:

لَيْتَ شِعْري مسافرُ بن أبي عمروٍ ... ولَيْتٌ يَقُولُها المحزونُ
بُورِكَ الميِّتُ الغَريبُ كَمَا ... بُورك نَبعُ الرُّمان والزَّيتونُ

قيل: ومِنْ بركتها أن أغصانها تورق من أسفلها إلى أعلاها، وهي إدام، ودهان، ودباغ، ووقود، وليس فيها شيء إلّا وفيه منفعة.

ثم وصفها بأنها ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾. وقد اختلف المفسرون في معنى هذا الوصف، فقال عكرمة(٧)، وقتادة(٨)، وغيرهم: إن الشرقية هي التي تصيبها الشمس إذا

---

(١) «النشر» (٢/ ٣٣٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٣٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٠). الصواب في هذا: قرأ أبو عمرو والكسائي (دِرِّئ) بكسر الدال وتشديد الراء مكسورة وياء مدية فهمزة مرفوعة منوّنة وكذا قرأ أبو بكر وحمزة غير أنهما يضمان الدال، وقرأ باقي العشرة بضم الدال وتشديد الراء مكسورة، وإبدال الهمزة ياءً وادغامها في الياء منوناً. انظر: تخريج القراءات في فتح القدير (ص٢٥٤).

(٢) «التيسير» (ص١٦٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٦٦).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٢). (٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٤).

(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

(٦) ذكره الجوهري في «الصحاح» (١/ ٤٩).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٠) بسند حسن.

(٨) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٠٤).

شرقت، ولا تصيبها إذا غربت. والغربية هي التي تصيبها إذا غربت، ولا تصيبها إذا شرقت. وهذه الزيتونة هي في صحراء بحيث لا يسترها عن الشمس شيء لا في حال شروقها، ولا في حال غروبها، وما كانت من الزيتون هكذا، فثمرها أجود.

وقيل: إنّ المعنى: إنها شجرة في دوحة قد أحاطت بها، فهي غير منكشفة من جهة الشرق، ولا مِنْ جهة الغرب، حكى هذا ابن جرير عن ابن عباس[١].

قال ابن عطية[٢]: وهذا لا يصح عن ابن عباس؛ لأن الثمرة التي بهذه الصفة يَفْسُد جناها، وذلك مشاهد في الوجود.

ورجّح القول الأوّل الفراء[٣]، والزجاج[٤].

وقال الحسن[٥]: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مَثَلٌ ضربه الله لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية.

قال الثعلبي[٦]: قد أفصح القرآن بأنّها مِنْ شجر الدنيا؛ لأن قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدل من قوله: ﴿شَجَرَةٍ﴾.

قال ابن زيد[٧]: إنها من شجر الشام، فإن الشام لا شرقيّ، ولا غربيّ، والشام هي الأرض المباركة.

وقد قُرئ «تُوقد» بالتاء[٨] الفوقية على أن الضمير راجع إلى الزجاجة دون المصباح، وبها قرأ الكوفيون.

وقرأ شيبة، ونافع، وأيوب، وسلام، وابن عامر، وأهل الشام، وحفص: «يُوقَدُ» بالتحتية[٩] مضمومة، وتخفيف القاف، وضم الدال.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١٢) بسند حسن.

(٢) في «المحرر الوجيز» (١١/ ٣٠٧). (٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٣).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٥).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١٢ ـ ٣١٣) بسند صحيح.

(٦) في «تفسيره» المسمى بـ«الكشف والبيان» (٧/ ١٠٤).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٢) بسند صحيح.

(٨) «التيسير» (ص١٦٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥)، و«النشر» (٢/ ٣٣٢). قرأ الكوفيون بالتاء (تُوقد) عدا حفص فإنّه قرأ بالتحتية.

(٩) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٣٨).

وقرأ الحسن، والسُّلمي، وأبو عَمْرو بن العلاء، وأبو جعفر «تَوقَّدَ» بالفوقية مفتوحة[(١)]، وفتح الواو، وتشديد القاف، وفتح الدال على أنه فعل ماضٍ من توقد يتوقد، والضمير في هاتين القراءتين راجع إلى المصباح.

قال النّحاس[(٢)]: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنهما جميعاً للمصباح، وهو أشبه بهذا الوصف؛ لأنّه الذي يُنير، ويُضيء، وإنّما الزجاجة وعاء له.

وقرأ نصر بن عاصم كقراءة أبي عمرو ومَنْ معه إلّا أنّه ضم الدال[(٣)] على أنه فعل مضارع، وأصله تتوقد.

ثم وصف الزيتونة بوصف آخر، فقال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ قرأ الجمهور[(٤)] «تَمْسَسْهُ» بالفوقية؛ لأن النار مؤنثة. قال أبو عبيد[(٥)]: إنه لا يعرف إلّا هذه القراءة.

وحكى أبو حاتم[(٦)]: أن السدّي روى عن أبي مالك، عن ابن عباس: أنه قرأ «يَمْسَسه» بالتحتية[(٧)] لكون تأنيث النار غير حقيقي.

والمعنى: أَنّ هذا الزيت في صفائه وإنارته يكاد يضيء بنفسه مِنْ غير أن تمسه النار أصلاً، وارتفاع ﴿نُورٌ﴾ على أنه خبر مبتدإ محذوف؛ أي: هُو نور، و﴿عَلَىٰ نُورٍۗ﴾ متعلق بمحذوف، هو صفة لنور مؤكدة له، والمعنى: هو نور كائن على نور.

قال مجاهد[(٨)]: والمراد النار على الزيت.

وقال الكلبي[(٩)]: المصباح نور، والزجاجة نور.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥ ـ ٤٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٦٩). هي قراءة متواترة ومع أبي عمرو وابن كثير ويعقوب.
(٢) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٣٨).
(٣) «التيسير» (ص١٦٢)، و«النشر» (٢/ ٣٣٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٦٩). وقراءة نصر بن عاصم شاذة.
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٤٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٣٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٦٥).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٣٨).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٣).
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١٠٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٦ ـ ٤٧). وهي قراءة شاذة.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٣) بسند صحيح.
(٩) ذكره الواحدي في (٤/ ٣٢١).

وقال السُديّ[١]: نور الإيمان، ونور القرآن ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من عبادة؛ أي: هدايةً خاصة موصلة إلى المطلوب، وليس المراد بالهداية هنا مجرّد الدِّلالة ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: يبين الأشياء بأشباهها، ونظائرها تقريباً لها إلى الأفهام، وتسهيلاً لإدراكها؛ لأنّ إبراز المعقول في هيئة المحسوس، وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يَغيب عَنْه شيء مِنْ الأشياء معقولاً كان أو محسوساً[٢]، ظاهراً، أو باطناً.

واختُلف في قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ بما هو متعلّق[٣]؛ فقيل: متعلق بما قبله؛ أي: كمشكاة في بعض بيوت الله، وهي المساجد؛ كأنّه قيل: مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيتَ وكيتَ، وقيل: متعلق بمصباح.

وقال ابن الأنباري[٤]: سمعتُ أبا العباس يقول: هو حال للمصباح، والزجاجة، والكوكب؛ كأنه قيل: وهي في بيوت.

وقيل: متعلق بتوقد؛ أي: تُوقد في بيوت.

وقد قيل: متعلق بما بعده، وهو يسبِّح؛ أي: يسبِّح له رجال في بيوت، وعلى هذا يكون قوله: ﴿فِيهَا﴾ تكريراً كقولك، زيد في الدار جالس فيها.

وقيل: إنّه منفصل عمَّا قبله؛ كأنّه قال: الله في بيوت أذن الله أن ترفع.

قال الحكيم الترمذي[٥]: وبذلك جاءت الأخبار أنّه مَنْ جلس في المسجد فإنَّما يجالس ربّه.

وقد قيل: على تقدير تعلقه بمشكاة، أو بمصباح، أو بتوقد. ما الوجه في توحيد المصباح، والمشكاة، وجمع البيوت؟، ولا تكون المشكاة الواحدة، ولا المصباح الواحد إلّا في بيت واحد.

---

(١) ذكره الواحدي في (٤/ ٣٢١)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٣) بسند حسن.
(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٣٨١).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٦٨)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٣٠٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٨٢).
(٤) في «الوقف والابتداء» (٢/ ٧٩٧).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٦٩).

وأجيب: بأن هذا من الخطاب الذي يفتح أوّله بالتوحيد، ويختم بالجمع كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، ونحوه.

وقيل: معنى في بُيوت[1]: في كلّ واحد من البيوت؛ فكأنه قال: في كلّ بيت، أو في كلّ واحد من البيوت.

واختلف الناس في البيوت، على أقوال:

الأوّل: أنَّها المساجد، وهو قول مجاهد[2]، والحسن[3]، وغيرهما[4].

الثاني: أنَّ المراد بها بيوت بيت المقدس، روي ذلك عن الحسن[5].

الثالث: أنها بيوت النبيّ ﷺ، روي عن مجاهد[6].

الرابع: هي البيوت كلها، قاله عكرمة[7].

الخامس: أنَّها المساجد الأربعة: الكعبة، ومسجد قباء، ومسجد المدينة، ومسجد بيت المقدس، قاله ابن زيد[8].

والقول الأوّل أَظْهر لقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾، والباء مِنْ بيوت تضُم، وتكسر كلّ ذلك ثابت في اللغة[9].

---

(١) «زاد المسير» (٦/ ٤٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢١٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦١، ٦٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١٦)، عن ابن عباس بسند صحيح، وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١٧)، ابن زيد بسند صحيح.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٠).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٠).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٤، ٢٦٠٥) بسند ضعيف.

(٨) ذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (١٣/ ٢٦٨).

(٩) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٣٣٣)، و«الصحاح» (١/ ٢٤٤).

ومعنى ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾: أَمَر وقَضى، ومعنى ﴿تُرۡفَعَ﴾: تُبْنى، قاله مجاهد، وعكرمة، وغيرهما[(١)]، ومِنْه قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وقال الحسن[(٢)] البصري، وغيره: معنى تُرفع تعظّم، ويرفع شأنها، وتُطهّر من الأنجاس، والأقذار، ورجحه الزجاج[(٣)].

وقيل: المراد بالرفع هنا مجموع الأمرين.

ومعنى ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾: كلّ ذكر لله ﷻ، وقيل: هو التوحيد، وقيل: المراد تلاوة القرآن، والأوّل أولى.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ قرأ ابن عامر، وأبو بكر «يُسبَّح» بفتح الباء[(٤)] الموحدة مبنياً للمفعول.

وقرأ الباقون بكسرها[(٥)] مبنياً للفاعل إلّا ابن وثّاب، وأبا حيوة، فإنهما قرآ بالتاء الفوقية[(٦)]، وكسر الموحدة، فعلى القراءة الأولى يكون القائم مقام الفاعل أحد المجرورات الثلاثة، ويكون رجالٌ مرفوع على أحد وجهين:

إمَّا بفعل مقدّر، وكأنه جواب سؤال مقدّر؛ كأنه قيل: مَنْ يسبحه؟ فقيل: يسبحه رجال.

الثاني: أن رجال مرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

وعلى القراءة الثانية يكون رجال فاعل يسبح، وعلى القراءة الثالثة [٣/٣٠٣] يكون الفاعل أيضاً رجال، وإنما أَنّث[(٧)] الفعل لكون جمع التكسير يعامل معاملة المؤنث في بعض الأحوال.

---

(١) أخرجها ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٣١٦، ٣١٧) بأسانيد صحيحة.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٣١٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦١) بسند صحيح.

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٥).

(٤) «جامع البيان» (١٧/٣١٩)، و«البحر المحيط» (٨/٤٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٩٠).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة. هما قراءتان متواترتان، وقراءة ابن وثاب وأبي حيوة شاذة.

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٨).

(٧) «روح المعاني» (١٨/ ٣٩٠).

واختُلف في هذا التسبيح ما هو؟، فالأكثرون[١] حملوه على الصلاة المفروضة، قالوا: الغدوّ: صلاة الصبح، والآصال: صلاة الظهر، والعصر، والعشاءين؛ لأنّ اسم الآصال يشملها، ومعنى بالغدوّ والآصال: بالغداة والعشي، وقيل: صلاة الصبح، والعصر، وقيل: المراد صلاة الضحى.

وقيل: المراد بالتسبيح هنا معناه[٢] الحقيقي، وهو: تنزيه الله سبحانه عمَّا لا يليق به في ذاته، وصفاته، وأفعاله، ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة بعده، وهذا أرجح ممّا قبله، لكونه المعنى الحقيقي مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأوّلون، وهو ما ذكرناه.

﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ هذه الجملة صفة لرجال؛ أي: لا تشغلهم التجارة والبيع عن الذكر؛ وخصّ التجارة بالذكر؛ لأنّها أعظم[٣] ما يشتغل به الإنسانُ عَنْ الذكر.

وقال الفراء[٤]: التجارة لأهل الجَلَب، والبيع ما باعه الرجل على بدنه، وخصّ قوم التجارة هاهنا بالشراء لذكر البيع بعدها، وبمثل قول الفراء قال الواقدي[٥]، فقال: التجار هم: الجلاب المسافرون، والباعة: هم المقيمون، ومعنى ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: هو ما تقدّم في قوله: ﴿وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾.

وقيل: المراد الآذان، وقيل: عن ذكره بأسمائه الحسنى؛ أي: يوحدونه، ويمجدونه. وقيل: المراد عن الصلاة، ويردّه ذكر الصلاة بعد الذكر هنا.

والمراد بإقام الصلاة إقامتها لمواقيتها مِنْ غير تأخير، وحُذفت التاء[٦]؛ لأن الإضافة تقوم مقامها في ثلاث كلمات جمعها الشاعر في قوله:

ثلاثةٌ تُحذفُ تاآتُها ... مُضافةً عند جَميْع النُّحاةِ
وهي إذَا شئتَ أبُو عذرِها ... وليتَ شِعْري وإقامِ الصَّلاةِ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٨٧)، و«زاد المسير» (٦/ ٤٧).
(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩). (٣) «روح المعاني» (١٨/ ٣٩١).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٣). (٥) في «الوسيط» (٣/ ٣٢١).
(٦) «الفريد» (٣/ ٦٠٢)، و«التبيان» (٢/ ٩٢٢).

وأنشد الفراء[١] في الاستشهاد للحذف المذكور في هذه الآية قول الشاعر:

إنَّ الخَليطَ أجدُّوا البينَ وانجردُوا   وأخلفُوك عِدَ الأمرِ الذي وَعَدُوا[٢]

أي: عدة الأمر، وفي هذا البيت دليلٌ على أن الحذف مع الإضافة لا يختص بتلك الثلاثة المواضع.

قال الزجّاج[٣]: وإنما حذفت الهاء لأنّه يقال: أقمتُ الصلاة إقامةً، وكان الأصل: إقواماً، ولكن قلبت الواو ألفاً، فاجتمعت ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، فبقي أقمتُ الصلاة إقاماً، فأدخلت الهاء عوضاً من المحذوف، وقامت الإضافة هاهنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة، وهذا إجماع من النحويين. انتهى.

وقد احتاج من حمل ذكر الله على الصلاة المفروضة: أَنْ يحمل إقام الصلاة على تأديتها في أوقاتها فراراً مِنْ التكرار، ولا ملجئ إلى ذلك؛ بل يحمل الذكر على معناه الحقيقي كما قدّمنا.

والمراد بالزكاة المذكورة هي: المفروضة، وقيل: المراد بالزكاة: طاعة الله[٤]، والإخلاص، إذْ ليس لكلّ مؤمن مال.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾؛ أي: يوم القيامة، وانتصابه[٥] على أنه مفعول للفعل لا ظرف له، ثم وصف هذا اليوم بقوله: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾؛ أي: تضطرب، وتتحوّل، قيل: المراد بتقلب القلوب انتزاعها من أماكنها إلى الحناجر فلا ترجع إلى أماكنها، ولا تخرج[٦].

والمراد بتقلب الأبصار هو: أن تصير عمياء[٧] بعد أن كانت مبصرة.

---

(١) في «معاني القرآن» (٢/ ٢٥٤).

(٢) انظر: «الخصائص» (٣/ ١٧١)، و«الدر المصون» (٦/ ٥٧).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٨)، عن ابن عباس بسند صحيح.

(٥) «روح المعاني» (١٨/ ٣٩٣)، و«الفريد» (٣/ ٦٠٢).

(٦) «معالم التنزيل» (٦/ ٥١ ـ ٥٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٩٦).

(٧) «النكت والعيون» (٤/ ١٠٧)، و«زاد المسير» (٦/ ٤٨).

وقيل: المراد بتقلب القلوب: أَنَّها تكون متقلبة بين الطمع[(١)] في النجاة، والخوف من الهلاك.

وأما تقلب الأبصار فهو: نظرها من أيّ ناحية يؤخذون وإلى أيّ ناحية يصيرون.

وقيل: المراد تحوّل قلوبهم وأبصارهم عمَّا كانت عليه من الشك إلى اليقين[(٢)]، ومثله قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [قٓ: ٢٢] فما كان يراه في الدنيا غيّاً يراه في الآخرة رشداً.

وقيل: المراد: التقلب[(٣)] على جمر جهنم، وقيل: غير ذلك.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ متعلق بمحذوف؛ أي: يفعلون ما يفعلون من التسبيح، والذكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا؛ أي: أحسنَ جزاء أعمالهم، حسبما وعدهم من تضعيف ذلك إلى عشرة أمثاله، وإلى سبعمائة ضعف.

وقيل: المراد بما في هذه الآية ما يتفضّل سبحانه به عليهم زيادة على ما يستحقونه، والأوّل أَولى لقوله: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فإنّ المراد به: التفضل[(٤)] عليهم بما فوق الجزاء الموعود به ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: مِنْ غير أَنْ يحاسبه على ما أعطاه، أو أَنْ عطاءه سبحانه لا نهاية له، والجملة مقرّرة لما سبقها مِنْ الوعد بالزيادة.

وقد أخرج ابن جرير[(٥)] عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: يُدبّر الأمر فيهما نجومَهما وشمسهما وقمرهما.

وأخرج الفريابي[(٦)] عنه في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مثل نوره الذي أعطاه المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، وقال في تفسير ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ إنها التي في سفح جبلٍ لا تصيبها الشمس إذا طلعت ولا إذا غربت ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ فذلك مثل قلب المؤمن نور على نور.

---

(١) «زاد المسير» (٦/ ٤٨).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٩١).
(٣) «النكت والعيون» (٤/ ١٠٧).
(٤) «النكت والعيون» (٤/ ١٠٧).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٩٦)، عن مجاهد وابن عباس بسند ضعيف.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٦).

وأخرج عبد بن حميد، وابن الأنباري في المصاحف، عن الشعبيّ[١] قال: في قراءة[٢] أبيّ بن كعب: «مثل نور المؤمن كمشكاة».

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه، عن ابن عباس[٣] في الآية قال: يقول مثل نور مَنْ آمن بالله كمشكاة وهي الكوّه.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عنه ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قال: هي خطأ من الكاتب هو أعظم مِنْ أن يكون نوره مثل نور المشكاة، قال: مثل نور المؤمن كمشكاة.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عنه[٥] أيضاً ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال: هادي أهل السماوات والأرض ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ مثل هداه في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ يقول: موضع الفتيلة كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أَنْ تمسّه النار فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوئه؛ كذلك يكون قلب المؤمن بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدى على هدى، ونوراً على نور، وفي إسناده[٦] عليّ بن أبي طلحة، وفيه مقال.

وأخرج عبد بن حُميد، وابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه، وابنُ مردويه، عَنْ أُبيّ بن كعب[٧] ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قال: هو المؤمن الذي قد جعل الإيمان والقرآن في صدره، فضرب الله مثله، فقال: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن، فقال: مثل نور مَنْ آمن به، فكان أبيّ بن كعب يقرؤها «مثل نور مَنْ آمن به» فهو: المؤمن،

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٩٦).

(٢) وهي قراءة شاذة «روح المعاني» (١٨/ ٣٦٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٦١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩٦) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩٤، ٢٥٩٥) بسند ضعيف. وابن عباس بريء من هذا القول، ومن روى عنه ذلك فهو طاعن ملحد في الدين.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩٣ ـ ٢٥٩٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (١٣٦) بسند صحيح.

(٦) تقدم التعليق على هذا القول.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٢٧، ٣٣١)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٩٣ ـ ٢٥٩٧)، والحاكم (٢/ ٣٩٩، ٤٠٠) بسند حسن.

جعل الإيمان والقرآن في صدره ﴿كَمِشْكَوٰةٖ﴾ قال: فصدر المؤمن المشكاة ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ﴾: النور، وهو القرآن والإيمان الذي جعل في صدره ﴿فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ و﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ قلبه ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ يقول كوكب مُضيء ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾، والشجرة المباركة: أَصْل المبارك: الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قال: فمثله كمثل شجرة التفّت بها الشجر، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أيّ حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، فكذلك هذا المؤمن قد أُجير مِنْ أن يضله شيء من الفتن.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن ابن عباس[(١)]: أن اليهود قالوا لمحمد: كيف يخلص نور الله من دون السماء؟، فضرب الله مثل ذلك لنوره، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ المشكاة كوّة البيت فيها مصباح، وهو: السراج يكون في الزجاجة، وهو: مَثَلٌ ضربه الله لطاعته، فسمى طاعته نوراً، ثم سمّاها أنواعاً شتى ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ قال: وهي: وسط الشجر لا تنالها الشمس إذا طلعت، ولا إذا غربتْ، وذلك أجود الزيت ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾ بغير نار ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ﴾؛ يعني بذلك: إيمان العبد وعلمه ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ وهو مثل المؤمن.

وأخرج الطبراني، وابن عدي، وابن مردويه، وابن عساكر، عن ابن عمر[(٢)] في قوله: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ قال: المشكاة جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح: النور الذي في قلبه. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ﴾ الشجرة إبراهيم ﴿زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ لا يهودية ولا نصرانية، ثم قرأ: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وأخرج عبدُ بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، عن شمر بن عطية قال: جاء ابن عباس[(٣)] إلى كعب الأحبار، فقال: حدّثني

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩٦) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (١٣٢٢٦)، وفي «الأوسط» رقم (١٨٤٣)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٥٥٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٩٩، ٣٠١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩٦، ٢٥٩٧، ٢٥٩٩، ٢٦٠٣) من طريق شمر، به.

عَنْ قول الله ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ قال: مثل نور محمد ﷺ كمشكاة قال: المشكاة: الكوّة ضربها الله مثلاً لفمه فيها مصباح، والمصباح قلبه ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، والزجاجة: صدره ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ شبه صدر محمد ﷺ بالكوكب الدرّيّ، ثم رجع المصباح إلى قلبه، فقال: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ قال: يكاد محمد يبين للناس، ولو لم يتكلم أنه نبيّ، كما يكاد الزيت أن يضيء، ولو لم تمسسه نار.

[لا يجوز العدول في التفسير إلى غير ما تقتضيه لغة العرب]:

وأقول: إن تفسير النظم القرآني بهذا ونحوه مما تقدّم عن أبيّ بن كعب، وابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم ليس على ما تقتضيه لغة العرب، ولا ثبت عن رسول الله ﷺ ما يجوّز العدول عن المعنى العربي إلى هذه المعاني التي هي شبيهة بالألغاز والتعمية، ولكن هؤلاء الصحابة، ومن وافقهم ممن جاء بعدهم [٣/٣٠٤] استبعدوا تمثيل نور الله سبحانه بنور المصباح في المشكاة، ولهذا قال ابن عباس: هو أعظم مِنْ أن يكون نوره مثل نور المشكاة كما قدّمنا عنه، ولا وجه لهذا الاستبعاد.

فإنا قد قدّمنا في أوّل البحث ما يرفع الإشكال ويوضح ما هو المراد على أحسن وجه، وأبلغ أسلوب، وعلى ما تقتضيه لغة العرب، ويفيده كلام الفصحاء، فلا وجه للعدول عن الظاهر، لا من كتاب، ولا من سُنَّة، ولا من لغة.

[تفسير الصحابي إذا كان مستنده أهل الكتاب لا تقوم به الحجة]:

وأما ما حكي عن كعب الأحبار في هذا كما قدّمنا، فإن كان هو سبب عدول أولئك الصحابة الأجلاء عن الظاهر في تفسير الآية، فليس مثل كعب رحمه الله ممن يقتدى به في مثل هذا. وقد نبهناك فيما سبق: أن تفسير الصحابي إذا كان مستنده الرواية عن أهل الكتاب كما يقع ذلك كثيراً، فلا تقوم به الحجة، ولا يسوغ لأجله العدول عن التفسير العربي، نعم إنْ صحت قراءة أُبيّ بن كعب، كانت هي المستند لهذه التفاسير المخالفة للظاهر، وتكون كالزيادة المبيّنة للمراد، وإن لم تصح، فالوقوف على ما تقتضيه قراءة الجمهور مِنْ السبعة، وغيرهم ممن قبلهم، وممن بعدهم هو المتعين.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[١] ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ قال: هي المساجد تُكْرَم، وينهى عن اللغو فيها، ويذكر فيها اسم الله، يتلى فيها كتابه ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ صلاة الغداة، وصلاة العصر، وهما أوّل ما فرض الله مِنْ الصلاة فأحبّ أن يذكرهما، ويُذكّر بهما عباده.

وقد ورد في تعظيم[٢] المساجد، وتنزيهها عن القذر، وتنظيفها، وتطييبها أحاديث ليس هذا موضع ذكرها.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس[٣] قال: إن صلاة الضحى لفي القرآن، وما يغوص عليها إلا غوّاص في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وابن مردويه، عن أبي هريرة[٤]، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: «هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله».

وأخرج ابن مردويه، والديلمي، عن أبي سعيد الخدري[٥]، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: هم الذين يبتغون مِنْ فضل الله.

وأخرج ابن مردويه[٦]، عن ابن عباس في الآية، قال: كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما في أيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا.

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم، والبيهقي في الشعب، عنه في

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٤) بسند صحيح.

(٢) منها: ما أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٩)، والترمذي رقم (٥٩٤)، وأبو داود رقم (٤٥٥)، وابن ماجه رقم (٧٥٨، ٧٥٩)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» رقم (٤٩٩)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (١٦٣٤)، وابن خزيمة رقم (١٢٩٤)، وأبو يعلى رقم (٤٦٩٨)، عن عائشة ﵂ قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيَّب». وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٤٠٧، ٤٠٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٧). وهو حديث ضعيف.

(٥) أخرجه الديلمي في «مسنده» رقم (٣٢٨٤).

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٧).

الآية[١]، قال: ضرب الله هذا المثل قوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ لأولئك القوم الذين لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله، وكانوا أتجر الناس وأبيعهم ولكن لم تكن تلهيهم تجارتهم ولا بيعهم عن ذكر الله.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عنه أيضاً[٢] ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال: عَنْ شهود الصلاة.

وأخرج عبد الرزّاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عمر[٣]: أنه كان في السوق، فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم، ثم دخلوا المسجد، فقال ابن عمر فيهم: نزلت ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، والطبراني، والبيهقي في الشعب، عن ابن مسعود[٤]: أنه رأى ناساً من أهل السوق سمعوا الأذان، فتركوا أمتعتهم، فقال: هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

وأخرج هنّاد بن السري في «الزهد»، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الشُعب»، ومحمد بن نصر في «الصلاة»، عن أسماء بنت يزيد[٥] قالت: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيدٍ واحدٍ يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فيقوم منادٍ، فينادي: أين الذين كانوا يحمدون الله في السرّاء

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٧)، والحاكم (٢/ ٣٩٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٩٢١) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٨) بسند صحيح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٧، ٢٦٠٨)، عن سالم، عن ابن عمر بسند ضعيف.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٠٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٢٢)، والطبراني رقم (٩٠٧٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٢٩١٧) بسند ضعيف لإبهام الراوي عن ابن مسعود.

(٥) أخرجه هنّاد في «الزهد» (ص١٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦١٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٢٤٤)، ومحمد بن نصر في «مختصر قيام الليل» (ص٩). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

والضرّاء؟ فيقومون، وهم قليل، فيدخلون الجنّة بغير حساب؛ ثم يعود فينادي: أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عَنْ المضاجع؟ فيقومون، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب؛ ثم يعود فينادي: ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة، ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون، وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يقوم سائر الناس، فيُحاسبون».

وأخرج الحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، عن عقبة بن عامر[1] مرفوعاً نحوه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

[مثل أعمال الكافرين كالسراب]:

لما ذكر سبحانه حال المؤمنين، وما يؤول إليه أمرهم ذكر مثلاً للكافرين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ المراد بالأعمال هنا. هي:

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/٣٩٨، ٣٩٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٢٤٦).

الأعمال التي من أعمال الخير كالصدقة والصلة وفكّ العاني، وعمارة البيت، وسقاية الحاجّ.

والسراب[١]: ما يُرى في المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حرّ النهار على صورة الماء في ظنّ مَنْ يراه، وسُمّي سراباً لأنه يَسْرُب؛ أي: يجري كالماء؛ يقال: سَرَبَ الفحلُ؛ أي: مضى، وسار في الأرض، ويُسمّى الآل أيضاً.

وقيل: الآل: هو الذي يكون ضُحًى كالماء، إلّا أنّه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين السماء والأرض، قال امرؤ القيس[٢]:

أَلَمْ أُنضِ المَطيّ بكلّ خَرْقٍ طويلِ الطُّول لمَّاعِ السَّرابِ

وقال آخر:

فلمَّا كَفَفنا الحربَ كانت عهودُهم كلمعِ سَرَابٍ بالفَلَا مُتألِّقِ[٣]

والقيعة جمع قاع: وهو الموضع المنخفض الذي يستقرّ فيه الماء، مثل جيرة، وجار، قاله الهروي[٤]. وقال أبو عبيدة[٥]: قيعة، وقاع واحد.

قال الجوهري[٦]: القاع: المستوي من الأرض، والجمع: أقوع، وأقواع، وقيعان، صارت الواو ياءً لكسر ما قبلها، والقيعة مثل القاع.

قال: وبعضُهم يقول: هو جمع[٧].

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ هذه صفة ثانية لسراب، والظمآن: العطشان، وتخصيص الحسبان بالظمآن مع كون الرّيان يراه كذلك، لتحقيق التشبيه[٨] المبنيّ على الطمع.

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٤١٢، ٤١٦)، و«الصحاح» (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

(٢) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٩٨).

(٣) انظر: «جامع البيان» (١/ ٣٨٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٩٨).

(٤) في «غريب الحديث» (٢/ ٢٣٩).

(٥) في «مجاز القرآن» (٢/ ٦٦).

(٦) في «الصحاح» (٣/ ١٢٧٤).

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٩٩).

(٨) قال الألوسي في «روح المعاني» (١٨/ ٣٩٧): «وتخصيص الحسبان بالظمآن مع شموله لكل =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أي: إذا جاء العطشان ذلك الذي حسبه ماءً لم يجده شيئاً مما قدّره وحَسِبه، ولا من غيره.

والمعنى: أنّ الكفار يُعوّلون على أعمالهم التي يظنونها من الخير، ويطمعون في ثوابها، فإذا قدموا على الله سبحانه لم يجدوا منها شيئاً؛ لأن الكفر أحبطها، ومحا أثرها، والمراد بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ مع أنّه ليس بشيء أنه جاء الموضع الذي كان يحسبه فيه[1].

ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على زيادة حسرة الكفرة، وأنه لم يكن قُصارى أمرهم مجرّد الخيبة كصاحب السراب، فقال: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: وجد الله بالمرصاد، فوفّاه حسابه؛ أي: جزاء عمله[2]، كما قال امرؤ القيس[3]:

فولَّى مُدبِراً يَهْوى حَثِيْثا وأيقَنَ أنَّه لاقِى الحِسَابَا

وقيل: وجد وعدَ الله بالجزاء على عمله، وقيل: وجد أمر الله عند حشره، وقيل: وجد حُكمه، وقضاءه عند المجيء، وقيل: عند العمل[4].

والمعنى متقارِب. وقرأ مسلمة بن محارب: «بقيعات» بتاء طويلة[5] كما يقال رجل عِزْهاة.

وروي عنه: أنه قرأ «بقيعات» بتاء مبسوطة. قيل: يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأوّل، وجمع قيعة على الثاني.

= من يراه كائناً من كان من العطشان والريَّان، لتكمل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشَّبهِ الذي هو المَطْلَعُ المُطْمِعُ والمقطعُ المُؤْيِسُ.
«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٢٣).

(١) «النكت والعيون» (٤/ ١٠٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٥٤١).

(٢) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٤٩)، و«جامع البيان» (١٧/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٩٩).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٩٩). (٤) انظر: «النكت والعيون» (٤/ ١٠٩).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١٠٢)، و«المحتسب» (٢/ ١١٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٩٧).

وروي عن نافع، وأبي جعفر، وشيبة: أنهم قرؤوا: «الظمَان» بغير همز[١]، والمشهور عنهم الهمز ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ معطوف على كسراب، ضرب الله سبحانه مثلاً لأعمال الكفار كما أنّها تشبه السراب الموصوف بتلك الصفات، فهي أيضاً تشبه الظلمات.

[تمثيل أعمال الكافرين بالظلمات]:

قال الزجاج[٢]: أعلم الله سبحانه أن أعمال الكفار إنْ مثلت بما يوجد، فمثلها كمثل السراب، وإنْ مثلت بما يُرى، فهي كهذه الظلمات التي وصف. قال أيضاً[٣]: إن شئت مثّل بالسراب، وإن شئت مثّل بهذه الظلمات، فأو: للإباحة حسبما تقدّم من القول في ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩].

قال الجرجاني[٤]: الآية الأولى في ذكر أعمال الكفار، والثانية في ذكر كفرهم، ونُسِّق الكفر على أعمالهم لأنّه أيضاً من أعمالهم.

قال القشيري[٥]: فعند الزجاج التمثيل وقع لأعمال الكفار، وعند الجرجاني لكفر الكفار ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ اللُّجّة[٦]: مُعظم الماء، والجمع لُجَج، وهو: الذي لا يُدرك [٣/٣٠٥] لعمقه.

ثم وصف سبحانه هذا البحر بصفة أخرى، فقال: ﴿يَغْشَٰهُ مَوْجٌ﴾؛ أي: يعلو هذا البحر موج، فيستره ويغطيه بالكلية، ثم وصف هذا الموج بقوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾؛ أي: مِنْ فوق هذا الموج موج، ثم وصف الموج الثاني، فقال: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾؛ أي: مِنْ فوق ذلك الموج الثاني سحاب، فيجتمع حينئذٍ عليهم خوف البحر وأمواجه، والسحاب المرتفعة فوقه.

وقيل: إنّ المعنى: يغشاه موج[٧] مِنْ بعده موج، فيكون الموج يتبع بعضه

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٥١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ٣٩٧). المتواتر عن نافع وأبي جعفر أنهما قرأ (الضمئان) بميم ساكنة فهمزة مفتوحة بعدها ألف كقراءة باقي العشرة إلّا أن حمزة في حالة الوقف على هذه الكلمة يقرأ (الضمَان) بحذف الهمزة وميم مفتوحة فألِف. انظر «النشر» (١/ ٤٣٣).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٨).

(٣) أي: الزجاج في «معانيه» (٤/ ٤٨).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٠٠).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٠٠).

(٦) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٤٩٢)، و«الصحاح» (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٧) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٣٢٢)، و«زاد المسير» (٦/ ٥٠)، و«النكت والعيون» (٤/ ١١٠)، و«جامع البيان» (١٧/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠).

بعضاً حتى كأن بعضه فوق بعض، والبحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه، فإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب مِنْ فوقه زاد الخوف شدّة؛ لأنها تستر النجوم التي يهتدي بها مَنْ في البحر، ثم إذا أمطرت[1] تلك السحاب، وهبت الريح المعتادة في الغالب عند نزول المطر تكاثفت الهموم، وترادفت الغموم، وبلغ الأمر إلى الغاية التي ليس وراءها غاية، ولهذا قال سبحانه: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾؛ أي: هي ظلمات، أو هذه ظلمات متكاثفة مترادفة، ففي هذه الجملة بيان لشدّة الأمر وتعاظمه.

وقرأ ابن محيصن، والبزي «سحابُ ظلماتٍ» بإضافة سحاب[2] إلى ظلمات، ووجه الإضافة: أنّ السحاب يرتفع وقت هذه الظلمات، فأضيف إليها لهذه الملابسة.

وقرأ الباقون بالقطع[3]، والتنوين.

ومِنْ «غرائب التفاسير»: أنّه سبحانه أراد بالظلمات[4]: أعمال الكافر، وبالبحر اللجيّ: قلبه، وبالموج فوق الموج: ما يغشى قلبه من الجهل، والشكّ، والحيرة.

والسحاب[5]: الرين، والختم، والطبع على قلبه، وهذا تفسير هو عن لغة العرب[6] بمكانٍ بعيد.

ثم بالغ سبحانه في هذه الظلمات المذكورة بقوله: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ وفاعل أخرج ضمير يعود على مقدّر دلّ عليه المقام؛ أي: إذا أخرج الحاضر في هذه الظلمات أو مَنْ ابتلي بها. قال الزجاج[7]، وأبو عبيدة[8]: المعنى: لم يرها، ولم يكد.

وقال الفرّاء[9]: إنّ كاد زائدة. والمعنى: إذا أخرج يده لم يرها، كما تقول ما كدت أعرفه.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٥٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٢)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٣٩)، و«التيسير» (ص١٦٢).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٠٣).
(٥) «معالم التنزيل» (٦/ ٥٢ ـ ٥٣).
(٦) «روح المعاني» (١٨/ ٤٠٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٠٣).
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٨).
(٨) في «مجاز القرآن» (٢/ ٦٧).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٥).

وقال المبرد[١]: يعني: لم يرها إلّا من بعد الجَهْد.

قال النحاس[٢]: أصح الأقوال في هذا أن المعنى: لم يقارب رؤيتها، فإذن لم يرها رؤية بعيدة، ولا قريبة.

وجملة: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ مقرّرة لما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة، والمعنى: ومَنْ لم يجعل الله له هداية، فما له من هداية.

قال الزجاج[٣]: ذلك في الدنيا، والمعنى: من لم يهده الله لم يهتد.

وقيل[٤]: المعنى: مَنْ لم يجعل الله له نوراً يمشي به يوم القيامة، فما له من نور يهتدي به إلى الجنة. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحان، والخطاب[٥] لكلّ من له أهلية النظر، أو للرسول ﷺ، وقد علمه من جهة الاستدلال.

ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم، والهمزة[٦] للتقرير؛ أي: قد علمت علماً يقينياً شبيهاً بالمشاهدة.

والتسبيح: التنزيه في ذاته، وأفعاله، وصفاته عَنْ كل ما لا يليق به.

ومعنى ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: مَنْ هو مستقرّ فيهما من العقلاء، وغيرهم، وتسبيح غير العقلاء ما يسمع مِنْ أصواتها، ويشاهد من أثر الصنعة البديعة فيها.

وقيل: إن التسبيح هنا هو الصلاة من العقلاء، والتنزيه من غيرهم.

وقد قيل: إن هذه الآية تشمل الحيوانات[٧]، والجمادات، وأن آثار الصنعة الإلهية في الجمادات ناطق، ومخبر باتصافه سبحانه بصفات الجلال، والكمال، وتنزّهه عن صفات النقص.

وفي ذلك تقريع للكفار[٨]، وتوبيخ لهم حيث جعلوا الجمادات التي من شأنها التسبيح لله سبحانه شركاء له يعبدونها كعبادته ﷻ.

---

(١) كذا ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٠٢) والذي في «المقتضب» (٣/ ٧٥)، و«الكامل» (١/ ٢٥٢): قوله: «لم يرها ولم يكد»؛ أي: لم يدن من رؤيتها.

(٢) في «معاني القرآن» (٤/ ٥٤٢).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٨).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٠٤).

(٥) «مجمع البيان» (١٨/ ٥٨).

(٦) «روح المعاني» (١٨/ ٤١١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٢٤).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٥٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٠٥).

(٨) «روح المعاني» (١٨/ ٤١١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٢٥).

وبالجملة، فإنه ينبغي حمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات على طريقة عموم المجاز.

قرأ الجمهور «والطيرُ صافاتٍ» بالرفع للطير[١]، والنصب لصافات على أن الطير معطوفة على مَنْ، وصافات منتصب على الحال.

وقرأ الأعرج «والطيرَ» بالنصب[٢] على المفعول معه، وصافات حال أيضاً.

قال الزجاج[٣]: وهي أجود مِنْ الرفع.

وقرأ الحسن، وخارجة عن نافع «والطيرُ صافاتٌ» برفعهما على الابتداء[٤]، والخبر، ومفعول صافات محذوف؛ أي: أجنحتها.

وخصّ الطير[٥] بالذكر مع دخولها تحت من في السماوات، والأرض لعدم استمرار استقرارها في الأرض، وكثرة لبثها في الهواء، وهو ليس من السماء، ولا من الأرض، ولما فيها من الصنعة البديعة التي تقدر بها تارةً على الطيران، وتارة على المشي بخلاف غيرها من الحيوانات، وذكر حالة من حالات الطير، وهي كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها؛ لأن هذه الحالة هي أغرب أحوالها، فإن استقرارها في الهواء مُسبحة من دون تحريك لأجنحتها، ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذي أتقن كلّ شيء.

ثم زاد في البيان فقال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾؛ أي: كلّ واحد مما ذُكر، والضمير في عَلِمَ يرجع إلى كلّ، والمعنى: أن كل واحد من هذه المسبّحات لله قد علم صلاة المصلي، وتسبيح[٦] المسبح.

وقيل: المعنى أن كلّ مصلّ، ومسبح قد علم صلاة نفسه، وتسبيح نفسه.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٥٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤١٢)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٤).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة الجمهور هي المتواترة وغيرها شاذ، والرواية عن نافع برفعهما شاذ.
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٨).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٥٦)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٤٠).
(٥) «روح المعاني» (١٨/ ٤١٢ ـ ٤١٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٢٥).
(٦) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٣٢٣)، و«جامع البيان» (١٧/ ٣٣٤)، و«زاد المسير» (٦/ ٥٢).

قيل: والصلاة هنا بمعنى التسبيح، وكُرّر[(١)] للتأكيد، والصلاة قد تسمى تسبيحاً.

وقيل: المراد بالصلاة هنا: الدعاء؛ أي: كل واحد قد علم دعاءه، وتسبيحه.

وفائدة الإخبار بأنّ كل واحد قد علم ذلك، أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علمها الله ذلك، وألهمها إليه، لا أن صدوره منها على طريقة الإتفاق بلا روية، وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه، وعظيم شأنه، كونه جعلها مُسبّحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ هذه الجملة مُقرّرة لما قبلها؛ أي: لا تخفى عليه طاعتهم، ولا تسبيحهم، ويجوز أَنْ يكون الضمير في ﴿عَلِمَ﴾ لله سبحانه؛ أي: كلّ واحد مِنْ هذه المسبحة قد علم الله صلاته له، وتسبيحه إيّاه، والأوّل أرجح لاتفاق القرّاء على رفع كل، ولو كان الضمير في (علم) لله لكان نصب (كل) أولى.

وذكر بعض المفسرين: أنها قراءة طائفة من القراء: عُلِمَ على البناء[(٢)] للمفعول.

ثم بيَّن سبحانه: أن المبدأ منه، والمعاد إليه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أي: له لا لغيره ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لا إلى غيره، والمصير: الرجوع بعد الموت.

وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في غير موضع.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر من الآثار العُلْوية، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ الإزجاء[(٣)]: السوقُ قليلاً قليلاً، ومنه قول النابغة:[(٤)]

إنِّي أتيتُكَ من أهلي ومن وَطَني ... أُزْجي حُشاشةَ نفسٍ ما بها رَمَقُ

وقوله أيضاً:

أَسْرتْ عليه من الجَوْزاء سَارِيةٌ ... يُزجي السِّماكُ عليه جامَد البَرَدِ[(٥)]

---

(١) قاله القشيري كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٠٦). وانظر: «التبيان» (٢/ ٩٧٤).

(٢) قرأ بها قتادة «القراءات الشاذة» (ص١٠٢).

(٣) «تهذيب اللغة» (١١/ ١٥٥)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٧٨).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٥/ ٣٠٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١١٢).

(٥) انظره في: «ديوان النابغة الذبياني» (ص٣١).

والمعنى: أنه سبحانه يسوق السحاب سوقاً رقيقاً إلى حيث يشاء ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾؛ أي: بين أجزائه، فيضم بعضه إلى بعض، ويجمعه بعد تفرّقه ليقوى، ويتصل، ويَكْثُف، والأصل في التأليف الهمز.

وقرأ ورش، وقالون عن نافع «يُولف» بالواو تخفيفاً[1].

والسحاب واحد في اللفظ، ولكن معناه جمع[2]، ولهذا دخلت «بين» عليه لأن أجزاءه في حكم المفردات له.

قال الفراء[3]: إن الضمير في بينه راجع إلى جملة السحاب، كما تقول: الشجر قد جلست بينه؛ لأنه جمع، وأفرد الضمير باعتبار اللفظ.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾؛ أي: متراكماً يركب بعضُه بعضاً. والرَّكْم[4]: جمع الشيء، يقال: ركم الشيء يركُمه رَكْماً؛ أي: جمعه، وألقى بعضه على بعض وارتكم الشيء، وتراكم إذا اجتمع، والرُّكمة: الطين المجموع، والرُّكام: الرمل المتراكب.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ الودق: المطر عند جمهور المفسرين[5]، ومنه قول الشاعر:

فَلَا مُزنَةٌ ودَقَتْ ودقَها ... ولا أرضٌ ابقلَ إبقالَها[6]

وقال امرؤ القيس[7]:

فدمعُهما وَدْقٌ وسَحٌّ ودِيْمةٌ ... وسَكْبٌ وتَوْكافٌ وتنهملانِ

يقال: ودقت السحاب فهي: وادقة[8]، وودَقَ المطرُ يَدِقُ؛ أي: قَطَر يقطر، وقيل: إنّ الوَدَقَ البرقُ، ومنه قول الشاعر:

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٥٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٠٧)، و«الحجة» للفارسي (٥/ ٣٣٠ ـ ٣٣١). هي قراءة متواترة لكن الصواب أنها عن ورش عن نافع وأبي جعفر أما الرواية عن قالون في هذا فشاذة. انظر «النشر» (١/ ٣٩٥).

(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٤١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٧).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٦).

(٤) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤١٤)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٢٤٢).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٠٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٣٦).

(٦) البيت لعامر بن جوين الطائي. «خزانة الأدب» (١/ ٤٥)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٦٧).

(٧) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٨٨). (٨) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٦١ ـ ٨٦٢).

أثـرنَ عَـجـاجـةً وخـرجَـن مـنـهـا خُروجَ الوَدْق من خَلَل السَّحابِ[١]

والأوّل أولى.

ومعنى ﴿مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾: مِنْ فتوقه التي هي مخارج القَطْر، وجملة ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ في محل نصب[٢] على الحال؛ لأن الرؤية هنا هي البصرية.

وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، والضحاك، وأبو العالية «من خَلَلِهِ» على الإفراد[٣].

وقد وقع الخلاف في خِلال: هل هو مفرد كحجاب؟ أو جمع كجبال؟ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ المراد بقوله: مِنْ سماء: من عال؛ لأن السماء قد تطلق على جهة العلوّ، ومعنى من جبال: من قطع عظام تشبه الجبال.

ولفظ «فيها» في محل نصب[٤] [٤/٣٠٦] على الحال، و«من» في من برد للتبعيض[٥]، وهو مفعول ينزّل. وقيل: إن المفعول محذوف.

والتقدير: ينزل مِنْ جبال فيها مِنْ برد برداً. وقيل: إن «من» في من برد زائدة[٦]، والتقدير: ينزل من السماء من جبال فيها برد.

وقيل: إنّ في الكلام مضافاً محذوفاً؛ أي: ينزل من السماء قدر جبال، أو مثل جبال من برد إلى الأرض.

قال الأخفش[٧]: إن «من» في ﴿مِن جِبَالٖ﴾، وفي ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ زائدة في الموضعين، والجبال، والبرد في موضع نصب؛ أي: ينزل من السماء برداً يكون كالجبال.

والحاصل: أن «من» في ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغاية بلا خلاف، و«من» في

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٠٩)، ونسبه أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ٦٨) لزيد الخيل.
(٢) «الفريد» (٣/ ٦١٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤١٨).
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٥٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤١٨)، و«زاد المسير» (٦/ ٥٢). وهي قراءة شاذة.
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٤٢)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٥).
(٥) «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٢٤)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٥)، و«الفريد» (٣/ ٦١٠ ـ ٦١١).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣١٠)، والألوسي في «روح المعاني» (١٨/ ٤١٩).

﴿مِن جِبَالٍ﴾ فيها ثلاثة أوجه[١]:

الأوّل: لابتداء الغاية، فتكون هي ومجرورها بدلاً من الأولى بإعادة الخافض بدل اشتمال.

الثاني: أنها للتبعيض فتكون على هذا هي ومجرورها في محل نصب على أنها مفعول الإنزال؛ كأنه قال: وينزل بعضَ جبال.

الثالث: أنها زائدة؛ أي: ينزل من السماء جبالاً.

وأما «من» في ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾، ففيها أربعة أوجه[٢]:

الثلاثة المتقدّمة.

والرابع: أنّها لبيان الجنس، فيكون التقدير على هذا الوجه: وينزل من السماء بعضَ جبال التي هي البردُ.

قال الزجاج[٣]: معنى الآية: وينزّل مِنْ السماء من جبال برد فيها كما تقول: هذا خاتم في يدي مِنْ حديد؛ أي: خاتم حديد في يدي؛ لأنك إذا قلت: هذا خاتم من حديد، وخاتم حديد كان المعنى واحداً. انتهى.

وعلى هذا يكون مِنْ برد في موضع جرّ صفة لجبال كما كان من حديد صفة لخاتم، ويكون مفعول يُنزّل مِنْ جبال، ويلزم من كون الجبال برداً: أن يكون المنزل برداً.

وذكر أبو البقاء[٤]: أن التقدير: شيئاً مِنْ جبال، فحذف الموصوف، واكتفى بالصفة ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يصيب بما ينزل مَنْ البرد من يشاء أن يصيبه من عباده ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ منهم، أو يصيب به مال مَنْ يشاء، ويصرفه عن مال من يشاء، وقد تقدّم الكلام عن مثل هذا في البقرة.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ السنا الضوء؛ أي: يكاد ضوء البرق الذي في السحاب يُذهب بالأبصار مِنْ شدّة بريقه، وزيادة لمعانه، وهو كقوله: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ

---

(١) «الفريد» (٣/ ٦١٠ ـ ٦١١)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٥)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٢٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٤٢).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٤٩).

(٤) في «التبيان» (٣/ ٩٧٥).

﴿يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٠] قال الشمَّاخ[١]:

[وَمَا كَادَتْ إذا رَفَعتْ[٢]] سَنَاهَا ... لِيُبصرَ ضَوْءَها إلَّا البَصيرُ

وقال امرؤ القيس[٣]:

يُضِيءُ سَنَاهُ أو مصابيح راهبٍ ... أَهْانَ السَّليطَ في الذُّبالِ المُفتَّلِ

فالسنا بالقصر: ضوء البرق، وبالمدّ: الرفعة، كذا قال المبرّد[٤]، وغيره.

وقرأ طلحة بن مُصرّف، ويحيىٰ بن وثّاب «سناء برقه» بالمدّ[٥] على المبالغة في شدّة الضوء والصفاء، فأطلق عليه اسم: الرفعة والشرف.

وقرأ طلحة، ويحيى أيضاً بضم الباء[٦] من بُرَقِه وفتح الراء.

قال أحمد بن يحيىٰ ثعلب[٧]: وهي على هذه القراءة جمع برق.

وقال النحاس[٨]: البُرقة المقدار من البَرق، والبَرَقة الواحدة.

وقرأ الجحدري، وابن القعقاع: «يُذْهِب» بضم الياء[٩] وكسر الهاء من الإذهاب.

وقرأ الباقون[١٠]: «سنا» بالقصر «وبَرْقه» بفتح الباء، وسكون الراء، و«يَذْهَب» بفتح الياء والهاء من الذهاب، وخطّأ قراءة الجحدري، وابن القعقاع الأخفش[١١]، وأبو حاتم.

ومعنى ذهاب البرق بالأبصار: خطفه إياها مِنْ شدّة الإضاءة، وزيادة البريق،

---

(١) انظر: «ديوان الشَّمَّاخ» (ص١٥٢).

(٢) والذي في «الديوان»: «فما كادت ولو رفعوا».

(٣) «ديوان امرئ القيس» (ص٢٤).

(٤) في «الكامل» (١/ ٢٨٦) و(٢/ ١٠٤٣) و(٣/ ١٤٤١).

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٥٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣١١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٢١).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٨).

(٧) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٥٤٥).

(٨) في «معاني القرآن» (٤/ ٥٤٥).

(٩) «القراءات الشاذة» (ص١٠٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٨)، و«النشر» (٢/ ٣٣٢).

(١٠) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣١١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٢١)، و«النشر» (٢/ ٣٣٢).

(١١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٨/ ٤٢٢). وقراءة الجمهور هي المتواترة وما ذكر سابقاً من القراءات فشاذة.

والباء في ﴿الأَبْصَارُ﴾ على قراءة الجمهور للإلصاق، وعلى قراءة غيرهم زائدة.

[دلالة تقليب الليل والنهار]:

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ أي: يُعاقب بينهما، وقيل يزيد في أحدهما، وينقص الآخر.

وقيل: يقلبهما[١] باختلاف ما يقدّره فيهما من خير وشرّ، ونفع وضرّ، وقيل: بالحرّ والبرد.

وقيل: المراد بذلك: تغيير النهار[١] بظلمة السحاب مرّة، وبضوء الشمس أخرى، وتغيير الليل بظلمة السحاب تارة، وبضوء القمر أخرى، والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ إلى ما تقدّم، ومعنى العبرة: الدلالة الواضحة التي يكون بها الاعتبار، والمراد بأولي الأبصار: كلّ مَنْ له بصر يبصر به.

ثم ذكر سبحانه دليلاً ثالثاً من عجائب خلق الحيوان، وبديع صنعته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ قرأ يحيىٰ بن وثّاب، والأعمش، وحمزة، والكسائي «والله خالق[٢] كلِّ دابة».

وقرأ الباقون[٣] ﴿خَلَقَ﴾، والمعنيان صحيحان[٤]، والدابة: كلّ ما دب على الأرض من الحيوان، يقال: دبّ يدبّ، فهو: دابّ، والهاء للمبالغة، ومعنى ﴿مِّن مَّآءٖ﴾: مِنْ نطفة وهي المنيّ كذا قال الجمهور[٥].

وقال جماعة[٦]: إنّ المراد: الماء المعروف؛ لأن آدم خُلق من الماء، والطين.

قيل: وفي الآية تنزيل الغالب منزلة الكل على القول الأوّل؛ لأن في الحيوانات ما يتولد لا عَنْ نطفة، ويخرج من هذا العموم الملائكة، فإنهم خلقوا من نور، والجانّ، فإنّهم خلقوا مِنْ نار.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١١٤).

(٢) «التيسير» (ص١٣٤)، و«النشر» (٢/ ٢٨٩، ٣٣٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٢٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٨ ـ ٥٩).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣١٢).

(٥) «الوسيط» (٣/ ٣٢٤)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٥٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣١٣).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

ثم فصّل سبحانه أحوال[١] كلّ دابة، فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾، وهي الحيات، والحوت، والدود، ونحو ذلك ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ الإنسان، والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ سائر الحيوانات.

ولم يتعرّض لما يمشي على أكثر من أربع لقلته، وقيل: لأن المشي على أربع فقط، وإن كانت القوائم كثيرة، وقيل: لعدم الاعتداد[٢] بما يمشي على أكثر من أربع.

ولا وجه لهذا، فإن المراد التنبيه على بديع الصنع، وكمال القدرة، فكيف يقال: لعدم الاعتداد بما يمشي على أكثر من أربع؟ وقيل: ليس في القرآن ما يدلّ على عدم المشي على أكثر من أربع؛ لأنه لم ينف ذلك، ولا جاء بما يقتضي الحصر.

وفي مصحف أبيّ[٣]: «ومنهم مَنْ يمشي على أكثر»، فعمّ بهذه الزيادة جميع ما يمشي على أكثر من أربع؛ كالسرطان، والعناكب، وكثير من خشاش الأرض.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذكره هاهنا، ومما لم يذكره؛ كالجمادات مركبها وبسيطها، ناميها وغير ناميها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء بل الكلّ من مخلوقاته داخل تحت قدرته سبحانه. و﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: القرآن، فإنه قد اشتمل على بيان كلّ شيء، وما فرّطنا في الكتاب من شيء.

وقد تقدّم بيان مثل هذا في غير موضع ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بتوفيقه للنظر الصحيح، وإرشاده إلى التأمّل الصادق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى طريق مستوي لا عوج فيه، فيتوصل بذلك إلى الخير التام، وهو نعيم الجنة.

---

(١) «النكت والعيون» (٤/ ١١٤ ـ ١١٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣١٤).

(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٤٢٥).

(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٤٢٦)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٣١٨).

• قال القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣١٤): «ولكنه قرآن لم يُثبته إجماع».

وقال الألوسي في «روح المعاني» (١٨/ ٤٢٦): «ولكنه لم يثبت قرآناً». وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

وقد أخرج ابن جرير[(١)]، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ﴾ قال: هو مثل ضربه الله كرجل عطش، فاشتد عطشه فرأى سراباً، فحسبه ماءً، فطلبه، فظن أنه قدر عليه حتى أتى، فلما أتاه لم يجده شيئاً وقُبض عند ذلك. يقول: الكافر كذلك السراب إذا أتاه الموت لم يجد عمله يغني عنه شيئاً، ولا ينفعه إلّا كما نفع السراب العطشان ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ قال: يعني بالظلمات: الأعمال وبالبحر اللجيّ: قلب الإنسان ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾؛ يعني: بذلك: الغشاوة التي على القلب، وَالْسمع، والبصر.

وأخرج ابنُ جرير[(٢)] عنه ﴿بِقِيعَةٖ﴾: بأرضٍ مستوية.

وأخرج عبدُ بن حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم مِن طريق السديّ، عن أبيه[(٣)]، عَنْ أصحاب النبي ﷺ قال: «إنّ الكفار يُبْعثون يوم القيامة ورداً عطاشاً، فيقولون: أينَ الماء؟، فيتمثل لهم السراب، فيحسبونه ماء، فينطلقون إليه، فيجدون الله عنده، فيوفيهم حسابهم، والله سريع الحساب»، وفي إسناده السديّ عن أبيه، وفيه مقال معروف.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة[(٤)] في قوله: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ قال: الصلاة للإنسان، والتسبيح لما سوى ذلك من خلقه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[(٥)]، عنه في قوله: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ قال: بسط أجنحتهن.

وأخرج عبد بن حميد[(٦)]، عن قتادة نحوه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦١١، ٢٦١٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦١١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦١١) عن إسرائيل، عن أبيه.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦١٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٢٢٨)، عن مجاهد بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦١٦)، عن مجاهد بسند صحيح.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١١).

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ يقول: ضوء برقه.

وأخرج ابنُ أبي شيبة، وابنُ المنذر، عن ابن عباس[٢] قال: كل شيء يمشي على أربع إلّا الإنسان.

وأقول: هذه الطيور على اختلاف أنواعها تمشي على رجلين، وهكذا غيرها كالنعامة، فإنها تمشي على رجلين وليست من الطير.

فهذه الكلية المروية عنه رضي الله عنه لا تصحّ.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن
يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ
لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا
عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى
ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [٣/٣٠٧] وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ
ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ
وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٣٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٦١٩) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢١٣).

[أحوال من لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم]:

شرع سبحانه في بيان أحوال[١] مَنْ لم تحصل له الهداية إلى الصراط المستقيم، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، وهؤلاء هم المنافقون الذين يُظْهِرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، فإنهم كما حكى الله عنهم هاهنا ينسبون إلى أنفسهم الإيمان بالله، وبالرسول والطاعة لله ولرسوله نسبةً بمجرد اللسان، لا عن اعتقاد صحيح، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾؛ أي: من هؤلاء المنافقين القائلين هذه المقالة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: من بعد ما صدر عنهم ما نسبوه إلى أنفسهم من دعوى الإيمان، والطاعة، ثم حكم عليهم ﷻ بعدم الإيمان، فقال: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ما أولئك القائلون هذه المقالة بالمؤمنين على الحقيقة، فيشمل الحكم بنفي الإيمان جميع القائلين[٢]، ويندرج تحتهم مَنْ تولى اندراجاً أوّلياً.

وقيل: إن الإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ راجع إلى من تولى، والأوّل أولى.

والكلام مشتمل على حكمين:

الحكم الأوّل: على بعضهم بالتولي.

والحكم الثاني: على جميعهم بعدم الإيمان.

وقيل: أراد بمن تولى: من تولى عَنْ قبول حكمه.

وقيل: أراد بذلك رؤساء المنافقين، وقيل: أراد بتولّي هذا الفريق: رجوعهم إلى الباقين، ولا ينافي ما تحتمله هذه الآية باعتبار لفظها ورودها على سبب خاص، كما سيأتي بيانه.

[موقف المنافقين في خصوماتهم]:

ثم وصف هؤلاء المنافقين بأن فريقاً منهم يُعرضون عن إجابة الدعوى إلى الله، وإلى رسوله في خصوماتهم[٣]، فقال: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ليحكم الرسول بينهم، فالضمير راجع إليه؛ لأنه المباشر للحكم، وإن

---

(١) «جامع البيان» (١٧/ ٣٤١).

(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٤٢٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٣٠).

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٧٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩).

كان الحكم في الحقيقة لله سبحانه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢].

و«إذا» في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ هي الفُجائية؛ أي: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إلى الله، والرسول.

ثم ذكر سبحانه: أنّ إعراضهم إنما هو إذا كان الحقّ عليهم، وأما إذا كان لهم فإنهم يُذْعنون لعلمهم بأن رسول الله ﷺ لا يحكم إلّا بالحق، فقال: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ قال الزجاج[١]: الإذعان الإسراع مع الطاعة، يقال: أذعن لي بحقي؛ أي: طاوعني لما كنت ألتمس منه، وصار يسرع إليه، وبه قال مجاهد[٢].

وقال الأخفش[٣]، وابن الأعرابي[٤]: مذعنين: مقرّين.

وقال النقاش[٥]: مذعنين: خاضعين.

ثم قسم الأمر في إعراضهم عن حكومته إذا كان الحقّ عليهم، فقال: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وهذه الهمزة للتوبيخ[٦]، والتقريع لهم.

والمرض: النفاق؛ أي: أكان هذا الإعراض منهم بسبب النفاق الكائن في قلوبهم ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾، وشكوا في أمر نبوّته ﷺ، وعدله في الحكم.

﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، والحيف[٧]: الميل في الحكم؛ يقال: حاف في قضيته؛ أي: جار فيما حكم به، ثم أضرب عن هذه الأمور التي صدّرها بالاستفهام الإنكاري، فقال: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: ليس ذلك لشيء مما

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٠).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٤٢) بسند ضعيف. ابن جريج لم يسمع من مجاهد.
(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١١٦).
(٤) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٢/ ٣٢٠).
(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١١٥).
(٦) «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٣٠)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٣٠).
(٧) «تهذيب اللغة» (٥/ ٢١٣)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٦٦).

ذكر؛ بل لظلمهم وعنادهم؛ فإنّه لو كان الإعراض لشيء مما ذكر لما أتوا إليه مذعنين إذا كان الحق لهم.

وفي هذه الآية دليل على وجوب الإجابة إلى القاضي العالِم بحكم الله العادل في حكمه؛ لأنّ العلماء ورثة الأنبياء، والحكم من قضاة الإسلام العالمين بحكم الله العارفين بالكتاب والسُّنَّة العادلين في القضاء. هو: حكم بحكم الله، وحكم رسوله، فالداعي إلى التحاكم إليهم قد دعا إلى الله، وإلى رسوله؛ أي: إلى حكمهما.

قال ابن خواز منداد(١): واجب على كل مَنْ دعي إلى مجلس الحاكم أن يجيب ما لم يعلم أن الحاكم فاسق.

قال القرطبي(٢): في هذه الآية دليل على وجوب إجابة الداعي إلى الحاكم؛ لأن الله سبحانه ذمّ من دعي إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه بأقبح الذمّ، فقال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية. انتهى.

فإن كان القاضي مُقصِّراً لا يعلم بأحكام الكتاب والسُّنَّة ولا يعقل حجج الله، ومعاني كلامه، وكلام رسوله؛ بل كان جاهلاً جهلاً بسيطاً، وهو مَنْ لا علم له بشيء من ذلك، أو جهلاً مُركّباً، وهو: من لا علم عنده بما ذكرنا، ولكنه قد عرف بعض اجتهادات المجتهدين، واطلع على شيء من علم الرأي، فهذا في الحقيقة جاهل، وإن اعتقد أنّه يعلم بشيء من العلم فاعتقاده باطل؛ فمن كان من القضاة هكذا فلا تجب الإجابة إليه؛ لأنه ليس ممن يعلم بحكم الله ورسوله حتى يحكم به بين المتخاصمين إليه بل هو مِنْ قضاة الطاغوت، وحكّام الباطل فإنّ ما عرفه من علم الرأي إنما رُخص في العمل به للمجتهد الذي هو منسوب إليه عند عدم الدليل من الكتاب، والسُّنَّة، ولم يرخص فيه لغيره ممن يأتي بعده.

[من البدع: التقليد الأعمى لعالم وإهمال ما عداه]:

وإذا تقرّر لديك هذا، وفهمته حق فهمه علمت: أنّ التقليد والانتساب إلى عالم مِنْ العلماء دون غيره والتقيد بجميع ما جاء به من رواية ورأي، وإهمال ما عداه من أعظم ما حدث في هذه الملة الإسلامية مِنْ البدع المضلة، والفواقر الموحشة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣١٧). (٢) في «تفسيره» (١٥/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

وقد أوضحنا هذا في مؤلفنا الذي سميناه: «القول المفيد[١] في حكم التقليد» وفي مؤلفنا الذي سميناه: «أدب الطلب[٢] ومنتهى الأرَب». فمن أراد أن يقف على حقيقة هذه البدعة التي طبقت الأقطار الإسلامية، فليرجع إليهما.

ثم لما ذكر ما كان عليه أهل النفاق أتبع بما يجب على المؤمنين أَنْ يفعلوه إذا دعوا إلى حكم الله، ورسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ قرأ الجمهور بنصب[٣] (قولَ) على أنه خبر كان واسمها: أن يقولوا.

وقرأ عليّ، والحسن، وابن أبي إسحاق برفع[٤] «قولُ» على أنه الاسم، وأن المصدرية، وما في حيزها الخبر.

وقد رجحت القراءة الأولى بما تقرّر عند النحاة من: أنه إذا اجتمع معرفتان، وكانت إحداهما أعرف جُعلت التي هي أعرف اسماً.

وأما سيبويه[٥] فقد خير بين كلّ معرفتين، ولم يفرق هذه التفرقة، وقد قدّمنا الكلام على الدعوة إلى الله، ورسوله للحكم بين المتخاصمين، وذكرنا من تجب الإجابة إليه من القضاة، ومَنْ لا تجب.

[أدب السمع والطاعة]:

﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾؛ أي: أَنْ يقولوا هذا القول لا قولاً آخر وهذا، وإن كان على طريقة الخبر، فليس المراد به ذلك؛ بل المراد به تعليم الأدب الشرعي عند هذه الدعوة من أحد المتخاصمين للآخر.

والمعنى: أنه ينبغي للمؤمنين أن يكونوا هكذا بحيث إذا سمعوا الدعاء المذكور قابلوه بالطاعة، والإذعان.

---

(١) وهي الرسالة رقم (٦٠) من الفتح الرباني من «فتاوى الشوكاني» (٥/ ٢١٦١)، ط. الجيل الجديد صنعاء.

(٢) وقد أعاننا الله على تحقيقها، ط. ابن تيمية/ القاهرة.

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٦٢)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٣٢).

(٤) «المحتسب» (٢/ ١١٥)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٣٢). القراءة برفع (قولُ) شاذة.

(٥) في «الكتاب» (١/ ٥٠).

قال مقاتل[١]، وغيره: يقولون سمعنا قول النبي ﷺ، وأطعنا أمره، وإن كان ذلك فيما يكرهونه، ويضرّهم، ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: المؤمنون الذين قالوا هذا القول ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بخير الدنيا، والآخرة، ثم أردف الثناء عليهم بثناء آخر، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها من حسن حال المؤمنين، وترغيب من عداهم إلى الدخول في عدادهم، والمتابعة لهم في طاعة الله ورسوله، والخشية من الله ﷻ، والتقوى له. قرأ حفص ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بإسكان القاف[٢] على نية الجزم.

وقرأ الباقون بكسرها[٣]؛ لأنّ جزم هذا الفعل بحذف آخره، وأسكن الهاء[٤] أبو عَمْرو، وأبو بكر، واختلس[٤] الكسرة يعقوب، وقالون عن نافع، والمثنى عن أبي عَمْرو، وحفص، وأشبع كسرة[٥] الهاء الباقون.

قال ابن الأنباري[٦]: وقراءة حفص هي على لغة مَنْ قال: لم أر زيداً، ولم أشترْ طعاماً يسقطون الياء للجزم، ثم يسكنون الحرف الذي قبلها، ومنه قول الشاعر[٧]:

قالتْ سُليمى اشترْ لنا دَقيقاً

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٢٥)، عن مقاتل وابن عباس.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣١٨)، و«التيسير» (ص١٧٢)، و«النشر» (١/ ٣٠٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٤٠ ـ ١٤١). قال في «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص٢٥٧): الصواب في هذا: قرأ حفص بإسكان القاف، وقرأ الباقون بكسرها، وقرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وقرأ هشام وخلّاد وابن وردان في وجه عنهم بإسكان الهاء، وقرأ قالون وحفص ويعقوب وكذا هشام وابن ذكوان وابن جمّاز في وجه عنهم باختلاس كسرتها وقرأ الباقون بإشباع الكسرة وهو الوجه الثالث لهشام والثاني لكل من خلّاد وابن وردان وابن ذكوان وابن جمّاز وليس عن أبي عمرو واختلاس.اهـ.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «البحر المحيط» (٦/ ٣٤١)، و«التيسير» (ص١٧٢)، و«النشر» (١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣١٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٣٥).

(٦) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٣٥)، والألوسي في «روح المعاني» (١٨/ ٤٣٦).

(٧) هو: العذافر الكندي برواية:

قالتْ سُليمى اشترْ لنا سويقاً … وهاتِ خبزَ البرِّ أو دقيقاً

انظر: «شواهد الشافية» (٢/ ٢٢٥).

وقول الآخر:

عَـجِـبـتُ لـمـولـودٍ ولـيـسَ لـه أَبٌ وذي وَلـدٍ لـم يَـلْـدهِ أبـوانِ[(١)]

وأصله يلد بكسر اللام، وسكون الدال للجزم، فلما سكن اللام التقى ساكنان، فلو حرك الأوّل؛ لرجع إلى ما وقع الفرار منه، فحرك ثانيهما، وهو: الدال.

ويمكن أن يقال: إنّه حرك الأوّل على أصل التقاء الساكنين، وبقي السكون على الدال لبيان ما عليه أهل هذه اللغة، ولا يضرّ الرجوع إلى ما وقع الفرار منه، فهذه الحركة غير تلك الحركة.

والإشارة بقوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ إلى الموصوفين بما ذكر من الطاعة، والخشية، والتقوى؛ أي: هم الفائزون بالنعيم الدنيوي، والأخروي لا من عداهم.

ثم حكى سبحانه عن المنافقين أنهم لما كرهوا حكمه أقسموا بأنه لو أمرهم بالخروج إلى الغزو لخرجوا، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾؛ أي: لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن، وجهد أيمانهم منتصب[(٢)] على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف الناصب له؛ أي: أقسموا بالله يجهدون أيمانهم جهداً.

ومعنى ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: طاقة ما قدروا [٣/٣٠٨] أن يحلفوا، مأخوذ من قولهم جهد نفسه: إذا بلغ طاقتها، وأقصى وسعها.

وقيل: هو منتصب[(٣)] على الحال والتقدير: مجتهدين في أيمانهم؛ كقولهم: افعل ذلك جهدك، وطاقتك.

وقد خلط الزمخشري[(٤)] الوجهين، فجعلهما واحداً.

وجواب القسم قوله: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾، ولما كانت مقالتهم هذه كاذبة، وأيمانهم فاجرة ردّ الله عليهم، فقال: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾؛ أي: ردّ عليهم زاجراً لهم، وقال لهم: لا تقسموا؛ أي: لا تحلفوا على ما تزعمونه من الطاعة، والخروج إلى الجهاد إن أمرتم به، وهاهنا تمّ الكلام.

---

(١) «خزانة الأدب» (٢/ ٣٨١)، و«الكتاب» (٢/ ٢٦٦).

(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٤٣٧)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٣).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) في «الكشاف» (٤/ ٣١٥ ـ ٣١٦).

ثم ابتدأ، فقال: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، وارتفاع طاعة[1] على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أي: طاعتُهم طاعةٌ معروفة بأنّها طاعة نفاقية لم تكن عن اعتقاد، ويجوز أَنْ تكون طاعة مبتدأ؛ لأنها قد خُصِّصت بالصفة، ويكون الخبر مقدّراً؛ أي: طاعة معروفة أولى بكم من أَيمانكم، ويجوز أن ترتفع[2] بفعل محذوف؛ أي: لتكن منكم طاعة، أو لتوجد، وفي هذا ضعف لأن الفعل لا يحذف إلّا إذا تقدّم ما يشعر به.

وقرأ زيد بن عليّ، واليزيديُّ «طاعةً» بالنصب[3] على المصدر لفعل محذوف؛ أي: أطيعوا طاعة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال، وما تضمرونه من المخالفة لما تنطق به ألسنتكم، وهذه الجملة تعليل لما قبلها من كون طاعتهم طاعة نفاق.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ: أن يأمرهم بطاعة الله ورسوله، فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ طاعة ظاهرة، وباطنة بخلوص اعتقاد، وصحة نية، وهذا التكرير منه تعالى لتأكيد وجوب الطاعة عليهم، فإنّ قوله: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ في حكم الأمر بالطاعة، وقيل: إنّهما مختلفان.

فالأوّل: نهي بطريق الردّ، والتوبيخ[4].

والثاني: أمر بطريق التكليف لهم، والإيجاب[5] عليهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ خطاب للمأمورين، وأصله، فإن تتولوا، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً، وفيه رجوع من الخطاب مع رسول الله ﷺ إلى الخطاب لهم لتأكيد الأمر عليهم، والمبالغة في العناية بهدايتهم إلى الطاعة، والانقياد.

وجواب الشرط قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾؛ أي: فاعلموا أنما على النبي ﷺ ما حُمّل مما أمر به من التبليغ[6]، وقَد فَعَل، (وعليكم ما

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٤٣٨)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٢٥)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٦).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٤)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٣٩).
(٣) قراءة العشرة بالرفع، وقراءة النصب شاذة، انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٦٤).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٣٠)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٤ ـ ٦٥).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٠).

حملتم)؛ أي: ما أمرتم به من الطاعة[١]، وهو وعيد لهم؛ كأنه قال لهم: فإن توليتم، فقد صرتم حاملين للحمل الثقيل.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿تَهۡتَدُواْۚ﴾ إلى الحق، وترشدوا إلى الخير، وتفوزوا بالأجر، وجملة: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ مقرّرة لما قبلها، واللام إما للعهد، فيراد بالرسول نبينا ﷺ، وإما للجنس، فيراد كل رسول، والبلاغ المبين: التبليغ الواضح، أو الموضّح. قيل: يجوز أن يكون قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ ماضياً، وتكون الواو لضمير الغائبين، وتكون هذه الجملة الشرطية مما أمر به رسول الله ﷺ أن يقوله لهم، ويكون في الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، والأوّل أرجح.

ويؤيده الخطاب في قوله: ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾، ويؤيده أيضاً قراءة البزي «فإنْ تولّوا» بتشديد التاء[٢]، وإنْ كانت ضعيفة لما فيها من الجمع بين ساكنين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول الله ﷺ سبب لهدايتهم، وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله، وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم، وهو وعد يعم جميع الأمة.

وقيل: هو خاص بالصحابة، ولا وجه لذلك، فإنّ الإيمان، وعمل الصالحات لا يختص بهم؛ بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله، وسُنَّة رسوله، فقد أطاع الله ورسوله.

واللّام في ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جواب[٣] لقَسَم محذوف، أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم؛ لأنه ناجز لا محالة، ومعنى ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم.

---

(١) «النكت والعيون» (٤/ ١١٧)، و«الوسيط» (٣/ ٣٢٦)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٣٥٣).

(٢) انظر: «البدور الزاهرة» (ص٢٢٣)، و«الدر المصون» (٥/ ٢٣١)، و«العنوان» (ص١٣٩). وهي قراءة متواترة عن البزي في وجه الآخر كباقي العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٤٨).

(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٤٤٥)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٦)، و«الفريد» (٣/ ٦١٣).

وقد أبعد من قال: إنها مختصة بالخلفاء الأربعة[١] أو بالمهاجرين[٢] أو بأن المراد بالأرض أرض[٣] مكة، وقد عرفت أَنّ الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وظاهر قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كلُّ مَنْ استخلفه الله في أرضه فلا يخصّ ذلك ببني إسرائيل ولا أمة من الأمم دون غيرها.

قرأ الجمهور ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ بفتح الفوقية[٤] على البناء للفاعل.

وقرأ عيسىٰ بن عمر، وأبو بكر، والمفضّل، عَنْ عاصم بضمها[٥] على البناء للمفعول، ومحل[٦] الكاف النصب على المصدرية؛ أي: استخلافاً كما استخلف.

وجملة: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب.

والمراد بالتمكين هنا: التثبيت، والتقرير؛ أي: يجعله الله ثابتاً مقرّراً، ويوسع لهم في البلاد، ويظهر دينهم على جميع الأديان.

والمراد بالدين هنا: الإسلام[٧]، كما في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ذكر ﷻ الإستخلاف لهم أوّلاً، وهو جعلهم ملوكاً، وذكر التمكين[٨] ثانياً، فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض، والطروّ؛ بل على وجه الاستقرار، والثبات، بحيث يكون الملك لهم، ولعقبهم من بعدهم.

وجملة: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ معطوفة على التي قبلها.

---

(١) قاله الضحاك في كتاب «النقّاش». كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢١)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٣٢١).
وانظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٨٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٣). (٣) «النكت والعيون» (٤/ ١١٨).

(٤) «التيسير» (ص١٦٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٤٥)، و«النشر» (٢/ ٣٣٢).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة. وهي قراءة متواترة.

(٦) «روح المعاني» (١٨/ ٤٤٥)، و«الفريد» (٣/ ٦١٣)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٦).

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٤٦)، و«الوسيط» (٣/ ٣٢٧).

(٨) «روح المعاني» (١٨/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦).

[ترجيح قراءة التشديد على التخفيف في قوله: «ليبدلنَّهم»]:

قرأ ابن كثير، وابن محيصن، ويعقوب، وأبو بكر «ليبدلنهم» بالتخفيف(١) من أبدل، وهي قراءة الحسن، واختارها أبو حاتم(٢).

وقرأ الباقون بالتشديد(٣) مِنْ بدّل، واختارها أبو عبيد(٤)، وهما لغتان، وزيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى، فقراءة التشديد(٥) أرجح مِنْ قراءة التخفيف.

قال النحاس(٦): وزعم أحمد بن يحيىٰ ثعلب أن بين التخفيف والتثقيل فرقاً، وأنَّه يقال: بدّلته؛ أي: غيرته، وأبدلته: أزلته، وجعلت غيره.

قال النحاس(٧)، وهذا القول صحيح.

والمعنى: أنّه سبحانه يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمناً، ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون إلّا الله سبحانه، ولا يرجون غيره.

وقد كان المسلمون قبل الهجرة، وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين، لا يخرجون إلّا في السلاح، ولا يمسون ويصبحون إلّا على ترقب لنزول المضرّة بهم من الكفار، ثم صاروا في غاية الأمن، والدعة، وأذلّ الله لهم شياطين المشركين، وفتح عليهم البلاد، ومهد لهم في الأرض، ومكنهم منها، فللّه الحمد.

وجملة: ﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ في محل نصب(٨) على الحال، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة للثناء عليهم.

وجملة: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ في محل نصب(٩) على الحال من فاعل يعبدونني؛ أي: يعبدونني، غير مشركين بي في العبادة شيئاً من الأشياء.

---

(١) «التيسير» (ص١٦٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٣)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٤٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٥).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٥).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة في التعليقة رقم (١).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٢٥). (٥) «جامع البيان» (١٧/ ٣٤٧).

(٦) في «إعراب القرآن» له (٣/ ١٤٥ ـ ١٤٦). (٧) في «إعراب القرآن» له (٣/ ١٤٦).

(٨) «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٢٦)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٤٧).

(٩) «التبيان» (٢/ ٩٧٦)، و«الفريد» (٣/ ٦١٣)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٥).

وقيل: معناه لا يراءون بعبادتي أحداً.

وقيل: معناه لا يخافون غيري.

وقيل: معناه لا يحبون غيري ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: مَنْ كفر هذه النعم بعد ذلك الوعد الصحيح، أو من استمرّ على الكفر، أو من كفر بعد إيمان، فأولئك الكافرون، هم الفاسقون؛ أي: الكاملون في الفسق. وهو الخروج عن الطاعة، والطغيان في الكفر.

وجملة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوفة على مقدّر يدلّ عليه ما تقدّم؛ كأنه قيل لهم: فآمنوا، واعملوا صالحاً، وأقيموا الصلاة، وقيل: معطوف على ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وقيل التقدير: فلا تكفروا، وأقيموا الصلاة.

وقد تقدّم الكلام على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكرّر الأمر بطاعة الرسول للتأكيد وخصّه بالطاعة لأن طاعته طاعة لله.

ولم يذكر ما يطيعونه فيه لقصد التعميم[1] كما يشعر به الحذف على ما تقرّر في علم المعاني من أن مثل هذا الحذف مُشْعر بالتعميم[2] ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: افعلوا ما ذُكر من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول راجين أن يرحمكم الله سبحانه.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قرأ ابن عامر، وحمزة، وأبو حيوة «لا يحسبنّ» بالتحتية[3] بمعنى: لا يحسبنَّ الذين كفروا.

وقرأ الباقون بالفوقية[4]؛ أي: لا تحسبنّ يا محمد، والموصول المفعول الأوّل، ومعجزين الثاني؛ لأن الحسبان يتعدّى إلى مفعولين، قاله الزجاج[5]، والفرّاء[6]، وأبو علي[7].

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٤٥٤).

(٢) انظر: «البلاغة العربية» (٢/ ٥٥٦).

(٣) «التيسير» (ص١٦٣)، و«النشر» (٢/ ٢٧٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٥٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٧).

(٤) «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٣٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٦).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٢).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٩).

(٧) في «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٣٢).

وأما على القراءة الأولى، فيكون المفعول الأوّل محذوفاً؛ أي: لا يحسبنّ الذين كفروا أنفسَهم.

قال النحاس[١]: وما علمت أحداً بصّرياً، ولا كوفيّاً، إلّا وهو يخطّئ[٢] قراءة حَمْزة، ومعجزين معناه: فائتين.

وقد تقدّم تفسيره، وتفسير ما بعده.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[٣] في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ الآية قال: أناس من المنافقين أظهروا الإيمان، وهم في ذلك يصدّون عن سبيل الله وطاعته، وجهاد مع رسوله ﷺ.

وأخرجوا أيضاً عن الحسن[٤] قال: إن الرجل كان يكون بينه، وبين الرجل خصومة، أو منازعة على عهد رسول الله ﷺ، فإذا دُعي إلى النبي ﷺ، وهو محقّ أذعن، وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحقّ، وإذا أراد أن يظلم فدُعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: أنطلق إلى فلان، فأنزل الله سبحانه ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان بينه وبين أخيه شيء فدعاه إلى حكم من حكام المسلمين، فلم يجب فهو ظالم لا حقّ له».

قال ابن كثير[٥] بعد أن ساق هذا المتن [٣/٣٠٩] ما لفظه: وهذا حديث غريب، وهو مرسل.

وقال ابن العربي[٦]: هذا حديث باطل فأما قوله: فهو ظالم فكلام صحيح. وأما قوله: فلا حق له[٧]، فلا يصح. ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق. انتهى.

وأقول: أما كون الحديث مرسلاً فظاهر.

وأما دعوى كونه باطلاً، فمحتاجة إلى برهان، فقد أخرجه ثلاثة من أئمة

---

(١) في «إعراب القرآن» له (٤/١٤٦).
(٢) الذي في «إعراب القرآن» للنحاس: «وهو يحظر».
(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢١٣)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٦٢١) بسند صحيح.
(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢١٣)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٦٢٢) بسند ضعيف لإرساله.
(٥) في «تفسيره» (١٠/٢٦٠).
(٦) «أحكام ابن العربي» (٣/١٣٩١).
(٧) قاله ابن العربي في المصدر المتقدم.

الحديث عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما ذكرنا، ويبعد كل البعد أن ينفق عليهم ما هو باطل، وإسناده عند ابن أبي حاتم[1] هكذا: قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبيّ، حدّثنا موسى بن إسماعيل، حدّثنا مبارك، حدّثنا الحسن، فذكره. وليس في هؤلاء كذاب ولا وضاع.

ويشهد له ما أخرجه الطبراني[2]، عن الحسن، عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حقّ له». انتهى.

ولا يخفاك أن قضاة العدل، وحكام الشرع الذين هم على الصفة التي قدّمنا لك قريباً هم سلاطين الدين المُترجمون عن الكتاب والسُّنَّة، المبينون للناس ما نزل إليهم.

وأخرج ابن مردويه[3]، عن ابن عباس قال: أتى قوم النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله لو أمرتنا أن نخرج من أموالنا لخرجنا، فأنزل الله ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم[4] عن مقاتل في الآية قال: ذلك في شأن الجهاد، قال: يأمرهم أن لا يحلفوا على شيء ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ قال: أمرهم أن يكون منهم طاعة معروفة للنبي ﷺ من غير أن يقسموا.

وأخرج ابن المنذر[5]، عن مجاهد ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ يقول: قد عرفت طاعتهم؛ أي: إنكم تكذبون به.

وأخرج مسلم، والترمذي، وغيرهما، عن علقمة بن وائل الحضرمي[6]، عن أبيه قال: «قدم سلمة بن يزيد على رسول الله ﷺ، فقال: أرأيتَ إنْ كان علينا

---

(١) في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢٢).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (ج٧ رقم ٦٩٣٩) بسند ضعيف. لضعف روح بن عطاء، وعنعنة الحسن البصري عن سمرة «مجمع الزوائد» (٤/ ١٩٨).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢٥) من طريق بكير بن معروف، عن مقاتل بن حيان.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٤).

(٦) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (١٨٤٦)، وابن أبي شيبة (١٥/ ٥٨)، والترمذي رقم (٢١٩٩).

أمراء يأخذون منا الحق ولا يعطونا؟ قال: «فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم».

وأخرج ابن جرير، وابن قانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سلمة بن يزيد[١] الجعفي قال: قلتُ: يا رسول، فذكر نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن الزبير، عن جابر[٢] أنه سئل: إن كان عليٌّ إمامٌ فاجر، فلقيت معه أهل ضلالة أقاتل أم لا؟ قال: قاتل أهل الضلالة أينما وجدتهم وعلى الإمام ما حمّل، وعليكم ما حملتم.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن البراء[٣] في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ الآية. قال: فينا نزلت، ونحن في خوف شديد.

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية[٤] قال: «كان النبيّ ﷺ، وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وعبادته وحده لا شريك له سرًّا، وهم خائفون لا يُؤمرون بالقتال، حتى أُمروا بالهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة، فأمرهم الله بالقتال، وكانوا بها خائفين يمسون في السلاح، ويصبحون في السلاح، فغَبَروا بذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من أصحابه قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع فيه السلاح؟، فقال رسول الله ﷺ: لن تغبروا إلّا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة، فأنزل الله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية»، فأظهر الله نبيه ﷺ على جزيرة العرب، فأمنوا، ووضعوا السلاح. ثم إن الله قبض نبيه، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر، وعمر، وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا، وكفروا النعمة، فأدخل الله عليهم الخوف الذي كان رفع عنهم، واتخذوا الحُجَر، والشُّرَط، وغيّروا، فغُيِّر ما بهم.

---

(١) أخرجه ابن قانع (١/ ٢٨٠، ٢٨١)، والطبراني رقم (٦٣٢٢). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٢٠): «فيه عبيد بن عبيدة ولم أعرفه».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢٥ ـ ٢٦٢٦) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٥)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢٨) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٥)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢٩) مرسلاً. ويشهد له ما يأتي.

وأخرج ابن المنذر، والطبراني في الأوسط، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة عن أبيّ بن كعب[(١)]. قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عَنْ قوس واحد، فكانوا لا يبيتون إلّا في السلاح، ولا يصبحون إلّا فيه، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلّا الله، فنزلت ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية.

وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس[(٢)] ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ قال: لا يخافون أحداً غيري.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد[(٣)] مثله، قال: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ العاصون.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية[(٤)] قال: كفر بهذه النعمة، ليس الكفر بالله.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة[(٥)] ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: سابقين في الأرض.

[آداب الاستئذان داخل البيوت]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٧٠٢٩)، والحاكم (٢/ ٤٠١)، وصححه ووافقه الذهبي والبيهقي (٣/ ٦، ٧)، والضياء في «المختارة» رقم (١١٤٦). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٣): «رجاله ثقات». وهو حديث صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٦).

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٦).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٦).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٧).

[تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء]:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾.

لما فرغ سبحانه مِنْ ذكر ما ذكره من دلائل التوحيد رجع إلى ما كان فيه من الاستئذان، فذكره هاهنا على وجه أخصّ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين وتدخل المؤمنات فيه تغليباً كما في غيره من الخطابات.

قال العلماء: هذه الآية خاصة ببعض الأوقات. واختلفوا في المراد بقوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ على أقوال:

الأوّل: أنّها منسوخة، قاله سعيد بن المسيب(١).

وقال سعيد بن جبير(٢): إن الأمر فيها للندب لا للوجوب.

وقيل: كان ذلك واجباً حيثُ كانوا لا أبواب لهم، ولو عاد الحال لعاد الوجوب، حكاه المهدوي عن ابن عباس(٣).

وقيل: إنّ الأمر هاهنا للوجوب، وإن الآية محكمة(٤) غير منسوخة، وأن حكمها ثابت على الرجال والنساء.

---

(١) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» رقم (٧١٧).

(٢) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» رقم (٤٠٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٥٥)، عن سعيد بن جبير قال: «يقولون: هي منسوخة، لا والله ما نسخها شيء، ولكنها مما تهاون به الناس».

(٣) «المحرر الوجيز» (١١/ ٣٢٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٢٩).

(٤) «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٥١، ٥٥٢).

قال القرطبي[١]: وهو قول أكثر أهل العلم.

وقال أبو عبد الرحمٰن السلمي[٢]: إنها خاصة بالنساء.

وقال ابن عمر[٣]: هي خاصة بالرجال دون النساء.

والمراد بقوله: ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ العبيد والإماء، والمراد بـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ﴾ الصبيان ﴿مِنكُمْ﴾؛ أي: من الأحرار.

ومعنى ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾: ثلاثة أوقات في اليوم والليلة، وعبّر بالمرات عن الأوقات لأن أصل وجوب الاستئذان هو بسبب مقارنة تلك الأوقات لمرور المستأذنين بالمخاطبين لا نفس الأوقات، وانتصاب[٤] ثلاث مرات على الظرفية الزمانية؛ أي: ثلاثةَ أوقات.

ثم فسّر تلك الأوقات بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ إلخ، أو منصوب على المصدرية[٥]؛ أي: ثلاث استئذانات؛ ورجّح هذا أبو حيان[٦]، فقال: والظاهر من قوله: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ ثلاث استئذانات؛ لأنّك إذا قلتَ ضربتُك ثلاث مرات لا يفهم منه إلّا ثلاث ضربات.

ويردّ: بأنّ الظاهر هنا متروك للقرينة المذكورة، وهو التفسير بالثلاثة الأوقات.

قرأ الحسن، وأبو عمرو في رواية «الحُلْم» بسكون اللام[٧]، وقرأ الباقون[٨] بضمها.

---

(١) في «تفسيره» (١٥/ ٣٣٠).

(٢) قال القرطبي: وأضعفها قول السُّلَمِيِّ؛ لأنَّ (الذين) لا يكون للنساء في كلام العرب، إنما يكون للنساء: اللَّاتي واللواتي.
وقال الألوسي في «روح المعاني» (١٨/ ٤٦٠): وهو قول غريبٌ لا يعوَّل عليه.

(٣) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٥٣ ـ ٥٥٤)، وأبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» رقم (٤٠٢)، وابن أبي شيبة (٤/ ٤٠٠) بسند ضعيف.

(٤) «روح المعاني» (١٨/ ٤٦٤)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٧)، و«الفريد» (٣/ ٦١٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٢٦ ـ ١٢٧).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) في «البحر المحيط» (٨/ ٦٨).

(٧) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٦٣).
هي قراءة شاذة ورواية عن أبي عمرو شاذة.

(٨) «روح المعاني» (١٨/ ٤٦٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٣٣).

قال الأخفش[(١)]: الحُلم من حَلَم الرجلُ بفتح اللام، ومن الحِلْم حلُم بضم اللام يحلِمُ بكسر اللام.

ثم فسّر سبحانه الثلاث المرات، فقال: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، وذلك لأنّه وقت القيام عَنْ المضاجع، وطرح ثياب النوم، ولبس ثياب اليقظة، وربما يبيت عرياناً، أو على حال لا يحبّ أَنْ يراه غيره فيها، ومحله[(٢)] النصب على أنه بدل من ثلاث.

ويجوز أن يكون في محل[(٣)] رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي من قبل.

وقولُه: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ معطوف على محل ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، و«من» في ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ للبيان[(٤)]، أو بمعنى: في، أو بمعنى: اللام.

والمعنى: حينَ تضعون ثيابكم التي تلبسونها في النهار من شدة حرّ الظهيرة، وذلك عند انتصاف النهار، فإنهم قد يتجرّدون عن الثياب لأجل القيلولة.

ثم ذكر سبحانه الوقت الثالث، فقال [٣/٣١٠] ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾، وذلك لأنه وقت التجرّد عن الثياب، والخلوة بالأهل، ثم أجمل سبحانه هذه الأوقات بعد التفصيل، فقال: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ قرأ الجمهور «ثلاثُ عوراتٍ» برفع ثلاث[(٥)]، وقرأ حمزة، وأبو بكر عَنْ عاصم بالنصب[(٦)] على البدل من ثلاث مرات.

قال ابنُ عطية[(٧)]: إنما يصح البدل بتقدير أوقات ثلاث عورات، فحُذِفَ المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، ويحتمل: أَنّه جعل نفس ثلاث مرات نفس ثلاث عورات مُبالغةً؛ ويجوز أَنْ يكون ثلاث عورات بدلاً من الأوقات المذكورة؛ أي: مِنْ قبل صلاة الفجر إلخ؛ ويجوز أَنْ تكون منصوبةً بإضمار فعل؛ أي:

---

(١) انظر: «روح المعاني» (١٨/ ٤٦١ ـ ٤٦٣)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٥٣).
(٢) «الفريد» (٣/ ٦١٤)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٦٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٩).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة. (٤) «روح المعاني» (١٨/ ٤٦٤).
(٥) «التيسير» (ص١٦٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٤٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٩).
(٦) «روح المعاني» (١٨/ ٤٦٦)، و«النشر» (٢/ ٣٣٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٩).
(٧) في «المحرر الوجيز» (١١/ ٣٢٤).

أعني، ونحوه، وأما الرفع فعلى أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هنّ ثلاثٌ.

قال أبو حاتم(١): النصب ضعيف مردود.

وقال الفراء(٢): الرفع أحبّ إليّ، قال: وإنما اخترت الرفع لأن المعنى: هذه الخصال ثلاث عورات.

وقال الكسائي(٣): إنّ ثلاث عورات مرتفعة بالابتداء، والخبر: ما بعدها. قال: والعورات: الساعات التي تكون فيها العورة.

قال الزجاج(٤): المعنى: ليستأذنكم أوقات ثلاث عورات، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

[معنى العورة]:

وعورات جَمعُ عورةٍ، والعورة في الأصل(٥): الخلَلُ، ثم غلب في الخلل الواقع فيما يهمّ حفظه، ويتعين ستره؛ أي: هي ثلاث أوقات يختلّ فيها الستر.

وقرأ الأعمش «عَوَرات» بفتح الواو(٦)، وهي لغة هُذيل، وتميم، فإنهم يفتحون عين فَعَلات سواء كان واواً، أو ياء، ومنه:

أخُو بَيَضَاتٍ رايحٌ متأوِّبٌ ... رَفيقٌ بمسحِ المِنْكبينِ سَبُوحُ(٧)

وقوله:

أبو بَيَضَات رايحٌ أو مُبعَدٌ ... عَجلان ذا زادٍ وغير مُزوّدِ(٧)

و«لكم» متعلق بمحذوف، هو صفة لثلاث عورات؛ أي: كائنة لكم، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان علة وجوب الاستئذان ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾؛ أي: ليس على المماليك، ولا على الصبيان جُناح؛ أي: إثمٌ في الدخول بغير استئذان لعدم ما يوجبه مِنْ مخالفة الأمر، والاطلاع على العورات.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٣٣). (٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٠).

(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٤٧).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٢).

(٥) «تهذيب اللغة» (٣/ ١٦٩)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٩٥).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٩)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٦٦). وهي قراءة شاذة.

(٧) انظر: «خزانة الأدب» (٨/ ١٠٢)، و«الخصائص» (٣/ ١٨٤).

ومعنى بعدهنّ: بعد كل واحدة من هذه العورات الثلاث، وهي الأوقات المتخللة بين كلّ اثنين منها، وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة، ويجوز أن تكون في محل[١] رفع صفة لثلاث عورات على قراءة الرفع فيها.

قال أبو البقاء: ﴿بَعْدَهُنَّ﴾؛ أي: بعد استئذانهم فيهنّ، ثم حُذف حرف الجرّ والمجرور فبقي بعد استئذانهم، ثُمّ حذف المصدر، وهو الاستئذان، والضمير المتصل به.

وردّ: بأنَّه لا حاجة إلى هذا التقدير الذي ذكره؛ بل المعنى: ليس عليكم جُناح، ولا عليهم؛ أي: العبيد، والإماء، والصبيان جُناح في عدم الاستئذان بعد هذه الأوقات المذكورة، وارتفاع ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ على أنّه خبر[٢] مبتدأ محذوف؛ أي: هم طوّافون عليكم، والجُملة مستأنفة مُبينة للعذر المرخِّص في ترك الاستئذان.

قال الفراء[٣]: هذا كقولك في الكلام هم خدمكم، وطوّافون عليكم، وأجاز أيضاً نصب طوّافين لأنّه نكرة، والمضمر في ﴿عَلَيْكُم﴾ معرفة، ولا يجيز البصريون[٤] أَنْ تكون حالاً مِنْ المضمرين اللذين في عليكم، وفي بعضكم لاختلاف العاملين.

ومعنى طوّافون عليكم؛ أي: يطوفون عليكم، ومنه الحديث في الهرّة: «إنما هي من الطوّافين عليكم، أو الطوّافات»[٥]؛ أي: هم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا عليكم في غير هذه الأوقات بغير إذن، ومعنى ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: بعضُكم يطوف، أو طائف على بعض، وهذه الجملة بدل ممّا قبلها، أو مؤكدة لها.

والمعنى: أن كلّاً منكم يطوف على صاحبه: العبيد على الموالي، والموالي على العبيد، ومنه قول الشاعر:

ولمَّا قرعنا النَّبعَ بالنَّبعِ بعضَه ... ببعضٍ أبتْ عِيدانُه أنْ تكسَّرا

---

(١) «التبيان» (٢/ ٩٧٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٦٧).

(٢) «الفريد» (٣/ ٦١٥)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٧٠).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٠). (٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٤٧).

(٥) أخرجه أحمد رقم (٢٢٥٨٠)، وأبو داود رقم (٧٥)، والترمذي رقم (٩٢)، والنسائي (١/ ٥٥، ١٧٨)، وابن ماجه رقم (٣٦٧)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وهو حديث صحيح.

[إباحة الدخول بغير استئذان في غير الأوقات المخصصة للاستئذان]:

وقرأ ابن أبي عبلة «طوّافين» بالنصب[1] على الحال كما تقدّم عن الفراء، وإنما أباح سبحانه الدخول في غير تلك الأوقات الثلاثة بغير استئذان؛ لأنّها كانت العادة أنّهم لا يكشفون عوراتهم في غيرها.

والإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ إلى مصدر الفعل الذي بعده، كما في سائر المواضع في الكتاب العزيز؛ أي: مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الآيات الدالة على ما شرعه لكم مِنْ الأحكام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كثير العلم بالمعلومات، وكثير الحكمة في أفعاله.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ بيَّن سبحانه هاهنا حكم الأطفال الأحرار إذا بلغوا الحُلُم بعد ما بين فيما مرّ حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم في أنه لا جناح عليهم في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة، فقال: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾؛ يعني: الذين بلغوا الحُلُم إذا دخلوا عليكم ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والكاف نعت مصدر محذوف؛ أي: استئذاناً كما استأذن الذين مِنْ قبلهم، والموصول عبارة عن الذين قيل لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ [النور: ٢٧] الآية.

والمعنى: أنّ هؤلاء الذين بلغوا الحُلُم يستأذنون في جميع الأقات كما استأذن الذين مِنْ قبلهم من الكبار الذين أُمروا بالاستئذان مِنْ غير استثناء.

ثم كرّر ما تقدّم للتأكيد، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وقرأ الحسنُ «الحُلْم»، فحذف الضمة[2] لثقلها.

قال عطاء[3]: واجب على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا أحراراً كانوا أو عبيداً.

وقال الزهري[4]: يستأذن الرجل على أمه، وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٣٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٦٩).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٤٧). وهي قراءة شاذة.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩) بسند ضعيف.
(٤) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٥٥٥).

[المراد بالقواعد من النساء]:

والمراد بالقواعد مِنْ النساء: العجائز اللّاتي قَعدنَ عَنْ الحيض، والولد من الكِبَر، واحدتها قاعد بلا هاء ليدلّ حذفها على أنه قعود الكبر، كما قالوا: امرأة حامل ليدلّ بحذف الهاء على أنه حمل حَبَلٍ[١]، ويقال: قاعدة في بيتها، وحاملة على ظهرها.

قال الزجاج[٢]: هن اللّاتي قعدن عن التزويج، وهو معنى قوله: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾؛ أي: لا يطمعن فيه لكبرهنّ.

وقال أبو عبيدة[٣]: اللّاتي قعدن عَنْ الولد، وليس هذا بمستقيم؛ لأن المرأة تقعد عَنْ الولد وفيها مُسْتَمتع.

[حكم القواعد من النساء]:

ثم ذكر سبحانه حكم القواعد، فقال: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾؛ أي: الثياب التي تكون على ظاهر البدن كالجلباب ونحوه، لا الثياب التي على العورة الخاصة، وإنما جاز لهنّ ذلك لانصراف[٤] الأنفس عنهنّ إذ لا رغبة للرجال فيهنّ، فأباح الله سبحانه لهنّ ما لم يُبْحه لغيرهنّ، ثم استثنى حالةً من حالاتهنّ، فقال: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾؛ أي: غير مظهرات للزينة التي أمرن بإخفائها في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

والمعنى: مِنْ غير أن يردن بوضع الجلابيب إظهار زينتهنّ، ولا مُتعرّضات بالتزين لينظر إليهنّ الرجال.

والتبرّج التكشف، والظهور[٥] للعيون، ومنه ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] وبروج السماء، ومِنْه قولهم: سفينة بارجة؛ أي: لا غطاء عليها.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾؛ أي: وأَنْ يتركن وضع الثياب فهو خير لهنّ من وضعها.

---

(١) «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٠٨).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٣). (٣) في «مجاز القرآن» (٢/ ٦٩).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٤٠)، و«المحرر الوجيز» (١١/ ٣٢٥)، و«جامع البيان» (١٧/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).
(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٨٩).

وقرأ عبد الله بن مسعود، وأُبيّ بن كعب، وابن عباس: «أن يضعن مِنْ ثيابهن» بزيادة[(١)] (مِنْ)، وقرأ ابن مسعود «وأنْ يعففن» بغير سين[(٢)].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كثير السماع والعلم، أو بليغهما.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي مُحكمة، أو منسوخة؟ قال بالأوّل جماعة[(٣)] من العلماء، وبالثاني[(٤)] جماعة.

قيل[(٥)]: إنّ المسلمين كانوا إذا غزوا خلّفوا زَمْنَاهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، فكانوا يتحرّجون من ذلك وقالوا: لا ندخلها، وهم غُيَّب، فنزلت هذه الآية رخصة لهم؛ فمعنى الآية: نفي الحرج عَنْ الزمْنى في أكلهم من بيوت أقاربهم، أو بيوت من يدفع إليهم المفتاح إذا خرج للغزو.

قال النحاس[(٦)]: وهذا القول من أجلّ ما روي في الآية لما فيه من الصحابة، والتابعين من التوقيف.

وقيل: إن هؤلاء المذكورين كانوا يتحرّجون من مؤاكلة الأصحّاء حذاراً من استقذارهم إياهم[(٧)]، وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم، فنزلت.

وقيل: إنّ الله رفع الحرج عَنْ الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذي يشترط فيه البصر، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به القدرة الكاملة على المشي [٣/٣١١] على وجهٍ يتعذر الإتيان به مع العرَج، وعن المريض فيما يؤثر المرض في إسقاطه.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٤٠)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٦٢)، و«مجمع البيان» (١٨/ ٧٧).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣). وهي قراءة شاذة.
(٣) «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٦٤)، و«جامع البيان» (١٧/ ٣٦٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٤٤).
(٤) «الناسخ والمنسوخ» (٢/٥٥٩)، و«جامع البيان» (١٧/ ٣٦٩)، و«الإيضاح لناسخ القرآن» (ص٣٦٩).
(٥) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٢٩). (٦) في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٦٦).
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٤٦).

وقيل: المراد بهذا الحرج المرفوع عن هؤلاء هو الحرج في الغزو؛ أي: لا حرج على هؤلاء في تأخرهم عَنْ الغزو.

وقيل[١]: كان الرجل إذا أدخل أحداً من هؤلاء الزمنا إلى بيته، فلم يجد فيه شيئاً يطعمهم إياه ذهب بهم إلى بيوت قرابته، فيتحرّج الزمنى من ذلك، فنزلت.

ومعنى قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ عليكم، وعلى من يماثلكم من المؤمنين ﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ أنتم ومَنْ معكم، وهذا ابتداء كلام؛ أي: ولا عليكم أيها الناس.

والحاصل: أنّ رفع الحرج عن الأعمى، والأعرج، والمريض إن كان باعتبار مؤاكلة الأصحاء، أو دخول بيوتهم، فيكون ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ متصلاً بما قبله، وإن كان رفع الحرج عن أولئك باعتبار التكاليف التي يشترط فيها وجود البصر، وعدم العرج، وعدم المرض، فقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ابتداء كلام غير متصل بما قبله.

ومعنى ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾: البيوت التي فيها متاعهم، وأهلهم، فيدخل بيوت الأولاد.

كذا قال المفسّرون[٢]؛ لأنها داخلة في بيوتهم لكون بيت ابن الرجل بيته، فلذا لم يذكر سبحانه بيوت الأولاد، وذكر بيوت الآباء، وبيوت الأمهات، ومن بعدهم.

قال النحاس[٣]: وعارض بعضُهم هذا، فقال: هذا تحكّم على كتاب الله سبحانه بل الأولى في الظاهر أن يكون الابن مخالفاً لهؤلاء.

ويجاب عَنْ هذه المعارضة بأن رتبة الأولاد بالنسبة إلى الآباء لا تنقص عن رتبة الآباء بالنسبة إلى الأولاد؛ بل للآباء مزيد خصوصية في أموال الأولاد لحديث: «أنت، ومالك لأبيك»[٤]، وحديث: «ولد الرجل مِنْ كسبه»[٥].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٥)، والبيهقي (٧/ ٢٧٥)، عن مجاهد بسند صحيح.

(٢) «المحرر الوجيز» (١١/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٤٧).

(٣) في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٦١ ـ ٥٦٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٩)، وابن الجارود في «المنتقى» رقم (٩٩٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٤٨٠)، وأبو داود رقم (٣٥٣٠)، وابن ماجه رقم (٢٢٩٢) من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده. وهو حديث صحيح لغيره.

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ١٧٣)، وأبو داود رقم (٣٥٢٨)، والترمذي رقم (١٣٥٨)، وقال: «هذا =

[هل جواز الأكل مقيد بالإذن؟]:

ثم قد ذكر[1] الله سبحانه هاهنا بيوت الإخوة، والأخوات؛ بل بُيوت الأعمام، والعمّات؛ بل بيوت الأخوال، والخالات، فكيف ينفي سبحانه الحرج عن الأكل من بيوت هؤلاء، ولا ينفيه عَنْ بيوت الأولاد؟ وقد قيد بعضُ العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالإذن[2] منهم.

وقال آخرون[3]: لا يُشترط الإذن. قيل: وهذا إذا كان الطعام مبذولاً، فإن كان محرزاً دونهم لم يجز لهم أكله.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾؛ أي: البيوت التي تملكون التصرّف فيها بإذن أربابها، وذلك كالوكلاء والعبيد والخزّان، فإنهم يملكون التصرّف في بيوت مَنْ أذن لهم بدخول بيته، وإعطائهم مفاتحه. وقيل: المراد بها بيوت المماليك.

قرأ الجمهور «مَلَكْتم» بفتح الميم[4]، وتخفيف اللام.

وقرأ سعيد بن جبير بضم الميم[5]، وكسر اللام مع تشديدها.

وقرأ أيضاً «مفاتيحه» بياء بين التاء[6]، والحاء.

وقرأ قتادة «مفاتحه» على الإفراد[7].

والمفاتح جمع مَفْتح، والمفاتيح جمع مفتاح ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؛ أي: لا جناح عليكم أن تأكلوا مِنْ بيوت صديقكم وإنْ لم يكن بينكم وبينه قرابة، فإن الصديق في الغالب يسمح لصديقه بذلك، وتطيب به نفسُه، والصديق يطلق على الواحد،

= حديث حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ٢٤١)، وابن ماجه رقم (٢٢٩٠)، والدارمي (٢/ ٢٤٧) كلهم من حديث عمارة بن عمير، عن عمته، عن عائشة رضي الله عنها. وهو حديث صحيح.

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٩١).

(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٤٨).

(٣) «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٣٣٥)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٩١).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٧١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٨١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٤٩).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٧١). وهي قراءة شاذة.

(٦) «المحرر الوجيز» (١١/ ٣٢٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٤٩).

(٧) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«المحتسب» (٢/ ١١٦).

والجمع، ومنه قول جرير[١]:

دَعَون الهَوَى ثمَّ ارتمينَ قُلوبَنا   بأسهُمِ أعداءٍ وهُنّ صَديقُ

ومثله العدوّ، والخليط، والقطين، والعشير، ثم قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا﴾ من بيوتكم ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ انتصاب[٢] جميعاً وأشتاتاً على الحال.

والأشتات[٣] جمع شَتّ، والشتّ المصدر بمعنى: التفرُّق، يقال: شتّ القوم؛ أي: تفرّقوا، وهذه الجملة كلامٌ مستأنف مُشتمل على بيان حكم آخر من جنس ما قبله؛ أي: ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم مجتمعين، أو متفرقين، وقد كان بعض العرب يتحرّج أن يأكل وحده حتى يجد له أكيلاً يؤاكله، فيأكل معه، وبعض العرب كان لا يأكل إلّا مع ضيف، ومنه قول حاتم[٤]:

إذَا ما صَنَعتِ الزَّادَ فالتمسِي لَهُ   أَكِيْلاً فإنِّي لَسْتُ آكِلَه وَحْدِي

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ هذا شروع في بيان أدب آخر أدّب به عباده؛ أي: إذا دخلتم بيوتاً غير البيوت التي تقدّم ذكرها ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم. وقيل: المراد البيوت المذكورة سابقاً.

وعلى القول الأوّل، فقال الحسن[٥]، والنخعي[٦]: هي المساجد.

والمراد سلّموا على مَنْ فيها من صنفكم، فإن لم يكن في المساجد أحد.

فقيل: يقول: السلام[٧] على رسول الله.

---

(١) انظر: «ديوانه» (١/ ٣٧٢).

(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٤٨٤)، و«الفريد» (٣/ ٦١٦).

(٣) «تهذيب اللغة» (١١/ ٣٦٩)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٤٥).

(٤) نسبه إليه التبريزي في «شرح الحماسة» (٤/ ١٠٠)، ونسبه المبرد في «الكامل» (٢/ ٧٠٩) لقيس بن عصام المنقري.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٨١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥١) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٨١) من طريق سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم النخعي.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٨١)، عن إبراهيم النخعي قال: «إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله».

وقيل: يقول: السلام عليكم مُريداً للملائكة، وقيل: يقول: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين(١).

وقال بالقول الثاني: أعني: أنّها البيوت المذكورة سابقاً جماعة من الصحابة، والتابعين.

وقيل: المراد بالبيوت هنا هي كلّ البيوت المسكونة، وغيرها، فيسلم على أهل المسكونة.

وأما غير المسكونة فيسلّم(٢) على نفسه.

قال ابن العربي(٣): القول بالعموم في البيوت هو الصحيح.

وانتصاب ﴿تَحِيَّةً﴾ على المصدرية؛ لأن قوله: ﴿فَسَلِّمُواْ﴾ معناه: فحيوا؛ أي: تحية ثابتة ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنّ الله حياكم بها.

وقال الفرّاء(٤): أي: إن الله أمركم أن تفعلوها طاعة له، ثم وصف هذه التحية، فقال: ﴿مُبَٰرَكَةً﴾؛ أي: كثيرة البركة والخير دائمتهما ﴿طَيِّبَةً﴾؛ أي: تطيب بها نفس المستمع، وفَعَل: حسنةً جميلة.

وقال الزجاج(٥): أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك طيب لما فيه من الأجر والثواب، ثم كرّر سبحانه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ تأكيداً لما سبق.

وقد قدّمنا: أن الإشارة بذلك إلى مصدر الفعل ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه، وفهم معانيها.

وقد أخرج ابن أبي حاتم(٦)، عن مقاتل بن حيان قال: بلغنا أن رجلاً من

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٨١)، والحاكم (٢/ ٤٠١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٨٨٣٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٠) من طريق معمر، به.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٧٨ ـ ٣٨١)، عن جابر، وابن عباس، وعطاء بن أبي رباح بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٣) في «أحكام القرآن» (٣/ ١٣٩٦ ـ ١٣٩٧). (٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٢).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٥).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٣) بسند حسن، ولكنه مفصل؛ لأن مقاتل بن حيان تابع تابعي.

الأنصار، وامرأته أسماء بنت مُرْشدة صنعا للنبي ﷺ طعاماً، فقالت أسماء: يا رسول الله ما أقبح هذا! إنّه ليدخل على المرأة وزوجها، وهما في ثوب واحد غلامُهما بغير إذن، فأنزل الله في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾؛ يعني: العبيد والإماء ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ قال: من أحراركم من الرجال والنساء.

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عن السديّ في هذه الآية قال: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا، ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين، والغلمان: أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلّا بإذن.

وأخرج ابن مردويه[٢] عن ثعلبة القُرظي، عن عبد الله بن سويد قال: «سألت رسول الله ﷺ عن العورات الثلاث، فقال: إذا أنا وضعت ثيابي بعد الظهيرة لم يلج عليّ أحد من الخدم من الذين لم يبلغوا الحلم، ولا أحد لم يبلغ الحلم من الأحرار إلّا بإذن، وإذا وضعت ثيابي بعد صلاة العشاء، ومن قبل صلاة الصبح».

وأخرجه عبد بن حميد، والبخاري في الأدب، عن عبد الله بن سويد[٣] من قوله.

وأخرج نحوه أيضاً ابن سعد[٤] عن سويد بن النعمان.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن ابن عباس[٥] قال: إنه لم يؤمن بها أكثر الناس يعني: آية الإذن، وإني لآمر جاريتي هذه، ـ لجارية قصيرة قائمة على رأسه ـ أن تستأذن عليّ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٣ ـ ٢٦٣٤) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٧).

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (١٠٥٢). وهو حديث صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٨).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٤٠٠)، وأبو داود رقم (٥١٩١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٩٧). وهو حديث صحيح.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[1]، قال: ترك الناس ثلاث آيات لم يعملوا بهنّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ والآية التي في سورة النساء ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ [النساء: ٨] الآية، والآية التي في الحجرات ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأخرج ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «السنن» عنه[2] أيضاً في الآية قال: إذا خلا الرجل بأهله بعد العشاء فلا يدخل عليه صبيّ، ولا خادم إلّا بإذنه حتى يصلي الغداة، وإذا خلا بأهله عند الظهر، فمثل ذلك، ورخص لهم في الدخول فيما بين ذلك بغير إذن، وهو قوله: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾، فأما من بلغ الحُلم، فإنه لا يدخل على الرجل، وأهله إلّا بإذن على كل حال، وهو قوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

وأخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في السُّنن بسندٍ صحيح من طريق عكرمة[3] عنه أيضاً: أن رجلاً سأله عن الاستئذان في الثلاث العورات التي أمر الله بها في القرآن، فقال ابن عباس: «إن الله سَتِير يحب الستر»، وكان الناس ليس لهم سُتور على أبوابهم، ولا حجاب [٣/٣١٢] في بيوتهم، فربما فجأ الرجلَ خادمُه أو ولدهُ أو يتيم في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمّى الله، ثم جاء الله بعدُ بالستور، فبسط عليهم في الرزق، فاتخذوا الستور، واتخذوا الحجاب، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، وابن جرير، وابن المنذر، عن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤٣، ٢٤٤، ٣٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٤ ـ ٢٦٣٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٩٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٥١٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٢)، والبيهقي (٧/ ٩٧). وهو حديث صحيح.

ابن عمر[١] في قوله: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ قال: هي على الذكور دون الإناث.

[لا وجه لتخصيص النساء بالاستئذان دون الرجال والعكس فالإذن واجب على العموم]:

ولا وجه لهذا التخصيص، فالاطلاع على العورات في هذه الأوقات كما يكرهه الإنسان من الذكور يكرهه من الإناث.

وأخرج ابن مردويه[٢] عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن بعض أزواج النبي ﷺ في الآية قالت: نزلت في النساء أن يستأذنّ علينا.

وأخرج الحاكم[٣] وصححه عن عليّ في الآية قال: النساء، فإن الرجال يستأذنون.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمٰن السلمي[٤] في هذه الآية قال: هي في النساء خاصة، الرجال يستأذنون على كل حال بالليل والنهار.

وأخرج الفريابي، عن موسىٰ بن أبي عائشة[٥] قال: سألت الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي؟ قال: لا.

وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عطاء[٦]: أنه سأل ابن عباس: أأستأذن على أختي؟ قال: نعم، قلتُ: إنها في حَجْري، وإني أنفق عليها، وإنها معي في البيت أأستأذن عليها؟

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب» رقم (١٠٥٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٥١). وهو حديث ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٩).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٠١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٤٠٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٣) من طريق سفيان، به.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢١٩).

(٦) أخرجه البخاري في «الأدب» رقم (١٠٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٧) بسند صحيح.

قال: نعم، إن الله يقول: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ الآية، فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلّا في هؤلاء العورات الثلاث، قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فالإذن واجب على كل خلق الله أجمعين.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، والبيهقي في سننه عن ابن مسعود[1] قال: عليكم إذن على أمهاتكم.

وأخرج سعيد بن منصور، والبخاري في الأدب[2] عنه قال: يستأذن الرجل على أبيه وأمه وأخيه وأخته.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب، عن جابر[3] نحوه.

وأخرج ابن جرير، والبيهقي في السُّنن عن عطاء بن يسار[4]: «أن رجلاً قال: يا رسول الله أأستأذن على أمي؟ قال: نعم، قال: إني معها في البيت، قال: استأذن عليها، قال: إني خادمها أفأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: أتحبّ أن تراها عريانة؟ قال: لا، قال: فاستأذن عليها»، وهو مرسل.

وأخرج ابن أبي شيبة[5] نحوه عن زيد بن أسلم: أن رجلاً سأل النبي ﷺ، وهو أيضاً مرسل.

وأخرج أبو داود، والبيهقي في السُّنن، عن ابن عباس[6] ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] الآية، فنسخ، واستثنى من ذلك ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ الآية.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عنه[7] قال: هي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٩٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤٥)، والبيهقي (٧/ ٩٧) من طريق الزهري، به.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٩٩)، والبخاري في «الأدب» رقم (١٠٥٩) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٩٩)، والبخاري رقم (١٠٦٢) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٢٤٤)، والبيهقي (٧/ ٩٧) بسند ضعيف لإرساله.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٩٨).

(٦) أخرجه أبو داود رقم (٤١١١)، والبيهقي (٧/ ٩٣) بسند حسن.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤١)، والبيهقي (٧/ ٩٣) من طريق ابن عيينه، به.

المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرع وخمار، وتضع عليها الجلباب ما لم تتبرّج بما يكرهه الله، وهو قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾.

وأخرج أبو عُبيد في «فضائله»، وابن الأنباري في «المصاحف»، والبيهقي عن ابن عباس[١]: أنه كان يقرأ ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ ويقول: هو: الجلباب.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، عن ابن عمر[٢] في الآية قال: تضع الجلباب.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن عن ابن مسعود[٣] «أن يضعن ثيابهنّ» قال: الجلباب والرداء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير[٤] قال: لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قالت الأنصار: ما بالمدينة مال أعزّ من الطعام كانوا يتحرّجون أن يأكلوا مع الأعمى يقولون: إنه لا يبصر موضع الطعام، وكانوا يتحرّجون الأكل مع الأعرج يقولون: الصحيح يسبقه إلى المكان، ولا يستطيع أن يزاحم، ويتحرّجون الأكل مع المريض يقولون: لا يستطيع أن يأكل مثل الصحيح، وكانوا يتحرّجون أن يأكلوا في بيوت أقاربهم، فنزلت ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ يعني: في الأكل مع الأعمى.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مقسم[٥] نحوه.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن مجاهد[٦] قال: كان الرجل يذهب بالأعمى

---

(١) أخرجه أبو عبيد في «فضائله» (ص١٧٩)، والبيهقي (٧/ ٩٣).
(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٢٢).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٠)، والطبراني رقم (٩٠٢٢)، والبيهقي (٧/ ٩٣) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٣) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٨/ ٢٦٤٣) من طريق سفيان، به.
(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٦٧، ٣٦٨)، و(آدم ص٤٩٥ ـ تفسير مجاهد)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٤٥)، والبيهقي (٧/ ٢٧٥) بسند صحيح.

أو الأعرج، أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت عمه أو بيت عمته أو بيت خاله أو بيت خالته فكان الزَمْنى يتحرّجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم، فنزلت هذه الآية رخصةً لهم.

وأخرج البزار، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن النجار، عن عائشة[١] قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله ﷺ، فيدفعون مفاتيحهم إلى أُمنائهم، ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما احتجتم إليه. فكانوا يقولون: إنه لا يحلّ لنا أن نأكل إنهم أذنوا لنا من غير طيب نفس، وإنما نحن زمنى، فأنزل الله ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي عن ابن عباس[٢] قال: لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قال المسلمون: إن الله قد نهانا أَنْ نأكل أموالنا بيننا بالباطل، والطعام هو أفضل الأموال، فلا يحلّ لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكفّ الناس عن ذلك، فأنزل الله ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، وهو: الرجل يوكِّل الرجل بضيعته، والذي رخص الله أن يأكل من ذلك الطعام والتمر ويشرب اللبن، وكانوا أيضاً يتحرّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره، فرخص الله لهم فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ أَبي حاتمٍ عن الضحّاك[٣] قال: كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ لا يخالطهم في طعامهم أعمى، ولا مريض، ولا أعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام فنزلت رخصة في مؤاكلتهم.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير،

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٤١ ـ «كشف»)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٦، ٢٦٤٧) بسند حسن.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٤): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٨)، والبيهقي (٧/ ٢٧٤، ٢٧٥) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٣) مرسلاً بسند حسن.

والبيهقي، عَنْ الزهري[١]: أنه سُئل عن قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ ما بال الأعمى، والأعرج، والمريض ذُكِروا هنا؟ فقال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله: أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلّفوا زمناهم، وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم يقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا، وكانوا يتحرّجون من ذلك يقولون: لا ندخلها، وهم غُيّب، فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم. وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[٢] قال: كان هذا الحيّ من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية حتى إن كان الرجل يسوق الذّوَد الحُفّل، وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن عكرمة[٣]، وأبي صالح قالا: كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم، فنزلت رخصة لهم.

وأخرج الثعلبي[٤] عن ابن عباس في الآية، قال: خرج الحارث غازياً مع رسول الله ﷺ، وخلّف على أهله خالد بن يزيد، فتحّرج أن يأكل من طعامه، وكان مجهوداً، فنزلت.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[٥] في قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ قال: إذا دخلت بيت صديقك من غير مؤامرته، ثم أكلت من طعامه بغير إذنه لم يكن بذلك بأس.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ابن زيد[٦] في قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ قال: هذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٤)، وأبو داود في «مراسيله» (ص٢٢٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩)، والبيهقي (٧/ ٢٧٥) مرسلاً بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٥) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٧٧) من طريق عمران بن سليمان، به.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١١٩ ـ الكشف والبيان).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٨) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٦) من طريق أصبغ، به.

شيء قد انقطع، إنما كان هذا في أوّله، ولم يكن لهم أبواب، وكانت الستور مرخاة، فربما دخل الرجل البيت، وليس فيه أحد، فربما وجد الطعام، وهو جائع فسوّغه الله أن يأكله. وقال: ذهب ذلك، اليومَ البيوتُ فيها أهلُها، فإذا خرجوا أغلقوا، فقد ذهب ذلك.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يقول: إذا دخلتم بيوتكم، فسلموا على أنفسكم ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهو السلام؛ لأنه اسم الله، وهو: تحية أهل الجنة.

وأخرج البخاري، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق أبي الزبير عن جابر بن عبد الله(٢) قال: إذا دخلت على أهلك، فسلم عليهم تحية من عند الله ﴿مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾.

وأخرج عبد الرزّاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، عن ابن عباس(٣) في قوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: هو المسجد [٣/٣١٣] إذا دخلته، فقل: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب عن ابن عمر(٤) قال: إذا دخل البيت غير المسكون، أو المسجد، فليقل: السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥١)، والبيهقي رقم (٨٨٣٥) من طريق داود بن حصين، به.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (١٠٩٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٠). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٠)، والحاكم (٢/ ٤٠١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٨٨٣٦) من طريق معمر، به.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٤٦٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (١٠٥٥) بسند حسن.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

جملة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مستأنفة مَسُوقة لتقدير ما تقدّمها من الأحكام، و ﴿إِنَّمَا﴾ مِنْ صيغ الحصر.

والمعنى: لا يتم إيمان، ولا يكمل حتى يكون ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وجملة: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ معطوفة على آمنوا داخلة معه في حيز الصلة؛ أي: إذا كانوا مع رسول الله على أمر جامع؛ أي: على أمر طاعة يجتمعون عليها، نحو الجمعة، والنحر، والفطر، والجهاد، وأشباه ذلك، وسمي الأمر جامعاً مبالغة ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ قال المفسِّرون[1]: كان رسول الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر، لم يخرج حتى يقوم بحيال النبيّ ﷺ حيثُ يراه، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن، فيأذن لمن يشاء منهم. قال مجاهد[2]: وإذن الإمام يوم الجمعة: أن يشير بيده.

قال الزجاج[3]: أعلم الله أن المؤمنين إذا كانوا مع نبيّه فيما يحتاج فيه إلى الجماعة لم يذهبوا حتى يستأذنوه، وكذلك ينبغي أن يكونوا مع الإمام لا يخالفونه، ولا يرجعون عنه في جمع من جموعهم إلّا بإذنه، وللإمام أن يأذن، وله أن لا يأذن على ما يرى لقوله: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٣١).
(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٣١).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٥).

وقرأ اليماني «على أمر[١] جميع».

والحاصل: أنّ الأمر الجامع، أو الجميع هو الذي يعمّ نفعه، أو ضرره، وهو الأمر الجليل الذي يحتاج إلى اجتماع أهل الرأي، والتجارب.

قال العلماء[٢]: كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلّا بإذن، ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فبيّن سبحانه أن المستأذنين: هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم أوّلاً بأن المؤمنين الكاملين الإيمان: هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾؛ أي: إذا استأذن المؤمنون رسول الله ﷺ لبعض الأمور التي تهمهم، فإنّه يأذن لمن شاء منهم، ويمنع من شاء على حسب ما تقتضيه المصلحة التي يراها رسول الله ﷺ.

ثم أرشده الله سبحانه إلى الاستغفار لهم، وفيه إشارة[٣] إلى أن الاستئذان وإن كان لعذر مسوّغ، فلا يخلو عَنْ شائبة تأثير أمر الدنيا على الآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة بالغٌ فيهما إلى الغاية التي ليس وراءها غاية.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها؛ أي: لا تجعلوا دعوته إيّاكم كالدعاء مِنْ بعضكم لبعض في التساهل في بعض الأحوال عَنْ الإجابة، أو الرجوع بغير استئذان، أو رفع الصوت.

وقال سعيد بن جبير[٤]، ومجاهد[٥]: المعنى: قولوا: يا رسول الله في رفق ولين، ولا تقولوا: يا مُحمد بتجهم.

وقال قتادة[٦]: أمرهم: أن يشرّفوه، ويفخموه.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«حاشية الشهاب» (٦/ ٤٠٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٧٤). وهي قراءة شاذة.

(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٩٨).

(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٤٩١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٧٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٥) من طريق أبي سعيد الأشج، به.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٥) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٨٩)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٥) بسند صحيح.

وقيل: المعنى لا تتعرّضوا لدعاء الرسول عليكم بإسخاطه، فإن دعوته موجبة.

[الذين يتسللون هم المنافقون]:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ التسلل[١]: الخروج في خفية، يقال: تسلّل فلان من بين أصحابه: إذا خرج من بينهم، واللِّواذ[٢] من الملاوذة، وهو: أن تستتر بشيء مخافة من يراك، وأصله أَنْ يلوذ هذا بذاك، وذاك بهذا، واللوذ ما يطيف بالجبل.

وقيل: اللواذ: الروغان مِنْ شيء إلى شيء في خفية.

وانتصاب لواذاً على الحال[٣]؛ أي: متلاوذين يلوذ بعضُهم ببعض، وينضمّ إليه، وقيل: هو منتصب[٤] على المصدرية لفعل مضمر هو الحال في الحقيقة؛ أي: يلوذون لواذاً.

وقرأ زيد بن قطيب «لَوَاذاً» بفتح اللام[٥].

وفي الآية بيان ما كان يقع من المنافقين، فإنهم كانوا يتسللون عن صلاة الجمعة متلاوذين ينضم بعضهم إلى بعض استتاراً مِنْ رسول الله ﷺ.

وقد كان يوم الجمعة أثقل يوم على المنافقين لما يرون من الاجتماع للصلاة، والخطبة فكانوا يفرّون عن الحضور، ويتسللون في خفية ويستتر بعضهم ببعض وينضم إليه. وقيل: اللواذ: الفرار مِنْ الجهاد، وبه قال الحسن[٦]، ومنه قول حسان[٧]:

وقُريشٌ تجولُ مِنكم لِواذا ... لَم تُحافِظْ وجَفَّ مِنها الحُلُومُ

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ أي: يخالفون أمر النبي ﷺ بترك العمل بمقتضاه، وعديّ فعل المخالفة بعن مع كونه

---

(١) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٩٢)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤١٨)

(٢) «الصحاح» (٢/ ٥٧٠)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٥٠)، و«تهذيب اللغة» (١٥/ ١٥).

(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٤٩٥)، و«التبيان» (٢/ ٩٧٩)، و«الفريد» (٣/ ٦١٦).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٧٦)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٩٥).

(٦) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٧) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٤٣٥).

متعدّياً بنفسه لتضمينه[(١)] معنى الإعراض أو الصدّ.

وقيل: الضمير لله[(٢)] سبحانه لأنه الآمر بالحقيقة، و ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ مفعول يحذر، وفاعله الموصول.

والمعنى: فليحذر المخالفون عن أمر الله، أو أمر رسوله، أو أمرهما جميعاً إصابة فتنة لهم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: في الآخرة؛ كما أن الفتنة التي حذرهم من إصابتها لهم هي في الدنيا، وكلمة «أو» لمنع الخلوّ.

قال القرطبي[(٣)]: احتجّ الفقهاء على أن الأمر للوجوب بهذه الآية، ووجه ذلك أن الله سبحانه قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية، فيجب امتثال أمره، وتحرم مخالفته.

والفتنة هنا غير مقيدة بنوع من أنواع الفتن.

وقيل: هي القتل[(٤)]، وقيل: الزلازل[(٥)]، وقيل: تسلط سلطان جائر عليهم[(٦)]، وقيل: الطبع على قلوبهم[(٧)].

قال أبو عبيدة[(٨)]، والأخفش[(٩)]: «عن» في هذا الموضع زائدة.

وقال الخليل وسيبويه[(١٠)]: ليست بزائدة؛ بل هي بمعنى بعد؛ كقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ أي: بعد أمر ربه، والأولى ما ذكرناه مِنْ التضمين.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من المخلوقات بأسرها، فهي ملكه ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها العباد من الأحوال التي أنتم عليها، فيجازيكم بحسب ذلك، و(يعلم) ها هنا بمعنى علم.

---

(١) «الفريد» (٣/ ٦١٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٤٩٦).

(٢) «النكت والعيون» (٤/ ١٢٩).

(٣) في «تفسيره» (١٥/ ٣٦١).

(٤) قاله ابن عباس. كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٦١)، و«تفسير الرازي» (٢٤/ ٤٢).

(٥) قاله عطاء. كما في المصدرين المتقدمين.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٦١) عن جعفر بن محمد.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٦١ ـ ٣٦٢).

(٨) في «مجاز القرآن» (٢/ ٦٩).

(٩) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٢٩)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٢).

(١٠) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٢).

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ معطوف على ما أنتم عليه؛ أي: يعلم ما أنتم عليه ويعلم يوم يرجعون إليه، فيجازيكم فيه بما عملتم.

وتعليق[١] علمه سبحانه بيوم يرجعون لا بنفس رجعهم لزيادة تحقيق علمه؛ لأنّ العلم. بوقت وقوع الشيء يستلزم العلم بوقوعه على أبلغ وجه.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾؛ أي: يخبرهم بما عملوا من الأعمال التي من جملتها مخالفة الأمر.

والظاهر من السياق: أن هذا الوعيد للمنافقين ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن عروة، ومحمد[٢] بن كعب القرظي قالا: لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة بئر بالمدينة، قائدها أبو سفيان، وأقبلت غَطَفان حتى نزلوا بنقمين إلى جانب أُحد، وجاء رسول الله ﷺ الخبر، فضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه المسلمون، وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يورّون بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ، ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحوق لحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع، فأنزل الله في أولئك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ الآية.

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير[٣] في الآية قال: هي في الجهاد، والجمعة والعيدين.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٤] في قوله: ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ قال: من طاعة الله عامّ.

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٥٠٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/١٤٦).
(٢) أخرجه ابن إسحاق (٢/٢١٦، ٢١٩، ٢٢٠ ـ «السيرة النبوية» لابن هشام)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٠٩).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٢) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٣) عن ابن عباس بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، عنه[1] في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ الآية قال: يعني: كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه، ولكن وقّروه، وقولوا له: يا رسولَ الله، يا نبيّ الله.

وأخرج عبد الغني بن سعيد في تفسيره، وأبو نعيم في «الدلائل» عنه أيضاً[2] في الآية قال: لا تصيحوا به مِنْ بعيدٍ: يا أبا القاسم، ولكن كما قال الله في الحجرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣].

وأخرج أبو داود في مراسيله، عن مقاتل[3]، قال: كان لا يخرج أحد لرعاف أو أحداث حتى يستأذن النبي ﷺ يشير إليه بإصبعه التي تلي الإبهام، فيأذن النبي ﷺ يشير إليه بيده، وكان مِن المنافقين من يثقل عليه الخُطبة والجلوس في المسجد، فكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه يستتر به حتى يخرج. فأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ الآية.

وأخرج أبو عبيد في «فضائله»، والطبراني، قال: السيوطي[4] بسندٍ حسن، عن عقبة بن عامر[5] قال: رأيتُ رسول الله ﷺ، وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة سورة النور، وهو جاعل على أصبعيه تحت عينيه يقول: بكلِّ شيءٍ بصير [٣/٣١٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه ابن حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٤، ٢٦٥٥)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (٤) عن ابن عباس بسند ضعيف، الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» رقم (٥).

(٣) أخرجه أبو داود في «مراسيله» (ص٩٥).

(٤) في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٣).

(٥) أخرجه أبو عبيد في «فضائله» (ص١٨٠)، والطبراني (ج١٧ رقم ٧٧٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٤): هكذا وقع، فإن كانت قراءة شاذة، وإلا فالتلاوة: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾. رواه الطبراني، وفيه ابن لهيعة، وهو سيئ الحفظ، وفيه ضعف.

سورة الفرقان

هي سبع وسبعون آية.

[سورة الفرقان مكية كلها على قول الجمهور]:

وهي مكية كلُّها في قول الجمهور(١)، وكذا أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس(٢).

وأخرجه ابن مردويه(٣)، عن ابن الزبير.

قال القرطبي(٤): وقال ابن عباس، وقتادة: إلّا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩، ٧٠] الآيات.

وأخرج مالك، والشافعي، والبخاري، ومسلم، وابن حبان، والبيهقي في «سُننه»، عن عمر بن الخطاب(٥) قال: «سمعتُ هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقْرِئنيها رسولُ الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبّرت حتى سلم، فلبَّبتهُ بردائه، فقلت: مَنْ أقرأك هذه السورة التي سمعتُك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسولُ الله ﷺ، فقلت: كذبتَ، فإنّ رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأتَ، فانطلقتُ به أقوده

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٤)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٥).
(٢) أخرجه ابن الضريس رقم (١٧، ١٨)، والنحاس (ص٦٠٣)، والبيهقي (٧/ ١٤٢ ـ ١٤٤).
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٤).
(٤) في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٤).
(٥) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ٢٠١)، والشافعي (٢/ ٣٩٩ رقم ٦٥٤ ـ «شفا العي»)، والبخاري رقم (٢٤١٩، ٤٩٩٢، ٥٠٤١، ٦٩٣٦، ٧٥٥٠)، ومسلم رقم (٨١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١/ ٢٤ ـ ٢٥)، وابن حيان في «صحيحه» رقم (٧٤١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٤٥).

إلى رسول الله ﷺ، فقلتُ: إنّي سمعتُ هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقْرِئنيها، فقال رسول الله ﷺ: أرسلْه، اقرأيا هشام، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أُنزلت، ثم قال: اقرأيا عمر، فقرأتُ القراءة التي أقرأني، فقال رسولُ الله ﷺ: كذلك أُنْزِلتْ، إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسّر منه».

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[إثبات التوحيد]:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

[إثبات النبوة]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِىَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

تكلم سبحانه في هذه السورة على التوحيد؛ لأنه أقدم، وأهمّ، ثم في النبوّة لأنّها الواسطة، ثم في المعاد؛ لأنّه الخاتمة. وأصل تبارك مأخوذ مِنْ البركة، وهي: النماء والزيادة، حسيَّة كانت أو عَقْلية.

قال الزجاج[(١)]: ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، مِنْ البركة.

قال[(٢)]: ومعنى البركة: الكثرة مِنْ كل ذي خيرٍ.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٧).
(٢) الزجاج في «معانيه» (٤/ ٥٧).

وقال الفراء[١]: إنّ تبارك وتقدّس في العربية واحد، ومعناهما: العظَمة.

وقيل[٢]: المعنى تبارك عطاؤه؛ أي: زاد، وكثُر.

وقيل: المعنى دام وثبَتْ.

قال النحاس[٣]: وهذا أولاها في اللغة، والاشتقاق مِنْ برك الشيء: إذا ثبت، ومنه برك الجمل؛ أي: دام، وثبت.

واعترض ما قاله الفراء: بأن التقديس إنما هو مِنْ الطهارة، وليس من ذا في شيء.

قال العلماء[٤]: هذه اللفظة لا تستعمل إلّا لله سبحانه، ولا تستعمل إلّا بلفظ الماضي.

والفرقان: القرآن، وسُميّ[٥] فرقاناً: لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل بأحكامه، أو بين المُحق والمبطل.

والمراد بعبده: نبينا ﷺ. ثم علَّل التنزيل ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فإنّ النذارة هي الغَرضُ المقصود مِنْ الإنزال، والمراد محمد ﷺ، أو الفرقان.

والمراد بالعالمين هنا: الإنس والجنّ؛ لأنّ النبي ﷺ مرسل إليهما، ولم يكن غيره من الأنبياء مرسلاً إلى الثقلين.

والنذير: المنذر؛ أي: ليكون محمد ﷺ مُنذراً، أو ليكون إنزال القرآن منذراً، ويجوز: أَنْ يكون النذير هنا بمعنى المصدر للمبالغة؛ أي: ليكون إنزاله إنذاراً، أو ليكون محمد إنذاراً، وجعل الضمير[٦] للنبيّ ﷺ أولى؛ لأنّ صدور الإنذار منه حقيقة، ومِنْ القرآن مجاز، والحمل على الحقيقة أولى، ولكونه أقرب مذكور.

وقيل: إن رجوع الضمير إلى الفرقان أولى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٦٢).
(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٥١).
(٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٥١).
(٤) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٠٥).
(٥) حكاه الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٣١) عن النقاش.
(٦) «روح المعاني» (١٨/ ٥٠٧).

ثم إنه سبحانه وصف نفسه بصفات[١] أربع:

الأولى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دونَ غيره، فهو المتصّرفُ فيهما، ويحتمل: أن يكون الموصول الآخر بدلاً، أو بياناً للموصول الأوّل، والوصف أولى، وفيه تنبيه على افتقار الكلّ إليه في الوجود، وتوابعه من البقاء، وغيره.

والصفة الثانية: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، وفيه ردّ على النصارى، واليهود.

والصفة الثالثة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، وفيه ردّ على طوائف المشركين مِنْ الوثنية، والثنوية، وأهل الشرك الخفيّ.

والصفة الرابعة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مِنْ الموجودات ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾؛ أي: قدّر كلَّ شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، وهيأه لما يصلح له.

قال الواحدي[٢]: قال المفسّرون: قدر له تقديراً من الأجَل والرزق، فجرت المقادير على ما خلق.

وقيل: أُريد بالخلق هنا: مُجرّد الإحداث، والإيجاد مجازاً من غير ملاحظة معنى التقدير، وإنْ لم يخل عنه في نفس الأمر، فيكون المعنى: أوجد كل شيء، فقدّره[٣] لئلا يلزم التكرار.

ثم صرّح سبحانه بتزييف مذاهب عبدة الأوثان، فقال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾، والضمير في ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ للمشركين، وإنْ لم يتقدّم لهم ذكر، لدلالة نفي الشريك عليهم؛ أي: اتخذ المشركون لأنفسهم متجاوزين الله آلهة ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾.

والجملة في محل نصب[٤] صفة لآلهة؛ أي: لا يقدرون على خلق شيء من الأشياء، وغُلِّب العقلاء على غيرهم؛ لأن في معبودات الكفار الملائكة، وعزير، والمسيح.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ أي: يخلقهم اللهُ سبحانه. وقيل: عبّر عن الآلهة بضمير

---

(١) ذكرها الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ٤٦). (٢) في «الوسيط» (٣/ ٣٣٣).
(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٥٠٩ ـ ٥١٠).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٨٠)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥١١).

العقلاء جَرْياً على اعتقاد الكفار[(١)] أنها تضرّ وتنفع. وقيل: معنى ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: أن عبدتهم يصوّرونهم.

ثم لما وصف سبحانه نفسه بالقدرة الباهرة وصف آلهة المشركين بالعجز البالغ، فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: لا يَقْدرون على أن يجلبوا لأنفسهم نفعاً، ولا يدفعوا عَنْها ضرراً، وقدّم ذكر الضُرّ[(٢)]؛ لأن دفعه أهمّ من جلب النفع، وإذا كانوا بحيث لا يقدرون على الدفع والنفع فيما يتعلق بأنفسهم، فكيف يملكون ذلك لمن يعبدهم؟

ثم زاد في بيان عجزهم، فنصّ على هذه الأمور، فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾؛ أي: لا يقدرون على إماتة الأحياء، ولا إحياء الموتى، ولا بعثهم مِنْ القبور؛ لأنّ النشور: الإِحياءُ بعد الموت، يقال: أنشر الله الموتى، فنشروا، ومنه قول الأعشى[(٣)]:

حتَّى يقولَ النَّاسُ ممَّا رأوا ... يا عَجَباً للميِّتِ النَّاشرِ

ولما فرغ مِنْ بيان التوحيد، وتزييف مذاهب المشركين شرع في ذكر شُبه مُنكري النبوّة.

[الشبهة الأولى]:

فالشبهة الأولى ما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾؛ أي: كَذِبٌ ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ أي: اختلقه محمد ﷺ، والإشارة بقوله: ﴿هَٰذَآ﴾ إلى القرآن ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على الاختلاق ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعنون: مِنْ اليهود.

قيل: وهم: أبو فكيهة يسار مولى الحضرمي، وعداس مولى حويطب بن عبد العُزّى، وجبر مولى ابن عامر، وكان هؤلاء الثلاثة من اليهود، وقد مرّ الكلام على مثل هذا في النّحل.

[الرد على هذه الشبهة]:

ثم ردّ الله سبحانه عليهم، فقال: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ أي: فقد قالوا

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٦٧).

(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٥١٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٥٠).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص١٩١).

﴿ظُلْمًا﴾ هائلاً عظيماً، وكذباً ظاهراً، وانتصاب[١] ظلماً بجاءوا، فإنّ جاءَ قد يستعمل استعمال أَتى، ويُعدّى تعديتُه.

وقال الزجاج[٢]: إنه منصوب بنزع الخافض، والأصل جاءوا بظلم.

وقيل: هو منتصب[٣] على الحال.

وإنما كان ذلك منهم ظلماً؛ لأنّهم نسبوا القبيح إلى مَنْ هو مبّرأ منه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه، وهذا هو الظلم، وأما كون ذلك منهم زوراً، فظاهر لأنّهم قد كذبوا في هذه المقالة.

[الشبهة الثانية]:

ثم ذكر الشبهة الثانية، فقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: أحاديث الأوّلين، وما سطروه من الأخبار.

قال الزجاج[٤]: واحد الأساطير أُسْطورة مثل أحاديث وأُحْدوثة.

وقال غيره: أساطير جمع أَسْطار مثل أقاويل[٥] وأقوال ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾؛ أي: استكتبها، أو كتبها لنفسه، ومحل[٦] اكتتبها النصب على أنه حال من أساطير، أو محله[٧] الرفع على أنَّه خبر ثانٍ؛ لأن أساطير مرتفع على أنه خبر[٨] مبتدأ محذوف؛ أي: هذه أساطير الأوّلين اكتتبها، ويجوز أن يكون أساطير[٨] مبتدأ، واكتتبها خبره.

ويجوز أَنْ يكون معنى «اكتتبها»: جمعها مِنْ الكتب [٣/٣١٥]، وهو: الجمع، لا مِنْ الكتابة بالقلم، والأوّل أولى.

وقرأ طلحة: «أُكتتبها» مبنياً[٩] للمفعول، والمعنى: اكتتبها له كاتبٌ؛ لأنه كان أميّاً لا يكتب، ثم حُذفت اللام، فأفضى الفعل إلى الضمير، فصار اكتتبها إياه، ثم

---

(١) «التبيان» (٢/ ٩٨٠)، و«الفريد» (٣/ ٦٢٠). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/٥٨).
(٣) «الفريد» (٣/ ٦٢٠)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٠)، و«الإملاء» (٤/ ٩١).
(٤) في «معاني القرآن» (٤/٥٨).
(٥) «البيان» لابن الأنباري (٢/ ٢٠٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٦٨).
(٦) «الفريد» (٣/ ٦٢٠)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٨٢).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) «البحر المحيط» (٨/ ٨٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥١٥).
(٩) «القراءات الشاذة» (ص١٠٣)، و«المحتسب» (٢/ ١١٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥١٥). وهي قراءة شاذة.

بنى الفعل للضمير الذي هو إيّاه، فانقلب مرفوعاً مستتراً بعد أن كان منصوباً بارزاً.

كذا قال في «الكشّاف»(١)، واعترضه أبو حيان(٢).

﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تُلْقى عليه تلك الأساطير بعد ما اكتتبها، ليحفظها من أفواه مَنْ يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أمياً لا يقدر على أن يقرأها من ذلك المكتوب بنفسه، ويجوز أن يكون المعنى: اكتتبها: أراد اكتتابها ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ لأنّه يقال: أمليت عليه، فهو يكتب ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوةً، وعشياً: كأنهم قالوا: إن هؤلاء يُعلّمون محمداً طرفي النهار.

[الرد على الشبهة الثانية]:

وقيل: معنى بكرةً وأصيلاً: دائماً في جميع الأوقات(٣)، فأجاب سبحانه عن هذه الشُبْهة بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ليس ذلك مما يُفْترى ويُفْتعل بإعانة قوم، وكتابة آخرين مِنْ الأحاديث الملفقّة، وأخبار الأوّلين؛

---

(١) «الكشاف» (٤/ ٣٣٢).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٨٢) حيثُ قال: ولا يصح ذلك على مذهب جمهور البصريين؛ لأنَّ (اكتتبها) له كاتب وصل فيه اكتتب لمفعولين أحدهما مسرَّح وهو ضمير الأساطير، والآخر مقيد وهو ضميره ﷺ. ثم اتسع في الفعل فحذف الجر فصار ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ إياه كاتب فإذا بني هذا الفعل للمفعول إنما ينوب عن الفاعل المفعول المسرَّح لفظاً وتقديراً لا المسرَّح لفظاً المقيد تقديراً، فعلى هذا كان يكون التركيب اكتتبته لا ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ وعلى هذا الذي قلناه جاء السماع من العرب في هذا النوع الذي أحد المفعولين فيه مسرّح لفظاً وتقديراً والآخر مسرّح لفظاً لا تقديراً. قال الشاعر وهو الفرزدق:

ومنا الذي اخُتير الرجال سماحة وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

ولو جاء على ما حرره الزمخشري لجاء التركيب: ومنا الذي اختيره الرجال؛ لأنَّ اختار تعدى إلى الرجال على إسقاط حرف الجر إذ تقديره اختير من الرجال.

وقال السمين الحلبي: وهو اعتراض حسنٌ بالنسبة إلى مذهب الجمهور، ولكن الزمخشري قد لا يلتزمه ويوافق الأخفش والكوفيين، وإذا كان الأخفش وهم يتركون المُسرَّحَ لفظاً وتقديراً، ويقيمون المجرور بالحرف مع وجوده فهذا أولى وأجدى.

والظاهر أن الجملة من قوله: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ﴾ من تتمة قول الكفار، وعن الحسن: إنَّها من كلام الباري تعالى وكان حق الكلام على هذا أن يُقرأ «أَكْتَتَبها» بهمزة مقطوعة مفتوحة للاستفهام كقوله: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨] ويمكن أن يُعتذر عنه أنه حذف الهمزة للعلم بها كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾ [الشعراء: ٢٢].

(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٥١٦)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٠٠ ـ ٤٠١).

بل هو[١] أمر سماويّ أنزله الذي يعلم كلَّ شيءٍ، لا يغيب عنه شيء من الأشياء، فلهذا عجزتم عن معارضته، ولم تأتوا بسورة منه.

وخصّ السرّ، للإشارة إلى انطواء ما أنزله سبحانه على أسرار بديعة لا تبلغ إليها عقول البشر، والسرّ: الغيب؛ أي: يعلم الغيبَ الكائن فيهما.

وجملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تعليل لتأخير العقوبة؛ أي: إنكم وإن كنتم مستحقين لتعجيل العقوبة بما تفعلونه من الكذب على رسوله، والظلم له، فإنه لا يعجل عليكم بذلك؛ لأنّه كثير المغفرة والرحمة.

وقد أخرج ابنُ أبي حاتم[٢]، عن ابن عباس: ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[٣] في قوله: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قال: يهود ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ قال: كذباً.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[٤] في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هو: القرآن فيه حلاله، وحرامه، وشرائعه، ودينه، وفرّق الله بين الحق، والباطل ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ قال: بعث الله محمداً ﷺ نذيراً من الله، لينذر الناسَ بأسَ الله، ووقائعه بمن خلا قبلكم ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ قال: بيَّن لكل شيء مِنْ خلقِه صلاحَه، وجعل ذلك بقدر معلوم.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ قال: هي الأوثان التي تُعبد من دون الله ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وهو الله الخالق الرازق، وهذه الأوثان تُخْلَق ولا تخلق شيئاً، ولا تضرّ ولا تنفع، ولا تملك موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً؛ يعني: بعثاً.

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٥١٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٥٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٥٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٩٤) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٣٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٣) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٠، ٢٦٦٢ ـ ٢٦٦٤، ٢٦٦٦) بسند صحيح.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ هذا قول مشركي العرب ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ هو الكذب ﴿ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ﴾؛ أي: على حديثه هذا، وأمره ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كَذِبُ الأوّلين وأحاديثهم.

[شبهاتهم في القرآن والنبي والرد عليهم]:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا
رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ
هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ
جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ
خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر ما طعنوا به على القرآن ذكر ما طعنوا به على رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ وفي الإشارة هنا تصغير لشأن المشار إليه وهو رسول الله ﷺ، وسموه: رسولاً استهزاء وسخريةً ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾؛ أي: ما باله يأكل الطعام كما نأكل، ويتردّد في الأسواق لطلب المعاش كما نتردّد، وزعموا أنّه كان يجب أن يكون مَلَكاً مستغنياً عن الطعام والكسب، وما الاستفهامية في محل رفع[1] على الابتداء، والاستفهام[2] للاستنكار، وخبر المبتدأ لهذا الرسول، وجملة: ﴿يَأْكُلُ﴾ في محل نصب على الحال، وبها تتمّ فائدة الإخبار كقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، والإنكار متوجه

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٥١٩)، و«الفريد» (٣/ ٦٢١).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٥٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥١٩).

إلى السبب مع تحقق المسبّب، وهو: الأكل والمشي، ولكنه استبعد تحقق ذلك لانتفاء سببه عندهم تهكماً واستهزاء.

والمعنى: أنّه إنْ صحّ ما يدّعيه من النبوّة، فما باله لم يخالف[1] حاله حالنا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ طلبوا: أن يكون النبيّ ﷺ مصحوباً بملَكٍ يعضده ويساعده، تنزلوا عن اقتراح أن يكون الرسول ﷺ ملكاً مستغنياً عن الأكل والكسب، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يُصدّقه، ويشهد له بالرسالة، قرأ الجمهور[2]: «فيكونَ» بالنصب على كونه جواب التحضيض.

وقُرِئ «فيكونُ» بالرفع[3] على أنه معطوف على أُنزل، وجاز عطفه على الماضي؛ لأن المراد به المستقبل ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ معطوف على أُنزل، ولا يجوز عطفه على فيكون.

والمعنى: أو هلّا يُلْقى إليه كنز، تنزلوا مِنْ مرتبة نزول الملَك معه، إلى اقتراح أَنْ يكون معه كنز يلقى إليه من السماء؛ ليستغني به عن طلب الرزق ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ قرأ الجمهور[4]: «تكونُ» بالمثناة الفوقية.

وقرأ الأعمش، وقتادة: «يكون» بالتحتية[5]؛ لأن تأنيث الجنة غير حقيقي.

وقرأ: «نأكل» بالنون[6] حمزة، وعليّ، وخَلَف، وقرأ الباقون: «يأكل»[7] بالمثناة التحتية؛ أي: بستان نأكل نحن مِنْ ثماره، أو يأكل هو وحدَه منه؛ ليكون له بذلك مزية علينا حيثُ يكون أكله من جنته.

---

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٥١٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٧٠)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٠٢).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٨٤)، و«فتح الباري» (٩/ ٣٠)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٢٠).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص١٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٨٤). وهي قراءة شاذة.

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٨٤)، و«النشر» (٢/ ٣٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٢١).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٨٤ ـ ٨٥)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٢١). وهي قراءة شاذة.

(٦) «النشر» (٢/ ٣٢٣)، و«التيسير» (ص١٦٢)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٣)، و«فتح الباري» (٩/ ٣٠)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

قال النحاس[١]: والقراءتان حسنتان، وإنْ كانت القراءة بالياء أبين[٢]؛ لأنه قد تقدّم ذكر النبي ﷺ وحده، فعود الضمير إليه أبين. ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ المراد بالظالمون هنا: هم القائلون بالمقالات الأولى، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر مع الوصف بالظلم للتسجيل عليهم به؛ أي: ما تتبعون إلّا رجلاً مغلوباً على عقله بالسحر.

وقيل: ذا سحرٍ، وهي الرئة؛ أي: بشراً له رئة لا ملكاً.

وقد تقدّم بيان مثل هذا في «سبحان».

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ ليتوصلوا[٣] بها إلى تكذيبك، والأمثال هي: الأقوال النادرة، والاقتراحات الغريبة، وهي ما ذكروه ها هنا ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن الصواب فلا يجدون طريقاً إليه، ولا وصلوا إلى شيء منه؛ بل جاءوا بهذه المقالات الزائفة التي لا تصدر عَنْ أدنى العقلاء، وأقلهم تمييزاً، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾؛ أي: لا يجدون إلى القدح في نبوّة هذا النبيّ طريقاً من الطرق: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تكاثر خيرُ الذي إن شاء جعل لك في الدنيا معجلاً خيراً من ذلك الذي اقترحوه.

ثم فسر الخير، فقال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فجنات بدل من (خيرٍ) ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ معطوف على موضع جعل، وهو الجزم، وبالجزم قرأ الجمهور[٤].

وقرأ ابنُ كثير، وابن عامر، وأبو بكر برفع[٥] «يجعلُ» على أنه مستأنف.

(١) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٥٢).

(٢) وقال ابن جرير في «جامع البيان»، و(١٧/ ٤٠٤): وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب قراءةُ من قرأهُ بالياء.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٧١)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٨٥)، و«الوسيط» (٣/ ٣٣٥).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٨٦)، و«التيسير» (ص١٦٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٤٤).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

وقد تقرّر في علم الإعراب[١]: أنّ الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزم والرفع، فجاز أَنْ يكون جعل ها هنا في محل جزم ورفع، فيجوز فيما عطف عليه أن يجزم ويرفع.

وقرئ بالنصب[٢]، وقرئ بإدغام[٣] لام لك في لام يجعلْ لاجتماع المثلين.

وقرئ بترك الإدغام[٤]؛ لأن الكلمتين منفصلتان.

والقصر: البيت من الحجارة[٥]؛ لأن الساكن به مقصور عن أن يوصل إليه، وقيل[٦]: هو بيت الطين، وبيوت الصوف والشَعَر.

[إنكارهم البعث]:

ثم أضرب سبحانه عن توبيخهم بما حكاه عنهم من الكلام الذي لا يصدر عن العقلاء، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: بل أتوا بأعجب[٧] من ذلك كلِّه وهو تكذيبهم بالساعة، فلهذا لا ينتفعون بالدلائل ولا يتأملون فيها.

ثم ذكر سبحانه ما أعدّه لمن كذب بالساعة، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مشتعلة متسعرة، والجملة في محل نصب[٨] على الحال؛ أي: بل كذبوا بالساعة، والحال أنا أعتدنا.

قال أبو مسلم[٩]: أعتدنا؛ أي: جعلناه عتيداً، ومعدّاً لهم ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥٣)، و«التبيان» (٢/ ٩٨١)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٥٩).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٨٦)، و«المحتسب» (٢/ ١١٨)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٢٥). القراءة بالنصب شاذة.

(٣) «التيسير» (ص١٦٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٨٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٢٥) مَنْ يقرأ بالجزم وهم الجمهور فيدغمها، ومَنْ قرأ بالرفع لا يدغم.

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان»، (١٧/ ٤٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٦) عن مجاهد بسند صحيح.

(٦) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٩). وحكاه القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٢) عن القشيريِّ.

(٧) «روح المعاني» (١٨/ ٥٢٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٥٤).

(٨) «الفريد» (٣/ ٦٢٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٢٧).

(٩) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٥).

بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ هذه الجملة الشرطية في محل نصب[١] صفة لسعيراً لأنه مؤنّث بمعنى: النار، قيل: معنى ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾: إذا ظهرت لهم، فكانت بمرأى الناظر في البُعد.

وقيل: المعنى: إذا رأتهم خزنُتها.

وقيل: إن الرؤية منها حقيقية[٢]، وكذلك التغيظ والزفير، [٣/٣١٦] ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك.

ومعنى ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: أنها رأتهم. وهي بعيدة عنهم، قيل: بينها وبينهم مسيرة خمسمائة عام.

ومعنى التغيظ: أنَّ لها صوتاً يدل على التغيظ على الكفار، أو لغيلانها صوتاً يشبه صوت المغتاظ.

والزفير: هو الصوت الذي يُسمع مِنْ الجوف.

قال الزجاج[٣]: المراد: سماع ما يدل على الغيظ، وهو الصوت؛ أي: سمعوا لها صوتاً يُشبه صوت المتغيظ.

وقال قُطْرب[٤]: أراد علموا لها تغيظاً، وسمعوا لها زفيراً كما قال الشاعر[٥]:

مُـتـقـلّـداً سَـيْـفـاً ورُمْـحـاً[٦]

أي: وحاملاً رُمْحاً.

وقيل: المعنى: سمعوا فيها تغيظاً وزفيراً للمعذبين[٧] كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، و(في)[٨] واللام متقاربان، تقول: افعل هذا في الله ولله ﴿وَإِذَآ

---

(١) «التبيان» (٢/ ٩٨١)، و«الفريد» (٣/ ٦٢٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٢٩).

(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٥٢٩)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٩).

(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ٥٦).

(٥) قائله عبد الله بن الزبعري. «ديوانه» (ص٣٢).

(٦) وصدر البيت:

ورأيــتُ زوجَــكِ فـــي الـــوَغَـــى

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٤).

(٨) «روح المعاني» (١٨/ ٥٣٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٧٤).

﴿أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ وصف المكان بالضيق للدلالة[١] على زيادة الشدّة وتناهي البلاء عليهم.

وانتصاب[٢] ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ على الحال؛ أي: إذا أُلقوا منها مكاناً ضيقاً حال كونهم مُقرّنين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع مصفدّين بالحديد.

وقيل: مكتّفين[٣]، وقيل: قُرِنوا مع الشياطين؛ أي: قُرِن كل واحد منهم إلى شيطانه[٤].

وقد تقدّم الكلام على مثل هذا في سورة إبراهيم ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك المكان الضيق ﴿ثُبُورًا﴾؛ أي: هلاكاً[٥].

قال الزجّاج[٦]: وانتصابه على المصدرية؛ أي: ثَبَرنا ثبوراً.

وقيل: مُنتصب[٧] على أنّه مفعول له.

والمعنى: أنهم يتمنون هنالك الهلاك، وينادونه لما حلّ بهم من البلاء، فأجيب عليهم بقوله: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾؛ أي: فيقال لهم هذه المقالة، والقائل لهم هم الملائكة؛ أي: اتركوا دعاء ثبور واحد، فإن ما أنتم فيه من الهلاك أكبر من ذلك، وأعظم، كذا قال الزجّاج[٨] ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ والثبور مصدر يقع على القليل والكثير، فلهذا لم يُجمع، ومثله ضربته ضَرْباً كثيراً، وقعد قعوداً طويلاً، فالكثرة[٩] ها هنا هي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به، لا بحسب كثرته في نفسه، فإنه شيء واحد.

(١) «روح المعاني» (١٨/ ٥٣٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٥٦).
(٢) «الفريد» (٣/ ٦٢٢)، و«التبيان» (١/ ٥٣٧)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٣٤).
(٣) قاله أبو صالح كما في «النكت والعيون» (٤/ ١٣٤).
(٤) قاله يحيى بن سلام كما في «النكت والعيون» (٤/ ١٣٤).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٩) عن الضحاك بسند حسن.
(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٩).
(٧) «التبيان» (٢/ ٩٨١)، و«الفريد» (٣/ ٦٢٣).
(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٥٩).
(٩) «روح المعاني» (١٨/ ٥٣٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٥٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٨٨).

والمعنى: لا تدعوا على أنفسكم بالثبور دعاءً واحداً، وادعوه أدعيةً كثيرة، فإن ما أنتم فيه من العذاب أشدّ من ذلك لطول مدّته، وعدم تناهيه.

وقيل: هذا تمثيل وتصوير لحالهم بحال مَنْ يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول.

وقيل: إنّ المعنى: إنكم وقعتم[١] فيما ليس ثبوركم فيه واحداً بل هو ثبور كثير؛ لأنّ العذاب أنواع، والأولى أنّ المراد بهذا الجواب عليهم: الدلالة على خلود عذابهم، وإقناطهم عَنْ حصول ما يتمنونه من الهلاك المنجي لهم مما هم فيه.

ثم وبّخهم الله سبحانه توبيخاً بالغاً[٢] على لسان رسوله، فقال: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

والإشارة بقوله: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إلى السعير المتصفة بتلك الصفات العظيمة؛ أي: أتلك السعير[٣] خير أم جنّة الخلد؟ وفي إضافة الجنة إلى الخلد إشعار بدوام نعيمها، وعدم انقطاعه، ومعنى ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: التي وعدها المتقون، والمجيء بلفظ خير[٤] هنا مع أنّه لا خير في النار أصلاً؛ لأنّ العرب قد تقول ذلك، ومنه ما حكاه سيبويه[٥] عنهم، أنّهم يقولون: السعادة أحبّ إليك أم الشقاوة؟ وقيل: ليس[٤] هذا مِنْ باب التفضيل، وإنما هو كقولك: عنده خير[٦].

قال النّحاس[٧]: وهذا قول حسن كما قال:

أتهجُوه ولستَ له بكُفءٍ … فشرُّكما لخيرِكما الفِداءُ[٨]

ثم قال سبحانه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾؛ أي: كانت تلك الجنة للمتقين جزاء على أعمالهم، ومصيراً يصيرون إليه ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾؛ أي: ما يشاؤونه

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٥٦)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٣٧).
(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٦).
(٥) «المحرر الوجيز» (١٢/ ١١ ـ ١٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٨٨ ـ ٨٩).
(٦) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥٤)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٣٩).
(٧) في «إعراب القرآن» له (٣/ ١٥٤).
(٨) البيت لحسان بن ثابت. انظر: «ديوانه» (ص٦٤).

مِنْ النعيم، وضروب الملاذ، كما في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١]، وانتصاب(١) خالدين على الحال.

وقد تقدم تحقيق معنى الخلود.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾؛ أي: كان ما يشاؤونه، وقيل: كان الخلود، وقيل: كان الوعد المدلول عليه بقوله: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

ومعنى الوعد المسؤول: الوعد المحقّق بأن يسأل(٢) ويطلب كما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقيل(٣): إن الملائكة تسأل لهم الجنّة كقوله: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨].

وقيل: المراد به: الوعد الواجب(٤)، وإنْ لم يُسأل.

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس(٥): أن عتبة بن ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البَخْتري، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أُمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونُبيه بن الحجاج، ومنبّه بن الحجاج اجتمعوا، فقال بعضُهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلّموه وخاصموه حتى تعذروا منه، فبعثوا إليه: إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك.

قال: فجاءهم رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد إنا بَعْثنا إليك؛ لنعذر منك، فإن كنتَ إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت

---

(١) «الفريد» (٣/ ٦٢٣)، و«التبيان» (٢/ ٩٨١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧١)، عن ابن عباس بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧١)، عن محمد بن كعب القرظي بسند صحيح.

(٤) ذكره ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١٤).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ٨٧ ـ ٩٠)، وابن إسحاق (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٨ ـ «السيرة النبوية» لابن هشام) وقد تقدم في سورة الإسراء عند تفسير الآية رقم (٩٠).

تطلب به الشرف، فنحن نسوّدك وإن كنت تريد به مُلْكاً ملّكناك، فقال رسول الله ﷺ: «ما بي مما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلّغتكم رسالةَ ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، قالوا: يا محمد، فإنْ كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضنا عليك، أو قالوا: فإذا لم تفعل هذا، فسل لنفسك، وسل ربَّك: أن يبعث معك مَلَكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله أَنْ يجعل لك جناناً، وقصوراً من ذهب، وفضة تغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك، ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً، ونذيراً، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]؛ أي: جعلت بعضكم لبعض بلاء؛ لتصبروا، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي، فلا يخالفون لفعلت.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في «المصنّف»، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن خيثمة(١) قال: قيل للنبي ﷺ: إن شئت أعطيناك من خزائن الأرض، ومفاتيحها ما لم يُعط نبيّ قبلك، ولا نعطها أحداً بعدك، ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئاً، وإن شئت جمعتها لك في الآخرة، فقال: اجمعوها لي في الآخرة، فأنزل الله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

وأخرج نحوه عنه ابن مردويه(٢) من طريق أخرى.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، من طريق

---

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٣٨).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٤٠٧) من قول حبيب وابن أبي شيبة (١١/٥٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٦٦٦) مرسلاً من طريق سفيان، به.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٣٨).

خالد بن دريك[١] عن رجل[٢] من الصحابة قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ يقل عليّ ما لم أقل، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه، فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً، قيل يا رسول الله: وهل لها مِنْ عينين؟ قال: نعم، أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾».

وأخرج آدم بن أبي إياس في «تفسيره» عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قال: من مسيرة مائة عام، وذلك إذا أتى بجهنّم تُقاد بسبعين ألف زمام، يشدّ بكل زمام سبعون ألف مَلك، لو تركت لأتت على كل برّ وفاجر ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ تزفر زفرةً لا تُبقي قطرة من دمع إلّا بدرتْ، ثم تزفر الثانية، فتقطع القلوب مِنْ أماكنها، وتبلغ القلوبُ الحناجر.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن يحيى بن أُسيد: أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ قال: والذي نفسي بيده إنهم ليُستكرهون في النار كما يُستكره الوتَد في الحائط.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ قال: ويلاً ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ يقول: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وعبد بن حميد، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في البَعْث. قال السيوطي بسندٍ صحيح[٦] عن أنس[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أوّل ما يكسي حلته من النار

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٧) بسند رجاله ثقات. وفيه إرسال خالد بن دريك ولم يصرح باسم الصحابي، ليعلم هل أدرك ذلك الصحابي؟

(٢) إبهام الصحابي لا يضر؛ لأنَّ الصحابة كلهم عدول.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٣٩).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٨) من طريق ابن وهب، به.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٩) بسند صحيح.

(٦) في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٠).

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ١٦٨) و(١٤/ ١٠٩)، وأحمد في «مسنده» رقم (١٢٥٣٦)، والبزار في «مسنده» رقم (٣٤٩٥ ـ «كشف»)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦٩)، والبيهقي في «البعث» رقم (٦٤٧) بسند ضعيف، لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان.

إبليس، فيضعها على حاجبيه، ويسحبها مِنْ خلفه، وذريته من بعده، وهو ينادي يا ثُبوراه، ويقولون: يا ثُبورهم حتى يقف على الناس، فيقول: يا ثبوراه، ويقولون: يا ثبورهم، فيقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

وإسناد أحمد[1] هكذا: حدّثنا عفّان عَنْ حمّاد بن سلمة، عن علي بن زيد، عَنْ أَنسٍ: أنّ رسول الله ﷺ، فذكره. وفي عليّ بن زيد بن جدعان مقال معروف.

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[2] ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ يقول: سلوا الذي وعدتكم تُنجَزوه.

[مشهد آخر من مشاهد الساعة التي كذَّب بها المكذبون]:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم [٤/٣١٨] بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الظرف[3] منصوب بفعل مضمر؛ أي: واذكر، وتعليق التذكير باليوم مع أنّ المقصود ذكر ما فيه للمبالغة والتأكيد كما مرّ مراراً.

---

(١) في «مسنده» رقم (١٢٥٣٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧١) بسند ضعيف.

(٣) «التبيان» (٢/ ٩٨٢)، و«الفريد» (٣/ ٦٢٣)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٤٢).

قرأ ابن محيصن، وحميد، وابن كثير، وحفص، ويعقوب، وأبو عمرو في رواية الدوريّ: «يحشُرهم» بالياء[(١)] التحتية، واختارها أبو عُبيد[(٢)]، وأبو حاتم[(٣)] لقوله في أوّل الكلام ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان: ١٦]، والباقون[(٤)] بالنون على التعظيم ما عدا الأعرج، فإنّه قرأ «نحشِرهم» بكسر الشين[(٥)] في جميع القرآن.

قال ابن عطية[(٦)]: هي قليلة في الاستعمال قوية في القياس؛ لأن يَفْعِل بكسر العين في المتعدي أقيس من يفعُل بضمها.

وردّه أبو حيان[(٧)] باستواء المضموم والمكسور إلّا أن يشتهر أحدُهما اتُّبِعَ.

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معطوف على مفعول نحشر، وغُلِّب غير العقلاء من الأصنام والأوثان، ونحوها على العقلاء من الملائكة، والجن، والمسيح تنبيهاً[(٨)] على أنها جميعاً مشتركة في كونها غير صالحة لكونها آلهة، أو لأن مَنْ يعبد مَنْ لا يعقل أكثر ممن يعبد مَنْ يعقل منها، فغلبت اعتباراً بكثرة مَنْ يعبدها.

وقال مجاهد[(٩)]، وابن جُريج[(١٠)]: المراد: الملائكة، والإنس، والجن، والمسيح، وعزير بدليل خطابهم وجُوابهم فيما بعد.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٩٠)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤١٧، ٤١٨)، و«التيسير» (ص١٦٣)، و«فتح الباري» (٩/ ٣٠). الصواب: قرأ بالياء التحتية: ابن كثير وحفص وأبو جعفر، ويعقوب أمّا الدوري عَنْ أبي عَمرو فبالنون «النشر» (٢/ ٣٣٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٧٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩٠)، و«النشر» (٢/ ٣٣٣).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «النشر» (٢/ ٣٣٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩٠)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٤٣). القراءة المتواترة بضم الشين والكسر قراءة شاذة.

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٩٠)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٤٣).

(٦) «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٣).

(٧) في «البحر المحيط» (٨/ ٩٠).

(٨) «روح المعاني» (١٨/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٥٨).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٢)، عن مجاهد بسند صحيح

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١٥)، عن ابن جريج عن مجاهد بسند ضعيف، ابن جريج لم يسمع من مجاهد.

وقال الضحاك، وعكرمة، والكلبي: المراد: الأصنام[١] خاصة، وإنها وإن كانت لا تسمع ولا تتكلم، فإن الله سبحانه يجعلها يوم القيامة سامعة ناطقة.

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ قرأ ابن عامر، وأبو حيوة، وابن كثير، وحفص، «فنقول» بالنون[٢]، وقرأ الباقون بالياء[٣] التحتية، واختارها أبو عُبيد[٤] كما اختار القراءة بها في نحشرهم، وكذا أبو حاتم[٥].

والاستفهام في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ﴾ للتوبيخ[٦] والتقريع، والمعنى: أكان ضلالهم بسببكم وبدعوتكم لهم إلى عبادتكم. أم هم ضلوا عن سبيل الحق بأنفسهم لعدم التفكر فيما يستدل به على الحق، والتدبر فيما يتوصل به إلى الصواب؟

وجملة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، ومعنى ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: التعجب مما قيل لهم لكونهم ملائكة أو أنبياء معصومين أو جمادات لا تعقل؛ أي: تنزيهاً لك.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ أي: ما صح، ولا استقام لنا أن نتخذ مِنْ دونك أولياء، فنعبدهم، فكيف ندعو عبادَك إلى عبادتنا نحن مع كوننا لا نعبدُ غيرك؟ والوليّ يُطلق على التابع كما يطلق على المتبوع، هذا معنى الآية على قراءة الجمهور[٧] «نتخذ» مبنياً للفاعل.

وقرأ الحسن، وأبو جعفر «نُتخذ» مبنياً للمفعول[٨]؛ أي: ما كان ينبغي لنا أن يتخذنا المشركون أولياء من دونك.

قال أبو عمرو بن العلاء[٩]، وعيسىٰ بن عمر: لا تجوز هذه القراءة، ولو كانت صحيحة لحذفت من الثانية.

---

(١) «معالم التنزيل» (٦/ ٧٦)، و«الوسيط» (٣/ ٣٣٦).

(٢) «التيسير» (ص١٦٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٧٨)، و«النشر» (٢/ ٣٣٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩١). قرأ ابن عامر بالنون وباقي العشرة بالياء التحتية، والنون عن ابن كثير وحفص شاذة. «النشر» (٢/ ٣٣٣)

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٨).

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٩٠)، و«النشر» (٢/ ٣٣٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٧٨).

(٦) «روح المعاني» (١٨/ ٥٤٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٥٨).

(٧) «جامع البيان» (١٧/ ٤١٧ ـ ٤١٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٤٦).

(٨) انظر: المصادر المتقدمة. هي متواترة عن أبي جعفر، والباقون على البناء للفاعل.

(٩) «البحر المحيط» (٨/ ٩١)، و«زاد المسير» (٦/ ٧٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

قال أبو عُبيدة[١]: لا تجوز هذه القراءة لأن الله سبحانه ذكر «من» مرتين، ولو كان كما قرأ لقال: أَنْ نتخذ من دونك أولياء.

وقيل: إن «مِنْ» الثانية زائدة[٢].

ثم حكى عنهم سبحانه: بأنهم بعد هذا الجواب ذكروا سبب ترك المشركين للإيمان، فقال: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ وفي هذا ما يدل على أنهم هم الذين ضلوا السبيل، ولم يضلهم غيرهم.

والمعنى: ما أضللناهم، ولكنّك يا رب متعتهم، ومتعتَ آباءهم بالنعم، ووسعت عليهم الرزق، وأطلت لهم العُمر حتى غفلوا عن ذكرك، ونسوا موعظتك، والتدبر لكتابك، والنظر في عجائب صنعك، وغرائب مخلوقاتك.

وقرأ أبو عيسىٰ الأسود القارئ «يُنْبَغَىٰ» مبنياً للمفعول[٣]. قال ابن خالويه[٤]: زعم سيبويه[٥] أنّها لغة، وقيل: المراد بنسيان الذكر هنا: هو ترك الشكر.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾؛ أي: وكان هؤلاء الذين أشركوا بك، وعبدوا غيرك في قضائك الأزليّ قوماً بوراً؛ أيْ: هَلْكى، مأخوذ من البوار[٦]، وهو الهلاك[٧]: يقال: رجل بائر، وقوم بور، يستوي فيه الواحد والجماعة؛ لأنه مصدر يطلق على القليل والكثير، ويجوز أن يكون جمع بائر.

وقيل: البوار: الفساد. يقال: بارت بضاعته؛ أي: فسدت، وأمر بائر؛ أي: فاسد، وهي لغة الأزد.

وقيل: المعنى: لا خير فيهم[٨]، مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع، فلا يكون فيها خير.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩).
(٢) «التبيان» (٢/ ٩٨٢)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٤٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٠).
(٣) «القراءات الشاذة» (ص١٠٤). (٤) «المحتسب» (٢/ ١٢٠).
(٥) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٨/ ٥٤٦).
(٦) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص١٥٢ ـ ١٥٣)، و«تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٦٥).
(٧) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٣٧)، عن ابن عباس.
(٨) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٣٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٨٠)، عن الحسن.

وقيل: إن البوار: الكساد، ومنه بارت[1] السلعة إذا كسدتْ.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ في الكلام حذف.

والتقدير: فقال الله عند تبري المعبودين[2] مخاطباً المشركين العابدين لغير الله فقد كذبوكم؛ أي: فقد كذبكم المعبودون بما تقولون؛ أي: في قولكم إنهم آلهة ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾؛ أي: الآلهة ﴿صَرْفًا﴾؛ أي: دفعاً للعذاب عنكم بوجه من الوجوه، وقيل: حيلة[3] ﴿وَلَا نَصْرًا﴾؛ أي: ولا يستطيعون نصركم.

وقيل: المعنى: فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذّبهم المعبودون صَرْفاً للعذاب[4] الذي عذبهم الله به، ولا نصراً من الله، وهذا الوجه مستقيم على قراءة مَنْ قرأ «تستطيعون» بالفوقية[5]، وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون بالتحتية[6].

وقال ابن زيد[7]: المعنى: فقد كذبوكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد ﷺ، وعلى هذا، فمعنى بما تقولون: ما تقولونه مِنْ الحق.

وقال أبو عُبيد[8]: المعنى: فما يستطيعون لكم صرفاً عن الحق الذي هداكم الله إليه، ولا نصراً لأنفسهم بما ينزل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم.

وقرأ الجمهور «بما تقولون» بالتاء[9] الفوقية على الخطاب.

وحكى الفراء[10]: أنه يجوز أن يقرأ: «فقد كذبوكم» مخففاً بما يقولون؛ أي:

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٣٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٨٠)، عن شهر بن حوشب.
(٢) «روح المعاني» (١٨/ ٥٥٣).
(٣) قاله ابن قتيبة في «تفسير غريب القرآن» (ص٣١١).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٨١).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٩٣)، و«التيسير» (ص١٦٣)، و«زاد المسير» (٦/ ٧٩)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٣) بسند صحيح.
(٨) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٥٥).
(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٨١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩٣)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٥٣).
(١٠) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ١٥).

كذبوكم في قولهم، وكذا قرأ بالياء التحتية[١] مجاهد والبزي.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هذا وعيدٌ لكلِ ظالم، ويدخل تحته الذين فيهم السياق دخولاً أولياً، والعذاب الكبير: عذاب النار.

وقُرئ: «يذقه» بالتحتية[٢]، وهذه الآية وأمثالها مقيدة بعدم التوبة.

ثم رجع سبحانه إلى خطاب رسوله موضحاً لبطلان ما تقدّم من قوله: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ قال الزجّاج[٣]: الجملة الواقعة بعد «إلّا» صفة لموصوف محذوف.

والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً مِنْ المرسلين إلّا آكلين وماشين، وإنما حذف الموصوف؛ لأن في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دليلاً عليه، نظيره: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]؛ أي: وما منا أحد.

وقال الفرّاء[٤]: لا محل لها من الإعراب، وإنما هي صلة لموصول محذوف هو المفعول، والتقدير: إلّا من أنهم فالضمير في أنهم وما بعده راجع إلى من المقدّرة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]؛ أي: إلّا مَنْ يردها، وبه قرأ الكسائي[٥].

قال الزجاج[٦]: هذا خطأ؛ لأنّ مَنْ الموصولة لا يجوز حذفها.

وقال ابن الأنباري[٧]: إنها في محل نصب على الحال[٨]، والتقدير: إلّا وأنهم، فالمحذوف عنده الواو.

قرأ الجمهور: «إلا إِنّهم» بكسر[٩] إنّ لوجود اللام في خبرها كما تقرّر في علم

---

(١) «النشر» (٢/ ٣٣٤)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٥٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩٣). ما عزاه للبزيِّ فشاذ عنه.

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩٤) وهي قراءة شاذة والمتواتر بالنون.

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٢).

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٤).

(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٥٦). هي شاذة لمخالفة الرسم، وهي رواية شاذة عن الكسائي.

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٢).

(٧) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ٦٥)، ووالقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٨٣).

(٨) «التبيان» (٢/ ٩٨٣)، و«الفريد» (٣/ ٦٢٦).

(٩) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، و«فتح الباري» (٩/ ٣١)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٥٦ ـ ٥٥٧).

النحو[١]، وهو مجمع عليه عندهم.

قال النحاس[٢]: إلّا أن عليّ بن سليمان الأخفش حكى لنا عن محمد بن يزيد المبرِّد: أنه قال: يجوز في إنّ هذه الفتح، وإن كان بعدها اللام، وأحسبه وهماً.

وقرأ الجمهور: «يَمْشون»[٣] بفتح الياء، وسكون الميم، وتخفيف الشين.

وقرأ عليّ، وابن عوف، وابن مسعود بضم الياء[٤]، وفتح الميم، وضم الشين المشدّدة، وهي بمعنى القراءة الأولى، قال الشاعر:

أُمشِّي بأعطانِ المياه وأتَّقي ... قَلَائصَ منها صعبةٌ وركوبُ[٥]

وقال كعب بن زهير[٦]:

منه تظلُّ سِباعُ الحيّ ضَامِرةً ... ولا تُمَشّي بواديهِ الأَرَاجيلُ

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ هذا الخطاب عامّ للناس، وقد جعل سبحانه بعض عبيده فتنةً لبعض، فالصحيح فتنة للمريض، والغنيّ فتنة للفقير[٧]، وقيل: المراد بالبعض الأوّل: كفار الأمم، وبالبعض الثاني: الرسل.

ومعنى الفتنة: الابتلاء والمحنة.

والأوّل أولى، فإنّ البعض من الناس ممتحن بالبعض مبتلى به؛ فالمريض يقول: لم لم أُجعل كالصحيح؟ وكذا كل صاحب آفة، والصحيح مبتلى بالمريض، فلا يضجر منه، ولا يحقره، والغني مبتلى بالفقير يواسيه، والفقير مبتلى بالغنيّ يحسده، ونحو هذا مثله.

وقيل: المراد بالآية: أنّه كان إذا أراد الشريف[٨] أن يسلم، ورأى الوضيع قد أسلم قبله أَنِفَ، وقال: لا أسلم بعده، فيكون له علي السابقة والفضل، فيقيم على

---

(١) «الخصائص» (٢/ ٢٨٣)، و«المفصل» (٨/ ٦٤، ٨٧).

(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥٥ ـ ١٥٦) عن الزجاج. وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٢).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٩٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٨٣).

(٤) «المحتسب» (٢/ ١٢٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩٤)، و«روح المعاني» (١٨/ ٥٥٧). وهي قراءة شاذة.

(٥) البيت للعلاء بن حذيفة الغَنَوي. «أمالي القالي» (١/ ٢٨).

(٦) انظر: «ديوان كعب بن زهير» (ص٩٠). (٧) «النكت والعيون» (٤/ ١٣٨).

(٨) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٣٧).

كفره، فذلك افتتان بعضهم لبعض، واختار هذا الفراء(١)، والزجاج(٢).

ولا وجه لقصر الآية على هذا، فإن هؤلاء إن كانوا سبب النزول، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم قال سبحانه بعد الإخبار بجعل البعض للبعض فتنة: ﴿أَتَصْبِرُونَۗ﴾ هذا الاستفهام للتقرير(٣)، وفي الكلام حذف تقديره، أم لا تصبرون؟ أي: أتصبرون على ما ترون من هذه الحال الشديدة، والابتلاء العظيم.

قيل: موقع هذه الجملة الاستفهامية ها هنا موقع قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾ في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ﴾ [هود: ٧].

ثم وعد الصابرين بقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾؛ أي: بكل من يصبر ومن لا يصبر، فيجازي كلاً منهما بما يستحقه.

وقيل: معنى أتصبرون: اصبروا مثل قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؛ أي: انتهوا. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ هذه المقالة من جملة شبههم التي قدحوا بها في النبوة، والجملة معطوفة على ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا﴾ [الفرقان: ٧]؛ أي: وقال المشركون الذين لا يبالون بلقاء الله كما في قول الشاعر(٤):

لعمُرك ما أرجُو إذا كنتُ مُسلماً ... على أيِّ جنبٍ كانَ في اللَّهِ مَصْرعي

أي: لا أبالي.

وقيل: المعنى: لا يخافون لقاء ربهم كقول الشاعر(٥):

إذا لسعتْهُ النَّحلُ لم يرجُ لسعَها ... وخالفها في بيتِ نُوبٍ عَوَامل

أي: لم يخف، وهي لغة [٣/٣١٨] تهامة.

قال الفراء(٦) وضع الرجاء موضع الخوف، وقيل: لا يُأمِّلون، ومنه قول الشاعر:

أترجو أمةٌ قتلتْ حسيناً ... شفاعةَ جدِّه يومَ الحسابِ(٧)

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٥). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٢).
(٣) «روح المعاني» (١٨/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٦٠).
(٤) قاله خبيب بن عدي رضي الله عنه، «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ١٧٦).
(٥) أبو ذؤيب الهذلي. أشعار الهذليين. (٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٥).
(٧) البيت الشعر ذُكر في قصة ضعيفة. انظر: «معجم الطبراني الكبير» (٣/ ٢٨٧٣).

والحمل على المعنى الحقيقي أولى، فالمعنى: لا يأملون لقاء ما وعدنا على الطاعة من الثواب، ومعلوم أن من لا يرجو الثواب لا يخاف العقاب.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أي: هلّا أُنزِلوا علينا، فيخبرونا أنَّ محمداً صادق، أو هلا أُنزلوا علينا رسلاً يرسلهم الله ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ عياناً، فيخبرنا بأنّ محمداً رسولٌ.

ثم أجاب سبحانه عن شبهتهم هذه، فقال: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾؛ أي: أَضْمروا الاستكبار عَنْ الحق والعناد في قلوبهم كما في قوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، والعتوّ[(١)]: مجاوزة الحد في الطغيان، والبلوغ إلى أقصى غاياته.

ووصفه بالكبر لكون التكلم بما تكلّموا به من هذه المقالة الشنيعة في غاية الكبر والعظم، فإنّهم لم يكتفوا بإرسال البشر حتى طلبوا إرسال الملائكة إليهم؛ بل جاوزوا ذلك إلى التخيير بينه وبين مخاطبة الله سبحانه، ورؤيته في الدنيا مِنْ دون أن يكون بينهم وبينه ترجمان، ولقد بلغ هؤلاء الرذالة بأنفسهم مبلغاً هي أحقر، وأقل، وأرذل مِنْ أن تكون من أهله، أو تعدّ من المستعدّين له، وهكذا مَنْ جهل قدر نفسه، ولم يقف عند حدّه، ومَنْ جهلتْ نفسُه قدَره رأى غيرُه منه ما لا يرى[(٢)].

وانتصاب ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بفعل محذوف[(٣)]؛ أي: واذكر يومَ يرون الملائكة رؤيةً ليست على الوجه الذي طلبوه، والصورة التي اقترحوها؛ بل على وجه آخر، وهو يوم ظهورهم لهم عند الموت، أو عند الحشر.

ويجوز أَنْ يكون انتصاب[(٤)] هذا الظرف بما يدلّ عليه قوله: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: يُمنعون البشرى يوم يرون، أو لا توجد لهم بشرى فيه، فاعلم سبحانه بأن الوقت الذي يرون فيه الملائكة، وهو وقت[(٥)] الموت، أو يوم القيامة قد حرمهم الله البشرى.

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٤٦)، و«تهذيب اللغة» (٣/ ١٤٣).

(٢) البيت الشعري «ومَنْ جهلتْ نفسُه قدرَه للمتنبيِّ. انظر: ديوانه (ص٤٩٦). وهو من قصيدة مطلعها: ألا كلّ حاشية الخيزلى..».

(٣) «الفريد» (٣/ ٦٢٧)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٣).

(٤) «التبيان» (٢/ ٩٨٣)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٠)، و«الفريد» (٣/ ٦٢٧).

(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ١٤٠).

قال الزجاج[١]: المجرمون في هذا الموضع: الذين اجترموا الكفر بالله ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: ويقول الكفار عند مشاهدتهم للملائكة، حِجْراً محجوراً، وهذه كلمة[٢] كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوّ، وهجوم نازلة يضعونها موضع الاستعاذة[٣]، يقال للرجل: أتفعل كذا؟، فيقول: حِجْراً محجوراً؛ أي: حراماً عليك التعرّض لي.

وقيل: إنّ هذا من قول الملائكة[٤]؛ أي: يقولون للكفار: حراماً محرّماً أن يدخل أحدكم الجنّة، ومن ذلك قول الشاعر[٥]:

أَلَا أصبحتْ أسماءُ حِجْراً مُحرّما ... وأَصبحتُ مِن أَدْنى حُمومتها حَمَا

أي: أصبحتْ أسماء حراماً محرّماً.

وقال آخر:

حَنَّت إلى النَّخلة القُصوى فقُلتُ لَهَا ... حِجْرٌ حَرامٌ إلا تلك الدَّهاريس[٦]

وقد ذكر سيبويه[٧] في باب: المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها هذه الكلمة، وجعلها مِنْ جملتها.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ هذا وعيد آخر، وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صورة الخير: مِنْ صلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وإطعام الطعام، وأمثالها، ولم يمنع من الإثابة عليها إلّا الكفر الذي هم عليه، فمثلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم، واستعصوا عليه، فقدم إلى ما معهم من المتاع، فأفسده، ولم يترك منها شيئاً، وإلّا فلا قدوم ها هنا.

قال الواحدي[٨]: معنى قدمنا: عَمِدنا وقصدنا، يقال: قدم فلان إلى أمر كذا إذا قصده، أو عمده، ومنه قول الشاعر:

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٨)، عن معمر، عن الحسن وقتادة.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٩)، عن مجاهد بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٩)، عن مجاهد بسند صحيح.

(٥) هو: عبد الله بن عجلان. «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (٢/ ٧١٦).

(٦) البيت للمتلمس بن جرير. «مجاز القرآن» (٢/ ٧٣)، و«النكت والعيون» (٤/ ١٤١ ـ ١٤٢).

(٧) «الكتاب» (١/ ٣٢٥). (٨) في «الوسيط» (٣/ ٣٣٨).

وقَدِمَ الخَوَارِجُ الضُّلالُ إلى عِبادِ ربِّهِمُ فقالُوا
إنَّ دِماءكُمْ لَنَا حلالُ[(١)]

وقيل: هو قدوم الملائكة[(٢)] أخبر به عن نفسه تعالى.

والهباء واحده هباءة، والجمع أهباء.

قال النضر بن شميل[(٣)]: الهَباء: التراب الذي تطيّره الريُح كأنه دخان.

وقال الزجاج[(٤)]: هو ما يخرج من الكوّة مع ضوء الشمس يشبه الغبار، وكذا قال الأزهري[(٥)]. والمنثور: المفرّق، والمعنى: أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور، لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرّق متبدّد.

وقيل: إنّ الهباء[(٦)] ما أذْرته الرياحُ مِنْ يابس أوراق الشجر.

وقيل[(٧)]: هو الماء المهراق، وقيل[(٨)]: الرماد.

والأوّل هو الذي ثبت في لغة العرب[(٩)]، ونقله العارفون بها.

ثم ميّز سبحانه حال الأبرار من حال الفجار، فقال: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾؛ أي: أفضل منزلاً في الجنة ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾؛ أي: موضع قائلة، وانتصاب[(١٠)] مستقرًّا على التمييز.

قال الأزهري[(١١)]: القيلولة عند العرب الاستراحة نصف النهار إذا اشتدّ الحرّ، وإنْ لم يكن مع ذلك نوم.

---

(١) «مجاز القرآن» (٢/ ٧٤)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٣٠).
(٢) «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٧).
(٣) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٥٤).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٤).
(٥) في «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥).
(٦) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٣٢).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٩) بسند صحيح.
(٨) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٤١)، عن عبيد بن يعلى.
(٩) «تهذيب اللغة» (٦/ ٤٥٤)، و«الصحاح» (٦/ ٢٥٣٢).
(١٠) «الفريد» (٣/ ٦٢٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢١).
(١١) في «تهذيب اللغة» (٩/ ٣٠٥).

قال النحاس[١]: والكوفيون يُجيزون: العسلُ أحلى مِنْ الخلّ.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[٢] في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية قال: عيسىٰ، وعُزير، والملائكة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٣] ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ قال: هلكى.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، عن الحسن[٤] في قوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ قال: هو: الشرك.

وأخرج ابن جرير[٥] عن ابن جريج قال: يشرك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة[٦]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ يقول: إن الرسل قبل محمد ﷺ كانوا بهذه المنزلة يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال: بلاء.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «الشُعَب» عن الحسن[٧]: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال: يقول الفقير: لو شاء الله لجعلني غنيّاً مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحاً

(١) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٢) بسند صحيح. وقد تقدم.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٣) بسند صحيح.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٢، ٤٢٣) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٢) بسند ضعيف.

(٦) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٣).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٥) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٤)، وابن ابي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٠٠٧٢) من طريق ابن عبلة، به.

مثل فلان، ويقول الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان.

وأخرج ابن المنذر[١]، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ قال: شدّة الكفر.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[٢] في قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قال: يوم القيامة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣]، عَنْ عطية العوفيّ نحوه.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مجاهد[٤] ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ قال: عوذاً معاذاً، الملائكة تقوله. وفي لفظ قال: حراماً مُحرّماً أن تكون البشرى في اليوم إلّا للمؤمنين.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عطية العوفيّ، عن أبي سعيد الخدري[٥] في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ قال: حراماً محرّماً أن نبشركم بما نبشر به المتقين.

وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن[٦]، وقتادة: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ قالا: هي: كلمة كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا نزلت به شدّة قال: حجراً محجوراً حراماً محرّماً.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٤).

(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٤).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٩) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٧) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٥).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٩) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٥).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧/ ٤٢٨، ٤٢٩).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٢٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٨).

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عَنْ مجاهد[١] ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ قال: عمدنا إلى ما عملوا من خير ممن لا يتقبل منه في الدنيا.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عليّ بن أبي طالب[٢] في قوله: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: الهباء شعاع الشمس الذي يخرج من الكوّة.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن عليّ بن أبي طالب[٣] قال: الهباء: وهيج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقي منه شيء، فجعل الله أعمالهم كذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] قال: الهباء: الذي يطير من النار إذا اضطرمت يطير منها الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئاً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه[٥] قال: هو ما تَسفي الريح وتبثّه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[٦] عنه أيضاً قال: هو الماء المهراق.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[٧] عنه أيضاً ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ قال: في الغرف من الجنة.

وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر،

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٣١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٨) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٩) بسند ضعيف؛ لضعف الحارث وهو الأعور الهمداني. وقد توبع كما في الرواية التالية. فقد تابعه عقيل الجزري.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٩).

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٩).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٣٢، ٤٣٣) بسند ضعيف عطاء الخرساني لم يسمع من ابن عباس.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٧٩) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨١) بسند ضعيف.

وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود[١] قال: لا ينصرف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

[من مشاهد يوم القيامة]:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [٣/٣١٩].

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ وصف سبحانه هاهنا بعض حوادث يوم القيامة، والتشقق: التفتّح، قرأ عاصم، والأعمش، ويحيى بن وثّاب، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو «تشقق» بتخفيف الشين[٢]، وأصله تتشقق، وقرأ الباقون بتشديد الشين[٣] على الإدغام.

واختار القراءة الأولى أبو عُبيد[٤]، واختار الثانية أبو حاتم[٥]، ومعنى تشققها بالغمام: أنها تتشقق عَنْ الغمام.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» رقم (١٣١٣ ـ زوائد الحسين)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٤٣٤، ٤٣٥) و(١٩/٥٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٠)، والحاكم (٢/ ٤٠٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) «جامع البيان» (١٧/٤٣٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٩٩)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٤٥).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤)(٥) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣٩٨)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٥٧).

قال أبو علي الفارسي[1]: تشقق السماء، وعليها غمام كما تقول: ركب الأمير بسلاحه؛ أي: وعليه سلاحُه، وخرج بثيابه؛ أي: وعليه ثيابه. ووجه ما قاله: أن الباء و(عن) يتعاقبان[2] كما تقول: رميت بالقوس، وعن القوس.

وروي[3] أنّ السماء تتشقق عَنْ سحاب رقيق أبيض.

وقيل: إن السماء تتشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس.

والمعنى: أنّه يتشقق السحاب بتشقق السماء، وقيل: إنها تشقق لنزول الملائكة، كما قال سبحانه بعد هذا: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ وقيل: إن «الباء» في ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ سببية[4]؛ أي: بسبب الغمام، يعني: بسبب طلوعه منها كأنه الذي تتشقق به السماء، وقيل: إن الباء متعلقة بمحذوف؛ أي: ملتبسة بالغمام.

قرأ ابن كثير «ونُنْزِل الملائكةَ» مخففاً[5]، من الإنزال بنون بعدها نون ساكنة، «وزاي» مخففة بكسرة مضارع أنزل، والملائكة منصوبة على المفعولية.

وقرأ الباقون من السبعة: «نُزِّل» بضم النون[6]، وكسر الزاي المشدّدة ماضياً مبنياً للمفعول.

وقرأ ابنُ مسعود، وأبو رجاء: «نَزَّل» بالتشديد[7] ماضياً مبنياً للفاعل، وفاعله الله سبحانه.

وقرأ أُبيّ بن كعب[8]: «أنزلَ الملائكة»، وروي[9] عنه: أنه قرأ: «تنزلت

---

(١) في «الحجة» (٥/ ٢٤١).
(٢) «جامع البيان» (١٧/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٧)، و«الفريد» (٣/ ٦٣٨).
(٣) «النكت والعيون» (٤/ ١٤٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٣).
(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٢١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٦٤).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ١٠٠)، و«التيسير» (ص١٦٤)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٠٠).
(٦) «السبعة» (ص٤٦٤)، و«التيسير» (ص١٦٤).
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٠٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٣).
(٨) «القراءات الشاذة» (ص١٠٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٠٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٠٠).
(٩) انظر: المصادر المتقدمة.

الملائكة»، وقد قُرئ في الشواذ بغير هذه، وتأكيد هذا الفعل بقوله: ﴿تَنزِيلًا﴾ يدلّ على أنّ هذا التنزيل على نوع غريب ونمط عجيب.

قال أهل العلم(١): إنّ هذا تنزيل رضاً ورحمة لا تنزيل سخط وعذاب ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الملك: مبتدأ، والحق(٢): صفة له، وللرحمٰن: الخبر؛ كذا قال الزجاج(٣)؛ أي: الملك الثابت الذي لا يزول للرحمٰن يومئذٍ؛ لأن المُلك الذي يزول وينقطع ليس بملك في الحقيقة، وفائدة التقييد بالظرف أن ثبوت الملك المذكور له سبحانه خاصةً في هذا اليوم. وأما فيما عداه من أيام الدنيا، فلغيره ملك في الصورة، وإنْ لم يكن حقيقاً.

وقيل: إن خبر(٤) المبتدأ هو الظرف، والحق نعت للملك. والمعنى: الملك الثابت للرحمن خاص في هذا اليوم ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾؛ أي: وكان هذا اليوم مع كون المُلك فيه لله وحده شديداً على الكفار لما يصابون به فيه، وينالهم من العقاب بعد تحقيق الحساب، وأمّا على المؤمنين فهو يسير غير عسير، لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى العظيمة.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الظرف منصوب(٥) بمحذوف؛ أي: واذْكر، كما انتصب بهذا المحذوف الظرف الأول، أعني: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾، الظاهر أن العضّ هنا(٦) حقيقة، ولا مانع من ذلك، ولا موجب لتأويله.

وقيل: هو كناية عن الغيظ والحسرة(٧)، والمراد بالظالم كلّ ظالم يرد ذلك المكان، ويَنْزل ذلك المنزل، ولا ينافيه ورود الآية على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٢٢)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٣٩).
(٢) يوصف الله ﷻ بأنّه الحق ﷻ، وهو اسم ثابت له بالكتاب والسُّنَّة.
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٥).
(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٢٥ ـ ٢٦)، و«الفريد» (٣/ ٦٢٩)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٤).
(٥) «مجمع البيان» (١٩/ ٩٨).
(٦) «جامع البيان» (١٧/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٨).
(٧) «روح المعاني» (١٩/ ٢٨).

﴿يَـقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ «يقول» في محل نصب[١] على الحال، ومقول القول هو: يا ليتني، إلخ، والمنادى محذوف؛ أي: يا قومُ ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً طريقاً، وهو طريق الحق، ومشيت فيه حتى أخلص من هذه الأمور المضلة.

والمراد: اتباع النبي ﷺ فيما جاء به ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ دعاء على نفسه بالويل والثبور على مُخاللة الكافر الذي أضلّه في الدنيا، وفلان كناية عن الأَعْلام.

قال النيسابوري[٢]: زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصيح إلّا حكاية، لا يُقال: جاءني فلان. ولكن يقال: قال زيد: جاءني فلان؛ لأنّه اسم اللفظ الذي هو علَم لا اسم مدلول العلَم، وكذلك جاء في كلام الله.

وقيل: فلان كناية عَنْ علَمِ ذكور مَنْ يعقل، وفلانة عَنْ علم إناثهم.

وقيل: كناية عن نكرة مَنْ يعقل من الذكور.

وفلانة عمّن يعقل من الإناث، وأَمّا الفلان والفلانة فكناية عَنْ غير العقلاء[٣]، وفل يختص[٤] بالنداء إلّا في ضرورة كقول الشاعر[٥]:

فـي لُـجَّـة أمسِـك فُـلانـاً عـن فُـلِ

وقوله:

حَـدِّثـانـي عـن فُـلانٍ وفـلِ

وليس فل مرخماً مِنْ فلان خلافاً للفراء[٦].

وزعم أبو حيان[٧] أن ابن عصفور، وابن مالك، وهَمِا في جعل فلان كناية علم مَنْ يعقل.

---

(١) «الفريد» (٣/ ٦٢٩)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٥).

(٢) في «غرائب القرآن» (٢١/ ١٠ ـ ١١).

(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٦٤٥).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ١٠٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٠).

(٥) الرجز لأبي النجم العجلي. انظر: «ديوانه» (ص١٩٩).

(٦) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٩/ ٣٠)، وابن حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٠٢).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ١٠٢).

وقرأ الحسن: «يا ويلتي» بالياء[١] الصريحة.

وقرأ الدُّوريّ بالإمالة[٢].

قال أبو علي[٣]: وتركُ الإمالة أحسن؛ لأنَّ أصل هذه اللفظة الياء، فأبدلت الكسرة فتحة، والياء ألِفاً فراراً مِنْ الياء، فمن أمال رجع إلى الذي فرّ منه.

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾؛ أي: واللهِ لقد أضلني هذا الذي اتخذته خليلاً عن القرآن، أو عَنْ الموعظة أو كلمة الشهادة، أو مجموع ذلك بعد إذ جاءني، وتمكنت منه، وقدرت عليه.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ الخَذْل: تركُ الإغاثة، ومِنْه خذلان إبليس للمشركين حيثُ يوالونه، ثُم يتركهم[٤] عند استغاثتهم به.

وهذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، أو من تمام كلام الظالم، وأنه سمى خليله شيطاناً بعد أن جعله مضلّاً.

أو أراد بالشيطان: إبليس لكونه الذي حمله على مخاللة المضلين ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ معطوف على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، والمعنى: إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن الذي جئت به إليهم، وأمرتني بإبلاغه، وأرسلتني به مهجوراً متروكاً لم يؤمنوا به ولا قبلوه بوجه من الوجوه، وقيل: هو من هُجْر إذا هذى.

والمعنى: أنهم اتخذوه هُجْراً، وهذياناً[٥]. وقيل: معنى ﴿مَهْجُورًا﴾: مهجوراً فيه، ثم حُذف الجار، وهجرهم فيه قولهم: إنّه سحر[٦]، وشعر، وأساطير الأوّلين.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠٤).

(٢) «التيسير» (ص١٦٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٠٢). وممّن قرأ بالإمالة المحضة حمزة والكسائي وخلف، وقرأ الباقون بالفتح وترك الإمالة.

(٣) في «الحجة» (٥/ ٣٤٣).

(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٣١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٠٣)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٤٢).

(٥) قاله ابن قتيبة في «تفسير غريب القرآن» (ص٣١٣).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٧)، عن مجاهد بسند صحيح.

وهذا القول يقوله الرسول ﷺ[١] يوم القيامة؛ وقيل: إنّه حكاية لقوله ﷺ في الدنيا. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ هذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ.

والمعنى: أن الله سبحانه جعل لكلّ نبيّ مِنْ الأنبياء الداعين إلى الله عدوًّا يعاديه من مجرمي قومه، فلا تجزع يا محمد، فإن هذا دأب الأنبياء قبلك، واصبر كما صبروا.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ قال المفسِّرون[٢]: الباء زائدة؛ أي: كفى ربُّك، وانتصاب[٣] نصيراً وهادياً على الحال، أَو التمييز؛ أي: يهدي عباده إلى مصالح الدين، والدنيا، وينصرهم على الأعداء. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ هذا من جملة اقتراحاتهم وتعنتاتهم؛ أي: هلا نزّل اللهُ علينا هذا القرآن دفعة واحدة غير منجم؟

واختُلف في قائل[٤] هذه المقالة؛ فقيل: كفار قريش، وقيل: اليهود، قالوا: هلا أتيتنا بالقرآن جملةً واحدة كما أُنزلت التوراة والإنجيل والزبور وهذا زعم باطل، ودعوى داحضة، فإنّ هذه الكتب نزلت مفرّقة كما نزل القرآن، ولكنهم معاندون، أو جاهلون لا يدرون بكيفية نزول كتب الله سبحانه على أنبيائه.

ثم ردّ الله سبحانه عليهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾؛ أي: نزلنا القرآن كذلك مفرّقاً، والكاف في محل نصب[٥] على أنها نعت مصدر محذوف، وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلامهم؛ أي: مثل ذلك التنزيل المفرّق الذي قدحوا فيه، واقترحوا خلافه؛ نزلناه لنقوّي بهذا التنزيل على هذه الصفة فؤادك، فإن إنزاله مفرّقاً مُنجّماً على حسب الحوادث أقرب إلى حفظك له، وفهمك لمعانيه، وذلك من أعظم أسباب التثبيت، واللّام متعلقة بالفعل المحذوف الذي قدّرناه.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٠٥).
(٢) «الوسيط» (٣/ ٣٣٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٠٦)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٤٥).
(٣) «الفريد» (٣/ ٦٣٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٠٣).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٠٦)، و«النكت والعيون» (٤/ ١٤٣ ـ ١٤٤)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٦٣).
(٥) «روح المعاني» (١٩/ ٣٥)، و«الفريد» (٣/ ٦٣٠)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٥).

وقال أبو حاتم[١]: إن الأخفش قال: إنّها جواب قسم محذوف. قال: وهذا قول مرجوح.

وقرأ عبد الله: «ليثبتَ» بالتحتية[٢]؛ أي: الله سبحانه، وقيل: إن هذه الكلمة [٣/٣٢٠] أعني: كذلك، هي مِنْ تمام كلام المُشْركين، والمعنى: كذلك؛ أي: كالتوراة، والإنجيل، والزبور، فيوقف على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ثم يبتدأ بقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ على معنى: أنزلناه عليك متفرّقاً لهذا الغرض.

قال ابن الأنباري[٣]: وهذا أجود وأحسن.

قال النحاس[٤]: وكان ذلك؛ أي: إنزال القرآن مُنجّماً من أعلام النبوّة لأنهم لا يسألونه عن شيء إلّا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلّا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم.

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ هذا معطوف على الفعل المقدّر؛ أي: كذلك نزلناه ورتلنّاه ترتيلاً.

ومعنى الترتيل: أَنْ يكون آية[٥] بعد آية، قاله النخعي، والحسن، وقتادة.

وقيل: إن المعنى: بيناه تبييناً[٦]، حكى هذا عن ابن عباس.

وقال مجاهد[٧]: بعضه في إثر بعض.

وقال السدّي[٨]: فصلناه تفصيلاً.

قال ابن الأعرابي[٩]: ما أعلم الترتيل إلّا التحقيق والتبيين.

ثم ذكر سبحانه أنهم محجوجون في كلّ أوان مدفوع قولهم بكل وجه، وعلى كل حالة، فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾؛ أي: لا يأتيك

---

(١) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٠٤).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٠٤). وهي قراءة شاذة.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٠٧). (٤) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٥٩ ـ ١٦٠).
(٥) ذكره عنهم البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٨٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٠).
(٦) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٨٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٠).
(٧)(٨) ذكره عنهما البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٨٣).
(٩) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٠).

يا مُحمد المشركون بمثَلٍ من أمثالهم التي مِنْ جملتها اقتراحاتهم[١] المتعنتة إلّا جئناك في مقابلة مثلهم بالجواب الحق الثابت، الذي يبطل ما جاءوا به من المثل ويدمغه ويدفعه.

فالمراد بالمَثَل هُنا: السؤال، والاقتراح، و «بالحق»: جوابه الذي يقطع ذريعته، ويبطل شبهته، ويحسم مادّته.

ومعنى ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾: جئناك بأحسن تفسير، فأحسن تفسيراً معطوف على الحق.

والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا جِئْنَكَ﴾ مفرّغ[٢] والجملة في محل[٣] نصب على الحال؛ أي: لا يأتونك بمثَلٍ إلّا في حال إيتائنا إياك ذلك. ثم أوعد هؤلاء الجهلة، وذمّهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: يحشرون كائنين على وجوههم، والموصول[٤] مبتدأ، وخبره: أولئك، أو هو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين، ويجوز نصبه على الذمّ.

ومعنى: ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُسْحبون عليها إلى جهنم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ أي: منزلاً ومصيراً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وأخطأ طريقاً، وذلك لأنهم قد صاروا في النّار.

وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة سبحان.

وقد قيل: إن هذا متصل بقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٣٦).
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٣٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٠٤)، و«الفريد» (٣/ ٩١٥).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «الفريد» (٣/ ٦٣٠)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٦).
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأهوال» رقم (٢١٢، ٢١٥، ٢١٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٢)، والحاكم (٤/ ٥٦٩، ٥٧٠) بسند ضعيف؛ لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان. =

تَنزِيلًا﴾ قال: يجمع الله الخلقَ يوم القيامة في صعيد واحد: الجنَّ والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق، فتنشقّ السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر ممن في الأرض من الجنّ والإنس وجميع الخلق، فيحيطون بالجنّ والإنس وجميع الخلق، فيقول أهل الأرض: أفيكم ربُّنا؟، فيقولون: لا، ثم تنشق السماء الثانية، وذكر مثل ذلك، ثم كذلك في كلّ سماء إلى السماء السابعة، وفي كل سماء أكثر من السماء التي قبلها، ثم ينزل ربُّنا في ظُللٍ من الغمام وحوله الكَرُوبيون، وهم أكثر من أهل السماوات السبع والإنس والجنّ وجميع الخلق لهم قرون ككعوب القنا وهم تحت العرش، لهم زَجَل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله تعالى، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، ومِنْ ركبته إلى فخذه مسيرة خمسمائة عام، ومن فخذه إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام.

وإسناده عند ابن جرير[(١)] هكذا قال: حدّثنا القاسم، حدّثنا الحسين، حدّثني الحجاج عَنْ مبارك بن فضالة عَنْ عليّ بن زيد بن جُدْعان، عن يوسف بن مهران: أنه سمع ابن عباس، فذكره.

وأخرجه ابن أبي حاتم[(٢)] بإسناد هكذا: قال: حدّثنا محمد بن عمار بن الحارث مأمول، حدّثنا حماد بن سلمة عَنْ عليّ بن زيد به.

وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل بسندٍ، قال السيوطي[(٣)]: صحيح من طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس[(٤)]: أن أبا مُعَيْط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلاً حليماً، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي مُعيط خليل غائب عنه بالشام، فقالت قريش: صبأ أبو مُعيط، وقدم خليله من الشام ليلاً، فقال لامرأته: ما فعل مُحمد مما كان عليه؟ فقالت: أشدّ ما كان أمراً، فقال:

= وقال ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٣٠١): فمداره على علي بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، وفي سياقاته ـ غالباً ـ نكارة شديدة.

(١) في «جامع البيان» (١٧/ ٤٣٨) بسند ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٢) بسند ضعيف. لما تقدم في التعليقة المتقدمة.

(٣) في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٠).

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٠).

ما فعل خليلي أبو مُعيط؟ فقالت: صبأ، فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو مُعيط فحيَّاه، فلم يردّ عليه التحية، فقال: ما لك لا تردّ عليّ تحيتي؟، فقال: كيف أردّ عليك تحيتك، وقد صبوتَ؟ قال: أو قد فعلتها قريش؟ قال: نعم، قال: فما يُبريء صدورهم إن أنا فعلته؟ قال: تأتيه في مجلسه فتبزق في وجهه، وتشتمه بأخبث ما تعلم مِنْ الشتم، ففعل فلم يردّ رسول الله ﷺ على أَنْ مسح وجهه من البزاق، ثم التفت إليه فقال: «إنْ وجدتك خارجاً من جبال مكة أضرب عنقك صَبْراً»، فلما كان يوم بدر، وخرج أصحابه أبى أَنْ يخرج، فقال له أصحابه: اخرج معنا، قال: وعدني هذا الرجل إنْ وجدني خارجاً مِنْ جبال مكة أن يضرب عنقي صبراً، فقالوا: لك جمل أحمر لا يُدَرك، فلو كانت الهزيمة طِرْتَ عليه، فخرج معهم، فلما هزم الله المشركين، وحمل به جمله في جدود من الأرض، فأخذه رسول الله ﷺ أسيراً في سبعين مِنْ قريش، وقدم إليه أبو مُعيط، فقال: أتقتلني مِنْ بين هؤلاء؟ قال: نعم بما بزقت في وجهي، فأنزل الله في أبي مُعيط ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾».

وأخرج أبو نُعيم(١) هذه القصة من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وذكر: أن خليل أبي معيط، هو أُبيّ بن خلف.

وأخرج ابن مردويه(٢) عن ابن عباس أيضاً في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قال: أبيّ بن خلف، وعقبة بن أبي مُعيط، وهما الخليلان في جهنّم.

وأخرج ابن مردويه(٢) عنه أيضاً في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال: كان عدوّ النبيّ ﷺ أبو جهل، وعدوّ موسى قارون، وكان قارون ابن عمّ موسى.

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس(٣) قال: قال المشركون: لو كان محمَّد كما يزعم نبيّاً، فلم يُعذّبه رُبه؟

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» رقم (٤٠١) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٩)، والحاكم (٢/ ٥٣٠)، و«الضياء» رقم (١١٩) من طريق الأشعث، به.

ألا ينزل عليه القرآن جملةً واحدة؟ ينزل عليه الآية والآيتين، والسورة والسورتين، فأنزل الله على نبيه جواب ما قالوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ إلى ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[1] ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ قال: لِنَشْدد به فؤادَك، ونربط على قلبك ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ قال: رسّلناه ترسيلاً، يقول: شيئاً بعد شيء ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة، ثم سألوك لم يكن عنده ما يجيب، ولكنا نمسك عليك، فإذا سألوك أجبت.

[قصص بعض الأمم التي كذبت رسلها]:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: والله لقد آتينا موسىٰ التوراة، ذكر سبحانه طرفاً من قصص الأولين تسليةً له ﷺ بأن تكذيب قوم أنبياء الله لهم عادة للمشركين بالله، وليس ذلك بخاص بمحمد ﷺ، و﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان ويجوز: أن ينصب على القطع، و﴿وَزِيرًا﴾ المفعول الثاني:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٩٠) بسند ضعيف، الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

وقيل: حال، والمفعول الثاني[1] معه، والأوّل أولى.

قال الزجاج[2]: الوزير في اللغة: الذي يُرجع إليه، ويُعمل برأيه، والوزر: ما يعتصم به، ومنه ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١].

وقد تقدّم تفسير الوزير في «طه»، والوزارة[3] لا تنافي النبوة، [٣/٣٢١] فقد كان يُبعث في الزمن الواحد أنبياء، ويُؤمرون بأن يوازر بعضُهم بعضاً. وقد كان هارون في أوّل الأمر وزيراً لموسى، ولاشتراكهما في النبوّة قيل لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، وهم فرعون وقومه، والآيات هي التسع التي تقدم ذكرها.

وإن لم يكونوا قد كذبوا بها عند أمر الله لموسى وهارون بالذهاب بل كان التكذيب بعد ذلك، لكن هذا الماضي بمعنى المستقبل على عادة إخبار الله؛ أي: اذهبا إلى القوم الذين يُكذبون بآياتنا.

وقيل: إنما وصفوا بالتكذيب عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعلة استحقاقهم للعذاب.

وقيل: يجوز أَنْ يراد إلى القوم الذين آل حالهم إلى أن كذبوا.

وقيل: إن المراد بوصفهم بالتكذيب عند الإرسال[4]: أنهم كانوا مكذبين للآيات الإلهية. وليس المراد آيات الرسالة.

قال القشيري[5]: وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] لا ينافي هذا لأنّهما إذا كانا مأمورين، فكل واحد مأمور. ويمكن أن يقال: إن تخصيص موسى بالخطاب في بعض المواطن لكونه الأصل في الرسالة، والجمع بينهما في الخطاب لكونهما مُرسلينِ جميعاً.

﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ في الكلام حذف؛ أي: فذهبا إليهم، فكذّبوهما،

---

(١) «الفريد» (٣/ ٦٣١)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤١).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٧).
(٣) «روح المعاني» (١٩/ ٤١).
(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٤١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٧١).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٠٩).

فدمرناهم؛ أي: أهلكناهم[١] إثر ذلك التكذيب إهلاكاً عظيماً.

وقيل: إنّ المراد بالتدمير هنا: الحكم به؛ لأنّه لم يحصل عقب بعث موسى وهارون إليهم؛ بل بعده بمدّة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ في نصب[٢] ﴿وَقَوْمَ﴾ أقوال: العطف على الهاء، والميم في دمرناهم، أو النصب بفعل محذوف؛ أي: اذْكر، أو بفعل مضمر يفسّره ما بعده، وهو أغرقناهم؛ أي: أغرقنا قومَ نوحٍ أغرقناهم.

وقال الفراء[٣]: هو منصوب بأغرقناهم المذكور بعده من دون تقدير مُضْمر يفسّره ما بعده.

وردّه النحاس[٤]: بأن أغرقنا لا يتعدّى إلى مفعولين حتى يعمل في الضمير المتصل به وفي قوم نوح، ومعنى ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾: أَنّهم كذبوا نوحاً وكذبوا مَنْ قبله من رسل الله.

[من كذّب نبيّاً فقد كذَّب جميع الأنبياء]:

وقال الزجاج[٥]: مَنْ كذّب نبيّاً فقد كذّب جميع الأنبياء، وكان إغراقهم بالطوفان كما تقدّم في «هود» ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾؛ أي: جعلنا إغراقهم، أو قصتهم للناس آيةً؛ أي: عبرةً لكل النّاس على العموم يتعظ بها كل مشاهد لها، وسامع لخبرها.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ المراد بالظالمين: قوم نوح على الخصوص. ويجوز أن يكون المراد: كل مَنْ سلك مسلكهم في التكذيب والعذاب الأليم: هو عذاب الآخرة.

وانتصاب[٦] ﴿عاداً﴾ بالعطف على قوم نوح، وقيل: على محل الظالمين.

وقيل: على مفعول جعلناهم ﴿ثموداً﴾ معطوف على ﴿عاداً﴾.

---

(١) «معالم التنزيل» (٦/ ٨٤)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٢).

(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٤٣)، و«الفريد» (٣/ ٦٣١)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٦).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٩).

(٤) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٦١).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٧ ـ ٦٨).

(٦) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٦١)، و«الفريد» (٣/ ٦٣١)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٤).

وقصة عاد وثمود قد ذُكرتْ فيما سبق ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ الرسّ في كلام العرب: البئر التي تكون غير مطوية، والجمع رساس كذا قال أبو عبيدة[١]، ومنه قول الشاعر[٢]:

وهُـم سَـائـرونَ إلـى أرضِـهـم   تـنـابـلـةٌ يَـحـفـرُونَ الـرِّسَـاسَـا

قال السدّي[٣]: هي بئر بإنطاكية قتلوا فيها حبيباً النجار، فنسبوا إليها، وهو صاحب يسّ الذي ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يَس: ٢٠] وكذا قال مقاتل، وعكرمة، وغيرهما.

وقيل: هم قوم بأذربيجان[٤] قتلوا أنبياءهم، فجفت أشجارُهم وزروعهم، فماتوا جوعاً وعطشاً[٥].

وقيل: كانوا يعبدون الشجر، وقيل: كانوا يعبدون[٦] الأصنام، فأرسل الله إليهم شُعيباً، فكذّبوه، وآذوه.

وقيل: هم قوم أرسل الله إليهم نبيّاً، فأكلوه[٧].

وقيل: هم أصحاب الأخدود[٨].

وقيل: إن الرسّ هي البئر المعطلة التي تقدّم ذكرها، وأصحابها: أهلها.

وقال في «الصحاح»[٩]: والرسّ: اسم بئر كانت لبقية ثمود، وقيل[١٠]: الرسّ: ماء ونخل لبني أسد، وقيل[١٠]: الثلج المتراكم في الجبال.

والرسّ: اسم واد، ومنه قول زهير[١١]:

بَـكَـرْنَ بُـكُـوراً وَاسْـتـحـرَن بـسُـحـرةٍ   فـهُـنّ لـوادِي الـرَّسِّ كـالـيـدِ لـلـفـمِ

والرسّ أيضاً: الإصلاح بين الناس، والإفساد بينهم، فهو: من الأضداد[١٢].

---

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ٧٥).
(٢) البيت للنابغة الجعدي. انظر: «ديوانه» (ص٨٢).
(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٠).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٩٥)، عن ابن عباس.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤١٢).
(٦) «الوسيط» (٣/ ٣٤١)، و«زاد المسير» (٦/ ٩٠).
(٧) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٤٦)، عن الكلبي.
(٨) «معالم التنزيل» (٦/ ٨٤).
(٩) «الصحاح» (٣/ ٩٣٤).
(١٠) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤١٤).
(١١) «ديوان زهير» (ص١٠).
(١٢) «الصحاح» (٣/ ٩٣٤).

وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صَفْوان[١]، وهم الذين ابتلاهم الله بالطائر المعروف بالعنقاء.

﴿وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾ معطوف على ما قبله، والقرون جمع قرن؛ أي: أهل قرون، والقرن: مائة سنة.

وقيل: مائة وعشرون. وقيل: القرن: أربعون سنة، والإشارة بقوله: ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من الأمم.

وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة، ثم يشير إليها بذلك ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾ قال الزجاج[٢]: أي: وأنذرنا كُلًّا ضربنا لهم الأمثال، وبينَّا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثال الباطلة كما يفعله هؤلاء الكفرة، فجعله منصوباً بفعل مضمر يفسره ما بعده؛ لأن حذرنا، وذكرنا، وأنذرنا في معنى: ضَربْنا، ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله، والتنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف، وهو الأمم؛ أي: كل الأمم ضربنا لهم الأمثال.

وأما ﴿وَكُلّٗا﴾ الأخرى: فهي منصوبة[٣] بالفعل الذي بعدها، والتتبير: الإهلاك بالعذاب.

قال الزجّاج[٤]: كل شيء كسرته وفتتته فقد تبرته.

وقال المؤرج[٥]، والأخفش[٥]: معنى ﴿تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾: دمرنا تدميراً أبدلت التاء والباء من الدال والميم.

﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ هذه جملة مستأنفة مبينة لمشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم.

والمعنى: ولقد أَتوا؛ أي: مشركو مكة على قرية قوم لوط التي أُمطرت مطر السوء، وهو الحجارة؛ أي: هلكت بالحجارة التي أمطروا بها، وانتصاب[٦] مطر على المصدرية، أو على أنه مفعول ثانٍ، إذ المعنى: أعطيتها، وأوليتها مطر السوء،

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٨٤). (٢) في «معاني القرآن إعرابه» (٤/ ٦٨).
(٣) «الفريد» (٣/ ٦٣١)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٦). (٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٦٨).
(٥) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤١٥).
(٦) «التبيان» (٢/ ٩٨٦)، و«الفريد» (٣/ ٦٣٢).

أو على أنه نعت مصدر محذوف؛ أي: إمطاراً مثل مطر السوء، وقرأ أبو السّمّأل[١]: «السُوء» بضم السين، وقد تقدّم تفسير السوء في براءة.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ الاستفهام للتقريع[٢] والتوبيخ؛ أي: يرون القرية المذكورة عند سفرهم إلى الشام للتجارة، فإنهم يمرّون بها، والفاء للعطف على مقدّر؛ أي: لم يكونوا ينظرون إليها، فلم يكونوا يرونها.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أضرب[٣] سبحانه عما سبق من عدم رؤيتهم لتلك الآثار إلى عدم رجاء البعث منهم المستلزم لعدم رجائهم للجزاء، ويجوز أن يكون معنى يرجون: يخافون.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾؛ أي: ما يتخذونك إلّا هزواً؛ أي: مهزواً بك، قَصَر معاملتهم له على اتخاذهم إيّاه هزواً، فجواب[٤] «إذا» هو ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ وقيل: الجواب محذوف، وهو: قالوا ﴿أَهَٰذَا الَّذِي﴾ وعلى هذا، فتكون جملة ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ معترضة، والأوّل أولى.

وتكون جملة ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ في محل نصب[٥] على الحال بتقدير القول؛ أي: قائلين أهذا؟ إلخ، وفي اسم الإشارة[٦] دلالة على استحقارهم له، وتهكّمهم به، والعائد محذوف؛ أي: بعثه الله، وانتصاب[٧] ﴿رَسُولًا﴾ على الحال؛ أي: مُرْسَلاً، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره الموصول، وصلته ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾؛ أي: قالوا: إنْ كاد هذا الرسول ليضلّنا: ليصرفنا عن آلهتنا فنترك عبادتها، وإنْ هنا هي المخففة، وضمير الشأن محذوف؛ أي: إنه كاد أن يصرفنا عنها ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾؛ أي: حبسنا أنفسنا على عبادتها.

ثم إنه سبحانه أجاب عليهم، فقال: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ١٠٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٨). القراءة بضم السين شاذة.
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٤٨ ـ ٤٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٧٣).
(٣) «روح المعاني» (١٩/ ٤٩).
(٤) «الفريد» (٣/ ٦٣٢)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٧).
(٥) «روح المعاني» (١٩/ ٥٠)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٧)، و«الفريد» (٣/ ٦٣٢).
(٦) «روح المعاني» (١٩/ ٥٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٧٤).
(٧) «التبيان» (٢/ ٩٨٧)، و«الفريد» (٣/ ٦٣٢).

﴿أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ أي: حينَ يرون عذاب يوم القيامة الذي يستحقونه ويستوجبونه بسبب كفرهم مَنْ هو أضلّ سبيلاً؛ أي: أبعد طريقاً عن الحق والهدى، أهم أم المؤمنون؟

ثم بين لهم سبحانه أنّه لا تمسك لهم فيما ذهبوا إليه سوى التقليد واتباع الهوى، فقال معجباً لرسول الله ﷺ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قدّم المفعول[١] الثاني للعناية كما تقول: علمتُ منطلقاً زيداً؛ أي: أطاع هواه طاعةً كطاعة الإلٰه؛ أي: انظر إليه يا محمد، وتعجّب منه.

قال الحسن[٢]: معنى الآية: لا يهوى شيئاً إلّا اتبعه.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الاستفهام للإنكار[٣] والاستبعاد؛ أي: أفأنت تكون عليه حفيظاً وكفيلاً حتى تردّه إلى الإيمان، وتخرجه مِنْ الكفر؟ ولست تقدر على ذلك ولا تطيقه، فليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك، وإنما عليك البلاغ.

وقد قيل: إنَّ هذه الآية[٤] منسوخة بآية القتال.

ثم انتقل سبحانه من الإنكار الأول إلى إنكار آخر، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أتحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من آيات القرآن، ومن المواعظ؟ أو يعقلون معاني ذلك، ويفهمونه حتى تعتني بشأنهم، وتطمع في إيمانهم؟ وليسوا كذلك؛ بل هم بمنزلة مَنْ لا يسمع ولا يعقل[٥].

ثم بيَّن سبحانه حالهم، وقطع مادّة الطمع فيهم، فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ أي: ما هم في الانتفاع بما يسمعونه إلّا كالبهائم التي هي مسلوبة الفهم والعقل، فلا تطمع فيهم، فإنّ فائدة السمع والعقل مفقودة، وإن كانوا يسمعون ما يقال لهم، ويعقلون ما يتلى عليهم، ولكنهم لما لم ينتفعوا بذلك كانوا كالفاقد له.

---

(١) انظر ذلك مفصلاً: «روح المعاني» (١٩/ ٥٢ ـ ٥٣).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٠) من طريق وكيع، به.
(٣) «روح المعاني» (١٩/ ٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٧٤).
(٤) «الناسخ والمنسوخ» لابن الجوزي (ص٤٢).
(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٦٢)، و«زاد المسير» (٦/ ٩٢).

ثم أضرب سبحانه عن الحكم عليهم بأنهم كالأنعام إلى ما هو فوق ذلك، فقال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ أي: أضل من الأنعام طريقاً.

قال مقاتل[١]: البهائم تعرف ربَّها، وتهتدي إلى مراعيها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء لا ينقادون، ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم.

وقيل: إنما كانوا أضلّ من الأنعام؛ لأنه لا حساب عليها ولا عقاب لها[٢]، [٣/٣٢٢].

وقيل: إنما كانوا أضلّ؛ لأن البهائم إذا لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك، بخلاف هؤلاء فإنهم اعتقدوا البطلان عناداً، ومكابرة، وتعصباً، وغمطاً للحق.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٣] في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا﴾ قال: عوناً وعضداً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ قال: أهلكناهم بالعذاب.

وأخرج ابن جرير[٥] عنه قال: الرسّ: قرية من ثمود.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦] عنه أيضاً قال: الرسّ: بئر بأذربيجان.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن عباس[٧]: أنه سأل كعباً عن أصحاب الرسّ قال: صاحب يسٓ الذي ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] فرسَّه قومه في بئر بالأحجار.

---

(١) ذكره أبو الليث في «تفسيره» (٢/٤٦٢). (٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/٨٧).

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٥٦).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٦٩٣) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٦٩٣) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/٤٥٢) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٦٩٥) بسند حسن.

(٧) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٥٧).

[قصة العبد الأسود وسبقه لدخول الجنة]:

وأخرج ابن إسحاق، وابنُ جرير، عن محمد بن كعب القُرظي[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أوّلَ الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبدُ الأسود، وذلك أن الله بعث نبيّاً إلى أهل قرية، فلم يؤمن به من أهلها أحد إلّا ذلك الأسود، ثم إن أهل القرية غدوا على النبي، فحفروا له بئراً، فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم، فكان ذلك العبد يذهب، فيحتطب على ظهره، ثم يأتي بحطبه، فيبيعه، فيشتري به طعاماً وشراباً، ثم يأتي به إلى تلك البئر، فيرفع تلك الصخرة، فيعينه الله عليها، فيدلي طعامه وشرابه، ثم يردّها كما كانت، فكان كذلك ما شاء الله أن يكون، ثم إنّه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع، فجمع حطبه، وحزم حزمته، وفرغ منها، فلما أراد أن يحملها وجد سِنَة، فاضطجع، فنام، فضرب على أذنه سبع سنين نائماً، ثم إنّه ذهب فتمطى، فتحوّل لشقه الآخر، فاضطجع، فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى، ثم إنه ذهب، فاحتمل حزمته، ولا يحسب إلّا أنه نام ساعة من نهار، فجاء إلى القرية، فباع حزمته، ثم اشترى طعاماً، وشراباً كما كان يصنع، ثم ذهب إلى الحفرة في موضعها الذي كانت فيه، فالتمسه، فلم يجده، وقد كان بدا لقومه فيه بدّ، فاستخرجوه، فآمنوا به، وصدّقوه، وكان النبي يسألهم عَنْ ذلك الأسود ما فعل؟، فيقولون: ما ندري حتى قُبض ذلك النبي، فأهبَّ الله الأسود مِنْ نومته بعد ذلك، إن ذلك الأسود لأوّل من يدخل الجنة». قال ابن كثير في «تفسيره»[2] بعد إخراجه: وفيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدراجاً. انتهى. الحديث أيضاً مُرْسل.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٥٤، ٤٥٥) مرسلاً بسند ضعيف.
قال ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٧): هكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد، عن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب مرسلاً، وفيه غرابة نكارة ولعل فيه إدراجاً، والله أعلم.
وقال ابن جرير: غير أن هؤلاء في هذا الخبر يذكر محمد بن كعب عن النبي ﷺ أنهم آمنوا بنبيِّهم، واستخرجوه من حفرته، فلا ينبغي أن يكونوا المعنيِّين بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ لأن الله أخبر عن أصحاب الرَّس أنّه دمَّرهم تدميراً، إلا أن يكونوا دُمِّروا بأحداث أحدثوها بعد نبيِّهم الذي استخرجوه من الحفرة وآمنوا به، فيكون ذلك وجهاً.

(٢) في «تفسيره» (١٠/ ٣٠٧) وقد تقدم نصه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن زرارة بن أوفى[١] قال: القرن مائة وعشرون عاماً.

وأخرج هؤلاء[٢] عن قتادة قال: القرن: سبعون سنة.

وأخرج ابن مردويه[٣] عن أبي سلمة قال: القرن: مائة سنة. وقد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ: أنه قال: «القرن مائة سنة»، وقال: «القرن خمسون سنة»، وقال: «القرن أربعون سنة».

وما أظنه يصح شيء مِنْ ذلك، وقد سُمّى الجماعة من الناس قرناً كما في الحديث الصحيح[٤]: «خير القرون قرني».

وأخرج الحاكم في الكنى عن ابن عباس[٥] قال: كان رسول الله ﷺ إذا انتهى إلى معدّ بن عدنان أمسك، ثم يقول: «كذب النسابون». قال الله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾.

وأخرج ابن المنذر[٦] عن ابن عباس ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ قال: هي سدوم قرية لوط. ﴿الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ قال: الحجارة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٧] في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ قال: كان الرجل يعبد الحجر الأبيض زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وجد حجراً أحسن منه رمى به، وعبد الآخر، فأنزل الله الآية.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٥٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٩٦) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٩٦) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٨).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٨)، والبخاري رقم (٢٦٥٢)، وابن ماجه رقم (٢٣١٢) كلهم من حديث عبد الله بن مسعود.
قال ابن كثير: والظاهر أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل: فهم قرن آخر.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٩).
• قال الألباني رحمه الله في «الضعيفة» رقم (١١١): موضوع.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٠).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٩٩) من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني، به.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم[١] في الآية قال: ذلك الكافر لا يهوى شيئاً إلّا اتبعه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾
ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ
ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾
فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ
وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

لما فرغ سبحانه من ذكر جهالة الجاهلين وضلالتهم أتبعه بذكر طرف من دلائل التوحيد مع ما فيها مِنْ عظيم الإنْعام، فأوّلها الاستدلال بأحوال الظل، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ هذه الرؤية إما بصرية، والمراد بها: ألم تبصر إلى صنع ربك؟ أو ألم تبصر إلى الظل كيف مدّه ربك؟ وإما قلبية بمعنى: العلم، فإن الظل متغير، وكل متغير حادث، ولكل حادث مُوجِد.

قال الزجاج[٢]: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم؟ وهذا من رؤية القلب. قال: وهذا الكلام على القلب، والتقدير: ألم تر إلى الظلّ كيف مدّه ربك؟ يعني: الظل من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس، وهو ظل لا شمس معه، وبه قال الحسن[٣]، وقتادة[٤].

وقيل[٥]: هو من غيبوبة الشمس إلى طلوعها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٠) عن ابن عباس بسند صحيح.
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٠).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤١٩).
(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧٠) بسند صحيح.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤١٩).

قال أبو عبيدة[(١)]: الظل بالغداة، والفيء بالعشي؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس، سمي فيئاً لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب.

قال حميد بن ثور[(٢)] يصف سرحة، وكنى بها عن امرأة:

فلا الظّلّ من بَرِدْ الضّحى تستطيعه ولا الفيءَ من بَرْد العَشي تذوقُ

وقال ابن السِّكّيت[(٣)]: الظل: ما نسخته الشمس، والفيء: ما نسخ الشمس. وحكى أبو عُبيدة[(٤)] عن رؤبة قال: كل ما كانت عليه الشمس، فزالت عنه، فهو فيء وظلّ، وما لم تكن عليه الشمس، فهو ظلّ. انتهى.

وحقيقة الظلّ[(٥)]: أنه أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهذا التوسط هو أعدل من الطرفين؛ لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع، وينفر عنها الحسّ، والضوء الكامل لقوّته يبهر الحسّ البصري، ويؤذي بالتسخين، ولذلك وصفت الجنة به بقوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وجملة ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ معترضة[(٦)] بين المعطوف والمعطوف عليه؛ أي: لو شاء الله سبحانه سكونه لجعله ساكناً ثابتاً دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس. وقيل: المعنى: لو شاء لمنعَ الشمسَ الطلوعَ، والأول أولى.

والتعبير بالسكون عن الإقامة، والاستقرار سائغ، ومنه قولهم: سكن فلان بلد كذا: إذا أقام به واستقرّ فيه.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ معطوف على قوله: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ داخل في حكمه؛ أي: جعلناها[(٧)] علامة يستدل بها بأحوالها على أحواله، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٨٦).
(٢) انظر: «ديوان حميد بن ثور» (ص٤٠).
(٣) ذكره الجوهري في «الصحاح» (١/ ٦٤).
(٤) ذكره الجوهري في «الصحاح» (١/ ٦٤).
(٥) «تفسير الرازي» (٢٤/ ٨٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ٥٩ ـ ٦٠).
(٦) «روح المعاني» (١٩/ ٦٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٧٧).
(٧) «معالم التنزيل» (٦/ ٨٦).

وينقص، ويمتد ويتقلص، وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ معطوف أيضاً على ﴿مَدَّ﴾ داخل في حكمه.

والمعنى: ثم قبضنا ذلك الظلّ الممدود، ومحوناه عند إيقاع شعاع الشمس موقعه بالتدريج حتى انتهى ذلك الإظلال إلى العدم والاضمحلال.

وقيل: المراد في الآية: قبضه[١] عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام النيرة. والأوّل أولى.

والمعنى: أن الظلّ[٢] يبقى في هذا الجوّ مِنْ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضاً، وخلّفه في هذا الجوّ شعاع الشمس، فأشرقت على الأرض، وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت، فليس هناك ظلّ، إنما فيه بقية نور النهار.

وقال قوم: قبضه بغروب الشمس؛ لأنها إذا لم تغرب، فالظلّ فيه بقية، وإنما يتمّ زواله بمجيء الليل، ودخول الظلمة عليه.

وقيل: المعنى: ثم قبضنا ضياء الشمس بالفيء ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾، ومعنى ﴿إِلَيْنَا﴾: أن مرجعه إليه سبحانه كما أن حدوثه منه قبضاً يسيراً؛ أي: على تدريج[٣] قليلاً قليلاً بقدر ارتفاع الشمس، وقيل: يسيراً سريعاً، وقيل: المعنى: يسيراً علينا؛ أي: يسيراً قبضه علينا ليس بعسير.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر.

قال ابن جرير[٤]: وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث أنه يستر الأشياء، ويغشاها.

واللام متعلقة بجعل ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾؛ أي: وجعل النوم سباتاً؛ أي: راحة لكم؛ لأنكم تنقطعون عن الاشتغال.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٦٤)، و«تفسير الرازي» (٢٤/ ٨٩).
(٢) «تفسير الرازي» (٢٤/ ٨٩ ـ ٩٠).
(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٩/ ٢٣).
(٤) في «جامع البيان» (١٧/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦).

وأصل السبات[١]: التمدد، يقال: سبتت المرأة شعرها؛ أي: نقضته، وأرسلته، ورجل مسبوت؛ أي: ممدود الخِلْقة.

وقيل: للنوم سبات[٢]؛ لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت القطع، فالنوم انقطاع عن الاشتغال، ومنه: سبت اليهود لانقطاعهم عن الاشتغال.

قال الزجاج[٣]: السبات النوم، وهو أن ينقطع عن الحركة، والروح في بدنه؛ أي: جعلنا نومكم راحة لكم.

وقال الخليل[٤]: السبات نوم ثقيل؛ أي: جعلنا نومكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾؛ أي: زمان بعثٍ من ذلك [٣/٣٢٣] السُبات، شبّه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات الشبيه بالممات.

وقال في «الكشاف»[٥]: إن السبات: الموت، واستدل على ذلك بكون النشور في مقابلته.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قُرئ «الريح»[٦]، وقُرئ «بُشْراً» بالباء[٧] الموحدة، وبالنون[٨].

وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في الأعراف ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾؛ أي: يتطهر به كما يقال: وَضوء للماء الذي يُتوضأ به.

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٩٢)، و«الصحاح» (١/ ٢٥٠)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٣٥٨).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٢).

(٤) في كتاب «العين» (ص٤٠٤).

(٥) الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٥٤).

(٦) «النشر» (٢/ ٢٢٣)، و«التيسير» (ص٧٨)، و«مجمع البيان» (١٩/ ١٠٨). وهي قراءة ابن كثير بالإفراد، وقرأ الباقون بالجمع (الرياح) في كلمة (بشراً) أربع قراءات متواتر، **الأولى**: بالباء الموحدة، وسكون الشين وهي لعاصم. **الثانية**: بضم النون وسكون الشين وهي لابن عامر وهي بضم النون (نُشْراً). **الثالثة**: بالنون المفتوحة وسكون الشين وهي للكوفيين عدا عاصماً. **الرابعة**: بالنون المضمومة والشين المضمومة وهي لبقية العشرة.

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) «روح المعاني» (١٩/ ٦٧)، و«التيسير» (ص١١٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات».

[الطاهر والطهور]:

قال الأزهري[(١)]: الطهور في اللغة الطاهر المُطِّهر، والطهور ما يتطهر به. قال ابن الأنباري[(٢)]: الطَهور بفتح الطاء: الاسم، وكذلك الوَضوء، والوَقود، وبالضم المصدر، هذا هو المعروف في اللغة.

وقد ذهب الجمهور[(٣)] إلى أنَّ الطهور: هو الطاهر المُطِّهر، ويؤيد ذلك كونه بناء مبالغة.

وروي عَنْ أبي حنيفة أنه قال: الطهور هو الطاهر، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]؛ يعني: طاهراً، ومنه قول الشاعر:

خَليليّ هَلْ في نظرةٍ بعد توبةٍ ... أُداوي بها قَلْبي عليّ فجُورُ
إلى رُجَّح الأكفالِ غِيدٍ من الظَّبي ... عِذَابِ الثَّنايا رِيقهُنّ طَهُورُ[(٤)]

فوصف الريق بأنّه طهور، وليس بمطهِّر، ورجح القول الأوّل ثعلب، وهو راجح لما تقدّم مِنْ حكاية الأزهري[(١)] لذلك عن أهل اللغة.

وأما وصف الشاعر للريق بأنه طهور، فهو على طريق المبالغة، وعلى كل حال، فقد ورد الشرع بأنّ الماء طاهر في نفسه مُطهِّرٌ لغيره، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١] وقال النبي ﷺ: «خُلق الماء طهوراً»[(٥)].

ثم ذكر سبحانه علة الإنزال، فقال: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالماء المنزل من السماء بَلدةً ﴿مَّيْتًا﴾ وصف البلدة بميت، وهي صفة للمذكر؛ لأنها بمعنى البلد.

وقال الزجاج[(٦)]: أراد بالبلد المكان، والمراد بالإحياء هنا إخراج النبات من

---

(١) في «تهذيب اللغة» (٦/ ١٧٠).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٢٢).
(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤٠٤).
(٤) انظر: «الأمالي» لأبي علي القالي (١/ ١٨٢).
(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣١)، وأبو داود رقم (٦٧)، والترمذي رقم (٦٦) وقال: حديث حسن. وهو حديث صحيح.
(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧١).

المكان الذي لا نبات فيه ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾؛ أي: بسقي ذلك الماء.

قرأ أبو عمرو، وعاصم في رواية عنهما، وأبو حيان، وابن أبي عبلة بفتح النون[١] من: «نَسقيه»، وقرأ الباقون بضمها[٢].

و«من» في: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ﴾ للابتداء، وهي متعلقة بنسقيه، ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنّه حال، والأنعام قد تقدّم الكلام عليها، والأناسيّ جمع إنسان على ما ذهب إليه سيبويه[٣].

وقال الفراء[٤]، والمبرّد[٥]، والزجاج[٦]: إنه جمع إنسيّ، وللفراء[٧] قول آخر: إنه جمع إنسان، والأصل: أناسين مثل سرحان، وسراحين، وبستان، وبساتين، فجعلوا الياء عوضاً من النون.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ ضمير ﴿صَرَّفْنَـٰهُ﴾ ذهب الجمهور إلى أنه راجع إلى ما ذُكر من الدلائل؛ أي: كرّرنا أحوال الإظلال، وذكر إنشاء السحاب، وإنزال المطر في القرآن، وفي سائر الكتب السماوية، ليتفكروا ويعتبروا **(فأبى أكثرُهم)** إلّا كفران النعمة وجحدها.

وقال آخرون[٨]: إنه يرجع إلى أقرب المذكورات، وهو المطر؛ أي: صرفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة، فنزيد منه في بعض البلدان، وننقص في بعض آخر منها.

وقيل: الضمير راجع إلى القرآن، وقد جرى[٩] ذكره في أوّل السورة حيث قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٩]، وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ١١٨). القراءة المتواترة بضم النون، أم الفتح فقراءة شاذة، وروايتها عن عاصم وأبي عمرو شاذة.

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ١١٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٤٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ٧١)، و«زاد المسير» (٦/ ٩٤).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٧١).

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٦٩).

(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٦٣).

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧١).

(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٠).

(٨) «روح المعاني» (١٩/ ٧٢ ـ ٧٣).

(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٤٧).

والمعنى: ولقد كرّرنا هذا القرآن بإنزال آياته بين الناس؛ ليذكروا به، ويعتبروا بما فيه، فأبى أكثرهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ به.

وقيل: هو راجع إلى الريح، وعلى رجوع الضمير إلى المطر؛ فقد اختلف في معناه[١]، فقيل: ما ذكرناه.

وقيل: صرفناه بينهم وابلاً وَطشْاً وطَلاً ورَذاذاً.

وقيل: تصريفه تنويع الإنتفاع به في الشرب، والسقي، والزراعات به، والطهارات.

قال عكرمة[٢]: إن المراد بقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ هو قولهم: في الأنواء مُطرنا بنوء كذا.

قال النحاس[٣]: ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافاً أن الكفر هنا قولهم: مُطرنا بنوء كذا.

وقرأ عكرمة: «صَرَفْنَاه»[٤] مخففاً.

وقرأ الباقون بالتثقيل[٥].

وقرأ حمزة، والكسائي: «ليذْكروا» مخففة[٦] الذال من الذكر.

وقرأ الباقون بالتثقيل[٧] من التذكر.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾؛ أي: رسولاً ينذرهم كما قسمنا المطر بينهم، ولكنا لم نفعل ذلك بل جعلنا[٨] نذيراً واحداً، وهو أنت يا محمد، فقابل ذلك بشكر النعمة.

---

(١) «النكت والعيون» (٤/ ١٤٩).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٦٩) من طريق ابن جريج، به.

(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٦٣ ـ ١٦٤).

(٤) «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٤٧)، و«زاد المسير» (٦/ ٩٥)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧)، و«التيسير» (ص١٦٤).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة. القراءة بالتثقيل هي المتواترة، أما التخفيف فشاذة.

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٤٩)، و«التيسير» (ص١٦٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٤٧).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٤٩).

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم؛ بل اجتهد في الدعوة، واثبتْ فيها. والضمير في قوله: ﴿وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ راجع إلى القرآن[١]؛ أي: جاهدهم بالقرآن، واتلُ عليهم ما فيه من القوارع، والزواجر، والأوامر، والنواهي.

وقيل: الضمير يرجع إلى الإسلام[٢]، وقيل: بالسيف[٣]، والأوّل أولى.

وهذه السورة مكية، والأمر بالقتال إنما كان بعد الهجرة.

وقيل: الضمير راجع إلى ترك الطاعة المفهوم من قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وقيل: الضمير يرجع إلى ما دل عليه قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ لأنه سبحانه لو بعث[٤] في كل قرية نذيراً لم يكن على كل نذير إلا مجاهدة القرية التي أرسل إليها، وحين اقتصر على نذير واحد لكل القرى، وهو محمد ﷺ، فلا جرم اجتمع عليه كل المجاهدات، فكبر جهاده وعَظُم، وصار جامعاً لكل مجاهدة، ولا يخفى ما في هذين الوجهين مِنْ البُعد.

ثم ذكر سبحانه دليلاً رابعاً على التوحيد، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ مرج: خلّى وخلط وأرسل، يقال: مرجت الدابة، وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى، وخليتها تذهب حيث تشاء.

قال مجاهد[٥]: أرسلهما وأفاض أحدهما إلى الآخر.

وقال ابن عرفة[٦]: خلطهما، فهما يلتقيان، يقال: مرجته: إذا خلطته، ومرج

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٧٠)، عن ابن عباس، بسند ضعيف، ابن جريج لم يسمع من ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٧٠ ـ ٤٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٧)، عن ابن زيد، بسند صحيح.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٥٠) وقال: وهذا فيه بعدٌ؛ لأنّ السورة مكية، ونزلت قبل الأمر بالقتال.

(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٧٣).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٧) بسند صحيح.

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٥٠).

الدين والأمر: اختلط واضطرب، ومنه قوله: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [قٓ: ٥].

وقال الأزهري(١): ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ خلى بينهما، يقال: مرجت الدابةْ: إذا خليتها ترعى.

وقال ثعلب(٢): المرْجُ: الإجراء، فقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي: أجراهما.

قال الأخفش(٣): ويقول قوم: أمرج البحرين مثل مرج، فعل وأفعل بمعنى:

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ الفرات البليغ العذوبة، وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر؛ كأنه قيل: كيف مرجهما؟، فقيل: هذا عذب، وهذا ملح، ويجوز أن يكون في محل نصب(٤) على الحال.

قيل: سُمى الماء الحلو فراتاً؛ لأنه يفرت(٥) العطش؛ أي: يقطعه، ويكسره ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾؛ أي: بليغ الملوحة، هذا معنى الأجاج.

وقيل: الأجاج(٦): البليغ في الحرارة، وقيل: البليغ في المرارة(٧)، وقرأ طلحة «مَلِحٌ» بفتح الميم(٨) وكسر اللام.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ البرزخ: الحاجز والحائل الذي جعله الله بينهما من قدرته يفصل بينهما، ويمنعهما التمارج، ومعنى ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: ستراً مستوراً يمنع أحدهما مِنْ الاختلاط بالآخر، فالبرزخ: الحاجز، والحجز: المانع.

---

(١) في «تهذيب اللغة» (١١/ ٧٣).
(٢) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١١/ ٧٣).
(٣) ذكره الجوهري في «الصحاح» (١/ ٣٤١).
(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٧٦)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٨).
(٥) «روح المعاني» (١٩/ ٧٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٨١).
(٦) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٥١)، عن ابن بحر.
(٧) قاله قتادة كما في «النكت والعيون» (٤/ ١٥١).
وقال الراغب في «مفرادته» (ص٦٤): هو شديد الملوحة والحرارة من قولهم: أجيج النار. وأجَّتُها.
(٨) «القراءات الشاذة» (ص١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٤). وهي قراءة شاذة.

وقيل: معنى ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: هو ما تقدّم من أنها كلمة يقولها المتعوّذ؛ كأن كل واحد من البحرين[1] يتعوّذ من صاحبه، ويقول له هذا القول، وقيل: حدًّا محدوداً.

وقيل: المراد من البحر العذب: الأنهار[2] العظام كالنيل، والفرات، وجيحون، ومِنْ البحر الأجاج: البحار المشهورة، والبرزخ بينهما: الحائل من الأرض.

وقيل: معنى ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: حراماً مُحَرَّماً أن يعذُب هذا المالح بالعذب، أو يملح هذا العذب بالمالح، ومثل هذه الآية قوله سبحانه في سورة الرحمٰن: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٩، ٢٠].

ثم ذكر سبحانه حالة من أحوال خلق الإنسان والماء، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، والمراد بالماء هنا: ماء النطفة؛ أي: خلق من ماء النطفة إنساناً، فجعله نَسَباً وصِهْراً، وقيل: المراد بالماء: الماء المطلق الذي يراد في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

والمراد بالنسب: هو الذي لا يحلّ نكاحه.

قال الفراء[3]، والزجاج[4]: واشتقاق الصهر من صهرت الشيء: إذا خلطته، وسميت المناكح صِهْراً لاختلاط الناس بها.

وقيل: الصهر: قرابة النّكاح؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء، والأصهار تعمهما، قاله الأصمعي[5].

قال الواحدي[6]: قال المفسّرون: النسب سبعة أصناف من القرابة يجمعها قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ومن هنا إلى قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] تحريم بالصهر، وهو الخلطة التي تشبه القرابة، حرّم الله سبعة أصناف مِنْ النسب، وسبعة من جهة

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٩/ ٧٨).
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٧٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ١١٩ ـ ١٢٠).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٠). (٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٢).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٥٣)، والنحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٣٩).
(٦) في «الوسيط» (٣/ ٣٤٣).

الصهر، قد اشتملت الآية المذكورة على ستة منها، والسابعة قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٢].

وقد جعل ابنُ عطية[١] والزجّاج[٢] وغيرهما الرضاع من جملة النسب، ويُؤيده قولُه: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[٣]. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾؛ أي: بليغ القدرة عظيمها، ومِنْ جملة قدرته الباهرة خلق الإنسان، وتقسيمه إلى القسمين المذكورين.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ قال: بعد الفجر قبل أن تطلع الشمس.

وأخرَج ابنُ أبي حاتم[٥] عنه بلفظ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أنّك إذا صليت الفجر كان بين مطلع [٤/ ٣٢٤] الشمس إلى مغربها ظلّاً؟ ثم بعث الله عليه الشمس دليلاً، فقبض الظلّ.

وأخرَج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٦] أيضاً في الآية قال: مدّ الظلّ ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ قال: دائماً ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ يقول: طلوع الشمس ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ قال: سريعاً.

[حديث الوضوء من بئر بضاعة]:

وأخرج أهل السنن، وأحمد، وغيرهم من حديث أبي سعيد[٧] قال: «قيل: يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة؟، وهي بئر يلقى فيها الحِيَض، ولحوم الكلاب، والنّتْن، فقال: إنّ الماء طهور لا ينجسه شيء». وفي إسناد هذا الحديث كلام طويل قد استوفيناه في شرحنا على المنتقي[٨].

---

(١) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٣١ ـ ٣٢). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٥)، و«البخاري» رقم (٥١٠٠)، ومسلم رقم (١٢/ ١٤٤٧) من حديث ابن عباس.

(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦١).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٧٠١) من طريق ابن وهب، به.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦١).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٧٠١) بسند صحيح.

(٧) تقدم تخريجه. وهو حديث صحيح.

(٨) في «نيل الأوطار» (١/ ١٨٥ ـ ١٨٧)، ط. ابن الجوزي.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس[(١)] قال: ما من عام بأقلّ مطراً من عام، ولكن الله يصرفه حيثُ يشاء، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس[(٢)] في قوله: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ قال: بالقرآن.

وأخرج ابن جرير[(٣)] عنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾؛ يعني: خلط أحدهما على الآخر، فليس يفسد العذب المالح، وليس يُفسد المالح العذب.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)] عنه أيضاً في قوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يقول: حجر أحدهما عن الآخر بأمره وقضائه.

وأخرج عبد بن حميد، عن عبد الله بن المغيرة[(٥)] قال: سئل عمر بن الخطاب عن ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾، فقال: ما أراكم إلا وقد عرفتم النسب، وأما الصهر: فالأختان والصحابة.

[من قبائح الكفار]:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٦)، والحاكم (٢/ ٤٠٣)، والبيهقي (٣/ ٣٦٣) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٧٠) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٧٣) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠٩) بسند ضعيف.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٦).

يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

لما ذكر سبحانه دلائل التوحيد عاد إلى ذكر قبائح الكفار، وفضائح سيرتهم، فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إنْ عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوه ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ الظهير المظاهر؛ أي: المعاون على ربِّه بالشرك والعداوة، والمُظاهرة على الربّ هي المظاهرة على رسوله، أو على دينه.

قال الزجّاج[١]: لأنّه يتابع الشيطان، ويعاونه على معصية الله؛ لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان. وقال أبو عَبيدة[٢]: المعنى: وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً، مِنْ قول العرب ظهرت[٣] به؛ أي: جعلته خلف ظهرك لم تلتفت إليه، ومنه قوله: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢]؛ أي: هيّناً، ومنه أيضاً قول الفرزدق[٤]:

تَميمُ بنُ بدرٍ لَا تكُونَنّ حَاجتي ... بظَهْرٍ فَلَا يَعْيَا عَلَيَّ جَوابُها[٥]

وقيل: إنّ المعنى: وكان الكافر[٦] على ربِّه الذي يعبده، وهو الصنم قوياً غالباً يعمل به ما يشاء؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ونفع، ويجوز أن يكون الظهير جمعاً كقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

والمعنى: أن بعض الكفرة مظاهر لبعضٍ على رسول الله، أو على دين، والمراد بالكافر هنا: الجنس، ولا ينافيه كون سبب النزول هو كافر معين كما قيل:

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٣). (٢) في «مجاز القرآن» (٢/ ٧٧).
(٣) «معالم التنزيل» (٣/ ٣٧٣)، و«زاد المسير» (٦/ ٩٧).
(٤) انظره في: «ديوان الفرزدق» (١/ ٨٦).
(٥) والذي في الديوان برواية:
تميمَ بن زيدٍ لا تهونَنَّ حاجتي ... لديك ولا يعيا عليَّ جوابها
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٥٦).

إنه أبو جهل[(١)].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾؛ أي: مبشراً للمؤمنين بالجنة، ومنذراً للكافرين بالنار ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: قل لهم يا محمد: ما أسألكم على القرآن مِنْ أجر، أو على تبليغ الرسالة المدلول عليه بالإرسال.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ منقطع[(٢)]؛ أي: لكن مَنْ شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليفعل، وقيل: هو متصل[(٣)].

والمعنى: إلّا مَنْ شاء أن يتقرّب إليه سبحانه بالطاعة، وصور ذلك بصورة الأجر مِنْ حيث أنه مقصود الحصول.

ولما بيَّن سبحانه أن الكفار متظاهرون على رسول الله، وأمره أن لا يطلب منهم أجراً البتة، أمره أَنْ يتوكل عليه في دفع المضارّ، وجلب المنافع، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وخصّ صفة الحياة إشارة إلى أن الحيّ هو الذي يوثق به في المصالح، ولا حياة على الدوام إلّا لله سبحانه دون الأحياء المنقطعة حياتهم، فإنهم إذا ماتوا ضاع من يتوكل عليهم.

والتوكل: اعتماد القلب على الله في كلّ الأمور[(٤)] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾؛ أي: نزّهه عَنْ صفات النقصان.

وقيل: معنى سبح: صلّ، والصلاة تُسمّى تسبيحاً.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾؛ أي: حسبك، وهذه كلمة يراد بها المبالغة كقولك: كفى بالله ربّاً، والخبير: المطلع على الأمور بحيث لا يخفى عليه منها شيء.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٨٢).

(٢) وذلك عند الجمهور.
«روح المعاني» (١٩/ ٨٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٢٢)، و«الفريد» (٣/ ٦٣٦)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٨).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) وأنَّ الأسباب وسائط أمرَ بها من غير اعتماد عليها.
«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٥٧).

ثم زاد في المبالغة، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد تقدّم تفسير هذا في الأعراف، والموصول في محل[١] جرّ على أنه صفة للحيّ، وقال: بينهما، ولم يقل: بينهنّ؛ لأنه أراد النوعين، كما قال القطامي[٢]:

ألم يَحزُنْك أنَّ جبالَ قَيْسٍ ... وتَغْلِبَ قد تَبَاينتا انقِطاعا

فإنْ قيل: يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السماوات، والأرض كما تفيده ثم، فيقال: إن كلمة ثم لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السمٰوات والأرض، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مرفوع على أنه خبر[٣] مبتدأ محذوف، وهو صفة أخرى للحيّ.

وقد قرأه الجمهور[٤] بالرفع.

وقيل: يجوز أن يكون بدلاً من الضمير[٥] في استوى، أو يكون مبتدأ وخبره الجملة؛ أي: فاسأل على رأي الأخفش[٦]، كما في قول الشاعر:

وقائلةٍ خَوْلانُ فانكِح فتاتَهم[٧]

وقرأ زيد بن علي: «الرحمٰنِ» بالجرّ[٨] على أنه نعت للحيّ، أو للموصول ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ الضمير في «به» يعود إلى ما ذُكر من خلق السماوات والأرض، والاستواء على العرش.

والمعنى: فاسأل بتفاصيل ما ذُكر إجمالاً من هذه الأمور.

وقال الزجاج[٩]، والأخفش[١٠]: الباء بمعنى عن؛ أي: فاسأل عنه؛ كقوله:

---

(١) «التبيان» (٢/ ٩٨٩)، و«الفريد» (٣/ ٦٣٧). (٢) انظر: «ديوانه» (ص٣٢).

(٣) «روح المعاني» (١٩/ ٨٦)، و«الفريد» (٣/ ٦٣٧)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٩).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ١١٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٨٦)، و«التبيان» (٢/ ٩٨٩).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ١١٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٨٦).

(٧) وعجزه:

وأكرومة الحيين خِلْوٌ كما هيا

«خزانة الأدب» (١/ ٤٥٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١١٥).

(٨) «البحر المحيط» (٨/ ١٢٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٨٦). هي قراءة شاذة.

(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٣).

(١٠) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١١٥).

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وقول عنترة بن شداد(١):

هَلَّا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ   إنْ كنتِ جَاهِلةً بما لَمْ تعلمِ

وقال امرؤ القيس(٢):

فإنْ تسألُونِي بالنِّساءِ فإنَّني   خَبيرٌ بأدواءِ النِّساءِ طَبيبُ

والمراد بالخبير: الله سبحانه؛ لأنّه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلّا هو، ومن هذا قول العرب: لو لقيت فلاناً للقيك به الأسد؛ أي: للقيك بلقائك إيّاه الأسد، فخبيراً منتصب(٣) على المفعولية، أو على الحال المؤكدة، واستضعف الحالية أبو البقاء(٤)، فقال: يضعف أن يكون ﴿خَبِيرًا﴾ حالاً مِنْ فاعل اسأل؛ لأن الخبير لا يسأل إلّا على جهة التوكيد؛ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١] قال: ويجوز أن يكون حالاً من الرحمٰن إذا رفعته باستوى.

وقال ابن جرير(٥): يجوز أن تكون الباء في (به) زائدة. والمعنى: فاسأله حال كونه خبيراً.

وقيل: قوله: (به) يجري مجرى القسم كقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١]، والوجه الأوّل أقرب هذه الوجوه.

ثم أخبر سبحانه عنهم بأنهم جهلوا معنى الرحمٰن فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال المفسّرون(٦): إنهم قالوا ما نعرف الرحمٰن إلّا رحمٰن اليمامة، يعنون مسيلمة.

قال الزجاج(٧): الرحمٰن: اسم من أسماء الله، فلما سمعوه أنكروا، فقالوا:

---

(١) انظر: «ديوان عنترة» (ص٢٥).

(٢) بل هو لعلقمة بن عَبَدَة.
«أدب الكاتب» (ص٥٠٨)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص٤٢٧).

(٣) «الفريد» (٣/ ٦٣٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ٨٨ ـ ٨٩).

(٤) في «التبيان» (٢/ ٩٨٩)، و«الإملاء» (٤/ ١٠٣).

(٥) في «جامع البيان» (١٧/ ٤٨٢).

(٦) «روح المعاني» (١٩/ ٨٩)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٩٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٥٩).

(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٣).

وما الرحمٰن ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، والاستفهام[١] للإنكار؛ أي: لا نسجد للرحمٰن الذي تأمرنا بالسجود له، ومَنْ قرأ بالتحتية، فالمعنى: أنسجد لما يأمرنا محمد بالسجود له؟

وقد قرأ المدنيون، والبصريون ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ بالفوقية[٢]، واختار هذه القراءة أبو عبيد[٣]، وأبو حاتم[٤]، وقرأ الأعمش، وحمزة، والكسائي بالتحتية[٥]. قال أبو عُبيد[٦]: يعنون الرحمٰن.

قال النحاس[٧]: وليس يجب أَنْ يتأوّل على الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد، ولكن الأولى: أن يكون التأويل لهم: اسجدوا لما يأمرنا النبيّ ﷺ، فتصح القراءة على هذا، وإنْ كانت الأولى أبين.

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾؛ أي: زادهم الأمر بالسجود نفوراً عن الدين، وبُعداً عنه، وقيل: زادهم ذكر الرحمٰن تباعداً مِنْ الإيمان، كذا قال مقاتل[٨]، والأوّل أولى.

ثم ذكر سبحانه ما لو تفكّروا فيه لعرفوا وجوبَ السجود للرحمٰن، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ المراد بالبروج بروج النجوم؛ أي: منازلها الاثنا عشر.

وقيل: هي النّجوم الكبار، والأوّل أولى.

وسميت بروجاً، وهي القصور العالية؛ لأنها للكواكب كالمنازل الرفيعة لمن يسكنها، واشتقاق البرج مِنْ التبرج[٩]، وهو الظهور.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾؛ أي: شمساً، ومثله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

---

(١) «الوسيط» (٣/ ٣٤٤)، و«روح المعاني» (١٩/ ٩٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٧٣).
(٢) «التيسير» (ص١٦٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ١١٦)، و«زاد المسير» (٦/ ٩٩)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٨١ ـ ٤٨٢). وكذلك قرأ بالفوقية مِنْ كلمة (تأمرنا) ابن كثير، وابن عامر، وعاصم.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٦٠).
(٤) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ١١٦ ـ ١١٧).
(٥) «جامع البيان» (١٧/ ٤٨٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ١١٦)، و«التيسير» (ص١٦٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤).
(٦) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ١١٦).
(٧) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٦٦).
(٨) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٤).
(٩) «روح المعاني» (١٩/ ٩١)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص١١٥).

[نوح: ١٦] قرأ الجمهور[١]: ﴿سِرَاجًا﴾ بالإفراد.

وقرأ حمزة، والكسائي «سُرُجاً»[٢] بالجمع؛ أي: النجوم العظام الوقّادة، ورجّح القراءة الأولى أبو عُبيد[٣].

قال الزجاج[٤]: في تأويل قراءة حمزة، والكسائي أراد الشمس والكواكب ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾؛ أي: ينير الأرض إذا طلع، وقرأ الأعمش «قُمْراً» بضم القاف[٥]، وإسكان الميم، وهي قراءة ضعيفة شاذة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال أبو عُبيدة[٦]: الخِلْفة كلّ شيء بعد شيء: الليل خِلْفة للنهار، والنهار خلفة لليل؛ لأن أحدهما يخلف الآخر، ويأتي بعده؛ ومنه خِلْفة النبات، وهو: ورق يخرج بعد الورق الأول في الصيف، ومنه قول زُهير بن أبي سلمى[٧]:

بِهَا العِيْنُ والآرامُ يَمْشينَ خِلْفةً وأَطْلاؤُها يَنهضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

قال الفراء[٨] في تفسير الآية: يقول: [٣/٣٢٥] يذهب هذا، ويجيء هذا، وقال مجاهد[٩]: خِلْفةً مِنْ الخلاف، هذا أبيض، وهذا أسود.

وقيل: يتعاقبان[١٠] في الضياء والظلام، والزيادة والنقصان.

وقيل: هو من باب حذف المضاف؛ أي: جعل الليل، والنهار ذوي خلفة؛ أي: اختلاف ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ قرأ حمزة مخففاً[١١]، وقرأ الجمهور بالتشديد[١٢]، فالقراءة الأولى مِنْ الذكر لله، والقراءة الثانية من التذكر له.

---

(١) «التيسير» (ص١٦٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٨٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٤٦).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٦٠).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٤).

(٥) «روح المعاني» (١٩/ ٩٤)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠٥).

(٦) ذكره في «الوسيط» (٣/ ٣٤٥)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٦١).

(٧) انظر: «ديوان زهير بن أبي سلمى» (ص٥).

(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧١).

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٨٦) بسند صحيح.

(١٠) «معالم التنزيل» (٦/ ٩٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٦٢).

(١١) «التيسير» (ص١٦٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٤٧)، و«جامع البيان» (١٧/ ٤٨٩)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤).

(١٢) انظر: المصادر المتقدمة. هما قراءتان متواترتان، وقراءة أُبي «شاذة». وكذلك قراءة =

وقرأ أُبيّ بن كعب[١]: «يتذكر».

ومعنى الآية: أن المتذكر المعتبر إذا نظر في اختلاف الليل والنهار علم أنَّه لا بدّ في انتقالهما من حال إلى حال من ناقل ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ أي: أراد أن يشكر الله على ما أودعه في الليل والنهار من النعم العظيمة، والألطاف الكثيرة.

قال الفراء[٢]: ويذكر ويتذكر يأتيان بمعنى واحد.

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]، وفي حرف عبد الله «ويذكروا ما فيه» ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ هذا كلام مستأنف مسوق لبيان صالحي عباد الله سبحانه، وعباد الرحمٰن[٣] مبتدأ، وخبره الموصول مع صلته، والهون مصدر، وهو السكينة والوقار.

وقد ذهب جماعة من المفسرين[٤] إلى أن الهون متعلق بيمشون؛ أي: يمشون على الأرض مشياً هوناً.

قال ابن عطية[٥]: ويشبه أن يتأوّل هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيه، وأما أنْ يكون المراد صفة المشيء وحده، فباطل؛ لأنه ربّ ماش هوناً رويداً، وهو ذئب أطلس.

وقد كان رسول الله ﷺ يتكفّأ في مشيه كأنما يمشي في صبب[٦].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ذكر سبحانه أنهم يتحملون ما يرد عليهم من أذى أهل الجهل والسفه، فلا يجهلون مع من يجهل، ولا يسافهون أهل السفه.

= ابن مسعود «ويذكروا ما فيه» شاذة ومخالفة للرسم.

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٩٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٦٤).

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧١).

(٣) «التبيان» (٢/ ٩٩٠)، و«الفريد» (٣/ ٦٤٠)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٣٦).

(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٩٩)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤١٧)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٣٤٥).

(٥) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٣٧).

(٦) أخرجه أحمد (١/ ٩٦)، والترمذي رقم (٣٦٣٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح. كلاهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه».

قال النحاس[١]: ليس هذا السلام مِنْ التسليم إنما هو من التسلّم، تقول العرب: سلاماً؛ أي: تسلّماً منك؛ أي: براءةً منك، منصوب على أحد أمرين[٢]: إما على أنه مصدر لفعل محذوف؛ أي: قالوا: سلمنا سلاماً، وهذا على قول سيبويه[٣]، أو على أنّه مفعول به؛ أي: قالوا: هذا اللفظ، ورجّحه ابن عطية[٤]. وقال مجاهد[٥]: معنى سلاماً: سداداً؛ أي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين.

قال سيبويه[٦]: لم يؤُمر المسلمون يومئذٍ أَنْ يسلموا على المشركين لكنه على قوله تسليماً منكم، ولا خير، ولا شرّ بيننا وبينكم.

قال المبِّرد[٧]: كان ينبغي أَنْ يقال: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ بحربهم، ثم أمروا بحربهم.

وقال محمد بن يزيد[٨]: أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة.

[المصنف يتعقب سيبويه]:

قال النحاس[٩]: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى الناسخ والمنسوخ إلّا في هذه الآية؛ لأنّه قال في آخر كلامه: فنسختها آيةُ السيف.

وأقول: هكذا يكون كلامُ الرجل إذا تكلّم في غير علمه، ومشى في غير طريقته، ولم يُؤمر المسلمون بالسلام على المشركين، ولا نُهوا عنه. بل أمروا بالصفح، والهجر الجميل، فلا حاجة إلى دعوى النسخ.

قال النضر بن شميل[١٠]: حدّثني الخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيت. فإذا هو على سطح، فسلمنا، فردّ علينا السلام، وقال لنا:

---

(١) في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٦٨).
(٢) «الفريد» (٣/ ٦٤٠ ـ ٦٤١)، و«التبيان» (٢/ ٩٩٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٠٠).
(٣) في «الكتاب» (١/ ٣٢٥).
(٤) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٣٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٢٢) بسند صحيح.
(٦) في «الكتاب» (١/ ٣٢٥).
(٧) ذكره النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠).
(٨) أي: المبرد.
(٩) في «الناسخ والمنسوخ» (٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠).
(١٠) ذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ١٣٢).

استووا، فبقينا مُتحيّرين، ولم ندر ما قال، فقال لنا أعرابيّ إلى جنبه: أمركم أن ترتفعوا.

قال الخليل: هو مِنْ قول الله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] قال: فصعدنا إليه، فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير؟ فقلنا: الساعة فارقناه، فقال: سلاماً، فلم ندرِ ما قال، فقال الأعرابيّ: إنّه سالمكم متاركةً لا خير فيها ولا شرّ.

قال الخليل: هو من قول الله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ البيتوتة[١]: هي أَنْ يدركك الليلُ نمت أو لم تنم.

قال الزجاج[٢]: من أدركه الليل، فقد بات، نام أو لم ينم، كما يقال: بات فلان قلقاً، والمعنى: يبيتون لربهم سجداً على وجوههم، وقياماً على أقدامهم، ومنه قول امرئ القيس:[٣]

فبتْنا [قِياماً][٤] عندَ رأسِ جوادِنا ... يُزاولنا عن نفسهِ ونُزاوله

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أي: هم مع طاعتهم مشفقون، وجَلِون خائفون من عذابه، والغرام اللازم الدائم، ومنه سُمّي الغريم لملازمته، ويقال: فلان مُغْرم بكذا؛ أي: ملازم له مولع به، هذا معناه في كلام العرب، كما ذكره ابن الأعرابي[٥]، وابن عرفة[٦]، وغيرهما، ومنه قول الأعشى[٧]:

إنْ يُعاقبْ يكُن غَراما ... وإنْ يُعط جَزيلاً فإنَّه لا يُبالي

وقال الزجاج[٨]: الغرام أشدّ العذاب.

---

(١) انظر: كتاب «العين» (ص٩٦). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٥).
(٣) بل هو لزهير بن أبي سلمى. وهو في «ديوانه» (ص١٣٢).
(٤) والذي في الديوان: عراةً.
(٥) انظر: «الصحاح» (٥/ ٤٩٩٦)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ١٣١).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٧٣). (٧) انظر: ديوانه (ص٥٩).
(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٥).

وقال أبو عُبيدة[(١)]: هو الهلاك.

وقال ابن زيد[(٢)]: الشرّ.

وجملة: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ تعليل لما قبلها، والمخصوص محذوف؛ أي: هي، وانتصاب[(٣)] مستقرًّا على الحال، أو التمييز، وكذا مقاماً.

قيل: هما مترادفان، وإنما عُطف أحدهما على الآخر لاختلاف لفظيهما.

وقيل: بل هما مختلفان معنى: فالمستقرّ للعصاة، فإنهم يخرجون، والمقام للكفار، فإنّهم يخلدون.

وساءت مِنْ أفعال الذم كبئستْ، ويجوز أن يكون هذا من كلام الله سبحانه، ويجوز أن يكون حكاية لكلامهم.

ثم وصفهم سبحانه بالتوسط في الإنفاق، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾.

قرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، وعاصم، ويحيى بن وثّاب ﴿يَقْتُرُواْ﴾ بفتح التحتية[(٤)]، وضم الفوقية، من قتر يقتر؛ كقعد يقعد.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير بفتح[(٥)] التحتية، وكسر التاء الفوقية، وهي لغة معروفة حسنة.

وقرأ أهل المدينة، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم بضم التحتية، وكسر الفوقية[(٦)].

---

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٩٦) بسند صحيح.

(٣) «التبيان» (٢/ ٩٩١)، و«الفريد» (٣/ ٦٤١)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

(٤) «التيسير» (ص١٦٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٠٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٧٦).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) «النشر» (٢/ ٣٣٤)، و«التيسير» (ص١٦٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٧٦). هي ثلاث قراءات متواترة لكن الرواية عن أبي بكر عن عاصم كقراءة أهل المدينة شاذة عنه.

قال أبو عبيدة[١]: يقال: قتر الرجل على عياله يَقْتُر، ويقتِر قَتْراً، وأقتر يُقْتِر إقتاراً، ومعنى الجميع: التضييق في الإنفاق.

[الفرق بين الإسراف والإقتار]:

قال النحاس[٢]: ومِنْ أحسن ما قيل في معنى الآية: أن من أنفق في غير طاعة الله، فهو الإسراف، ومَنْ أمسك عن طاعة الله، فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله، فهو القوام.

وقال إبراهيم النخعي[٣]: هو الذي لا يجيع ولا يعرى، ولا ينفق نفقة، يقول الناس قد أسرف.

وقال يزيد بن أبي حبيب[٤]: أولئك أصحاب محمد كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع، ويقوّيهم على عبادة الله، ومن اللباس ما يستر عوراتهم، ويقيهم الحرّ والبرد.

وقال أبو عبيدة[٥]: لم يزيدوا على المعروف، ولم يبخلوا كقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

قرأ حسّان بن عبد الرحمٰن: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قِوَامًا﴾ بكسر القاف[٦].

وقرأ الباقون بفتحها[٧]، فقيل: هما بمعنى، وقيل: القوام بالكسر: ما يدوم

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٦).

(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٦٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٩٩)، وابن أبي شيبة (٨/ ٢١٧) و (٩/ ٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٢٥، ٢٧٢٧) من طريق عبد السلام بن حرب، به.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٠٠) بسند صحيح.
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٢٥) بسند ضعيف.

(٥) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٦).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٥). وهي قراءة شاذة.

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٧٦)، و«جامع البيان» (١٧/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٠٥).

عليه الشيء ويستقرّ، وبالفتح: العدل، والاستقامة، قاله ثعلب[١].

وقيل: بالفتح: العدل بين الشيئين، وبالكسر: ما يقام به الشيء لا يفضل عنه ولا ينقص.

وقيل: بالكسر: السداد، والمبلغ، واسم كان مقدّر فيها؛ أي: كان إنفاقهم بين ذلك قَواماً، وخبرها قواماً، قاله الفراء[٢].

وروي عَنْ الفراء[٣] قول آخر، وهو أن اسم كان ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، وتُبنى «بين» على الفتح؛ لأنها مِنْ الظروف المفتوحة.

وقال النحاس[٤]: ما أدري ما وجه هذا؛ لأن «بين» إذا كانت في موضع رفع رفعت.

وقد أخرج ابنُ جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾؛ يعني: أبا الحكم الذي سماه رسول الله ﷺ أبا جهل بن هشام.

وأخرج ابن أبي حاتم[٦] عنه في قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قال: قل لهم يا محمد: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من أجر، يقول: عَرَضٌ من عرض الدنيا.

وأخرج الخطيب[٧] في كتاب النجوم عنه أيضاً في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قال: هي هذه الاثنا عشر برجاً أولها: الحملُ، ثم الثور، ثم الجوزاء، ثم السرطان، ثم الأسد، ثم السنبلة، ثم الميزان، ثم العقرب، ثم القوس، ثم الجدي، ثم الدلو، ثم الحوت.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٥٦).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).
(٣) في «معاني القرآن» له (٢/ ٢٧٣).
(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٦٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٧٨) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧١٢) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه الخطيب في كتاب «النجوم» (ص١٤٠).

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عنه أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال: أبيض وأسود.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٢] عنه أيضاً يقول: من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار، ومن النهار أدركه بالليل.

وأخرج الطيالسي، وابن أبي حاتم، عن الحسن[٣]: أن عمر أطال صلاة الضحى، فقيل له: صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه! فقال: إنه بقي عليّ من وردي شيء، فأحببت أن أتمه، أو قال: أقضيه، وتلا هذه الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ الآية.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قال: هم: المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: بالطاعة، والعفاف، والتواضع.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥] عنه قال: ﴿هَوْنًا﴾ علماً وحلماً.

وأخرج عبد بن حميد[٦] عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال: «الدائم».

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٧] في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ قال: هم المؤمنون لا يسرفون فينفقوا في معصية الله، ولا يقترون فيمنعوا حقوق الله.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧١٨) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (١٧/ ٤٨٥) وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧١٨) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧١٨) بسند ضعيف لأنَّ أبا حرَّة يدلس عن الحسن.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٢٠) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٢٠) من طريق مجاهد عن ابن عباس.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٤).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٤٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٢٥) بسند صحيح.

[من سمات عباد الرحمٰن]:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ [٣/٣٢٦] رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾.

[توحيد الله أساس هذه العقيدة]:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ لما فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي، فقال: والذي لا يدعون مع الله سبحانه ربّاً من الأرباب.

والمعنى: لا يُشركون به شيئاً؛ بَلْ يوحّدونه، ويُخْلصون له العبادة والدعوة.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: حَرّم قتلها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يحقّ أَنْ تقتل به النفوس مِنْ كفرٍ بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس.

﴿وَلَا يَزْنُونَۚ﴾؛ أي: يستحلون الفروج المحرّمة بغير نكاح، ولا ملك يمين ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: شيئاً مما ذكر ﴿يَلْقَ﴾ في الآخرة ﴿أَثَامًا﴾، والأثام في كلام العرب: العقاب.

قال الفراء(١): آثمه الله يؤثمه أثاماً، وآثاماً؛ أي: جازاه جزاء الإثم.

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٧٣).

وقال عكرمة[١]، ومجاهد[٢]: إنّ أثاماً: وادٍ في جهنّم جعله الله عقاباً للكفرة.

وقال السُّديّ[٣]: جبل فيها.

وقرئ: «يُلقَّ» بضم الياء[٤]، وتشديد القاف.

قال أبو مُسلم[٥]: والآثام والإثم واحد، والمراد هنا جزاء الآثام، فأطلق اسم الشيء على جزائه.

وقرأ الحسن[٦]: «يلق أياماً» جمع يوم يعني: شدائد، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام، وما أظنّ هذه القراءة تصح عنه.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «يُضاعفْ ويَخْلدْ» بالجزم[٧].

وقرأ ابن كثير «يُضَعّفْ» بتشديد العين[٨]، وطرح الألف، والجزم.

وقرأ طلحة بن سليمان «نُضعِّف» بضم النون[٩]، وكسر العين المشدّدة. والجزم، وهي: قراءة أبي جعفر وشيبة.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بالرفع[١٠] في الفعلين على الاستئناف.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥١٣ ـ ٥١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣٠) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥١٣) بسند صحيح.

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٥٨).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص١٠٥)، و«روح المعاني» (١٩/ ١١١)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣٠). قراءة العشرة المتواترة «يَلْقَ» وأما بتشديد القاف فشاذة.

(٥) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٣٠).

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ١٣٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ١١١).

(٧) «التيسير» (ص١٦٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٨٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ١١١)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤).

(٨) «التيسير» (ص١٦٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤).

(٩) «المحتسب» (٢/ ١٢٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣٠). الخلاصة في قراءة هذه الكلمة (يضعف) الآتي: قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (يُضَعّف) بضم الياء التحتية، وفتح الضاد، والعين المشدّدة، وقرأ الباقون (يُضَاعف) بضم الياء وفتح الضاد بعدها ألف فعين مفتوحة مخففة. وقرأ ابن عامر وشعبةبرفع الفاء على الاستئناف. وقرأ باقي العشرة بالجزم، وغير هذا فشاذ. «تخريج القراءات في لفتح القدير» (ص٢٦٤).

(١٠) «النشر» (٢/ ٣٣٤)، و«التيسير» (ص١٦٤).

وقرأ طلحة بن سليمان «وتَخْلد» بالفوقية[(١)] خطاباً للكافر.

وروي عن أبي عمرو أنه قرأ «ويُخلَد» بضم الياء[(٢)] التحتية، وفتح اللام.

قال أبو عليّ الفارسي[(٣)]: وهي غلط من جهة الرواية، ووجه الجزم في يضاعف: أنّه بدل من يلق لاتحادهما في المعنى، ومثله قول الشاعر:

إنَّ عَلَيَّ الله أنْ تُبايعا تُؤخذ كَرْهاً أو تجيءَ طائِعاً[(٤)]

والضمير في قوله: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ﴾ راجع إلى العذاب المضاعف؛ أي: يخلد في العذاب المضاعف ﴿مُهَانًا﴾ ذليلاً حقيراً ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ قيل: هو استثناء[(٥)] متصل، وقيل: منقطع.

قال أبو حيان[(٦)]: لا يظهر الاتصال؛ لأنّ المستثنى منه محكوم عليه بأنه يضاعف له العذاب، فيصير التقدير: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فلا يضاعف له العذاب، ولا يلزم من انتفاء التضعيف انتفاء العذاب غير المضعف.

قال[(٧)]: والأولى عندي: أن تكون منقطعاً؛ أي: لكن من تاب.

قال القرطبي[(٨)]: لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عام في الكافر والزاني. واختلفوا في القاتل من المسلمين. وقد تقدّم بيانه في النساء والمائدة.

والإشارة بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ إلى المذكورين سابقاً، ومعنى: تبديل السيئات حسنات: أنه يمحو عنهم المعاصي، ويثبت لهم مكانها طاعات.

قال النحاس[(٩)]: من أحسن ما قيل في ذلك: أنه يكتب موضع كافر مؤمن، وموضع عاص مطيع.

---

(١) «المحتسب» (٢/ ١٢٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣٠ ـ ١٣١). هما قراءتان شاذتان عن طلحة وأبي عمرو. وأما المتواتر فقد قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم يرفع الدال من كلمة (يخلدُ) وقرأ باقي العشرة بالجزم. «النشر» (٢/ ٣٣٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٨٠). (٣) «الحجة» (٥/ ٣٥٠).

(٤) «خزانة الأدب» (٥/ ٢٠٣)، و«الكتاب» لسيبويه (١/ ١٥٦).

(٥) «روح المعاني» (١٩/ ١١٣)، و«التبيان» (٢/ ٩٩١).

(٦) في «البحر المحيط» (٨/ ١٣١).

(٧) أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٣١).

(٨) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٨١).

(٩) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٦٩).

قال الحسن[١]: قوم يقولون التبديل في الآخرة، وليس كذلك إنما التبديل في الدنيا يبدل الله لهم إيماناً مكان الشرك، وإخلاصاً من الشك، وإحصاناً من الفجور.

قال الزجاج[٢]: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة.

وقيل: إن السيئات تبدّل بحسنات[٣]، وبه قال جماعة من الصحابة[٤] ومن بعدهم.

وقيل: التبديل عبارة عن الغفران[٥]؛ أي: يغفر الله لهم تلك السيئات، لا أن يبدلها حسنات.

وقيل: المراد بالتبديل: أَنْ يوفّقه لأضداد ما سلف منه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذه الجملة مقرّرة لما قبلها من التبديل ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾؛ أي: مَنْ تاب عمَّا اقترف، وعمل عملاً صالحاً بعد ذلك، فإنه يتوب بذلك إلى الله متاباً؛ أي: يرجع إليه رجوعاً صحيحاً قوياً.

قال القفّال[٦]: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، ثم عطف عليه من تاب من المسلمين، وأتبع توبته عملاً صالحاً، فله حكم التائبين أيضاً.

وقيل[٧]: أي: من تاب بلسانه، ولم يحقق التوبة بفعله، فليست تلك التوبة نافعة؛ بل من تاب وعمل صالحاً، فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متاباً؛ أي: تاب حقّ التوبة، وهي النصوح، ولذلك أكد بالمصدر.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣٤) من طريق يونس عن الحسن بسند صحيح.

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٦).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (١٩٠)، وأحمد رقم (٢١٣٩٣، ٢١٤٩٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٤) انظر: «النكت والعيون» (٤/ ١٥٨).

(٥) «معالم التنزيل» (٦/ ٩٧)، و«الوسيط» (٣/ ٣٤٧).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٨٤).

(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٦٩).

ومعنى الآية: من أراد التوبة، وعزم عليها، فليتب إلى الله، فالخبر في معنى الأمر كذا قيل لئلا يتحد الشرط والجزاء، فإنّه لا يقال: مَنْ تاب، فإنه يتوب.

ثم وصف سبحانه هؤلاء التائبين العاملين للصالحات، فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾؛ أي: لا يشهدون الشهادة الكاذبة، أو لا يحضرون الزور. والزور: هو الكذب والباطل، ولا يشاهدونه، وإلى الثاني ذهب جمهور المفسرين(١).

قال الزجاج(٢): الزور في اللغة الكذب، ولا كذب فوق الشرك بالله.

قال الواحدي(٣): أكثر المفسرين على أن الزور ها هنا بمعنى الشرك.

والحاصل أَنَّ يشهدون إنْ كان من الشهادة ففي الكلام مضاف محذوف؛ أي: لا يشهدون شهادة الزور، وإنْ كان من الشهود والحضور. كما ذهب إليه الجمهور، فقد اختلفوا في معناه.

فقال قتادة(٤): لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم.

وقال محمد(٥) بن الحنفية: لا يحضرون اللهو والغناء.

وقال ابن جريج(٦): الكذب.

وروي عن مجاهد(٧) أيضاً.

والأولى عدم التخصيص بنوع مِنْ أنواع الزور؛ بل المراد الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزور كائناً ما كان.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾؛ أي: مُعْرضين عنه غير مُلتفتين إليه، واللغو(٨): كل ساقط مِنْ قول أو فعل.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٩٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ١١٦)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤٢٠).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٧). (٣) في «الوسيط» (٣/ ٣٤٨).

(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٤٨)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٩٧). وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣٦) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣٧) بسند ضعيف من طريق ابن عمر الأسدي البزار، به.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٢٢) بسند ضعيف.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٨٥). (٨) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٤٢).

قال الحسن[(١)]: اللغو المعاصي كلها، وقيل: المراد مرّوا بذوي اللغو، يقال: فلان يُكَرم عما يشينه؛ أي: يتنزّه، ويُكِرم نفَسه عن الدخول في اللغو، والاختلاط بأهله.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: بالقرآن، أو بما فيه موعظة وعبرة ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ أي: لم يقعوا عليها حال كونهم صمّاً وعمياناً، ولكنهم أكبُّوا عليها سامعين مُبْصرين، وانتفعوا بها.

قال ابنُ قتيبة[(٢)]: المعنى: لم يتغافلوا عنها؛ كأنهم صمّ لم يسمعوها، وعُمي لم يبصروها.

قال ابن جرير[(٣)]: ليس ثَمَّ خرور؛ بل كما يقال: قعد يبكي، وإنْ كان غير قاعد.

قال ابن عطية[(٤)]: كأنّ المستمع للذِكْر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام.

قيل: المعنى[(٥)]: إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبُهم، فخرُّوا سجَّداً وبكياً، ولم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً.

قال الفراء[(٦)]: أي: لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا.

قال في «الكشاف»[(٧)]: ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، وأراد أن النفي متوجه إلى القيد لا إلى المقيد.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ من ابتدائية، أو بيانية.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧٢) بسند صحيح.

(٢) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣١٥).

(٣) في «جامع البيان» (١٧/٥٢٨ ـ ٥٢٩).

(٤) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٤٥).

(٥) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٤٥) بنحوه.

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٤).

(٧) «الكشاف» (٤/ ٣٧٣).

قرأ نافع، وابن كثير، وابن عباس، والحسن ﴿وَذُرِّيَّـٰتِنَا﴾ بالجمع(١).

وقرأ أبو عمرو وحمزة، والكسائي، وطلحة، وعيسى «وذرّيتنا» بالإفراد(٢)، والذرّية تقع على الجمع، كما في قوله: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا﴾ [النساء: ٩]، وتقع على الفرد كما في قوله: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

وانتصاب(٣) ﴿قُـرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ على المفعولية، يقال: قرّت عينُه قرةً.

قال الزجاج(٤): يقال: أقرّ الله عينَك؛ أي: صادف فؤادك ما يحبه.

وقال المفضل(٥): في قرّة العين ثلاثة أقوال:

أحدهما: بَرْد دمعِها؛ لأنّه دليل السرور والضحك، كما أن حرّه دليل الحزن والغمّ.

والثاني: نومها؛ لأنه يكون مع فراغ الخاطر، وذهاب الحزن.

والثالث: حصول الرضا. ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾؛ أي: قدوةً يقُتدى بنا في الخير.

وإنما قال: إماماً، ولم يقل: أئمة؛ لأنّه أريد به الجنس كقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

قال الفرّاء(٦): قال: إماماً، ولم يقل أئمة؛ كما قال للاثنين ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]؛ يعني: أنه من الواحد الذي أريد به الجمع.

وقال الأخفش(٧): الإمام جمع أمّ من أمّ يأمّ، جُمع على فِعال، نحو صاحب وصِحاب، وقائم وقيام.

وقيل: إن إماماً مصدر، يقال: أمّ فلان فلاناً إماماً، مثل الصيام والقيام.

وقيل: أرادوا اجعل كل واحد مِنّا إماماً.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/٤٨٨)، و«البحر المحيط» (٨/١٣٣)، و«التيسير» (ص١٦٤)، و«الكشف عن وجوه والقراءات» (٢/١٤٨). وممّن قرأ بالجمع حفص وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب.

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «التبيان» (٢/ ٩٩٢)، و«الفريد» (٣/ ٦٤٣).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٨).

(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ١١٥).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٤).

(٧) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ١١٥).

وقيل: أرادوا: اجعلنا إماماً واحداً لاتحاد كلمتنا.

وقيل: إنه من الكلام المقلوب [٤/٣٢٧]، وأن المعنى: واجعل المتقين لنا إماماً، وبه قال مجاهد(١).

وقيل: إنّ هذا الدعاء صادر(٢) عنهم بطريق الانفراد، وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء: واجعلني للمتقين إماماً، ولكنّها حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الإيجاز كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وفي هذا إبقاء ﴿إِمَامًا﴾ على حاله، ومثل ما في الآية قول الشاعر:

يَا عَاذلاتِي لا تُرِدنَ مَلَامتي ... إن العَوَاذلَ لَيسْنَ لي بأمينِ(٣)

أي: أمناء.

قال القفّال(٤): وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وُحّد كأنه قيل: اجعلنا حجةً للمتقين، ومثله البينة: يقال: هؤلاء بينة فلان.

قال النيسابوري(٥): قيل: في الآية دلالة على أن الرياسة الدينية مما يجب أن تُطلب، ويرغب فيها، والأقرب: أنّهم سألوا الله أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم، ويُقتدى بهم.

والإشارة بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ إلى المتصفين بتلك الصفات، وهو مبتدأ وخبره ما بعده، والجمل مستأنفة.

وقيل: إن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، وما بعده خبر لقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] كذا قال الزجاج(٦).

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٢) بسند صحيح.

(٢) «روح المعاني» (١٩/ ١٢٠ ـ ١٢١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٨٧).

(٣) «الخصائص» (٣/ ١٧٤)، و«مغني اللبيب» (ص٢٧٩).

(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ١١٥).

(٥) في «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٢١/ ٣٧).

(٦) لم أقف عليه في معانيه. وانظر: «روح المعاني» (١٩/ ١٢١ ـ ١٢٢).

والغرفة[1]: الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها، وهي في الأصل لكلّ بناء مرتفع، والجمع غُرَف.

وقال الضحاك[2]: الغرفة: الجنّة.

والباء في ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ سببية، وما مصدرية؛ أي: يجزون الغرفة بسبب صبرهم على مشاق التكليف.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ قرأ أبو بكر، والمفضّل، والأعمش، ويحيى بن وثّاب، وحمزة، والكسائي، وخلف «يَلْقون» بفتح الياء[3]، وسكون اللام، وتخفيف القاف، واختار هذه القراءة الفراء[4]، قال: لأن العرب تقول: فلان يلقي بالسلام، والتحية والخير، وقلّ ما يقولون: يُلقي.

وقرأ الباقون بضم الياء[5] وفتح اللام، وتشديد القاف، واختار هذه القراءة أبو عُبيد[6]، وأبو حاتم[7] لقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، والمعنى: أنه يحيي بعضُهم بعضاً، ويرسل إليهم الربّ سبحانه بالسلام، قيل[8]: التحية البقاء الدائم، والملك العظيم.

وقيل: هي بمعنى السلام.

وقيل: إن الملائكة[9] تحييهم وتسلم عليهم.

والظاهر: أن هذه التحية والسلام هي من الله سبحانه لهم، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقيل: معنى التحية: الدعاء لهم بطول الحياة. ومعنى السلام: الدعاء لهم بالسلامة من الآفات.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٦١)، عن ابن شجرة.
(٢) انظر: المصدر المتقدم.
(٣) «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣٥)، و«التيسير» (ص١٦٥).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٥).
(٥) «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣٤)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٢٣).
(٦)(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٦٩ ـ ١٧٠)، والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٤٩٢).
(٨) «النكت والعيون» (٤/ ١٦١).
(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٩٢).

وانتصاب[١] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ على الحال؛ أي: مُقيمين فيها من غير موت ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ أي: حَسُنتْ الغرفة مستقرًّا يستقرّون فيه، ومقاماً يقيمون به، وهذا في مقابل ما تقدّم من قوله: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾ بيّن سبحانه أنه غنيّ عن طاعة الكلّ، وإنما كلفهم لينتفعوا بالتكليف، يقال: ما عبأتُ بفلان؛ أي: ما باليتُ به، ولا له عندي قَدْر، وأصل يعبأ مِنْ العبء، وهو الثقل.

قال الخليل[٢]: ما أعبأ بفلان؛ أي: «ما أصنع به كأنّه يستقله ويستحقره، ويدّعي أن وجوده وعدمه سواء، وكذا قال أبو عبيدة[٣].

قال الزجاج[٤]: ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾ يريد: أيّ وزن يكون لكم عنده؟ والعبء: الثقل، وما استفهامية، أو نافية.

وصرّح الفراء[٥]: بأنّها استفهامية.

قال ابن الشَجَري[٦]: وحقيقة القول عندي: أَنَّ موضع «ما» نصب، والتقدير: أي عبء يعبأ بكم؛ أي: أيّ مبالاة يُبالي بكم.

﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾؛ أي: لولا دعاؤكم إيّاه، لتعبدوه، وعلى هذا، فالمصدر الذي هو الدعاء مضاف إلى مفعوله، وهو اختيار الفراء[٧]، وفاعله محذوف، وجواب لولا محذوف: تقديره لولا دعاؤكم لم يعبأ بكم، ويؤيد هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والخطاب لجميع الناس.

ثم خصّ الكفار منهم، فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾. وقرأ ابن الزبير: «فقد كذب[٨] الكافرون»، وفي هذه القراءة دليل بيِّن على أن الخطاب لجميع الناس. وقيل: إن المصدر مضاف إلى الفاعل؛ أي: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد[٩].

---

(١) «الفريد» (٣/ ٦٤٤)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٢٣).
(٢) في كتاب «العين» (ص٥٩٢).
(٣) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٢).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٨).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٥).
(٦) في «أماليه» (١/ ٨٠ ـ ٨١).
(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٥).
(٨) «القراءات الشاذة» (ص١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٢٤).
(٩) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٤٦).

وقيل: المعنى: ما يعبأ بكم؛ أي: بمغفرة ذنوبكم لولا دعاؤكم الآلهة معه.

وحكى ابن جنّي[١]: أن ابن عباس قرأ كقراءة ابن الزبير.

وحكى الزهراوي[٢] والنحاس[٣]: أن ابن مسعود قرأ كقراءتهما، وممن قال: بأن الدعاء مضاف إلى الفاعل: القتيبي[٤] والفارسي[٥]، قالا: والأصل لولا دعاؤكم آلهةً من دونه، وجواب لولا محذوف تقديره على هذا الوجه: لولا دعاؤكم لم يعذبكم، ويكون معنى ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ على الوجه الأوّل: فقد كذبتم بما دعيتم إليه، وعلى الوجه الثاني: فقد كذبتم بالتوحيد.

ثم قال سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾؛ أي: فسوف يكون جزاء التكذيب لازماً لكم. وجمهور المفسرين[٦] على أن المراد باللزام هنا: ما لزم المشركين يوم بدر، وقالت طائفة: هو عذابُ الآخرة[٧].

قال أبو عُبيدة[٨]: لزاماً فيصلاً؛ أي: فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين المؤمنين.

قال الزجاج[٩]: فسوف يكون تكذيبكم لزاماً يلزمكم، فلا تُعْطون التوبة، وجمهور القراء على كسر اللام من لِزاماً، وأنشد أبو عُبيدة[١٠] لصخر:

فإمَّا ينجُوا من خَسْف أرض ... فقد لَقيا حتوفَهما لِزاما

---

(١) «المحتسب» (٢/ ١٢٦).
(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٤٦).
(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٧٠).
(٤) في «تأويل مشكل القرآن» (ص٣٣٩).
(٥) ذكره ابن الشجري في «أماليه» (١/ ٨١).
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٤٩٥).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٦) بسند حسن.
(٨) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٢).
(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٧٨).
(١٠) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٢). وانظر: «ديوان الهذليين» (٢/ ٦٥)، وصخر هو: ابن عبد الله الخيثمي من بني هذيل.

قال ابن جرير[(١)] ﴿لِزَامًا﴾: عذاباً دائماً، وهلاكاً مفنياً يلحق بعضكم ببعض؛ كقول أبي ذؤيب[(٢)]:

فَفَاجأه[(٣)] بعاديةٍ لِزامٍ كَمَا يتفجَّرُ الحَوْضُ اللَّقيفُ

يعني باللزام: الذي يتبع بعضه بعضاً، وباللَّقيف: المتساقط من الحجارة المنهدمة[(٤)].

وحكى أبو حاتم[(٥)] عن أبي زيد قال: سمعت أبا السمّال يقرأ «لزاماً»[(٦)] بفتح اللام. قال أبو جعفر[(٧)]: يكون مصدر لزم، والكسر أولى.

[أي الذنب أكبر؟]:

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود[(٨)] قال: سئل رسول الله ﷺ: أيّ الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً، وهو خلقك». قلت: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾.

وأخرجا وغيرهما أيضاً عن ابن عباس[(٩)]: أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا

---

(١) في «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٧).
(٢) انظر: «ديوان الهذليين» (١/ ١٠٢) وفيه:
فلم يرَ غير عادية لزاماً كما يتهدم الحوض اللَّقيفُ
(٣) وهذه الرواية ذكرها أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٢).
(٤) «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٧).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٧٠).
(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣٥). والذي فيهما أنّه قرأ: «لزام» بفتح اللام ولا ألف. وهي قراءة شاذة.
(٧) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٧٠).
(٨) أخرجه أحمد رقم (٣٦١٢، ٤١٣١، ٤١٣٣)، والبخاري رقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١)، ومسلم رقم (٨٦)، والترمذي رقم (٣١٨٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٠٧، ٥٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٢٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥٣٧٠ ـ ٥٣٧٢).
(٩) أخرجه البخاري رقم (٤٨١٠)، ومسلم رقم (١٢٢)، وأبو داود رقم (٤٢٧٤)، والنسائي رقم (٤٠١٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٠٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٢٨)، والحاكم (٢/ ٤٠٣، ٤٠٤)، والبيهقي رقم (٧١٣٩).

فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول، وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾ الآية، ونزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الزمر: ٥٣].

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو[١] في قوله: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ قال: وادٍ في جهنم.

[سبب نزول الآيات]:

وأخرج ابن مردويه[٢] عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية اشتدّ ذلك على المسلمين، فقالوا: ما منا أحد إلّا أشرك، وقتل، وزنى، فأنزل الله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، يقول لهؤلاء الذين أصابوا هذا في الشرك، ثم نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾، فأبدلهم الله بالكفر الإسلام، وبالمعصية الطاعة، وبالإنكار المعرفة، وبالجهالة العلم.

وأخرج ابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس[٣] قال: قرأناها على عهد رسول الله ﷺ سنين ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾، ثم نزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيء قط فرحه بها، وفرحه بـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٤] عنه في قوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قال: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣٠) بسند صحيح.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (١٢٩٣٥)، وفي «الأوسط» رقم (٥٥٧٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٧٤): «رواه الطبراني من رواية علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، وقد وثقا، وفيهما ضعف، وبقية رجاله ثقات».

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣٣) بسند صحيح.

على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك، فحوّلهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات.

وأخرج أحمد، وهناد، والترمذي، وابن جرير، والبيهقي في «الأسماء والصفات» عن أبي ذرّ[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فيُعرض عليه صغارها، وينحّى عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا، وهو يقرّ، ليس ينكر، وهو مشفق من الكبائر أن تجيء، فيقال: أعطوه بكل سيئة عملها حسنة».

والأحاديث في تكفير السيئات، وتبديلها بالحسنات كثيرة.

وأخرج ابن مردويه[٢] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال: إن الزور كان صنماً بالمدينة يلعبون حوله كل سبعة أيام، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا مرّوا به مرّوا كراماً لا ينظرون إليه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٣] ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ قال: يعنون: مَنْ يعمل بالطاعة، فتقرّ به أعيننا في الدنيا والآخرة، ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال: أئمة هدى يُهتدى بنا، ولا تجعلنا أئمة ضلالة؛ لأنه قال لأهل السعادة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ولأهل الشقاوة ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ [القصص: ٤١].

وأخرج الحكيم الترمذي عن سهل بن سعد[٤]، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ قال: «الغرفة مِنْ ياقوتة حمراء، أو زبرجدة خضراء، أو درّة بيضاء. ليس فيها فصم ولا وصم».

---

(١) أخرجه أحمد رقم (٢١٣٩٣، ٢١٤٩٢)، وهناد في «الزهد» رقم (٢١١)، ومسلم رقم (١٩٠/ ٣١٥)، والترمذي رقم (٢٥٩٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٢٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٩١).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٠، ٥٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٩٣).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يقول: لولا إيمانكم، فأخبر الله أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كانت له بهم حاجة لحبّب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ قال: موتاً.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري(٢) عنه: أنه كان يقرأ: «فَقَدْ كَذَّبَ(٣) الكَافِرُون فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا».

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، عن ابن الزبير(٤) أنه قرأها كذلك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه [عن ابن مسعود](٥) ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ قال: القتل يوم بدر(٦).

وفي «الصحيحين»(٧) عنه قال: «خمس قد مضين: الدخان، والقمر، واللزوم، والبطشة، واللزام».

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٦، ٥٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٥) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٨) بسند ضعيف.
(٣) «القراءات الشاذة» (ص١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٦). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٧، ٥٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٦).
وقال أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٣٥): وهو محمول على أنّه تفسير لا قرآن.
(٥) سقطت من المخطوط. وأثبتناها من «الدر المنثور» (٦/ ١٦٤).
(٦) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٦٤).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧٠/ ٥٤٠) من طريق معمر، به.
(٧) أخرجه البخاي رقم (٢٨٢٤، ٤٧٦٧، ٤٨٢٥)، ومسلم رقم (٢٧٩٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٣٧٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٣٨)، والطبراني رقم (٩٠٤٩).

سورة الشعراء

[سورة الشعراء مكية]:

آياتها مائتان وسبع وعشرون آية. وهي مكية عند الجمهور(١).

وكذا أخرج ابن مردويه(٢) عن ابن عباس، وابن الزبير.

وأخرج النحاس(٣) عن ابن عباس قال: سورة الشعراء أُنزلت [٣/٣٢٨] بمكة سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] إلى آخرها.

وأخرج القرطبي في «تفسيره»(٤) عن البراء: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني الطواسين مكان الزبور، وفضلني بالحواميم، والمفصّل ما قرأهنّ نبيّ قبلي».

وأخرج(٥) أيضاً عن ابن عباس قال: قال النبيّ ﷺ: «أُعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأوّل، وأعطيت فواتح القرآن، وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش، وأعطيت المفصّل نافلة».

قال ابن كثير(٦) في «تفسيره»: ووقع في تفسير مالك المرويّ عنه تسميتها بسورة الجمعة.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١٠/٣٣٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/٥)، و«معالم التنزيل» (٦/٣٥٠).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٢٨٨).

(٣) في «الناسخ والمنسوخ» (٢/٥٧١).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/٥).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/٥).

(٦) في «تفسيره» (١٠/٣٣٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾.

[قصة موسى مع فرعون وملئه]:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۝١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾.

[أوجه القراءة في الحروف المقطعة ﴿طسٓمٓ﴾]:

قوله: ﴿طسٓمٓ﴾ قرأ الأعمش، ويحيى بن وثّاب، وأبو بكر، والمفضّل، وحمزة، والكسائي، وخلف بإمالة(١) الطاء.

وقرأ نافع، وأبو جعفر، وشيبة، والزهري بين اللفظين(٢)، واختار هذه القراءة أبو عبيد(٣)، وأبو حاتم(٤).

---

(١) «التيسير» (ص١٦٥)، و«النشر» (٢/ ٧٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣٩).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ١٣٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٦).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٦).

(٤) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٣٩).

=

وقرأ الباقون[(١)] بالفتح مشبعاً.

وقرأ المدنيون، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي بإدغام[(٢)] النون من «طسن» في الميم.

وقرأ الأعمش، وحمزة[(٣)] بإظهارها.

قال الثعلبي[(٤)]: الإدغام اختيار أبي عبيد[(٥)]، وأبي حاتم[(٦)].

قال النحاس[(٧)]: وحكى الزجاج[(٨)] في كتابه فيما يجري وما لا يجري: أنّه يجوز أَنْ يقال: «طاسينَ ميمُ» بفتح النون، وضم الميم كما يقال: هذا معديُّ كرب.

وقرأ عيسى، ويروى عن نافع بكسر الميم[(٩)] على البناء.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود[(١٠)] «ط س م» هكذا حروفاً مقطعة، فيوقف على كل حرف وقفةً يتميز بها عن غيره، وكذلك قرأ أبو جعفر[(١١)]، ومحله الرفع على الابتداء إنْ كان اسماً للسورة كما ذهب إليه الأكثر، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أَنْ يكون في محل نصب بتقدير: اذْكر، أو اقرأ.

وأَمَّا إذا كان مسروداً على نمط التعديد كما تقدّم في غير موضع من هذا التفسير، فلا محلّ له مِنْ الإعراب.

= ونقل ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٤٩) عن أبي حاتم أنّه اختار فتح الطاء.

(١) «البحر المحيط» (٨/ ١٣٩)، و«النشر» (٢/ ٧٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٣٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣٩)، و«التيسير» (ص١٦٥). قرأ الكوفيون عدا حفص بإمالة (طا). وقرأ الباقون بالفتح، وقرأ حمزة وأبو جعفر بإظهار النون من سين عند الميم والباقون أدغموها وقرأ أبو جعفر بالسكت دون تنفس بين (ط) و(س) و(م) والباقون بالوصل، وما عزاه المؤلف لنافع وأبي جعفر بين اللفظين وكسر الميم على البناء لنافع فروايات شاذة. اهـ. انظر: «النشر» (٢/ ٧٠) و«تخريج القراءات في فتح القدير» ص(٢٦٦).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٦)، و«التيسير» (ص١٦٥).

(٤) في «تفسيره» (٧/ ١٥٦).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٦).

(٦) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٣٩).

(٧) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٧٣).

(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٨١).

(٩) «روح المعاني» (١٩/ ١٣٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٣٩)، و«حاشية الجمل» (٣/ ٢٧١).

(١٠) «القراءات الشاذة» (ص١٠٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٣٣)، و«حاشية الجمل» (٣/ ٢٧١).

(١١) انظر: المصادر المتقدمة.

وقد قيل: إنّه اسم من أسماء الله سبحانه[١]، وقيل: اسم مِنْ أسماء القرآن[٢].

والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إلى السورة، ومحلها الرفع[٣] على أنّها وما بعدها خبر للمبتدأ إنْ جعلنا (طسم) مبتدأ، وإنْ جعلناه خبراً لمبتدأ محذوف، فمحلها الرفع على أنّه مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، أو بدل من طسمّ، والمراد بالكتاب هنا: القرآن.

والمبين: المُبيِّن المُظْهِر، أو البيّن الظاهر إنْ كان مِنْ أَبان بمعنى بان.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾؛ أي: قاتلٌ نفسَك ومُهلكها ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لعدم إيمانهم بما جئت به، والبَخْعُ[٤] في الأصل[٥]: أنْ يبلغ بالذبح النُّخاع بالنون، وهو عِرْق في القفا.

وقد مضى تحقيق هذا في «سورة الكهف».

وقرأ قتادة «باخعُ نفسِك» بالإضافة[٦]، وقرأ الباقون بالقطع[٧] قال الفراء[٨]: (أن) في قوله: ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ في موضع نصب: لأنّها جزاء قال النحاس[٩]: وإنما يقال: «إنّ» مكسورة لأنها جزاء هكذا التعارف، والقول في هذا ما قاله الزجّاج[١٠] في كتابه في القرآن إنّها في موضع نصب مفعول لأجله.

والمعنى: لعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ؛

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٤٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٧) عن ابن عباس بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٤٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧٣) من طريق معمر عن قتادة بسند صحيح، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٤٧) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة بسند صحيح.

(٣) «الفريد» (٣/ ٦٤٧)، و«التبيان» (١/ ١٤).

(٤) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص١١٠).

(٥) «تهذيب اللغة» (١/ ١٦٨)، و«الصحاح» (٣/ ١١٨٣).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٤٠). القراءة المتواترة بالتنوين ونصب (نفسَك) وقراءة قتادة شاذة.

(٧) «روح المعاني» (١٩/ ١٩٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٤٠).

(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٥).

(٩) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٧٤).

(١٠) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٨٢).

لأنه كان حريصاً على إيمان قومه شديد الأسف لما يراه من إعراضهم.

وجملة: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية، والمعنى: إنْ نشأ نُنَزِّل عليهم من السماء آيةً تلجئهم إلى الإيمان، ولكن قد سبق القضاء بأنّا لا ننزل ذلك.

ومعنى ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾: أنهم صاروا منقادين لها؛ أي: فتظلّ أعناقهم إلخ، قيل: وأصله: فظلوا لها خاضعين، فأقحمت[1] الأعناق لزيادة التقرير والتصوير؛ لأن الأعناق موضع الخضوع، وقيل: إنها لما وضعت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم، ووصفت بما يوصفون به.

قال عيسى بن عمر: خاضعين، وخاضعة[2] هنا سواء، واختاره المبرِّد[3]، والمعنى: أنها إذا ذلّت رقابهم ذلّوا، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها، ويسوغ في كلام العرب: أن يترك الخبر عن الأوّل، ويخبر عن الثاني، ومنه قول الراجز:

طُول اللَّيالي أسرعتْ في نقضِي ... طَوَين طُولي وطَوَين عَرْضي[4]

فأخبر عن الليالي، وترك الطول، ومنه قول جرير:

أرَى مرّ السِّنينَ أخذن مِنِّي ... كَمَا أخذ السِّرارُ من الهلالِ

وقال أبو عبيدة[5]، والكسائي[6]: إن المعنى: خاضِعيها هم، وضعفه النحاس[7]، وقال مجاهد[8]: أعناقهم: كبراؤهم.

قال النحاس[9]: وهذا معروف في اللغة[10]، يقال: جاءني عنق من الناس؛ أي: رؤساء منهم.

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٧٦).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٣٧).
(٣) في «الكامل» (٢/ ٦٦٨).
(٤) قائلة الأغلب العجلي: «خزانة الأدب» (٤/ ٢٢٦).
(٥) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٣).
(٦) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٧٧).
(٧) في «معاني القرآن» (٥/ ٦٢، ٦٥).
(٨) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ١٠٦).
(٩) في «معاني القرآن» (٥/ ٦٥).
(١٠) «تهذيب اللغة» (١/ ٢٥٢).

وقال أبو زيد[١]، والأخفش: أعناقهم جماعاتهم، يقال: جاءني عُنق من الناس؛ أي: جماعة. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بيّن سبحانه أنه مع اقتداره على أن يجعلهم ملجئين إلى الإيمان، يأتيهم بالقرآن حالاً بعد حال، وأن لا يجدّد لهم موعظة وتذكيراً إلّا جدّدوا ما هو نقيض المقصود، وهو الإعراض، والتكذيب، والاستهزاء.

و «من» في: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ مزيدة[٢] لتأكيد العموم، ومن في ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢] لابتداء الغاية[٣]، والاستثناء مفرغ[٤] من أعمّ العامّ محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم، وقد تقدّم تفسير مثل هذه الآية في سورة الأنبياء.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾؛ أي: بالذكر الذي يأتيهم تكذيباً صريحاً، ولم يكتفوا بمجرّد الإعراض.

وقيل: إن الإعراض بمعنى: التكذيب؛ لأن من أعرض عن شيء ولم يقبله، فقد كذّبه، وعلى هذا، فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح والأوّل أولى، فالإعراض عن الشيء عدم الالتفات إليه.

ثم انتقلوا عن هذا إلى ما هو أشدّ منه، وهو التصريح بالتكذيب، ثم انتقلوا عن التكذيب إلى ما هو أشدّ منه، وهو الاستهزاء كما يدلّ عليه قوله: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، والأنباء هي: ما يستحقونه[٥] من العقوبة آجلاً وعاجلاً، وسُمّيت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن، وقال: ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ولم يقل: ما كانوا عنه معرضين، أو ما كانوا به يكذّبون؛ لأن الاستهزاء أشدّ منهما، ومستلزم لهما، وفي هذا وعيدٌ شديد، وقد مرّ تفسير مثل هذا في سورة الأنعام.

ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على كمال قدرته من الأمور الحسية التي يحصل بها للمتأمل فيها، والناظر إليها، والمستدلّ بها أعظم دليل، وأوضح برهان، فقال:

---

(١) ذكره عنهما النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٦٢ ـ ٦٣).
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ١٣٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٩١).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٩٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٣٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٤١).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «روح المعاني» (١٩/ ١٣٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٩٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٤١).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ الهمزة للتوبيخ[١]، والواو للعطف على مقدّر كما في نظائره، فنبّه سبحانه على عظمته وقدرته، وأن هؤلاء المكذبين المستهزئين لو نظروا حقّ النظر لعلموا أنه سبحانه الذي يستحق أن يعبد، والمراد بالزوج هنا: الصنف.

وقال الفرّاء[٢]: هو اللون.

وقال الزجاج[٣]: معنى زوج: نوع، وكريم: محمود، والمعنى: من كل زوج نافع لا يقدر على إنباته إلّا ربّ العالمين، والكريم في الأصل: الحسن الشريف، يقال: نخلة كريمة: أي كثيرة الثمرة، ورجل كريم: شريف فاضل، وكتاب كريم: إذا كان مرضياً في معانيه، والنبات الكريم: هو المرضي منافعه.

قال الشعبي[٤]: الناس مثل نبات الأرض، فمن صار منهم إلى الجنّة، فهو كريم، ومَنْ صار منهم إلى النار، فهو لئيم[٥].

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إلى المذكور قبله؛ أي: إنّ فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالة بينة، وعلامة واضحة على كمال قدرة الله سبحانه، وبديع صنعته.

ثم أخبر سبحانه: بأنّ أكثر هؤلاء مستمرّ على ضلالته، مُصمّم على جحوده، وتكذيبه، واستهزائه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: سبق علمي فيهم أنهم سيكونون هكذا.

وقال سيبويه[٦]: إنّ ﴿كَانَ﴾ هنا صلة. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم؛ مع كونه كثير الرحمة، ولذلك أمهلهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة، أو المعنى: أنه منتقم من أعدائه رحيم بأوليائه[٧].

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٨).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٨٣).
(٤) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٦٦).
(٥) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ١٦).
(٦) انظر: «الكتاب» (١/ ٧٣).
(٧) «معالم التنزيل» (٦/ ١٠٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

وجملة: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ إلخ، مستأنَفةٌ مسوقة لتقرير ما قبلها من الإعراض والتكذيب والاستهزاء، والعامل في الظرف محذوف[1] تقديره: واتل إذْ نادى، أو اذْكر، والنداء: الدعاء.

و «أنْ» في قوله: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يجوز أَنْ تكون مفسِّرة[2]، وأن تكون مصدرية، ووصفهم بالظلم؛ لأنهم جمعوا بين الكفر الذي ظلموا به أنفسهم، وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم كاستعباد بني إسرائيل، وذبح أبنائهم.

وانتصاب ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ على أنّه بدل، أو عطف بيان [٤/٣٢٩] من القوم الظالمين، ومعنى ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾: ألا يخافون عقابَ الله سبحانه، فيصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته.

وقيل: المعنى: قُلْ لهم: ألا تتقون؟ وجاء بالياء التحتية؛ لأنّهم غُيّب[3] وقت الخطاب.

وقرأ عُبيد بن عمير، وأبو حازم «ألا تتقون» بالفوقية[4]؛ أي: قل لهم ذلك، ومثله ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] بالتحتية والفوقية.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ أي: قال موسى هذه المقالة، والمعنى: أخاف أَنْ يكذبوني في الرسالة ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ معطوفان على أخاف؛ أي: يضيق صدري لتكذيبهم إيّاي، ولا ينطلق لساني بتأدية الرسالة، قرأ الجمهور[5] برفع ﴿وَيَضِيقُ﴾، ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾ بالعطف على أَخاف كما ذكرنا، أو على الاستئناف.

وقرأ يعقوب وعيسى بن عمر، وأَبو حيوة بنصبهما[6] عطفاً على يكذبون.

---

(١) «الفريد» (٣/ ٦٤٩)، و«التبيان» (٢/ ٩٩٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٣٩).
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ١٤٥)، و«التبيان» (٢/ ٩٩٤).
(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٧٥)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٤٥).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص١٠٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٧). هي قراءة شاذة، وقراءة العشرة بالياء التحتية.
(٥) «جامع البيان» (١٧/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٤٧)، و«النشر» (٢/ ٣٣٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٤٣).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

قال الفرّاء[(١)]: كلا القراءتين له وجه.

قال النّحاس[(٢)] الوجه: الرفع؛ لأنّ النصبَ عطفٌ على يكذبون، وهذا بعيدٌ.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾؛ أي: أرسل إليه جبريل بالوحي؛ ليكون معي رسولاً موازراً مُظاهراً معاوناً، ولم يذكر الموازرة هنا؛ لأنها معلومة من غير هذا الموضع كقوله في طه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾ [طه: ٢٩]، وفي القصص ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: ٣٤].

وهذا من موسى عليه السلام مِنْ باب طلب المعاونة له بإرسال أخيه، لا من باب الاستعفاء مِنْ الرسالة، ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ الذنب هو قتله للقبطي، وسمَّاه ذنباً بحسب زعمهم، فخاف موسى أنْ يقتلوه به، وفيه دليل على أنّ الخوف قد يحصل مع الأنبياء فضلاً عن الفضلاء، ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردْع، وطرف مِنْ الزجْر ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ﴾، وفي ضمن هذا الجواب إجابة موسى إلى ما طلبه مِنْ ضم أخيه إليه كما يدلّ عليه توجيه الخطاب إليهما، كأنّه قال: ارتدع يا موسى عَنْ ذلك، واذهب أنت ومَنْ استدعيته، ولا تخف مِنْ القبط ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، وفي هذا تعليل[(٣)] للردع عَنْ الخوف، وهو كقوله سبحانه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما، وأنّه متولّ لحفظهما وكلاءتهما، وأجراهما مجرى الجمع فقال: ﴿مَعَكُم﴾ لكون الاثنين أقلّ الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة، أو لكونه أراد موسى وهارون ومَنْ أرسلا إليه، ويجوز أن يكون المراد هما مع بني إسرائيل.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٨).
(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٧٥).
(٣) «روح المعاني» (١٩/ ١٥١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٩٦).

و﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ خبرانِ لـ «أنّ»، أو الخبر مستمعون، ومعكم متعلق به، ولا يخفى ما في المعية[١] مِنْ المجاز: لأن المصاحبة من صفات الأجسام، فالمراد[٢]: معية النُّصرة والمعونة.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، ووحّد[٣] الرسول هنا، ولم يثنه كما في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]؛ لأنّه مصدر بمعنى: رسالة، والمصدر يُوحّد، وأما إذا كان بمعنى المرسل، فإنه يثنى مع المثنى، ويجمع مع الجمع.

قال أبو عُبيدة[٤]: رسول بمعنى: رسالة، والتقدير على هذا: إنا ذوا رسالة ربّ العالمين، ومِنْه قول الشاعر[٥]:

أَلَا أبلغْ بني عمروٍ رسُولا ... فإنّي عن فتاحتكم غَنِيُّ

أي: رسالة. وقال العبّاس بن مرداس[٦]:

أَلَا من مُبْلغٌ عنّي خِفافا ... رَسُولا بيت أهلك مُنتهاها

أي: رسالة.

قال أبو عُبيدة[٧] أيضاً، ويجوز أَنْ يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع، تقول العرب: هذا رسولي ووكيلي، وهذان رسولي ووكيلي، وهؤلاء رسولي ووكيلي، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧].

وقيل معناه[٨]: إن كل واحد منا رسولُ رب العالمين، وقيل: إنهما لما كانا متعاضدين[٩] متساندين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد.

---

(١) تقدم توضيح معنى المعيَّة.
(٢) المعيَّة: يعتقد أهل الحق أهل السُّنَّة والجماعة أن الله معنا على الحقيقة وأنه فوق سماواته مستو على عرشه وهذه المعية ثابتة في الكتاب والسُّنَّة.
وانظر: الواسيطة لابن تيمية (ص١٩٣)، ورسالة في «تعقب معية الله على خلقه».
(٣) «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٩٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٥٣).
(٤) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٤).
(٥) قائله الأسعر الجعفي.
(٦) «خزانة الأدب» (٤/ ٣٦٧).
(٧) في «مجاز القرآ» (٢/ ٨٤).
(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٦).
(٩) «روح المعاني» (١٩/ ١٥٣).

و«أن» في قوله: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مفسِّرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾؛ أي: قال فرعون لموسى بعد أن أتياه، وقالا له ما أمرهما الله به.

ومعنى ﴿فِينَا﴾؛ أي: في حجرنا ومنازلنا، أراد بذلك المنّ[1] عليه، والاحتقار له؛ أي: ربيناك لدينا صغيراً، ولم نقتلك فيمن قتلنا من الأطفال ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، فمتى كان هذا الذي تدّعيه؟ قيل: لبث فيهم ثماني عشرة سنة[2].

وقيل: ثلاثين سنة[3]، وقيل: أربعين سنة[4].

ثم قُرّر بقتل[5] القبطي، فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ الفَعْلة بفتح[6] الفاء: المرّة مِنْ الفعل.

وقرأ الشعبي «فِعْلتك» بكسر[7] الفاء، والفتح أولى؛ لأنّها للمرّة الواحدة لا للنوع.

والمعنى: أنه لما عدّد عليه النِّعم ذكر له ذنوبه، وأراد بالفعل قتل القبطي، ثم قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مِنْ الكافرين[8] للنّعمة حيث قتلت رجلاً من أصحابي.

وقيل: المعنى: مِنْ الكافرين[9] بأن فرعون إلٰه.

وقيل: من الكافرين بالله في زعمه؛ لأنه كان معهم على دينهم.

والجملة في محل نصب[10] على الحال ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ أي:

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ١٥٤).
(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٥١) عن ابن عباس.
(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ١٠٩).
وذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٥٢) عن مقاتل.
(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٥٢) عن الكلبي.
(٥) «معالم التنزيل» (٦/ ١٠٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٥٥)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ١٥٢).
(٦) «البحر المحيط» (٨/ ١٤٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٥٥).
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١٠٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٤٦). هي قراءة شاذة.
(٨) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٥٥) عن ابن زيد.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٥٦) عن ابن زيد بسند صحيح.
(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٧) عن الحسن.
(١٠) «روح المعاني» (١٩/ ١٥٥)، و«الفريد» (٣/ ٦٥٣).

قال موسى مجيباً لفرعون: فعلتُ هذه الفَعْلة التي ذكرتَ، وهي قتل القبطي، وأنا إذ ذاك مِنْ الضالين؛ أي: الجاهلين[(١)]. فنفى عليه السلام عَنْ نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أَنْ يأتيه[(٢)] العلم الذي علمه الله.

وقيل: المعنى: مِنْ الجاهلين أن تلك الوكزة[(٣)] تبلغ القتل.

وقال أبو عُبيدة[(٤)]: من الناسين.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾؛ أي: خرجتُ مِنْ بينكم إلى مَدْين كما في سورة القصص، ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾؛ أي: نبوّة، أو علماً وفهماً.

وقال الزّجاج[(٥)]: المراد بالحكم تعليمه التوراة التي فيها حكم الله ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قيل: هذا الكلام مِنْ موسى على جهة الإقرار بالنِّعمة؛ كأنّه قال: نعم تلك التربية نعمة تمنّ بها عليّ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتي، وبهذا قال الفراء[(٦)]، وابن جرير[(٧)].

وقيل: هو مِنْ موسى على جهة الإنكار؛ أي: أتمنّ عليّ بأن ربيتني وليداً، وأنتَ قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم، وهم قومي؟

قال الزجاج[(٨)]: المفسّرون أخرجوا هذا على جهة الإنكار: بأن يكون ما ذكر فرعون نعمة على موسى، واللفظ لفظ خبر، وفيه تبكيت للمخاطب على معنى: أنك لو كنتَ لا تقتل أبناء بني إسرائيل لكانت أمي مستغنية عَنْ قذفي في اليمّ، فكأنك تمنّ عليّ ما كان بلاؤك سبباً له، وذكر نحوه الأزهري[(٩)] بأبسط منه.

وقال المبرِّد[(١٠)]: يقول التربية كانت بالسبب الذي ذكرت من التعبيد؛ أي:

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٥٨) عن مجاهد بسند صحيح.
(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٥٢).
(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٥٦).
(٤) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٧١). (٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٨٦).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٩). (٧) في «جامع البيان» (١٧/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠).
(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٨٧). (٩) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٥٢).
(١٠) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

تربيتك إيّاي كانت لأجل التملّك، والقهر لقومي، وقيل: إن في الكلام تقدير الاستفهام؛ أي: أو تلك نعمة؟ قاله الأخفش(١)، وأنكره النحاس(٢).

قال الفراء(٣): ومَنْ قال: إنّ الكلام إنكار، قال معناه: أو تلك نعمة؟ ومعنى ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أَنْ اتخذتهم عبيداً، يقال: عبّدته وأعبدته بمعنى، كذا قال الفراء(٣)، ومحله الرفع(٤) على أنّه خبر مبتدأ محذوف بدل من نعمة، والجر بإضمار الباء، والنصب بحذفها.

وقد أخرج ابن جرير(٥) عن ابن عباس ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ قال: ذليلين.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة(٦) ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ قال: قتل النفس.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس(٧) في قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: للنعمة، إنّ فرعون لم يكن ليعلم ما الكفر. وفي قوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: من الجاهلين.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد(٨): ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال: قهرتهم، واستعملتهم.

---

(١) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٤٥ ـ ٦٤٦).
(٢) في «إعراب القرآن» له (٣/ ١٧٧).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٧٩).
(٤) في «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٣٩)، و«التبيان» (٢/ ٩٩٥).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٤٥) بسند ضعيف عن ابن عباس.
قال: مُلقين أعناقهم.
(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٥٢ ـ ٢٧٥٥) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٥٦، ٥٥٨، ٥٥٩) بسند ضعيف.
(٨) عزاه إليهم السيوطي «الدر المنثور» (٦/ ٢٩١).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٦٠، ٥٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٥٦) بسند صحيح.

[قصة موسى مع فرعون وملئه]:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ
ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ
عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ
﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ
وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ
ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن
يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

لما سمع فرعون قولَ موسى وهارون ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] قال مستفسراً لهما عَنْ ذلك، عازماً على الاعتراض لِما قالاه، فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أيُّ شيء هو؟ جاء في الاستفهام بما التي يُستفهم بها عن المجهول، ويطلب بها تعيين الجنس، فلما قال فرعون ذلك، ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، فعيّن له ما أراد بالعالمين، وترك جواب ما سأل عنه فرعون؛ لأنّه سأله عَنْ جنس ربّ العالمين، ولا جنس[1] له، فأجابه موسى بما يدلّ على عظيم القُدرة الإلٰهية التي تتضح لكل سامع أنّه سبحانه الربّ، ولا ربّ غيره

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٥٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢١).

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي: إنْ كنتم موقنين[1] بشيءٍ من الأشياء، فهذا أولى بالإيقان. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾؛ أي: لمن حوله مِنْ الأشراف ألا تستمعون ما قاله؟ يعني: موسى مُعجباً لهم مِنْ ضعف المقالة كأنه قال: أتسمعون، وتعجبون، وهذا مِنْ اللعين مغالطة[2]، لمّا لم يجد جواباً عَنْ الحجة التي أوردها عليه موسى، فلما سمع موسى ما قال فرعون، أورد عليه حجةً أخرى هي مندرجة تحت الحجة الأولى، ولكنّها أقرب إلى فهم السامعين له فـ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا ربّ كما يدّعيه.

والمعنى: أن هذا الربّ الذي أدعوكم إليه هو الذي خلق آباءكم الأوّلين، وخلقكم، فكيف تعبدون مَنْ هو واحد منكم مخلوق كخلقكم، وله آباء قد فنوا كآبائكم؟ [٣/٣٣] فلم يُجبه فرعون عند ذلك بشيء يُعتدّ به؛ بل جاء بما يشكك قومه، ويخيل إليهم أن هذا الذي قاله موسى مما لا يقوله العقلاء، فـ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ قاصداً بذلك المغالطة، وإيقاعهم في الحيرة، مظهراً أنه مستخفّ بما قاله موسى[3]، مستهزئ به، فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأوّل، فـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه إليه مِنْ الجنون؛ بل بين لفرعون شمول ربوبية الله سبحانه للمشرق والمغرب، وما بينهما، وإن كان ذلك داخلاً تحت ربوبيته سبحانه للسماوات، والأرض، وما بينهما.

لكن فيه تصريح بإسناد حركات[4] السماوات وما فيها، وتغيير أحوالها وأوضاعها، تارةً بالنور، وتارة بالظلمة إلى الله سبحانه، وتثنية الضمير في: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ الأوّل لجنسي السمٰوات والأرض كما في قول الشاعر:

تـنـقّـلـتْ فـي أَشْـرفِ الـتَّـنـقُّـلِ ... بـيـن رِمَـاحَـيْ مـالـكٍ ونـهـشـلِ

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ١٦٥).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢١)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٦٥)، و«جامع البيان» (١٧/ ٥٦٣).
(٣) «جامع البيان» (١٧/ ٥٦٣)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٥٧ ـ ٥٨).
(٤) «روح المعاني» (١٩/ ١٦٤ ـ ١٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٩٩).

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: شيئاً من الأشياء، أو إن كنتم من أهل العقل؛ أي: إن كنتَ يا فرعون، ومَنْ معك من العقلاء عرفتَ، وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك إلّا ما ذكرت لك. ثم إنّ اللعين لما انقطع عن الحُجة رجع إلى الاستعلاء(١) والتغلب.

فـ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾؛ أي: لأجعلنّك من أهل السجن، وكان سجن فرعون أشدّ من القتل؛ لأنه إذا سجن أحداً لم يخرجه حتى يموت، فلما سمع موسى عليه السلام ذلك لاطفه طمعاً في إجابته، وإرخاءً لعنان المناظرة معه، مريداً لقهره بالحُجة المعتبرة في باب النبوّة، وهي إظهار المعجزة، فعرض له على وجه يلجئه إلى طلب المعجزة فـ ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: أتجعلني من المسجونين، ولو جئتك بشيء يتبين به صدقي، ويظهر عنده صحة دعواي؟ والهمزة هنا للاستفهام(٢)، والواو للعطف على مقدّر كما مرّ مراراً، فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه عليه موسى فـ ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك، وهذا الشرط جوابه محذوف؛ لأنه قد تقدّم ما يدلّ عليه، فعند ذلك أبرز موسى المعجزة ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

وقد تقدّم تفسير هذا وما بعده في سورة الأعراف. واشتقاق الثعبان(٣) من ثَعبتُ الماء في الأرض، فانثعبَ؛ أي: فجّرتُه، فانفجر.

وقد عبّر سبحانه في موضع آخر مكان الثعبان بالحية بقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، وفي موضع بالجانّ(٤)، فقال: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: ٣١، النمل: ١٠]، والجانّ هو المائل إلى الصغر، والثعبان هو المائل إلى الكبر، والحية جنس يشمل الكبير والصغير.

ومعنى ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾: ما رأيكم فيه، وما مشورتكم في مثله؟ فأظهر(٥) لهم الميل إلى ما يقولونه تألفاً لهم، واستجلاباً لمودّتهم؛ لأنّه قد أشرف ما كان فيه من

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢١ ـ ٢٢)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٥٧).
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ١٦٨ ـ ١٦٩). (٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص١٧٣).
(٤) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ١٣١).
(٥) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ١٣٢)، و«النكت والعيون» (٤/ ١٦٩).

دعوى الربوبية على الزوال، وقارب ما كان يغرّر به عليهم الاضمحلال، وإلّا فهو أكبر تيهاً، وأعظم كبراً مِنْ أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من أفرادهم، وواحد منهم، مع كونه قبل هذا الوقت يدّعي أنه إلٰههم، ويذعنون له بذلك، ويصدّقونه في دعواه، ومعنى ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾: أخّر أمرهما من أرجأتُه إذا أخّرته.

وقيل: المعنى: احبسْهما ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾، وهم الشُّرَط الذين يَحشُرون الناس؛ أي: يجمعونهم ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ هذا ما أشاروا به عليه، والمراد بالسحّار العليم: الفائق في معرفة السحر وصنعته. ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ هو يوم الزينة كما في قوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩] ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ حثّاً لهم على الاجتماع؛ ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة، ولمن تكون الغلبة، وكان ذلك ثقةً من فرعون بالظهور، وطلباً أن يكون بمجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم، فوقع ذلك من موسى الموقع الذي يريده؛ لأنه يعلم أن حجة الله هي الغالبة، وحجة الكافرين هي الداحضة، وفي ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحقين، والانقهار للمبطلين، ومعنى ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾: نتبعهم في دينهم ﴿إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

والمراد باتباع السحرة في دينهم: هو البقاء على ما كانوا عليه؛ لأنّه دين السحرة إذ ذاك، والمقصود: المخالفة لما دعاهم إليه موسى، فعند ذلك طلب السحرة من [فرعون][١] الجزاء على ما سيفعلونه فـ ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾؛ أي: لجزاء تجزينا به من مال، أو جاه.

وقيل: أرادوا إن لنا ثواباً عظيماً، ثم قيّدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى، فقالوا: ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾، فوافقهم فرعون على ذلك، و ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: نعم لكم ذلك عندي مع زيادة عليه، وهي كونكم من المقرّبين لديّ.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، وفي آية أخرى ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، فيُحمل ما هنا على أنه قال لهم: ألقوا

(١) في المخطوط: «موسى»، والصواب ما أثبتناه.

بعد أن قالوا هذا القول، ولم يكن[١] ذلك من موسى عليه السلام أمراً لهم بفعل السحر؛ بل أراد أن يقهرهم بالحُجة، ويظهر لهم أن الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟﴾ عند الإلقاء ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

يحتمل قولهم بعزّة فرعون، وجهين:

الأوّل: أنه قسم[٢]، وجوابه: إنَّا لنحن الغالبون.

والثاني: متعلق بمحذوف، والباء للسببية؛ أي: نَغْلب بسبب عزّته[٣]، والمراد بالعِزّة: العظمة.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ قد تقدّم تفسير هذا مستوفًى.

والمعنى: أنها تلقف ما صدر منهم من الإفك، بإخراج الشيء عن صورته الحقيقية ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾؛ أي: لما شاهدوا ذلك، وعلموا أنّه صنع صانع حكيم ليس من صنيع البشر، ولا من تمويه السحرة، آمنوا بالله، وسجدوا له، وأجابوا دعوة موسى، وقبلوا نبوّته، وقد تقدّم بيان معنى (أُلقيَ)، ومَنْ فاعله إذ وقع التصريح به. وعند سجودهم ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ربّ موسى عطف بيان لربّ العالمين، وأضافوه سبحانه إليهما؛ لأنهما القائمان بالدعوة في تلك الحال.

وفيه تبكيت[٤] لفرعون بأنّه ليس بربّ، وأن الربّ في الحقيقة هو هذا، فلما سمع فرعون ذلك منهم، ورأى سجودهم لله ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: بغير إذنٍ منّي.

ثم قال مغالطاً للسحرة الذين آمنوا، وموهماً للناس: أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحبّ الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى؛ لأنّه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاؤوا به السحرة، فأراد أَنْ يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم، وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة، فهو فعل كبيرهم، ومن

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ١٧٥)، و«تفسير الرازي» (٢٤/ ١٣٣).
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ١٧٥).
(٣) «تفسير الرازي» (٢٤/ ١٣٤)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٠٢).
(٤) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٠٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٧٨)، و«تفسير الرازي» (٢٤/ ١٣٥).

هو أستاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة، فلا تظنوا أنه فِعْلٌ لا يقدر عليه البشر، وأنه من فعل الربّ الذي يدعو إليه موسىٰ.

ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله، فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ﴾ أجمل التهديد[١] أوّلاً للتهويل، ثم فصله، فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فلما سمعوا ذلك من قوله: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا، فإن ذلك يزول، وننقلب بعده إلى ربنا، فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يُحدّ، ولا يُوصف.

قال الهروي[٢]: لا ضير، ولا ضَرَر، ولا ضُرّ بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة[٣]:

فإنَّك لا يَضرُّك بعدَ حولٍ أظبيٌّ كان أمُّك أمْ حمارُ[٤]

قال الجوهري[٥]: ضارَه يَضُوره، ويَضيره ضَيْراً، وضوراً؛ أي: ضرّه.

قال الكسائي[٦]: سمعتُ بعضَهم يقول: لا ينفعني ذلك ولا يضورني. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾، ثم علّلوا هذا بقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بنصب أن؛ أي: لأن كنا أوّل المؤمنين، وأجاز الفراء[٧] والكسائي[٨] كسرها على أن يكون مجازاة.

ومعنى ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أنّهم أوّل مَنْ آمن مِنْ قوم فرعون بعد ظهور الآية.

[عدد من آمن مع موسى عليه السلام]:

وقال الفراء[٩]: أول مؤمني زمانهم، وأنكره الزجاج[١٠]، وقال: قد روي أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، وهم الشرذمة القليلون الذين عناهم فرعون بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤].

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ١٧٩ ـ ١٨٠)، و«تفسير الرازي» (٢٤/ ١٣٥).
(٢) في «الغريبين» (٤/ ١١٢١).
(٣) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٥).
(٤) قائله: خداش بن زهير. «خزانة الأدب» (٩/ ٢٨٩).
(٥) في «الصحاح» (٢/ ٧٢٣).
(٦) ذكره الجوهري في «الصحاح» (٢/ ٧٢٣).
(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٠).
(٨) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٠).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٠).
(١٠) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩١).

وقد أخرج ابن جرير[(١)] عن ابن عباس في قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ يقول: مُبين له خَلْق حية ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ يقول: وأخرج موسى يده من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ﴾ تلمع ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٣] لمن ينظر إليها ويراها.

وأخرج ابنُ جرير[(٢)] عن ابن زيد في قوله: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ قال: كانوا بالإسكندرية. قال: ويقال: بلغ ذَنَبُ الحية من وراء البحيرة يومئذٍ. قال: وهربوا، وأسلموا فرعون، وهمّت به، فقال: خذها يا موسى، وكان مما بُلي الناس به منه أنه كان لا يضع على الأرض شيئاً؛ أي: يوهمهم أنّه لا يُحْدث، فأحدث يومئذٍ تحته.

وأخرج ابنُ جرير[(٣)] عن ابن زيد في قوله: [٣/٣٣١] ﴿لَا ضَيْرَ﴾ قال: يقولون: لا يضيرنا الذي تقول، وإنْ صنعت بنا، وصلبتنا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يقولون: إنّا إلى ربِّنا راجعون، وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيّانا، وثباتنا على توحيده، والبراءة من الكفر، وفي قوله: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالوا: كانوا كذلك يومئذٍ أوّل من آمن بآياته حين رأوها.

[نجاة موسى وقومه وغرق فرعون وقومه]:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾
فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا
ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ﴾ أمر الله سبحانه موسى أن يَخرج ببني إسرائيل ليلاً، وسمّاهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى؛ وبما جاء به.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٦٥) من طريق شهر بن حوشب، به.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٦٨) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٦٨) بسند صحيح.

وقد تقدّم تفسير مثل هذا في سورة الأعراف.

وجملة ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ تعليل للأمر المتقدّم؛ أي: يتبعكم فرعون وقومُه ليردّوكم، و﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾، وذلك حين بلغه مسيرهم، والمراد بالحاشرين: الجامعون للجيش مِنْ الأمكنة التي فيها أتباع فرعون.

ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ يريد: بني إسرائيل، والشرذمة الجمع الحقير القليل، والجمع شراذِم، قال الجوهري[١]: الشّرذمة الطائفة من الناس، والقِطعة من الشيء، وثوب شراذم؛ أي: قِطَع، ومنه قول الشاعر:

جاء الشِّتاءُ وقَميصي أخلاقُ شَراذمُ يضحكُ مِنْها الخَلاقُ

قال الفراء[٢]: يقال: عصبة قليلة، وقليلون، وكثيرة، وكثيرون.

قال المبرّد[٣]: الشرذمة القطعة من الناس غير الكثير، وجمعها الشراذم.

قال الواحدي[٤]: قال المفسرون: وكان الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف، ولا يُحصى عدد أصحاب فرعون.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ يقال: غاظني كذا، وأغاظني، والغيظ: الغضبُ، ومنه التغيُّظ، والاغتياظ؛ أي: غاظونا بخروجهم من غير إذن مني ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ قُرئ حِذرون، وحاذرون، وحذُرون بضم الذال.

حكى ذلك الأخفش[٥].

قال الفراء[٦]: الحاذر الذي يحذرك الآن، والحذر: المخلوق كذلك لا تلقاه إلّا حذراً.

وقال الزجاج[٧]: الحاذر: المستعد، والحذر: المتيقظ، وبه قال الكسائي[٨]، ومحمد بن يزيد[٩]. قال النحاس[١٠]: «حَذِرون»[١١] قراءة المدنيين، وأبي عمرو،

---

(١) في «الصحاح» (٥/ ١٩٦٠).

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٠).

(٣) ذكره الجوهري في «الصحاح» (٥/ ١٩٦٠).

(٤) في «الوسيط» (٣/ ٣٥٤).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٥).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٠).

(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩٢).

(٨) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٦).

(١٠) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٠).

(١١) «النشر» (٢/ ٣٣٥)، و«التيسير» (ص١٦٥). قراءة (حاذرون) و(حذِرون) بكسر الذال =

و«حاذرون» قراءة أهل الكوفة، قال: وأبو عبيدة[١] يذهب إلى أن معنى حذرون وحاذرون واحد، وهو قول سيبويه[٢]، وأنشد سيبويه:

حَـذِرٌ أُمـوراً لا تَـضـيـرُ وحَـاذِرٌ ... مـا لـيـس يُـنـجـيـه مـن الأقـدارِ[٣]

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ يعني: فرعون وقومه أخرجهم الله من أرض مصر، وفيها الجنات، والعيون، والكنوز، وهي جمع جنة، وعين، وكنز، والمراد بالكنوز الخزائن[٤].

وقيل: الدفائن[٥]، وقيل: الأنهار[٦]، وفيه نظر؛ لأنّ العيون المراد بها عند جمهور المفسرين[٧]: عيون الماء، فيدخل تحتها الأنهار.

واختلف في المقام الكريم؛ فقيل: المنازل الحسان[٨]، وقيل: المنابر[٩]، وقيل: مجالس الرؤساء[١٠]، والأمراء، وقيل: مرابط الخيل، والأوّل أظهر، ومن ذلك قول الشاعر:

وفـيـهـم مَـقَـامـاتٌ حِـسـانٌ وجـوهُـهـا ... وأَنـديـةٌ يـنـتـابُـهـا الـقَـولُ والـفِـعـلُ[١١]

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يحتمل أن يكون كذلك في محل نصب؛ أي: أخرجناهم مثلَ ذلك الإخراج الذي وصفنا، ويحتمل أنْ يكون في محل جرّ[١٢]

= متواترتان، فالكوفيون وابن ذكوان عن ابن عامر ووجه لهشام عنه قرأوا (حاذرون) وقرأ الباقون: (حَذرون) بفتح الحاء وكسر الذال وحذف الألف بعد الحاء أما ضم الذال فقراءة شاذة. «النشر» (٢/ ٣٣٥).

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٦). (٢) في «الكتاب» (١/ ١١٣).

(٣) «خزانة الأدب» (٨/ ١٦٩).

(٤) ذكره الماوردي في «النكت» (٤/ ١٧٢).

(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٧٢).

(٦) قاله الضحاك، كما في «النكت والعيون» (٤/ ١٧٢).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ١٥٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٨٧).

(٨) قاله سعيد بن جبير، كما في «النكت والعيون» (٤/ ١٧٢)، وذكر الألوسي في «روح المعاني» (١٩/ ١٨٧) عن النقاش.

(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٠) عن ابن عمر وابن عباس ومجاهد.

(١٠) حكاه ابن عيسى. «النكت والعيون» (٤/ ١٧٢).

(١١) قائله: زهير بن أبي سلمى.
انظر: «ديوان زهير» (ص١١٣ ـ «شرح ثعلب»).

(١٢) «روح المعاني» (١٩/ ١٨٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٥٩)، و«الفريد» (٣/ ٦٥٦).

على الوصفية؛ أي: مقام كريم مثلِ ذلك المقام الذي كان لهم، ويحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ[(١)] محذوف؛ أي: الأمرُ كذلك: ومعنى ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: جعلناها مُلْكاً لهم، وهو معطوف على ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾. ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ قراءة الجمهور[(٢)] بقطع الهمزة، وقرأ الحسن، والحارث الديناري بوصلها[(٣)]، وتشديد التاء؛ أي: فلحقوهم حال كونهم مُشْرقين؛ أي: داخلين في وقت الشروق، يقال: شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت كأصبح وأمسى؛ أي: دخل في هذين الوقتين، وقيل: داخلين نحو المشرق كأنجد وأتهم، وقيل: معنى ﴿مُّشْرِقِينَ﴾: مضيئين.

قال الزجاج[(٤)]: يقال: شرقت الشمسُ إذا طلعت، وأشرقت إذا أضاءت.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ قرأ الجمهور «تراءى» بتخفيف الهمزة[(٥)]، وقرأ ابن وثّاب، والأعمش من غير همز[(٦)]، والمعنى: تقابلا بحيث يرى كلّ فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية، وقرئ: «تراءت الفئتان»[(٧)].

﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؛ أي: سيدركنا جمع فرعون، ولا طاقة لنا بهم، قرأ الجمهور[(٨)] «إنا لمُدْرَكون» اسم مفعول من أدرك، ومنه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]، وقرأ الأعرج، وعُبيد بن عمير بفتح[(٩)] الدال مشدّدة، وكسر الراء.

قال الفراء[(١٠)]: هما بمعنى واحد.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ١٥٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣١).
(٣) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٥٩). وقراءة الحسن والحارث شاذة.
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩٢).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ١٥٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٩٠)، و«النشر» (٢/ ٦٦).
(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٥٩). حذف الهمزة وقراءة (قراءتِ الفئتان) شاذة.
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٩١)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٥٩).
(٨) «البحر المحيط» (٨/ ١٥٩ ـ ١٦٠)، و«التبيان» (٢/ ٩٩٦)، و«جامع البيان» (١٧/ ٥٨١).
(٩) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٥٩ ـ ١٦٠). وهي قراءة شاذة.
(١٠) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٠).

قال النحاس(١): ليس كذلك يقول النحويون الحُذّاق، إنما يقولون: مدركون بالتخفيف: ملحقون، وبالتشديد: مجتهدون في لحاقهم. قال: وهذا معنى قول سيبويه(٢).

وقال الزمخشري(٣): إنّ معنى هذه القراءة: إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد.

﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قال موسى هذه المقالة زَجْراً لهم وردعاً، والمعنى: أنهم لا يدركونكم، وذكرّهم وعد الله بالهداية والظفر، والمعنى: إن معي(٤) ربي بالنصر والهداية، سيهدين؛ أي: يدلني على طريق النجاة، فلما عظم البلاء على بني إسرائيل، ورأوا مِنْ الجيوش ما لا طاقة لهم به، وأمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه، وذلك قوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾.

لما قال موسى ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ بيّن الله سبحانه له طريق الهداية، فأمره بضرب البحر، وبه نجا بنو إسرائيل، وهلك عدوّهم.

والفاء في ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ فصيحة(٥)؛ أي: فضرب فانفلق، فصار اثني عشر فلقاً بعدد الأسباط، وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم، وهو معنى قوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾، والفرق القطعة من البحر، وقُرئ: «فِلْق» بلام(٦) بدل الراء، والطود: الجَبْل، قال امرؤ القيس(٧):

فبينا المَرءُ في الأحياءِ طَودٌ ... رماه النَّاسُ عن كَثَبٍ فمالا

وقال الأسود بن يعفر:

حلُّوا بأنقرةٍ يسيلُ عليهم ... ماءُ الفُراتِ يجيء من أطواد(٨)

---

(١) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٢).
(٢) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٢).
(٣) في «الكشاف» (٤/ ٣٩٥).
(٤) تقدم توضيح معنى ذلك.
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ١٦٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ١٩٤).
(٦) قرأ بها أبو المتوكل وأبو الجوزاء وعاصم الجحدري، وهي حكاية يعقوب عن بعض القراء. «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«زاد المسير» (٦/ ١٢٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٠٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٦٠). وهي قراءة شاذة.
(٧) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٣١٠).
(٨) ذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٦) دون نسبه.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾؛ أي: قرّبناهم إلى البحر يعني: فرعون وقومه. قال الشاعر:

وكلّ يومٍ مَضَى أو ليلةٍ سَلَفَتْ فيها النُّفوس إلى الآجالِ تَزْدلفُ[١]

قال أبو عبيدة[٢]: أزلفنا جمعنا، ومنه قيل لليلة المزدلفة: ليلة جَمْعٍ، و«ثَمَّ» ظرف مكان للبعيد.

وقيل: إنّ المعنى: وأزلفنا قربنا مِنْ النجاة، والمراد بالآخرين: موسى وأصحابه، والأوّل أولى.

وقرأ الحسن، وأبو حيوة، «وزلفنا» ثلاثيّاً[٣].

وقرأ أُبيّ، وابن عباس، وعبد الله بن الحارث: «وأزلقنا» بالقاف[٤]؛ أي: أزللنا، وأهلكنا مِنْ قولهم: أزلقت[٥] الفرس إذا ألقت ولدها.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ بمرورهم في البحر بعد أن جعله الله طرقاً يمشون فيها ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ يعني: فرعون وقومه أغرقهم الله بإطباق البحر عليهم بعد أَنْ دخلوا فيه متبعين موسى وقومه.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إلى ما تقدّم ذكره مما صدر بين موسى وفرعون إلى هذه الغاية، ففي ذلك آية عظيمة، وقُدْرة باهرة من أدلّ العلامات على قدرة الله سبحانه، وعظيم سلطانه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ما كان أكثر هؤلاء الذين مع فرعون مؤمنين، فإنّه لم يؤمن منهم فيما بعد إلّا القليل[٦] كحزقيل، وابنته، وآسية امرأة فرعون، والعجوز التي دلت على قبر يوسف.

= وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٣) ونسبه للأسود بن يعفر.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٣)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٧٥).

(٢) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٧).

(٣) «روح المعاني» (١٩/ ٢٠١)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٦١). القراءة المتواترة (وأزلفنا) وما عداها فشاذ.

(٤) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٦١).

(٥) «الصحاح» (٤/ ١٤٩١).

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ١٦١).

وليس المراد أكثر مَنْ كان مع فرعون عند لحاقه بموسى، فإنّهم هلكوا في البحر جميعاً بل المراد مَنْ كان معه من الأصل، ومن كان متابعاً له، ومنتسباً إليه، هذا غاية ما يمكن أن يقال.

وقال سيبويه(١) وغيره: إنَّ «كان» زائدة(٢)، وأن المراد الإخبار عن المشركين بعد ما سمعوا الموعظة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود(٣) في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ قال: ستمائة ألف وسبعون ألفاً.

وأخرج ابن أبي حاتم(٤) عن ابن عباس قال: كانوا ستمائة ألف.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر(٥) عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثني عشر سبطاً، فكان في كلّ طريق اثنا عشر ألفاً كلهم ولد يعقوب».

وأخرج ابن مردويه(٦) عنه أيضاً بسندٍ. قال السيوطي(٧): واه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كان فرعون عدوّ الله حيث أغرقه الله هو وأصحابه في سبعين قائداً مع كل قائد سبعون ألفاً، وكان موسى مع سبعين ألفاً حيث عبروا البحر».

وأخرج ابن أبي حاتم(٨) عنه أيضاً قال: كان طلائع فرعون الذين بعثهم في أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد إلّا على بهيم.

---

(١) في «الكتاب» (١/ ٧٣).
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٧٣) من طريق أبي عبيدة، به بسند ضعيف.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٥).
(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٥).
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٥).
(٧) في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٥).
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٥).

وأقول: هذه الروايات المضطربة قد روي عن كثير من السلف ما يماثلها في الاضطراب والاختلاف، ولا يصحّ منها شيء عَنْ النبيّ ﷺ.

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عن ابن عباس: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال: المنابر.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[٢] عنه في قوله: ﴿كَالطَّوْدِ﴾ قال: كالجبل.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر عن ابن مسعود[٣] مثله.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[٤] ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ قال: قرّبنا.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه عن أبي موسى[٥]، عن رسول الله ﷺ قال: «إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضلّ الطريق، فقال لبني إسرائيل: ما هذا؟ فقال له علماء بني إسرائيل: إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا، فقال لهم موسىٰ: أيكم يدري أين قبره؟، فقالوا: ما يعلم أحد مكان قبره إلّا عجوز لبني إسرائيل، فأرسل إليها موسى، فقال: دلينا على قبر يوسف؟، فقالت: لا والله حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك؟ قالت: أن أكون معك في الجنة، فكأنه ثقل عليه ذلك، فقيل له: أعطها حكمها، فأعطاها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء، فقالت لهم: انضبوا عنها الماء، ففعلوا، قالت: احفروا، فحفروا، فاستخرجوا قبر يوسف، فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار».

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٧٣) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٩٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٨٦) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣٤٦)، والحاكم (٢/ ٤٠٤، ٤٠٥).
قال ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٣٤٧): هذا حديث غريب جدّاً والأقرب أنّه موقوف، والله أعلم.

[قصة إبراهيم والرسالة إلى قومه]:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا
بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ
الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ [٣/٣٣٢]
(٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥)
وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ
(٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١)
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ
وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ
(١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾.

قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ معطوف على العامل في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾ [الشعراء: ١٠]، وقد تقدّم، والمراد بنبأ إبراهيم خبرُه؛ أي: اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم وحديثه.

و﴿إِذْ قَالَ﴾ منصوب[1] بنبأ إبراهيم؛ أي: وقتَ قوله: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وقيل: إذْ بدل مِنْ نبأ بدل اشتمال، فيكون العامل فيه اتل، والأوّل أولى.

ومعنى ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾: أيّ شيء تعبدون؟، وهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام، ولكنّه أراد إلزامهم الحجة ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾؛ أي: فنقيم على

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٢٠٩)، و«الإملاء» (٤/ ١١٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٦٢).

عبادتها مستمراً لا في وقت معين، يقال: ظلّ يفعل كذا: إذا فعله نهاراً، وبات يفعل كذا: إذا فعله ليلاً، فظاهره: أنّهم يستمرّون على عبادتها نهاراً لا ليلاً، والمراد من العكوف لها الإقامة على عبادتها.

وإنما قال: ﴿لَهَا﴾ لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها، فلما قالوا هذه المقالة قال إبراهيم منبهاً على فساد مذهبهم ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ قال الأخفش[1]: فيه حذف.

[المصنف يشنع على التقليد والمقلدة]:

والمعنى: هل يسمعون منكم، أَو هل يسمعون دعاءَكم. وقرأ قتادة «هل يُسْمِعُونَكُمْ» بضم[2] الياء؛ أي: هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم؟ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ﴾ بوجه من وجوه النفع ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾؛ أي: يضرّونكم إذا تركتم عبادتهم، وهذا الاستفهام للتقرير[3]، فإنها إذا كانت لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضرّ، فلا وجه لعبادتها، فإذا قالوا: نعم هي كذلك، أقرّوا بأنّ عبادتهم لها من باب اللعب والعبث، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة لم يجدوا لها جواباً إلّا رجوعهم إلى التقليد البحت، وهو أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون؛ أي: يفعلون هذه العبادة لهذه الأصنام مع كونها بهذه الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضر عنها.

وهذا الجواب هو العصى التي يتوكأ عليها كلّ عاجز، ويمشي بها كلّ أعرج، ويغترّ بها كل مغرور، وينخدع لها كل مخدوع؛ فإنّك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت الأرض بطولها، والعرض.

وقلت لهم: ما الحُجة لهم على تقليد فرد مِنْ أفراد العلماء، والأخذ بكل ما يقوله في الدين، ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل؟ لم يجدوا غير هذا الجواب، ولا فاهوا بسواه، وأخذوا يعدّدون عليك مَنْ سبقهم إلى تقليد هذا من سلفهم، واقتداء بأقواله وأفعاله وهم قد ملئوا صدورهم هيبة، وضاقت أذهانهم عن تصوّرهم،

---

(١) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٤٦).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٩/ ٣٦).
(٣) «روح المعاني» (١٩/ ٢١٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٠٧).

وظنوا أنهم خيرُ أهل الأرض وأعلمهم وأورعهم، فلم يسمعوا لناصح نصحاً، ولا لداع إلى الحق دعاء، ولو فطنوا لوجدوا أنفَسهم في غرور عظيم، وجهل شنيع، وإنهم كالبهيمة العمياء، وأولئك الأسلاف كالعُمي الذين يقودون البهائم العمي، كما قال الشاعر:

كَبَهِيمَةٍ عَمياءَ قادَ زِمامَها أَعْمى على عِوَجِ الطَّريقِ الحَائرِ

فعليك أيها العامل بالكتاب والسُّنَّة المبرأ مِنْ التعصب والتعسّف: أن تورد عليهم حجج الله، وتقيم عليهم براهينه، فإنه ربما انقاد لك مِنْهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه.

وأما مَنْ قد استحكم في قلبه هذا الداء، فلو أوردت عليه كلّ حجة، وأقمت عليه كلّ برهان لما أعارك إلّا أُذناً صماء، وعيناً عمياء، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن، والهداية بيد الخلّاق العليم ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة ﴿قَالَ﴾ الخليل ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾؛ أي: فهل أبصرتم، وتفكّرتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التي لا تسمع، ولا تنفع، ولا تضرّ حتى تعلموا أنكم على ضلالة وجهالة.

ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التي يعبدونها. فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾، ومعنى كونهم عدوًّا له مع كونهم جماداً: أنه إنْ عبدهم كانوا له عدوًّا يوم القيامة.

قال الفراء(١): هذا من المقلوب؛ أي: فإني عدوّ لهم؛ لأن من عاديته عاداك، والعدوّ كالصديق يُطلق على الواحد، والمثنى، والجماعة، والمذكر، والمؤنث، كذا قال الفراء.

قال عليّ بن سليمان(٢): مَنْ قال: عدوّة الله، فأثبت الهاء، قال: هي بمعنى المُعادية، ومن قال: عدوّ، للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب.

وقيل: المراد بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ آباؤهم الأقدمون لأجل عبادتهم الأصنام.

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨١).
(٢) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٣).

وردّ بأن الكلام مسوق فيما عبدوه لا في العابدين، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ منقطع[١]؛ أي: لكن ربّ العالمين ليس كذلك؛ بل هو وليي في الدنيا والآخرة.

قال الزجاج[٢]: قال النحويون: هو استثناء ليس من الأوّل، وأجاز الزجاج أيضاً أن يكون من الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ، ويعبدون معه الأصنام، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلّا الله.

قال الجُرجاني[٣]: تقديره: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلّا رب العالمين، فإنّهم عدوّ لي، فجعله مِنْ باب التقديم والتأخير، وجعل إلّا بمعنى دون وسوى كقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]؛ أي: دون الموتة الأولى.

وقال الحسين بن الفضل[٤]: إن المعنى: إلّا من عبد ربّ العالمين، ثم وصف ربّ العالمين بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾؛ أي: فهو يُرشدني إلى مصالح الدين والدنيا.

وقيل: إنّ الموصول[٥] مبتدأ، وما بعده خبره، والأوّل أولى.

ويجوز أن يكون الموصول[٦] بدلاً من ربّ، وأن يكون عطف بيان له، وأن يكون منصوباً على المدح بتقدير: أعني، أو أمدح.

وقد وصف الخليل ربّه بما يستحق العبادة لأجله، فإن الخلق، والهداية، والرزق يدلّ عليه قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾، ودفع ضرّ المرض، وجلب نفع الشفاء، والإماتة، والإحياء، والمغفرة للذنب، كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلاً عن كلها أَنْ يشكر المُنِعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها، وأولاها العبادة.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٢١٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٠٧).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩٣).
(٣) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٦٤)، والقرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٨).
(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ١١٧).
(٥) «روح المعاني» (١٩/ ٢١٣)، و«التبيان» (٢/ ٩٩٧)، و«الفريد» (٣/ ٦٥٧).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

ودخول هذه الضمائر في صدور هذه الجمل للدلالة على أنّه الفاعل لذلك دون غيره، وأسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية للأدب[(١)] مع الربّ، وإلّا فالمرض، وغيره من الله سبحانه، ومراده بقوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ البعث، وحذف الياء[(٢)] من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآي.

وقرأ ابنُ أبي إسحاق[(٣)] هذه الأفعال كلها بإثبات الياء، وإنما قال عليه الصلاة والسلام: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ هضماً لنفسه.

وقيل: إنّ الطمع هنا بمعنى اليقين[(٤)] في حقِّه، وبمعنى الرجاء في حق سواه.

وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق «خطاياي»[(٥)] قالا: ليست خطيئته واحدة.

قال النحاس[(٦)]: خطيئة بمعنى خطايا في كلام العرب.

قال مجاهد[(٧)]: يعني بخطيئته: قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله: إن سارة أخته، زاد الحسن: وقوله للكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦].

وحكى الواحدي[(٨)] عن المفسرين: أنهم فسروا الخطايا بما فسرها به مجاهد[(٩)].

قال الزجاج[(١٠)]: الأنبياء بشر، ويجوز أن تقع عليهم الخطيئة إلّا أنهم لا تكون منهم الكبيرة؛ لأنهم معصومون.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٢١٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٠٨).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٨).
(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٨٤). قراءة العشرة بخذف الياء لكونه رؤوس الآي، وقرأ يعقوب بإثبات الياء.
(٤) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٩/ ٢١٨)، والرازي في «تفسيره» (٢٤/ ١٤٥).
قال الألوسي: وليس بذاك.
وقال الرازي: وهو أنّ الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة.
(٥) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢١٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٦٦).
قراءة العشرة (خطيئتي) بالأفراد، وهي المتواترة وما عداها فشاذ.
(٦) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٤)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٨٧).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٩٢ ـ ٥٩٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٨٠) بسند صحيح.
(٨) في «الوسيط» (٣/ ٣٥٥).
(٩) تقدم تخريجه.
(١٠) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩٤).

والمراد بيوم الدين: يوم الجزاء للعباد بأعمالهم، ولا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد، ومَنْ معه ضعيف، فإن تلك معاريض[١]، وهي أيضاً إنما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه.

ثم لمّا فرغ الخليل مِنْ الثناء على ربه، والاعتراف بنعمه عقّبه بالدعاء؛ ليقتدي به غيره في ذلك.

فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾، والمراد بالحكم العلم والفهم[٢]، وقيل: النبوّة[٣] والرسالة.

وقيل: المعرفة[٤] بحدود الله، وأحكامه إلى آخره.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يعني: بالنبيين مِنْ قبلي. وقيل: بأهل الجنة[٥].

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي: اجعل لي ثناءً حسناً[٦] في الآخرين الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة.

قال القتيبي[٧]: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة؛ لأن القول يكون به، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة، ومنه قول الأعشى[٨]:

إنـي أتـتـنـي لـسـان لا أُسـرُّ بـهـا[٩]

وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٨] فإنّ كل أمة تتمسك به وتعظمه.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٢١٧)، و«تفسير الرازي» (٢٤/ ١٤٥)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٥٧).
(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٥٦)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ١١٨) عن مقاتل.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١) عن الكلبي.
(٤) قاله ابن عباس: «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤١)، و«الوسيط» (٣/ ٣٥٦).
(٥) «النكت والعيون» (٤/ ١٧٦).
(٦) وذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٨١) عن مجاهد والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٧٧)، عن مجاهد وقتادة.
(٧) في «تأويل مشكل القرآن» (ص١١١).
(٨) وهو أعشى باهلة. «الكامل» للمبرد (٣/ ١٤٣).
(٩) وعجز البيت:

مـن عَـلْـوُ لا عَـجَـبٌ مـنـهـا ولا سَـخَـرُ

وقال مكي[١]: قيل: معنى سؤاله: أن يكون من ذريته في آخر الزمان مَنْ يقوم بالحق، فأُجيبت دعوته في محمد ﷺ، ولا وجه لهذا التخصيص.

وقال القشيري[٢]: أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة، ولا وجه لهذا أيضاً، فإن لسان الصدق أعمّ من ذلك ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ من ورثة: يحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً، وأن يكون صفة [٣/٣٣٣] لمحذوف هو المفعول الثاني؛ أي: وارثاً من ورثة جنة النعيم، لما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة، وهي جنة النعيم، وجعلها مما يورث تشبيهاً لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا.

وقد تقدّم تفسير معنى الوراثة في سورة مريم. ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ كان أبوه قد وعده أنّه يؤمن به، فاستغفر له، فلما تبين له أنه عدوّ الله تبرأ منه.

وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة التوبة، وسورة مريم، ومعنى ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾: من المشركين الضالين عن طريق الهداية، وكان زائدة على مذهب سيبويه[٣] كما تقدّم في غير موضع. ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: لا تفضحني على رؤوس الأشهاد بمعاتبتي، أو لا تعذبني[٤] يوم القيامة، أو لا تخزني بتعذيب أبي، أو ببعثه في جملة الضالين، والإخزاء يطلق على الخزي، وهو الهوان، وعلى الخزاية، وهي الحياء.

و﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ بدل[٥] من يوم يبعثون؛ أي: يوم لا ينفع فيه المال والبنون أحداً من الناس، والابن هو أخصّ القرابة، وأولاهم بالحماية، والدفع، والنفع، فإذا لم ينفع، فغيره من القرابة، والأعوان بالأولى.

وقال ابنُ عطية[٦]: إن هذا وما بعده من كلام الله، وهو ضعيف، والاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قيل: هو منقطع[٧]؛ أي: لكن من أتى الله بقلب سليم.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٦٧).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١). (٣) في «الكتاب» (١/ ٧٣).
(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٢٢٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٣).
(٥) «التبيان» (٢/ ٩٩٧)، و«الفريد» (٣/ ٦٥٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٢٣).
(٦) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٦٨).
(٧) «روح المعاني» (١٩/ ٢٢٤)، و«التبيان» (٢/ ٩٩٧ ـ ٩٩٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٦٨).

قال في «الكشاف»[(١)]: إلا حال مَنْ أتى الله بقلب سليم، فقدّر مضافاً محذوفاً.

قال أبو حيان[(٢)]: ولا ضرورة تدعو إلى ذلك.

وقيل: إن هذا الاستثناء[(٣)] بدل من المفعول المحذوف، أو مستثنى منه، إذ التقدير لا ينفع مال، ولا بنون أحداً من الناس إلّا من كانت هذه صفته، ويحتمل أن يكون بدلاً من فاعل ينفع، فيكون مرفوعاً.

قال أبو البقاء[(٤)]: فيكون التقدير: إلّا مال مَنْ أو بنو مَنْ، فإنه ينفع.

[اختلافهم في معنى القلب السليم]:

واختلف في معنى القلب السليم، فقيل: السليم من الشرك، فأما الذنوب، فليس يسلم منها أحد، قاله أكثر المفسرين.

وقال سعيد بن المسيب[(٥)]: القلب السليم الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض.

وقيل: هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السُّنَّة[(٦)]. وقيل: السالم من آفة المال[(٧)] والبنين.

وقال الضحاك[(٨)]: السليم الخالص.

وقال الجنيد[(٩)]: السليم في اللغة اللديغ، فمعناه: أنه قلب كاللديغ من خوف الله تعالى، وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن.

قال الرازي[(١٠)]: أصح الأقوال: أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة.

---

(١) «الكشاف» (٤/ ٣٩٩).
(٢) في «البحر المحيط» (٨/ ١٦٨ ـ ١٦٩).
(٣) «التبيان» (٢/ ٩٩٧)، و«الفريد» (٣/ ٦٥٨).
(٤) في «الإملاء» (٤/ ١١٦).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٤)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٥٦).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٤)، عن أبي عثمان النيسابوري وهو عالم زاهد، اسمه: سعيد بن أبي سعيد، المعروف بالعبَّار (ت٤٥٧هـ).
(٧) قاله الحسين بن الفضل: «معالم التنزيل» (٦/ ١٢١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٤).
(٨) «النكت والعيون» (٤/ ١٧٧).
(٩) «زاد المسير» (٦/ ١٣١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٤).
(١٠) في «تفسيره» (٢٤/ ١٥١).

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: قُربت، وأدنيت لهم[١]؛ ليدخلوها.

وقال الزجاج[٢]: قرب دخولهم إياها، ونظرهم إليها ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾؛ أي: جُعلتْ بارزةً لهم، والمراد بالغاوين: الكافرون، والمعنى: أنها أُظهرت قبل أن يدخلها المؤمنون، ليشتدّ حزن الكافرين، ويكثر سرور المؤمنين.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ فيدفعون عنكم العذاب ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ بدفعه عن أنفسهم. وهذا كله توبيخ[٣] وتقريع لهم.

وقرأ مالك بن دينار «وبَرَزت» بفتح الباء[٤]، والراء مبنياً للفاعل ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾؛ أي: ألقوا في جهنم هم يعني: المعبودين، والغاوون يعني: العابدين لهم.

وقيل: معنى كُبْكبوا: قُلبوا على رؤوسهم.

وقيل: ألقى بعضهم على بعض.

وقيل: جمعوا، مأخوذ من الكبكبة، وهي الجماعة قاله الهروي[٥].

وقال النحاس[٦]: هو مشتق من كوكب الشيء؛ أي: معظمه، والجماعة من الخيل كوكب، وكبكبة، وقيل: دُهدهوا، وهذه المعاني متقاربة، وأصله كببّوا بباءين الأولى مشدّدة من حرفين، فأبدل من الباء الوسطى الكاف.

وقد رجح الزجاج[٧] أن المعنى: طرح بعضهم على بعض.

ورجح ابن قتيبة[٨] أن المعنى: ألقوا على رؤوسهم.

وقيل: الضمير في كبكبوا لقريش، والغاوون الآلهة.

والمراد بجنود إبليس شياطينه الذين يغوون العباد، وقيل: ذريته، وقيل: كل من يدعو إلى عبادة الأصنام.

---

(١) ذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٦).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩٤).
(٣) «زاد المسير» (٦/ ١٣١)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٢٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢١١).
(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٢٢٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٦٩). وهي قراءة شاذة.
(٥) في «الغريبين» (٥/ ١٦٠٧).
(٦) في «معاني القرآن» (٥/ ٨٩).
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩٤).
(٨) في «غريب القرآن» له (ص٣١٨).

و﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد للضمير في كبكبوا، وما عطف عليه.

وجملة: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر؛ كأنه قيل: ماذا قالوا حين فُعل بهم ما فعل؟ ومقول القول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وجملة: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ في محل نصب(١) على الحال؛ أي: قالوا هذه المقالة حال كونهم في جهنّم مختصمين.

و«إن» في ﴿إِن كُنَّا﴾ هي المخففة من الثقيلة(٢)، واللام فارقة بينها وبين النافية؛ أي: قالوا تالله إن الشأن كوننا في ضلال واضح ظاهر.

والمراد بالضلال هنا: الخسار، والتبار، والحيرة عن الحق، والعامل في الظرف، أعني: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هو كونهم في الضلال المبين. وقيل: العامل هو الضلال.

وقيل: ما يدل عليه الكلام؛ كأنه قيل: ضللنا وقت تسويتنا لكم بربّ العالمين.

وقال الكوفيون(٣): إنّ «إن» في ﴿إِن كُنَّا﴾ نافية، واللام بمعنى إلّا؛ أي: ما كنا إلّا في ضلال مبين. والأوّل أولى، وهو مذهب البصريين.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ يشفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ذي قرابة، والحميم القريب الذي تودّه، ويودّك.

ووحّد الصديق لما تقدّم غير مرة أنّه يطلق على الواحد، والاثنين، والجماعة، والمذكر، والمؤنث، والحميم(٤) مأخوذ من حامة الرجل؛ أي: أقربائه، ويقال: حمّ الشيء وأحمّ إذا قرب منه، ومنه الحُمّى؛ لأنه يقرّب من الأجل.

وقال علي بن عيسى(٥): إنما سمي القريب حميماً؛ لأنه يحمى لغضب صاحبه، فجعله مأخوذاً من الحمية.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا منهم على طريق التمنّي الدالّ على كمال

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٢٣١)، و«الفريد» (٣/ ٦٥٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٧٠).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة. (٣) «روح المعاني» (١٩/ ٢٣١).
(٤) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٥٨).
(٥) «النكت والعيون» (٤/ ١٧٨ ـ ١٧٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨).

التحسر كأنهم قالوا: فليت لنا كرّةً؛ أي: رجعةً إلى الدنيا، وجواب التمني: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: نصير من جملتهم.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إلى ما تقدّم ذكره من نبأ إبراهيم، والآية العبرة، والعلامة، والتنوين[1] يدل على التعظيم والتفخيم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول الله ﷺ نبأ إبراهيم، وهم قريش، ومَنْ دان بدينهم.

وقيل: وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين، وهو ضعيف؛ لأنهم كلهم غير مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه، أو الرحيم للأعداء بتأخير عقوبتهم، وترك معاجلتهم.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن ابن عباس[2] في قوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني: بأهل الجنة.

وأخرج ابن أبي حاتم[3] عنه في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ قال: اجتماع أَهل الملل على إبراهيم.

وأخرجَ عنه[4] أيضاً ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ قال: امنن عليه بتوبةٍ يستحق بها مغفرتك.

وأخرج البخاري، وغيره من حديث أبي هريرة[5] عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرة وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: ربّ إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرّمت الجنة على الكافرين، ثم يقول: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟، فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»، والذيخ هو الذكر من الضباع، فكأنه حُوّل آزر إلى صورة ذيخ.

وقد أخرجه النسائي[6] بأطول من هذا.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٢٣٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٠٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٨١) بسند ضعيف، الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٨١) بسند ضعيف كسابقه.

(٥) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٣٣٥٠، ٤٧٦٨، ٤٧٦٩).

(٦) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٣٧٥).

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلّا الله.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٢] عنه: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ قال: جُمعوا فيها ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ قال: مشركو العرب والآلهة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عنه أيضاً ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ قال: رجعةً إلى الدنيا ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى تحلّ لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء.

[قصة نوح مع قومه]:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ
حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن
لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى
وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

[قصة هود مع قومه]:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ
بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ
﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ
وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٨٣)، وأبو نعيم (١/ ٣٢٣) من طريق أبي الجوزاء، به.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٥٩٧، ٥٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٨٥) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٨٧٨) بسند ضعيف.

[من كذّب رسولاً فقد كذّب الرسل]:

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنّث الفعل لكونه مسنداً إلى قوم، وهو في معنى الجماعة[١] أو الأمة أو القبيلة وأوقع التكذيب على المرسلين، وهم لم يكذبوا إلّا الرسول المُرَسل إليهم؛ لأنّ من كذب رسولاً، فقد كذب الرسل؛ لأن كلّ رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل.

وقيل[٢]: كذبوا نوحاً في الرسالة، وكذبوه فيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾؛ أي: أخوهم مِنْ أبيهم، لا أخوهم في الدين.

وقيل: هي أخوة المجانسة، وقيل: هو من قول العرب[٣]: يا أخا بني تميم، يُريدون واحداً منهم.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ أي: ألا تتقون اللهَ بترك عبادة الأصنام، وتجيبون رسوله الذي أرسله إليكم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: إنّي لكم رسول من الله أمين فيما أبلغكم عنه، وقيل: أمين فيما بينكم، فإنّهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقه.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ أي: اجعلوا طاعة الله وقايةً لكم من عذابه، وأطيعون فيما آمركم به عن الله من الإيمان به وترك الشرك، والقيام بفرائض الدين.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [٣/٣٣٤]؛ أي: ما أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، ولا أطمع في ذلك منكم ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ الذي أطلبه وأريده ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ما أجري إلّا عليه، وكرّر قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ للتأكيد[٤] والتقرير في النفوس مع كونه علّق كل واحد منهم بسبب، وهو الأمانة في الأوّل، وقطع الطمع في الثاني، ونظيره قولك: ألّا تتقي[٥] الله في عقوقي، وقد ربيتك صغيراً؟! ألّا تتقي الله في عقوقي، وقد علمتُك كبيراً؟!

[تقوى الله سبب لطاعته]:

وقدّم الأمر[٦] بتقوى الله على الأمر بطاعته؛ لأن تقوى الله علةٌ لطاعته ﴿قَالُوٓا۟

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٣٧).
(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٩٥).
(٣) «الوسيط» (٣/ ٣٥٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٣٨).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٥٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٧٥).
(٥) انظر نصه في: «التفسير الكبير» للرازي (٢٤/ ١٥٤ ـ ١٥٥).
(٦) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ١٥٥).

أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ الاستفهام[١] للإنكار؛ أي: كيف نتبعك ونؤمن لك، والحال أن قد اتبعك الأرذلون؟ وهم جمع أرذَل، وجمع التكسير أرذال، والأنثى رُذْلى، وهم الأقلّون جاهاً ومالاً، والرذالة: الخسّة والذلة، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم، أو لاتِّضاع أنسابهم.

وقيل: كانوا من أهل الصناعات الخسيسة، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في هود.

وقرأ ابن مسعود، والضحاك، ويعقوب الحضرمي: «وأَتْباعُك الأرذلون»[٢] قال النحاس[٣]: وهي قراءة حسنة؛ لأنّ هذه الواو تتبعها الأسماء كثيراً، وأتباع جمع تابع، فأجابهم نوح بقوله: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كان زائدة[٤].

والمعنى[٤]: وما علمي بعملهم؛ أي: لم أُكلّف العلم بأعمالهم. إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار به، لا بالحِرف، والصنائع، والفقر، والغنى، وكأنهم أشاروا بقولهم: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ إلى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح، فأجابهم بهذا.

وقيل: المعنى: إني لم أعلم[٥] أن الله سيهديهم ويضلكم ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾؛ أي: ما حسابهم، والتفتيش عن ضمائرهم وأعمالهم إلّا على الله لو كنتم من أهل الشعور والفهم، قرأ الجمهور: «تشعرون» بالفوقية[٦]، وقرأ ابن أبي عبلة، وابن السميفع، والأعرج، وأبو زرعة بالتحتية[٧]؛ كأنه ترك الخطاب للكفار، والتفت إلى الإخبار عنهم.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٢٣٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢١٤).
(٢) «المحتسب» (٢/ ١٣١)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٧٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩).
(٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٦). وهي قراءة متواترة عن يعقوب، وقرأ بقية العشرة (اتّبعك) على أنه فعل ماضٍ «النشر» (٢/ ٣٣٥).
(٤) «الوسيط» (٣/ ٣٥٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٦/ ١٣٥)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٢١).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) «البحر المحيط» (٨/ ١٧٧)، و«النشر» (٣/ ٣٥٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٥)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٤١).
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٧٧). المتواتر قراءة الجمهور، والقراءة بالتحتية شاذة.

[الصناعات لا تضر في باب الديانات]:

قال الزجاج(١): والصناعات لا تضرّ في باب الديانات، وما أحسنَ ما قال. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا جوابٌ مِنْ نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ما أنا إلا نذير موضّح لما أمرني الله سبحانه بإبلاغه إليكم، وهذه الجملة كالعلّة لما قبلها.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾؛ أي: إن لم تترك عيب ديننا، وسبّ آلهتنا لتكونن من المرجومين(٢) بالحجارة، وقيل: من المشتومين(٣)، وقيل: من المقتولين(٤)، فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجّبر والتوعد، فلما سمع نوح قولهم هذا ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾؛ أي: أصرّوا على تكذيبي، ولم يسمعوا قولي، ولا أجابوا دعائي ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ الفتح الحُكم؛ أي: احكم بيني وبينهم حكماً.

وقد تقدّم تحقيق معنى الفتح ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له، فقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ أي: السفينة المملوءة، والشحن: ملء السفينة بالنّاس، والدوابّ، والمتاع ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾. أي: ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾؛ أي: علامة وعبرة عظيمة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كان زائدة عند سيبويه(٥)، وغيره على ما تقدّم تحقيقه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: القاهر لأعدائه، الرحيم بأوليائه.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنّث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة؛ لأن عاداً اسم أبيهم الأعلى.

ومعنى تكذيبهم المرسلين مع كونهم لم يكذبوا إلا رسولاً واحداً قد تقدّم وجهه في قصة نوح قريباً ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الكلام فيه كالكلام في قول نوح المتقدم قريباً.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩٥).

(٢) قاله قتادة. «الوسيط» (٣/ ٣٥٨)، و«النكت والعيون» (٤/ ١٧٩).

(٣) قاله السدي، كما في «النكت والعيون» (٤/ ١٧٩). وقاله البغوي في «تفسيره» (٦/ ١٢١) عن الضحاك.

(٤) قال ابن عباس ومقاتل. «الوسيط» (٣/ ٣٥٨)، و«زاد المسير» (٦/ ١٣٥)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٢١).

(٥) انظر: «الكتاب» (١/ ٣).

وكـذا قـولـه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٠٨ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الكلام فيه كالذي قبله سواء ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ الرِّيعُ: المكان المرتفع من الأرض جمع رِيعة، يقال: كم رِيعُ أرضك؟؛ أي: كم ارتفاعها.

قال أبو عبيدة[١]: الريع: الارتفاع جمع ريعة.

وقال قتادة[٢]، والضحاك، والكلبي: الريع الطريق، وبه قال مقاتل، والسديّ.

وإطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة، ومنه قول ذي الرُّمة[٣]:

طَرَّاقُ الخَوَافي مُشْرِقٌ[٤] فوقَ رِيْعةٍ بـذي لَـيْـلـةٍ فـي رِيْـشـهِ يـتـرقـرقُ

وقيل: الريع الجبل، واحده ريعة، والجمع أرياع.

وقال مجاهد[٥]: هو الفجّ بين الجبلين، وروي عنه أنه الثنية الصغيرة، وروي عنه أيضاً أنه المنظرة.

ومعنى الآية: أنكم تبنون بكل مكان مرتفع علماً تعبثون ببنيانه، وتلعبون بالمارة، وتسخرون منهم؛ لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق، فتؤذون المارة، وتسخرون منهم.

وقال الكلبي: إنه عبث العشّارين بأموال مَنْ يمرّ بهم حكاه الماوردي[٦].

قال ابن الأعرابي[٧]: الريع الصومعة، والريع: البرج يكون في الصحراء، والريع التلّ العالي، وفي الريع لغتان كسر الراء، وفتحها.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ المصانع: هي الأبنية التي يتخذها الناس منازل.

---

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٨).
(٢) «النكت والعيون» (٤/ ١٨٠)، و«الوسيط» (٣/ ٣٥٨)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٩٢).
(٣) انظر: «ديوان ذي الرمَّة» (١/ ٤٨٨)
(٤) والذي في «الديوان» (واقعٌ) بدل (مشرقٌ).
(٥) أخرج هذه الأقوال عنه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٩٣) بسند صحيح.
(٦) في «النكت والعيون» (٤/ ١٨١).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٥٦).

قال أبو عُبيدة[(١)]: كلُّ بناء مَصْنعة، وبه قال الكلبي[(٢)]، وغيره، ومنه قول الشاعر:

تَـرَكْـنَ دِيـارَهـم مـنـهُـم قِـفـارا   وهَـدّمـنـا الـمـصـانـعِ والـبُـروجـا[(٣)]

وقيل: هي الحصون المشيدة، قاله مجاهد[(٤)] وغيره، وقال الزجاج[(٥)]: إنها مصانع الماء التي تجُعل تحت الأرض واحدتها مَصْنعة، ومصنع، ومنه قول لبيد:[(٦)]

بَـلـيـنـا ومـا تَـبْـلـى الـنُّـجـومُ الـطَّـوالـعُ   وتـبـقـى الـجـبـالُ بـعـدنـا والـمَـصَـانـعُ

وليس في هذا البيت ما يدلّ صريحاً على ما قاله الزجاج، ولكنه قال الجوهري[(٧)]: المصنُعة بضم النون الحوض يجمع فيه ماء المطر، والمصانع الحصون.

وقال عبد الرزاق[(٨)]: المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العالية. ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: راجين أن تخلدوا، وقيل: إن لعل هنا للاستفهام التوبيخي[(٩)]؛ أي: هل تَخْلُدون؟ كقولهم: لعلك تشتمني؛ أي: هل تشتمني.

وقال الفراء[(١٠)]: كي تخلدون لا تتفكرون في الموت، وقيل: المعنى كأنكم باقون مخلدون. قرأ الجمهور ﴿تَخْلُدُونَ﴾ مخففاً[(١١)].

وقرأ قتادة[(١٢)] بالتشديد.

وحكى النحاس[(١٣)]: أنّ في بعض القراءات «كأنّكم مُخلَّدون»، وقرأ ابن

---

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٨).
(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٥٦)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٢٢)، و«الوسيط» (٣/ ٣٥٨).
(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٨١).
(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ١٢٣)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٨١).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩٦).
(٦) انظر: «ديوانه» (ص١٦٨).
(٧) في «الصحاح» (٣/ ١٢٤٦).
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٥٧).
(٩) «روح المعاني» (١٩/ ٢٤٦)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٧٢ ـ ٧٣).
(١٠) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨١).
(١١) «البحر المحيط» (٨/ ١٧٨ ـ ١٧٩)، و«فتح الباري» (٨/ ٢٨١)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٧٢).
(١٢) «البحر المحيط» (٨/ ١٧٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٤٦).
(١٣) في «معاني القرآن» (٥/ ٩٣).

مسعود[١] «كي تخلدوا». ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطش السطوة والأخذ بالعنف.

قال مجاهد[٢]، وغيره: البطش العَسْفُ قتلاً بالسيف، وضرباً بالسوط. والمعنى: فعلتم ذلك ظُلماً، وقيل: هو القتل على الغضب قاله الحسن[٣]، والكلبي.

قيل: والتقدير: وإذا أردتم البطش، لئلا يتحد الشّرْط، والجزاء، وانتصاب جبّارين على الحال.

قال الزجاج[٤]: إنما أنكر عليهم ذلك؛ لأنّه ظلم، وأما في الحق، فالبطش بالسوط والسيف جائز.

ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم، والعتوّ، والتمرّد، والتجبر أمرهم بالتقوى، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أجمل التقوى ثم فصلها بقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾، وأعاد الفعل للتقرير والتأكيد ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾؛ أي: بساتين، وأنهار وأبيار.

ثم وعظهم، وحذرهم، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إنْ كفرتم، وأصررتم على ما أنتم فيه، ولم تشكروا هذه النِّعم، والمراد بالعذاب العظيم: الدنيوي والأخروي.

وقد أخرج ابنُ المنذر[٥] عن ابن عباس ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾؛ أي: أنصدّقك؟.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد[٦] ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ قال: الحوّاكون.

وأخرج أيضاً عن قتادة[٧] قال: سفلة الناس، وأراذلهم.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ١٧٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٤٦). المتواتر قراءة الجمهور، وما عداها من القراءات التي ذكرها المؤلف فشاذة.

(٢) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٩٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٥٧)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨١).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٩٦).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١١).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٨٨) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٨٨) بسند صحيح.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١]: ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ قال: الممتلئ.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٢] عنه، أنه قال: «أتدرون ما المشحون؟ قلنا: لا، قال: هو المُوقَر».

وأخرج ابن جرير[٣] عنه أيضاً قال: هو المُثْقَل.

وأخرج ابن جرير[٤] عنه أيضاً ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ قال: طريق ﴿ءَايَةً﴾ قال: علماً ﴿تَعْبَثُونَ﴾ قال: تلعبون.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٥] عنه أيضاً ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ قال: شرف.

وأخرجا[٦] أيضاً عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قال: كأنّكم تخلدون.

وأخرج ابن أبي حاتم[٧] عنه أيضاً ﴿جَبَّارِينَ﴾ قال: أقوياء.

[بقية قصة هود مع قومه]:

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٤٠)﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٤٤٢)، وابن أبي حاتم كما في «الإتقان» (٢/ ٣٩) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٠٤ ـ ٦٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٧٩١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٤٤٢) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٠٨ ـ ٦١٠) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٧٩٣) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٧٩٥) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٧٩٥) بسند ضعيف.

[قصة صالح مع قومه ثمود]:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ [٣/٣٣٥] ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا
هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ
أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ
شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

أي: وعظُك وعدمه ﴿سَوَآءٌ﴾ عندنا لا نبالي بشيء منه، ولا نلتفت إلى ما تقوله.

وقد روى العباس عَنْ أبي عمرو، وروى نصير عن الكسائي ﴿أَوَعَظتَ﴾ بإدغام[(١)] الظاء في التاء، وهو بعيد؛ لأنّ حرف الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جدًّا، وروى[(١)] ذلك عَنْ عاصم، والأعمش، وابن محيصن.

وقرأ الباقون[(٢)] بإظهار الظاء. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: ما هذا الذي جئتنا به، ودعوتنا إليه من الدين إلّا خُلق الأوّلين؛ أي: عادتهم التي كانوا عليها.

وقيل: المعنى: ما هذا الذي نحن عليه إلّا خلق الأوّلين وعادتهم، وهذا بناء على ما قاله الفراء[(٣)] وغيره: إن معنى: ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: عادة الأولين.

قال النحاس[(٤)]: خلق الأوّلين عند الفراء بمعنى: عادة الأوّلين.

---

(١) وهي قراءة شاذة. «البحر المحيط» (٨/ ١٨٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٤٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٥٩). وهي رواية شاذة عن أبي عمرو والكسائي وعاصم.
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ١٨٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٤٩)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٧٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٥٩).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨١).
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد[١] قال: ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مذهبهم، وما جرى عليه أمرهم. والقولان متقاربان. قال[٢]: وحكى لنا محمد بن يزيد: أن معنى ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: تكذيبهم.

قال مقاتل[٣]: قالوا: ما هذا الذي تدعونا إليه إلّا كذب الأوّلين.

قال الواحدي[٤]: وهو قول ابن مسعود، ومجاهد.

قال[٥]: والخلق، والاختلاق الكذب، ومنه قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب: «خَلْق الأوّلين» بفتح الخاء[٦]، وسكون اللام. وقرأ الباقون[٧] بضم الخاء، واللام.

قال الهروي[٨]: معناه على القراءة الأولى: اختلاقهم، وكذبهم.

وعلى القراءة الثانية: عادتُهم، وهذا التفصيل لا بدّ منه.

قال ابن الأعرابي[٩]: الخَلْق الدين، والخُلق: الطبع، والخلق: المروءة.

وقرأ أبو قِلابة[١٠] بضم الخاء، وسكون اللام، وهي تخفيف لقراءة الضم لهما.

والظاهر: أنّ المراد بالآية هو قول مَنْ قال: ما هذا الذي نحن عليه إلا عادةُ الأوّلين، وفعلُهم، ويؤيده قولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛ أي: على ما نفعل من البطش، ونحوه مما نحن عليه الآن ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾؛ أي: بالريح كما صرّح القرآن في غير هذا الموضع بذلك. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تقدّم تفسير هذا قريباً في هذه السورة.

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود وقومه، ذكر قصة صالح وقومه، وكانوا

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٦).
(٢) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٦) عن محمد بن يزيد.
(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٥٩). (٤) في «الوسيط» (٣/ ٣٥٩).
(٥) الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٥٩).
(٦) «التيسير» (ص١٦٦)، و«النشر» (٢/ ٣٣٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٤٩). القراءة بفتح الخاء وسكون اللآم، وكذا بضم الخاء واللآم متواترتان، وقراءة أبي قلابة شاذة.
(٧) انظر: المصادر المتقدمة. (٨) في «العزيبين» (٢/ ٥٨٩ ـ ٥٩٠).
(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٥٩).
(١٠) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٤٩).

يسكنون الحِجْر، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قد تقدّم تفسيره في قصة هود المذكورة قبل هذه القصة.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ الاستفهام[1] للإنكار؛ أي: أُتتركون في هذه النِّعم التي أعطاكم الله آمنين من الموت والعذاب، باقين في الدنيا؟

ولما أبهم النعِّم في هذا فسّرها بقوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، والهضيم[2]: النضيجُ الرَّخْص اللّين اللطيف، والطلع: ما يطلع مِنْ الثمر.

وذكر[3] النخل مع دخوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار، وكثيراً ما يذكرون الشيء الواحد بلفظٍ يعمّه وغيره، كما يذكرون النعم، ولا يقصدون إلّا الإبل، وهكذا يذكرون الجنة، ولا يريدون إلّا النخل. قال زهير[4]:

كأنَّ عَيْنيَّ في غَرْبي مُقتَّلَةٍ ... من النَّواضحِ تسقي جنَّةً سُحُقا

وسحقاً جمع سُحوق[5]، ولا يُوصف به إلّا النخل.

وقيل: المراد بالجنّات غير النخل مِنْ الشجر، والأوّل أولى.

وحكى الماوردي[6] في معنى هضيم اثني عشر قولاً أحسنها وأوفقها للغة ما ذكرناه ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ النحت[7]: النجْر والبَرْي، نحتَه يَنْحِتُه بالكسر: براه، والنُّحاتة: البُراية، وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال لما طالت أعمارهم، وتهدّم بناؤهم مِنْ المَدَر.

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن ذكوان «فَرِهين» بغير ألف[8].

---

(١) «روح المعاني» (٩/ ٣٥٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢١٧).
(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٤٢)، و«تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣١٩).
(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٤٠٨).
(٤) انظر: «ديوان زهير بن أبي سلمى» (ص٣٧).
(٥) أي: بعيدة الطول. «الصحاح» (٤/ ١٤٩٥).
(٦) في «النكت والعيون» (٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣).
(٧) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٩٤)، و«الصحاح» (١/ ٢٦٨).
(٨) «النشر» (٢/ ٣٣٥)، و«التيسير» (ص١٦٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٥٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٢). هما قراءتان متواترتان، لكن صواب العزو: قرأ الكوفيون وابن عامر (فارهين) وقرأ الباقون (فرهين) بدون ألف.

وقرأ الباقون «فارهين» بالألف[١].

قال أبو عُبيدة[٢]، وغيره: وهما بمعنى واحد. والفِرَه: النشاط، وفرّق بينهما أبو عُبيد[٣]، وغيره، فقالوا: «فارهين» حاذقين[٤] بنحتها، وقيل: مُتجبّرين[٥]، «وفرهين» بَطِرين[٦] أشِرين، وبه قال مجاهد[٧]، وغيره.

وقيل: شرهين[٨]. وقال الضحاك[٩]: كيِّسين.

وقال قتادة[١٠]: مُعْجبين ناعمين آمنين، وبه قال الحسن[١١].

وقيل: فرحين، قاله الأخفش[١٢].

وقال ابن زيد[١٣]: أقوياء.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: المشركين، وقيل: الذين عقروا الناقة، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ أي: ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض، ولا يصدر منهم الصلاح البتة.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) في «مجاز القرآن» (٢/ ٨٨).

(٣) في «الغريبين» (٥/ ١٤٤٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٢) عن ابن عباس بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢١) عن أبي صالح وعبد الله بن شداد.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٣) عن ابن عباس بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٢) عن مجاهد بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢٣)، وابن ابي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٢) عن مجاهد بسند صحيح.

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢٢)، عن الضحاك بسند ضعيف.

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٣) بسند صحيح.

(١١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ١٢٥).

(١٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ١٢٥).

(١٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢٣) بسند صحيح.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾؛ أي: الذين أُصيبوا بالسحر قاله مجاهد[١] وقتادة[٢].

وقيل: المُسحَّر هو: المُعلَّل بالطعام والشراب قاله الكلبي[٣] وغيره، فيكون المسحر الذي له سَّحْر، وهو الرئة، فكأنهم قالوا: إنما أنت بشر مثلنا تأكل وتشرب.

قال الفراء[٤]: أي: إنك تأكل الطعام والشراب، وتسحر به، ومنه قول[٥] امرؤ القيس أو البيد:

فإنْ تسألينا: فيمَ نحنُ؟ فإنَّنا   عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

وقال امرؤ القيس[٦] أيضاً:

أُرانا مُوضِعين لحتمِ غيبٍ   ونُسْحَر بالطَّعامِ وبالشَّرابِ

قال المؤرّج[٧]: المُسحّر المخلوق بلغة ربيعة ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولك، ودعواك ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ﴾ الله ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ أي: لها نصيب من الماء، ولكم نصيب منه معلوم ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها، ولا هي تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم.

قال الفراء[٨]: الشِرْبُ الحظ مِنْ الماء.

قال النحاس[٩]: فأما المصدر، فيقال: فيه شِربَ شَرْباً، وشِرْباً، وشُرْباً، وأكثرها المضموم، والشَرْبُ بفتح الشين جمع شارب، والمراد هنا: الشِرْب بالكسر، وبه قرأ الجمهور[١٠] فيهما، وقرأ ابن أبي عبلة بالضم[١١] فيهما ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾؛ أي: لا تمسوها بعقر، أو ضرب، أو شيء مما يسوؤها، وجواب النهي: فيأخذكم.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ١٢٥).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٦١).
(٣) «معالم التنزيل» (٦/ ١٢٦).
(٤) في «معاني القرآن» (٢/ ٢٨٢).
(٥) هو للبيد. انظر: «ديوانه» (ص٥٦).
(٦) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٩٧).
(٧) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٤/ ١٦٠).
(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٨).
(٩) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٨).
(١٠) «البحر المحيط» (٨/ ١٨٣)، و«زاد المسير» (٦/ ١٣٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٦٧).
(١١) «روح المعاني» (١٩/ ٢٥٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٣). الضم قراءة شاذة.

[الندم لا يجدي عند معاينة العذاب وظهور آثاره]:

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ على عقرها، لما عرفوا أنّ العذاب نازل بهم، وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً، فظهرت عليهم العلامة في كلّ يوم، وندموا حيث لا ينفع الندم؛ لأنّ ذلك لا يُجدي عند معاينة العذاب، وظهور آثاره ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الذي وعدهم به.

وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ في هذه السورة، وتقدّم أيضاً تفسير قصة صالح وقومه في غير هذه السورة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(١) ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ قال: مُعْشِب.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه(٢) قال: أينع وبلغ.

وأخرج ابن أبي حاتم(٣) عنه أيضاً قال: أرطب، واسترخى.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً(٤) في قوله: ﴿فَارِهِينَ﴾ قال: حاذقين.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم(٥) عنه قال: ﴿فَرِهِينَ﴾ أشرين.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد(٦) قال: شرهين.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والخطيب، وابن عساكر من

---

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١٤).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠١) بسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦١٩)، وابن أبي حاتم كما في «الإتقان» (٢/ ٣٤) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠١) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٢) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٣) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢٣)، وابن ابي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٢) بسند صحيح.

طرق عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ قال: من المخلوقين، وأنشد قول لبيد بن ربيعة[(٢)]:

فإن تسألينا فيم نحن.......... .... (البيت)

وأخرج عبد بن حميد[(٣)] عنه أيضاً في قوله: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ قال: إذا كان يومها أصدر لهم لبناً ما شاءوا.

[قصة لوط مع قومه]:

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ١٦٩ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٧١ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ١٧٢ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾.

[قصة شعيب مع أصحاب الأيكة]:

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ ۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٢٦)، والخطيب في «تاريخه» (١٠/ ٤٢٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ٧١) بسند صحيح.

(٢) انظر: «ديوان لبيد بن ربيعة» (ص٥٦).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١٦).

[معصية قوم لوط]:

ذكر سبحانه القصة السادسة مِنْ قصص الأنبياء مع قومهم، وهي قصة لوط. وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في هذه السورة، وتقدّم أيضاً تفسير قصة لوط مُستوفى في الأعراف، قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذُكْران جمع الذكر ضدّ الأنثى.

ومعنى تأتون: تنكحون الذُكْران مِنْ العالمين، وهم بنو آدم، أو كل حيوان، وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم في الأعراف ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾؛ أي: وتتركون ما خلقه الله لأجل استمتاعكم به من النساء.

وأراد بالأزواج جنس الإناث ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾؛ أي: مجاوزون للحدّ في جميع المعاصي، ومن جملتها هذه المعصية التي ترتكبونها من الذكران ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عَنْ الإنكار علينا، وتقبيح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من بلدنا المنفيين عنها ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم﴾، وهو ما أنتم فيه مِنْ إتيان الذكران ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ المبغضين له، والقلي(١): البغضُ، قَلَيتُه أقِليه قِلا، وقَلاءً، ومنه قول الشاعر:(٢)

فلستُ بمقليِّ الخِلال ولا قَالِي(٣)

وقال الآخر(٤):

ومالكِ عندي إنْ نأيتِ قَلَاءُ(٥)

ثم رغّب عليه الصلاة والسلام عن محاورتهم، وطلب من الله ﷻ أن ينجيه، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: من عملهم الخبيث، أو من عقوبته التي ستصيبهم، فأجاب الله سبحانه دعاءه، وقال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: أهل بيته، ومن تابعه على دينه، وأجاب دعوته ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ هي: امرأة لوط، ومعنى ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: من الباقين في العذاب.

---

(١) «الصحاح» (٦/ ٢٤٦٧)، و«تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٧٤).
(٢) قائله: امرؤ القيس. انظر: «ديوانه» (ص٣٥).
(٣) وصدره:
صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى
(٤) هو: نُصيب بن رباح. انظر: «ديوانه» (ص٥٧).
(٥) وصدره:
عليكِ السلامُ لا مُلِلْتِ قريبةً

وقال أبو عبيدة[١]: من الباقين في الهَرَم؛ أي: بقيت حتى هَرِمتْ.

قال النحاس[٢]: يقال [٣/٣٣٦] للذاهب غابر، وللباقي: غابر[٣].

قال الشاعر:

لَا تكسعِ الشَّولَ بأغبارِها إنَّك لا تَدْري مَن النَّاتجُ

والأغبار: بقية الألبان، وتقول العرب: ما مضى، وما غَبَر؛ أي: ما مضى، وما بقي ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾؛ أي: أهلكناهم بالخَسْف، والحَصْب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾؛ يعني: الحجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ المخصوص بالذمّ محذوف والتقدير مطرُهم.

وقد تقدّم تفسير ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في هذه السورة.

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر «ليكة» بلام واحدة[٤]، وفتح التاء جعلوه اسماً غير معرّف بأل مضافاً إليه أصحاب.

وقرأ الباقون «الأيكة»[٥] معرفاً.

والأيكة الشجر الملتفّ، وهي الغَيضة، وليكة[٦] اسمٌ للقرية، وقيل: هما بمعنى واحد اسم للغيضة.

قال القرطبي[٧]: فأما ما حكاه أبو عبيد[٨] من: أنّ ليكة اسم القرية التي كانوا فيها، وأنّ الأيكة اسم البلد كله، فشيء لا يثبت، ولا يعرف من قاله، ولو عرف لكان فيه نظر؛ لأن أهل العلم جميعاً على خلافه.

قال أبو عليّ الفارسي[٩]: الأيكة: تعريف أيكة، فإذا حذفت الهمزة تخفيفاً ألقيت حركتها على اللام.

---

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ١٨٩).
(٢) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٨٩).
(٣) هو: الحارث بن حلزة. انظر: «ديوانه» (ص١١١).
(٤) «النشر» (٢/ ٣٣٦)، و«النشر» (ص١٦٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٦).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ١٨٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٣٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٦١).
(٦) «الصحاح» (٤/ ١٥٧٤).
(٧) في «تفسيره» (١٦/ ٧١).
(٨) انظر: «الغريبين» (١/ ١٢٦).
(٩) في «الحجة» (٥/ ٣٦٧).

قال الخليل[١]: الأيكة: غَيضةٌ تُنْبت السدرَ، والأراكَ، ونحوهما من ناعم الشجر ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ لم يقل أخوهم كما قال في الأنبياء قبله؛ لأنّه لم يكن مِنْ أصحاب الأيكة في النّسب، فلما ذُكر مَدْين قال أخاهم شعيباً؛ لأنّه كان منهم.

وقد مضى تحقيق نَسَبه في الأعراف، وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ في هذه السورة.

قولُه: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾؛ أي: أتمّوا الكيل لمن أراده، وعامل به، ولا تكونوا مِنْ المخسرين: الناقصين للكيل والوزن، يقال: أخسرت الكيل والوزن؛ أي: نقصته.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣]، ثم زاد سبحانه في البيان، فقال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾؛ أي: أعطوا الحقّ بالميزان السويّ؛ وقد مرّ بيان تفسير هذا في سورة سبحان.

وقد قُرئ[٢] ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ مضموماً، ومكسوراً.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ البخس: النقصُ، يقال: بَخَسه حقَّه: إذا نقصه؛ أي: لا تنقصوا الناس حقوقهم التي لهم، وهذا تعميم بعد التخصيص.

وقد تقدّم تفسيره في سورة هود، وتقدّم أيضاً تفسير ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فيها، وفي غيرها.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ قرأ الجمهور[٣] بكسر الجيم، والباء، وتشديد اللام.

وقرأ أبو حُصين، والأعمش، والحسن، والأعرج، وشيبة بضمهما، وتشديد اللام[٤].

---

(١) في كتاب «العين» (ص٥١).

(٢) «النشر» (٢/ ٣٠٧)، و«التيسير» (ص١٤٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٦٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٤٦). هما قراءتان متواترتان فالكسر عن الكوفيين عدا أبا بكر، والضم لباقي العشرة. «النشر» (٢/ ٣٠٧).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ١٨٧)، و«فتح الباري» (٨/ ٣٨٣)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٠).

(٤) «المحتسب» (٢/ ١٣٢)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٧).

وقرأ السُّلمي[١] بفتح الجيم مع سكون الباء.

والجِبلّة الخليقة قاله مجاهد[٢]، وغيره. يعني: الأمم المتقدّمة، يقال: جبل فلان على كذا؛ أي: خُلق.

قال النحاس[٣]: الخلق يقال له: جِبِّلة بكسر الحرفين الأوّلين، وبضمهما مع تشديد اللام فيهما، وبضم الجيم، وسكون الباء، وضمه وفتحها.

قال الهروي[٤]: الجُبلة، والجِبلة، والجُبل، والجِبل لغات، وهو: الجمع ذو العدد الكثير مِنْ الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]؛ أي: خَلْقاً كثيراً، ومِنْ ذلك قول الشاعر:[٥]

والـمـوتُ أعـظـمُ حـادثٍ فـيـمـا يَـمـرُّ عـلـى الـجِـبِـلَّـةْ

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ قد تقدّم تفسيره مستوفى في هذه السورة.

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ إنْ هي المخففة[٦] من الثقيلة عملت في ضمير شأن مقدّر، واللام[٧] هي الفارقة؛ أي: فيما تدّعيه علينا مِنْ الرسالة، وقيل: هي النافية، واللّام بمعنى إلّا؛ أي: ما نظنك إلّا من الكاذبين، والأوّل أولى.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كان شعيب يتوعّدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فقالوا له هذا القول تعنتاً، واستبعاداً، وتعجيزاً. والكسف: القطعة.

قال أبو عبيدة[٨]: الكِسفُ: جمعُ كِسْفة مثل سِدْر، وسدرة.

قال الجوهري[٩]: الكسفة: القطعة من الشيء، يقال: أعطني كسفة من ثوبك، والجمع كسف، وقد مضى تحقيق هذا في سورة سبحان.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٧). قراءة الجمهور هي المتواترة، والقراءتان المذكورتان فشاذتان.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨١٣) بسند صحيح.

(٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ٣٩١).

(٤) في «الغريبين» (١/ ٣١١).

(٥) هو: عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. انظر: «ديوانه» (ص٧٣).

(٦) «روح المعاني» (١٩/ ٢٦٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٢٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٧).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) في «مجاز القرآن» (٢/ ٩١).

(٩) في «الصحاح» (٤/ ١٤٢٤).

[إهلاك الله قوم شعيب بما اقترحوا من العذاب]:

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الشرك، والمعاصي، فهو مجازيكم على ذلك إنْ شاء، وفي هذا تهديد شديد ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، فاستمروا على تكذيبه، وأصرّوا على ذلك.

﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾، والظُّلة: السحابُ، أقامها الله فوق رؤوسهم، فأمطرت عليهم ناراً، فهلكوا، وقد أصابهم الله بما اقترحوا؛ لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة مِنْ السحاب، فظاهر، وإن أرادوا بها القطعة من السماء، فقد نزل عليهم العذاب من جهتها، وأضاف[1] العذاب إلى يوم الظلة لا إلى الظلة تنبيهاً على أنّ لهم في ذلك اليوم عذاباً غير عذاب الظُّلة، كذا قيل.

ثم وصف سبحانه هذا العذاب الذي أصابهم بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ لما فيه من الشدّة عليهم التي لا يُقادَر قدرُها.

وقد تقدّم تفسير قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في هذه السورة مُستوفى، فلا نُعيده، وفي هذا التكرير[2] لهذه الكلمات في آخر هذه القصص مِنْ التهديد، والزجْر، والتقرير، والتأكيد ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام، ويعرف أساليبه.

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[3] في قوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ قال: تركتم أقبال النِّساء إلى أدبار الرجال، وأدبار النساء.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة[4] نحوه.

وأخرجا أيضاً عن قتادة[5] ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ قال: هي: امرأة لوط غبرت في عذاب الله. وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد[6] «ليكة» قال: هي الأيكة.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/٢٦٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٢) «روح المعاني» (١٩/٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٨٠٨) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١٩).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣١٩).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٠٩) بسند صحيح.

وأخرج إسحاق بن بشر، وابن عساكر عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قال: كانوا أصحاب غَيضة من ساحل البحر إلى مدين ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾، ولم يقل أخوهم شعيب. لأنّه لم يكن من جنسهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ كيف لا تتقون، وقد علمتم أني رسولُ أمين، لا تعتبرون من هلاك مدين، وقد أهلكوا فيما يأتون؟ وكان أصحاب الأيكة مع ما كانوا فيه من الشرك استنُّوا بسُنَّة أصحاب مدين، فقال لهم شعيب: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ في العاجل من أموالكم ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ يعني: القرون الأوّلين الذي أُهلكوا بالمعاصي، ولا تهلكوا مثلهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ يعني: من المخلوقين ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: قِطَعاً من السماء.

﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ أرسل الله إليهم سموماً من جهنّم، فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر، فحميت بيوتهم، وغلت مياههم في الآبار، والعيون، فخرجوا مِنْ منازلهم ومحلتهم هاربين، والسموم معهم، فسلّط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم، فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم، وسلّط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم.

ثم نشأت لهم ظُلة كالسحابة السوداء، فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعاً أطبقت عليهم، فهلكوا، ونجى الله شعيباً والذين آمنوا معه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٢] عنه قال: ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الخلق الأوّلين.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم عنه[٣] أيضاً أنه سئل عن قوله: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ قال: بعث الله عليهم

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/ ٧٥، ٧٦) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨١٣) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨١٤، =

حرًّا شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت، فدخل عليهم أجوافها فأخذ بأنفسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة، فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بَرْداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم ناراً، فذلك عذاب يوم الظلة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم[1] عنه أيضاً قال: مَنْ حدّثك من العلماء ما عذاب يوم الظلة، فكذِّبه.

أقول: فما نقول له رضي الله عنه فيما حدّثنا به من ذلك مما نقلناه عنه ها هنا؟، ويمكن أَنْ يقال: إنه لما كان هو البحر الذي علّمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه ﷺ كان مختصاً بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم، فمن حدّث بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدّثنا به، فقد وصانا بتكذيبه؛ لأنه قد علمه، ولم يعلمه غيره.

[الحديث عن القرآن وموقف المشركين منه]:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ
سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن
مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ
أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾
وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

= ٢٨١٥)، والحاكم (٢/ ٥٦٨، ٥٦٩) من طريق حاتم بن أبي ضمرة، به.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٣٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨١٥)، والحاكم (٢/ ٥٦٩) بسند ضعيف.

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ [٤/٣٣٧] ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا
يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ۗ
وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الضمير يرجع إلى ما نزله عليه من الأخبار؛ أي: وإنّ هذه الأخبار، أو وإن القرآن، وإن لم يجر له ذكر للعلم به، قيل: وهو على تقدير مضاف محذوف؛ أي: ذو تنزيل، وأما إذا كان تنزيل بمعنى منزل، فلا حاجة إلى تقدير مُضاف.

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿نَزَلَ﴾ مخففاً[(١)]، وقرأه الباقون مشدّداً[(٢)]، و﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ على القراءة الثانية منصوب[(٣)] على أنّه مفعول به، وقد اختار هذه القراءة أبو حاتم[(٤)]، وأبو عُبيد[(٥)]، والروح الأمين: جبريل، كما في قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

ومعنى ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: أنه تلاه على قلبه، ووجه تخصيص القلب؛ لأنه أوّل مدرك من الحواس الباطنة.

قال أبو حيّان[(٦)]: إنّ ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، و﴿لِتَكُونَ﴾ متعلقان[(٧)] بنزل، وقيل: يجوز

---

(١) «النشر» (ص١٦٦)، و«النشر» (٢/ ٣٣٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٦٨).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «التبيان» (٢/ ١٠٠٠)، و«الفريد» (٣/ ٦٦٥).
(٤) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ١٨٨).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٧٦).
(٦) في «البحر المحيط» (٨/ ١٨٨).
(٧) ثم قال: وخص القلب والمعنى عليك؛ لأنَّه محل الوعي والتثبيت، وليعلم أن المنزل على قلبه ﷺ محفوظ، لا يجوز عليه التبديل ولا التغيير، وليكون علة في التنزيل أو النزول =

أن يتعلّقا بتنزيل، والأوّل أولى، وقُرئ: «نُزّل» مشدّداً مبنياً[١] للمفعول، والفاعل هو الله تعالى، ويكون الروح على هذه القراءة مرفوعاً[٢] على النيابة ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ علة للإنزال؛ أي: أنزله، لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات، والإنذارات، والعقوبات.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ متعلق بالمنذرين؛ أي: لتكون من المنذرين بهذا اللسان، وجوّز أبو البقاء[٣] أن يكون بدلاً من «به»، وقيل: متعلق بنزل، وإنما أُخّر للاعتناء بذكر الإنذار.

وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربيّاً بلسان الرسول العربي لئلّا يقول مشركو العرب: لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا، فقطع بذلك حُجتهم، وأزاح علتهم، ودفع معذرتهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إنّ هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع في كتب الأوّلين مِنْ الأنبياء، والزبر: الكتب، الواحد زبور، وقد تقدّم الكلام على تفسير مثل هذا.

وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ. وقيل: المراد بكون القرآن في زبر الأوّلين: أنّه مذكور فيها هو نفسه، لا ما اشتمل عليه من الأحكام، والأوّل أولى. ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الهمزة[٤] للإنكار، والواو للعطف على مقدّر كما تقدّم مراراً. والآية: العلامة والدلالة؛ أي: ألم يكن لهؤلاء علامة دالة على أن القرآن حق، وأنه تنزيل ربّ العالمين، وأنّه في زبر الأوّلين أن يعلمه علماء بني إسرائيل على العموم، أو مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام؟ وإنما صارت[٥] شهادة أهل الكتاب حُجةً على المشركين؛ لأنّهم كانوا يرجعون إليهم، ويصدّقونهم.

= اقتصر عليها؛ لأن ذلك زجر للسامع، وإن كان القرآن نزل للإنذار والتبشير.

(١) «النشر» (٢/ ٣٣٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٨٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٦٨).

(٢) «الفريد» (٣/ ٦٦٥)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٠).

(٣) «التبيان» (٢/ ١٠٠٠)، و«حاشية الشهاب» (٧/ ٢٧).

(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٢٧٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٢٣).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٧٧)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٢٩).

قرأ ابن عامر: «تكن» بالفوقية[(١)]، و﴿ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] بالرفع[(٢)] على أنها اسم كان، وخبرها أنْ يعلمه إلخ، ويجوز أَنْ تكون تامة.

وقرأ الباقون «يكن» بالتحتية[(٣)]، وآيةً بالنصب[(٤)] على أَنّها خبر يكن، واسمها أَنْ يعلمه إلخ.

قال الزجّاج[(٥)]: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ﴾ اسم ﴿يَكُن﴾، و﴿ءَايَةً﴾ خبره. والمعنى: أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن محمداً نبيّ حقّ، علامةً ودلالة على نبوّته؛ لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم، وكذا قال الفراء[(٦)]، ووجها قراءة الرفع بما ذكرنا.

وفي قراءة ابن عامر[(٧)] نظر؛ لأنّ جعل النكرة اسماً، والمعرفة خبراً غير سائغ، وإن ورد شاذّاً في مثل قول الشاعر[(٨)]:

فلا يكُ موقفَ منك الوداعا[(٩)]

وقول الآخر[(١٠)]:

يكونُ مِزاجَها عَسَلٌ ومَاءُ[(١١)]

---

(١) «التيسير» (ص١٦٦)، و«النشر» (٢/ ٣٣٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٩٠).
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٢٨٠)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠١)، و«الفريد» (٣/ ٦٦٦).
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ١٩٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٨١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٧٧).
(٤) «التبيان» (٢/ ١٠٠١)، و«الفريد» (٣/ ٦٦٦).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٠١). (٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٣).
(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٧٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٩٠)، و«النشر» (٢/ ٣٣٦).
(٨) هو: القطامي التغلبي.
(٩) وصدر البيت:
قفي قبلَ التَّفرُّق يا ضُبَاعَا
وهو مطلع قصيدة يمدح بها زفر بن الحارث الكلابي، وكان الممدوح قد أنقذه من القتل.
ضُبَاعَا: مرخم: ضباعة.
«شرح المفصل» (٧/ ٩)، و«شرح أبيات المغني» (٦/ ٣٤٥).
• والشاهد فيه: على أنّ اسم (يك) نكرة، وخبرها معرفة؛ لضرورة الشعر.
(١٠) حسان بن ثابت. والبيت قاله حسّان قبل تحريم الخمر.
(١١) وصدر البيت:
كأنَّ خبيئةً من بيت رأسٍ

ولا وجه لما قيل: إن النكرة قد تخصصت بقولهم: ﴿لَمْ﴾؛ لأنه في محل نصب على الحال، والحال صفة في المعنى؛ فأحسن ما يقال في التوجيه: ما قدّمنا ذكره مِنْ أَنّ (كان) تامة.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾؛ أي: لو أنزلنا القرآن على الصفة التي هو عليها على رجل من الأعجمين الذي لا يقدرون على التكلم بالعربية. ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ قراءةً صحيحة ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة من الرجل الأعجميّ للكلام العربيّ إلى إعجاز القرآن.

وقيل: المعنى: ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم، فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به، وقالوا: ما نفقه هذا، ولا نفهمه، ومثل هذا قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤] يقال: رجل أعجم، وأعجميّ إذا كان غير فصيح اللسان، وإن كان عربيّاً، ورجل عجمي: إذا كان أصله مِنْ العجم، وإن كان فصيحاً، إلّا أن الفراء[١] أجاز أن يقال: رجل عجميّ بمعنى أعجميّ.

وقرأ الحسن[٢]: «على بعض الأعجميين»، وكذلك قرأ الجَحْدري.

قال أبو الفتح بن جنّي[٣]: أصل الأعجمين: الأعجميين، ثم حذفت ياء النسب، وجعل جمعه بالياء والنون دليلاً عليها ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: مثل ذلك السلك سلكناه؛ أي: أدخلناه في قلوبهم: يعني: القرآن حتى فهموا معانيه، وعرفوا فصاحته، وأنّه مُعْجِز.

= **الخبيئة**: الخمر. **بيت رأس**: بلد في الأردن عُرفت بخمرها في الجاهلية.
والبيت شاهد على جواز أن يقع اسم (كان) نكرة، وخبرها معرفة إذا اجتمعا. **(مزاجها)** خبر يكون، **وعسلٌ**: اسم (يكون). «شرح أبيات المغني» (٦/ ٣٤٩)، و«شرح المفصل» (٧/ ٩٣).

(١) «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٣).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٩١)، و«المحتسب» (٢/ ١٣٢). وهي قراءة شاذة.

(٣) في «المحتسب» (٢/ ١٣٢).

وقال الحسن[١]، وغيره: سلكنا الشرك[٢] والتكذيب[٣] في قلوب المجرمين.

وقال عكرمة[٤]: سلكنا القسوة، والأوّل أولى؛ لأنّ السياق في القرآن.

وجملة[٥] ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تحتمل وجهين:

الأوّل: الاستئناف على جهة البيان والإيضاح لما قبلها.

والثاني: أنها في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، ويجوز أَنْ يكون حالاً من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وأجاز الفراء[٦] الجزم في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنّ فيه معنى الشرط، والمجازاة، وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت ﴿لَا﴾ موضع ﴿كَىْ لَا﴾ [الحشر: ٧] مثل هذا ربّما جزمت ما بعدها، وربما رفعت، فتقول: ربطت الفرس لا ينفلتُ بالرفع، والجزم؛ لأن معناه: إن لم أربطه ينفلتْ، وأنشد لبعض بني عُقيل[٧]:

وحَتَّى رأينا أحسنَ الفعلِ بيننا ... مساكنه لا يقربُ الشَّرَّ قارِبُ

بالرفع، ومن الجزم قول الآخر:

لَطَالما حلَّأتماها لا تُردْ ... فخلِّياها والسِّخالُ تَبْتَرِدْ[٨]

قال النحاس[٩]: وهذا كله في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خطأ عند البصريين، ولا يجوز الجزم بلا جازم ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾؛ أي: لا يؤمنون إلى هذه الغاية، وهي مشاهدتهم للعذاب الأليم.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٤٩) عن حميد قال: سألت الحسن في بيت أبي خليفة عن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢] قال: الشرك سلكه في قلوبهم.

(٢) ذكره الماوردي عن أنس بن مالك. «النكت والعيون» (٤/ ١٨٨).

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٨٨) عن يحيى بن سلام.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٧٨)، و«النكت والعيون» (٤/ ١٨٨).

(٥) «روح المعاني» (١٩/ ٢٨٥)، و«التبيان» (٢/ ٧٧٧)، و«الفريد» (٣/ ٦٦٧).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٣).

(٧) «جامع البيان» (١٩/ ٥٠٥)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨٣).

(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٧٨).

(٩) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٩٣).

﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ العذابُ ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة، والحال أنّهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه، وقرأ الحسن[١]: «فتأتيهم» بالفوقية؛ أي: الساعة، وإن لم يتقدّم لها ذكر، لكنه قد دلّ العذاب عليها.

﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾؛ أي: مؤخّرون ومُمْهَلون. قالوا هذا تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للرجعة إلى الدنيا، لاستدراك ما فرط منهم.

وقيل: إنّ المراد بقولهم: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ الاستعجال[٢] للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، ولا يخفى ما في هذا من البُعد والمخالفة للمعنى الظاهر، فإن معنى ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾: طلب النظرة[٣] والإمهال.

وأما قوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، فالمراد به الردّ عليهم، والإنكار[٤] لما وقع منهم مِنْ قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠، هود: ٣٢، الأحقاف: ٢٢].

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾ الاستفهام[٥] للإنكار، والفاء للعطف على مقدّر يناسب المقام كما مرّ في غير موضع، ومعنى أرأيت: أخبرني، والخطاب لكل من يصلح له؛ أي: أخبرني إن متعناهم سنين في الدنيا متطاولة، وطوّلنا لهم الأعمار.

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ من العذاب، والهلاك.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ «ما» هي الاستفهامية، والمعنى: أي شيء أغنى عنهم كونهم مُمتّعين ذلك التمتع الطويل؟ و «ما»[٦] في ﴿مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ يجوز أن تكون المصدرية، ويجوز أن تكون الموصولة، والاستفهام[٧] للإنكار التقريري، ويجوز أن تكون «ما» الأولى نافية، والمفعول محذوف؛ أي: لم يُغن عَنْهم تمتيعهم شيئاً.

---

(١) «المحتسب» (٢/ ١٣٣)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٨٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٩٣). وهي قراءة شاذة.
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٢٨٧)، و«الوسيط» (٣/ ٣٦٣).
(٣) «جامع البيان» (١٧/ ٦٥٠ - ٦٥١).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ١٩٣)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٨٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٢٤).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) «الفريد» (٣/ ٦٦٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٢).
(٧) «روح المعاني» (١٩/ ٢٩٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٩٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٢٤).

وقرئ: «يُمْتَعون» بإسكان الميم[١]، وتخفيف التاء من أمتع الله زيداً بكذا ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ من مزيدة[٢] للتأكيد؛ أي: وما أهلكنا قرية من القرى إلّا لها منذرون.

وجملة: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يجوز أن تكون صفة[٣] لقرية، ويجوز أن تكون حالاً منها، وسوّغ ذلك سبق النفي، والمعنى: ما أهلكنا قريةً مِنْ القرى إلّا بعد الإنذار إليهم، والإعذار بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

وقوله: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ بمعنى تذكرة، وهي في محل نصب[٤] على العلة، أو المصدرية.

وقال الكسائي[٥]: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ في موضع نصب على الحال.

وقال الفراء[٦]، والزجاج[٧]: إنها في موضع نصب على المصدرية؛ أي: يذكرون ذكرى.

قال النحاس[٨]: وهذا قولٌ صحيح؛ لأنّ معنى ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾: إلا لها مذكرون.

قال الزّجّاج[٩]: ويجوز أَنْ يكون ذكرى في موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أي: إنذارنا ذكرى، أو ذلك ذكرى. قال ابن الأنباري[١٠]: المعنى: هي ذكرى، أو يذكرهم ذكرى.

وقد رجّح الأخفش[١١] أنّها خبر مبتدأ محذوف.

﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في تعذيبهم، فقد قدّمنا الحُجّة إليهم، وأنذرناهم وأعذرنا

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٩١)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٩٤).
(٢) «مشكل إعراب القرآن» (١/ ٥٣٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٩٣)، و«الفريد» (٣/ ٦٦٧).
(٣) «الفريد» (٣/ ٦٦٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٢)، و«مشكل إعراب القرآن» (١/ ٥٣٠).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٩٣).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٤).
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٠٢ ـ ١٠٣).
(٨) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٩٣).
(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٠٣).
(١٠) في «إيضاح الوقف والابتداء» (٢/ ٨١٤).
(١١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٩/ ٣٩٣).

إليهم ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ أي: بالقرآن، وهذا ردّ لما زعمه الكفرة في القرآن أنه من قبيل ما يلقيه الشياطين على الكهنة ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ ذلك ولا يصح منهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ما نسبه الكفار إليهم أَصْلاً ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ﴾ للقرآن، أو لكلام الملائكة ﴿لَمَعْزُولُونَ﴾: محجوبون مرجومون بالشُهب.

وقرأ الحسن، وابنُ السميفع، والأعمش «وما تنزلت به الشياطون» بالواو[1] والنون إجراء له مجرى جمع السلامة.

قال النحاس[2]: وهذا غلط عند جميع النحويين. قال[3]: وسمعت علي بن سليمان يقول: سمعتُ محمد بن يزيد يقول: هذا من غلط العلماء، وإنما يكون بشبهة لما رأى الحسن في آخره، ياء ونوناً، وهو في موضع رفع؛ اشتبه عليه بالجمع السالم. فغلط.

قال الفراء[4]: غلط الشيخ يعني: الحسن، فقيل ذلك للنضر بن شميل، فقال: إنْ جاز أن يحتجّ بقول رؤبة، والعجّاج وذويهما، جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه، يعني: محمد بن السميفع، مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ بذلك إلّا، وقد سمعا فيه شيئاً.

وقال المؤرّج[5]: إنْ كان الشيطان مِنْ شاط يشيط كان لقراءتهما وجه. قال يونس بن حبيب[6]: سمعت أعرابيّاً يقول: دخلنا بساتين مِنْ ورائها بساتون.

ثم لما قرّر سبحانه حقية القرآن، وأنّه منزّل من عنده أمر نبيه ﷺ بدعاء الله وحده، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾، وخطاب النبيّ ﷺ بهذا مع كونه منزّهاً عنه، معصوماً منه لحثّ العباد على التوحيد، ونهيهم عن شوائب الشرك، وكأنّه قال: أنت أكرم الخلق عليّ، وأعزّهم عندي، ولو اتخذت معي إلٰهاً لعذبتك، فكيف بغيرك من العباد. ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خص الأقربين[7]؛ لأن

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٣٣)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٩٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٩٦). وهي قراءة شاذة.

(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٩٤).

(٣) أي: النحاس في المصدر المتقدم.

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٤).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٨٢).

(٦) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٨٣).

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٨٣)، و«جامع البيان» (١٧/ ٦٥٤).

الاهتمام بشأنهم أولى، وهدايتهم إلى الحق أقدم، قيل: هم قريش، وقيل: بنو عبد مناف، [٣/٣٣٨] وقيل: بنو هاشم.

وقد ثبت في «الصحيح»(١): أن هذه الآية لما نزلت دعا النبيّ ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمّ، وخَصّ، فذلك منه ﷺ بيان للعشيرة الأقربين، وسيأتي بيان ذلك.

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يقال: خَفضَ جناحَه: إذا ألانه، وفيه استعارة حسنة.

والمعنى: أَلنْ جناحك، وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين، وأظهر لهم المحبة والكرامة وتجاوز عنهم ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ﴾؛ أي: خالفوا أمرك، ولم يتبعوك ﴿فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: مِن عملكم، أو من الذي تعملونه، وهذا يدلّ على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان، المصدّقون باللسان؛ لأنّ المؤمنين الخُلّص لا يعصونه، ولا يخالفونه.

ثم بيّن له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له، فقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ أي: فوّض أمورك إليه، فإنه القادر على قهر الأعداء، وهو: الرحيم للأولياء.

قرأ نافع، وابن عامر «فتوكل» بالفاء(٢).

وقرأ الباقون(٣): ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ بالواو، فعلى القراءة الأولى يكون ما بعد الفاء كالجزء مما قبلها مترتباً عليه، وعلى القراءة الثانية يكون ما بعد الواو معطوفاً على ما قبلها عطف جملة على جملة مِنْ غير ترتيب.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾؛ أي: حين تقوم إلى الصلاة وحدك في قول أكثر

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٠٤)، وأحمد رقم (٨٧٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري رقم (٤٩٧٢)، ومسلم رقم (٢٠٨) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ١٩٧)، و«التيسير» (ص١٦٧)، و«النشر» (٢/ ٣٣٦). وهما قراءتان متواترتان.

(٣) «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٥٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ١٩٧)، و«زاد المسير» (٦/ ١٤٨)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

المفسرين[1]. وقال مجاهد[2]: حين تقوم حيثُما كنتَ.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ أي: ويراك إنْ صلّيت في الجماعة راكعاً، وساجداً، وقائماً[3]، كذا قال أكثر المفسرين.

وقيل: يراك في أَصلاب الموحّدين من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجك في هذه الأمة. وقيل: المراد بقوله: ﴿يَرَىٰكَ﴾ حين يقوم قيامه إلى التهجد.

وقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ يريد تردّدك في تصفح أحوال المجتهدين في العبادة، وتقلب بصرك فيهم، كذا قال مجاهد ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما تقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ به.

ثم أكّد سبحانه معنى قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، وبينه، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾؛ أي: على من تتنزّل، فحذف إحدى التاءين، وفيه بيان استحالة تنزّل الشياطين على رسول الله ﷺ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، والأفاك الكثير الإفك، والأثيم: كثير الإثم.

والمراد بهم: كلُّ مَنْ كان كاهناً، فإنّ الشياطين كانت تسترق السمع، ثم يأتون إليهم فيلقونه إليهم، وهو معنى قوله: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: ما يسمعونه مما يسترقونه، فتكون جملة ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ على هذا راجعة إلى الشياطين في محل نصب[4] على الحال؛ أي: حال كون الشياطين ملقين السمع؛ أي: ما يسمعونه من الملأ الأعلى إلى الكهان.

ويجوز أن يكون المعنى: إن الشياطين يلقون السمع؛ أي: ينصتون إلى الملأ الأعلى؛ ليسترقوا منهم شيئاً، ويكون المراد بالسمع على الوجه الأوّل: المسموع، وعلى الوجه الثاني: نفس حاسة السمع.

ويجوز أن تكون جملة: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ راجعة إلى كل أفّاك أثيم على أنها صفة، أو مستأنفة.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٨٥)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥)، و«جامع البيان» (١٧/ ٦٦٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٢٧) بسند ضعيف.

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٨٩) عن قتادة.

(٤) «التبيان» (٢/ ١٠٠٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٠٨).

ومعنى الإلقاء: أنهم يسمعون ما تلقيه إليهم الشياطين من الكلمات التي تصدق الواحدة منها، وتكذب المائة الكلمة كما ورد في الحديث[١].

وجملة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ راجعة إلى كل أفّاك أثيم؛ أي: وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين؛ لأنهم يضمّون إلى ما يسمعونه كثيراً من أكاذيبهم المختلقة، أو أكثرهم كاذبون فيما يلقونه من السمع؛ أي: المسموع من الشياطين إلى الناس، ويجوز أن تكون جملة: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ راجعة[٢] إلى الشياطين؛ أي: وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه إلى الكهنة[٣] مما يسمعونه؛ فإنّهم يضمّون إلى ذلك من عند أنفسهم كثيراً من الكذب.

وقد قيل: كيف يصح على الوجه الأوّل وصف الأفاكين بأن أكثرهم كاذبون بعد ما وصفوا جميعاً بالإفك؟

وأجيب[٤]: بأن المراد بالأفّاك: الذي يكثر الكذب لا الذي لا ينطق إلّا بالكذب. فالمراد بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾: أنه قلّ من يصدق منهم فيما يحكي عَنْ الشياطين.

والغَرَضُ الذي سيق لأجله هذا الكلام ردّ ما كان يزعمه المشركون من كون النبيّ ﷺ مِنْ جملة مَنْ يلقي إليه الشيطانُ السمعَ من الكهنة، ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب، ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلّا الصدق، فكيف يكون كما زعموا؟

ثم إنّ هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين، وهذا النبيّ المرسل من عند الله برسالته إلى الناس يذمهم، ويلعنهم، ويأمر بالتعوّذ منهم.

ثم لمّا كان قد قال قائل مِنْ المشركين: إن النبيّ ﷺ شاعر، بيّن سبحانه حال الشعراء، ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبيّ ﷺ، فقال: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ والمعنى: أنّ الشعراء يتبعهم؛ أي: يُجاريهم[٥]، ويسلك مسلكهم، ويكون من جملتهم، الغاوون؛ أي: الضالون عَنْ الحق، والشعراء جمع شاعر، والغاوون:

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٧٦٢، ٦٢٣١، ٧٥٦١)، ومسلم رقم (١٢٢، ١٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٩٥).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٤).

(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٢٧).

(٥) «روح المعاني» (١٩/ ٣٢٢)، و«جامع البيان» (١٧/ ٦٧٣).

جمع غاوٍ، وهم ضُلّال[١] الجن والإنس.

وقيل: الزائلون عَنْ الحق، وقيل: الذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء، وما لا يجوز.

وقيل: المراد: شعراء الكفّار خاصة.

قرأ الجمهور[٢] ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ، وخبره ما بعده، وقرأ عيسى بن عمر «الشعراءَ» بالنصب[٣] على الاشتغال.

وقرأ نافع، وشيبة، والحسن، والسّلُمي: «يَتْبَعُهم» بالتخفيف[٤]، وقرأ الباقون[٥] بالتشديد.

ثم بيّن سبحانه قبائح شعراء الباطل، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾، والجملة مقرّرة لما قبلها، والخطاب لكل مَنْ تتأتّى منه الرؤية، يقال: هام يَهيم هَيماً وهيماناً: إذا ذهبَ على وجهه؛ أي: ألم تر أنهم في كل فنّ من فنون الكذب يَخوضون، وفي كلّ شعب من شعاب الزور يتكلمون؟ فتارة يمزّقون الأعراض بالهجاء، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجّه السمعُ ويستقبحه العقل، وتارةً يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة، ويذمون الحق، ويمدحون الباطل، ويرغبون في فعل المحرّمات، ويدعون الناس إلى فعل المنكرات كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللِّواط ونحو هذه الرذائل الملعونة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي، يقولون: فعلنا، وفعلنا، وهم كذبة في ذلك، فقد يدلون بكلامهم على الكرم، والخير، ولا يفعلونه، وقد ينسبون إلى أنفسهم مِنْ أفعال الشرّ ما لا يقدرون على فعله كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة، والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات، وأنهم فعلوا بهنّ كذا وكذا، وذلك كذب محض، وافتراء بحت.

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٩٦)، و«جامع البيان» (١٧/ ٦٧٥).
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٢٠٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٩٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٢٣).
(٣) «القراءات الشاذة» (ص١٠٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٠٠). قراءى نصب «الشعراء» شاذة.
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٢٠٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٤٨٦)، و«التيسير» (ص١١٥)، و«النشر» (٢/ ٢٧٤).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص١٠٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٠٠).

ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحرّي الحق والصدق، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: دخلوا في حزب المؤمنين، وعملوا بأعمالهم الصالحة، ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في أشعارهم ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ كمن يهجو منهم مَنْ هجاه، أو ينتصر لعالم، أو فاضل كما كان يقع من شعراء النبيّ ﷺ، فإنّهم كانوا يهجون من يهجوه، ويحمون عنه، ويذبُّون عن عرضه، ويكافحون شعراء المشركين، وينافحونهم.

[الانتصار للحق بالشعر من أعظم المجاهدة]:

ويدخل في هذا مَنْ انتصر بشعره لأهل السُّنَّة، وكافح أهل البدعة، وزيف ما يقوله شعراؤهم من مدح بدعتهم، وهجو السُّنَّة المطهرة، كما يقع ذلك كثيراً من شعراء الرافضة، ونحوهم، فإن الانتصار للحق بالشعر، وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدينه، القائمين بما أمر الله بالقيام به.

[أقسام الشعر والكلام في المذموم منه والمباح]:

واعلم أنّ الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام، وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب.

وقد وردت أحاديث في ذمه، وذمّ الاستكثار منه، ووردت أحاديث أخر في إباحته وتجويزه، والكلام في تحقيق ذلك يطول، وسنذكر في آخر البحث ما ورد في ذلك من الأحاديث.

ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله، فقال: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، فإنّ في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ تهويلاً[1] عظيماً، وتهديداً شديداً، وكذا في إطلاق ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، وإبهام ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾، وخصص هذه الآية بعضهم بالشعراء ولا وجه لذلك، فإنّ الاعتبار بعموم اللفظ، وقوله: ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ﴾ صفة[2] لمصدر محذوف؛ أي: ينقلبون منقلباً أيّ منقلبٍ، وقدّم لتضمنه معنى الاستفهام، ولا يعمل

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٣٣٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٣٠).
(٢) «التبيان» (٢/ ١٠٠٢)، و«الفريد» (٣/ ٦٦٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٠٢).

فيه ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه[(١)] ما قبله؛ بل هو معلق عن العمل فيه.

وقرأ ابن عباس، والحسن: «أيّ مُنفلتٍ ينفلتون» بالفاء[(٢)] مكان القاف، والتاء مكان الباء من الانفلات بالنون، والفاء الفوقية، وقرأ الباقون بالقاف[(٣)]، والباء من الانقلاب بالنون، والقاف، والموحدة، والمعنى على قراءة ابن عباس، والحسن: أن الظالمين يطمعون في الانفلات مِنْ عذاب الله، والانفكاك منه، ولا يقدرون على ذلك.

وقد أخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٤)] ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: هذا القرآن ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ قال: جبريل.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[(٥)] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ قال: جبريل.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه[(٦)] عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ قال: «الرّوح الأمين جبريل، رأيتُ له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس».

وأخرج ابن النجار[(٧)] في تاريخه عن ابن عباس في قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ قال: بلسان قريش، ولو كان غير عربيّ ما فهموه.

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن بريدة[(٨)] في قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ قال: بلسان جُرْهم.

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٠٢)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٠٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٠٢)، و«الفريد» (٣/ ٦٦٩).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٠٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٣٦). وهي قراءة شاذة.

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٢٠٢)، و«زاد المسير» (٦/ ١٥٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٩٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٤٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨١٧) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٤٢) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٣٧٦) بسند ضعيف.

(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٢٢).

(٨) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٦٢٢).

وأخرج مثله أيضاً[(١)] عنه ابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[(٢)] قال: كان عبد الله بن سلام من علماء بني إسرائيل، وكان من خيارهم، فآمن بكتاب محمد، فقال لهم الله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

[إنذار الرسول ﷺ لعشيرته الأقربين]:

وأخرج البخاري، [٣/٣٣٩] مسلم، وغيرهما عن أبي هريرة[(٣)] قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، وعمّ وخص، فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني قُصي أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضرًّا ولا نفعاً، إلّا أن لكم رحماً، وسأبلّها ببلالها».

وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)] عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: للصلاة.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه[(٥)] عنه: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ يقول: قيامك وركوعك وسجودك.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨١٨) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٢٠) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد رقم (٨٤٠٢، ٨٧٢٦، ٨٧٢٧، ١٠٧٢٥)، والبخاري رقم (٢٧٥٣، ٣٥٢٧، ٤٧٧١)، ومسلم رقم (٢٠٤، ٢٠٦)، والترمذي رقم (٣١٨٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٥٥ ـ ٦٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٢٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٠٢١)، وفي «الدلائل» (٢/ ١٧٦، ١٧٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٢٧) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٢٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٦٦) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر(١) عنه أيضاً: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال: يراك وأنت مع الساجدين تقوم، وتقعد معهم.

[الرسول يرى من خلفه كما يرى من أمامه]:

وأخرج ابن مردويه(٢) عنه أيضاً في قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال: كان النبيّ ﷺ إذا قام إلى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه.

ومنه الحديث في «الصحيحين»، وغيرهما عن أبي هريرة(٣) قال: قال رسول الله ﷺ: «هل ترون قبلتي ها هنا؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم، ولا ركوعَكم، وإنّي لأراكم مِنْ وراء ظهري».

وأخرج ابن أبي عُمر العدني في «مسنده»، والبزار، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نُعيم في «الدلائل» عن ابن عباس(٤) في قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قال: من نبيّ إلى نبيّ حتى أُخرجت نبيّاً.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم(٥) عنه في الآية نحوه.

[الكهان وخلطهم الحق بكذباتهم]:

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة(٦) قالت: «سأل أناس النبيّ ﷺ عن الكهان قال: «إنهم ليسوا بشيء»، قالوا: يا رسول الله إنهم يحدّثون أحياناً بالشيء يكون حقّاً؟ قال: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقذفها في أُذن وليه، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة»، وفي لفظ للبخاري: «فيزيدون معها مائة كذبة».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس(٧) قال:

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٦٨) بسند ضعيف.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٣١).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٤١٨، ٧٤١)، ومسلم رقم (٤٢٤)، ومالك في «الموطأ» (١/ ١٦٧).
(٤) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٤٢ ـ «كشف»)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٢٨)، والطبراني رقم (١٢٠٢١) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٢٨)، وأبو نعيم رقم (١٧) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه البخاري رقم (٥٧٦٢، ٦٢١٣، ٧٥٦١)، ومسلم رقم (٢٢٢٨).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٣٤) بسند ضعيف.

تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ أحدهما: من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وكان مع كلّ واحد منهما غواة من قومه، وهم السفهاء، فأنزل الله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ الآيات.

وأخرج ابن سعد، وعبد بن حُميدٍ، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن عروة[١] قال: لما نزلت ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، قد علم الله أنّي منهم، فأنزل الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿يَنقَلِبُونَ﴾، وروي نحو هذا مِنْ طرق.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٢] ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قال: هم: الكفار يتبعون ضلال الجنّ والإنس ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قال: في كلّ لغو يخوضون ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أكثر قولهم يكذبون، ثم استثنى منهم، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ قال: ردّوا على الكفار كانوا يهجون المؤمنين.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٣] عنه أيضاً نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه[٤] عنه أيضاً: ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ قال: المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبيّ ﷺ ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قال: قال غواة الجنّ في كلّ واد يهيمون في كلّ فنّ من الكلام يأخذون ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية، يعني حسّان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك كانوا يذبّون عن النبيّ ﷺ، وأصحابه بهجاء المشركين.

وأخرَج الفريابي، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم[٥] عنه ﴿الْغَاوُونَ﴾ قال: هم الرواة.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٥٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٣٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/ ٩٢، ٩٣) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٧٥ ـ ٦٧٧، ٦٧٩ ـ ٦٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٣١، ٢٨٣٣، ٢٨٣٥) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٧٥ ـ ٦٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٣) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٣١ ـ ٢٨٣٤) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧/ ٦٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٣١، ٢٨٣٢) بسند صحيح.

وأخرج ابنُ مردويه، وابن عساكر[١] عنه أيضاً: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية قال: أبو بكر، وعمر، وعليّ، وعبد الله بن رواحة.

[موقف الإسلام ورسوله من الشعر والشعراء]:

وأخرج أحمد، والبخاري في تاريخه، وأبو يعلى، وابن مردويه عن كعب بن مالك[٢]: «أنّه قال للنبيّ ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فكيف ترى فيه؟ فقال: إن المؤمن يجاهد بسيفه، ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نَضْح النَّبْل».

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد عن أبي سعيد[٣] قال: «بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذا عرض شاعر ينشد، فقال النبيّ ﷺ: «لأنْ يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً».

وأخرج الديلمي[٤] عن ابن مسعود مرفوعاً: «الشعراء الذين يموتون في الإسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعراً يتغنى به الحور العين لأزواجهنّ في الجنة، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل، والثبور في النار».

وأخرج ابن مردويه[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة» قال: وأتاه قريظة بن كعب، وعبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، فقالوا: إنا نقول الشعر، وقد نزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأوا»، فقرأوا ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقال: أنتم هم ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، فقال: «أنتم هم». ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ فقال: «أنتم هم».

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/ ٩٢).
(٢) أخرجه أحمد رقم (١٥٧٨٥، ١٥٧٩٦، ٢٧١٧٤)، والبخاري في «تاريخه» (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥)، وأبو يعلى كما في «المطالب العالية» رقم (٤٠٥٤) بسند صحيح.
(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٢٥٩)، وابن أبي شيبة (٨/ ٥٣٢)، وأحمد رقم (١٣٦٨، ١١٠٥٧).
(٤) أخرجه الديلمي رقم (٣٦١٣).
قال الفتني في «تذكرة الموضوعات» (ص١٦٨): «فيه لاحق بن الحسين، كذاب وضّاع».
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٣٥).

وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب[١] قال: قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «اهج المشركين، فإن جبريل معك».

وأخرج ابن سعد[٢] عن البراء بن عازب قال: «قيل: يا رسول الله، إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك، فقام ابن رواحة فقال: يا رسول الله، ائذن لي فيه، فقال: «أنت الذي تقول ثبت الله؟» فقال: نعم يا رسول الله، قلت:

فثبّت اللّه ما أعطاك من حَسَنٍ تثبيت موسى ونصراً مثل ما نُصرا[٣]

قال: وأنت، ففعل الله بك مثل ذلك، ثم وثب كعب فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه؟ فقال: «أنت الذي تقول همت؟» قال: نعم يا رسول الله، قلت:

همَّت سَخينة أنْ تُغالب ربَّها فَلَيُغلَبنّ مُغالِبُ الغُلَّابِ[٤]

فقال: «أما إن الله لم ينس ذلك لك»، ثم قام حسان، فقال: يا رسول الله ائذن لي فيه.

وأخرج لساناً له أسود، فقال: يا رسول الله لو شئت لفريت به المراد، ائذن لي فيه، فقال: «اذهب إلى أبي بكر»، فليحدّثك حديث القوم، وأيامهم، وأحسابهم، واهجهم، وجبريل معك».

وأخرج أحمد، وابن سعد عن أبي هريرة[٥] قال: مرّ عمر بحسان، وهو ينشد في المسجد، فلحظ إليه، فنظر إليه، فقال: قد كنتُ أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، فسكت، ثم التفت حسان إلى أبي هريرة فقال: أنشدك بالله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني، اللَّهُمَّ أيده بروح القدس؟» قال: نعم.

وأخرج ابن سعد من حديث جابر[٦] مرفوعاً نحوه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٠٩)، وقد أخرج الحديث البخاري رقم (٣٢١٣)، ومسلم رقم (٢٤٨٦).

(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» (٣/ ٥٢٨).

(٣) انظر: «ديوان عبد الله بن رواحة» (ص١٥٩).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» (٢/ ٤٢٤).

(٥) أخرجه أحمد رقم (٢١٩٣٦)، وهو عند البخاري رقم (٣٢١٢)، ومسلم رقم (٢٤٨٥).

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٣٧).

وأخرج ابن أبي شيبة[١] عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشعر حُكْماً».

وأخرج ابن أبي شيبة[٢] عن ابن مسعود، عن النبي : «إن من الشعر حُكْماً، ومن البيان سحراً».

وأخرج مسلم[٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً يَرِيه، خير من أن يمتلئ شعراً». وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً».

قال في «الصحاح»[٤]: ورى القيح جوفَه يريه، وريا: إذا أكله.

قال القرطبي[٥]: روى إسماعيل بن عيّاش عن عبد الله بن عون، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حسن الشعر كحسن الكلام، وقبيح الشعر كقبيح الكلام»[٦].

قال القرطبي[٧]: رواه إسماعيل عن عبد الله بن عون الشامي، وحديثه عن أهل الشام صحيح، فيما قال يحيى بن معين، وغيرُه. قال: وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام»[٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٠٤)، وهو عند أبي داود رقم (٥٠١٢). وهو حديث ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٠٥)، وهو عند الترمذي رقم (٢٨٤٤) بسند صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨٨)، والبخاري رقم (٦١٥٥)، ومسلم رقم (٨/ ٢٢٥٧)، وأبو داود رقم (٥٠٠٩)، والترمذي رقم (٢٨٥١) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه رقم (٣٧٥٩).

(٤) في «الصحاح» (٦/ ٢٥٢٢).

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٩٢).

(٦) أخرجه الدارقطني رقم (٤٣٠٩).
وأخرجه أبو يعلى رقم (٤٧٦٠)، والدارقطني رقم (٤٣٠٦، ٤٣٠٧) من حديث عائشة ﵂.

(٧) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٩٢).

(٨) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٨٦٥)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٧٦٩٢)، والدارقطني رقم (٤٣٠٨).

وأخرج مسلم[١] من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «ردفتُ رسول الله ﷺ، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت؟ قلت: نعم. قال: «هيه»، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، ثم أنشدته بيتاً، فقال: هيه حتى أنشدته مائة بيت».

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عن فَضَالة بن عُبيد في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ قال: هؤلاء الذين يخربون البيت.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (١/ ٢٢٥٥)، وابن ماجه رقم (٣٧٥٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٣٧) بسند ضعيف.

سُورَةُ النَّمْلِ

هي ثلاث وتسعون آية، وقيل: أربع[(١)] وتسعون.

قال القرطبي[(٢)]: وهي مكية كلها في قول الجميع.

وأخرج ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس[(٣)] قال: أنزلت سورة النمل بمكة.

وأخرج ابن مردويه[(٤)] عن ابن الزبير مثله.

[بسم الله الرحمن الرحيم]

﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [٣٤٠/٣].

قوله: ﴿طسٓ﴾ قد مرّ الكلام مُفصّلاً في فواتح السور، وهذه الحروف إن كانت

---

(١) «الإتقان» (٢/ ٤٤٤). (٢) في «تفسيره» (١٦/ ٩٩).

(٣) أخرجه ابن الضريس رقم (١٧)، والنحاس (ص٦١١)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٤٣، ١٤٤).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٠).

اسماً للسورة، فمحلها الرفعُ على الابتداء، وما بعده خبره، ويجوز أَنْ يكون خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذا اسمُ هذه السورة، وإنْ لم تكن هذه الحروف اسماً للسورة؛ بل مسرودة على نمط التعديد، فلا محلّ لها، والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إلى نفس السورة؛ لأنّها قد ذكرت إجمالاً بذكر اسمها، واسم الإشارة[١] مبتدأ، وخبره ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾، والجملة خبر المبتدأ الأوّل على تقدير أنه مرتفع بالابتداء.

﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ قرأ الجمهور[٢] بجرّ كتاب عطفاً على القرآن؛ أي: تلك آيات القرآنِ وآيات كتابٍ مبين.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿وَكِتَابٍ﴾ القرآن: نفسه، فيكون من عطف بعض الصفات على بعض مع اتحاد المدلول، وأن يكون المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ، أو نفس السورة، وقرأ ابن أبي عبلة «وكتابٌ مبين» برفعهما[٣] عطفاً على آيات.

وقيل: هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف، وإقامة المضاف إليه مقامه؛ أي: وآيات كتاب مبين، فقد وصف الآيات بالوصفين:

القرآنية الدالة[٤] على كونه مقروءاً مع الإشارة إلى كونه قرآناً عربيّاً معجزاً.

والكتابية الدالة على كونه مكتوباً مع الإشارة إلى كونه متصفاً بصفة الكتب المنزّلة، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة على صفة مع اتحاد المدلول، ثم ضم إلى الوصفين وصفاً ثالثاً، وهي:

الإبانة لمعانيه لمن يقرؤه، أو هو: من أبان بمعنى: بان، معناه: اتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة.

وقدّم وصف القرآنية هنا نظراً إلى تقدّم[٥] حال القرآنية على حال الكتابة،

---

(١) «التبيان» (١/ ١٠٠٣)، و«الفريد» (٣/ ٦٧١).

(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٣٤٤)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٠٧).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٢٠٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٤٤).
قال الزجاج في «معانيه» (٤/ ١٠٧): قراءة الرفع: «ولا أعلم أحداً قرأ بها».
وقال الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٨٥): «أنّه لو قرئ بالرفع لساغ فيه ذلك».
وقال النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٩٧): قاله أبو إسحاق: ويجوز «وكتابٌ مبينٌ» بمعنى، وذلك كتابٌ مبينٌ. والرفع قراءة شاذة.

(٤) «النكت والعيون» (٤/ ١٩٢).

(٥) «روح المعاني» (١٩/ ٣٤٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٣٢).

وأخَّره في سورة الحجر، فقال: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ١] نظراً إلى حالته التي قد صار عليها، فإنّه مكتوب، والكتابة سبب القراءة والله أعلم.

وأمّا تعريف القرآن[١] هنا، وتنكير الكتاب، وتعريف الكتاب في سورة الحجر، وتنكير القرآن، فلصلاحية كلّ واحد منهما للتعريف، والتنكير.

﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في موضع نصب[٢] على الحال من الآيات، أو من الكتاب؛ أي: تلك آيات هادية ومبشرة.

ويجوز أن يكون في محل[٣] رفع على الابتداء؛ أي: هو هدى، أو هما خبران آخران لتلك، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقدّر؛ أي: يهدي هدى، ويبشر بُشرى. ثم وصف المؤمنين الذي لهم الهدى والبشرى، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، والموصول في محل[٤] جرّ، أو يكون بدلاً، أو بياناً، أو منصوباً على المدح، أو مرفوعاً على تقدير مبتدأ.

والمراد بالصلاة: الصلوات الخمس.

والمراد بالزكاة الزكاة المفروضة.

وجملة: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ في محل نصب[٥] على الحال، وكرّر الضمير للدلالة على الحصر؛ أي: لا يوقن بالآخرة حقّ الإيقان إلّا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، وجعل الخبر مضارعاً للدلالة على التجدّد في كلّ وقت، وعدم الانقطاع.

ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وهم الكفار؛ أي: لا يصدّقون بالبعث ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قيل: المراد زين الله لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة.

وقيل: المراد أنّ الله زين لهم الأعمال الحسنة، وذكر لهم ما فيها من خيري الدنيا والآخرة فلم يقبلوا ذلك.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٩٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).
(٢) «التبيان» (٢/ ١٠٠٣)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٤٤)، و«الفريد» (٣/ ٦٧١).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «التبيان» (٢/ ١٠٠٣)، و«الفريد» (٣/ ٦٧٢).
(٥) «روح المعاني» (١٩/ ٣٤٥)، و«الفريد» (٣/ ٦٧٢).

قال الزجّاج[(١)]: معنى الآية: أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أنْ زينا لهم ما هم فيه ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يتردّدون فيها، متحيرين على الاستمرار لا يهتدون إلى طريقة، ولا يقفون على حقيقة. وقيل: معنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتمادون.

وقال قتادة[(٢)]: يلعبون، وفي معنى التحير.

قال الشاعر[(٣)]:

ومَهْمهٍ أطرافُه في مهمهٍ أعمى الهُدى الحائرين العُمَه

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى المذكورين قبله، وهو مبتدأ خبره ﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قيل: في الدنيا كالقتل والأسر، ووجه تخصيصه[(٤)] بعذاب الدنيا قوله بعده: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾؛ أي: هم أشدّ الناس خسراناً، وأعظمهم خيبة.

ثم مهد سبحانه مقدّمةً نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾؛ أي: يُلْقى عليك فتلقاه، وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم، قيل: إن ﴿لَّدُنْ﴾ هاهنا بمعنى: عند.

وفيها لغات كما تقدّم في سورة الكهف ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ الظرف[(٥)] منصوب بمضْمر، وهو اذْكر.

قال الزجاج[(٦)]: موضع «إذ» نصب، المعنى: اذكر إذْ قال موسىٰ؛ أي: اذكر قصته إذ قال لأهله، والمراد بأهله: امرأته في مسيره من مدين إلى مصر، ولم يكن معه إذ ذاك إلّا زوجته بنت شعيب، فكنى عنها بلفظ الأهل الدالّ على الكثرة، ومثله قوله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ [طه: ١٠، القصص: ٢٩]، ومعنى ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾: أبصرتها ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ السين تدلّ على بُعد مسافة النار.

﴿ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بتنوين[(٧)] شهاب.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٠٨).
(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٩٣) عن قتادة والأعمش.
(٣) هو: رؤبة بن العجاج. انظر: «ديوانه» (ص١٦٦ ـ «مجموع أشعار العرب»).
(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٣٤٦).
(٥) «التبيان» (٢/ ١٠٠٣)، و«الفريد» (٣/ ٦٧٢).
(٦) في «معاني القرآن» (٤/ ١٠٨).
(٧) «النشر» (٢/ ٣٣٧)، و«التيسير» (ص١٦٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٥١).

وقرأ الباقون بإضافته[١] إلى قبس، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلاً من شهاب، أو صفة له؛ لأنه بمعنى مقبوس، وعلى القراءة الثانية الإضافة للبيان.

والمعنى على القراءتين: آتيكم بشعلة نار مقبوسة؛ أي: مأخوذة من أصلها. قال الزجاج[٢]: مَنْ نَوّن جعل ﴿قَبَسٍ﴾ من صفة شهاب.

وقال الفراء[٣]: هذه الإضافة كالإضافة في قولهم: مسجد الجامع، وصلاة الأولى، أضاف الشيء إلى نفسه لاختلاف أسمائه.

وقال النحاس[٤]: هي إضافة النوع إلى الجنس كما تقول: ثوب خَزٍّ، وخاتم حديد.

قال[٥]: ويجوز في غير القرآن بشهاب قبساً على أنه مصدر أو بيان أو حال ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؛ أي: رجاء أَنْ تستدفئوا بها. أو لكي تستدفئوا بها مِنْ البرد، يقال: صلي بالنار، واصطلى بها إذا استدفأ بها.

قال الزجاج[٦]: كلّ أبيض ذي نور، فهو: شهاب.

وقال أبو عبيدة[٧]: الشهاب: النار، ومنه قول أبي النجم[٨]:

كـأنَّـمـا كـانَ شـهـابـاً واقـداً أَضَـاءَ ضَـوءاً ثـمّ صَـار خَـامِـدا

وقال ثعلب[٩]: أصل الشهاب: عُود في أحد طرفيه جَمْرة، والآخر لا نار فيه، والشهاب: الشعاع المضيء، وقيل: للكوكب: شهاب، ومنه قول الشاعر[١٠]:

فـي كـفّـه صَـعْـدةٌ مُـثـقَّـفـةٌ فـيـهـا سِـنـانٌ كـشُـعـلـةِ الـقَـبَـس

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾؛ أي: جاء النّار موسىٰ ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: «أن» هي المفسِّرة[١١] لما في النداء من معنى القول، أو هي المصدرية؛ أي: بأنْ

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة. (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١٠٨).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٢٨٦).
(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/١٩٨ ـ ١٩٩).
(٥) النحاس في «إعراب القرآن» (٣/١٩٩). (٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١٠٨).
(٧) في «مجاز القرآن» (٢/٩٢). (٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/١٠٣).
(٩) انظر: «الصحاح» (١/١٥٩)، و«تهذيب اللغة» (٦/٨٦).
(١٠) هو: أبو زبيد الطائي. «طبقات فحول الشعراء» (٢/٦١٠) ولفظه:
فـجـال فـي كـفِّـه مـثـقَّـفـةٌ تـلـمعُ فـيـهـا كـشعـلـةِ الـقبـس
(١١) «التبيان» (٢/١٠٠٤)، و«الفريد» (٣/٦٧٣)، و«روح المعاني» (١٩/٣٥١).

بورك، وقيل: هي المخففة(١) من الثقيلة.

قال الزجاج(٢): «أن» في موضع نصب؛ أي: بأنْ قال، ويجوز أن يكون في موضع رفع اسم ما لم يُسم فاعله. والأولى أن النائب ضمير يعود إلى موسى.

وقرأ أبيّ(٣)، وابن عباس، ومجاهد: «أنْ بوركتْ النار ومَنْ حولها» حكى ذلك أبو حاتم(٤). وحكى الكسائي(٤) عن العرب: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، وكذلك حكى هذا الفراء(٥).

قال ابن جرير(٦): قال: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، ولم يقل: بورك على النار على لغة مَنْ يقول: باركك الله؛ أي: بورك على من في النار، وهو: موسى، أو على من في قرب النار لا أنه كان في وسطها.

وقال السديّ(٧): كان في النار ملائكة، والنار هنا هي مجرّد نور، ولكنّه ظن موسى أنها نار، فلما وصل إليها وجدها نوراً.

وحكي عن الحسن(٨)، وسعيد بن جبير(٩): أن المراد بمن في النار هو الله سبحانه؛ أي: نوره.

وقيل: بورك ما في النار من أمر الله سبحانه الذي جعلها على تلك الصفة.

قال الواحدي(١٠): ومذهب المفسرين: أن المراد بالنار: النور.

ثم نزّه سبحانه نفسه، فقال: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وفيه تعجيب لموسى من ذلك ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الضمير للشأن، أنا الله العزيز الغالب القاهر(١١) الحكيم في أمره وفعله.

وقيل: إن موسى قال: يا ربّ مَنْ الذي ناداني؟ فأجابه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١٠٨).
(٣) وهي قراءة شاذة. «البحر المحيط» (٨/ ٢١١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٠٤).
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ١٩٩).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٦).
(٦) في «جامع البيان» (١٨/ ١٢).
(٧) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٩٥).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧٩) بسند صحيح.
(٩) «معالم التنزيل» (٦/ ١٤٤ ـ ١٤٥).
(١٠) في «الوسيط» (٣/ ٣٦٩).
(١١) «جامع البيان» (١٨/ ١٣).

ثم أمره سبحانه: بأن يُلقي عصاه؛ ليعرف ما أجراه الله سبحانه على يده من المعجزة الخارقة، وجملة ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ معطوفة على ﴿بُورِكَ﴾، وفي الكلام حذف، والتقدير، فألقاها من يده، فصارت حية ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾.

قال الزجاج[١]: صارت العصا تتحرك كما يتحرّك الجانّ، وهي الحية البيضاء، وإنما شبهها بالجانّ في خفة حركتها، وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها.

وجمع الجانّ: جنان، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم.

وقال الكلبي[٢]: لا صغيرة ولا كبيرة.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ من الخوف ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أي: لم يرجع: يقال: عقّب فلان إذا رجع[٣]، وكل راجع معقب، وقيل: لم يقف، ولم يلتفت[٤]. والأوّل أولى؛ لأن التعقيب هو: الكرّ بعد الفرّ، فلما وقع منه ذلك قال الله سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾؛ أي: من الحية وضررها ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ أي: لا يخاف عندي من أرسلته برسالتي، فلا تخف أنت.

[نفي الخوف عن المرسلين ليس مطلقاً]:

قيل: ونفي الخوف عَنْ المرسلين ليس في جميع الأوقات؛ بل في وقت الخطاب لهم؛ لأنهم إذ ذاك مستغرقون. ثم استثنى استثناء[٥] منقطعاً، فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لكن من أذنب في ظلم نفسه بالمعصية ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾؛ أي: توبةً وندماً ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾؛ أي: بعد عمل سوء ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، [٣/٣٤١] وقيل: الاستثناء[٦] من مقدّر محذوف؛ أي: لا يخاف لديّ المرسلون، وإنما يخاف غيرهم ممّن ظلم إلّا من ظلم ثم بدل إلخ، كذا قال الفراء[٧].

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١٠٩). (٢) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/٢٨٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/١٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٨٤٨) عن مجاهد بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/١٥)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٨٤٨) عن قتادة بسند صحيح.

(٥) «معاني القرآن» للفراء (٢/٢٨٧)، و«روح المعاني» (١٩/٣٦٤)، و«البحر المحيط» (٨/٢١٤).

(٦) انظر: «البحر المحيط» (٨/٢١٤)، و«روح المعاني» (٩/٣٦٤).

(٧) في «معاني القرآن» (٢/٢٨٧).

قال النحاس[١]: الاستثناء مِنْ محذوف محال؛ لأنه استثناء من شيء لم يذكر. وروي عن الفراء[٢] أنه قال: إلّا بمعنى الواو.

وقيل: إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف. والمعنى: إلّا من ظلم مِنْ المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد، واختار هذا النحاس[٣]، وقال: علم مَنْ عصى منهم، فاستثناه فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾، وإن كنتُ قد غفرت له كآدم، وداود، وإخوة يوسف، وموسى بقتله القبطيّ.

ولا مانع من الخوف بعد المغفرة، فإنّ نبينا ﷺ الذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، كان يقول: «وددت أنّي شجرة تعضد»[٤] ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ المراد بالجيب هو المعروف، وفي القصص: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣٢]، وفي ﴿وَأَدْخِلْ﴾ من المبالغة ما لم يكن في ﴿اسْلُكْ﴾. ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾؛ أي: من غير برص، أو نحوه من الآفات، فهو احتراس. وقوله: ﴿تَخْرُجْ﴾ جواب ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾. وقيل: في الكلام حذف تقديره: أدخل يدك تدخل، وأخرجها تخرج، ولا حاجة لهذا الحذف، ولا ملجئ إليه.

قال المفسرون[٥]: كانت على موسى مدرعة من صوف لا كمّ لها ولا إزار، فأدخل يده في جيبه وأخرجها، فإذا هي تبرق كالبرق.

وقوله: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ قال أبو البقاء[٦]: هو في محل نصب على الحال من فاعل تخرج، وفيه بُعد. وقيل: متعلق بمحذوف؛ أي: اذهب في تسع آيات. وقيل: متعلق بقوله: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]، ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ في جملة تسع آيات، أو مع تسع آيات.

---

(١) في «إعراب القرآن» (٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠). (٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٧).

(٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٠٠).

(٤) أخرجه الترمذي في «السنن» رقم (٢٣١٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وابن ماجه رقم (٤١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٧٣) وذكر أنّ هذه الجملة من قول أبي ذر رضي الله عنه.

(٥) «الوسيط» (٣/ ٣٧٠)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٩٦).

(٦) «التبيان» (٢/ ١٠٠٥).

وقيل: المعنى: فهما آيتان[١] من تسع يعني: العصا واليد، فتكون الآيات إحدى عشرة: هاتان، والفلق، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، والطمسة، والجدب في بواديهم، والنقصان في مزارعهم.

قال النحاس[٢]: أحسن ما قيل فيه: أنّ هذه الآية يعني: اليد داخلة في تسع آيات، وكذا قال المهدوي والقشيري.

قال القشيري[٣]: تقول خرجت في عشرة نفر، وأنت أحدهم؛ أي: خرجت عاشر عشرة، ففي بمعنى: مِنْ لقربها منها، كما تقول: خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان؛ أي: منها.

قال الأصمعي[٤] في قول امرئ القيس[٥]:

وَهَل ينعمنْ مَن كان آخر عهدِه ... ثلاثون شَهْراً في ثلاثةِ أحوالِ

في بمعنى مِنْ، وقيل: في بمعنى مع. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ قال الفراء[٦]: في الكلام إضمار؛ أي: إنك مبعوث، أو مرسل إلى فرعون وقومه، وكذا قال الزجاج[٧].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ الجملة تعليل لما قبلها ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾؛ أي: جاءتهم آياتنا التي على يد موسى حال كونها مُبْصرة؛ أي: واضحة بينة كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

قال الأخفش[٨]: ويجوز أن تكون بمعنى مبصرة على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول.

وقد تقدّم تحقيق الكلام في هذا.

---

(١) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/١١٨).
(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/٢٠١). (٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/١١١).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/١١١).
(٥) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٢٧) والذي فيه:
وهل يَعَمَنْ من كان أحدث عهده
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٢٨٨). (٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١١١).
(٨) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/٢٠١).

وقرأ عليّ بن الحسين، وقتادة «مَبْصَرةً» بفتح الميم[١]، والصاد؛ أي: مكاناً يكثر فيه التبصر، كما يقال: الولد مَجْبنة ومَبْخَلة.

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: لما جاءتهم قالوا هذا القول؛ أي: سحر واضح. ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها، فالواو للحال، وانتصاب ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ على الحال[٢]؛ أي: ظالمين عالين، ويجوز أن ينتصبا على العلة؛ أي: الحامل لهم على ذلك الظلم والعلوّ. ويجوز أن يكونا نعت[٣] مصدرٍ محذوف؛ أي: جحدوا بها جحوداً ظلماً وعلوًّا.

قال أبو عبيدة[٤]: والباء في ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ زائدة؛ أي: وجحدوها.

قال الزجاج[٥]: التقدير: وجحدوا بها ظلماً وعلوًّا: شركاً، وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، وهم يعلمون أنها من عند الله ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أي: تفكر في ذلك، فإن فيه معتبراً للمعتبرين، وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم في البحر على تلك الصفة الهائلة.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ يعني: تبارك وتعالى نفسه: كان نور ربّ العالمين في الشجرة. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: الملائكة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٧] عنه في الآية قال: كان الله في النور نودي من النور ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قال: الملائكة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم،

---

(١) «المحتسب» (٢/ ١٣٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢١٥ ـ ٢١٦). وهي قراءة شاذة.

(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٣٧٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢١٦)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٦).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١١٢).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١١١).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٠، ١٢، ١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٥، ٢٨٤٧) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢، ١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٥ ـ ٢٨٤٧) بسند ضعيف.

وابن مردويه[١] عنه أيضاً قال: ناداه الله، وهو في النور.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حُميد، وابن المنذر[٢] عنه أيضاً: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ قال: بوركت النار.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٣] قال: في مُصحف أبيّ بن كعب: «بوركت النار ومَنْ حولها»، أما النار، فيزعمون أنها نور ربّ العالمين.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن ابن عباس: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ قال: قدّس.

وأخرج عبد بن حميد، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة»، والبيهقي في «الأسماء والصفات» من طريق أبي عبيدة، عن أبي موسى الأشعري[٥] قال: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام؛ يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره».

ثم قرأ أبو عبيدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. والحديث أصله مخرّج في «صحيح مسلم»[٦] من حديث عمرو بن مرّة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس[٧] قال: كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه، فقال له: أدخل يدك في جيبك، فأدخلها.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٠، ١١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٦) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤١).

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤١).
أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٦) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٥) بسند صحيح.

(٥) أخرجه مسلم رقم (١٧٩)، وابن ماجه رقم (١٩٥، ١٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٤، ٢٨٤٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (١١٩، ١٢٠، ١٢٩، ١٣١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٤، ٦٧١).

(٦) انظر: التعليقة المتقدمة.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٥٠) بسند صحيح.

وأخرج ابن المنذر[1] عنه في قوله: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ قال: تكبراً، وقد استيقنتها أنفسهم، وهذا من التقديم والتأخير.

[من نِعَم الله على داود وسليمان وقصة النملة]:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
(١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ
ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٩)﴾.

[قصة الهدهد وبلقيس]:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ
بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن
كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى
يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٢٦)﴾.

لما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع في قصة داود، وابنه سليمان، وهذه القصص وما قبلها وما بعدها هي كالبيان، والتقرير لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، والتنوين في ﴿عِلْمًا﴾ إمّا للنوع؛ أي: طائفة من العلم، أو للتعظيم[2]؛ أي: علماً كثيراً.

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٣).
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٣٧٣).

والواو في قوله: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ للعطف على محذوف؛ لأن هذا المقام مقام الفاء؛ فالتقدير: ولقد آتيناهما علماً، فعملا به، وقالا: الحمد لله، ويؤيده أن الشكر باللسان إنما يحسن إذا كان مسبوقاً بعمل القلب، وهو العزم على فعل الطاعة، وترك المعصية.

[نعمة العلم من أجلّ النِّعم]:

﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: فضلنا بالعلم، والنبوّة، وتسخير الطير والجنّ والإنس ولم يفضلوا أنفسهم على الكلّ تواضعاً منهم. وفي الآية دليل على شرف العلم، وارتفاع محله وأنّ نعمة العلم من أجلّ النِّعم[1] التي ينعم الله بها على عباده، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد، ومُنح شرفاً جليلاً.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾؛ أي: ورثّه العلم والنبوّة.

قال قتادة[2]، والكلبي[3]: كان لداود تسعة عشر ولداً ذكراً، فورث سليمان من بينهم نبوّته، ولو كان المراد وراثة المال لم يخصّ سليمان بالذكر؛ لأن جميع أولاده في ذلك سواء، وكذا قال جمهور المفسرين[4]، فهذه الوراثة هي وراثة مجازية كما في قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[5]، ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ قال سليمان: هذه المقالة مخاطباً للناس تحدّثاً بما أنعم الله به عليه، وشكر النعمة التي خصه بها، وقدّم منطق الطير[6]؛ لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره.

قال الفراء[7]: منطق الطير كلام الطير، فجُعل كمنطق الرجل، وأنشد قول حُميد بن ثور:[8]

عجيبٌ لها أنْ يكونَ غِناؤها فَصِيْحاً ولم يَفغِرْ بمنطقها فَما

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١١٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٧٥).

(٢) قال قتادة: ورث نبوته وملكه. «النكت والعيون» (٤/ ١٩٨).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١١٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١٩٨).

(٤) «الوسيط» (٣/ ٣٧١)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٩٩)، و«جامع البيان» (١٨/ ٢٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤٣٦).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود رقم (٣٦٤١)، وابن ماجه رقم (٢٢٣)، والدارمي (١/ ٩٨) كلهم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٦) «روح المعاني» (١٩/ ٣٨٠ ـ ٣٨١).

(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٨).

(٨) انظر: «ديوانه» (ص٢٧).

ومعنى الآية: فهمنا ما يقول الطير. قال جماعة[١] من المفسرين: إنه عُلِّم منطق جميع الحيوانات، وإنما ذُكر الطير؛ لأنه كان جنداً من جنده يسير معه لتظليله من الشمس.

وقال قتادة[٢]، والشعبي: إنما عُلِّم منطق الطير خاصةً، ولا يعترض ذلك بالنملة، فإنها مِنْ جملة الطير، وكثيراً ما تخرج لها أجنحة، فتطير، وكذلك كانت هذه النملة التي سمع سليمان كلامها، وفهمه، ومعنى ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: كلّ شيء تدعو[٣] إليه الحاجة؛ كالعلم، والنبوّة، والحكمة، والمال، وتسخير الجن، والإنس، والطير، والرياح، والوحش، والدواب، وكل ما بين السماء والأرض.

وجاء سليمان بنون العظمة، والمراد: نفسه بياناً لحاله من كونه مُطاعاً لا يُخَالف، لا تكبّراً وتعظيماً لنفسه، والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إلى ما تقدّم ذكره من التعليم، والإيتاء ﴿لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: الظاهر الواضح الذي لا يخفى على أحد، أو المظهر لفضيلتنا. ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ الحشر الجمع؛ أي: جُمع له جنوده من هذه الأجناس.

وقد أطال المفسرون في ذكر مقدار جنده، وبالغ كثير [٣/٣٤٢] منهم مبالغة تستبعدها العقولُ، ولا تصحّ مِنْ جهة النقل، ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: لكلِّ طائفة منهم وَزَعة تُردّ أوّلهم على آخرهم، فيقفون على مراتبهم، يقال: وزعَه يزعه وزعَاً: كفّه، والوازع في الحرب: المُوكَل بالصفوف يزع من تقدّم منهم؛ أي: يَردّه، ومنه قول النابغة[٤]:

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا   وقلتُ ألمّا أصحُ والشيبُ وازعُ

وقول الآخر[٥]:

ومَنْ لم يَزعْه لبُّه وحَياؤه   فليس له من شيبِ فَوْديهِ وازعُ

---

(١) «الوسيط» (٣/ ٣٧١ ـ ٣٧٢)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

(٢) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١١٦).

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤٣٩)، و«جامع البيان» (١٨/ ٢٥).

(٤) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص٧٩).

(٥) ذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (١/ ١٩٧) عن المعلوط السعدي.

وقول الآخر[(١)]:

ولا يزعُ النَّفسَ اللَّجوجَ عن الهَوَى من النَّاس إلّا وافرُ العقلِ كاملهُ

وقيل: هو من التوزيع[(٢)] بمعنى التفريق، يقال: القوم أوزاع؛ أي: طوائف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ حتّى هي التي يُبتدأ بعدها الكلام، وتكون غايةً لما قبلها.

والمعنى: فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية، وهو إتيانهم على واد النمل؛ أي: فهم يسيرون ممنوعاً بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ، و﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾، متعلق بأتوا، وعدّي بـ«على»[(٣)]؛ لأنّهم كانوا محمولين على الريح فهم مُسْتعلون.

والمعنى: أَنَّهم قطعوا الوادي، وبلغوا آخره، ووقف القراء[(٤)] جميعهم على واد بدون ياء اتباعاً للرسم حيثُ لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ [الفجر: ٩] إلّا الكسائي[(٥)]، فإنه وقف بالياء، قال: لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل.

قال كعب[(٦)]: واد النمل بالطائف. وقال قتادة[(٦)]، ومقاتل[(٦)]: هو بالشام

---

(١) انظره في: «الجامع لأحكام القرآن» (١١٨/١٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١١٧/١).

(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٦٨)، و«تهذيب اللغة» (٩٩/٣).

(٣) قال الزمخشري في «الكشاف» (٤٤٠/٤): فإن قلت: لم عدي (أتوا) بـ على؟ قلت: يتوجه على معنيين:
أحدهما: أنَّ إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء.
والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره، من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره، كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي؛ لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم».
«البحر المحيط» (٢٢٨/٨)، و«روح المعاني» (٣٨٦/١٩ ـ ٣٨٧).

(٤) «التيسير» (ص٧٠)، و«النشر» (٢٤١/٢)، و«البدور الزاهرة» (ص٣٣٢).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة. وكذلك وقف بالياء يعقوب.

(٦) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (١٩٨/٤).
قال ابن كثير في «تفسيره» (٣٩٧/١٠): «ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها».

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ هذا جواب إذا؛ كأنّها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرّت، ونبّهت سائر النمل مناديةً لها قائلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب، والمساكن هي الأمكنة التي يسكن النمل فيها.

قيل: وهذه النملة التي سمعها سليمان هي أُنثى بدليل تأنيث الفعل المسند إليها. وردّ هذا أبو حيان[(١)]، فقال: لحاق التاء في قالت لا يدلّ على أن النملة مؤنثة؛ بل يصحّ أن يقال في المذكر: قالت؛ لأن نملة، وإن كانت بالتاء، فهي مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه؛ بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر، أو أنثى، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة، ولا بالتعرّض لاسم النملة ولما ذكر من القصص الموضوعة، والأحاديث المكذوبة.

وقرأ الحسن، وطلحة، ومعمر بن سليمان «نَمُلة»، والنمُل بضم الميم[(٢)]، وفتح النون بزنة رَجُل وسَمُرة.

وقرأ سليمان التيمي بضمتين[(٣)] فيهما.

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ الحطم[(٤)] الكسر، يقال: حَطمتُه حَطْماً؛ أي: كسرته كَسْراً، وتحّطم تكسّر، وهذا النهي هو في الظاهر للنّمل، وفي الحقيقة لسليمان، فهو مِنْ باب: لا أرينّك هاهنا، ويجوز أَنْ يكون بدلاً من الأمر، ويحتمل أن يكون جواباً للأمر.

قال أبو حيّان[(٥)]: أما تخريجه على جواب الأمر، فلا يكون إلّا على قراءة الأعمش، فإنه قرأ «لا يَحْطمْكم» بالجزم بدون نون التوكيد، وأما مع وجود نون التوكيد، فلا يجوز ذلك إلّا في الشعر.

قال سيبويه[(٦)]: وهو قليل في الشعر، شبّهوه بالنهي حيث كان مجزوماً.

---

(١) في «البحر المحيط» (٨/ ٢٢٠).

(٢) وهي قراءة شاذة. «القراءات الشاذة» (ص١٠٨)، و«زاد المسير» (٦/ ١٦١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢٠).

(٣) وهي قراءة شاذة. انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «تهذيب اللغة» (٤/ ٣٩٩)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٤٢).

(٥) في «البحر المحيط» (٨/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

(٦) في «الكتاب» (٣/ ٥١٥).

وقرأ أبيّ[١]: «ادخلوا مساكنكنّ»، وقرأ شهر بن حوشب «مسكنكم»[٢].

وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وقتادة وعيسى الهمداني «لا يُحَطِّمنكم» بضمّ الياء[٣]، وفتح الحاء، وتشديد الطاء.

وقرأ ابن أبي إسحاق، ويعقوب، وأبو عمرو في رواية بسكون[٤] نون التوكيد.

وجملة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يحطمنكم؛ أي: لا يشعرون بحطمكم، ولا يعلمون بمكانكم، وقيل: إن المعنى: والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها، وهو بعيد: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ قرأ ابن السميفع: «ضَحْكاً»[٥]، وعلى قراءة الجمهور[٦] يكون ضاحكاً حالاً مؤكدة؛ لأنه قد فهم الضحك من التبسم، وقيل: هي حال مقدّرة؛ لأن التبسم أوّل الضحك.

وقيل: لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مُبيناً له، وقيل: إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير، وعلى قراءة ابن السميفع يكون «ضحكاً» مصدراً منصوباً بفعل محذوف، أو في موضع الحال، وكان ضحك سليمان تعجباً مِنْ قولها، وفهمها، واهتدائها إلى تحذير النمل ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ قد تقدّم بيان معنى أوزعني قريباً في قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧، فصلت: ١٩] قال في «الكشاف»[٧]: وحقيقة أوزعني: اجعلني أزع شُكر نعمك عندي، وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكراً لك. انتهى.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٢٢٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٩٤)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ١٠١).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢٠).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٢٢٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٩٥).

(٤) «النشر» (٢/ ٢٤٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٩٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢٠). قرأ رويس عن يعقوب (لا يحطمنْكم) بسكون نون التوكيد الخفيفة، وقرأ باقي العشرة بنون التوكيد المثقّلة مشدّدة مفتوحة وهما قراءتان متواترتان، أما ما عزاه المؤلف لأبي عمرو فرواية شاذة، وباقي القراءات التي ذكرها فهي شاذة. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص٢٧٢).

(٥) وهي قراءة شاذة. «المحتسب» (٢/ ١١٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ٣٩٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢٢).

(٦) «التبيان» (٢/ ١٠٠٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢٢).

(٧) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٤٤٤).

قال الواحدي[1]: أوزعني؛ أي: ألهمني أَنْ أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ، يقال: فلان مُوزع بكذا؛ أي: مُولع به. انتهى.

قال القرطبي[2]: وأصله من وَزَعَ، فكأنّه قال: كُفَّني عمَّا يُسْخطك. انتهى.

والمفعول الثاني لأوزعني هو: أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ.

وقال الزجّاج[3]: إن معنى: أوزعني: امنعني أن أكفر نعمتك، وهو تفسير باللّازم، ومعنى ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾: الدعاء منه بأن يوزعه اللهُ شكرَ نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه، فإنّ الإنعام عليهما إنعام عليه، وذلك يستوجب الشكر منه لله سبحانه، ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه إلى سوابقها، ولا سيما النعم الدينية، فقال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾؛ أي: عملاً صالحاً ترضاه مني.

[دخولك الجنة بفضل الله لا بعملك]:

ثم دعا أنْ يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلاً في زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التي يتعلّق الطلب بها، فقال: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، والمعنى: أدخلني في جملتهم، وأثبت اسمي في أسمائهم، واحشرني في زمرتهم إلى دار الصالحين، وهي الجنة. اللَّهُمَّ وإني أدعوك بما دعاك به هذا النبيّ الكريم، فتقبل ذلك منّي، وتفضل عليّ به، فإنّي وإن كنتُ مقصراً في العمل، ففضلك هو سبب الفوز بالخير، فهذه الآية منادية بأعلى صوت، وأوضح بيان بأن دخول الجنة التي هي دار المؤمنين بالتفضّل منك لا بالعمل منهم، كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه في «الصحيح»: «سدّدوا، وقاربوا، واعلموا أنّه لن يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمته»[4]، فإذا لم يكن إلّا تفضّلك الواسع، فترك طلبه منك عجز، والتفريط في التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع.

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ٣٧٣).

(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٢٨).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١١٢ ـ ١١٣).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٢٥)، والبخاري رقم (٦٤٦٤)، ومسلم رقم (٢٨١٨/٧٨) كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها.

ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بلقيس، وما جرى بينها وبين سليمان، وذلك بدلالة الهدهد، فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ التفقد: تطلّبُ ما غاب عنك، وتعرّف أحواله، والطير: اسمُ جنسٍ لكلّ ما يطير.

والمعنى: أنّه تطلب ما فقد من الطير، وتعرف حال ما غاب منها، وكانت الطير تصحبه في سفره، وتظلّه بأجنحتها ﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾؛ أي: ما للهدهد لا أراه؟ فهذا الكلام من الكلام[1] المقلوب الذي تستعمله العرب كثيراً، وقيل: لا حاجة إلى ادّعاء القلب؛ بل هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد؛ كأنّه قال: مالي لا أراه هل ذلك لساتر يستره عني؟ أو لشيء آخر؟، ثم ظهر له أنه غائب، فقال: ﴿أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾، و«أم» هي المنقطعة[2] التي بمعنى الإضراب قرأ ابن كثير، وابن محيصن، وهشام، وأيوب «مالي» بفتح الياء[3]، وكذلك قرؤوا في يسّ ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يَس: ٢٢] بفتح الياء[4]، وقرأ بإسكانها في الموضعين حمزة، والكسائي، ويعقوب، وقرأ الباقون بفتح[5] التي في يسّ، وإسكان التي هنا.

قال أبو عمرو[6]: لأن هذه التي هنا استفهام، والتي في يسّ نفي، واختار أبو حاتم[7]، وأبو عُبيد الإسكان. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾.

اختلفوا في هذا العذاب الشديد ما هو؟، فقال مجاهد[8]، وابن جريج[9]: هو أن ينتف ريشه جميعاً.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٤٠٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٤٢).

(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٤٠٢)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ١٠٢).

(٣) «التيسير» (ص١٦٨)، و«النشر» (٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «النشر» (٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢٣). الصواب في هذا الحرف: قرأ ابن كثير وعاصم والكسائي بفتح الياء وهو وجه عن هشام ووجه لابن وردان، وقرأ الباقون بإسكان الياء وهو الوجه الثاني لكلٍ من هشام وابن وردان أم التي في (يس) فقرأ حمزة وخلف ويعقوب بإسكان الياء وهو وجه لهشام والثاني عنه كالباقين بالفتح. اهـ. «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص٢٧٢).

(٦) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٢). (٧) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (٣/ ٢٠٢).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣١) بسند صحيح.

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٣ ـ ٣٤) من طريق ابن جريج عن مجاهد بسند =

وقال يزيد بن رومان[(١)]: هو أن ينتف ريش جناحيه، وقيل: هو أن يحبسه[(٢)] مع أضداده.

وقيل: أن يمنعه من خدمته، وفي هذا دليل على أنّ العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد[(٣)].

قوله: ﴿عَذَابًا﴾ اسم مصدر، أو مصدر على حذف الزوائد كقوله: ﴿أَنْبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قرأ ابن كثير[(٤)] وحده بنون التأكيد المشدّدة بعدها نون الوقاية، وقرأ الباقون[(٥)] بنون مشدّدة فقط، وهي نون التوكيد، وقرأ عيسى بن عمر[(٦)] بنون مشدّدة مفتوحة غير موصولة بالياء.

والسلطان المبين هو الحُجة البينة في غيبته. ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ أي: الهدهد مكث زماناً غير بعيد.

قرأ الجمهور[(٧)]: «مكُث» بضم الكاف، وقرأ عاصم وحده بفتحها[(٨)]، ومعناه في القراءتين: أقام زماناً غير بعيد.

قال سيبويه[(٩)]: مكث يمكُث مكوثاً كقعد يقعد قعوداً.

وقيل: إنّ الضمير في مكث لسليمان. والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والتوعّد زماناً غير طويل، والأوّل أولى ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؛ أي: علمت

= ضعيف، ابن جريج لم يسمع من مجاهد.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٢) بسند ضعيف.

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٠٢).

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤٤٣).

(٤) «التيسير» (ص١٦٧)، و«النشر» (٢/ ٣٣٧).

(٥) «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٥٤، ١٥٥)، و«زاد المسير» (٦/ ١٦٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣٧).

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٢٢٤)، و«روح المعاني» (١٩/ ٢٢٤)، و«حاشية الجمل» (٣/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩). قراءة عيسى بن عمر قراءة شاذة.

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٢٢٤)، و«جامع البيان» (١٨/ ٣٧)، و«النشر» (٢/ ٣٣٧)، و«التيسير» (ص١٦٨)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٦).

(٨) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان متواترتان ومع عاصم روح عن يعقوب.

(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٠٢).

ما لم تعلمه من الأمر، والإحاطة: العلم بالشيء من جميع جهاته، ولعلّ في الكلام حذفاً.

والتقدير: فمكث الهدهدُ غير بعيد، فجاء، فعُوتب على مغيبه، فقال معتذراً عن ذلك: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾. قال الفراء[١]: ويجوز[٢] إدغام التاء في الطاء، فيقال: أحطّ، وإدغام الطاء في التاء، فيقال: أحتّ ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ قرأ الجمهور[٣] «من سبأٍ» بالصرف على أنه اسم رجل، نُسب إليه قوم، ومنه قول الشاعر:[٤]

[الواردون وتيم في ذُرى سبأٍ][٥] قد غضّ أعناقَهم جلدُ الجواميسِ

[﴿سَبَإِ﴾: سبب التسمية»]:

وقرأ ابنُ كثير[٦]، وأبو عَمْرو بفتح الهمزة، وترك الصرف على أنه اسم مدينة، وأنكر الزجاج[٧] أن يكون اسم رجل، وقال[٨]: سبأ اسمُ مدينةٍ تُعرف بمأرب اليمن بينهما وبين صنعاء ثلاثة أيام.

وقيل: هو اسم امرأة سُميّت بها المدينة[٩].

قال القرطبي[١٠]: والصحيح أنّه اسم رجل كما في كتاب الترمذي[١١] من حديث فروة [٣/٣٤٣] بن مسيك المرادي.

قال ابن عطية[١٢]: وخَفي هذا على الزجاج، فخبط خبط عشواء.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٩).
(٢) «النشر» (٢/ ٣٣٧) (٢/ ١٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٢).
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٢٢٦)، و«جامع البيان» (١٨/ ٣٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٥٥)، و«النشر» (٢/ ٣٣٧)، و«التيسير» (ص١٦٧).
(٤) قائله: جرير. انظر: «ديوانه» (ص٢٥٢).
(٥) كذا في المخطوط والذي في «الديوان»:
تدعوك تيم وتيم في قرى سبأ
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٣٤)، و«التيسير» (ص١٦٧). في رواية البزي عن ابن كثير، أما رواية قنبل عن ابن كثير بسكون الهمزة إجراءً للوصول مجرى الوقف.
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١١٤).
(٨) الزجاج في «معانيه» (٤/ ١١٤).
(٩) «النكت والعيون» (٤/ ٢٠٣).
(١٠) في «تفسيره» (١٦/ ١٣٦).
(١١) أخرجه الترمذي في «السنن» رقم (٣٢٤٢).
(١٢) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٠٤).

وزعم الفراء[١]: أنّ الرؤاسي سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ، فقال: ما أدري ما هو؟

قال النّحاس[٢]: وأبو عَمْرو أجلّ مِنْ أن يقول هذا، قال[٣]: والقول في سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسمُ رجل، فإن صرفته، فلأنه قد صار اسماً للحيّ، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة مثل ثمود، إلّا أن الاختيار عند سيبويه الصرف. انتهى.

وأقول: لا شك أنّ سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس، وهو أيضاً اسم رجل مِنْ قحطان، وهو سبأ بن يَشجُب بن يعرب بن قحطان بن هود، ولكن المراد هنا: أنّ الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه في مدينة سبأ مما وصفه، وسيأتي في آخر هذا البحث مِنْ المأثور ما يوضح هذا، ويؤيده.

ومعنى الآية: أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين، والنبأ هو: الخبر الخطير الشأن، فلما قال الهدهد لسليمان ما قال، قال له سليمان: وما ذاك؟ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾، وهي: بلقيس بنت شرحبيل، وجدَها الهدهدُ تَملكُ أهل سبأ.

والجملة هذه كالبيان، والتفسير للجملة التي قبلها؛ أي: ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيه مبالغة، والمراد: أنها أوتيت مِنْ كلّ شيء مِنْ الأشياء التي تحتاجها.

وقيل: المعنى: أوتيت مِنْ كلّ شيء في زمانها[٤] شيئاً، فحذف شيئاً؛ لأن الكلام قد دلّ عليه.

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: سرير عظيم، ووصفه بالعِظم؛ لأنّه كما قيل: كان من ذهب طوله ثمانون ذراعاً، وعرضه أربعون ذراعاً، وارتفاعه في السماء ثلاثون ذراعاً مُكلّل بالدر، والياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر[٥].

وقيل: المراد بالعرش هنا المُلْك[٦]، والأوّل أولى لقوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٨٩).
(٢) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤).
(٣) النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٠٤).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٣٩).
(٥) «معالم التنزيل» (٦/ ١٥٦).
(٦) «النكت والعيون» (٤/ ٢٠٤).

[النمل: ٣٨] قال ابن عطية(١): واللّازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن ذات مُلك عظيم، وسَرير عظيم، وكانت كافرةً مِنْ قوم كفار ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه، قيل: كانوا مجوساً(٢)، وقيل: زنادقة(٣).

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي يعملونها، وهي عبادة الشمس، وسائر أعمال الكفر ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: صدّهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح، وهو الإيمان بالله وتوحيده ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى ذلك ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ قرأ الجمهور(٤) بتشديد ﴿أَلَّا﴾.

قال ابن الأنباري(٥): الوقف على فهم لا يهتدون غير تامّ عند من شدّد ألّا؛ لأن المعنى: وزين لهم الشيطان ألّا يسجدوا.

قال النحاس(٦): هي أَنْ دخلت عليها لا، وهي في موضع نصب.

قال الأخفش(٧): أي: زيّن لهم أنْ لا يسجدوا لله بمعنى لئلا يسجدوا لله. وقال الكسائي(٨): هي في موضع نصب بصدّهم؛ أي: فصدّهم ألا يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا، فهو على الوجهين مفعول له.

وقال اليزيدي(٨): إنّه بدل من أعمالهم في موضع نصب.

وقال أبو عمرو(٨): في موضع خفض على البدل من السبيل.

وقيل: العامل فيها لا يهتدون؛ أي: فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله، وتكون لا على هذا زائدة كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٠٤).
(٢) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢، ١٠٤).
(٣) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٠٤).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٤٤)، و«التيسير» (ص١٦٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٢٩).
(٥) في «إيضاح الوقف والابتداء» (٢/ ٨١٦).
(٦) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٦).
(٧) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٤٩).
(٨) ذكره عنهم النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٠٦).

وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة؛ لأنّ ذلك إخبار عنهم بترك السجود: إمّا بالتزيين، أو بالصدّ، أو بمنع الاهتداء.

وقد رجّح كونه علة للصدّ الزجاج[١]، ورجح الفراء[٢] كونه علة لزين، قال: زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا، ثم حذفت اللام.

وقرأ الزهري[٣] والكسائي بتخفيف «ألا».

قال الكسائي[٤]: ما كنتُ[٥] أسمع الأشياخ يقرؤونها إلّا بالتخفيف على نية الأمر، فتكون «ألّا» على هذه القراءة حرف تنبيه واستفتاح[٦]، وما بعدها حرف نداء، واسجدوا فعل أمر، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا ألا يا اسجدوا، ولكن الصحابة رضي الله عنهم أسقطوا الألف مِنْ يا، وهمزة الوصل من اسجدوا خطًّا، ووصلوا الياء بسين اسجدوا، فصارت صورة الخط ألّا يسجدوا، والمنادى محذوف.

وتقديره: ألّا يا هؤلاء اسجدوا، وقد حذفت العرب المنادى كثيراً في كلامها، ومنه قول الشاعر[٧]:

أَلَّا يا اسْلَمي يا دارَ مَيٍّ عَلَى البِلَى ... وَلَا زالَ مُنهلّاً بجَرْعائكِ القَطْرُ

وقول الآخر:

أَلّا يا اسْلَمي ثُم اسْلَمي ثُمتَ اسْلَمي ... ثَلاثُ تَحياتٍ وَإنْ لَمْ تكلَّمِ

وقول الآخر أيضاً:

أَلّا يا اسْلَمي يا هندُ هندَ بني بكرٍ

وهو كثير في أشعارهم.

قال الزجاج[٨]: وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود دون قراءة التشديد، واختار أبو حاتم[٩]، وأبو عُبيد قراءة التشديد.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١١٥). (٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٠).
(٣) ذكر عنهما النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٠٦).
(٤) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٩٠).
(٥) الكسائي عن عيسى الهمداني. انظر: المصدر المتقدم.
(٦) «روح المعاني» (١٩/ ٤٢١ ـ ٤٢٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٤٥).
(٧) قاله ذو الرِّمَّة. انظر: «ديوانه» (١/ ٥٥٩). (٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١١٥).
(٩) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٤٣).

قال الزجاج[١]: ولقراءة التخفيف وجه حسن إلّا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ، ثم الرجوع بعد ذلك إلى ذكرهم.

والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه، وكذا قال النحاس[٢]، وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ﴾ معترضة من كلام الهدهد، أو من كلام سليمان، أو من كلام الله سبحانه.

وفي قراءة عبد الله بن مسعود[٣]: «هل لا تسجدوا» بالفوقية، وفي قراءة أبيّ[٤] ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ﴾ بالفوقية أيضاً.

﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يُظْهِر ما هو مخبوء ومخفيّ فيهما، يقال: خبأت[٥] الشيء أخبؤه خبأ، والخبء ما خبأته.

قال الزجاج[٦]: جاء في التفسير أن الخَبء هاهنا بمعنى: القَطْر من السماء، والنبات من الأرض[٧].

وقيل[٨]: خَبْءُ الأرض: كنوزُها ونباتها.

وقال قتادة[٩]: الخَبْءُ السرّ.

قال النحاس[١٠]: أي: ما غاب في السماوات والأرض.

وقرأ أبيّ، وعيسى بن عمر «الخَبَ» بفتح الباء[١١] من غير همز تخفيفاً.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١١٥).
(٢) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٠٧).
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٢٢٩)، و«زاد المسير» (٦/ ١٦٦)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٧). قراءة ابن مسعود قراءة شاذة.
(٤) وهي قراءة شاذة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٧).
(٥) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٧٤).
(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١١٥).
(٧) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ١٥٧).
(٨) «النكت والعيون» (٤/ ٢٠٥)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٥٧).
(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٤٥).
(١٠) في «معاني القرآن» (٥/ ١٢٢).
(١١) «القراءات الشاذة» (ص١٠٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٢٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣١).

وقرأ عبد الله، وعكرمة، ومالك بن دينار «الخَبَا» بالألف[(١)].

قال أبو حاتم[(٢)]: وهذا لا يجوز في العربية.

وردّ عليه بأن سيبويه[(٣)] حكى عن العرب: أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن.

وفي قراءة عبد الله[(٤)]: «يُخرج الخب مِنْ السموات والأرض».

قال الفراء[(٥)]: ومن وفي يتعاقبان، والموصول يجوز أن يكون في محل جرّ نعتاً لله سبحانه، أو بدلاً منه، أو بياناً له، ويجوز أن يكون في محل نصب على المدح، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

وجملة: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ معطوفة على يُخْرِج، قرأ الجمهور[(٦)] بالتحتية في الفعلين، وقرأ الجَحْدري، وعيسى بن عمر، وحفص، والكسائي بالفوقية[(٧)] للخطاب، أما القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدّمة ضمائر غيبة، وأما القراءة الثانية فلكون قراءة الزهري، والكسائي فيها الأمر بالسجود، والخطاب لهم بذلك، فهذا عندهم من تمام ذلك الخطاب.

والمعنى: أنّ الله سبحانه يُخْرِج ما في هذا العالَم الإنساني مِنْ الخفاء بعلمه له كما يُخرج ما خفي في السماوات والأرض.

ثم بعد ما وصف الربّ سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته، وجليل سلطانه، ووجوب توحيده، وتخصيصه بالعبادة، قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ قرأ الجمهور[(٨)] ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ بالجرّ نعتاً للعرش، وقرأ ابن محيصن بالرفع[(٩)]

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٠٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣١).

(٢) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ١٢٢).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٤٦).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص١٠٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣١)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٢٤).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩١).

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٢٣٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٢٦)، و«النشر» (٢/ ٣٣٧).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٢٣١)، و«التيسير» (ص١٦٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٤٦).

(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٤٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٢).

(٩) «القراءات الشاذة» (ص١٠٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٢). وقراءة ابن محيصن شاذة.

نعتاً للربّ، وخصّ العرش بالذكر؛ لأنّه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك في المرفوع إلى رسول الله ﷺ.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[1] عن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب إنّ الله لم يُنْعِم على عبد نعمة، فحمد الله عليها إلّا كان حمدُه أفضلَ من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلّا في كتاب الله المنزل؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وأي نعمة أفضل ممّا أعطى داود وسليمان؟

أقول: ليس في الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه الله، والذي تدلّ عليه أنهما حمدا الله سبحانه على ما فضّلهما به من النعم، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل مِنْ نعمته؟

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[2] في قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ قال: ورّثه نبوّتَه، وملكه، وعلمه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي[3] قال: «خرج سليمان بن داود يستسقي بالناس، فمرّ على نملة مستلقية على قفاها رافعةً قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللَّهُمَّ إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك، فإما أَنْ تسقينا، وإما أن تهلكنا، فقال سليمان للناس: ارجعوا، فقد سُقيتم بدعوة غيركم».

وأخرج الحاكم في «المستدرك»[4] عَنْ جعفر بن محمد قال: أُعطي سليمان مُلْك مشارق الأرض ومغاربها، فمَلَكَ سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر، مُلْك أهل الدنيا كلهم من الجن، والإنس، والدواب، والطير، والسباع، وأعطي كل شيء ومنطق كل شيء، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة، حتى إذا أراد الله أن يقبضه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٥٤) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٤٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٥٨)، وابن أبي شيبة (١/ ٣١٢) (١٣/ ٢٠٧)، وأحمد في «الزهد» (ص٨٧) مرسلاً.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٨٨).

إليه أوحى إليه أن يستودع علم الله وحكمته أخاه، وولدَ داودَ كانوا أربعمائة وثمانين رجلاً أنبياء بلا رسالة.

قال الذهبي: هذا باطلٌ.

[مبالغات القصاص في التهويل بملك سليمان عليه السلام]:

وقد رويت قصص في عظم ملك سليمان لا تطيب النفسُ بذكر شيءٍ منها فالإمساك عَنْ ذكرها أولى.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ قال: يُدْفعَون.

وأخرج ابن جرير(٢) عنه في قوله: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ قال: جُعل لكل صنف وزَعة تردّ أُولاها على أخراها لئلا تتقدّمه في السير كما تصنع الملوك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة(٣) في قوله: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ قال: ألهمني.

وأخرج عبد بن حميد(٤) عن الحسن مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس(٥) أنه سُئل: كيف تفقّد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: إن سليمان نزل منزلاً، فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد يدلّ سليمان على الماء، فأراد أن يسأله عنه، ففقده، قيل: كيف ذاك والهدهد يُنْصَب له الفخّ يُلقى عليه التراب، ويضع له الصبي الحبالة، فيغيبها، فيصيده؟ فقال: [٣/٣٤٤] إذا جاء القضاءُ ذهب البصرُ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/١٢٩)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٢٧) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٢٦) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٨٥٨) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٤٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٨٥٩)، والحاكم (٢/٤٠٥) وصحَّحه.

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: أنتف ريشه كلَّه.

وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

وروى ابن أبي حاتم[(٢)] عَنْ الحسن قال: كان اسم هدهد سليمان عنبّر.

وأقول: من أين جاء علم هذا للحسن رحمه الله، وهكذا ما رواه عنه ابن عساكر[(٣)]: أنّ اسم النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لهم: بنو الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب، وهو رحمه الله أورع الناس عَنْ نقل الكذب، ونحن نعلم أنّه لم يصحّ عن رسول الله ﷺ في ذلك شيء، ونعلم أنه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان، أو بأحد من أصحابه، فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب، وقد أُمرنا: «أن لا نصدّقهم، ولا نكذبهم»، فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روى: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[(٤)]، فليس ذلك فيما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك؛ بل فيما يذكر عنهم مِنْ القصص الواقعة لهم. وقد كرّرنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٥)] في قوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قال: خبر الحقّ الصدق البين.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس[(٦)] كلُّ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٢)، والحاكم (٢/ ٤٠٥) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦١) بسند ضعيف؛ لجهالة صدقة بن عمرو.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٣٩٧)، وفي سنده: إسحاق بن بشير متروك. «لسان الميزان» (١/ ٣٥٤).

(٤) تقدم ذكره.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٣) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٣) من طريق قباث بن رزين، به.

سلطان في القرآن حُجة، وذكر هذه الآية، ثم قال: وأيّ سلطان كان للهدهد؟ يعني: أنَّ المراد بالسلطان: الحُجة لا السلطان الذي هو المُلكُ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[1] عنه في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ قال: اطّلعتُ على ما لم تطلع عليه.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم[2] عنه أيضاً: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ﴾ قال: سبأ بأرض اليمن، يقال لها: مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليالٍ ﴿بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ قال: بخبر حقٍّ.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر[3] عنه أيضاً ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ قال: كان اسمها: بلقيس بنت ذي شيرة، وكانت صلباء شعراء.

وروي عن الحسن[4]، وقتادة[5]، وزهير بن محمد[6]: أنها بلقيس بنت شراحيل، وعن ابن جريج[7] بنت ذي شرح.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، وابن عساكر عن أبي هريرة[8] قال: قال رسول الله ﷺ: «إحدى أبوي بلقيس كان جنياً».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[9] في قوله: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ قال: سرير كريم من ذهب، وقوائمه من جوهر ولؤلؤ، حسن الصنعة غالي الثمن.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٤) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٤) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٥٣٩).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٥) من طريق محمد بن موسى الحرشي، به.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٥) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٥) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٩/ ٢٨٦٥) بسند ضعيف.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٨٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (١١٠٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٩/ ٦٧). وهو حديث ضعيف، والله أعلم. انظر: «الضعيفة» رقم (١٨١٨).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٠) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[1] عنه في قوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ قال: يعلم كلّ خبيئة في السماء والأرض.

[قصة الهدهد وبلقيس]:

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

جملة: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر؛ أي: قال سليمان للهدهد: سننظر فيما أخبرتنا به من هذه القصة ﴿أَصَدَقْتَ﴾ فيما قلتَ ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هذه الجملة الاستفهامية في محل نصب[2] على أنها مفعول ﴿سَنَنظُرُ﴾، وأم هي: المتصلة[3].

وقوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أبلغ من قوله: أم كذبتَ؛ لأن المعنى: من الذين اتصفوا بالكذب، وصار خُلقاً لهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٦٨) بسند صحيح.
(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٤٢٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٢).
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٢٣٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٢٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٤٦).

والنظر هو التأمّل والتصفح، وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار، والكشف عن الحقائق، وعدم قبول خبر المخبرين تقليداً لهم، واعتماداً عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه مِنْ الوجوه.

ثم بيّن سليمان هذا النظر الذي وعد به، فقال: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى أهل سبأ.

قال الزجاج[١]: في ألقه خمسة أوجه إثبات الياء في اللفظ، وحذفها، وإثبات الكسرة للدلالة عليها، وبضم الهاء وإثبات الواو، وبحذف الواو وإثبات الضمة للدلالة عليها، وبإسكان الهاء.

وقرأ بهذه اللغة الخامسة[٢] أبو عَمْرو، وحمزة، وأبو بكر. وقرأ قالون[٣] بكسر الهاء فقط من غير ياء.

وروي[٤] عن هشام وجهان: إثبات الياء لفظاً، وحذفها مع كسر الهاء.

وقرأ الباقون[٥] بإثبات الياء في اللفظ.

وقوله: ﴿بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب، وأن يكون بدلاً منه، وأن يكون بياناً له، وخصّ الهدهد بإرساله بالكتاب؛ لأنه المخبر بالقصة، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلاً للرسالة ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ أي: تنحّ[٦] عنهم، أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسول الملوك، والمراد: التنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١١٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٤٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٣).

(٣) «النشر» (١/ ٣٠٥، ٣٠٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٣)، و«التيسير» (ص١٦٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٥٠).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٢٣٣)، و«النشر» (١/ ٣٠٥، ٣٠٦) قال في تخريجه القراءات في «فتح القدير» (ص٢٧٤) الصواب في العزو قرأ بإسكان الهاء أبو عمرو وعاصم وحمزة وهو الوجه الأول لهشام وأبي جعفر، وقرأ بكسر الهاء دون ياء قالون ويعقوب وهو الوجه الأول لابن ذكوان والثاني لهشام وأبي جعفر وقرأ الباقون بالكسر بعده ياء، وهو الوجه الثالث لهشام والثاني لابن ذكوان. انظر: «النشر» (١/ ٣٠٦).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٤٩).

وقيل: معنى التولي: الرجوع(١) إليه، والأوّل أولى لقوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: تأمّل، وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول، وما يتراجعونه بينهم من الكلام ﴿قَالَتْ﴾؛ أي: بلقيس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ في الكلام حذف.

والتقدير: فذهب الهدهد، فألقاه إليهم، فسمعها تقول: يا أيها الملأ إلخ، ووصفت الكتاب بالكريم لكونه من عند عظيم في نفسها، فعظّمته إجلالاً لسليمان.

وقيل: وصفته بذلك لاشتماله على كلام حسن، وقيل: وصفته بذلك لكونه وصل إليها مختوماً بخاتم سليمان، وكرامةُ الكتاب ختمه كما روي ذلك مرفوعاً.

ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب، فقالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ أي: وإن ما اشتمل عليه من الكلام، وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية، وبعد التسمية ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾؛ أي: لا تتكبّروا كما يفعله جبابرة الملوك.

و«أن» هي المفسِّرة، وقيل: مصدرية(٢)، ولا ناهية، وقيل: نافية، ومحل الجملة(٣) الرفع على أنها بدل من كتاب، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو أن لا تعلوا.

قرأ الجمهور(٤): ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ﴾ بكسرهما على الاستئناف.

وقرأ عكرمة وابن أبي عبلة بفتحهما(٥) على إسقاط حرف الجرّ.

وقرأ أُبيّ: «أنْ من سليمان وأنّ بسم الله» بحذف الضميرين(٦)، وإسكان النونين على أنهما مفسرتان.

وقرأ عبد الله(٧) بن مسعود: «وإنه من سليمان» بزيادة الواو. وروي ذلك أيضاً عن أبيّ.

---

(١) قال ابن منبه. «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٠٧).

(٢) «التبيان» (٢/ ١٠٠٨)، و«الفريد» (٣/ ٦٨٣)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٣٤).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٣٣٤)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٣٣).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١٠٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٣٤).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١٠٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٣٣).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٣٣٤)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٣٣). كل ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى من القراءات في هذا الحرف فهو شاذ إلَّا قراءة الجمهور.

وقرأ أشهب العقيلي، وابن السميفع «أن لا تغلوا» بالغين المعجمة[١] من الغلوّ، وهو تجاوز الحدّ في الكبر.

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مُنقادين للدين، مؤمنين بما جئتُ به. ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ الملأ: أشراف القوم، والمعنى: يا أيها الأشراف أشيروا علي، وبيّنوا لي الصواب في هذا الأمر، وأجيبوني بما يقتضيه الحزم، وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون في ذلك حلّ لما أشكل مِنْ الأمر عليها، وفي الكلام حذف.

والتقدير: فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشراف قومها، وقالت لهم: يا أيها الملأ إني ألقي إليّ، يا أيها الملأ أفتوني.

وكرّر[٢] «قالت» لمزيد العناية بما قالته لهم، ثم زادت في التأدب، واستجلاب خواطرهم، ليمحضوها النصح، ويشيروا عليها بالصواب، فقالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾؛ أي: ما كنت مبرمة أمراً من الأمور حتى تحضروا عندي، وتشيروا عليّ. فـ ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لها ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ﴾ في العدد والعدّة ﴿وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ عند الحرب واللقاء؛ لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا، وبلدنا، ومملكتنا، ثم فوّضوا الأمر[٣] إليها لعلمهم بصحة رأيها وقوّة عقلها، فقالوا: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾؛ أي: موكول إلى رأيك ونظرك ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾؛ أي: تأمّلي ماذا تأمرينا به، فنحن سامعون لأمرك مطيعون له؟ فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾؛ أي: إذا دخلوا قريةً من القرى خرّبوا مبانيها، وغيروا معانيها، وأتلفوا أموالها، وفرّقوا شمل أهلها ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾؛ أي: أهانوا أشرافها، وحطوا مراتبهم، فصاروا عند ذلك أذلة، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتمّ لهم الملك، وتستحكم لهم الوطأة، وتتقرّر لهم في قلوبهم المهابة.

قال الزجاج[٤]: أي: إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة. والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان إليهم، ودخوله بلادهم، وقد صدقها الله سبحانه

---

(١) «المحتسب» (٢/ ١٣٩)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠٩). وهي قراءة شاذة.

(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٤٣٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٤٧).

(٣) «روح المعاني» (١٩/ ٤٣٧)، و«جامع البيان» (١٨/ ٤٩ ـ ٥٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١١٩).

فيما قالت، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: مثل ذلك الفعل يفعلون.

قال ابن الأنباري(١): الوقف على قوله: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ وقف تام، فقال الله ﷻ تحقيقاً لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، وقيل(٢): هذه الجملة من تمام كلامها، فتكون من جملة مقول قولها، وعلى القول الأوّل تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها مِنْ الإعراب.

ثم لما قدّمت لهم هذه المقدّمة، وبيّنت لهم ما في دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة، أوضحت لهم وجه الرأي عندها، وصرّحت لهم بصوابه، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾؛ أي: إنّي أجرّب هذا الرجل بإرسال رسلي إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال، فإنْ كان ملكاً أرضيناه بذلك، وكفينا أمره، وإن كان نبيّاً لم يرضه ذلك؛ لأنّ غاية مطلبه ومنتهى أربه هو الدعاء إلى الدين، فلا ينجينا منه إلّا إجابته، ومتابعته، والتدين بدينه، وسلوك طريقته؛ [٣/٣٤٥] ولهذا قالت: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الفاء للعطف على مرسلة، و﴿بِمَ﴾ متعلق بـ ﴿يَرْجِعُ﴾.

والمعنى: إنّي ناظرة فيما يرجع به رسلي المرسلون بالهدية من قبول أو ردّ فعاملة بما يقتضيه ذلك.

وقد طوّل المفسرون في ذكر هذه الهدية، وسيأتي في آخر البحث بيان ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب، والصحة.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾؛ أي: فلما جاء رسولُها المرسل بالهدية سليمانَ، والمراد بهذا المضمر الجنس، فلا ينافي كونهم جماعة كما يدل عليه قولها: «بم يرجع المرسلون».

وقرأ عبد الله(٣): «فلما جاءوا سليمان»؛ أي: الرسل.

وجملة: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر، والاستفهام(٤) للاستنكار؛ أي: قال: مُنْكراً لإمدادهم له بالمال مع علوّ سلطانه وكثرة ماله.

---

(١) في «إيضاح الوقف والابتداء» (٢/ ٨١٧).
(٢) «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٠٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٥٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٦).
(٣) «روح المعاني» (١٩/ ٤٤١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٧). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٢٣٧)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٤١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٤٩).

وقرأ حمزة[١] بإدغام نون الإعراب في نون الوقاية، والباقون بنونين من غير إدغام.

وأما الياء، فإن نافعاً، وأبا عَمْرو، وحمزة يثبتونها وصلاً، ويحذفونها وقفاً، وابن كثير يثبتها في الحالين، والباقون يحذفونها في الحالين.

وروي عَنْ نافع: أنه يقرأ بنون واحدة[٢].

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾؛ أي: ما آتاني من النبوّة، والمُلْك العظيم، والأموال الكثيرة خير مما آتاكم من المال الذي هذه الهدية من جملته.

قرأ أبو عَمْرو، ونافع، وحفص «آتانيَ الله» بياء مفتوحة[٣]، وقرأ يعقوب[٤] بإثباتها في الوقف، وحذفها في الوصل، وقرأ الباقون[٥] بغير ياء في الوصل والوقف.

ثم إنّه أضرب عن الإنكار المتقدّم، فقال: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ توبيخاً[٦] لهم بفرحهم بهذه الهدية، فَرَحُ فَخْرٍ وخيلاء، وأما أنا فلا أفرح بها، وليست الدنيا من حاجتي؛ لأنّ الله سبحانه قد أعطاني منها ما لم يعطه أحداً من العالمين، ومع ذلك أكرمني بالنبوّة.

والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزراء بهم والحط عليهم ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ أي: قال سليمان للرسول: ارجعْ إليهم؛ أي: إلى بلقيس وقومها، وخاطب المفرد ها هنا بعد

---

(١) «التيسير» (ص١٧٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٤١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٧).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٠٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٢)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٤١). الرواية عن نافع بنون واحدة فهي شاذة. اهـ.

(٣) «النشر» (٣/ ٢٣٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٧٠)، و«التيسير» (ص١٧٠).

(٤) «النشر» (٢/ ٢٣٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٦٣).

(٥) «التيسير» (ص١٧٠)، و«النشر» (٢/ ٢٣٤)، و«زاد المسير» (٦/ ١٧٢) أثبت الياء مفتوحة في (آتانَي) وصلاً نافع وأبو عمرو وحفصٍ وأبو جعفر ورويس وحذفها باقي العشرة، وأثبتها وقفاً يعقوب، وهو وجه عن قالون وأبى عمرو وحفص وقنبل، والوجه الثاني لهم كباقي العشرة بالحذف. اهـ. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص٢٧٥).

(٦) «روح المعاني» (١٩/ ٤٤٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٤٩).

خطابه للجماعة[١] فيما قبل، إما لأن الذي سيرجع هو الرسول فقط، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا، وخاطبهم معه فيما سبق افتناناً في الكلام.

وقرأ عبد الله بن عباس[٢]: «ارجعوا».

وقيل: إن الضمير يرجع إلى الهدهد، واللام في «لنأتيهم» جواب قسم محذوف.

قال النحاس[٣]: وسمعتُ ابن كيسان يقول: هي لام توكيد، ولام أمر، ولام خفض، وهذا قول الحُذّاق مِنْ النحويين؛ لأنّهم يردّون الشيء إلى أصله، وهذا لا يتهيأ إلّا لمن درب في العربية.

ومعنى ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم﴾: لا طاقَة لهم بها، والجملة في محل جرّ صفة لجنود ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ معطوف على جواب القسم؛ أي: لنخرجنهم مِنْ أرضهم التي هم فيها ﴿أَذِلَّةً﴾؛ أي: حال كونهم أذلة بعد ما كانوا أعزّة.

وجملة: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ في محل نصب[٤] على الحال، قيل: وهي حال مؤكدة؛ لأن الصَّغَار[٥] هو الذلة. وقيل: إن المراد بالصغار هنا الأَسْر، والاستعباد، وقيل: إن الصغار: الإهانة التي تسبب عنها الذلة.

ولما رجع الرسول إلى بلقيس تجهزت للمسير إلى سليمان، وأخبر جبريل سليمان بذلك، فـ ﴿قَالَ﴾ سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾؛ أي: عرش بلقيس الذي تقدّم وصفه بالعظم ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: قبل أن تأتيني هي وقومها مسلمين. قيل: إنّما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه، ويسلموا؛ لأنها[٦] إذا أسلمت، وأسلم قومها لم يحلّ أخذ أموالهم بغير رضاهم.

---

(١) «روح المعاني» (١٩/ ٤٤٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٤٩).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٢٣٧)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ١١٠)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٤٣). هي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

(٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢١١).

(٤) «روح المعاني» (١٩/ ٢٤٤).

(٥) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٨٤ ـ ٤٨٥)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٤٤)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٦٣).

(٦) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (١٩/ ٤٤٥) عن قتادة وابن جريج.

[ما الحكمة من استدعاء سليمان لعرش بلقيس قبل وصولها؟]:

قال ابن عطية[(١)]: وظاهر الروايات أنّ هذه المقالة من سليمان هي بعد مجيء هديتها، وردّه إياها، وبعثه الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهور المتأوّلين.

وقيل: استدعاء العرش قبل وصولها؛ ليريها القُدرة[(٢)] التي هي من عند الله، ويجعله دليلاً على نبوّته، وقيل: أراد أن يختبر[(٣)] عقلها، ولهذا ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١] إلخ، وقيل: أراد أنْ يختبر صدق الهدهد[(٤)] في وصفه للعرش بالعظم، والقول الأوّل هو الذي عليه الأكثر.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قرأ الجمهور[(٥)] بكسر العين، وسكون الفاء، وكسر الراء، وسكون المثناة التحتية، وبالتاء، وقرأ أبو رجاء، وعيسى الثقفي، وابن السميفع، وأَبو السمال: «عِفْرِيَة» بفتح التحتية[(٦)] بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء، ورويت هذه القراءة عن أبي بكر الصديق.

وقرأ أبو حيوة[(٧)] بفتح العين، والعفريت: الماردُ الغليظ الشديد.

قال النحاس[(٨)]: يقال للشديد إذا كان معه خُبْث ودهاء: عفر، وعفريه، وعفريت.

وقال قتادة[(٩)]: هو الداهية، وقيل: هو رئيس الجنّ[(١٠)].

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٢/ ١١١).

(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٤٤٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٦٥)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ١١١ ـ ١١٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٤) عن ابن زيد بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٨٣) بسند ضعيف.

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٦/ ١٧٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٦٦). قراءة الجمهور هي المتواترة وما عداها فشاذ.

(٦) «المحتسب» (٢/ ١٤١)، و«القراءات الشاذة» (ص١٠٩)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٤٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٣٩).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٢٣٩).

(٨) في «معاني القرآن» (٥/ ١٣٢).

(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٦٦).

(١٠) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ١٣٢).

قال ابن عطية[١]: وقرأت فرقة: «عِفْر» بكسر العين[٢] جمعه على عفار، ومما ورد من أشعار العرب مطابقاً لقراءة الجمهور ما أنشده الكسائي:

فقال شيطانٌ لهم عِفْريتٌ ما لكُم مُكْثٌ ولا تَبييتُ[٣]

ومما ورد على القراءة الثانية قول ذي الرُّمة[٤]:

كأنَّه كوكبٌ في إثْر عِفْرِيةٍ مُصوّبٌ في سوادِ الليل منقضبُ

ومعنى قول العفريت: أنّه سيأتي بالعرش إلى سليمان قبل أن يقوم من مجلسه الذي يجلس فيه للحكومة بين الناس ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ إني لقويّ على حمله أمين، على ما فيه.

قيل: اسم هذا العفريت كودَن ذكره النحاس[٥] عن وهب بن منبّه.

وقال السهيلي[٦]: ذكوان، وقيل: اسمه دعوان[٧]، وقيل: صخر[٨].

وقوله: ﴿ءَاتِيكَ﴾ فعل مضارع، وأصله ءأتيك بهمزتين، فأبدلت الثانية ألفاً، وقيل: هو اسم فاعل.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال أكثر المفسرين[٩]: اسم هذا الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا، وهو من بني إسرائيل، وكان وزيراً لسليمان، وكان يَعْلم اسمَ الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى.

---

(١) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١١٢).
(٢) وهي قراءة شاذة. «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٦٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٤٦).
(٣) قائله: رؤبة بن العجاج. وفي «ديوانه» (ص٢٧ ـ «مجموع أشعار العرب»).
إذ قال شيطانُهُمُ العِفْريت ليسَ لكم مُلكٌ ولا تثبيتُ
(٤) انظر: «ديوانه» (١/ ١١١) وفيه: (مسوَّم) بدل: مصوَّبٌ.
(٥) في «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٣٣). (٦) في «التعريف والإعلام» (ص١٢٨).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٦ ـ ٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٨٤) من طريقين، عن شعيب الجبائي، يقوي أحدهما الآخر.
(٨) ذكره الماوردي عن علي بن أبي طلحة. «النكت والعيون» (٤/ ٢١٣).
(٩) «الوسيط» (٣/ ٣٧٨)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٦٤).

قال ابن عطية[١]، وقالت فرقة: هو سليمان نفسه، ويكون الخطاب على هذا للعفريت: كأنّ سليمان استبطأ ما قاله العفريت، فقال له تحقيراً له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، وقيل: هو جبريل، وقيل: الخضر، والأوّل أولى.

وقد قيل: غير ذلك بما لا أصل له.

والمراد بالطرْف تحريك الأجْفَان، وفتحها للنظر، وارتداده انضمامها.

وقيل: هو بمعنى المطروف؛ أي: الشيء الذي ينظره.

وقيل: هو نفس الجفن عبر به عَنْ سرعة الأمر كما تقول لصاحبك: افعل ذلك في لحظة. قاله مجاهد[٢].

وقال سعيد بن جبير[٣]: إنه قال لسليمان: انظر إلى السماء، فما طرف حتى جاء به، فوضعه بين يديه.

والمعنى: حتى يعود إليك طرفُك بعد مدّه إلى السماء، والأول أولى هذه الأقوال.

ثم الثالث ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ قيل: في الآية حذف، والتقدير: فأذن له سليمان، فدعا الله، فأتى به، فلما رآه سليمان مستقرًّا عنده؛ أي: رأى العرش حاضراً لديه ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ الإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى حضور العرش، ليبلوني؛ أي: ليختبرني أشكره بذلك، وأعترف أنه من فضله من غير حول مني ولا قوّة، أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به.

قال الأخفش[٤]: المعنى: لينظر أأشكر أم أكفر، وقال غيره: معنى ﴿لِيَبۡلُوَنِيٓ﴾: ليتعبدني، وهو مجاز[٥]، والأصل في الابتلاء الاختبار ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها.

والمعنى: أنه لا يرجع نفع ذلك إلّا إلى الشاكر ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بترك الشكر ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه، وسلبه ما

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٢/ ١١٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٨٨) عن مجاهد بسند صحيح.

(٣) «النكت والعيون» (٤/ ٢١٣).

(٤) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٥٠).

(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢١٢).

أعطاه منها، وأم في ﴿أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ هي المتصلة(١).

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(٢) في قوله: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ يقول: كُنْ قريباً منهم ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ فانطلق بالكتاب حتى إذا توسّط عرشها ألقى الكتاب إليها، فقُرئ عليها، فإذا فيه ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وأخرج ابن مردويه(٣) عنه ﴿كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ قال: مختوم.

وأخرج ابن أبي حاتم(٤) عن ميمون بن مهران: أن النبي ﷺ كان يكتب: «باسمك اللَّهُمَّ» حتى نزلت ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وأخرج أبو داود(٥) في مراسيله عن أبي مالك مرفوعاً مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس(٦) في قوله: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ قال: جمعتْ رؤوسَ مملكتها فشاورتهم في رأيها، فأجمع رأيهم ورأيها على أن يغزوه، فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت: أرسل إليهم بهدية، فإن قبلها، فهو ملك أقاتله، وإن ردّها تابعته، فهو: نبيّ، فلما دنت رسلها من سليمان علم خبرهم، فأمر الشياطين، فموّهوا ألف قصر مِنْ ذهب وفضة، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا، وقصوره ذهب وفضة، فلما دخلوا عليه بهديتها ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾، ثم قال سليمان: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ فقال كاتب سليمان: ارفع بصرك، فرفع بصره، فلما رجع إليه طرفه فإذا هو بسرير ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ [النمل: ٤١] فنزع منه فصوصه، ومرافقه، وما كان عليه من شيء فـ ﴿قِيلَ﴾ لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ [النمل: ٤٢] وأمر الشياطين فجعلوا لها صرحاً مُمرّداً من قوارير، وجعل فيها تماثيل السمك، فـ ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ﴾ [النمل: ٤٤]

---

(١) «روح المعاني» (١٩/٤٥٣).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٨٧٠، ٢٨٧١) بسند صحيح.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٣٥٣).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٨٧٣) بسند ضعيف لإرساله.
(٥) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص٨٦).
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٨٧٥، ٢٨٧٩، ٢٨٨٠، ٢٨٨٢، ٢٨٨٧، ٢٨٩٠، ٢٨٩٣، ٢٨٩٤) بسند صحيح.

فكشفت عن ساقيها فإذا فيها شعر، فعند ذلك أمر بصنعة النورة فصنعت، فقيل لها: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم(١) عنه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ قال: إذا أخذوها عنوةً أخربوها.

وأخرج ابن أبي حاتم(٢) عنه أيضاً قال: يقول الربّ تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن المنذر، وابن أبي حاتم(٣) عنه أيضاً في قوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ قال: أرسلت بلبنة من ذهب، فلما قدموا إذا حيطان المدينة مِنْ ذهب فذلك قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ الآية.

وقال(٤) ثابت البناني: أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج.

وقال مجاهد(٥): جواري لباسهن لباس الغلمان، وغلمان لباسهم لباس الجواري.

وقال عكرمة(٦): أهدت مائتي فرس على كلّ فرس غلام وجارية، وعلى كلّ فرس لون ليس على الآخر.

وقال سعيد بن جبير(٧): كانت الهدية جواهر.

وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره [٣/٣٤٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٧٦) بسند حسن.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٧٧) بسند حسن.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٤٠).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٧٩) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٧٧) بسند صحيح.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٨) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٧٨) من طريق عطاء بن السائب، به.

وأخرج ابن المنذر من طريق عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ قال: طائعين.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٢] عنه قال: اسم العفريت صَخْر.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٣] عنه أيضاً ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال: مِنْ مجلسك.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عنه أيضاً ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: هو آصف بن برخيا، وكان صدِّيقاً يعلم الاسم الأعظم.

وأخرج أبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٥] قال: في قراءة ابن مسعود: «قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أنظر في كتاب ربي ثم آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك» قال: فتكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم.

وأخرج عبد بن حميد[٦] عن ابن عباس في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال: قال لسليمان: انظر إلى السماء، قال: فما أطرف حتى جاءه به، فوضعه بين يديه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن عساكر عن ابن عباس[٧] قال: لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء، ولكن انشقت به الأرض، فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٩).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٨٥) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٨٤) بسند ضعيف.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٨٦) بسند صحيح عن يزيد بن رومان.
(٥) أخرجه أبو عبيد في «فضائله» (ص١٨٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١/ ٥٣٨)، وابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٨) من طريق العلاء بن عبد الكريم، به.
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٦١).
(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٩/ ٧٧).

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ التنكير التغيير، يقول: غيّروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته. قيل[1]: جعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، وقيل: غُيّر بزيادة ونقصان[1].

قال الفراء[2]، وغيره: إنما أمر بتنكيره؛ لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئاً، فأراد أن يمتحنها.

وقيل[3]: خافت الجنّ أن يتزوّج بها سليمان، فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار.

وقوله: ﴿نَنظُرْ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر، وبالجزم قرأ الجمهور[4]، وقرأ أبو حيوة[5] بالرفع على الاستئناف ﴿أَتَهْتَدِيٓ﴾ إلى معرفته، أو إلى الإيمان بالله ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى ذلك ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾؛ أي: بلقيس إلى سليمان ﴿قِيلَ﴾ لها، والقائل: هو سليمان، أو غيره بأمره ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ لم يقل: هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقيناً[6] لها فلا يتمّ الاختبار لعقلها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ قال مجاهد[7]: جعلت تعرف، وتُنكر، وتعجب من حضوره عند سليمان، فقالت: كأنّه هو.

وقال مقاتل[8]: عرفتْه، ولكنّه شَبّهت عليهم كما شبّهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك لقالت: نعم.

---

(١) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ١٣٦)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ١٦٥).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٤).
(٣) قاله وهب بن منبه، ومحمد بن كعب. «عرائس المجالس» (ص٣٢١).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٢٤٢)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٩)، و«معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ١٢١).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٢٤٢)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٠).
(٦) «روح المعاني» (١٩/ ٤٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٥٢).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٩١) بسند صحيح.
(٨) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ١٦٦).

وقال عكرمة[١]: كانت حكيمةً، قالت: إن قلت: هو هو خشيت أن أكذب، وإن قلت: لا خشيت أن أكذب، فقالت: كأنه هو.

[رجح المصنف أنَّ قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾... هو من كلام سليمان]:

وقيل: أراد سليمان أن يُظْهِر لها أن الجنّ مُسخَّرون له ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قيل: هو من كلام بلقيس؛ أي: أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لأمره.

وقيل: هو من قول سليمان[٢]؛ أي: أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس، وقيل: أوتينا العلم بإسلامها، ومجيئها طائعة من قبلها؛ أي: من قبل مجيئها، وقيل: هو من كلام قوم سليمان[٣].

والقول الثاني أرجح مِنْ سائر الأقوال.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا من كلام الله سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما ادّعته من الإسلام، ففاعل صدّ هو ما كانت تعبد؛ أي: منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبده، وهي الشمس.

قال النحاس[٤]: أي: صدّها عبادتها مِنْ دون الله، وقيل: فاعل صدّ هو الله؛ أي: منعها الله ما كانت تعبد من دونه فتكون «ما» في محل نصب[٥].

وقيل: الفاعل سليمان؛ أي: ومنعها سليمان ما كانت تعبد، والأوّل أولى، والجملة مستأنفة للبيان كما ذكرنا.

وجملة: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ تعليل للجملة الأولى؛ أي: سبب تأخرها[٦] عن عبادة الله، ومنع ما كانت تعبده عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر. قرأ الجمهور ﴿إِنَّهَا﴾ بالكسر[٧].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٧٢).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٧٢)، و«زاد المسير» (٦/ ١٧٨).
(٣) «النكت والعيون» (٤/ ٢١٥)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٧٢).
(٤) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣).
(٥) «التبيان» (٢/ ١٠٠٩)، و«الفريد» (٣/ ٦٨٦)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٥٧).
(٦) «روح المعاني» (١٩/ ٤٥٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٨٨).
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٢٤٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٧٣)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٥٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠٠٩).

وقرأ أبو حيوة بالفتح[(١)]. وفي هذه القراءة وجهان:

أحدهما: أن الجملة بدل مما كانت تعبد.

والثاني: أن التقدير: لأنها كانت تعبد، فسقط حرف التعليل ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾. قال أبو عبيدة[(٢)]: الصرح: القصر.

وقال الزجاج[(٣)]: الصرح: الصحن. يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها.

قال ابن قتيبة[(٤)]: الصرح: بلاط اتخذ لها من قوارير، وجُعل تحته ماء وسمك.

وحكى أبو عبيد في «الغريب»[(٥)] أن الصرح كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفع، وأن الممرّد الطويل.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾؛ أي: فلما رأت الصرح بين يديها، حسبت أنه لجة، واللجة مُعظم الماء، فلذلك كشفت عن ساقيها؛ لتخوض الماء، فلما فعلت ذلك ﴿قَالَ﴾ سليمان: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ الممرّد المحكوك المملس، ومنه الأمرد، وتمرّد الرجل إذا لم تخرج لحيته، قاله الفراء[(٦)]. ومنه الشجرة[(٧)] المرداء: التي لا ورق لها. والممرّد أيضاً: المطوّل، ومنه قيل: للحصن مارد، ومنه قول الشاعر:

غدوتُ صباحاً باكراً فوجدتهُم ... قُبيل الضُّحى في السَّابري الممرّد[(٨)]

أي: الدروع الواسعة الطويلة.

فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنتْ، واستسلمت، و﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾؛ أي: بما كنت عليه مِنْ عبادة غيرك، وقيل: بالظنّ الذي توهمته في سليمان؛ لأنّها توهمت أنه أراد تغريقها في اللجة، والأوّل أولى ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ متابعة له داخلة في دينه ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ التفتت من الخطاب إلى الغيبة، قيل: لإظهار[(٩)] معرفتها بالله، والأولى أنّها التفتت لما في هذا الاسم الشريف[(٩)] من الدلالة على جميع الأسماء، ولكونه علماً للذات.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٤٤)، و«روح المعاني» (١٩/ ٤٥٧).

(٢) في «مجاز القرآن» (٢/ ٩٥).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٢٢).

(٤) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣٢٥).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٧٤).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٧٥).

(٧) «تهذيب اللغة» (١٤/ ١١٨).

(٨) «النكت والعيون» (٤/ ٢١٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٧٥).

(٩) «روح المعاني» (١٩/ ٤٦١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٥٤).

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ قال: زِيد فيه، ونُقِص لـ ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ﴾ قال: لننظر إلى عقلها، فُوجدت ثابتةَ العقل.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[٢] في قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ قال: من قول سليمان.

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن زهير بن محمد نحوه.

وأخرج ابن المنذر[٤] عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ قال: بحراً.

[الحديث عن زواج سليمان ببلقيس وما فيه من أوهام]:

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٥] عنه في أثر طويل أن سليمان تزوّجها بعد ذلك. قال أبو بكر بن أبي شيبة: ما أحسنه من حديث.

قال ابنُ كثير[٦] في تفسيره بعد حكايته لقول أبي بكر بن أبي شيبة: بل هو مُنكر جدّاً، ولعلّه من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم.

والأقرب[٧] في مثل هذه السياقات أَنّها متلقاة عن أهل الكتاب بما يوجد في صحفهم كروايات كعب، ووهب سامحهما الله فيما نقلا إلى هذه الأمة من بني إسرائيل من الأوابد، والغرائب، والعجائب مما كان، ومما لم يكن، ومما حرّف، وبدّل، ونسخ. انتهى.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٩٠) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٩٢) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٩٢).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٣).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة كما في «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٤١١ ـ ٤١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٩٦، ٢٨٩٧) بسند ضعيف.

(٦) في «تفسيره» (١٠/ ٤١٣).

(٧) قاله ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٤١٣).

وكلامه هذا هو شعبة مما قد كررناه في هذا التفسير، ونبهنا عليه في عدّة مواضع، وكنت أظنّ أنه لم ينبّه على ذلك غيري. فالحمد لله على الموافقة لمثل هذا الحافظ المُنصْف.

[«أول من صُنعت له الحمامات سليمان»]:

وأخرج البخاري في «تاريخه»، والعقيلي عن أبي موسى الأشعري[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّل من صُنعت له الحمامات سليمان»، وروي عنه[2] مرفوعاً من طريق أخرى رواها الطبراني، وابن عديّ في الكامل، والبيهقي في الشعب بلفظ: «أوّل مَنْ دخل الحمام سليمان فلما وجد حرّه قال: أوّه مِنْ عذاب الله».

[قصة نبي الله صالح مع قومه]:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٣٦٢)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/ ٦٨، ٨٤) بسند ضعيف جدّاً.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» رقم (٤٦١)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٨٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٧٧٧٨) بسند ضعيف جدّاً.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٧): «رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وفيه إسماعيل بن عبد الرحمٰن الأودي، وهو ضعيف».
● وإسماعيل بن عبد الرحمٰن الأودي ـ وقيل: الكندي ـ الكوفي.
قال البخاري: لا يتابع عليه، وقال الأزدي: منكر الحديث، وقال العقيلي: لا يتابع على حديثه ولا يعرف إلا به. وذكره ابن حبان في «الثقات».
«التاريخ الكبير» (١/ ٣٦٢)، و«المغني في الضعفاء» (١/ ٨٤)، و«الميزان» (١/ ٢٣٧).

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٥] واللام هي الموطئة للقَسَم، وهذه القصة من جملة بيان قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] و﴿صَٰلِحًا﴾ عطف بيان، و﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تفسير للرسالة، و(أن) هي المفسِّرة[١].

ويجوز أن تكون مصدرية[٢]؛ أي: بأن اعبدوا الله، وإذا في ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ هي الفجائية؛ أي: ففاجئوا التفرق، والاختصام، والمراد بالفريقين المؤمنون منهم والكافرون، ومعنى الاختصام: أنّ كلّ فريق يخاصم على ما هو فيه، ويزعم أن الحقّ معه.

وقيل: إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا؟ وقيل: أحد الفريقين صالح، والفريق الآخر جميع قومه، وهو ضعيف ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ أي: قال صالح للفريق الكافر منهم منكراً عليهم: لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟ قال مجاهد[٣]: بالعذاب قبل الرحمة.

والمعنى: لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب، وتقدّمون الكفر الذي يجلب إليكم العقوبة؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون: ائتنا يا صالح بالعذاب ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ هلّا تستغفرون الله، وتتوبون إليه من الشرك؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ رجاء أنْ تُرحموا، أو كي ترحموا فلا تُعذَّبوا، فإن استعجال[٤] الخير أولى من استعجال الشرّ، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازاً، إما لأن العقاب من لوازمه، أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً.

فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح والكلام اللين أنهم ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أصله تطيرنا، وقد قُرِئ[٥] بذلك. والتطير التشاؤم؛ أي: تشاءمنا منك، وبمن معك ممّن أَجابك، ودخل في دينك، وذلك لأنّه أصابهم قحط فتشاءموا

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٥٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٤٨).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٩٨) بسند صحيح.
(٤) «الوسيط» (٣/ ٣٨٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٦ ـ ٧).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٢٤٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٧). وهي قراءة شاذة.

بصالح، وقد كانت العرب أكثر الناس[١] طيرةً، [٣/٣٤٧] وأشقاهم بها، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو أمراً من الأمور نفروا طائراً من وكره، فإن طار يمنةً ساروا، وفعلوا ما عزموا عليه، وإن طار يسرةً تركوا ذلك فلما قالوا ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم صالح: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: ليس ذلك بسبب الطير الذي تتشاءمون به؛ بل سبب ذلك عند الله، وهو ما يقدّره عليكم.

والمعنى: أنّ الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله بسبب كفركم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان، فقال: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾؛ أي: تُمْتحنون، وتختبرون وقيل: تعذبون بذنوبكم[٢].

وقيل: يفتنكم غيركم، وقيل: يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة، أو بما لأجله تطيرون، فأضرب[٣] عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعي إليه.

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ التي فيها صالح، وهو الحِجْر ﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾؛ أي: تسعة رجال مِنْ أبناء الأشراف.

[معنى الرهط]:

والرهط: اسمٌ للجماعة، فكأنَّهم كانوا رؤساء يتبع كلّ واحد منهم جماعة، والجمع أرْهُط، وأراهِط. وهؤلاء التسعة هم أصحاب قُدَار عاقر الناقة، ثم وصف هؤلاء بقوله: ﴿يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾؛ أي: شأنهم، وعملهم الفساد في الأرض الذي لا يخالطه صلاح.

وقد اختلف في أسماء هؤلاء التسعة اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التطويل بذكره.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: احلفوا بالله، هذا على أن (تقاسموا)[٤] فعل أمر، ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً مفسراً لقالوا: كأنه قيل: ما قالوا؟ فقال: تقاسموا، أو يكون حالاً[٥] على إضمار قد؛ أي: قالوا ذلك متقاسمين.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٨١).

(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٨٢)، و«الوسيط» (٣/ ٣٨٠).

(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٥٥).

(٤) «التبيان» (٢/ ١٠١٠)، و«الفريد» (٣/ ٦٨٨)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٠).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

وقرأ ابن مسعود[١]: «يُفْسدون في الأرض ولا يصلحون تقاسموا بالله» وليس فيها قالوا.

واللّام في ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ جواب القسم؛ أي: لنأتينه بغتة في وقت البيات فنقتله وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ قرأ الجمهور[٢] بالنون للمتكلم في ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾، وفي ﴿لَنَقُولَنَّ﴾، واختار هذه القراءة أبو حاتم[٣].

وقرأ حمزة، والكسائي بالفوقية[٤] فيهما على خطاب بعضهم لبعضهم، واختار هذه القراءة أبو عُبيد[٥]، وقرأ مجاهد، وحميد بالتحتية[٦] فيهما، والمراد بوليّ صالح: رهطه.

﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾؛ أي: ما حضرنا قتلهم، ولا ندري مَنْ قتله وقتل أهله، ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدلّ على نفي شهودهم لنفس القتل بالأولى، وقيل: إن المهلك بمعنى الإهلاك، وقرأ حفص، والسَلُمي مَهلك بفتح الميم[٧]، واللام، وقرأ أبو بكر[٨]، والمفضّل بفتح الميم، وكسر اللام ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ فيما قلناه.

قال الزجاج[٩]: وكأنَّ هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله، ثم ينكروا

---

(١) وهي قراءة شاذة. «جامع البيان» (١٨/ ٩٠ ـ ٩١)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ١١٩).

(٢) «جامع البيان» (١٨/ ٩١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥١)، و«التيسير» (ص١٦٨).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٨٤).

(٤) «التيسير» (ص١٦٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥١)، و«النشر» (٢/ ٣٣٨).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٨٤).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥١).

(٧) قرأ حفص عن عاصم، وكذا المفضل (مَهْلِك) بفتح الميم وكسر اللام، وهي تصلح للزمان والمكان والمصدر.
«البحر المحيط» (٨/ ٢٥١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٦٥، ٦٦)، و«التيسير» (ص١٤٤). وقرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللّام. وانظر: «النشر» (٢/ ٣١١).

(٨) قرأ الأعمش والبرجمي عن أبي بكر والسلمي وعاصم في رواية حماد ويحيى عن أبي بكر أيضاً، والمفضل (مَهْلَك) بفتح الميم واللام على المصدر، أرادوا به الهلاك مصدر (أهلك).
«البحر المحيط» (٨/ ٢٥١)، و«التيسير» (ص١٤٤)، و«النشر» (٢/ ٣١١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٦٥، ١٦٢).

(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٢٤).

عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك، ولا رأوه، وكان هذا مكراً منهم، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾؛ أي: بهذه المحالفة ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ جازيناهم بفعلهم، فأهلكناهم ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بمكر الله بهم ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾؛ أي: انظر ما انتهى إليه أمرهم الذي بنوه على المكر وما أصابهم بسببه ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ قرأ الجمهور بكسر همزة «إنّا»، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعاصم بفتحها[(١)]، فمن كسر جعله استئنافاً.

قال الفراء[(٢)]، والزجاج[(٣)]: مَنْ كسر استأنف، وهو يفسر به ما كان قبله؛ كأنه جعله تابعاً للعاقبة؛ كأنه قال: العاقبة إنّا دمرناهم، وعلى قراءة الفتح يكون التقدير: بأنّا دمرناهم، أو لأنّا دمرناهم، و﴿كَانَ﴾ تامة[(٤)]، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ فاعل لها، أو يكون بدلاً من ﴿عَٰقِبَةُ﴾، أو يكون خبر[(٥)] مبتدأ محذوف؛ أي: هي أنا دمرناهم، ويجوز أن تكون ﴿كَانَ﴾[(٦)] ناقصة، و﴿كَيۡفَ﴾ خبرها، ويجوز أن يكون خبرها ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾.

قال أبو حاتم[(٧)]: وفي حرف أُبيّ «أنْ دمرناهم».

والمعنى في الآية: أن الله دمّر التسعة الرهط المذكورين، ودمّر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك.

ومعنى التأكيد[(٨)] بأجمعين: أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم، وجملة: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ مقرّرة لما قبلها.

قرأ الجمهور[(٩)] ﴿خَاوِيَةَۢ﴾ بالنصب على الحال.

---

(١) «التيسير» (ص١٦٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥٣)، و«جامع البيان» (١٨/ ٩٤ ـ ٩٥).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٦).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٢٤).
(٤) «التبيان» (٢/ ١٠١٠)، و«الفريد» (٣/ ٦٨٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٣ ـ ١٤).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٢٥٣)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٠)، و«الفريد» (٣/ ٦٨٩).
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٢٥٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٤). هي قراءة شاذة.
(٨) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٥٦).
(٩) «البحر المحيط» (٨/ ٢٥٤)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٠)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٥٢).

قال الزجاج[1]: المعنى: فانظر إلى بيوتهم حال كونها خاوية، وكذا قال الفراء[2]، والنحاس[3]؛ أي: خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن.

وقال الكسائي[4] وأبو عُبيدة[5]: نصب خاوية على القطع، والأصل: فتلك بيوتهم الخاوية، فلما قطع منها الألف، واللام نُصبت كقوله: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: ٥٢].

وقرأ عاصم بن عمر، ونصر بن عاصم، والجحدري، وعيسى بن عمر برفع[6] ﴿خَاوِيَةٌ﴾ [الكهف: ٤٢] على أنه خبر اسم الإشارة، و﴿بُيُوتُهُمْ﴾ بدل، أو عطف بيان، أو خبر لاسم الإشارة، و﴿خَاوِيَةً﴾[7] خبر آخر، والباء في: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ للسببية[8]؛ أي: بسبب ظلمهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التدمير، والإهلاك ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: يتصفون بالعلم بالأشياء ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم صالح، ومن آمن به ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الله، ويخافون عذابه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[9]: ﴿طَائِرُكُمْ﴾ قال: مصائبكم.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[10] عنه في قوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ قال: هم الذين عقروا الناقة وقالوا حين عقروها: نبيّتُ صالحاً وأهله فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم فدمرهم الله أجمعين.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٢٥).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٧).
(٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢١٦).
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢١٦).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٨٦).
(٦) وهي قراءة شاذة. «روح المعاني» (٢٠/ ١٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥٤).
(٧) «التبيان» (٢/ ١٠١١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٥)، و«الفريد» (٣/ ٦٩١).
(٨) «البحر المحيط» (٨/ ٢٥٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٥).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٩٩) بسند صحيح.
(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٨٩ ـ ٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٠٠ ـ ٢٩٠٢) بسند ضعيف.

[قصة لوط مع قومه]:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

[الآيات الكونية الدالة على توحيد الله]:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

انتصاب ﴿وَلُوطًا﴾: بفعل مُضْمَر معطوف[1] على (أَرْسَلْنَا)؛ أي: وأرسلنا لوطاً، و ﴿إِذْ قَالَ﴾ ظرف للفعل المقدر، ويجوز أن يقدر: اذكر؛ والمعنى: وأرسلنا لوطاً وقت قوله: ﴿لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؛ أي: الفعلة المتناهية في القبح، والشناعة، وهم أهل سدوم.

وجملة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ في محل نصب[2] على الحال متضمنة لتأكيد

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠١١)، و«الفريد» (٣/ ٦٩١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٧).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

الإنكار؛ أي: وأنتم تعلمون أنها فاحشة. وذلك أعظم لذنوبكم، على أن ﴿تُبْصِرُونَ﴾ من بصر القلب، وهو العلم، أو بمعنى: النظر؛ لأنهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة عُتوًّا، وتمرّداً.

وقد تقدّم تفسير هذه القصة في الأعراف مستوفى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ فيه تكرير للتوبيخ [١] مع التصريح بأنّ تلك الفاحشة هي اللواطة.

وانتصاب ﴿شَهْوَةً﴾ على العلّة؛ أي: للشهوة، أو على أنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: إتياناً شهوة، أو أنه بمعنى الحال؛ أي: مشتهين لهم ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: متجاوزين النساء اللّاتي هنّ محل لذلك ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ التحريم، أو العقوبة على هذه المعصية، واختار الخليل، وسيبويه تخفيف الهمزة من أئنكم ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قرأ الجمهور [٢] بنصب ﴿جَوَابَ﴾ على أنه خبر ﴿كَانَ﴾، واسمها ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾؛ أي: إلّا قولهم.

وقرأ ابن أبي إسحاق برفع [٣] (جَوَابُ) على أنّه اسم ﴿كَانَ﴾، وخبرها ما بعده، ثم علّلوا ما أمروا به بعضهم بعضاً من الإخراج بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ أي: يتنزّهون عن أدبار الرجال، قالوا ذلك استهزاء منهم بهم. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ من العذاب ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: قدّرنا أنها مِنْ الباقين في العذاب، ومعنى «قَدَّرْنَا»: قضينا، قرأ الجمهور [٤] قدّرنا بالتشديد، وقرأ عاصم بالتخفيف [٥].

---

(١) تثنيةٌ للإنكار، وبيانٌ لِما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام، وتحلية الجملة بحرفي التأكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدِّقُ وقوعه أحدٌ لكمالِ شناعته، وإيراد المعقول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربية التقبيح، وبيان اختصاصه ببني آدم.
«روح المعاني» (٢٠/ ١٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٥٧).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٢٥٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٢٦).

(٣) «المحتسب» (٢/ ١٤١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٩). والقراءة بالرفع شاذة.

(٤) «التيسير» (ص١٣٦)، و«النشر» (٢/ ٣٠٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٣٢).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة. التخفيف رواية أبي بكر عن عاصم أما حفص فمثل قراءة الجمهور.

والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ هذا التأكيد يدل على شدّة المطر، وأنه غير معهود ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ المخصوص بالذم محذوف؛ أي: ساء مطر المنذرين مطرُهم، والمراد بالمنذَرين: الذين أُنذروا، فلم يقبلوا.

وقد مضى بيان هذا كله في الأعراف، والشعراء.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾ قال الفرّاء[١]: قال أهل المعاني: قيل للوط: قل: الحمد لله على هلاكهم، وخالفه جماعة فقالوا: إن هذا خطاب[٢] لنبينا ﷺ؛ أي: قيل: الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية، وسلام على عباده ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

قال النحاس[٣]: وهذا أولى؛ لأن القرآن منزل على النبي ﷺ، وكلّ ما فيه فهو مخاطب به إلّا ما لم يصحّ معناه إلّا لغيره.

قيل: والمراد بعباده الذين اصطفى: أمة[٤] محمد ﷺ، والأولى حمله على العموم، فيدخل في ذلك الأنبياء وأتباعهم. ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: آلله الذي ذكرت أفعاله وصفاته، الدالة على عظيم قدرته خير أمّا يشركون به من الأصنام؟ وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي. بل هي كقول الشاعر[٥]:

أَتَهجُوهُ ولَسْتَ لَهُ بِكُفءٍ   فَشَرُّكُما لخيرِكُما الفِداءُ

فيكون ما في الآية مِنْ باب التهكّم بهم، إذ لا خير فيهم أصلاً.

وقد حكى سيبويه[٦] أن العرب تقول: السعادة أحبّ إليك أم الشقاوة، ولا خير في الشقاوة أصلاً.

وقيل: المعنى: أثواب الله خير، أم عقاب ما تشركون به؟ وقيل: قال لهم ذلك جرياً على اعتقادهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنّ في عبادة الأصنام خيراً.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٧).
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٠ ـ ٢١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٨٩).
(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢١٧).
(٤) «الوسيط» (٣/ ٣٨٢)، و«جامع البيان» (١٨/ ٩٨).
(٥) حسان بن ثابت. انظر: «ديوانه» (ص٩).
(٦) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ١٤٣ ـ ١٤٤).

وقيل: المراد من هذا الاستفهام الخبر.

قرأ الجمهور[١] «تُشركون» بالفوقية على الخطاب، وهي اختيار أبي عبيد، وأبي حاتم[٢].

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالتحتية[٣]، و«أم» في ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هي المتصلة[٤]، وأمّا في قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فهي المنقطعة[٤].

وقال أبو حاتم[٥]: تقديره: ءآلهتكم خير أم مَنْ خلق السماوات، والأرض، وقَدر على خلقهنّ؟ وقيل[٦]: المعنى: أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير، أم عبادة مَنْ خلق السماوات، والأرض؟ فتكون «أم» على هذا متصلة، وفيها معنى التوبيخ، والتهكّم كما في الجملة الأولى.

وقرأ الأعمش «أَمَن» بتخفيف[٧] الميم ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: نوعاً مِنْ الماء، وهو المطّر ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة.

قال الفراء[٨]: الحديقة: البُستان الذي عليه حائط، فإن لم يكن عليه حائط، فهو البستان، وليس بحديقة.

وقال قتادة، وعكرمة[٩]: الحدائق النخل.

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾؛ أي: ذات حُسنٍ، ورونق.

والبهجة: هي الحسن [٣/٣٤٨] الذي يبتهج به[١٠] مَنْ رآه، ولم يقل: ذوات

---

(١) «التيسير» (ص١٦٨)، و«النشر» (٢/٣٣٨)، و«البحر المحيط» (٨/٢٥٦).
(٢) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٦/١٩٠).
(٣) «التيسير» (ص١٦٨)، و«البحر المحيط» (٨/٢٥٦)، و«النشر» (٢/٣٣٨)، و«روح المعاني» (٢٠/٢٢).
(٤) «البحر المحيط» (٨/٢٥٦)، و«روح المعاني» (٢٠/٢٢ ـ ٢٣).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/١٩٠ ـ ١٩١).
(٦) «البحر المحيط» (٨/٢٥٧)، و«روح المعاني» (٢٠/٢٣).
(٧) «المحتسب» (٢/١٤٢)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«روح المعاني» (٢٠/٢٣). وهي قراءة شاذة.
(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٢٩٧).
(٩) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٦/١٩١).
(١٠) «معالم التنزيل» (٦/١٧٢)، و«الوسيط» (٣/٣٨٢).

بهجة على الجمع؛ لأن المعنى: جماعة حدائق ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾؛ أي: ما صح لكم أن تفعلوا ذلك، ومعنى هذا النفي: الحظْرُ، والمنع من فعل هذا؛ أي: ما كان للبشر، ولا يتهيأ لهم ذلك، ولا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشيء مِنْ العدم إلى الوجود[١].

ثم قال سبحانه موبخاً لهم، ومقرّعاً ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: هل معبود مع الله الذي تقدّم ذكر بعض أفعاله حتى يُقرن به، ويجعل شريكاً له في العبادة؟ وقرئ «ءإلٰهاً مع الله» بالنصب[٢] على تقدير: أتدعون إلٰهاً؟

ثم أضرب عَنْ تقريعهم وتوبيخهم بما تقدّم، وانتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات[٣] من الخطاب إلى الغيبة، فقال: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾؛ أي: يعدلون بالله غيرَه، أو يعدلون عن الحق إلى الباطل، ثم شرع في الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها، فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ القرار: المستقرّ؛ أي: دحاها، وسوّاها بحيث يمكن الاستقرار عليها.

وقيل: هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث[٤] بدل من قوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، ولا مُلجىء لذلك؛ بل هي وما بعدها إضراب وانتقال من التوبيخ والتقريع[٥] بما قبلها إلى التوبيخ والتقريع بشيء آخر ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ الخلال: الوسط.

وقد تقدّم تحقيقه في قوله: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ [الكهف: ٣٣].

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾ الحاجز: المانع؛ أي: جعل بين البحرين مِنْ قُدرته حاجزاً.

والبحران: هما العَذْبُ والمالح، فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذاك، ولا ذاك يدخل في هذا، وقد مرّ بيانه في سورة الفرقان.

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلّا الله فهل إلٰه في

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٥).
(٢) «الفريد» (٣/ ٦٩٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥٨). القراءة بنصب (ءالهاً) شاذة.
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٦١).
(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٧).
(٥) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٦٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٥٨).

الوجود يصنع صُنعه، ويَخْلق خَلْقَه؟ فكيف يشركون به ما لا يضرّ ولا ينفع؟

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ توحيدَ ربِّهم، وسلطان قدرته ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم، والمضطر اسم مفعول مِنْ الاضطرار: وهو المكروب المجهود الذي لا حول له ولا قوة.

وقيل: هو المُذنب، وقيل: هو الذي عراه ضرّ من فقر، أو مرض، فألجأه إلى التضرّع إلى الله.

واللام في ﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ للجنس[1] لا للاستغراق، فقد لا يجاب دعاء المضطرين لمانعٍ يمنع من ذلك بسبب يُحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه، وإلّا فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطرّ إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والوجه في إجابة دعاء المضطرّ أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص، وقطع النظر عمّا سوى الله.

وقد أخبر الله سبحانه بأنّه يجيب دعاء المخلصين[2] له الدين، وإن كانوا كافرين، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] وقال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فأجابهم عند ضرورتهم، وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾؛ أي: الذي يسوء العبد من غير تعيين، وقيل: هو الضرّ، وقيل: هو الجور ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ أي: يخلف كلُّ قرن منكم القرنَ الذي قبله بعد انقراضهم.

والمعنى: يُهلك قرناً وينشئ آخرين، وقيل: يجعل أولادكم خلفاً منكم، وقيل: يجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ الذي يوليكم هذه النِّعم الجسام؟ ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: تذكراً قليلاً ما تذكرون. قرأ الجمهور[3] بالفوقية على الخطاب. وقرأ أبو عمرو، وهشام، ويعقوب بالتحتية[4]

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٦٢).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ١٩٤)، و«جامع البيان» (١٨/ ١٠٢).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٠)، و«النشر» (٢/ ٣٣٨)، و«التيسير» (ص١٦٨).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

على الخبر ردًّا على قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ واختار هذه القراءة أبو حاتم[١]. ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: يرشدكم في الليالي المظلمات إذا سافرتم في البرّ، أو البحر؟

وقيل: المراد: مفاوز البرّ التي لا أعلام لها، ولجج البحار، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها.

﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ والمراد بالرحمة هنا: المطر؛ أي: يرسل الرياح بين يدي المطر، وقبل نزوله ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يفعل ذلك، ويوجده ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تنزّه، وتقدّس عن وجود ما يجعلونه شريكاً له.

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كانوا يقرّون بأن الله سبحانه هو الخالق، فألزمهم الإعادة؛ أي: إذا قَدِرَ على الابتداء قدر على الإعادة ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالمطر والنبات؛ أي: هو خير أم ما تجعلونه شريكاً له مما لا يقدر على شيء من ذلك؟ ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ حتى تجعلونه شريكاً ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: حجتكم على أنّ لله سبحانه شريكاً، أو هاتوا حجتكم أن ثَمّ صانعاً يصنع كصنعه، وفي هذا تبكيت لهم، وتهكّم بهم.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة في السموات والأرض الغيبَ الذي استأثر الله بعلمه، والاستثناء[٢] في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ منقطع؛ أي: لكن الله يعلم ذلك، ورفع ما بعد ﴿إِلَّا﴾ مع كون الاستثناء منقطعاً هو على اللّغة التميمية كما في قولهم:

إلّا اليعافيرُ وإلّا العيسُ[٣]

وقيل: إن فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾ هو ما بعد ﴿إِلَّا﴾، (ومَنْ في السموات)، مفعوله، و﴿ٱلْغَيْبَ﴾ بدل[٤] «مِنْ»؛ مَنْ أي: لا يعلم غيبَ مَنْ في السمٰوات والأرض إلّا الله، وقيل: هو استثناء متصل من «مَنْ».

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ١٩٦).

(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٤)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٢).

(٣) قائله: جران العود النميري. وهو في «ديوانه» (ص٩٧).

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ ... إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ

● بناء على إدخال اليعافير في الأنيس بضربٍ من التأويل.

(٤) «الفريد» (٣/ ٦٩٣)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٢).

وقال الزجاج[(١)]: إلّا الله بدل من «مَنْ».

قال الفراء[(٢)]: وإنما رفع ما بعد ﴿إِلَّا﴾ لأن ما بعدها خبر كقولهم: ما ذهب أحد إلّا أبوك، وهو كقول الزجاج.

قال الزجاج[(٣)]: ومن نصب نصب على الاستثناء ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: لا يشعرون متى يُنْشرون مِنْ القبور، و﴿أَيَّانَ﴾ مركبة من أي وإن.

وقد تقدّم تحقيقه، والضمير للكفرة.

وقرأ السلمي «إِيّان» بكسر الهمزة[(٤)]، وهي لغة بني سليم، وهي منصوبة بـ﴿يُبْعَثُونَ﴾، ومعلقة ليشعرون، فتكون هي وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: وما يشعرون بوقت بعثهم.

ومعنى ﴿أَيَّانَ﴾: معنى متى. ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَاخِرَةِ﴾.

قرأ الجمهور[(٥)] ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾، وأصل ادارّك تدارك أُدغمت التاء في الدال، وجيء بهمزة الوصل ليمكن الإبتداء بالساكن.

وقرأ أبو جعفر، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وحميد: «بل أَدْرك»[(٦)] من الإدراك.

وقرأ عطاء بن يسار، وسليمان بن يسار، والأعمش: «بلَ ادّرك» بفتح لام «بل»[(٧)]، وتشديد الدال.

وقرأ ابن محيصن[(٨)]: «بل أدرك» على الاستفهام.

وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء وشيبة، والأعمش، والأعرج: «بلى أدّارك» بإثبات الياء[(٩)] في «بل»، وبهمزة قطع وتشديد الدال.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٢٧). (٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٢٧).

(٤) «المحتسب» (٢/ ١٤٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦١). وهي قراءة شاذة.

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦١)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٢)، و«التيسير» (ص١٦٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٦٤).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة. هي قراءة متواترة وكذا قراءة الجمهور وما عداهما فشاذ.

(٧) «المحتسب» (٢/ ١٤٢)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٠). وهي قراءة شاذة.

(٨) «القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٢). قراءة شاذة.

(٩) «التبيان» (٨/ ١١١)، و«معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٢٧).

وقرأ أبيّ[(١)]: «بل تدارك»، ومعنى الآية: بل تكامل علُمهم في الآخرة؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به، وعاينوه.

وقيل: معناه: تتابع علمهم في الآخرة.

والقراءة الثانية معناها: كمُل علمهم في الآخرة مع المعاينة، وذلك حين لا ينفعهم العلم؛ لأنّهم كانوا في الدنيا مكذبين.

وقال الزجاج[(٢)]: إنه على معنى الإنكار، واستدلّ على ذلك بقوله فيما بعد ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾؛ أي: لم يدرك علمهم علم الآخرة، وقيل: المعنى: بل ضلّ وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم.

ومعنى القراءة الثالثة كمعنى القراءة الأولى، فافتعل، وتفاعل قد يجيئان لمعنى.

والقراءة الرابعة هي بمعنى الإنكار.

قال الفراء[(٣)]: وهو وجه حسن كأنه وجهه إلى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم، وفي الآية قراءات أُخر لا ينبغي الاشتغال بذكرها وتوجيهها.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾؛ أي: بل هم اليوم في الدنيا في شك من الآخرة، ثم أضرب عن ذلك إلى ما هو أشدّ منه، فقال: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ فلا يدركون شيئاً من دلائلها؛ لاختلال بصائرهم التي يكون بها الإدراك، و﴿عَمُونَ﴾[(٤)] جمع عمٍ: وهو من كان أعمى القلب.

والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون إلى شيء مما يوصل إلى العلم بها.

فمن قال: إن معنى الآية الأولى أعني ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: أنه كَمُل علمهم[(٥)]، وتمّ مع المعاينة فلا بدّ من حمل قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ: على ما كانوا عليه في الدنيا.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٢). قراءة شاذة.

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٢٧ ـ ١٢٨).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٩).

(٤) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٨٨ ـ ٥٨٩)، و«الوسيط» (٣/ ٣٨٣).

(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

ومَنْ قال: إنّ معنى الآية الأولى: الاستهزاء بهم، والتبكيت لهم لم يحتج إلى تقييد قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إلخ بما كانوا عليه في الدنيا. وبهذا يتضح معنى هذه الآيات، ويظهر ظهوراً بيّناً.

وقد أخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾. قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه، وروي مثله عن سفيان الثوري. والأولى ما قدمناه من التعميم، فيدخل في ذلك أصحاب نبينا ﷺ دخولاً أوليّاً.

وأخرج أحمد، وأبو داود، والنسائي، والطبراني عن رجل[(٢)] من بَلْهُجَيْم قال: قلتُ: يا رسول الله إلى ما تدعو؟ قال: «أدعو الله وحده الذي إن مسك ضرّ، فدعوته كشفه عنك»، هذا طرف من حديث طويل.

وقد رواه أحمد[(٣)] من وجه آخر فبين اسم الصحابي فقال: حدّثنا عفان، حدّثنا حماد بن سلمة، حدّثنا يونس، حدّثنا عبيد بن عبيدة الهجيمي عن أبيه، عن أبي تميمة الهجيمي، عن جابر بن سليم الهجيمي. ولهذا الحديث طرق عند أبي داود، والنسائي.

[ادعاء علم الغيب من أقبح الكذب على الله]:

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث عائشة[(٤)] قالت: «ثلاث من تكلم بواحدة منهم، فقد أعظم على الله الفرية» وقالت في آخره: «ومن زعم أنّه يخبر الناس بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾».

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٤٣ ـ «كشف»)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٠٦) بسند ضعيف، فيه الحكم بن ظهير متروك الحديث.

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٠٦٣٦، ٢٣٢٠٥)، وأبو داود رقم (٤٠٨٤)، والطبراني رقم (٦٣٨٣ ـ ٦٣٩٠). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٦٤)، وأبو داود رقم (٤٠٨٤). وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه البخاري رقم (٤٢٣٥، ٤٦١٢، ٤٨٥٥، ٧٣٨٠، ٧٥٣١)، ومسلم رقم (١٧٧)، والترمذي رقم (٣٠٦٨، ٣٢٧٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٥٣٢، ١١٤٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (٨/ ٥٧١) و(١٠/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩١٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٩٢٢ ـ ٩٢٤).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١]: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِۚ﴾ قال: حين لا ينفع العلم [٣/٣٤٩].

وأخرج أبو عُبيد في «فضائله»، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر[٢] عنه: أنه قرأ «بل أدرك علمهم في الآخرة» قال: لم يدرك علمهم. قال أبو عبيد: يعني: أنه قرأها بالاستفهام.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٣] عنه أيضاً «بل ادرك علمهم في الآخرة» يقول: غاب علمهم.

[اعتقادهم في البعث: الإنكار]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

لما ذكر سبحانه أن المشركين في شكّ من البعث، وأنهم عمون عن النظر في

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠٩/١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٩١٤/٩) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أبو عبيد في «فضائله» (ص١٨٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/١٠٧ ـ ١٠٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠٩/١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٩١٤/٩) بسند صحيح.

دلائله، أراد أَنْ يبين غاية شبههم، وهي مجرّد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم تراباً، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾. والعامل[1] في «إذا» محذوف دلّ عليه ﴿لَمُخْرَجُونَ﴾ تقديره أُبعثُ أو نُخرج إذا كنا وإنما لم يعمل فيه «مُخْرَجُونَ» لتوسط همزة الاستفهام، وإنّ ولام الابتداء بينهما.

قرأ أبو عمرو[2] باستفهامين إلّا أنه خفف الهمزة. وقرأ عاصم[3]، وحمزة باستفهامين، إلّا أَنّهما حققا الهمزتين.

وقرأ نافع[4] بهمزة. وقرأ ابن عامر، ورُويس، ويعقوب «أإذا» بهمزتين[5] «وإنّنا» بنونين على الخبر، ورجح أبو عبيد[6] قراءة نافع، وردّ على من جمع بين استفهامين؛ ومعنى الآية: أنهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا تراباً، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث، فقالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ يعنون: البعث ﴿نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل وعد محمد لنا، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير[7] الإنكار مُصدّرة بالقَسَم لزيادة التقرير[8] ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ الوعد بالبعث ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة.

وقد تقدّم تحقيق معنى الأساطير في سورة المؤمنون، ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث، فأمرهم بالنظر في أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء، وما عُوقبوا به، وكيف كانت عاقبتهم، فقال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٧ ـ ٤٨).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٥)، و«التيسير» (ص١٦٩)، و«النشر» (١/ ٣٧٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٠٠).

(٣) «التيسير» (ص٣٢)، و«النشر» (١/ ٣٧٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦٥).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٠٠). الخلاصة: أن نافعًا وأبا جعفر قرءا بالأخبار في الأول [أي بهمزة واحدة] والاستفهام في الثاني وقرأ ابن عامر والكسائي بالاستفهام في الأول والأخبار في الثاني وزادوا نوناً في (اننّا) وبقية القرَّاء بالاستفهام في الموضعين. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٥).

(٥) وقرأ بها الكسائي. «التيسير» (ص١٦٩)، و«النشر» (١/ ٣٧٣).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٠١).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٦٥).

(٨) انظر: المصادر المتقدمة.

بالبعث، ومعنى النظر هو: مشاهدةُ آثارهم بالبصر فإنّ في المشاهدة زيادة اعتبار.

وقيل: المعنى: فانظروا بقلوبكم، وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم، والأوّل أولى لأمرهم بالسير في الأرض ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ لما وقع منهم من الإصرار على الكفر ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ﴾ الضَيق: الحَرَجُ، يقال: ضاق الشيء ضَيقاً بالفتح، وضِيقاً بالكسر، قُرِىء بهما[1] وهما لغتان. قال ابن السكّيت: يقال: في صدر فلان ضَيق وضِيق، وهو ما تضيق عنه الصدور.

وقد تقدّم تفسير هذه الآية في آخر سورة النحل.

[معنى ردف: لغةً]:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾؛ أي: بالعذاب الذي تعدنا به ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ يقال: ردفت[2] الرجلَ، وأردفتُه: إذا ركبت خلفه، وردفه إذا أتبعه، وجاء في أثره، والمعنى: قل يا محمد، لهؤلاء الكفار عسى أن يكون هذا العذاب الذي به تُوعدون تبعكم، ولحقكم، فتكون اللام زائدة للتأكيد، أو بمعنى اقترب لكم، ودنا لكم، فتكون غير زائدة.

قال ابن شجرة[3]: معنى رَدِف لكم: تبعكم، قال: ومنه رِدْف المرأة؛ لأنه تَبَعٌ لها مِنْ خلفها، ومنه قول أبي ذؤيب:[4]

عادَ السَّوادُ بياضاً في مَفَارقهِ ... لا مَرْحباً ببياضِ الشَّيبِ إذْ رَدفا

قال الجوهري[5]: وأردفه لغة في رَدِفه، مثل: تَبِعه وأتبَعَه بمعنى. قال خزيمة بن مالك بن نهد:[6]

إِذَا الجَوزاءُ أردفتِ الثُّريا ... ظَننتُ بآلِ فاطمةَ الظُّنونا

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٥)، و«التيسير» (ص١٣٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٥). ابن كثير بالكسر وبقية القراء بفتح الضاد.

(٢) «تهذيب اللغة» (١٤/ ٩٥)، و«الصحاح» (٤/ ١٣٦٣ ـ ١٣٦٤).

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٥).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٠٢).

(٥) في «الصحاح» (٤/ ١٣٦٤).

(٦) عزاه إليه الجوهري في «الصحاح» (٤/ ١٣٦٤).

قال الفراء[١]: ردِف لكم: دنا لكم، ولهذا قيل: لكم. وقرأ الأعرج: «ردَف لكم» بفتح الدال[٢]، وهي لغة، والكسر أشهر.

وقرأ ابن عباس[٣]: «أزف لكم».

وارتفاع ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ أي: على أنه فاعل ﴿رَدِفَ﴾، والمراد بعض الذي تستعجلونه مِنْ العذاب؛ أي: عسى أن يكون قد قرب، ودنا، وأزف بعض ذلك.

قيل: هو عذابهم بالقتل يوم بدر، وقيل: هو عذاب القبر[٤].

ثم ذكر سبحانه فضله في تأخير العذاب، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في تأخير العقوبة، والأولى أن تحمل الآية على العموم، ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإِنْعامه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله، وإنعامه، ولا يعرفون حق إحسانه.

ثم بين أنه مطلع على ما في صدورهم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ أي: ما تُخفيه. قرأ الجمهور[٥] «تُكنّ» بضم التاء من أكنّ.

وقرأ ابن محيصن، وابن السميفع، وحميد بفتح التاء[٦]، وضم الكاف، يقال: كننته بمعنى سترتُه، وأخفيتُ أثرَه ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما يظهرون من أقوالهم وأفعالهم ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال المفسّرون: ما من شيء غائب، وأمر يغيب عن الخلق في السماء، والأرض إلّا في كتاب مبين إلّا هو مُبيّن في اللوح المحفوظ، وغائبة هي من الصفات الغالبة، والتاء[٧] للمبالغة.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٩٩).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٦)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٣). القراءة المتواترة بكسر الدال، وبفتحها شاذة، وقراءة ابن عباس شاذة لمخالفة الرسم.

(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٨٤) عن قتادة.

(٤) «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٥).

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٥١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٠٣). قراءة الجمهور متواترة وما عداها فشاذة.

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦٦).

(٧) «روح المعاني» (٢٠/ ٥١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٠٤).

قال الحسن[١]: الغائبة هنا هي: القيامة.

وقال مقاتل[٢]: علم ما يستعجلون من العذاب هو مبين عند الله وإن غاب عن الخلق.

وقال ابن شجرة[٣]: الغائبة هنا جميع ما أخفى الله عن خلقه، وغَيّبه عنهم مبين في أمّ الكتاب، فكيف يخفى عليه شيء من ذلك؟

[القرآن مبين لما اختلف فيه أهل الكتاب]:

ومن جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب فإنّه مؤقت بوقت، ومؤجّل بأجل علمُه عند الله، فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك لأن أهل الكتاب تفرّقوا فرقاً، وتحزّبوا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض، ويتبرأ بعضهم من بعض، فنزل القرآن مبيناً لما اختلفوا فيه من الحق، فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم، ويدفع تفرّقهم ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: وإنّ القرآن لهدًى، ورحمة لمن آمن بالله، وتابع رسوله، وخصّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون[٤] به، ومن جملتهم من آمن من بني إسرائيل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾؛ أي: يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بما يحكم به من الحق، فيجازي المحق، ويعاقب المبطل، وقيل: يقضي بينهم في الدنيا، فَيُظهر ما حرّفوه.

قرأ الجمهور: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ بضم الحاء[٥]، وسكون الكاف.

وقرأ جناح[٦] بكسرها[٧]، وفتح الكاف جمع حكمة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ العزيز الذي لا يُغالب، والعليم بما يحكم به، أو الكثير العلم.

ثم أمره سبحانه بالتوكل، وقلة المبالاة، فقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ والفاء

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٥).
(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٨٥).
(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٥).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٠٤).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٧)، و«زاد المسير» (٦/ ١٨٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٥٤).
(٦) جناح بن حبيش.
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١١١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦٧). وهي قراءة شاذة.

لترتيب[١] الأمر على ما تقدّم ذكره، والمعنى: فوّض إليه أمرك، واعتمد عليه فإنه ناصرك. ثم علَّل ذلك بعلتين[٢]:

الأولى: قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: الظاهر، وقيل: المظهر.

والعلة الثانية: قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ لأنّه إذا علم أن حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسماع، أو كحال الصُمّ الذين لا يسمعون، ولا يفهمون، ولا يهتدون صار ذلك سبباً قوياً في عدم الاعتداد بهم. شَبّه الكفار بالموتى الذين لا حسّ لهم، ولا عقل، وبالصمّ الذين لا يسمعون المواعظ، ولا يجيبون الدعاء إلى الله.

ثم ذكر جملةً لتكميل[٣] التشبيه، وتأكيده، فقال: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾؛ أي: إذا أعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً، فإن الأصمّ لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً فكيف إذا كان معرضاً عنه مولياً مدبراً؟

وظاهر نفي إسماع الموتى العموم، فلا يخصّ منه إلّا ما ورد بدليل كما ثبت في «الصحيح»[٤]: أنّه ﷺ خاطب القتلى في قَليب بدر، فقيل له: يا رسول الله إنما تكلم أجساداً لا أرواح لها، وكذلك ما ورد من «أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا»[٥].

وقرأ ابن محيصن، وحُميد، وابن كثير، وابن أبي إسحاق «لا يَسمَع»[٦] بالتحتية مفتوحة، وفتح الميم، وفاعله الصمّ.

وقرأ الباقون «تُسمِع» بضم الفوقية[٧]، وكسر الميم من أَسمع.

قال قتادة: الأصمّ إذا ولى مُدبراً، ثم ناديته لم يسمع؛ كذلك الكافر لا يسمع ما يُدعى إليه من الإيمان.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٦٦).
(٢) «تفسير الرازي» (٢٤/ ٢١٥ ـ ٢١٦).
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٥٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٦٧).
(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٧٦/ ٢٨٧٣).
(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٧١/ ٢٨٧٠)، وأبو داود رقم (٣٢٣١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) «التيسير» (ص١٦٩)، و«النشر» (٢/ ٣٣٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦٧).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

ثم ضرب العمى مثلاً لهم، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾؛ أي: ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الحق إرشاداً يوصله إلى المطلوب منه، وهو: الإيمان، وليس في وسعك ذلك، ومثله قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦] قرأ الجمهور[١] بإضافة هادي إلى العمي.

وقرأ يحيى بن الحارث، وأبو حيوة: «بهادٍ العمي» بتنوين هادٍ[٢].

وقرأ حمزة «تهدي» فعلاً مضارعاً[٣]، وفي حرف عبد الله[٤]: «وما أن تهدى العمي». ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ أي: ما تسمع إلّا من يؤمن لا من يكفر.

والمراد بمن يؤمن بالآيات: مَنْ يصدّق القرآن، وجملة: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ تعليل[٥] للإيمان؛ أي: فهم منقادون مخلصون. ثم هدّد العباد بذكر طرف من أشراط الساعة وأهوالها، فقال: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

واختلف في معنى وقوع القول عليهم، فقال قتادة[٦]: وجب الغضب عليهم. وقال مجاهد[٧]: حق القول عليهم بأنّهم لا يؤمنون.

وقيل: حق[٨] العذاب عليهم. وقيل: وجب السخط[٩]، والمعاني متقاربة.

وقيل: المراد بالقول: ما نطق[١٠] به القرآن من مجيء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٨)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٥٧). قراءة الجمهور وحمزة متواترة، وما عداها فشاذ.

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٨)، و«القراءات الشاذة» (ص١١١).

(٣) «النشر» (٢/ ٣٣٩)، و«التيسير» (ص١٦٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦٨)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٥٧).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص١١١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦٨)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٥٨).

(٥) «روح المعاني» (٢٠/ ٥٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٦٧).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٧) عن قتادة بسند صحيح.

(٧) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٦).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١١٩ ـ ١٢٠) بسند ضعيف.

(٩) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٦) عن ابن عمر وأبو سعيد الخدري.

(١٠) «روح المعاني» (٢٠/ ٦٠).

وقيل: وقع القول بموت العلماء، وذهاب العلم[١].

وقيل[٢]: إذا لم يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر.

والحاصل: أن المراد بوقع: وجب، والمراد بالقول: مضمونه، أو أطلق المصدر على المفعول؛ أي: المقول، وجواب الشرط: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾.

واختلف في هذه الدابة على أقوال، فقيل: إنّها فصيل[٣] ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة، ويكون من أشراط الساعة.

وقيل: هي دابة[٤] ذات شعر، وقوائم طوال يقال لها: الجساسة[٥].

وقيل: هي دابة[٦] على خلقة بني آدم، وهي في السحاب، وقوائمها في الأرض.

وقيل: رأسها[٧] رأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن إيَّل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وخاصرتها خاصرة هرّ، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها [٣/٣٥٠] قوائم بعير، بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعاً.

وقيل: هي الثُّعبان[٨] المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٠٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢١) بسند ضعيف عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الطيالسي في «مسنده» رقم (١٠٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٣)، والحاكم (١/ ٤٨٤)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ١٧٨)، والفاكهي في «أخبار مكة» رقم (٢٣٤٥)، والطبراني في «الكبير» رقم (٣٠٣٥) عن حذيفة مرفوعاً بسند ضعيف، لإبهام شيخ عبد الله بن عبيد، وطلحة بن عمرو متروك.

(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٦) عن ابن عباس، وابن الجوزي في «زاد المسير» (ص١٩١) عن مقاتل.

(٥) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٤٧٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٦) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٣٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٤) بسند ضعيف من طريق ابن جريج، عن أبي الزبير. وانظر: «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٦)، و«زاد المسير» (٦/ ١٩٠).

(٨) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٣٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما نقلاً عن النقَّاش.

والمراد: أنها هي التي تخرج في آخر الزمان.

وقيل: هي دابة ما لها ذَنَب[١]، ولها لحية.

وقيل: هي إنسان[٢] ناطق متكلم يناظر أهل البدع، ويراجع الكفار.

وقيل: غير ذلك ممّا لا فائدة في التطويل بذكره، وقد رجح القول الأوّل القرطبي في «تفسيره».

[اختلافهم في موضع خروج الدابة]:

واختلف من أيّ موضع تخرج؟ فقيل: مِنْ جبل الصفا[٣] بمكة، وقيل: تخرج من جبل أبي قُبيس. وقيل: لها ثلاث خرجات[٤]: خرجة في بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس، وتكثر الدماء، ثم تكمن، وتخرج في القرى، ثم تخرج من أعظم المساجد، وأكرمها، وأشرفها.

وقيل: تخرج من بين الركن[٥] والمقام، وقيل: تخرج في تهامة[٦]، وقيل: من مسجد الكوفة[٧] من حيث فار التنور، وقيل من أرض الطائف[٨]، وقيل: من صخرة[٩] من شعب أجياد، وقيل: مِنْ صدع في الكعبة.

[أوجه القراءة في قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمۡ﴾]:

واختلف في معنى قوله: «تكلمهم» فقيل: تكلمهم[١٠] ببطلان الأديان سوى

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٦) عن محمد بن كعب، عن علي بن أبي طالب.

(٢) ذكره القرطبي في «المفهم» (٧/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٢١) عن عبد الله بن عمر.

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢١٣) عن حذيفة.

(٥) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٤٧٣).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢٦) عن قتادة بسند صحيح.
وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٥)، ونعيم بن حماد في «الفتن» رقم (١٨٦٢) عن قتادة، عن ابن عباس بسند ضعيف. قتادة لم يسمع من ابن عباس.

(٧) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٣٢).

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢١٣) عن ابن عباس.

(٩) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٧) عن ابن عمر.

(١٠) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ١٧٧) عن السُّدي.

دين الإسلام، وقيل: تُكلمهم بما يسوؤهم[١]، وقيل: تكلمهم[٢] بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: بخروجها؛ لأن خروجها من الآيات.

قرأ الجمهور[٣] ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ من التكليم، ويدلّ عليه قراءة أبيّ[٤] «تنبئهم»، وقرأ ابن عباس، وأبو زرعة، وأبو رجاء، والحسن: «تَكْلمهم» بفتح الفوقية[٥]، وسكون الكاف من الكلم، وهو الجرح.

قال عكرمة[٦]: أي: تسمهم وسْمَاً، وقيل: تجرحهم[٧]، وقيل: إن قراءة الجمهور مأخوذة مِنْ الكَلْم بفتح الكاف، وسكون اللام، وهو الجرح، والتشديد للتكثير، قاله أبو حاتم[٨].

قرأ الجمهور: «إنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون» بكسر[٩] إن على الاستئناف، وقرأ الكوفيون، وابن أبي إسحاق بفتح[١٠] «أنَّ».

قال الأخفش[١١]: المعنى على قراءة الفتح «بأنّ الناس»، وكذا قرأ ابن مسعود[١٢] «بأنّ الناس» بالباء. وقال أبو عبيد[١٣]: موضعها نصب بوقوع الفعل عليها؛ أي: تخبرهم أنّ الناس، وعلى هذه القراءة فالذي تكلم الناس به هو قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ كما قدّمنا الإشارة إلى ذلك.

وأما على قراءة الكسر فالجملة مستأنفة كما قدّمنا، ولا تكون من كلام الدابة.

---

(١) انظر: «مجمع البيان» (٢٠/ ٢٥١).
(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ١٧٧) عن مقاتل.
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٢٦٩)، و«جامع البيان» (١٨/ ١٢٧)، و«زاد المسير» (٦/ ١٩٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٦٨). قراءة الجمهور هي المتواترة. وقراءة فتح التاء وسكون الكاف شاذة.
(٤) «القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٥).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦٩).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢١٤).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢١٤).
(٨) انظر: «التيسير» (ص١٦٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٢٢).
(٩) «التيسير» (ص١٦٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٦٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢١٤).
(١٠) انظر: المصادر المتقدمة.
(١١) في «معاني القرآن» (٢/ ٦٥١).
(١٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٥). القراءة بكسر «إن» وفتحها متواترتان وقراءة ابن مسعود شاذة.
(١٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢١٤).

وقد صرّح بذلك جماعة من المفسرين، وجزم به الكسائي[١] والفراء[٢].

وقال الأخفش[٣]: إن كسر «إن» هو على تقدير القول؛ أي: تقول لهم: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ إلخ، فيرجع معنى القراءة الأولى على هذا إلى معنى القراءة الثانية، والمراد بالناس في الآية: هم الناس على العموم، فيدخل في ذلك كل مكلف، وقيل: المراد الكفار خاصة، وقيل: كفار مكة، والأوّل أولى.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ قال: اقترب لكم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥] عنه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قال: يعلم ما عملوا بالليل والنهار.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم[٦] عنه أيضاً ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ الآية يقول: ما من شيء في السماء والأرض سرًّا ولا علانية إلا يعلمه.

وأخرج ابن المبارك في الزهد، وعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، ونُعيم بن حمّاد، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه عن ابن عمر[٧] في قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية قال: إذا لم يأمروا بمعروف، ولم ينهوا عن منكر.

وأخرجه ابن مردويه[٨] عنه مرفوعاً.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن أبي العالية[٩]: أنه فسر: ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ بما أُوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٢٢).
(٢) في «معاني القرآن» (٢/ ٣٠٠). (٣) في «معاني القرآن» (٢/ ٦٥١).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١١٣) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩١٨) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩١٩) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢١)، والحاكم (٤/ ٤٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢١)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٢٨، ٣٢٩) بسند ضعيف.
(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٧).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢٠) من طريق ابن عليَّة، به.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ قال: تحدّثهم.

[الدابة وأحوالها]:

وأخرج ابن جرير[(٢)] عنه قال: كلامها تنبئهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي داود نُفيع الأعمى قال: سألت ابن عباس[(٣)] عن قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ يعني: هل هو من التكليم باللسان، أو من الكَلْم، وهو الجرح؟ فقال: كل ذلك والله تفعل، تكلم المؤمن، وتكلم الكافر؛ أي: تجرحه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن مردويه عن ابن عمر[(٤)] في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك [حديث[(٥)] ولا كلام]، ولكنها سمة تسم من أمرها الله به، فيكون خروجها مِنْ الصفا ليلة منى، فيصبحون بين رأسها وذَنَبها لا يدحض داحض، ولا يجرح جارح، حتى إذا فرغت مما أمرها الله به فهلك من هلك، ونجا من نجا، كان أوّل خطوة تضعها بإنطاكية».

وأخرج عبد بن حميد[(٦)] عن ابن عباس قال: الدابة ذات وبر وريش، مؤلفة فيها من كل لون، لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج.

وأخرج أحمد، وابن مردويه عن أبي أمامة[(٧)]، عن النبي ﷺ قال: «تخرج

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٦) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢٨) بسند ضعيف. عطاء الخراساني لم يسمع عن ابن عباس.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٦).
(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٨) إلى نعيم بن حماد وابن مردويه.
(٥) كذا في المخطوط وصوابه: (حديثاً ولا كلاماً) خبر ليس منصوباً.
وأخرجه نعيم بن حمّاد في «الفتن» رقم (١٨٦٩).
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٨).
(٧) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٩) إلى أحمد وسمويه وابن مردويه.
وأخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٢٢٣٠٨) بسند صحيح.

الدابة فتسم على خراطيمهم، ثم يُعمَّرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابة، فيقال له: ممن اشتريتها؟ فيقول: من الرجل المُخّطم».

وأخرج ابن مردويه[١] عن ابن عباس: «إن للدابة ثلاث خرجات»؛ وذكر نحو ما قدّمنا.

وأخرج ابن مردويه[١] عن حذيفة بن أسيد رفعه قال: «تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة».

وأخرج سعيد بن منصور، ونعيم بن حماد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢] قال: تخرج من بعض أودية تهامة.

وأخرج الطيالسي، وأحمد، ونعيم بن حماد، والترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم، وتخطم أنف الكافر بالعصا، حتى يجتمع الناس على الخِوان يُعرف المؤمن من الكافر».

وأخرج الطيالسي، ونُعيم بن حماد، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن حذيفة بن أسيد الغفاريّ[٤] قال: ذكر رسول الله ﷺ الدابة، فقال: لها ثلاث خرجات: «من الدهر».

وذكر نحو ما قدّمنا في حديث طويل. وفي صفتها، ومكان خروجها، وما تصنعه، ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضُها صحيح، وبعضها حسن، وبعضها ضعيف.

وأما كونها تخرج، وكونها مِنْ علامات الساعة، فالأحاديث الواردة في ذلك صحيحة.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).
(٢) أخرجه نعيم بن حمّاد رقم (١٨٦٢)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٥).
(٣) أخرجه أحمد رقم (٧٩٣٧، ١٠٣٦١)، والطيالسي رقم (٢٦٨٧)، ونعيم بن حماد رقم (١٨٦٠، ١٨٦١)، والترمذي رقم (٣١٨٧)، وابن ماجه رقم (٤٠٦٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٢٣)، والحاكم (٤/ ٤٨٥، ٤٨٦). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.
(٤) أخرجه الطيالسي في «مسنده» رقم (١٠٦٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٢٢)، والحاكم (٤/ ٤٨٤) وصحَّحه. وقال الذهبي: «فيه طلحة بن عمرو الحضرمي ضعَّفوه وتركه أحمد».

ومنها ما هو ثابت في الصحيح كحديث حذيفة(١) مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات» وذكر منها الدابّة فإنّه في صحيح مسلم، وفي السنن الأربعة.

وكحديث: «بادروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدابة» فإنّه في صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة(٢) مرفوعاً.

وكحديث ابن عمر(٣) مرفوعاً: «إن أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى»(٤) فإنه في صحيح مسلم أيضاً.

[موقف المكذبين يوم الحشر]:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه طرفاً مُجملاً مِنْ أهوال يوم القيامة. فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ العامل في الظرف فعل محذوف خُوطب به النبيّ ﷺ، والحشر الجمع.

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٣٩/ ٢٩٠١)، وأبو داود رقم (٤٣١١)، والترمذي رقم (٢١٨٣) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في «التفسير» رقم (٤٠٠)، وابن ماجه رقم (٤٠٥٥).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٣٧)، ومسلم رقم (٢٩٤٧/١٢٨).

(٣) بل من حديث ابن عمرو، كما في مصادر التخريج.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠١)، ومسلم رقم (٢٩٤١/١١٨)، وأبو داود رقم (٤٣١٠)، وابن ماجه رقم (٤٠٦٩).

قيل: والمراد بهذا الحشر هو: حشرُ العذاب بعد الحشر الكُلِّي[(١)] الشامل لجميع الخلق، و﴿مِن﴾ لابتداء[(٢)] الغاية، والفوج: الجماعة كالزُمْرة، و «من» في ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيانية[(٣)] ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أي: يُحبس أوّلهم على آخرهم، وقد تقدّم تحقيقه في هذه السورة مُستوفى. وقيل معناه: يُدْفَعون، ومنه قول الشماخ[(٤)]:

وكم وزعنا مِن خَميسٍ جَحْفلٍ[(٥)]

ومعنى الآية: واذكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعةً مكذّبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يُرد أوّلهم على آخرهم، أو يُدفعون؛ أي: اذكر لهم هذا، أو بينه تحذيراً لهم، وترهيباً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ إلى موقف الحساب قال الله لهم توبيخاً، وتقريعاً ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ التي أنزلتها على رسلي، وأمرتهم بإبلاغها إليكم؟ والحال: أنّكم ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ بل كذبتم بها بادئ بدء، جاهلين لها غير ناظرين فيها، ولا مستدلين على صحتها، أو بطلانها تمرّداً، وعناداً، وجرأةً على الله وعلى رسله، وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ؛ لأن مَنْ كذّب بشيء، ولم يحط به علماً فقد كذَب في تكذيبه، ونادى على نفسه بالجهل، وعدم الإنصاف، وسوء الفهم، وقصور الإدراك.

[المصنف يشنع على المتعالمين أشد تشنيع]:

ومن هذا القبيل مَنْ تصدّى لذمّ علمٍ من العلوم الشرعية، أو لذمّ علم هو مقدّمة من مقدّماتها، ووسيلة يتوسل بها إليها، ويفيد زيادة بصيرة في معرفتها، وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها، وهي اثنا عشر علماً، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٧٠).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٢٧٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٧٠ ـ ٢٧١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٧٠).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «ملحق ديوان الشَّماخ» (ص٤٥٣).

(٥) وعجزه:

.... وكَمْ حَبَوْنَا من رئيسٍ مِسْحَلِ

[التشنيع على الطاعنين في علوم الشريعة أو ما يُتوصل به إليها]:

وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله، وسُنَّة رسوله، فإنّه قد نادى على نفسه بأرفع صوت بأنه جاهلٌ مجادل بالباطل، طاعن على العلوم [٣/٣٥١] الشرعية، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله، وضلاله، وطعنه على ما لا يعرفه، ولا يعلم به، ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرةً لغيره، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعاف العقول، وركاك الأديان، ورعاع المتلبسين بالعلم زوراً، وكذباً.

و«أم» في قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي المنقطعة[١]، والمعنى: أم أيّ شيء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها، والتفكر في معانيها؟ وهذا الاستفهام على طريق التبكيت[٢] لهم.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ قد تقدّم تفسيره قريباً.

والباء في ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ للسببية[٣]؛ أي: وجب القول عليهم بسبب الظلم الذي أعظم أنواعه الشرك بالله ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ عند وقوع القول عليهم؛ أي: ليس لهم عذر ينطقون به، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم.

وقال أكثر المفسرين[٤]: يُخْتم على أفواههم فلا ينطقون.

ثم بعد أن خوّفهم بأهوال القيامة، ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد، وعلى الحشر، وعلى النبوّة مبالغةً في الإرشاد، وإبلاء للمعذرة، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ أي: جعلنا الليل للسكون، والاستقرار، والنوم، وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش، والنهار مبصراً، ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذي لا بدّ له منه، ووصف[٥] النهار بالإبصار، وهو وصف للناس مبالغة في إضاءته كأنه يبصر ما فيه. قيل: في الكلام حذف.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٧١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧٠).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «الفريد» (٣/ ٦٩٨)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٧٥).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢١٥).
(٥) «روح المعاني» (٢٠/ ٧٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٧٢).

والتقدير: وجعلنا الليل مُظلماً ليسكنوا، وحُذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه، وقد تقدّم تحقيقه في الإسراء وفي يونس ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ أي: علامات ودلالات ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ بالله سبحانه.

ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ هو معطوف على ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ﴾ منصوب بناصبه المتقدّم.

قال الفراء[١]: إن المعنى: وذلكم يوم ينفخ في الصور، والأوّل أولى. والصور: قَرْن يَنْفخ فيه إسرافيل، وقد تقدّم في الأنعام استيفاء الكلام عليه.

[النفخات في الصور ثلاث: الفزع والصعق والبعث]:

والنفخات في الصور ثلاث:

الأولى: نفخة الفزع.

والثانية: نفخة الصَعْق.

والثالثة: نفخة البعث.

وقيل: إنها نفختان، وإن نفخة الفزع إما أَنْ تكون راجعة إلى نفخة الصعق، أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القشيري[٢]، والقرطبي[٣]، وغيرهما.

وقال الماوردي[٤]: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: خافوا، وانزعجوا لشدّة ما سمعوا، وقيل: المراد بالفزع هنا: الإسراع[٥] والإجابة إلى النداء من قولهم: فزعت إليك في كذا: إذا أسرعت إلى إجابتك، والأوّل أولى بمعنى الآية. وإنما عبّر بالماضي[٦] مع كونه معطوفاً على مضارع: للدلالة على تحقق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان.

وقال الفراء[٧]: هو محمول على المعنى؛ لأنّ المعنى إذا نفخ.

---

(١) «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

(٢) انظر: «زاد المسير» (٦/ ١٩٥).

(٣) في «تفسيره» (١٦/ ٢١٧).

(٤) في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٩).

(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٢٩).

(٦) «روح المعاني» (٢٠/ ٨٤ ـ ٨٥).

(٧) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠١).

﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: إلّا مَنْ شاء الله أنْ لا يفزع عند تلك النفخة.

[اختلافهم في تعيين من وقع الاستثناء له من الفزع]:

واختُلف في تعيين مَنْ وقع[١] الاستثناء له، فقيل: هم الشهداء[٢] والأنبياء[٣]، وقيل: الملائكة[٤]، وقيل: جبريل[٥]، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، وقيل: الحور العين[٦]، وقيل: هم المؤمنون[٧] كافةً بدليل قوله فيما بعد ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، ويمكن أن يكون الاستثناء شاملاً لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك.

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ قرأ الجمهور[٨] «آتوه» على صيغة اسم الفاعل مضافاً إلى الضمير الراجع إلى الله سبحانه.

وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب، وحمزة، وحفص عَنْ عاصم «أتوه» فعلاً ماضياً[٩]، وكذا قرأ ابن مسعود.

وقرأ قتادة[١٠] «وكل أتاه».

قال الزجاج[١١]: إن من قرأ على الفعل الماضي فقد وحّد على لفظ كل، ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه، وهو غلط ظاهر، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيها؛ بل التوحيد في قراءة قتادة فقط.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢١٨ ـ ٢١٩).
(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ١٨١ ـ ١٨٢).
(٣) ذكره القشيري كما في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢١٩).
(٤) قاله الحسن كما في «زاد المسير» (٦/ ١٩٥).
(٥) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢١٩) عن مقاتل.
(٦) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٦/ ١٩٥).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢١٩).
(٨) «البحر المحيط» (٨/ ٢٧٢)، و«التيسير» (ص١٦٩)، و«النشر» (٢/ ٣٣٩).
(٩) انظر: المصادر المتقدمة. القراءتان متواترتان، وقراءة قتادة شاذة.
(١٠) «القراءات الشاذة» (ص١١١)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧٢).
(١١) بل هو النحاس كما في «إعراب القرآن» له (٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣).

ومعنى «داخرين»: صاغرين ذليلين، وهو منصوب على الحال، قرأ الجمهور[١] «داخرين»، وقرأ الأعرج[٢] «دخرين» بغير ألف، وقد مضى تفسير هذا في سورة النحل ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ معطوف على «ينفخ».

والخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكلّ من يصلح للرؤية، و«تحسبها جامدة» في محل نصب[٣] على الحال من ضمير ترى، أو مِنْ مفعوله؛ لأن الرؤية بصرية. وقيل: هي بدل من الجملة الأولى، وفيه ضعف.

وهذه هي العلامة الثالثة لقيام الساعة، ومعنى «تحسبها جامدة»: أي: قائمة ساكنة، وجملة: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ في محل نصب[٤] على الحال: أي: وهي تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التي تسيّرها الرياح.

قال القتيبي[٥]: وذلك أن الجبال تجمع، وتسير، وهي في رؤية العين كالقائمة، وهي تسير.

قال القشيري[٦]: وهذا يوم القيامة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] قرأ أهل الكوفة «تحسَبها» بفتح السين، وقرأ الباقون بكسرها[٧].

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ انتصاب ﴿صُنْعَ﴾ على المصدرية عند الخليل[٨]، وسيبويه، وغيرهما؛ أي: صنع الله ذلك صنعاً، وقيل: هو مصدر[٩] مؤكد لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾، وقيل: منصوب على الإغراء؛ أي: انظروا

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٢٧٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٨٦).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧٢). قراءة الأعرج شاذة.
(٣) «التبيان» (٢/ ١٠١٤ ـ ١٠١٥)، و«الفريد» (٣/ ٦٩٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٨٧).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) في «تأويل مشكل القرآن» (ص٥٠٤).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٢١).
(٧) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٢٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٢٢)، و«الإتحاف» (ص٣٤٠). قرأ عاصم وابن عامر وحمزة وأبو جعفر بفتح السين، وقرأ باقي العشرة بكسرها. «النشر» (٢/ ٢٣٦).
(٨) ذكره عنهما النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).
(٩) «التبيان» (٢/ ١٠١٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٢٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٨٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧٤).

صنع الله، ومعنى ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾: الذي أحكمه، يقال: رجل تقن؛ أي: حاذق بالأشياء.

وجملة: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تعليل لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع، وأتقن كل شيء، والخبير: المطلع على الظواهر، والضمائر.

قرأ الجمهور بالتاء الفوقية[(١)] على الخطاب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وهشام بالتحتية[(٢)] على الخبر ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ الألف، واللام للجنس؛ أي: مَنْ جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء والثواب عند الله خير منها؛ أي: أفضل منها، وأكثر، وقيل: خير حاصل من جهتها، والأول أولى. وقيل: المراد بالحسنة هنا: لا إلٰه إلّا الله[(٣)]، وقيل: هي الإخلاص[(٤)]، وقيل: أداء الفرائض[(٥)]، والتعميم أولى ولا وجه للتخصيص، وإن قال به بعضُ السلف.

قيل: وهذه الجملة بيان لقوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، وقيل: بيان لقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾.

قرأ عاصم[(٦)]، وحمزة، والكسائي «وهم مِنْ فزعٍ» بالتنوين، وفتح ميم «يومئذٍ».

وقرأ نافع بفتحها[(٧)] من غير تنوين.

وقرأ الباقون[(٨)] بإضافة فزع إلى يومئذٍ.

قال أبو عبيد[(٩)]: وهذا أعجب إليّ لأنه أعم التأويلين؛ لأن معناه: الأمن من فزع جميع ذلك اليوم، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع.

---

(١) «التيسير» (ص١٦٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٢٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٩).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٢٣).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٢٣).
(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٣١) عن قتادة.
(٦) «روح المعاني» (٢٠/ ٩٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧٥)، و«التيسير» (ص١٧٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤٠).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) «البحر المحيط» (٨/ ٢٧٥)، و«النشر» (٢/ ٣٤٠)، و«التيسير» (ص١٧٠). هي ثلاث قراءات متواترة.
(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٢٤).

وقيل: إنّه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر، فتكون القراءتان بمعنى واحد. وقيل: المراد بالفزع ها هنا هو: الفزع الأكبر المذكور في قوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ووجه قراءة نافع أنه نصب[١] يوم على الظرفية لكون الإعراب فيه غير متمكن، ولما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بني، وقد تقدّم في سورة هود كلام في هذا مستوفى ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾.

قال جماعة من الصحابة، ومَنْ بعدهم حتى قيل: إنه مجمع عليه بين أهل التأويل: إن المراد بالسيئة هنا: الشرك[٢]، ووجه التخصيص قوله: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾، فهذا الجزاء لا يكون إلّا بمثل سيئة الشرك.

ومعنى ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾: أنهم كبوا فيها على وجوههم، وألقوا فيها، وطرحوا عليها، يقال: كَبَبتُ[٣] الرجلَ: إذا ألقيته لوجهه، فانكبّ، وأكبّ.

وجملة ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بتقدير القول؛ أي: يقال ذلك، والقائل خزنة جهنم؛ أي: ما تجزون إلّا جزاء عملكم.

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ والمعاد أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم هذه المقالة؛ أي: قل يا محمد: إنما أمرت أن أخص الله بالعبادة وحدَه لا شريك له، والمراد بالبلدة: مكة، وإنما خصها من بين سائر البلاد لكون فيها بيت الله الحرام، ولكونها أحبّ البلاد إلى رسوله، والموصول صفة للربّ وهكذا قرأ الجمهور[٤].

وقرأ ابن عباس، وابن مسعود «التي حرّمها»[٥] على أن الموصول صفة للبلدة.

ومعنى ﴿حَرَّمَهَا﴾: جعلها حرماً آمناً لا يُسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصطاد صيدها، ولا يختلى خلاها.

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠١٥)، و«الفريد» (٣/ ٧٠٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٢٥)، و«جامع البيان» (١٨/ ١٣٩).

(٣) «تهذيب اللغة» (٩/ ٤٦١).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٢٧٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٢٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٩٧).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧٦). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ من الأشياء خَلْقاً، ومُلْكاً، وتصرّفاً؛ أي: ولله كل شيء ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: المنقادين لأمر الله، المستسلمين له بالطاعة، وامتثال أمره، واجتناب نهيه.

والمراد بقوله: ﴿أَنۡ أَكُونَ﴾: أن أثبت على ما أنا عليه ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ﴾؛ أي: أداوم تلاوته، وأواظب على ذلك. قيل: وليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلّا تلاوة الدعوة إلى الإيمان والأول أولى ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ لأن نفع ذلك راجع إليه؛ أي: فمن اهتدى على العموم، أو فمن اهتدى بما أتلوه عليه، فعمل بما فيه من الإيمان بالله، والعمل بشرائعه.

قرأ الجمهور[١] «وأَنْ أتلوَ» بإثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة، وهي القراءة، أو من التلوّ، وهو الاتباع.

وقرأ عبد الله[٢] «وأن اتل» بحذف الواو أمراً له ﷺ كذا وجهّه الفرّاء[٣].

قال النحاس[٤]: ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾؛ أي: ومن ضلّ بالكفر، وأعرض عن الهداية، فقل له: إنما أنا من المُنْذِرين.

وقد فعلتُ بإبلاغ ذلك إليكم، وليس عليّ غير ذلك. وقيل: الجواب محذوف؛ أي: فوبال ضلاله عليه، وأقيم ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ مقامه لكونه كالعلة له ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه التي أنعم بها عليّ من النبوّة والعلم، وغير ذلك.

وقوله: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هو من جملة ما أُمر به النبي ﷺ أن يقوله؛ أي: سيريكم الله آياته في أنفسكم وفي غيركم ﴿فَتَعۡرِفُونَهَاۚ﴾؛ أي: تعرفون آياته، ودلائل قدرته ووحدانيته وهذه المعرفة لا تنفع الكفار؛ لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان وذلك عند حضور الموت.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٢٧٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٩٩).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٩٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧٦).
وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠١).
(٤) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٢٥).

ثم ختم السورة بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، وهو كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت الكلام الذي أُمر النبي ﷺ أن يقوله، وفيه ترهيب شديد وتهديد عظيم، قرأ أهل المدينة، والشام، وحفص عَنْ عاصم «تعملون» بالفوقية[1] على الخطاب، وقرأ الباقون[2] بالتحتية.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[3] في قوله: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ قال: صاغرين.

وأخرج هؤلاء[4] عنه في قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً﴾ قال: قائمة ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ قال: أحكم[5].

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عنه[6] أيضاً [٣/٣٥٢] في قوله: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ قال: أحسن كل شيء خلقه وأوثقه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عن أبي هريرة[7]، عن النبي ﷺ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ قال: هي: «لا إلـٰه إلّا الله»، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ قال: هي: «الشرك».

وإذا صحّ هذا عن رسول الله ﷺ فالمصير إليه في تفسير كلام الله سبحانه

---

(١) «التيسير» (ص١٢٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٣٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٧٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٢٧).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٣٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٣) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٣) بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن أبي جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٤٥) بسند ضعيف.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٣٩ ـ ١٤٠)، والطبراني في «الدعاء» رقم (١٥٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٥) من طريق الفضل بن دكين، به.

مُتعين، ويحمل على أن المراد قال: لا إلٰه إلّا الله بحقها وما يجب لها، فيدخل تحت ذلك كل طاعة.

ويشهد له ما أخرجه الحاكم(١) في «الكنى» عَنْ صفوان بن عسال قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة: جاء الإيمان والشرك يجثوان بين يدي الله سبحانه، فيقول الله للإيمان: انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾؛ يعني: قول: لا إلٰه إلّا الله، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ يعني: الشرك ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾».

وأخرج ابن مردويه(٢) من حديث أبي هريرة، وأنس نحوه مرفوعاً.

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه، والديلمي عن كعب بن عجرة(٣)، عن النبي ﷺ: «﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾»؛ يعني: شهادة أن لا إلٰه إلّا الله ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾؛ يعني: بالخير الجنة ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ يعني: الشرك ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾، وقال: هذه تنجي وهذه تردي».

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن ابن مسعود(٤) ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ قال: لا إلٰه إلّا الله، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قال: بالشرك.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(٥) نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ قال: له منها خير؛ يعني: مِنْ جهتها(٦).

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٦).
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٦).
(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٦).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٤)، والحاكم (٢/ ٤٠٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٢٠٣).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٤٠، ١٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٤، ٢٩٣٥) معلقاً، والبيهقي رقم (٢٠٦) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٤٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٥).

وأخرج ابن أبي حاتم[1] عنه أيضاً ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ قال: ثواب.
وأخرج[2] أيضاً عنه أيضاً قال: البلدة: مكة.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٤) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٤) بسند ضعيف.

سُورَةُ القَصَصِ

آياتها ثمان وثمانون[١] آية وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء[٢].

[القصص مكيَّة كلها على أكثر الأقوال]:

وأخرج ابن الضريس، وابن النجار، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس[٣] قال: نزلت سورة القصص بمكة.

وأخرج ابن مردويه[٤] عن ابن الزبير مثل ذلك.

قال القرطبي[٥]، قال ابن عباس، وقتادة: إنّها نزلت بين مكة والمدينة.

وقال ابن سلام[٦]: بالجُحْفة وقت هجرة رسول الله ﷺ، وهي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: ٨٥].

وقال مقاتل: فيها من المدني ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ ـ ٥٥].

[خباب بن الأرت أحق من أخذ سورة القصص من رسول الله]:

وأخرج أحمد، والطبراني، وابن مردويه: قال السيوطي: سنده جيد عن معدي كرب[٧] قال: أتينا عبد الله بن مسعود، فسألناه أَنْ يقرأ علينا طسَمَ المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ: خبّاب بن الأرت، فأتيت خباباً، فقلت: كيف كان رسول الله يقرأ طسَمَ أو طسّ؟ فقال: كلّ كان رسول الله يقرأه.

---

(١) «البيان في عدِّ آي القرآن» للداني (ص٢٠١).

(٢) ذكره القرطبي عنهم في «تفسيره» (١٦/ ٢٢٨).

(٣) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» رقم (١٧، ١٨)، والنحاس في «ناسخه» (ص٦١١)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٤٢ ـ ١٤٤).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٩).

(٥) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٢٩).

(٦) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٤١).

(٧) أخرجه أحمد رقم (٣٩٨٠)، والطبراني رقم (٣٦١٤) بسند ضعيف.

[قصة موسى]:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ
بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ
عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ
إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى
وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ
ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢
فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾.

الكلام في فاتحة هذه السورة قد مرّ في فاتحة الشعراء وغيرها فلا نعيده وكذلك مرّ الكلام على قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ فاسم[1] الإشارة مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف، وآيات بدل من اسم الإشارة، ويجوز أن يكون «تلك» في موضع نصب بنتلو، والمبين: المشتمل على بيان الحق مِنْ الباطل.

قال الزجّاج[2]: مُبين الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وهو من أبان

(١) «الفريد» (٣/ ٧٠٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٨٥).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٣١).

بمعنى: أظهر ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: نوحي إليك من خبرهما ملتبساً بالحق، وخص المؤمنين؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن، وقيل: إن مفعول نتلو محذوف.

والتقدير: نتلو عليك شيئاً من نبئهما.

ويجوز أن تكون «من» مزيدة على رأي الأخفش[(١)]؛ أي: نتلو عليك نبأ موسى وفرعون، والأولى أن تكون للبيان[(٢)] على تقدير المفعول كما ذُكر، أو للتبعيض، ولا ملجئ للحكم بزيادتها، والحقُّ: الصدقُ، وجملة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ.

قال المفسرون[(٣)]: معنى علا: تكبّر وتجبر بسلطانه، والمراد بالأرض: أرض مصر. وقيل: معنى علا: ادعى الربوبية، وقيل: علا عن عبادة ربه ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾؛ أي: فِرقاً وأصنافاً في خدمته يشايعونه على ما يريد ويطيعونه.

وجملة: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان[(٤)] حال الأهل الذين جعلهم فرقاً وأصنافاً، ويجوز أن تكون في محلّ نصب على الحال من فاعل جعل؛ أي: جعلهم شيعاً حال كونه مستضعفاً طائفة منهم.

ويجوز أن تكون صفة (لطائفة)، والطائفة: هم بنو إسرائيل.

وجملة: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بدل من الجملة الأولى، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان[(٥)]، أو حالاً، أو صفة كالتي قبلها على تقدير عدم كونها بدلاً منها، وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم، ويترك النساء؛ لأن المنجّمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل.

---

(١) ذكره العكبري في «التبيان» (٢/ ١٠١٦).

(٢) «التبيان» (٢/ ١٠١٦)، و«الفريد» (٣/ ٧٠٤).

(٣) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٣٨٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٠٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٢٩).

(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ١٠٦)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٦)، و«الفريد» (٣/ ٧٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

[حماقة فرعون في سعيه للإفساد]:

قال الزجاج[١]: والعجب مِنْ حمق فرعون، فإنّ الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل، وإنْ كان كاذباً فلا معنى للقتل ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالمعاصي والتجبّر، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية[٢]، واستحضار صورتها؛ أي: نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم.

والمراد بهؤلاء: بنو إسرائيل، والواو[٣] في «ونريد» للعطف على جملة «إن فرعون علا»، وإن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية؛ لأن بينهما تناسباً من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير والبيان، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ بتقدير مبتدأ؛ أي: ونحنُ نريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض كما في قول الشاعر:

نـجـوتُ وأرهـنـتُـهـم مَـالـكـاً

والأوّل أولى ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾؛ أي: قادة في[٤] الخير ودعاةً إليه، وولاة على الناس وملوكاً فيهم ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لمُلك فرعون ومساكن القبط وأملاكهم، فيكون ملك فرعون فيهم، ويسكنون في مساكنه ومساكن قومه، وينتفعون بأملاكه وأملاكهم ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: نجعلهم مقتدرين عليها وعلى أهلها مسلطين على ذلك يتصرّفون به كيف شاءوا.

قرأ الجمهور[٥] «نُمكّن» بدون لام، وقرأ الأعمش «لنمكن» بلام[٦] العلة.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ قرأ الجمهور[٧] «نُرِى» بنون مضمومة، وكسر الراء على أن الفاعل هو الله سبحانه.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٣١).
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ١٠٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٨٢).
(٣) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٨٢)، و«روح المعاني» (٢/ ١٠٧)، الفريد (٣/ ٧٠٤).
(٤) «جامع البيان» (١٨/ ١٥٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٣٠).
(٥) «التيسير» (ص١٧٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٨٦).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة الأعمش شاذة.
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٢٨٦)، و«النشر» (ص١٧٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١١١).

وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثّاب، وحمزة، والكسائي وخلف «ويَرى» بفتح[١] الياء التحتية، والراء، والفاعل فرعون.

والقراءة الأولى ألصق بالسياق؛ لأنّ قبلها (نريد)، و(نجعل)، و(نمكّن) بالنون. وأجاز الفراء[٢]: «ويُرِي فرعونَ» بضم[٣] الياء التحتية، وكسر الراء؛ أي: ويرى اللهُ فرعون، ومعنى ﴿مِنْهُم﴾: مِنْ أولئك المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ الموصول هو المفعول الثاني على القراءة الأولى، والمفعول الأوّل على القراءة الثانية.

والمعنى: أن الله يريهم، أو يرون هم الذي كانوا يحذرون منه، ويجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد المولود من بني إسرائيل المستضعفين.

[أجمع العلماء على أن أم موسى لم تكن نبيَّة]:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾؛ أي: ألهمناها، وقذفنا[٤] في قلبها، وليس ذلك هو الوحي الذي يُوحى إلى الرسل، وقيل[٥]: كان ذلك رؤيا في منامها، وقيل[٦]: كان ذلك بملَك أرسله الله يعلمها بذلك.

وقد أجمع[٧] العلماء على أنّها لم تكن نبية، وإنما كان إرسال الملك إليها عند مَنْ قال به على نحو تكليم الملَك للأقرع والأبرص، والأعمى كما في الحديث الثابت في «الصحيحين»[٨] وغيرهما، وقد سلّمتْ على عمران بن حصين الملائكةُ

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة. وهما قراءتان متواترتان.

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٢).
قال الفراء: ولم أسمع أحداً قرأ به.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤١) وجواز الفراء جواز لغوي.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٤١) عن قتادة بسند صحيح.

(٥) «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٤٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٣٢).

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٢٨٧)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ١٤٤).

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٣٢).

(٨) أخرجه البخاري رقم (٣٤٦٤)، ومسلم رقم (١٠/ ٢٩٦٤)، والبيهقي (٧/ ٢١٩) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما في الحديث الثابت في «الصحيح»[(١)]، فلم يكن بذلك نبيّاً.

و«أن» في ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ هي المفسِّرة[(٢)]؛ لأن في الوحي معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية؛ أي: بأن أرضعيه، [٣/٣٥٣] وقرأ عمر بن عبد العزيز[(٣)] بكسر نون (أنِ)، ووصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين، وحذف همزة الوصل على غير القياس ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، وهو بحر النيل.

وقد تقدّم بيان الكيفية التي ألقته في اليمّ عليها في سورة طه ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾؛ أي: لا تخافي عليه الغرق أو الضيعة، ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد، والفاء في قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ هي الفصيحة[(٤)]، والالتقاط: إصابة الشيء من غير طلب.

والمراد بآل فرعون: هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر، وفي الكلام حذف، والتقدير: فألقته في اليمّ بعد ما جعلته في التابوت؛ فالتقطه من وجده من آل فرعون.

واللّام في ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لام[(٥)] العاقبة، ووجه ذلك: أنهم إنما أخذوه؛ ليكون لهم ولداً وقرّة عين لا ليكون عدوًّا فكان عاقبة ذلك أنّه كان لهم عدوّاً وحزناً، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم، وثمرةً له شُبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، ومن هذا قول الشاعر[(٦)]:

لِدوا للموت وابنُوا للخراب[(٧)]

---

(١) أخرجه مسلم رقم (١٦٧/١٢٢٦)، والدارمي (٢/٣٥) كلاهما من حديث مطرف، عن عمران بن حصين.

(٢) «روح المعاني» (٢٠/١١٢)، و«الفريد» (٣/٧٠٤ ـ ٧٠٥)، و«التبيان» (٢/١٠١٦).

(٣) «المحتسب» (٢/١٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/٢٨٧)، و«روح المعاني» (٢٠/١١٢). وهي قراءة شاذة.

(٤) «روح المعاني» (٢٠/١١٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٢٨٣).

(٥) «البيان» (٢٢٩١٢)، و«الفريد» (٣/٧٠٥)، و«التبيان» (٢/١٠١٦).

(٦) انظر: «ديوان الإمام علي بن أبي طالب» (ص٢٩) ط. المكتبة الثقافية، بيروت.

(٧) وصدر هذا البيت:

له ملك ينادي كل يوم

وقول الآخر[١]:

وللمنايا تُربِّي كلُّ مُرضعةٍ ودُورنا لخرابِ الدَّهر نبنيها[٢]

قرأ الجمهور[٣]: «وحَزَناً» بفتح الحاء، والزاي، وقرأ الأعمش، ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وخلف: «وحُزْناً» بضم[٤] الحاء، وسكون الزاي، واختار القراءة الأولى أبو عبيد، وأبو حاتم[٥]، وهما لغتان كالعَدَم والعُدْم، والرَّشَد والرُّشْد، والسَّقَم والسُّقْم.

وجملة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ لتعليل ما قبلها، أو للاعتراض لقصد التأكيد؛ ومعنى ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾: عاصين آثمين في كل أفعالهم وأقوالهم، وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب.

وقرئ: «خاطين» بياء[٦] من دون همزة، فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور، ولكنها خففت بحذف الهمزة، ويحتمل أن تكون من خطا يخطو: ؛ أي: تجاوز الصواب.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾؛ أي: قالت امرأة فرعون لفرعون، وارتفاع قرّة على أنه خبر مبتدأ محذوف، قاله الكسائي[٧]، وغيره.

وقيل: على أنه مبتدأ وخبره: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، والأوّل أولى.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٣٧)، وهو في «ديوان الإمام علي بن طالب» (ص١٣٤) بلفظ:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

(٢) نسبه الزَّجَّاجي لسابق بن عبد الله البربري من شعراء العصر الأموي. كتاب «اللامات» (ص١٢٧).

(٣) «التيسير» (ص١٧١)، و«النشر» (٢/ ٣٤١)، و«جامع البيان» (١٨/ ١٦٢)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٦).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (٦/ ٢٣٥).

(٦) «البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة» (ص٢٣٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٨٨)، و«حاشية الشهاب» (٧/ ٦٥). وهي قراءة أبي جعفر قراءة متواترة.

(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٢٩).

وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها، وأخرجته من التابوت، وخاطبت بقولها: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ فرعون ومَنْ عنده من قومه، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم[١] له.

وقرأ عبد الله بن مسعود[٢]: «وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لي ولك»، ويجوز نصب «قرّة» بقوله: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ على الاشتغال. وقيل: إنها قالت: لا تقتلوه فإنّ الله أتى به من أرض بعيدة، وليس من بني إسرائيل، ثم علَّلت ما قالته بالترجي منها لحصول النفع منه لهم، أو التبني له، فقالت: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فنصيب منه خيراً ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ وكانت لا تلد فاستوهبته مِنْ فرعون فوهبه لها.

وجملة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ في محل نصب على الحال[٣]؛ أي: وهم لا يشعرون أنهم على خطأ في التقاطه، ولا يشعرون أن هلاكهم على يده؛ فتكون حالاً من آل فرعون، وهي من كلام الله سبحانه.

وقيل: هي من كلام المرأة؛ أي: وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، وهم لا يشعرون، قال الكلبي، وهو بعيد جدّاً.

وقد حكى الفراء[٤] عن السديّ، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس أن قوله: ﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ من كلام فرعون، واعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ، ويكفي في ردّه ضعف إسناده[٥].

﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ قال المفسرون[٦]: معنى ذلك: أنه فارغ من كل شيء إلّا من أمر موسى كأنها لم تهتمّ بشيء سواه.

قال أبو عبيدة[٧]: خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلّا من ذكر موسى.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ١١٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٨٤).
(٢) وهي قراءة شاذة. «القراءات الشاذة» (ص١١٢).
(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٢٩).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٢) بسند ضعيف.
(٥) وهو كما قال.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٣٨)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٩٢).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٣٨).

وقال الحسن[1] وابن إسحاق[2]، وابن زيد[3]: فارغاً مما أوحى إليها من قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾، وذلك لما سوّل الشيطان لها من غرقه وهلاكه.

وقال الأخفش[4]: فارغاً من الخوف والغمّ، لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدّم من الوحي إليها، وروي مثله عن أبي عبيدة[5] أيضاً.

وقال الكسائي[6]: ناسياً ذاهلاً، وقال العلاء بن زياد: نافراً.

وقال سعيد بن جبير[7]: والهاً كادت تقول: واابناه من شدّة الجزع.

وقال مقاتل[8]: كادت تصيح شفقة عليه من الغرق.

وقيل: المعنى: أنها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش.

قال النحاس[9]: وأصحّ هذه الأقوال الأوّل، والذين قالوه أعلم بكتاب الله، فإذا كان فارغاً من كل شيء إلّا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي، وقول من قال: فارغاً من الغمّ غلط قبيح؛ لأن بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ وقرأ فَضالة بن عُبيد الأنصاري[10]، ومحمد بن السميفع، وأبو العالية، وابن محيصن: «فَزِعا» بالفاء، والزاي، والعين المهملة من الفزع؛ أي: خائفاً وجلاً.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٦٩) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٦٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٤٦) بسند حسن.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٦٩) بسند صحيح.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٣٨).
(٥) في «مجاز القرآن» (٢/ ١٩٨).
(٦) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ١٦٠).
(٧) «النكت والعيون» (٤/ ٢٣٨)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٣٩٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٣٨).
(٨) انظر: المصادر المتقدمة.
(٩) في «معاني القرآن» (٥/ ١٦١ ـ ١٦٢).
(١٠) «القراءات الشاذة» (ص١١١)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٧). هي والتي بعدها قراءتان شاذتان.

وقرأ ابن عباس[١]: «قَرِعا» بالقاف المفتوحة، والراء المهملة المكسورة، والعين المهملة من قرع رأسه: إذا انحسر شعره.

ومعنى ﴿وَأَصْبَحَ﴾: وصار، كما قال الشاعر:

مضى الخُلفاء في أمرٍ رشيدْ وأصبحتِ المدينةُ للوليدْ[٢]

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ «أن» هي: المخففة[٣] من الثقيلة، واسمها ضمير شأن محذوف؛ أي: إنها كادت لتظهر أمر موسى، وأنه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش والخوف والحزن، من بدا يبدو: إذا ظهر، وأبدى يبدي: إذا أظهر، وقيل: الضمير في به عائد إلى الوحي الذي أوحي إليها، والأوّل أولى.

وقال الفراء[٤]: إنْ كانت لتبدي باسمه لضيق صدرها لولا أن ربطنا على قلبها. قال الزجاج[٥]: ومعنى الربط على القلب: إلهام الصبر، وتقويته، وجواب لولا محذوف؛ أي: لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت، واللام في و﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بربطنا.

والمعنى: ربطنا على قلبها؛ لتكون من المصدّقين[٦] بوعد الله، وهو قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ قيل: والباء في ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ زائدة للتأكيد[٧]، والمعنى: لتبديه كما تقول: أخذت الحبل وبالحبل.

وقيل: المعنى: لتبدي القول به.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾؛ أي: قالت أمّ موسى لأخت موسى، وهي مريم:

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١١١)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٤٠).

(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ١٢٠)، و«الفريد» (٣/ ٧٠٧).

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٣).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٣٤).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٤١)، و«جامع البيان» (١٨/ ١٧٣).

(٧) وقال: ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾، ولم يقل: لتبديه؛ لأنَّ حروف الصفات قد تزاد في الكلام، تقول: أخذتُ الحبل وبالحبل، وقيل: أي: لتبدي القولَ به. «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٤١).

قُصيه؛ أي: تتبعي أثَره، واعرفي خبره، وانظري أين وقع، وإلى من صار؟ يقال: قصصت الشيء: إذا اتبعت أثره متعرّفاً لحاله ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾؛ أي: أبصرته عن بُعد، وأصله عن مكان جُنب، ومنه الأجنبي. قال الشاعر:

فلا تَحرِميني نَائِلاً عن جَنَابةٍ فإنِّي امرُؤ وسط الدِّيارِ غَريبُ[(١)]

وقيل: المراد بقوله: «عن جُنب» عن جانب، والمعنى: أنها أبصرت إليه متجانفة مخاتلة، ويؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم[(٢)] «عَنْ جانب»، ومحلّ ﴿عَن جُنُبٍ﴾ النصب[(٣)] على الحال إما من الفاعل؛ أي: بصرت به مستخفية كائنة عن جنب، وإما من المجرور[(٤)]؛ أي: بعيداً منها.

قرأ الجمهور[(٥)]: «بَصُرت» به بفتح الباء، وضم الصاد، وقرأ قتادة[(٦)] بفتح الصاد، وقرأ عيسى بن عمر[(٧)] بكسرها.

قال المبرّد[(٨)]: أبصرته، وبصرت به بمعنى، وقرأ الجمهور[(٩)] «عن جُنُبٍ» بضمتين، وقرأ قتادة، والحسن، والأعرج، وزيد بن عليّ بفتح[(١٠)] الجيم، وسكون النون، وروي عن قتادة أيضاً: أنه قرأ بفتحهما[(١١)].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٤١).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٩٠). وهي قراءة شاذة.
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ١٢٢)، و«الفريد» (٣/ ٧٠٨)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٧).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٢٩٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٢٢). المتواتر قراءة الجمهور، والقراءتان المذكورتان شاذتان.
(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٢٩٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٢٢)، و«إعراب القراءات الشواذ» (٢/ ٢٥٢).
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١١٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٩٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٢٢).
(٨) «التفسير البسيط» للواحدي (١٧/ ٣٤٤).
(٩) «البحر المحيط» (٨/ ٢٩٠)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ١٤٨). المتواتر قراءة الجمهور وغيرها شاذ.
(١٠) «القراءات الشاذة» (ص١١٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٩).
(١١) «البحر المحيط» (٨/ ٢٩٠)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٤٩).

وروي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بضم[١] الجيم، وسكون النون.

وقال أبو عمرو بن العلاء[٢]: إن معنى ﴿عَن جُنُبٍ﴾: عن شوق. قال: وهي لغة جذام يقولون: جنبت إليك؛ أي: اشتقت إليك ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تقصّه وتتبع خبره وأنّها أخته. ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ المراضع جمع مرضع؛ أي: منعناه أنْ يرضع من المرضعات.

وقيل: المراضع جمع مَرْضَع بفتح الضاد، وهو الرضاع، أو موضعه، وهو الثدي ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبل أن نردّه إلى أمه، أو من قبل[٣] أن تأتيه أمه، أو من قبل قصها لأثره، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه، فلم يرضع من واحدة منهنّ ﴿فـ﴾ـعند ذلك ﴿قَالَتْ﴾ [القصص: ٢٥]؛ أي: أخته لما رأت امتناعه من الرضاع ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾؛ أي: يضمنون لكم القيام به وإرضاعه ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؛ أي: مشفقون عليه لا يقصرون في إرضاعه وتربيته، وفي الكلام حذف.

والتقدير[٤]: فقالوا لها: مَنْ هم؟ فقالت: أمي، فقيل لها: وهل لأمك لبن؟ قالت: نعم لبن أخي هارون: فدلتهم على أمّ موسى، فدفعوه إليها، فقبل ثديها ورضع منه، وذلك معنى قوله سبحانه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بولدها ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ على فراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: جميع وعده، ومن جملة ذلك ما وعدها بقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلف فيه، واقع لا محالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك؛ بل كانوا في غفلة عن القدر وسرّ القضاء، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك أو لا يعلمون أن الله وعدها بأن يردّه إليها.

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ١٢٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٤٢).
(٣) «النكت والعيون» (٤/ ٢٣٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٣٠).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٤٣)، و«جامع البيان» (١٨/ ١٧٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٢٣).

وقد أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد[1] ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ قال: فرّق بينهم.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة[2] ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ قال: يستعبد طائفةً منهم، ويدع طائفة، ويقتل طائفة، ويستحيي طائفة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب[3] في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ قال: يوسف وولده.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن قتادة[4] في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال: هم: بنو إسرائيل [٣/٣٥٤] ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾؛ أي: ولاة الأمر ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾؛ أي: الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ قال: ما كان القوم حذروه.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس[5] في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: ألهمناها الذي صنعت بموسى.

وأخرج ابن أبي حاتم[6] عن الأعمش قال: قال ابن عباس في قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ قال: أن يسمع جيرانك صوته.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٩) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٥١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٨٧) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٢).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٤١) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٥٣، ١٥٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٤١) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٤١) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٤٢) بسند ضعيف.

وأخرج ابن أبي حاتم[١] عن ابن مسعود في قوله: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ قال: فرغ من ذكر كل شيء من أمر الدنيا إلّا من ذكر موسى.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ قال: خالياً من كل شيء غير ذكر موسى. وفي قوله: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ قال: تقول: يا ابناه.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه[٣] في قوله: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾؛ أي: اتبعي أثره ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾ قال: عن جانب.

وأخرج الطبراني، وابن عساكر عن أبي أمامة[٤]: «أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: أما شعرت أن الله زوّجني مريم بنت عمران، وكلثوم أخت موسى، وامرأة فرعون؟ قالت: هنيئاً لك يا رسول الله».

وأخرجه ابن عساكر[٥] عن ابن أبي روّاد مرفوعاً بأطول من هذا، وفي آخره: أنها قالت: بالرفاء والبنين.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ قال: لا يؤتى بمرضع فيقبلها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٩٤٦/٩) من طريق عمرو بن ميمون، به.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٦٧/١٨، ١٦٨، ١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٩٤٦/٩)، والحاكم (٤٠٦/٢، ٤٠٧) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧١/١٨، ١٧٢)، والحاكم (٤٠٦/٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٩٤٨/٩) بسند صحيح.

(٤) أخرجه الطبراني رقم (٨٠٠٦)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (١١٩/٧٠). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (١١٩/٧٠).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٧٨/١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٩٤٩/٩)، والحاكم (٤٠٦/٢، ٤٠٧).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

[سبب خروجه من أرض مصر]:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا
مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ
عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى
ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾
فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ
إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا
ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ
رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ
ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ
مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قد تقدّم الكلام في بلوغ الأشدّ في الأنعام، وقد قال ربيعة، ومالك: هو الحلم(١) لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ الآية [النساء: ٦]، وأقصاه أربع(١) وثلاثون سنة كما قال مجاهد، وسفيان الثوري، وغيرهما(٢).

وقيل: الأشدّ: ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين، والاستواء(٣): من الثلاثين

(١) «النكت والعيون» (٤/ ٢٤٠)، و«الوسيط» (٣/ ٣٩٣)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٩٥ ـ ١٩٦).
(٢) «جامع البيان» (١٨/ ١٨١ ـ ١٨٢)، و«معالم التنزيل» (٦/ ١٩٥ ـ ١٩٦)، و«الوسيط» (٣/ ٣٩٣)، و«النكت والعيون» (٤/ ٢٤٠).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

إلى الأربعين، وقيل: الاستواء: هو بلوغ الأربعين، وقيل: الاستواء: إشارة إلى كمال الخلقة، وقيل: هو بمعنى واحد، وهو ضعيف؛ لأن العطف يشعر بالمغايرة.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ الحكم: الحكمة على العموم، وقيل: النبوّة[١]، وقيل: الفقه في الدين[٢] والعلم: الفهم؛ قاله السديّ[٣]. وقال مجاهد[٤]: الفقه.

وقال ابن إسحاق[٥]: العلم بدينه ودين آبائه، وقيل: كان هذا قبل النبوّة[٦]، وقد تقدّم بيان معنى ذلك في البقرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء الذي جزينا أمّ موسى لما استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدّقت بوعد الله نجزي المحسنين على إحسانهم، والمراد العموم[٧].

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾؛ أي: ودخل موسى مدينة مصر الكبرى، وقيل: مدينة غيرها من مدائن مصر، ومحل قوله: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ النصب[٨] على الحال: إما من الفاعل؛ أي: مستخفياً وإما من المفعول.

قيل: لما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه عاب ما عليه قوم فرعون، وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم، فكان لا يدخل المدينة إلّا مستخفياً. قيل: كان دخوله بين العشاء[٩] والعَتَمَة؛ وقيل: وقت القائلة[١٠].

قال الضحاك[١١]: طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها، فدخل على حين

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٤١) عن السُّدي.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢١١٩) و(٩/ ٢٦٥٢) عن مجاهد بسند صحيح.
(٣) بل قال: النبوة كما تقدم.
(٤) بل قال مجاهد: القوة. «النكت والعيون» (٤/ ٢٤١).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥١) بسند حسن.
(٦) «جامع البيان» (١٨/ ١٨٢). (٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٤٤).
(٨) «الفريد» (٣/ ٧٠٩)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٨)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٢٨).
(٩) قاله ابن عباس. «النكت والعيون» (٤/ ٢٤١).
(١٠) قاله ابن جبير. «النكت والعيون» (٤/ ٢٤١)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٦٦).
(١١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٤٦).

علم منهم، فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ أي: ممن شايعه على دينه، وهم بنو إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ أي: من المعادين له على دينه، وهم قوم فرعون ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾؛ أي: طلب منه أن ينصره ويعينه على خصمه ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فأغاثه؛ لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل.

قيل: أراد القبطي أن يسخر الإسرائيلي؛ ليحمل حطباً لمطبخ فرعون، فأبى عليه واستغاث بموسى.

[الفرق بين الوكز واللكز واللهز]:

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ الوكز[١]: الضربُ بجمع الكف، وهكذا اللكز[٢] واللهز[٣]. وقيل: اللكز[٢] على اللحى، والوكز على القلب. وقيل: ضربه بعصاه[٤].

وقرأ ابن مسعود[٥] «فلكزه»، وحكى الثعلبي[٦]: أن في مصحف عثمان «فنكزه» بالنون، قال الأصمعي[٧]: «نكزه» بالنون: ضربه، ودفعه. قال الجوهري[٨]: اللكز: الضرب على الصدر.

وقال أبو زيد[٩]: في جميع الجسد؛ يعني: أنه يقال له: لكز، واللهز: الضرب بجميع اليدين في الصدر، ومثله عن أبي عبيدة[١٠].

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قتله، وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه: فقد قضيت عليه، ومنه قول الشاعر:

قد عضَّه فقَضَى عليه الأَشْجَعُ[١١]

---

(١) «الصحاح» (٥/ ٩٠١)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٣٣٢).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٠/ ٩٧). (٣) «تهذيب اللغة» (٦/ ١٥٣).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٤٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٣١).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٩٣). وهي قراءة شاذة.

(٦) «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٥١)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٦٦ ـ ١٦٧). والذي عليه أئمة القرّاء أن الذي في مصحف عثمان (فوكزه).

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

(٨) في «الصحاح» (٣/ ٨٩٥). (٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٤٦).

(١٠) في «مجاز القرآن» (٢/ ٩٩).

(١١) قائله: جرير. انظر: «ديوانه» (٢/ ٩١٣).

=

قيل: لم يقصد موسى قتل القبطي، وإنما قصد دفعه، فأتى ذلك على نفسه، ولهذا قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل؛ لأنه[١] لم يكن إذ ذاك مأموراً بقتل الكفار.

وقيل: إن تلك الحالة حالة كفّ عن القتال لكونه مأموناً عندهم، فلم يكن له أن يغتالهم.

ثم وصف الشيطان بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: عدوّ للإنسان يسعى في إضلاله، ظاهر العداوة والإضلال. وقيل: إن الإشارة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى عمل المقتول لكونه كافراً مخالفاً لما يريده الله. وقيل: إنه إشارة إلى المقتول نفسه؛ يعني: أنه من جند الشيطان وحزبه.

[ما وجه استغفار موسى؟]:

ثم طلب من الله سبحانه: أن يغفر له ما وقع منه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ﴾ الله ﴿لَهُۥٓ﴾ ذلك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ووجه استغفاره: أنه لم يكن لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر[٢]، وقيل: إنّه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سُنَّة المرسلين، أو أراد: إني ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر؛ لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلني به.

ومعنى ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾: فاستْر ذلك عليّ لا تُطلع عليه فرعون، وهذا خلاف الظاهر فإنّ موسى عليه السلام ما زال نادماً على ذلك خائفاً من العقوبة بسببه: حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول: إنّي قتلت نفساً لم أومر بقتلها.

كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح[٣].

= وصدره:

أيُـفـايِـشـون وقـد رأوا حُـفَّـاثـهـم

• **الأشجع**: الشجاع من الحيات: القاتل.

يُفايشون: المفايشة: المفاخرة.

الحُفَّاث: حية لا سمّ لها. «شارح الديوان» (٢/ ٩١٣).

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٤٧).

(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤٥٣)، و«جامع البيان» (١٨/ ١٩٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٤٣٥)، والبخاري في «التفسير» رقم (٤٧١٢)، ومسلم رقم =

[تأويل قتل موسى للقبطي بما تقتضيه عصمة الأنبياء]:

وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوّة، وقيل: كان قبل بلوغه سنّ التكليف، وإنه كان إذ ذاك في اثنتي عشرة سنة، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء، ولا شك أنّهم معصومون من الكبائر، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد[١] فليس بكبيرة؛ لأن الوكزة في الغالب لا تقتل.

ثم لما أجاب الله سؤاله، وغفر له ما طلب منه مغفرته ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ هذه الباء يجوز أن تكون باء القسم، والجواب مقدر؛ أي: أقسم بإنعامك[٢] عليّ لأتوبنّ، وتكون جملة: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرماً.

ويجوز أن تكون هذه الباء هي باء السببية[٣] متعلقة بمحذوف؛ أي: اعصمني بسبب ما أنعمتَ به عليّ، ويكون قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ مترتباً عليه، ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى، وتوصّل إلى إنعامه بإنعامه، و «ما» في قوله: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ إما موصولة[٤]، أو مصدرية.

والمراد بما أنعم به عليه: هو ما آتاه من الحُكم والعلم أو بالمغفرة، أو بالجميع، وأراد بمظاهرة المجرمين: إما صحبة فرعون والانتظام في جملته في ظاهر الأمر، أو مظاهرته على ما فيه إثم.

قال الكسائي[٥]، والفرّاء[٦]: ليس قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ خبراً بل هو دعاء؛ أي: فلا تجعلني يا ربّ ظهيراً لهم.

= (١٩٤/٣٢٧)، والترمذي رقم (٢٤٣٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في «التفسير» رقم (٣٠٦)، وابن ماجه رقم (٣٣٠٧) مختصراً، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) «روح المعاني» (٢٠/١٣٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/٢٤٨)، و«النكت والعيون» (٤/٢٤٢).

(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ١٣٤)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٨٦).

(٣) «التبيان» (٢/١٠١٨)، و«الفريد» (٣/ ٧١٠)، و«البحر المحيط» (٨/٢٩٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٣٣).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٣٢).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٤).

قال الكسائي(١): وفي قراءة عبد الله(٢) «فلا تجعلني يا ربّ ظهيراً للمجرمين» وقال الفراء(٣): المعنى: اللَّهُمَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين.

وقال النحاس(٤): إنّ جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام. [٣/٤٥٥].

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ أي: دخل في وقت الصباح في المدينة التي قتل فيها القبطي، و﴿خَآئِفًا﴾ خبر أصبح(٥)، ويجوز أن يكون حالاً.

والخبر ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾، و﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يجوز أن يكون خبراً(٦) ثانياً، وأن يكون حالاً ثانية، وأن يكون بدلاً من خائفاً، ومفعول (يترقب) محذوف.

والمعنى: يترقب المكروه، أو يترقب الفرح ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ «إذا» هي الفُجائية(٧)، والموصول مبتدأ، وخبره يستصرخه؛ أي: فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس يقاتل قبطياً آخر، أراد أن يسخره(٨) ويظلمه كما أراد القبطي الذي قد قتله موسى بالأمس، والاستصراخ الاستغاثة، وهو مِنْ الصراخ، وذلك أن المستغيث يصوّت، ويصرخ في طلب الغوث، ومنه قول الشاعر(٩):

كُنَّا إذا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَزِعٌ كان الجوابَ له قَرْعُ الظَّنَابِيبِ

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾؛ أي: بيِّن الغواية، وذلك أنك تقاتل مَنْ لا تقدر على مقاتلته ولا تطيقه، وقيل: إنما قال له هذه المقالة؛ لأنه تسبب بالأمس لقتل رجل يريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾؛ أي: يبطش بالقبطي الذي هو عدوّ لموسى وللإسرائيلي، حيث لم يكن على دينهما.

وقد تقدّم معنى يبطش، واختلاف القراء فيه ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٣٢).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٣).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٤).
(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٣٢).
(٥) «الفريد» (٣/ ٧١٠)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٨).
(٦) «روح المعاني» (٢٠/ ١٣٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٨)، و«الفريد» (٣/ ٧١٠).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) ذكره القشيري. «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٥٢).
(٩) قائله: سلامة بن جندب. انظر: «ديوانه» (ص١٢٥).

﴿قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ القائل هو الإسرائيلي لما سمع موسى يقول له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ورآه يريد أن يبطش بالقبطي ظن أنه يريد أن يبطش به، فقال لموسى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ فلما سمع القبطي ذلك أفشاه، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلي، هكذا قال جمهور المفسرين[١].

وقيل: إنّ القائل: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ هو القبطي، وكان قد بلغه الخبر مِنْ جهة الإسرائيلي، وهذا هو الظاهر، وقد سبق ذكر القبطي قبل هذا بلا فصل؛ لأنّه هو المراد بقوله: ﴿عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم عنه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرّة الأولى، والمرّة الأخرى هو الذي أفشى عليه، وأيضاً إن قوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يليق صدور مثله إلّا مِنْ كافر، و«إن» في قوله: ﴿إِن تُرِيدُ﴾ هي النافية؛ أي: ما تريد إلّا أن تكون[٢] جباراً في الأرض.

قال الزجاج[٣]: الجبار في اللغة[٤] الذي لا يتواضع لأمر الله، والقاتل بغير حق جبّار.

وقيل: الجبار: الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب[٥]، ولا يدفع بالتي هي أحسن ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ أي: الذين يصلحون بين الناس.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ قيل: المراد بهذا الرجل: حزقيل[٦]، وهو مؤمن[٧] آل فرعون، وكان ابن عم موسى[٨]، وقيل: اسمه شمعون[٩]، وقيل: طالوت[١٠]، وقيل: شمعان[١١].

---

(١) «الوسيط» (٣/ ٣٩٤)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ١٥٤).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٥٣).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٣٧). (٤) وفيه: المتعظم.
(٥) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٠/ ١٤٠).
(٦) قاله الضحاك والكلبي. (٧) قاله الضحاك.
(٨) قاله الكلبي.
(٩) قاله شعيب الجُبائي كما عند ابن جرير (١٨/ ٢٠٠).
(١٠) قاله السُّهيليّ في «التعريف والإعلام» (ص١٣١).
(١١) قاله محمد بن إسحاق.

=

والمراد بأقصى المدينة: آخرها وأبعدها، و﴿يَسْعَىٰ﴾ يجوز أن يكون في محل رفع صفة لرجل، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال؛ لأن لفظ رجل، وإن كان نكرة فقد تخصص بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾؛ أي: يتشاورون في قتلك، ويتآمرون بسببك.

قال الزجاج[١]: يأمر بعضهم بعضاً بقتلك، وقال أبو عبيد[٢]: يتشاورون فيك؛ ليقتلوك: يعني: أشراف قوم فرعون.

قال الأزهري[٣]: ائتمر القوم، وتآمروا؛ أي: أمر بعضهم بعضاً، نظيره قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦] قال النمر بن تولب[٤]:

أرى النَّاس قد أحدثُوا شيمةً وفي كلِّ حادثةٍ يُؤْتَمرْ

﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ في الأمر بالخروج، واللام للبيان[٥]؛ لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفاً من الظالمين مترقباً لحوقهم به، وإدراكهم له، ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: خلّصني من القوم الكافرين، وادفعهم عني، وحل بيني وبينهم. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: نحو مدين قاصداً لها.

قال الزجاج[٦]: أي: سلك في الطريق الذي تلقاء مدين فيها. انتهى. يقال: داره تلقاء دار فلان، وأصله من اللقاء، ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون، ولهذا خرج إليها ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: يرشدني نحو الطريق المستوية إلى مدين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: وصل إليه، وهو الماء الذي يستقون منه.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾؛ أي: وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون مواشيهم، ولفظ الورود[٧] قد يطلق على الدخول في المورد، وقد

= انظر هذه الأقوال في: «النكت والعيون» (٤/ ٢٤٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٤٠).

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٣٧). (٢) في «الغريبين» (١/ ١٠٢).

(٣) في «تهذيب اللغة» (١٥/ ٢٩٤). (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٥٤).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٨٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٤١).

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٣٧).

(٧) «تهذيب اللغة» (٤/ ١٧٣)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٦٥).

يطلق على البلوغ إليه، وإن لم يدخل فيه، وهو المراد هنا، ومنه قول زهير[(١)]:

فلمَّا وردنا الماءَ زُرْقاً جِمامُه[(٢)]

وقد تقدم تحقيق معنى الورود في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقيل: مدين: اسم للقبيلة لا للقرية، وهي غير منصرفة على كلا التقديرين ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾؛ أي: من دون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التي جاء منها.

وقيل: معناه: في موضع[(٣)] أسفل منهم ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾؛ أي: تحبسان[(٤)] أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس، ويخلو بينهما وبين الماء، ومعنى الذود: الدفع والحبس، ومنه قول الشاعر[(٥)]:

أَبيتُ على بَابِ القَوَافي كَأَنَّما أَذودُ بها سِرْباً من الوَحْش نُزَّعا

أي: أحبس وأمنع، وورد الذود بمعنى الطرد، ومنه قول الشاعر[(٦)]:

لقد سَلَبتْ عصاك بنُو تميمٍ فما تدري بأيِّ عَصَى تذودُ

أي: تطرد.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾؛ أي: قال موسى للمرأتين: ما شأنُكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟ والخَطْب[(٧)]: الشأن، قيل: وإنما يقال: ما خطبك لمصاب أو مضطهد أو لمن يأتي بمنكر؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾؛ أي: إن عادتنا[(٨)] التأني حتى يصدر الناس عن الماء، وينصرفوا منه حذراً من مخالطتهم، أو عجزاً عن السقي معهم.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٣ ـ ١٤).

(٢) وعجزه:

.... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيَّم

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٥٦)، و«جامع البيان» (١٨/ ٢٠٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٤٣).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) قائله: سويد بن كراع. «الشعر والشعراء» (٢/ ٦٣٥).

(٦) قائله: جرير. انظر: «ديوانه» (١/ ٣٣٣).

(٧) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٨٦)، و«تهذيب اللغة» (٧/ ٢٤٥).

(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٥٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٤٣).

قرأ الجمهور[١]: «يُصْدِر» بضم الياء، وكسر الدال مضارع أصدر المتعدّي بالهمزة.

وقرأ ابنُ عامر، وأبو عمرو، وأبو جعفر بفتح الياء[٢]، وضم الدال من صدر يصدر لازماً؛ فالمفعول[٣] على القراءة الأولى محذوف؛ أي: يرجعون مواشيهم، والرعاء جمع راع..

قرأ الجمهور «الرِعاء» بكسر الراء[٤]. وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها[٥]. قال أبو الفضل[٦]: هو مصدر أقيم مقام الصفة، فلذلك استوى فيه الواحد، والجمع.

وقرئ: «الرُعاء» بالضم[٧] اسم جمع.

وقرأ طلحة بن مُصرّف «نُسقى» بضم[٨] النون من أسقى.

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ عالي السن، وهذا من تمام كلامهما؛ أي: لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر فلذلك احتجنا[٩]، ونحن امرأتان ضعيفتان أَنْ نسقي الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك، فلما سمع موسى كلامهما؛ سقى لهما رحمة لهما؛ أي: سقى أغنامهما لأجلهما، ثم لما فرغ من السقي لهما ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾؛ أي:

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٢٩٧)، و«جامع البيان» (١٨/ ٢١٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤١)، و«التيسير» (ص١٧١).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «التبيان» (٢/ ١٠١٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٤٤).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٢٩٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٤٤).
قال العكبري في «التبيان» (٢/ ١٠١٩): «وهو اسم جمع راعٍ، وقيل: أصله الرعاة، فحذف التاء وقدَّ الكلمة».

(٥) «التبيان» (٢/ ١٠١٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٩٧). قراءة العشرة بكسر الراء، والرواية عن أبي عمرو شاذة عَنْه وكذلك القراءة بالضم شاذة. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص٢٨٣).

(٦) «روح المعاني» (٢٠/ ١٤٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٩٧).

(٧) «القراءات الشاذة» (ص١١٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٢٩٧).

(٨) «البحر المحيط» (٨/ ٢٩٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٤٤). وهي قراءة شاذة.

(٩) «جامع البيان» (١٨/ ٢١٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٤٥)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٧٤).

انصرف إليه، فجلس فيه، قيل: كان هذا الظل ظل سَمُرة(١) هنالك.

ثم قال لما أصابه من الجهد والتعب منادياً لربه ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾؛ أي: خيرٍ كان ﴿فَقِيرٌ﴾؛ أي: محتاج إلى ذلك، قيل: أراد بذلك الطعام، واللام في ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ معناها: إلى. قال الأخفش(٢): يقال: هو فقير له وإليه.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والمحاملي في «أماليه» من طريق مجاهد عن ابن عباس(٣) في قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [القصص: ١٤] قال: ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ قال: أربعين سنة.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «المُعمَّرين» من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه(٤) قال: الأشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين، والاستواء: ما بين الثلاثين إلى الأربعين، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طرق عنه(٥) أيضاً في قوله: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال: نصف النهار.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراساني، عنه(٦) أيضاً في الآية قال: ما بين المغرب والعشاء.

وأخرج ابن أبي حاتم(٧) عنه أيضاً ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ قال: إسرائيلي ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ قال: قبطي ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ الإسرائيلي ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢١٤) بسند حسن من طريق أسباط عن السُّدي.
وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٥٨) عن ابن مسعود.
• **السَّمُرَة:** وهي شجرة صغيرة الورق، قصيرة الشوك، لها برمة صفراء يأكلها الناس، وهي شجر الطَّلح، والجمع: سَمُرٌ، وسمرات. «القاموس المحيط» (ص٥٢٥)، و«اللسان» (٤/ ٣٧٩).

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣٩٥).

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٧).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٨١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥١).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٩٧).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥٣) من طريق يقوي بعضها بعضاً.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥٣) بسند ضعيف. عطاء الخراساني لم يسمع من ابن عباس.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥٤) بسند صحيح.

القبطي ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ قال: فمات. قال: فكبر ذلك على موسى.

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عنه[١] أيضاً في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ﴾ قال: هو صاحب موسى الذي استنصره بالأمس.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة[٢] قال: الذي استنصره هو الذي استصرخه.

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي[٣] قال: مَنْ قتل رجلين فهو جَبّار، ثم تلا هذه الآية ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم عن عكرمة[٤] قال: لا يكون الرجل جباراً حتى يقتل نفسين.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حُميد، وابن المنذر عن ابن عباس[٥] قال: خرج موسى خائفاً يترقب جائعاً ليس معه زاد حتى انتهى إلى ماء مدين، ﴿عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾، وامرأتان جالستان بشياههما، فسألهما: ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِى حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٌ كَبِيرٌ﴾ قال: فهل قربكما ماء؟ قالتا: لا، إلّا بئر عليها صخرة قد غُطّيت بها لا يطيقها نفر، قال: فانطلقا، فأريانيها، فانطلقتا معه، فقال بالصخرة بيده، فنحاها ثم استقى لهم سجلاً واحداً فسقى الغنم، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ [٣/٣٥٦] فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَىَّ مِنۡ خَيۡرٍ فَقِيرٌ﴾، فسمعتا ما قال: فرجعتا إلى أبيهما، فاستنكر سرعة مجيئهما، فسألهما فأخبرتاه، فقال لإحداهما: انطلقي فادعيه، فأتت. فـ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِى يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ [القصص: ٢٥] فمشت بين يديه، فقال لها: امشي خلفي، فإنّي امرؤ مِنْ عنصر إبراهيم لا يحلّ لي أن أرى منك ما حرّم الله عليّ وأرشديني الطريق

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥٧) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥٧) من طريق الشيباني، به.

(٣) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠١) إلى ابن المنذر وابن جرير.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ١٩٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٣٦٤) من طريق يزيد بن هارون، به.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٥٨).

(٥) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٤).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٥ ـ ٢٦] قال لها أبوها: ما رأيت من قوّته وأمانته؟ فأخبرته بالأمر الذي كان، قالت: أما قوّته فإنّه قلب الحجر وحده، وكان لا يقلبه إلّا النفر. وأما أمانته، فقال: امشي خلفي، وأرشديني الطريق؛ لأني امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لي منك ما حرّمه الله. قيل لابن عباس: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما وأوفاهما.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في «المُصنّف»، وعبد بن حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه عن عمر بن الخطاب[1] قال: إن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أُمَّة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلّا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين، قال: ما خطبكما؟ فحدّثتاه، فأتى الحجر فرفعه وحده، ثم استقى، فلم يستق إلّا ذَنوباً واحداً حتى رويت الغنم، فرجعت المرأتان إلى أبيهما، فحدّثتاه، وتولّى موسى إلى الظلّ، فقال: ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير.

قال: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ [القصص: ٢٥] واضعةً ثوبها على وجهها ليست بسلفع[2] من النساء خرّاجة ولاجة ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾ [القصص: ٢٥] فقام معها موسى، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فإنّي أكره أن يصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك، فلما انتهى إلى أبيها قصّ عليه، فقالت إحداهما: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين، قال: يا بُنية ما علمك بأمانته وقوّته؟ قالت: أما قوّته فرفعه الحجر ولا يطيقه إلّا عشرة رجال، وأما أمانته فقال: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك، فتصف لي جسدك فزاده ذلك رغبة فيه. فـ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ إلى قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦٤ ـ ٢٩٦٦)، والحاكم (٢/ ٤٠٧) وصحّحه ووافقه الذهبي.
وقال ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٤٥٠): «إسناده صحيح».

(٢) **السلفع** من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريئة السليطة، ومن النوق: الشديدة. «الصحاح» (٣/ ١٢٣١).

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]؛ أي: في حسن الصحبة، والوفاء بما قلت ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ [القصص: ٢٨] قال: نعم. قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٨] فزوَّجه، وأقام معه يكفيه، ويعمل في رعاية غنمه وما يحتاج إليه، وزوجه صفورة وأختها شرفاً، وهما اللتان كانتا تذودان.

قال ابن كثير[١] بعد إخراجه لطرق من هذا الحديث: إن إسناده صحيح. والسَلْفع من النساء: الجريئة السليطة.

وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٢] في قوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ قال: ورد الماء حيث ورد، وإنه لتتراءى خضرة البقل في بطنه مِنْ الهزال.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٣] قال: خرج موسى من مصر إلى مدين، وبينه وبينها ثمان ليالٍ، ولم يكن له طعام إلّا ورق الشجر، وخرج حافياً، فما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عنه[٤] أيضاً قال: ﴿تَذُودَانِۖ﴾: تحبسان غنمهما حتى ينزع الناس، ويخلو لهما البئر.

وأخرج سعيد بن منصور، وابنُ أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والضياء في «المختارة» عنه[٥] أيضاً قال: لقد قال موسى: ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير، وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شقّ تمرة، ولقد لصق بطنه بظهره من شدّة الجوع.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٦] أيضاً قال: ما سأل إلّا الطعام.

---

(١) في تفسيره (١٠/ ٤٥٠).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦١) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦١ ـ ٢٩٦٢) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦٢) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢١٦)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ١٥٢ رقم ١٥٠).
(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٧).

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم عنه[١] أيضاً قال: سأل فلقاً من الخبز يشدّ بها صلبه من الجوع.

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ
لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ
إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ
أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ
وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي
وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ
مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ
ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن
شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا
تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ
جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا
فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ في الكلام حذف يدل عليه السياق.

قال الزجاج[٢]: تقديره: فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدّثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل: الصغرى أَنْ تدعوه له، فجاءته.

وذهبُ أكثرُ المفسرين[٣] إلى أنهما ابنتا شعيب، وقيل: هما ابنتا أخي شعيب،

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٦).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٤٠).
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ١٤٦)، و«الوسيط» (٣/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٦٠).

وأنّ شعيباً كان قد مات. والأوّل أرجح[١]، وهو ظاهر القرآن.

ومحلّ ﴿تَمْشِى﴾ النصب[٢] على الحال من فاعل جاءت، ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ حال أخرى؛ أي: كائنةً على استحياء حالتي المشي والمجيء لا عند المجيء فقط.

وجملة ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ مستأنفة جواب سؤال مُقَدَّر، كأنه قيل: ماذا قالت له لما جاءته؟ ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾؛ أي: جزاء سقيك لنا. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ القصص مصدر سُمّي به المفعول؛ أي: المقصوص؛ يعني: أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطيّ إلى عند وصوله إلى ماء مدين ﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: فرعون، وأصحابه؛ لأنّ فرعون لا سلطان له على مدين.

[إشكالات الرازي في تأويل إجابة موسى لدعوة والد الفتاتين]:

وللرازي[٣] في هذا الموضع إشكالات باردة جدّاً لا تستحق أَنْ تذكر في تفسير كلام الله ﷻ، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلاً عَنْ الكامل، وأشفّ ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعلّلة بالجزاء لما فعله من السقي؟ ويجاب عنه بأنه اتبع سُنَّة الله في إجابة دعوة نبيّ من أنبياء الله، ولم تكن تلك الإجابة لأجل[٤] أخذ الأجر على هذا العمل، ولهذا ورد أنه لما قدّم إليه الطعام قال: إنَّا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً. ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ القائلة هي التي جاءته؛ أي: استأجره ليرعى لنا الغنم، وفيه دليل على أنّ الإجارة كانت عندهم مشروعة.

---

(١) قال الألوسي في «روح المعاني» (٢٠/ ١٤٨): «وأنت تعلم أنَّ هذا وأمثاله مما تقدم مما لا يقال من قِبل الرأي، فالمدار في قبول شيء من ذلك خبرٌ يعوَّل عليه، والأخبار التي وقفنا عليها في هذا المطلب مختلفةٌ ولم يتميز عندنا ما هو الأرجح فيما بينها، وكأني بل تعوِّل على المشهور الذي عليه أكثر المفسرين، وهو أن أباهما على الحقيقة شعيبٌ عليه السلام إلى أن يظهر لك ما يوجب العدول عنه».

وقال ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٢٤): «وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حُجَّتُه، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣]».

(٢) «الفريد» (٣/ ٧١١)، و«التبيان» (٢/ ١٠١٩).

(٣) في «تفسيره» (٢٤/ ٢٤١). (٤) «روح المعاني» (٢٠/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

[اتفق العلماء على مشروعية الإجارة]:

وقد اتفق[١] على جوازها ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصمّ فإنه عن سماع أدلتها أصمّ.

وجملة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى؛ أي: إنّه حقيق باستئجارك له لكونه جامعاً بين خصلتي القوّة، والأمانة.

[ومشروعية عرض الولي المرأة على الرجل الصالح]:

وقد تقدّم في المرويّ عن ابن عباس، وعمر: أَنّ أباها سألها عن وصفها له بالقوّة، والأمانة، فأجابته بما تقدّم قريباً ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾ فيه مشروعية عَرْض وليّ المرأة لها على الرجل، وهذه سُنَّة ثابتة في الإسلام، كما ثبت مِنْ عرض[٢] عمر لابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، والقصة معروفة، وغير ذلك مما وقع في أيام الصحابة أيام النبوّة، وكذلك ما وقع من عرض[٣] المرأة لنفسها على رسول الله ﷺ. ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾؛ أي: على أن تكون أجيراً لي ثماني سنين.

قال الفراء[٤]: يقول: على أن تجعل ثوابي أن ترعى غنمي ثماني سنين، ومحل ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ النصب[٥] على الحال، وهو مضارع أجرته، ومفعوله الثاني محذوف؛ أي: نفسك «و﴿ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ﴾ ظرف. قال المبرد: يقال: أجرت داري[٦] ومملوكي غير ممدود وممدوداً، والأوّل أكثر. ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾؛ أي: إنْ أتممت ما استأجرتك عليه من الرعي عشر سنين فمن عندك؛ أي: تفضّلاً منك لا إلزاماً منّي لك، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام، موكولاً إلى المروءة.

ومحل ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ الرفع على تقدير مبتدأ؛ أي: فهي من عندك.

---

(١) «المغني» (٨/ ٧)، و«الوسيط» للغزالي (٤/ ١٥٤)، و«مواهب الجليل» (٧/ ٤٩٦)، و«البناية في شرح الهداية» (٩/ ٣٣٧).

(٢) أخرجه أحمد، والبخاري رقم (٥١٢٢)، والنسائي (٦/ ٨٣)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٣٠٢).

(٣) أخرجه أحمد رقم (٢٢٧٩٦)، والبخاري رقم (٥١٢١)، ومسلم رقم (١٤٢٥) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٥).

(٥) «التبيان» (٢/ ١٠١٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٦٠)، و«الفريد» (٣/ ٧١١).

(٦) انظر: «اللسان» (٤/ ١٠ ـ ١١).

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ﴾ بإلزامك إتمام العشرة الأعوام، واشتقاق المشقة مِنْ الشقّ[١]؛ أي: شق ظنّه نصفين، فتارةً يقول: أطيقُ، وتارة يقول: لا أطيق.

ثم رغبه في قبول الإجارة، فقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حسن الصحبة والوفاء، وقيل: أراد الصلاح على العموم، فيدخل صلاح المعاملة في تلك الإجارة تحت الآية دخولاً أوليّاً، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضاً للأمر إلى توفيق الله ومعونته.

ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى فـ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ﴾ واسم الإشارة[٢] مبتدأ، وخبره ما بعده، والإشارة إلى ما تعاقدا عليه.

[المراد بالأجلين]:

وجملة ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ شرطية، وجوابها: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ﴾، والمراد بالأجلين: الثمانية الأعوام، والعشرة الأعوام، ومعنى ﴿قَضَيْتُ﴾: وفيت به وأتممتُه، والأجلين مخفوض بإضافة أيّ إليه، وما زائدة[٣].

وقال ابن كيسان[٤]: «ما» في موضع خفض بإضافة أيّ إليها، و«الأجلين» بدل منها، وقرأ الحسن[٥]: «أَيْما» بسكون الياء، وقرأ ابن مسعود[٦] «أيّ الأجلين ما قضيتُ».

ومعنى ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ﴾: فلا ظُلم عليّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين؛ أي: كما لا أطالب [٣/٣٥٧] بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطالب بالنقصان على العشرة.

وقيل: المعنى كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام، وهذا أظهر. وأصل العدوان: تجاوزُ الحد في غير ما يجب.

قال المبرد[٧]: وقد علم موسى أنّه لا عدوان عليه إذا أتمهما، ولكنه جمعهما؛ ليجعل الأوّل كالأتمّ في الوفاء.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٠/ ١٦١)، وانظر: «تهذيب اللغة» (٨/ ٣٢٣)، و«الصحاح» (٤/ ١٥٠٢).
(٢) «التبيان» (٢/ ١٠١٩)، و«الفريد» (٣/ ٧١١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٦٢).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٧١).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٥٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠٠).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة. وهي قراءة شاذة ومخالفة للرسم.
(٧) «الوسيط» (٣/ ٣٩٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٦٢).

قرأ الجمهور[(١)] «عُدوان» بضم العين. وقرأ أبو حيوة بكسرها[(٢)] ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ أي: على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا شاهد وحفيظ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شيء من ذلك.

قيل: هو من قول موسى، وقيل: من قول شعيب، والأوّل أولى لوقوعه في جملة كلام موسى.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ هو أكملهُما، وأوفاهما، وهو العشرة الأعوام، كما سيأتي آخر البحث، والفاء فصيحة[(٣)].

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ إلى مصر، وفيه دليلٌ على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء.

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾؛ أي: أبصر مِنْ الجهة التي تلي الطور ناراً.

وقد تقدّم تفسير هذا في سورة طه مستوفًى.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ وهذا تقدّم تفسيره أيضاً في سورة طه، وفي سورة النمل.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ قرأ الجمهور[(٤)] بكسر الجيم، وقرأ حمزة، ويحيى بن وثاب بضمها، وقرأ عاصم، والسلمي، وذرّ بن حبيش بفتحها[(٥)].

قال الجوهري[(٦)]: الجِذوة والجُذوة، والجَذوة الجمرة، والجمع جِذى، وجُذي، وجَذى.

قال مجاهد[(٧)]: في الآية أنّ الجذوة: قطعة من الجمر في لغة جميع العرب.

وقال أبو عبيدة[(٨)]: هي القطعة الغليظة من الخشب كأن في طرفها ناراً، ولم يكن، ومما يؤيد أن الجذوة الجمرة قول السلمي:

وبُدِّلَت بعد المسكِ والبَانِ شِقْوةٌ   دُخان الجَذَا في رَأْسِ أشمطَ شَاحبِ

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٠٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٦٢).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠٠).
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ١٧٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٩١).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٣٠١)، و«التيسير» (ص١٧١)، و«النشر» (٢/ ٣٤١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٧٢). وهي ثلاث قراءات متواترة.
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) في «الصحاح» (٦/ ٢٣٠٠).
(٧) ذكره الجوهري في «الصحاح» (٦/ ٢٣٠٠).
(٨) في «مجاز القرآن» (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣).

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾؛ أي: تستدفئون بالنار ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾؛ أي: أتى النار التي أبصرها، وقيل: أتى الشجرة، والأوّل أولى لعدم تقدّم الذكر للشجرة.

﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾: «من» لابتداء الغاية، والأيمن صفة للشاطئ، وهو من اليُمن، وهو البركة، أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى؛ أي: الذي يلي يمينه دون يساره، وشاطئ الوادي: طرفُه، وكذا شطه. قال الراغب[١]: وجمع الشاطئ أشطاء.

وقوله: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ متعلق بنودي، أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ، و﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدل اشتمال[٢] من شاطئ الواد؛ لأنّ الشجرة كانت نابتةً على الشاطئ.

وقال الجوهري[٣]: يقول: شاطئ الأودية، ولا يجمع.

قرأ الجمهور «في البُقعة» بضم[٤] الباء، وقرأ مسلمة، والأشهب العقيلي بفتحها[٥]، وهي لغة حكاها أبو زيد ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ أَنْ هي المفسرة[٦]، ويجوز أن تكون هي المخففة[٧] من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وجملة النداء مفسرة له، والأوّل أولى.

قرأ الجمهور[٨] بكسر همزة «إني» على إضمار القول، أو على تضمين النداء معناه . وقُرئ بالفتح[٩]، وهي قراءة ضعيفة.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ معطوف على ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وقد تقدّم تفسير هذا، وما بعده في طه، والنمل، وفي الكلام حذف، والتقدير: فألقاها، فصارت ثعباناً، فاهتزت ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ في سرعة حركتها مع عظم جسمها ﴿وَلَّىٰ

---

(١) في «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٥٥).
(٢) «الفريد» (٣/ ٧١٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٧٣).
(٣) انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٣٧).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٣٠١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٧٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٧٤).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠١).
(٦) «التبيان» (٢/ ١٠٢٠)، و«الفريد» (٣/ ٧١٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٧٤).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) «البحر المحيط» (٨/ ٣٠٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤٢)، و«التيسير» (ص١٧٢)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٧٦).
(٩) «البحر المحيط» (٨/ ٣٠٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٧٤). المتواتر كسر الهمزة، وفتحها شاذ.

مُدْبِرًا﴾؛ أي: منهزماً، وانتصاب[1] (مُدْبِراً) على الحال وقوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ في محل نصب أيضاً على الحال: أي: لم يرجع ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ قد تقدّم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده، وكذلك قوله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ جناح الإنسان: عَضُده، ويقال لليد كلها: جناح؛ أي: اضمم إليك يديك المبسوطتين؛ لتتقي بهما الحية كالخائف الفزع، وقد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات:

الأولى: اسلك يدك في جيبك.

والثانية: واضمم إليك جناحك.

والثالثة: وأدخل يدك في جيبك.

ويجوز أن يراد بالضم: التجلّد[2] والثبات عند انقلاب العصا ثعباناً.

ومعنى ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾: من أجل الرَّهَب، وهو الخوف.

قرأ الجمهور[3]: «الرَّهَب» بفتح الراء والهاء، واختار هذه القراءة أبو عبيد[4]، وأبو حاتم[5].

وقرأ حَفْص، والسلمي، وعيسى بن عمر، وابن أبي إسحاق بفتح[6] الراء، وإسكان الهاء.

وقرأ ابن عامر، والكوفيون إلّا حفصاً بضم الراء، وإسكان الهاء[7].

وقال الفراء[8]: أراد بالجناح: عصاه، وقال بعض أهل[9] المعاني: الرهب: الكمّ بلغة حمير، وبني حنيفة.

قال الأصمعي[10]: سمعت أعرابيّاً يقول لآخر: أعطني ما في رهبك، فسألته عن الرهب، فقال: الكم.

---

(١) «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٥٤٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٧٩).

(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ١٧٧). (٣) «التيسير» (ص١٧١)، و«النشر» (٢/ ٣٤١).

(٤)(٥) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٧٧).

(٦) «التيسير» (ص١٧١)، و«النشر» (٢/ ٣٤١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠٣).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة. (٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٦).

(٩) «زاد المسير» (٦/ ٢٢٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٧٨).

(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٧٨).

فعلى هذا يكون معناه: اضمم إليك يدك، وأخرجها من الكمّ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾؛ أي: حُجتان نيرتان ودليلان واضحان، قرأ الجمهور «فذانِك» بتخفيف[١] النون، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بتشديدها[٢]، قيل: والتشديد لغة قريش.

وقرأ ابن مسعود، وعيسى بن عمر، وشبل، وأبو نوفل بياء[٣] تحتية بعد نون مكسورة، والياء بدل من إحدى النونين، وهي لغة هذيل، وقيل: لغة تميم.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ متعلق بمحذوف؛ أي: كائنان منه، وكذلك قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ متعلق بمحذوف؛ أي: مُرسلان، أو واصلان إليهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾: متجاوزين الحدّ في الظلم، خارجين عن الطاعة أبلغ خروج، والجملة تعليل لما قبلها.

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب[٤] في قوله: ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قال: جاءت مستترةً بكمّ درعها على وجهها.

وأخرجه ابن المنذر[٥] عن أبي الهذيل موقوفاً عليه.

وأخرج ابن عساكر[٦] عن أبي حازم قال: لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء، فقال له شعيب: كُلْ، قال موسى: أعوذ بالله، قال: ولم؟ ألست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً عما سقيتُ لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً مِنْ عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، قال: لا والله، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نَقري الضيف، ونُطعم الطعام، فجلس موسى فأكل.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٠٣)، و«التيسير» (ص١٧١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٧٩)، و«النشر» (٢/ ٢٤٨).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) «القراءات الشاذة» (ص١١٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠٣). القراءتان الأولان متواترتان، وقراءة ابن مسعود شاذة.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢١٨، ٢١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦٤) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٧).

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٢٣/ ٧٨).

وأخرج ابن أبي حاتم[(١)] عن مالك بن أنس: أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قصّ عليه القصص.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي عُبيدة بن عبد الله بن مسعود[(٢)] قال: كان صاحب موسى أثرون ابن أخي شعيب النبي.

وأخرج ابن جرير[(٣)] عن ابن عباس قال: الذي استأجر موسى يثربي صاحب مدين.

وأخرج ابن المنذر، وابن مردويه عنه[(٤)] قال: كان اسم ختن موسى يثربي.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الحسن[(٥)] قال: يقول أناس: إنه شعيب، وليس بشعيب، ولكنه سيد الماء يومئذٍ.

وأخرج ابن ماجه، والبزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن [عتبة بن النُذَّر][(٦)] السلمي قال: «كُنّا عند رسول الله ﷺ، فقرأ سورة ﴿طسٓمٓ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى قال: إن موسى أجَّر نفسه ثماني سنين، أو عشراً على عفة فرجه وطعام بطنه، فلما وفّى الأجل قيل: يا رسول الله أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما وأوفاهما، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت غنمه» الحديث[(٧)] بطوله وفي إسناده مسلمة بن علي الخشني[(٨)] الدمشقي البلاطي، ضعّفه الأئمة.

وقد روي من وجه آخر، وفيه نظر. وإسناده عند ابن أبي حاتم[(٩)] هكذا:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦٦) بسند ضعيف.

(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٧).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦٦) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٢٣) بسند ضعيف.

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٧).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦٦) بسند ضعيف.

(٦) كذا في المخطوط وصوابه: عتبة بن الندر. «تهذيب التهذيب» (٢/ ٤٣١)، و«تهذيب الكمال» (١٩/ ٣٢٤).

(٧) أخرجه ابن ماجه رقم (٢٤٤٤)، والبزار في «مسنده» رقم (٢٢٤٦ ـ «كشف»)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٠ ـ ٢٩٧١)، والطبراني (ج١٧ رقم ٣٣٢، ٣٣٣). وهو حديث ضعيف جدّاً.

(٨) قال الحافظ ابن حجر: «متروك». «تقريب التهذيب» رقم (٦٧٠٦).

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٠). وهو حديث ضعيف جدّاً.

حدثنا أبو زرعة عن يحيى بن عبد الله بن بكير، حدّثني ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن النُّذَّر السلمي صاحب رسول الله ﷺ فذكره. وابن لهيعة ضعيف، وينظر في بقية رجال السند.

وأخرج ابن جرير[١] عن أنس طرفاً مِنْه موقوفاً عليه.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن المنذر، وابن مردويه مِنْ طرق عن ابن عباس[٢]: أنه سئل: أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل.

وأخرج البزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه عنه[٣] نحوه.

وقوله: «إن رسول الله إذا قال فعل» فيه نظر، فإنّ موسى لم يقل إنه سيقضي أكثر الأجلين بل قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾.

وقد روى عن رسول الله ﷺ: أن موسى قضى أتمّ الأجلين من طرق.

وأخرج الخطيب في «تاريخه»[٤] عن أبي ذرّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى؟ فقل: خيرهما، وأبرهما، وإن سئلت أيّ المرأتين تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت فقالت: يا أبت استأجره».

وأخرج ابن مردويه[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: يا محمد إن سألك اليهود أيّ الأجلين قضى موسى؟ فقل: أوفاهما، وإن سألوك أيهما تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما».

وأخرج البزار، وابن أبن حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه. قال

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٣٧، ٢٣٨)، وابن عساكر في «تاريخ مدينة دمشق» (٦١/ ٤٠) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٣)، والبخاري رقم (٢٦٨٤).

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٤٥ ـ «كشف»)، وأبو يعلى رقم (٢٤٠٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٣٦، ٢٣٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٠)، والحاكم (٢/ ٤٠٧) بسند صحيح.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٧): «رجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان، وهو ثقة».

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٢/ ١٢٨) بسند ضعيف.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٠).

السيوطي(١) بسندٍ ضعيف عن أبي ذرّ(٢): «أن النبي ﷺ سئل: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرّهما، وأوفاهما، قال: وإن سئلت أيّ المرأتين تزوّج؟ فقل: الصغرى منهما» قال البزار: لا نعلم يُروى عن أبي ذر إلّا بهذا الإسناد.

وقد رواه ابن أبي حاتم(٣) من حديث عويد بن أبي عمران، وهو ضعيف. وأما روايات أنه قضى أتمّ الأجلين فلها طرق يقوّي بعضها بعضاً.

وأخرج ابن أبي حاتم(٤) من طريق السدّي قال: قال ابن عباس: لما قضى موسى الأجل سار بأهله، فضلّ الطريق، وكان في الشتاء فُرفعت له نار، فلما رآها ظنّ أنها نار، وكانت من نور الله ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فإن لم أجد خبراً آتيكم بشهاب قبس ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ من البرد.

وأخرج ابن أبي حاتم(٥) عنه ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ لعلي أجد من يدلني على الطريق، وكانوا قد ضلُّوا الطريق.

وأخرج ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم [٣/٣٥٨] عنه(٦) أيضاً في قوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ قال: شهاب.

وأخرج ابن أبي حاتم(٧) عنه أيضاً في قوله: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ﴾ قال: كان النِّداء من السماء الدنيا.

وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضي الله عنه.

---

(١) في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٠).

(٢) أخرجه البزار رقم (٣٩٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦٦)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٥٤٣٠) بسند ضعيف.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٣، ٢٠٤): «وفي إسناد الطبراني عويد بن أبي عمران ضعّفه ابن معين وغيره، ووثقه ابن حبان، وبقية رجال الطبراني ثقات». وقال في (٧/ ٨٨): «إسناده حسن».

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٦٦) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٨٤٢، ٢٨٤٣) سند ضعيف. السُّدي لم يسمع من ابن عباس.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٢) بسند ضعيف كسابقه.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٢) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٢) بسند ضعيف.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود(١) قال: ذُكرتْ لي الشجرة التي أَوى إليها موسى، فَسِرتُ إليها يومي وليلتي حتى صَبّحتها، فإذا هي سَمُرة خضراء تَرِفُّ، فصليت على النبي ﷺ وسلّمت، فأهوى إليها بَعيري وهو جائع، فأخذ منها ملآن فيه فَلَاكه، فلم يستطع أن يُسيغه، فلفَظَه، فصلّيتُ على النبيّ، وسلّمتُ، ثم انصرفت.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس(٢) في قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ قال: يدك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي
لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ
وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا
يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى
يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ
مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

لما سمع موسى قول الله سبحانه: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٣٢] طلب منه سبحانه أن يقوّي قلبه، فـ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٤٣)، والحاكم (٢/ ٥٧٦، ٥٧٧) وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٤٥) بسند ضعيف.

يعني: القبطي الذي وكزه، فقضى عليه ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بها ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾؛ لأنّه كان في لسان موسى حُبْسة كما تقدّم بيانه.

[الفصاحة: لغة واصطلاحاً]:

والفصاحة(١) لغة: الخُلوص، يقال: فصح اللبن، وأفصح فهو: فَصيح؛ أي: خلص مِنْ الرّغوة، ومنه فصح الرجل: جادت لغته، وأفصح: تكلم بالعربية. وقيل: الفصيح: الذي ينطق، والأعجم: الذي لا ينطق.

وأما في اصطلاح أهل البيان(٢) فالفصاحة: خلوص الكلمة عَنْ تنافر الحروف والغرابة، ومخالفة القياس، وفصاحة الكلام: خلوصه مِنْ ضعف التأليف والتعقيد.

وانتصاب ﴿رِدْءًا﴾ على الحال(٣)، والرِّدْء(٤): المعين، من أردأته؛ أي: أعنته، يقال: فلان رِدْء فلان: إذا كان ينصره، ويشدّ ظهره، ومنه قول الشاعر:

ألــم تــر أنَّ أصــرمَ كــان رِدْئــي وخيــرَ النَّــاس فــي قُــلٍّ ومــالِ(٥)

وحُذفت الهمزة تخفيفاً(٦) في قراءة نافع، وأبي جعفر، ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم: أردى على المائة: إذا زاد عليها، فكان المعنى: أرسله معي زيادة في تصديقي، ومنه قول الشاعر:

وأســمَــر خَــطِّــيــاً كــأنَّ كــعــوبَــهُ نوى القَسْب قد أردى ذِراعاً على العَشْر(٧)

وروي البيت في «الصحاح»(٨) بلفظ: قد أرمى، والقسب: الصلب، وهو الثمر اليابس الذي يتفتت في الفم، وهو صلب النواة ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ قرأ عاصم، وحمزة

---

(١) «الصحاح» (١/ ٣٩١)، و«تهذيب اللغة» (٤/ ٢٥٣).
(٢) انظر: «معجم البلاغة العربية» (ص٥١١، ٥١٢).
(٣) «التبيان» (٢/ ١٠٢٠ ـ ١٠٢١)، و«الفريد» (٣/ ٧١٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٨٢).
(٤) «الصحاح» (١/ ٥٢)، و«تهذيب اللغة» (١٤/ ١٦٧).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٨٠).
(٦) «النشر» (١/ ٤١٣ ـ ٤١٤)، و«التيسير» (ص١٧١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠٤). قراءة الجمهور بالهمزة ونافع حذف الهمزة وأبدلها تنوينا في حاله الوصل، وأبدلها ألفاً في حالة الوقف أم أبو جعفر فحذف الهمزة أيضاً وأبدلها ألفاً مدية وصلاً ووقفاً. انظر: «النشر» (١/ ٤١٣).
(٧) «النكت والعيون» (٤/ ٢٥٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٨٠).
(٨) في «الصحاح» (١/ ٢٠١).

«يصدقني» بالرفع[١] على الاستئناف، أو الصفة لردءاً، أو الحال من مفعول أرسله، وقرأ الباقون بالجزم[٢] على جواب الأمر، وقرأ أُبيّ، وزيد بن عليّ: «يصدقوني»[٣]؛ أي: فرعون وملؤه.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ إذا لم يكن معي هارون لعدم انطلاق لساني بالمحاجة ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ أي: نقويك به، فشدّ العضد[٤] كناية عن التقوية، ويقال في دعاء الخير: شدّ الله عضدك، وفي ضدّه: فتّ الله في عَضُدك.

قرأ الجمهور: «عَضُدك» بفتح العين[٥]. وقرأ الحسن، وزيد بن عليّ بضمها[٦]. وروي عَنْ الحسن أيضاً أنه قرأ بضمة[٦] وسكون. وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما[٧].

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: حُجةً وبرهاناً أو تسلطاً عليه، وعلى قومه ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بالأذى، ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة، و﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ متعلق بمحذوف؛ أي: تمتنعان منهم بآياتنا، أو اذهبا بآياتنا. وقيل: الباء للقسم، وجوابه يصلون، وما أضعف هذا القول.

وقال الأخفش[٨]، وابن جرير[٩]: في الكلام تقديم، وتأخير، والتقدير ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ بآياتنا، وأوّل هذه الوجوه أولاها، وفي ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ تبشير لهما وتقوية لقلوبهما ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ البينات: الواضحات الدلالة.

---

(١) «التيسير» (ص١٧١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٨١)، و«النشر» (٢/ ٣٤١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠٤).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «القراءات الشاذة» (ص١١٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠٤).
(٤) «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٨٠)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٧١).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٣٠٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٥٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ١٨٢).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.
(٧) «روح المعاني» (٢٠/ ١٨٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠٤). قراءة الجمهور متواترة وما عداها فشاذة.
(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٨٢).
(٩) في «جامع البيان» (١٨/ ٢٥٣).

وقد تقدّم وجه إطلاق الآيات، وهي جَمْعٌ على العصا، واليد في سورة طه ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾؛ أي: مُخْتلق مكذوب اختلقته مِنْ قبل نفسك ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي جئت به من دعوى النبوّة، أو ما سمعنا بهذا السحر ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: كائناً، أو واقعاً في آبائنا الأوّلين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ يريد نفسه، وإنما جاء بهذه العبارة لئلا يصرّح لهم بما يريده قبل أَنْ يوضح لهم الحُجّة، والله أعلم.

قرأ الجمهور «وقال موسى» بالواو(١)، وقرأ مجاهد، وابن كثير، وابن محيصن «قال موسى» بلا واو(٢)، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة. وقرأ الكوفيون إلا عاصماً «ومَنْ يكون له عاقبة الدار» بالتحتية(٣) على أن اسم يكون عاقبة الدار. والتذكير لوقوع الفصل، ولأنّه تأنيث مجازي، وقرأ الباقون «تكون» بالفوقية(٤)، وهي أوضح من القراءة الأولى، والمراد بالدار هنا: الدنيا، وعاقبتها: هي الدار الآخرة.

والمعنى: لمن تكون له العاقبة المحمودة، والضَمْير في ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للشأن؛ أي: إنّ الشأن أنه لا يُفلح الظالمون؛ أي: لا يفوزون بمطلب خير، ويجوز أَنْ يكون المراد بعاقبة الدار: خاتمة الخير.

وقال فرعون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ تمسك اللعين بمجرّد الدعوى الباطلة؛ مغالطةً لقومه منه. وقد كان يعلم أنه ربه الله ﷻ، ثم رجع إلى تكبره وتجبره، وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾؛ أي: اطبخ لي الطين حتى يصير آجرّاً ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾؛ أي: اجعل لي مِنْ هذا الطين الذي تُوقد عليه حتى يصير آجرّاً صرحاً: أي: قصراً عالياً ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٠٦)، و«التيسير» (ص١٧١)، و«النشر» (٢/ ٣٤١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٧٤).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة. هما قراءتان متواترتان كما قال المؤلف رحمه الله
(٣) «النشر» (٢/ ٢٦٣)، و«التيسير» (ص١٠٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠٢١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٠٦).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

مُوسَىٰ﴾؛ أي: أصعد إليه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ والطلوع والاطلاع واحد، يقال: طلع الجبل، واطلع.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ المراد بالأرض: أرض مصر، والاستكبار التعظم بغير استحقاق؛ بل بالعدوان؛ لأنها لم تكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شُبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: فرعون، وجنوده، والمراد بالرجوع: البعث والمعاد. قرأ نافعٌ وشيبة وابن محيصن وحُميد ويعقوب وحمزة والكسائي: ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ بفتح الياء(١) وكسر الجيم مبنياً للفاعل.

وقرأ الباقون بضم(٢) الياء، وفتح الجيم مبنياً للمفعول، واختار القراءة الأولى أبو حاتم(٣)، واختار القراءة الثانية أبو عبيد(٤) ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ بعد أن عتوا في الكفر وجاوزوا الحدّ فيه.

﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾؛ أي: طرحناهم في البحر.

وقد تقدّم بيان الكلام في هذا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخطاب لنبينا محمد ﷺ؛ أي: انظر يا محمد كيف كان آخر أمر الكافرين حين صاروا إلى الهلاك؟

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: صيّرناهم رؤساء متبوعين مطاعين في الكافرين، فكأنهم بإصرارهم على الكفر، والتمادي فيه يدعون أتباعهم إلى النار؛ لأنهم اقتدوا وسلكوا طريقتهم تقليداً لهم.

وقيل: المعنى: إنه يأتمّ بهم؛ أي: يعتبر بهم مَنْ جاء بعدهم، ويتعظ بما أصيبوا به، والأول أولى.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا ينصرهم أحد ولا يمنعهم مانع من عذاب الله ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾؛ أي: طَرْداً وإبعاداً، أو أمرنا العباد

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٨٤)، و«التيسير» (ص١٧١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٧٤).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٨٤).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٨٤).

بلعنهم؛ فكل مَنْ ذكرهم لعنهم، والأوّل أولى ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ المقبوح: المطرود المُبعدَ.

وقال أبو عبيدة[١]، وابن كيسان[٢]: معناه من المهلكين الممقوتين. وقال أبو زيد[٣]: قبّح الله فلاناً قُبْحاً وقبوحاً: أبعده مِنْ كل خير. قال أبو عمرو[٤]: قَبْحَتُ وجهَه بالتخفيف بمعنى قَبّحتُ بالتشديد، ومثله قول الشاعر:

أَلَا قَبَح اللَّهُ البراجمَ كلَّها وقَبَّح يَربُوعاً وقَبَّح دارِما[٥]

وقيل: المقبوح: المشوّه الخِلْقة والعامل في «يوم» محذوف يفسّره من المقبوحين، والتقدير: وقبحوا يوم القيامة، أو هو معطوف على موضع في هذه الدنيا؛ أي: وأتبعناهم لعنة يوم القيامة، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف؛ أي: ولعنة يوم القيامة، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ يعني: التوراة ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم.

وقيل: من بعد ما أهلكنا فرعون وقومه، وخسفنا بقارون، وانتصاب ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ على أنه مفعول له[٦] أو حال؛ أي: آتيناه الكتاب لأجل يتبصر به الناس، أو حال كونه بصائر للناس يبصرون به الحقَّ، ويهتدون إليه، وينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم من الله رحمهم بها ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هذه النعم فيشكرون الله ويؤمنون به ويجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم [٣/٣٥٩].

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٧] ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ كي يصدقني.

وأخرج ابن أبي حاتم[٨] عنه قال: لما قال فرعون ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ١٠٦). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٨٥).
(٣) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (٤/ ٧٥).
(٤) «تهذيب اللغة» (٤/ ٧٥).
(٥) الشاعر امرؤ القيس. انظر: «ديوانه» (ص١٣٠).
(٦) «التبيان» (٢/ ١٠٢١)، و«الفريد» (٣/ ٧١٨).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٧) بسند صحيح.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٧٨ ـ ٢٩٧٩) بسند ضعيف.

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ قال جبريل: يا ربّ طغى عبدُك، فائذن لي في هلكه، فقال: يا جبريل هو عبدي، ولن يسبقني، له أجل قد أجّلتُه حتّى يجيء ذلك الأجل، فلما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] قال الله: يا جبريل سبقت دعوتك في عبدي، وقد جاء أوان هلاكه.

وأخرج ابن مردويه[١] عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان قالهما فرعون ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ وقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] قال: كان بينهما أربعون عاماً ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥].

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[٢] قال: بلغني أنّ فرعون أوّل مَنْ طبخ الآجُرّ.

وأخرجه ابن المنذر[٣] عن ابن جريج.

وأخرج البزار، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبي سعيد[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أُمَّة، ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مُسِختْ قردةً، ألم تر إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾؟

وأخرجه البزار، وابن جرير، وابن أبي حاتم من وجه آخر عن أبي سعيد[٥] موقوفاً.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٥)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٢٦٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٨٢) بسند صحيح.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٦).

(٤) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٤٨ ـ «كشف»)، والحاكم (٢/ ٤٠٨).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨٨): «رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ورجالهما رجال الصحيح».

(٥) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٤٧ ـ «كشف»)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٨١) موقوفاً. وهو الصحيح.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَـٰكِنَّآ
أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا
وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم
مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ
يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟
بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ
فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ
مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ
يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا
نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ
﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ
ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ هذا شروع في بيان إنزال القرآن؛ أي: وما كنتَ يا محمد بجانب الجبل الغربيّ، فيكون مِنْ حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه، واختاره الزجّاج(١).

وقال الكلبي(٢): بجانب الوادي الغربيّ؛ أي: حيثُ ناجى موسى ربَّه ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: عهدنا إليه، وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ لذلك حتى تقف على حقيقته، وتحكيه من جهة نفسك.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١٤٦).
(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/٤٠١).

وإذا تقرّر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أَنْ يكون بالحضور عندها من نبينا محمد ﷺ، والمشاهدة لها منه، وانتفى[1] بالأدلة الصحيحة أنه لم يتلقّ ذلك من غيره من البشر، ولا علّمه مُعلم منهم كما قدّمنا تقريره؛ تبين أنه من عند الله سبحانه بوحي منه إلى رسوله بواسطة المَلَك النازل بذلك، فهذا الكلام هو على طريقة ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقيل: معنى ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾: إذ كلفناه وألزمناه، وقيل: أخبرناه أنّ أمة محمد ﷺ خير الأمم، ولا يستلزم نفي كونه بجانب الغربي نفي كونه من الشاهدين؛ لأنّه يجوز أن يحضر، ولا يشهد.

قيل: المراد بالشاهدين: السبعون[2] الذين اختارهم موسى للميقات.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾؛ أي: خلقنا أمماً بين زمانك يا محمد وزمان موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ طالت عليهم المُهلة، وتمادى عليهم الأمد، فتغيرت[3] الشرائع والأحكام، وتنوسيت الأديان فتركوا أمر الله، ونسوا عهده، ومثله قوله سبحانه: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

وقد استدلّ بهذا الكلام على أن الله سبحانه قد عهد إلى موسى عهوداً في محمد ﷺ وفي الإيمان به، فلما طال عليهم العُمر، ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود، وتركوا الوفاء بها.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾؛ أي: مُقيماً بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم، وتقصّ عليهم من جهة نفسك يقال: ثوى[4] يثوي ثواء وثوياً فهو ثاوٍ، قال ذو الرُّمة:

لَـقَـدْ كـانَ فـي حَـوْلٍ ثـواء ثـويـتَـهُ   تَـقـضِّـي لُـبـانـاتٍ ويـسـأمُ سـائـمُ[5]

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٠٠)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٢١٠).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٤/ ٢٥٦)، و«تفسير أبي السعود (٥/ ٢٩٧).

(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٠١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٨٧).

(٤) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص١٨١)، و«تهذيب اللغة» (١٥/ ١٦٦).

(٥) انظر: «الدر المصون» (٢/ ٢٧٧ رقم ٨٤٤)، و«شواهد المغني» (٨٧٩).

وقال العجّاج[١]:

فبـاتَ حـيـثُ يـدخـل الـثَّـويّ

يعني: الضيف المُقيم، وقال آخر[٢]:

طـال الـثَّـواء عـلـى رسـوم الـمـنـزلِ

﴿تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: تقرأ على أهل مدين آياتنا، وتتعلم منهم، وقيل: تذكرهم بالوعد، والوعيد، والجملة في محل نصب[٣] على الحال، أو خبر ثان، ويجوز أن تكون هذه الجملة هي الخبر، وثاوياً حال.

وجعلها الفراء[٤] مستأنفة كأنّه قيل: وها أنت تتلو على أمتك ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ أي: أرسلناك إلى أهل مكة، وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها.

قال الزجّاج[٥]: المعنى: أنّك لم تشاهد قصص الأنبياء ولا تليت عليك، ولكنا أوحيناها إليك، وقصصناها عليك ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾؛ أي: وما كنت يا محمد بجانب الجبل المُسمّى بالطور إذ نادينا موسى؛ لما أتى إلى الميقات مع السبعين. وقيل: المنادى: هو أمة محمد ﷺ.

قال وهب[٦]: وذلك أنّ موسى لما ذكر الله له فضل محمد وأمته قال: يا رب أرنيهم، فقال الله: إنّك لن تدركهم، وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم، قال: بلى يا ربّ، فقال الله: يا أمة محمد، فأجابوا من أصلاب آبائهم.

فيكون معنى الآية على هذا: ما كنتَ يا محمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٣٠٣).

(٢) قائله: عنترة. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٦).

وعجزه:

.... بـيـن الـلّـكـيـك وبـيـن ذات الـحَـرْمـل

(٣) «التبيان» (٢/ ١٠٢٢)، و«الفريد» (٣/ ٧١٨).

(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٦).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٤٧).

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٢١١)، والقرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٨٨).

وسيأتي ما يدلّ على هذا ويقوّيه، ويرجّحه في آخر البحث إن شاء الله.

﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: ولكنْ فعلنا ذلك رحمةً منَّا بكم، وقيل: ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم، وقيل: علمناك، وقيل: عرفناك، قال الأخفش[١]: هو منصوب؛ يعني: ﴿رَّحْمَةً﴾ على المصدر؛ أي: ولكن رحمناك رحمةً.

وقال الزجاج[٢]: هو مفعول من أجله؛ أي: فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة. قال النحاس[٣]: أي: لم تشهد قصص الأنبياء ولا تُليت عليك، ولكن بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة.

وقال الكسائي[٤]: هو خبر لكان مقدّرة؛ أي: ولكن كان ذلك رحمة، وقرأ عيسى بن عمر، وأبو حيوة: «رحمةٌ» بالرفع[٥] على تقدير: ولكن أنت رحمة.

وقال الكسائي[٦]: الرفع على أنها اسم كان المقدّرة، وهو بعيد إلّا على تقدير أنها تامة.

واللام في ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بالفعل المقدّر على الاختلاف في تقديره، والقوم: هم أهل مكة، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله ﷺ.

وجملة: «ما أتاهم» إلخ، صفة لقوم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: يتعظون بإنذارك ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لولا هذه هي الامتناعية، وأن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء، وجوابها محذوف.

قال الزجاج[٧]: وتقديره ما أرسلنا إليهم رُسلاً: يعني: أَنّ الحامل على إرسال الرسل هو إزاحة عللهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

---

(١) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٥٣). (٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٤٧).
(٣) في «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ١٨١).
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٣٩).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٣١٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٨٩)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٠٢). القراءة بالرفع شاذة.
(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٣١٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٣٩).
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٤٧).

وقدّره ابن عطية(١) لعاجلناهم بالعقوبة، ووافقه على هذا التقدير الواحدي(٢) فقال: والمعنى: لولا أنّهم يحتجون بترك الإرسال إليهم، لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم، وقوله: ﴿فَيَقُولُوا﴾ عطف على ﴿تُصِيبَهُم﴾، ومن جملة ما هو في حيز لولا؛ أي: فيقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ ولولا هذه الثانية هي التحضيضية؛ أي: هلا أرسلت إلينا رسولاً من عندك؟ وجوابها هو: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ وهو منصوب(٣) بإضمار أن لكونه جواباً للتحضيض.

والمراد بالآيات: الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة، وإنما عطف القول على تصيبهم لكونه هو السبب للإرسال، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول، وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها هي السبب لإرسال الرسل بواسطة القول: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بهذه الآيات.

ومعنى الآية: أنّا لو عذبناهم لقالوا: طال العهد بالرسل، ولم يرسل الله إلينا رسولاً، ويظنون أن ذلك عذرٌ لهم، ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل، ولكنا أكملنا الحجة وأزحنا العلة وأتممنا البيان(٤) بإرسالك يا مُحمد إليهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: فلما جاء أهل مكة الحقّ من عند الله، وهو محمد ﷺ، وما أُنزل عليه من القرآن قالوا تعنتاً منهم، وجدالاً بالباطل: هلّا أوتي هذا الرسول مثل ما أوتي موسى من الآيات التي مِنْ جملتها التوراة المنزلة عليه جملة واحدة؟ فأجاب الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا القول أو من قبل ظهور محمد.

والمعنى: أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد، وجملة: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم وعنادهم، والمراد بقولهم: ﴿سِحْرَانِ﴾: موسى(٥) ومُحمد، والتظاهر: التعاون؛ أي: تعاونا على السحر.

---

(١) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٧١). (٢) في «الوسيط» (٣/ ٤٠٢).

(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٠٨)، و«الفريد» (٣/ ٧١٩).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٩٠)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٢١٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٠٨ ـ ٢١٠).

(٥) قاله ابن عباس والحسن. «النكت والعيون» (٤/ ٢٥٦).

والضمير في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ﴾ لكفار قريش. وقيل: هو لليهود[١]، والأوّل أولى، فإنّ اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم، إلّا أن يراد مَنْ أنكر نبوّة موسى كفرعون وقومه، فإنهم وصفوا موسى وهارون بالسحر، ولكنهم ليسوا من اليهود.

ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى ومن كفر بمحمد، فإن الذين كفروا بموسى [٣/٣٦٠] وصفوه بالسحر، والذين كفروا بمحمد وصفوه أيضاً بالسحر.

وقيل: المعنى: أولم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد؟ قرأ الجمهور[٢] «ساحران»، وقرأ الكوفيون[٣] «سحران» يعنون: التوراة، والقرآن، وقيل: الإنجيل والقرآن. قال بالأوّل الفراء[٤]. وقال بالثاني أبو زيد[٥].

وقيل: إن الضمير في ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ﴾ لليهود، وأنّهم عنوا بقولهم: «ساحران» عيسى[٦]، ومحمداً ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: بكلٍّ من موسى، ومحمد، أو من موسى، وهارون، أو من موسى، وعيسى على اختلاف الأقوال، وهذا على قراءة الجمهور، وأما على القراءة الثانية فالمراد: التوراة، والقرآن، أو الإنجيل، والقرآن. وفي هذه الجملة تقرير لما تقدّمها من وصف النبيين بالسحر أو من وصف الكتابين به وتأكيد لذلك.

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقول لهم قولاً يَظْهر به عجزُهم، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾؛ أي: قل لهم يا محمد: فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن، و﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب الأمر، وقد جزمه جمهور[٧] القراء لذلك.

---

(١) «النكت والعيون» (٤/٢٥٦)، و«جامع البيان» (١٨/٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٢) «التيسير» (ص١٧٢)، و«النشر» (٢/٢٤١ ـ ٢٤٢)، و«البحر المحيط» (٨/٣١٢).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/٣٠٦).
(٥) «روح المعاني» (٢٠/٢١٠)، و«النكت والعيون» (٤/٢٥٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/٢٩١).
(٦) «البحر المحيط» (٨/٣١١).
(٧) «البحر المحيط» (٨/٣١٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/٢٣٩).

وقرأ زيد بن عليّ[١] برفع ﴿أَتَّبِعُهُ﴾ على الاستئناف؛ أي: فأنا أتبعه. قال الفراء[٢]: إنّه على هذه القراءة صفة للكتاب، وفي هذا الكلام تهكم به. وفيه أيضاً دليل على أن قراءة الكوفيين[٣] أقوى من قراءة الجمهور؛ لأنه رجع الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين.

ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: إنْ كنتم فيما وصفتم به الرسولين أو الكتابين صادقين ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾؛ أي: لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين، وجواب الشرط ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: آراءهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة بلا حُجة ولا برهان.

وقيل: المعنى: فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به، وتعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا أحد أضلّ منه بل هو الفرد الكامل في الضلال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر، وتكذيب الأنبياء، والإعراض عن آيات الله. ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ قرأ الجمهور «وصّلْنا» بتشديد الصاد[٤]، وقرأ الحسن بتخفيفها[٥]، ومعنى الآية: أتبعنا بعضَه بعضاً، وبعثنا رسولاً بعد رسول.

وقال أبو عبيدة[٦]، والأخفش[٧]: معناه: أتممنا.

وقال ابن عيينة[٨]، والسديّ: بيَّنَّا.

وقال ابن زيد[٩]: وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٢١٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣١٢). وهي قراءة شاذة.
(٢) في «معاني القرآن» (٢/ ٣٠٧).
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٣١٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢١٢). وهي قراءة كلمة «سحران».
(٤) «زاد المسير» (٦/ ٢٢٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٩٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣١٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢١٦).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣١٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢١٦).
(٦) في «مجاز القرآن» (٢/ ١٠٨).
(٧) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٥٦)، وذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٠/ ٢١٥).
(٨) ذكر عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٢).
(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٩٢)، و«جامع البيان» (١٨/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

في الدنيا، والأولى أولى، وهو مأخوذ مِنْ وصل الحبال بعضها ببعض، ومنه قول الشاعر(١):

[فقَل لبني](٢) مَرْوانَ ما بال ذِمَّتي   بحبلٍ ضعيفٍ لا تزال تُوصّلُ

وقال امرؤ القيس(٣):

يُقلِّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوصلٍ(٤)

والضمير(٥) في «لهم» عائد إلى قريش، وقيل: إلى اليهود، وقيل: للجميع.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيكون التذكر سبباً لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم. ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ أي: من قبل القرآن، والموصول(٦) مبتدأ، وخبره ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أخبر سبحانه أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد الله بن سلام، وسائر من أسلم من أهل الكتاب، وقيل: الضمير في ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ يرجع إلى محمد(٧) ﷺ، والأوّل أولى.

والضمير في «به» راجع إلى القرآن على القول الأوّل، وإلى محمد على القول الثاني ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾؛ أي: وإذا يتلى القرآن عليهم قالوا: صدّقنا به ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾؛ أي: الحق الذي نعرفه المنزّل من ربنا ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾؛ أي: مُخْلصين لله بالتوحيد، أو مؤمنين بمحمد، وبما جاء به لما نعلمه من ذكره في التوراة، والإنجيل من التبشير به، وأنه سيبعث آخر الزمان، وينزل عليه القرآن.

والإشارة بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات،

(١) قائله: الأخطل. انظر: «ديوانه» (ص١٠).
(٢) كذا في المخطوط، والذي في الديوان: فسائل بني...
(٣) انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٢١).
(٤) وصدر هذا البيت:
دريرٍ كخذروف الوليد أمَرَّه
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٩٣).
(٦) «التبيان» (٢/ ١٠٢٢)، و«الفريد» (٣/ ٧٢٠).
(٧) «زاد المسير» (٦/ ٢٢٩).

والباء في ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ للسببية[١]؛ أي: بسبب صبرهم، وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول، والكتاب الآخر، وبالنبيّ الأوّل، والنبيّ الآخر ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الدرء[٢]: الدفع؛ أي: يدفعون بالاحتمال، والكلام الحسن ما يلاقونه من الأذى[٣].

وقيل: يدفعون بالطاعة المعصية، وقيل: بالتوبة والاستغفار الذنوب، وقيل: بشهادة أن لا إلٰه إلّا الله الشركَ. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: ينفقون أموالهم في الطاعات، وفيما أمر به الشرع.

ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ تكرّماً، وتنزّهاً، وتأدّباً بآداب الشرع، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، واللغو هنا هو: ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم، والاستهزاء بهم.

﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء، ولا يلحقكم من نفع إيماننا شيء ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية، ولكن المراد به: سلام المتاركه، ومعناه: أمنةٌ لكم منا وسلامةٌ لا نجاوبكم، ولا نجاريكم فيما أنتم فيه.

قال الزجّاج[٤]: وهذا قبل الأمر بالقتال.

﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: لا نطلب صحبتهم.

وقال مقاتل[٥]: لا نُريد أَنْ نكون من أهل الجهل والسفه.

وقال الكلبي[٦]: لا نحبّ دينكم الذي أنتم عليه.

[أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب وهي أيضاً على العموم]:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من الناس، وليس ذلك إليك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ هدايته ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: القابلين للهداية المستعدّين لها، وهذه الآية نزلت في أبي طالب كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما، وقد تقدّم ذلك في براءة.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/٢١٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٠).
(٢) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣١٣).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٩٦).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٤٩).
(٥) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٠٣).
(٦) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٠٣).

قال الزجاج[١]: أجمع المفسّرون على أنَّها نزلت في أبي طالب، وقد تقرّر في الأصول: أنّ الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيدخل في ذلك أبو طالب دخولاً أوليّاً.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾؛ أي: قال مشركو قريش ومن تابعهم: إن ندخل في دينك يا محمد نُتخطّف من أرضنا؛ أي: يتخطفنا العرب من أرضنا يعنون: مكة، ولا طاقة لنا بهم، وهذا من جملة أعذارهم الباطلة وتعللاتهم العاطلة، والتخطف في الأصل هو: الانتزاعُ بسرعة.

قرأ الجمهور[٢] «نُتخطّفْ» بالجزم جواباً للشرط، وقرأ[٣] المنقري[٤] بالرفع على الاستئناف. ثم ردّ الله ذلك عليهم ردّاً مصدّراً باستفهام التوبيخ[٥] والتقريع، فقال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: ألم نجعل لهم حرماً ذا أمنٍ؟ قال أبو البقاء[٦]: عدّاه بنفسه؛ لأنه بمعنى جعل كما صرّح بذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ثم وصف هذا الحرم بقوله: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ أي: تجمع إليه الثمراتُ على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة وتحمل إليه. قرأ الجمهور: «يُجبى» بالتحتية[٧] اعتباراً بتذكير كل شيء، ووجود الحائل بين الفعل وبين ثمرات، وأيضاً ليس تأنيث ﴿ثَمَرَٰتُ﴾ بحقيقيّ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد[٨] لما ذكرنا، وقرأ نافع بالفوقية[٩] اعتباراً بثمرات.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٤٩).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٣١٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٢٣).

(٣) قال أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٣١٥): «مثل قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨] برفع الكاف؛ أي: فهو يدرككم؛ أي: فيتخطف، وهو تخريج شذوذ». وقراءة المنقريِّ بالرفع شاذة.

(٤) هو: أبو معمر عبد الله بن عمرو بن الحجاج المنقري التميمي البصري، قيِّم بحرف أبي عمرو ضابط له (ت٢٢٤هـ). «طبقات القراء» لابن الجزري (١/ ٤٣٩).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٢).

(٦) انظر: «التبيان» (٢/ ١٠٢٣).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٣١٥)، و«التيسير» (ص١٧٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤٢).

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٩).

(٩) «التيسير» (ص١٧٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤٢)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٣٣).

وقرأ الجمهور أيضاً «ثَمَرات» بفتحتين[١]، وقرأ أبان بضمتين[٢]، جمع ثمر بضمتين، وقرئ بفتح الثاء، وسكون الميم ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ منتصب[٣] على المصدرية؛ لأن معنى «يجبى»: نرزقهم، ويجوز[٤] أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف؛ أي: نسوقه إليهم رزقاً من لدنا، ويجوز أن ينتصب على الحال؛ أي: رازقين.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لفرط جهلهم، ومزيد غفلتهم، وعدم تفكرهم في أمر معادهم ورشادهم، لكونهم ممن طبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة.

وقد أخرج الفريابي، والنسائي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً في «الدلائل» عن أبي هريرة[٥] في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ قال: نودوا: يا أمة محمد أعطيتكم قبل أنْ تسألوني، واستجبت لكم قبل أن تدعوني.

وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة[٦] مرفوعاً.

وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر، وابن عساكر عنه[٧] من وجه آخر بنحوه.

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل»، وأبو نصر السجزي في «الإبانة»، والديلمي عن عمرو بن عبسة[٨] قال: «سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ ما كان النداء، وما كانت الرحمة؟ قال: كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام، ثم وضعه على عرشه، ثم نادى: يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي، أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة».

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣١٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٢٩٩).

(٢) «المحتسب» (٢/ ١٥٣)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٣). قراءة الجمهور هي المتواترة، وما عداها فشاذ.

(٣) «التبيان» (٢/ ١٠٢٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٢٣)، و«الفريد» (٣/ ٧٢٠).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٣٨٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٦٢)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٨٣)، والحاكم (٢/ ٤٠٨) وصحّحه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٨١).

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤١٨).

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٦/ ٢٤٠).

(٨) أخرجه الديلمي في «مسنده» رقم (٧٢٠٦).

وأخرج الخُتلي في «الديباج» عن سهل بن سعد الساعدي[١] مرفوعاً مثله.

وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم عن حذيفة[٢] في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ مرفوعاً، قال: «نودوا: يا أمة محمد ما دعوتمونا إذ استجبنا لكم، ولا سألتمونا إذ أعطيناكم».

وأخرج ابن مردويه[٣] عن ابن عباس مرفوعاً: «إن الله نادى: يا أمة محمد أجيبوا ربَّكم، قال: فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة، فقالوا: لبيك أنت ربنا حقاً، ونحن عبيدك حقّاً، قال: صدقتم أنا ربكم، وأنتم عبيدي حقّاً، قد عفوتُ عنكم قبل أَنْ تدعوني، وأعطيتكم قبل أن تسألوني، فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلّا الله دخل الجنة».

وأخرج ابنُ مردويه[٤] عَنْ أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «الهالك في الفترة يقول: ربّ لم يأتني كتاب ولا رسول، ثم قرأ هذه الآية ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية».

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ إلخ. قال: هم أهل الكتاب ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾؛ يعني: بالكتابين: التوراة والفرقان.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو القاسم البغوي، والباوردي، وابن قانع [٣/١٥٣] الثلاثة في معاجم الصحابة، والطبراني، وابن مردويه بسندٍ جيد عن رفاعة القُرظي[٦] قال: نزلت: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤١٨).

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤١٨).
أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣١٣). وهو حديث ضعيف، ضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (٣/٥٠٨).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤١٨).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤١٩).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٩٨٥، ٢٩٨٦) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٢٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٩٨٧، ٢٩٨٨)، والبغوي والبارودي كما في «الإصابة» (٢/٤٩٤)، والطبراني رقم (٤٥٦٣) بسند صحيح.

﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ في عشرة رهط أنا أحدهم.

وأخرج ابن مردويه[١] عن ابن عباس ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ قال: يعني: مَنْ آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب.

[مَنْ يؤتون أجرهم مرتين]:

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أبي موسى الأشعري[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأوّل والآخر، ورجل كانت له أَمَة، فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده».

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث المسيب[٣].

ومسلم وغيره مِنْ حديث أبي هريرة[٤]: أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ نزلت في أبي طالب لما امتنع من الإسلام.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٥]: أن ناساً مِنْ قريش قالوا للنبيّ ﷺ: إن نتبعك يتخطفنا الناس، فنزلت ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ﴾ الآية.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٦]: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ قال: ثمرات الأرض.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٣).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (١٩٥٣٢، ١٩٥٦٤، ١٩٦٠٢، ١٩٦٣٤، ١٩٦٥٦، ١٩٧١٢، ١٩٧٢٧)، والبخاري رقم (٩٧، ٢٥٤٤، ٢٥٤٧، ٢٥٥١، ٣٠١١، ٣٤٤٦، ٥٠٨٣)، ومسلم رقم (١٥٤)، والترمذي رقم (١١١٦)، والنسائي رقم (٣٣٤٤)، وابن ماجه رقم (١٩٥٦)، والبيهقي (٧/ ١٢٧، ١٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٣)، والبخاري رقم (٤٧٧٢)، ومسلم رقم (٢٤/ ٣٩)، والنسائي في «التفسير» رقم (٢٥) كلّهم من حديث المسيب بن حزن.

(٤) أخرجه مسلم رقم (٢٥)، والترمذي رقم (٣١٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٩٤)، والبيهقي (٢/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٨٧، ٢٨٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٩٥) بسند ضعيف.

(٦) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣١).

=

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا
قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا
عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ۝٥٩ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ
فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٦١﴾.

[مشهد من مشاهد القيامة، يصور مغبة ما هم فيه من الشرك والغواية]:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا
هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝٦٣ وَقِيلَ ادْعُوا
شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ۝٦٤ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ۝٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ
وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ۝٦٧ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا
كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ
وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾.

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾؛ أي: مِنْ أهل قرية كانوا في خَفْضِ عيشٍ ودَعةٍ، ورخاء، فوقع منهم البَطَر فأُهلكوا.

قال الزجاج(١): البَطَر الطغيان عند النعمة. قال عطاء(٢): عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله، وعبدوا الأصنام.

قال الزجاج(٣) والمازني(٤): معنى ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: بطرت في معيشتها، فلما حذفت «في» تعدّى الفعل كقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

= أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٩٦) بسند ضعيف.
(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٠).
(٢) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٢١٦)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٠٤).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٠). (٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٠٠).

وقال الفراء[1]: هو منصوب على التفسير كما تقول: أبطرك مالك، وبطرته، ونظيره عنده قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

ونصب[2] المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين؛ لأن معنى التفسير: أَنْ تكون النكرة دالة على الجنس.

وقيل: إن معيشتها منصوبة[3] ببطرت على تضمينه معنى جَهلت.

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: لم يسكنها أحد بعدهم إلّا زمناً قليلاً؛ كالذي يمرّ بها[4] مسافراً فإنّه يلبث فيها يوماً أو بعض يوم، أو لم يبق من يسكنها فيها إلّا أياماً قليلة؛ لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم.

وقيل: إن الاستثناء[5] يرجع إلى المساكن؛ أي: لم تسكن بعد هلاك أهلها إلّا قليلاً مِنْ المساكن، وأكثرها خراب، كذا قال الفراء[6]، وهو قول ضعيف.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم؛ لأنهم لم يتركوا وارثاً يرث منازلهم، وأموالهم.

ومحلّ جملة ﴿لَمْ تُسْكَن﴾ الرفع[7] على أنها خبر ثان لاسم الإشارة، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أي: وما صحّ، ولا استقام أن يكون الله مهلك القرى الكافرة: أي: الكافر أهلها حتى يبعث في أمها رسولاً ينذرهم، ويتلوا عليهم آياتِ الله الناطقة بما أوجبه الله عليهم، وما أعدّه من الثواب للمطيع، والعقاب للعاصي.

ومعنى ﴿أُمِّهَا﴾: أكبرها[8] وأعظمها، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها؛ لأن فيها أشراف القوم وأهل الفهم والرأي، وفيها الملوك والأكابر فصارت بهذا الاعتبار كالأم لما حولها من القرى.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/٣٠٨).
(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٤٠).
(٣) «التبيان» (٢/ ١٠٢٣)، و«الفريد» (٣/ ٧٢١).
(٤) «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٥٤٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٢٤)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٣٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣١٦).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٠٨).
(٧) «التبيان» (٢/ ١٠٢٣)، و«الفريد» (٣/ ٧٢١).
(٨) «معالم التنزيل» (٦/ ٢١٦)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٠٤).

وقال الحسن[(١)]: أمّ القرى: أوّلها.

وقيل: المراد بأمّ القرى[(٢)] هنا مكة، كما في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] الآية، وقد تقدّم بيان ما تضمنته هذه الآية في آخر سورة يوسف.

وجملة ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ في محل نصب[(٣)] على الحال؛ أي: تالياً عليهم، ومُخْبراً لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، والاستثناء[(٤)] مفرّغ من أعمّ الأحوال؛ أي: وما كنّا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولاً يدعوهم إلى الحق إلّا حال كونهم ظالمين، قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم، وتأكيد الحجة عليهم كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

[أفضل اللذات ما كان خالصاً غير مشوب بكدر]:

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ الخطاب لكفّار[(٥)] مكة؛ أي: وما أُعطيتم[(٦)] مِنْ شيء من الأشياء فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به مدّة حياتكم، أو بعض حياتكم، ثم تزولون عنه أو يزول عنكم، وعلى كل حال فذلك إلى فناء وانقضاء ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من ثوابه وجزائه ﴿خَيْرٌ﴾ من ذلك الزائل الفاني؛ لأنّه لذّة خالصة عَنْ شَوب الكدر ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه يدوم أبداً، وهذا ينقضي بسرعة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي أفضل من الفاني وما فيه لذّة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات[(٧)] المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البدن، والقلب؟

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٩٩٧) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٢٩١)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (١/٢١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٩٩٧) بسند صحيح.

(٣) «البحر المحيط» (٨/٣١٦ ـ ٣١٧).

(٤) «روح المعاني» (٢٠/٢٢٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٣٠٢).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/٣٠٢)، و«جامع البيان» (١٨/٢٩٢).

(٦) «الوسيط» (٣/٤٠٤ ـ ٤٠٥)، و«زاد المسير» (٦/٢٣٤)، و«روح المعاني» (٢٠/٢٢٦).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

وقرئ بنصب[١] «متاعَ» على المصدرية؛ أي: فتمتعون متاع الحياة، وقرأ أبو عمرو «يعقلون» بالتحتية[٢]، وقرأ الباقون بالفوقية[٣] على الخطاب، وقراءتهم أرجح لقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾؛ أي: وعدناه بالجنّة وما فيها من النِّعم التي لا تحصى فهو لاقيه؛ أي: مدركه لا محالة فإن الله لا يخلف الميعاد ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فأعطي منها بعض ما أراد مع سرعة زواله وتنغيصه ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿مَّتَّعْنَٰهُ﴾ داخل معه في حيز الصلة مؤكد[٤] لإنكار التشابه، ومقرّر له.

والمعنى: ثُمَّ هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار، وتخصيص المُحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاه المقام، والاستفهام[٥] للإنكار؛ أي: ليس حالهما سواء، فإنّ الموعود بالجنة لا بدّ أن يظفر بما وعُد به؛ مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا، وهذا حال المؤمن.

وأما حال الكافر فإنّه لم يكن معه إلّا مجرّد التمتع بشيء من الدنيا يستوي فيه هو والمؤمن، وينال كل واحد منهما حظه منه، وهو صائر إلى النار، فهل يستويان؟ قرأ الجمهور «ثم هُو» بضم[٦] الهاء، وقرأ الكسائي، وقالون بسكون[٧] الهاء إجراء لـ«ثمّ» مجرى الواو، والفاء.

وانتصاب «يوم» في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ بالعطف على يوم القيامة، أو بإضمار اذكر؛ أي: يوم ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١١٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٣٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣١٧). وهي قراءة شاذة.

(٢) «التيسير» (ص١٧٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣١٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٧٥). صواب العزو: الدوري عن أبي عمرو بالتحتية، والسوسي في وجه عن أبي عمرو بالتحتية والوجه الثاني مع بقية القرّاء العشرة بالفوقية.

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٢٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣١٧).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) «النشر» (٢٠/ ٢٠٩)، و«التيسير» (ص٧٢)، و«التبيان» (٢/ ١٠٢٤).

(٧) «التيسير» (ص٧٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٢٨)، و«حاشية الجمل» (٣/ ٣٥٦). والوجه الثاني لقالون عن نافع بضم الهاء. اهـ. «النشر» (٢/ ٢٠٩).

﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم ينصرونكم، ويشفعون لكم؟ ومفعولا (يزعمون) محذوفان؛ أي: تزعمونهم شركائي لدلالة الكلام عليهما ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: حقت عليهم كلمة العذاب، وهم رؤساء[(١)] الضلال الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله، كذا قال الكلبي.

وقال قتادة[(٢)]: هم الشياطين ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾؛ أي: دعوناهم إلى الغواية يعنون: الأتباع ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾؛ أي: أضللناهم كما ضللنا ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم، والمعنى: أنّ رؤساء الضلال، أو الشياطين تبرّءوا ممن أطاعهم.

قال الزجاج[(٣)]: بَرِئ بعضُهم من بعض، وصاروا أعداءً كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧] و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ صفته، والعائد محذوف؛ أي: أغويناهم، والخبر ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾، و﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ نعت مصدر محذوف. وقيل: إنّ خبر هؤلاء هو الذين أغوينا، وأما أغويناهم كما غوينا فكلامٌ مستأنف لتقرير ما قبله، ورجّح هذا أبو عليّ الفارسي[(٤)]، واعترض الوجه الأوّل، وردّ اعتراضه أبو البقاء[(٥)].

﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، وقيل[(٦)]: إن «ما» في قوله: ﴿مَا كَانُوٓاْ﴾ مصدرية؛ أي: تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا، والأول أولى ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾؛ أي: قيل للكفار من بني آدم هذا القول.

والمعنى: استغيثوا بآلهتكم التي كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا؛ لينصروكم، ويدفعوا عنكم ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ عند ذلك ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: التابع، والمتبوع قد غشيهم ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ قال الزجاج[(٧)]: جواب لو محذوف، والمعنى: لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك ولم يروا العذاب.

---

(١) «زاد المسير» (٦/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٩٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٩٢) بسند صحيح.
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥١).
(٤) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٧/ ٣١٨) وقال أبو البقاء: «ذكره أبو علي في «التذكرة»».
(٥) في «التبيان» (٢/ ١٠٢٤).
(٦) «التبيان» (٢/ ١٠٢٤)، و«الفريد» (٣/ ٧٢٢ ـ ٧٢٣).
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥١).

وقيل: المعنى: لو أنّهم كانوا يهتدون ما دعوهم، وقيل: المعنى: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لعلموا أن العذاب حق. وقيل: المعنى: لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب. وقيل: قد آن لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون، وقيل: غير ذلك. والأوّل أولى.

ويوم في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ معطوف على ما قبله؛ أي: ما كان جوابكم لمن أُرسل إليكم مِنْ النبيين لما بلغوكم رسالاتي؟ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: خفيت عليهم الحُجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون، والأصل فعموا عن الأنباء، ولكنه عكس الكلام[1] للمبالغة، والأنباء: الأخبار وإنما سُمى حججهم أخباراً؛ لأنّها لم تكن من الحجة في شيء وإنما هي أقاصيص وحكايات.

﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل بعضُهم بعضاً ولا ينطقون بحجة، ولا يدرون بما يجيبون؛ لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة [٤/٣٦٢].

قرأ الجمهور «عَمِيت» بفتح[2] العين، وتخفيف الميم. وقرأ الأعمش، وجناح بن حبيش بضم العين[3] وتشديد الميم.

[فعسى وإن كانت في الأصل للرجاء فهي من الله واجبة]:

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي: تاب من الشرك وصدّق بما جاء به الرسل، وأدّى الفرائض واجتنب المعاصي فعسى أن يكون من المفلحين؛ أي: الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين، وعسى وإنْ كانت في الأصل للرجاء فهو مِنْ الله واجب على ما هو عادة الكرام.

وقيل: إن الترجي[4] هو مِنْ التائب المذكور لا من جهة الله سبحانه ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: يخلقه ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ما يشاء أن يختاره ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم؛ أي: الاختيار إلى الله ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: التخير.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٣٤)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٣٢٠)، و«التبصرة» (ص٥٣٨)، و«النشر» (٢/ ٨٨).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص١١٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٢٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٣٥).

(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٣٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٤).

وقيل: المراد من الآية: أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار؛ بل الاختيار هو إلى الله ﷻ.

وقيل: إن هذه الآية جواب عن قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وقيل: هذه الآية جواب عن اليهود حيث قالوا: لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنَّا به.

قال الزجاج[١]: الوقف على «ويختار» تامٌّ على أنّ «ما» نافية. قال[٢]: ويجوز أَنْ تكون «ما» في موضع نصب بيختار، والمعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة. والصحيح الأوّل لإجماعهم على الوقف.

وقال ابن جرير[٣]: إنّ تقدير الآية: ويختار لولايته الخيرة من خلقه، وهذا في غاية من الضعف.

وجوّز ابن عطية[٤] أَنْ تكون «كان» تامة، ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة. وهذا أيضاً بعيد جدّاً.

وقيل: إن «ما» مصدرية؛ أي: يختار اختيارهم، والمصدر واقع موقع المفعول به؛ أي: ويختار مختارهم، وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير.

والراجح أوّل هذه التفاسير، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦] والخيرة: التخيّر؛ كالطيرة فإنّها التطيّر، اسمان يستعملان استعمال المصدر.

ثم نزّه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تنزّه تنزّهاً خاصّاً به من غير أن ينازعه منازع، ويشاركه مشارك ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: عن الذين يجعلونهم شركاء له أو عن إشراكهم ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾؛ أي: تُخْفيه من الشرك أو من عداوة رسول الله ﷺ، أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ أي: يظهرونه من ذلك.

قرأ الجمهور[٥] «تُكِنّ» بضم التاء الفوقية، وكسر الكاف.

وقرأ ابن محيصن، وحميد بفتح[٦] الفوقية، وضم الكاف.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٢). (٢) في «جامع البيان» (١٨/ ٢٠٣).

(٣) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٨٠ ـ ١٨١). (٤) «التبيان» (٢/ ١٠٢٤)، و«الفريد» (٣/ ٧٢٤).

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٣٢١)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ١٨١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٤١).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة. وقراءة فتح التاء وضم الكاف شاذة.

ثم تمدح ﷻ بالوحدانية والتفرّد باستحقاق الحمد، فقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ أي: الدنيا ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ أي: الدار الآخرة ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ يقضي بين عباده بما شاء من غير مشارك ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بالبعث، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته لا ترجعون إلى غيره.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ قال: قال الله: لم نهلك قرية بإيمان، ولكنّه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها، ولو كانت مكة آمنت لم يهلكوا مع من هلك، ولكنهم كذبوا، وظلموا فبذلك هلكوا.

وأخرج مسلم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة(٢): أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني» الحديث بطوله.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير(٣) قال: «يُحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا، وأعطش ما كانوا، وأعرى ما كانوا فمن أطعم لله ﷻ أطعمه الله، ومَنْ كسا لله ﷻ كساه الله، ومَنْ سقى لله ﷻ سقاه الله ومَنْ كان في رضا الله كان الله على رضاه».

وأخرج الفريابي، وعبد بن حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهد(٤) ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ قال: الحُجج ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال: بالأنساب.

وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح(٥) تعليم الاستخارة، وكيفية صلاتها، ودعائها، فلا نطول بذكره.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٩٨) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٥٦٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» رقم (٤٧٣).

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «الزهد» (ص١٩٦).

(٤) أخرجه الفريابي كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٧٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٠٠) بسند صحيح.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٤)، والبخاري رقم (١١٦٢)، وأبو داود رقم (١٥٣٨)، والترمذي رقم (٤٨٠) وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي (٦١/٨)، وابن ماجه رقم (١٣٨٧) كلهم من حديث جابر بن عبد الله ﵄.

[ظاهرة الليل والنهار وما وراءهما من أسرار]:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ
يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ
سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤)
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا
كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾.

[ذكر قصة قارون]:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ
لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (٧٦) وَٱبْتَغِ
فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ
ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ
عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ
ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ
(٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا
يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ
وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ
بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٢) تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾.

[البشرى بالعودة إلى مكة]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ السَّرْمدُ: الدائم المستمرّ، من السَّرْد وهو المتابعة؛ فالميم زائدة، ومنه قول طرفة[1]:

لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغُمَّةٍ ... نَهَارِي وَلَا لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ

وقيل: إن ميمه أصلية[2]، ووزنه فَعْلَلُ لا فَعْمَل، وهو الظاهر.

[الامتنان بتعاقب الليل والنهار]:

بيّن لهم سبحانه أنه مهّد لهم أسباب المعيشة؛ ليقوموا بشكر النعمة، فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلاً دائماً إلى يوم القيامة لم يتمكنوا من الحركة فيه، وطلب ما لا بدّ لهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم والمشارب والملابس.

ثم امتنّ عليهم، فقال: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ﴾؛ أي: هل لكم إلٰه من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة[3] عنكم بضياء؟ أي: بنورٍ تطلبون فيه المعيشة، وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه، وتصلح به ثماركم، وتنمو عنده زرائعكم. وتعيش فيه دوابكم ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ هذا الكلام سماع فهمٍ وقبول، وتدبر وتفكر؟!

ثم لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار امتنّ عليهم بوجود الليل، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: جعل جميع

---

(١) «ديوان طرفة بن العبد» (ص٤٠).

(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٤٢)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (٤٠٨)، و«تهذيب اللغة» (١٣/ ١٥٢).

(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤)، و«الوسيط» (٣/ ٤٠٦)، و«جامع البيان» (١٨/ ٣٠٤).

الدهر الذي تعيشون فيه نهاراً إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾؛ أي: تستقرّون فيه من النّصَب، والتعب، وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش، والكسب.

[اللف والنشر]:

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ؛ حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله وإذا أقرّوا بأنّه لا يقدر على ذلك إلّا الله ﷻ فقد لزمتهم الحجة، وبطل ما يتمسكون به من الشُبه الساقطة، وإنما قرن سبحانه بالضياء قوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ لأنّ السمع[1] يُدرك ما لا يدركه البصر مِنْ درك منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنّ البصر يدرك ما لا يدركه السمع من ذلك ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: في النهار بالسعي في المكاسب ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ولكي تشكروا نعمة الله عليكم، وهذه الآية مِنْ باب اللف[2] والنشر، كما في قول امرئ القيس[3]:

كَأنّ قُلوبَ الطَّير رَطْباً ويَابِسا　　لدى وَكرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِي

واعلم أنَّه وإن كان السكون في النهار ممكناً، وطلب الرزق في الليل ممكناً، وذلك عند طلوع القمر على الأرض أو عند الاستضاءة بشيء بما له نور كالسراج، لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كرّر سبحانه هذا لاختلاف[4] الحالتين؛ لأنهم ينادون مرة، فيدعون الأصنام، وينادون أخرى، فيسكتون، وفي هذا التكرير أيضاً تقريع بعد تقريع، وتوبيخ بعد توبيخ[5].

وقولُه: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ عطف على ينادي، وجاء بصيغة

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٤٤)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٥).

(٢) تقدم تعريف كلّ منهما.

(٣) انظر: «ديوانه» (ص١٣٤).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣١١)، وقال أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٣٢٢): «وكرر هنا على جهة الإبلاغ والتأكيد».

(٥) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٤٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٥).

الماضي[(١)] للدّلالة على التحقق، والمعنى: وأخرجنا مِنْ كل أمة من الأمم شهيداً يشهد عليهم.

قال مجاهد[(٢)]: هم الأنبياء، وقيل: عدول كلّ أمة[(٣)]، والأوّل أولى. ومثله قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

ثم بيَّن سبحانه ما يقوله لكلِّ أُمةٍ من هذه الأمم بقوله: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾؛ أي: حجتكم ودليلكم بأنّ معي شركاء، فعند ذلك اعترفوا وخرسوا عن إقامة البرهان، ولذا قال: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ [٣/٣٦٣] في الإلٰهية وأنه وحده لا شريك له ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: غاب عنهم وبطل، وذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب في الدنيا بأنّ لله شركاءَ يستحقون العبادة.

ثم عقّب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة، وعجيب الصنع، فقال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ قارون على وزن فاعول اسم[(٤)] أعجمي ممتنع للعُجْمة والعلَمية، وليس بعربيّ مشتق من قرنت.

قال الزجاج[(٥)]: لو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف.

قال النخعيُّ، وقتادة وغيرهما[(٦)]: كان ابن عمّ موسى، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وموسى هو ابن عمران بن قاهث.

وقال ابن إسحاق[(٧)]: كان عمّ موسى لأبٍ وأم، فجعله أخا لعمران، وهما ابنا قاهث. وقيل: هو ابن خالة موسى، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه،

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/٢٤٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٣٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٠٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٣٠٧) بسند صحيح.

(٣) انظر: «مجمع البيان» (٢٠/٣١٧).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/٣١٢)، و«روح المعاني» (٢٠/٢٤٩)، و«المحرر الوجيز» (١٢/١٨٥).

(٥) انظر: «الوسيط» (٣/٤٠٧)، و«معالم التنزيل» (٦/٢٢٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/٣١٢).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/٣١٣).

فنافق كما نافق السامري، وخرج عن طاعة موسى، وهو معنى قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: جاوز الحدّ في التجبّر والتكبر عليهم وخرج عَنْ طاعة موسى، وكفرَ بالله.

قال الضحاك[١]: بغيه على بني إسرائيل: استخفافه بهم لكثرة ماله وولده.

وقال قتادة[٢]: بغيه بنسبته ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه وحيلته. وقيل: كان عاملاً[٣] لفرعون على بني إسرائيل فتعدّى عليهم وظلمهم، وقيل: كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾: جمع كنز، وهو المال المدَّخر.

قال عطاء[٤]: أصاب كنزاً مِنْ كنوز يوسف. وقيل: كان يعمل الكيمياء[٥].

و«ما» في قوله: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ موصولة صلتها[٦] ﴿إِنَّ﴾، وما في حيزها، ولهذا كُسرت.

ونقل الأخفش[٧] الصغير عَنْ الكوفيين منع جعل المكسورة، وما في حيزها صلة الذي، واستقُبح ذلك منهم لوروده في الكتاب العزيز في هذا الموضع، والمفاتح: جمع مفتِح بالكسر، وهو ما يفُتح به، وقيل: المراد بالمفاتح: الخزائن، فيكون واحدها مَفتح بفتح الميم.

قال الواحدي[٨]: إن المفاتح: الخزائن في قول أكثر المفسرين كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] قال: وهو اختيار الزجاج[٩]، فإنّه قال: الأشبه في التفسير أن مفاتحه: خزائن ماله.

وقال آخرون: هي جمع مفتاح، وهو ما يفتح به الباب، وهذا[١٠] قول قتادة، ومجاهد.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٠٦) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣١٢) بسند صحيح.
(٣) قاله يحيى بن سلّام وابن المسيب. «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣١٣).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٠٧) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٠٧) عن الوليد بن زروان.
(٦) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٥٠)، و«التبيان» (٢/ ١٠٢٥)، و«الفريد» (٣/ ٧٢٤).
(٧) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٥٤). (٨) في «الوسيط» (٣/ ٤٠٧).
(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٥).
(١٠) ذكره عنهما الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٠٧).

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ هذه الجملة خبر إنّ، وهي واسمها وخبرها صلة ما الموصولة، يقال: ناء بحمله: إذا نهض به مثقلاً، ويقال: ناء بي الحمل: إذا أثقلني، والمعنى: يثقلهم حمل المفاتح.

قال أبو عُبيدة[(١)]: هذا مِنْ المقلوب، والمعنى: لتنوء بها العُصْبة؛ أي: تنهض بها. قال أبو زيد[(٢)]: نؤت بالحمل: إذا نهضت به. قال الشاعر:

إنَّا وجدنا خَلَفاً بئس الخَلَفْ عَبْداً إذا ما نَاء بالحملِ وَقَفْ[(٣)]

وقال الفرّاء[(٤)]: معنى تنوء بالعصبة: تميلهم بثقلها كما يقال: يذهب بالبؤس ويذهب البؤس، وذهبت به وأذهبته، وجئت به وأجأته، ونؤت به، وأنأته، واختار هذا النحاس[(٥)]، وبه قال كثير[(٦)] من السلف. وقيل: هو مأخوذ من النأي وهو البعد، وهو بعيد.

وقرأ بديل بن ميسرة: «لينوء» بالياء[(٧)]؛ أي: لينوء الواحد منها، أو المذكور، فحمل على المعنى.

والمراد بالعُصْبة: الجماعة التي يتعصّب بعضُها لبعض.

قيل: هي مِنْ الثلاثة إلى العشرة، وقيل: من العشرة إلى الخمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى العشرين، وقيل: من الخمسة إلى العشرة، وقيل: أربعون، وقيل: سبعون، وقيل: غير ذلك.

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ﴾ الظرف منصوب بتنوء، وقيل: بآتيناه، وقيل: ببغى. وردّهما أبو حبان[(٨)] بأن الإيتاء، والبغيُّ لم يكونا ذلك الوقت.

وقال ابنُ جرير[(٩)]: هو متعلق بمحذوف، وهو: اذكُر، والمراد بقومه هنا: هم المؤمنون من بني إسرائيل.

---

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ١١٠).
(٢) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٩٩٥).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣١٦). (٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٠).
(٥) في «معاني القرآن» له (٥/ ١٩٩).
(٦) «الوسيط» (٣/ ٤٠٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣١٦ ـ ٣١٧).
(٧) وهي قراءة شاذة. «المحتسب» (٢/ ١٥٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٢٤).
(٨) في «البحر المحيط» (٨/ ٣٢٤). (٩) في «جامع البيان» (١٨/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

وقال الفرّاء[١]: هو موسى، وهو جمع أريد به الواحد، ومعنى لا تفرح: لا تبطر ولا تأشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

قال الزجاج[٢]: المعنى: لا تفرح بالمال؛ فإنّ الفرِحَ بالمال لا يؤدي حقه، وقيل: المعنى: لا تفسد كقول الشاعر:

إذَا أنتَ لم تبرحْ تُؤدِّي أمانةً   وتحملُ أُخرى أفرحتْكَ الودائعُ[٣]

أي: أفسدتك.

قال الزجاج[٤]: الفرحين والفارحين سواء.

وقال الفرّاء[٥]: معنى الفرحين: الذين هم في حال الفرح، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل.

وقال مجاهد[٦]: معنى لا تفرح: لا تبغ إنّ الله لا يحبّ الفرحين الباغين. وقيل: معناه: لا تبخل إنّ الله لا يحبّ الباخلين ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾؛ أي: واطلبْ فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة، فأنفقه فيما يرضاه الله لا في التجبر والبغي. وقرئ[٧]: «واتبع».

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال جمهور المفسرين[٨]: وهو أن يعمل في دنياه لآخرته، ونصيب الإنسان عُمره وعمله الصالح.

قال الزجاج[٩]: معناه: لا تنس أن تعمل لآخرتك؛ لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١١).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٥).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣١٨).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٥).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١١).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٢٠) بسند صحيح.
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١١٣).
(٨) «الوسيط» (٣/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨)، و«جامع البيان» (١٨/ ٣٢٢).
(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٥).

وقال الحسن[١]، وقتادة: معناه: لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال، وطلبك إياه، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآني.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: أحسنْ إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك مِنْ نعم الدنيا، وقيل: أطع الله واعبده كما أنعم عليك، ويُؤيده ما ثبت في «الصحيحين»[٢]، وغيرهما: «أنّ جبريل سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: لا تعمل فيها بمعاصي الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ قال قارون هذه المقالة ردّاً على مَنْ نصحه بما تقدّم؛ أي: إنما أُعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمي، فقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في محل نصب[٣] على الحال، و﴿عِندِىٓ﴾ إما ظرف لأوتيته، وإما صلة للعلم، وهذا العلم الذي جعله سبباً لما ناله مِنْ الدنيا.

قيل: هو علم التوراة، وقيل: علمه بوجوه المكاسب، والتجارات، وقيل: معرفة الكنوز، والدفائن، وقيل: علم الكيمياء، وقيل: المعنى: إن الله آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إيّاها لفضل علمه مني. واختار هذا الزجاج[٤] وأنكر ما عداه.

ثم ردّ الله عليه قوله هذا، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ المراد بالقرون: الأممُ الخالية، ومعنى أكثر جمعاً: أكثر مِنْه جمعاً للمال، ولو كان المال أو القوّة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله. وقيل: القوّة: الآلات. والجمع: الأعوان.

---

(١) ذكره عنهما ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم في «صحيحه» رقم (١/ ٨)، وأبو داود في «السنن» رقم (٤٦٩٥)، والترمذي رقم (٢٦١٠) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٩٧)، وابن ماجه رقم (٦٣) كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
• وأخرجه أحمد (٢/ ٤٢٦)، والبخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٥/ ٩)، والنسائي (٨/ ١٠١ ـ ١٠٣)، وابن ماجه رقم (٦٤) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٥٧)، و«الفريد» (٣/ ٧٢٥)، و«التبيان» (٢/ ١٠٢٦).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٥).

وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ[١] لقارون؛ لأنّه قد قرأ التوراة، وعلم علم القرون الأولى، وإهلاك الله سبحانه لهم ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: لا يُسألون سؤال استعتاب كما في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤، الروم: ٥٧] ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤] وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ[٢]، كما في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

وقال مجاهد[٣]: لا تسأل الملائكة غداً عَنْ المجرمين؛ لأنهم يُعرفون بسيماهم، فإنّهم يحشرون سود الوجوه، زُرْق العيون.

وقال قتادة[٤]: لا يُسأل المجرمون عَنْ ذنوبهم لظهورها وكثرتها؛ بل يدخلون النار.

وقيل: لا يُسأل مجرمو هذه الأمة عَنْ ذنوب الأمم الخالية ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ الفاء للعطف على «قال»، وما بينهما اعتراض، و﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ متعلق بخرج، أو بمحذوف[٥] هو حال مِنْ فاعل خرج.

وقد ذكر المفسرون في هذه الزينة التي خرج فيها روايات مختلفة، والمراد: أنَّه خرج في زينةٍ انبهر لها مَنْ رآها، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وزينتها ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ أي: نصيب وافر من الدنيا.

واختلف في هؤلاء القائلين بهذه المقالة، فقيل: هم من مؤمني[٦] ذلك الوقت، وقيل: هم قوم من الكفار ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، وهم: أحبار[٧] بني إسرائيل قالوا للذين تمنّوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ أي: ثواب الله في الآخرة

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٧٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٧).
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٣٢٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٧٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٧).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٢٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠١٢) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٢٧)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٠١٣) بسند صحيح.
(٥) «التبيان» (٢/ ١٠٢٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٧٤)، و«الفريد» (٣/ ٧٢٥).
(٦) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٥٢٧).
(٧) «الوسيط» (٣/ ٤٠٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٧٦).

خيرٌ مما تمنونه ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فلا تمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا يدوم ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾؛ أي: هذه الكلمة التي تكلم بها الأحبار.

وقيل: الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة، وقيل: إلى الجنة ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على طاعة الله والمصبرون أنفسهم عن الشهوات.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يقال: خُسف[1] المكان يُخْسَف خُسوفاً: ذهب في الأرض.

وخسف به الأرض خَسْفاً: أي: غاب به فيها، والمعنى: أن الله سبحانه غيّبه وغيّب دارَه في الأرض، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه ﴿وَمَا كَانَ﴾ هو في نفسه ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: منذ زمان قريب ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يقول كل واحد منهم متندّماً على ما فرط منه من التمني.

قال النحاس[2]: أحسن ما قيل في هذا ما قاله الخليل[3] وسيبويه[4] ويونس[5] والكسائي[6]: أنّ القوم تنبهوا، فقالوا: وي. والمتندم من العرب يقول في خلال ندمه: وي.

قال الجوهري[7]: وي: كلمة تعجب، ويقال: ويك، وقد تدخل وي على كأن المخففة والمشدّدة: ويكأن الله.

قال الخليل[8]: هي مفصولة تقول: وي، ثم تبتدئ، فتقول: كأن.

وقال الفراء[9]: هي كلمة تقرير كقولك: أما ترى صنع الله وإحسانه؟ وقيل: هي كلمة تنبيه بمنزلة ألا.

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٨٢)، و«تهذيب اللغة» (٧/ ١٨٣).
(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨).
(٣) ذكره عنهما النحاس في المصدر المتقدم. (٤) في «الكتاب» (٢/ ١٥٤).
(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٤٥٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٥٥).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٤٥٧).
(٧) «الصحاح» (٦/ ٢٥٣٢). (٨) ذكره الجوهري في «الصحاح» (٦/ ٢٥٣٢).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٢).

وقال قطرب[١]: إنما هو ويلك، فأسقطت لامه، ومنه قول عنترة[٢]:

وَلـقـدْ شَفَـا نَـفْسِـي وأَبْـرَأ سُـقْـمَـهـا قَـوْلُ الـفَـوَارِسِ وَيْـكَ عَـنْـتـرُ أَقْـدِمِ

وقال ابن الأعرابي[٣]: معنى ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾: أعلم أنّ الله.

وقال القتيبي[٤]: معناها بلغة حمير: رحمة، وقيل: هي بمعنى: ألم تر؟ وروي عن الكسائي[٥] أنه قال: هي كلمة تَفجّعٌ.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ برحمته، وعَصَمنا مِنْ مثل ما كان عليه قارون من البَطر والبَغْي، ولم يؤاخذنا بما وقع منّا مِنْ ذلك التمنّي ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خسف به.

قرأ حفص ﴿لَخَسَفَ﴾ مبنياً للفاعل[٦]، وقرأ الباقون[٧] مبنياً للمفعول.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: لا يفوزون بمطلب من مطالبهم.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾؛ أي: الجنّة، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها والتفخيم لشأنها كأنه قال: تلك التي سمعت بخبرها، وبلغك شأنها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: رفعةً، وتكبراً على المؤمنين ﴿وَلَا فَسَادًا﴾؛ أي: عملاً بمعاصي الله سبحانه فيها.

وذكر العلوّ والفساد منكرين[٨] في حيز النفي يدلّ على شمولهما لكلّ ما يطلق عليه أنّه علوّ وأنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص، [٣/٣٦٤] أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان.

وأما العلوّ فالممنوع[٩] منه ما كان على طريق التكبّر على الغير. والتطاول على الناس، وليس مِنْه طلب العلو في الحقّ، والرئاسة في الدين، ولا محبة اللباس الحسن والمركوب الحسن، والمنزل الحسن.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٢٦).
(٢) انظره في: «شرح المعلقات السبع» للزوزني (ص١٥٢).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٢٦). (٤) في «تأويل مشكل القرآن» (ص٤٠١).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٤٥٨).
(٦) «التيسير» (ص١٧٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٢٧).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٨٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٠٩).
(٩) «روح المعاني» (٢٠/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ﴾ وهو أنّ الله يجازيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: إلّا مثل ما كانوا يعملون، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه، وقد تقدّم بيان معنى هذه الآية في سورة النمل ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ قال المفسّرون(١): أي: أُنزل عليك القرآن.

وقال الزجّاج(٢): فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن، وتقدير الكلام: فرض عليك أحكام القرآن وفرائضه ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ﴾ قال جمهور(٣) المفسرين: أي: إلى مكة.

وقال مجاهد(٤)، وعكرمة(٥)، والزهري(٦)، والحسن: إنّ المعنى: لرادّك إلى يوم القيامة، وهو اختيار الزجاج(٧)، يقال: بيني وبينك المعاد؛ أي: يوم القيامة؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء.

وقال أبو مالك(٨)، وأبو صالح(٩): لرادّك إلى معاد: إلى الجنة.

وبه قال أبو سعيد الخدري(١٠) وروي عن مجاهد(١١).

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٣٠)، و«جامع البيان» (١٨/ ٣٤٥)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص٣٦٤).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٧).
(٣) «زاد المسير» (٦/ ٢٤٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٢٩)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٢٢٦)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ٤١١).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٦) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٧) عن عكرمة وعطاء ومجاهد.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٩٤) بسند صحيح، عن الحسن والزهري.
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٧).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٧).
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٧) بسند حسن.
(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٦)، و«التاريخ الكبير» (١/ ٢٨٠)، وأبو يعلى رقم (١١٣١) من طريق أبي جعفر، به.
(١١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٧) بسند صحيح.

وقيل: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: إلى الموت[1].

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذا جواب لكفار مكة لمَّا قالوا للنبيّ ﷺ: إنك في ضلال، والمراد: بمن جاء بالهدى هو النبيّ ﷺ، ومن هو في ضلال مبين: المشركون، والأولى حمل الآية على العموم، وأن الله سبحانه يعلم حال كلّ طائفة من هاتين الطائفتين، ويجازيها بما تستحقه من خير وشرّ ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ أي: ما كنت ترجو أنّا نرسلك إلى العباد، وننزل عليك القرآن.

وقيل: ما كنت ترجو أن يُلقى إليك الكتاب بردّك إلى معادك، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ مُنْقطع[2]؛ أي: لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك، ويجوز أن يكون متصلاً حملاً على المعنى، كأنه قيل: وما ألقى إليك الكتاب إلّا لأجل الرحمة مِنْ ربك. والأوّل أولى، وبه جزم الكسائي والفرّاء ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: عوناً لهم، وفيه تعريض بغيره من الأمة.

وقيل: المراد: لا تكوننّ ظهيراً لهم بمداراتهم ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ﴾؛ أي: لا يصدّنك يا محمد الكافرون وأقوالهم وكذبهم وأذاهم عن تلاوة آيات الله والعمل بها، بعد إذ أنزلها الله إليك، وفرضت عليك.

قرأ الجمهور بفتح[3] الياء، وضم الصاد من صدّه يصدّه.

وقرأ عاصم بضم[4] الياء، وكسر الصاد، من أصدّه بمعنى صدّه.

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾؛ أي: ادع الناس إلى الله، وإلى توحيده، والعمل بفرائضه، واجتناب معاصيه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وفيه تعريض بغيره كما تقدّم؛ لأنه ﷺ لا يكون مِنْ المشركين بحال من الأحوال، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ فإنه تعريض لغيره.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٥) بأسانيد يقوي بعضها بعضاً.

(٢) «جامع البيان» (١٨/ ٣٥٢)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٢٩٣).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٣٣١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٣٠).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص١١٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٣١). قراءة العشرة ومنهم عاصم (يَصُدُّنك) وأما ما عزاه الإمام الشوكاني لعاصم فهي رواية شاذة عنه. اهـ. انظر: «تخريج القراءات في فتح القدير» (ص٢٨٧).

ثم وحّد سبحانه نفسه، ووصفها بالبقاء والدوام، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ﴾ من الأشياء كائناً ما كان ﴿هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾؛ أي: إلّا ذاته.

قال الزجّاج[1]: ﴿وَجۡهَهُۥۚ﴾ منصوب على الاستثناء، ولو كان في غير القرآن كان مرفوعاً بمعنى: كلّ شيء غير وجهه هالك، كما قال الشاعر:

وكلّ أخٍ مفارقُه أخُوه لعَمْرِ أبيك إلّا الفَرْقدانِ[2]

والمعنى كلّ أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ [القصص: ٧٠]؛ أي: القضاء النافذ يقضي بما شاء، ويحكم بما أراد ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] عند البعث؛ ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، لا إله غيره ﷻ.

وقد أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[3] في قوله: ﴿سَرۡمَدًا﴾ قال: دائماً.

وأخرج ابن أبي حاتم[4] عنه ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ يوم القيامة ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ قال: يكذبون في الدنيا.

وأخرج ابنُ أبي شيبة في «المصنف»، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه عنه[5] أيضاً ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ قال: كان ابن عمه، وكان يتبع العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى، وحسَده، فقال له موسى: إنّ الله أمرني أن آخذ الزكاة، فأبى، فقال: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة، وجاءكم بأشياء، فاحتملتموها، فتحتملون أن تعطوه أموالكم؟ فقالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أنْ أرسل إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل، فنرسلها إليه، فترميه بأنّه أرادها على نفسها، فأرسلوا إليها، فقالوا لها: نعطيك حُكمك على أن تشهدي على موسى أنّه فجر بك، قالت: نعم، فجاء قارون إلى موسى فقال: اجمعْ بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربُّك، قال:

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١٥٨).
(٢) انظر: «خزانة الأدب» (٣/٤٢١، ٤٢٦)، و«الكامل» (٣/١٤٤٤).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٠٣) بسند صحيح.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٠٥) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/٥٣١، ٥٣٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٠٥ ـ ٣٠٠٦)، والحاكم (٢/٤٠٨، ٤٠٩) بسند صحيح.

نعم، فجمعهم فقالوا له: ما أمرك ربك؟ قال: أمرني أنّ تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا، وأمرني إذا زنا وقد أحصن أن يرجم، قالوا: وإن كنت أنت. قال: نعم، قالوا: فإنّك قد زنيت. قال: أنا؟ فأرسلوا للمرأة، فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى: أنشدك بالله إلّا ما صدقت. قالت: أما إذ نشدتني بالله فإنّهم دعوني، وجعلوا لي جُعلاً على أن أقذفك بنفسي، وأنا أشهد أنّك بريء، وأنك رسولُ الله، فخرّ موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض، فمرها فتطيعك، فرفع رأسَه، فقال: خذيهم، فأخذتهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذيهم، فأخذتهم إلى أعناقهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذيهم، فأخذتهم، فغشيتهم، فأوحى الله: يا موسى سألك عبادي، وتضرّعوا إليك، فلم تجبهم، وعزّتي لو أنهم دعوني لأجبتهم. قال ابن عباس: وذلك قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ خسف به إلى الأرض السفلى.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن خيثمة(١) قال: كانت مفاتيح كنوز قارون مِنْ جلود، كل مفتاح مثل الأصبع، كل مفتاح على خزانة على حدة، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغرّ محجل.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر عنه(٢) قال: وجدت في الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن قارون غُرّ مُحجّلة ما يزيد مفتاح منها على إصبع لكل مفتاح كنز. قلتُ: لم أجد في الإنجيل هذا الذي ذكره خيثمة.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(٣) في قوله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ قال: تثقل.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٠٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٣١٢) من طريق الأعمش، به.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٣٧).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٠٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٣١٤) بسند صحيح.

وأخرج ابن المنذر[(١)] عنه قال: لا يرفعها العُصبة من الرجال أولو القوّة.

وأخرج ابن جرير[(٢)] عنه أيضاً قال: العصبة: أربعون رجلاً.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[(٣)] أيضاً في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ قال: المَرِحين، وفي قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: أن تعمل فيها لآخرتك.

وأخرج ابن مردويه[(٤)] عن أوس بن أوس الثقفي، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ في أربعة آلاف بغل.

وقد روي عَنْ جماعة من التابعين أقوال في بيان ما خرج به على قومه من الزينة، ولا يصحّ منها شيء مرفوعاً؛ بل هي من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرّة، ولا أدري كيف إسناد هذا الحديث الذي رفعه ابن مردويه، فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه.

وأخرجَ الفريابي[(٥)] عَنْ ابن عباس في قوله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال: خسف به إلى الأرض السفلى.

وأخرج المحاملي والديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة[(٦)]، عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ قال: «التجبّر في الأرض والأخذُ بغير الحق».

وروي نحوه عَنْ مسلم البطين[(٧)] وابن جريج[(٨)] وعكرمة[(٩)].

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣١٥) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠١٠) بسند صحيح.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤١).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٢).

(٦) أخرجه المحاملي رقم (٢١٨، ٢١٩).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٣) من طريق عبد الرحمٰن بن مهدي، به.

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٤) إلى ابن المنذر.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٣) من طريق أبي زرعة، به.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير(١) ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال: بغياً في الأرض.

وأخرج ابن أبي حاتم(٢) عَنْ الحسن قال: هو الشرف والعلوّ عند ذوي سلطانهم. وأقول: إنْ كان ذلك للتقوّي به على الحق، فهو من خصال الخير لا من خصال الشرّ.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب(٣) قال: إنّ الرجل ليحبّ أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه، فيدخل في هذه الآية ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

قال ابن كثير في «تفسيره»(٤) بعد ذكر هذه الرواية عن عليّ رضي الله عنه: وهذا محمول على مَنْ أحبّ ذلك لا لمجرّد التجمل فهذا لا بأس به. فقد ثبت: «أن رجلاً قال: يا رسول الله إنّي أحبّ أن يكون ثوبي حسناً، ونعلي حسنة. أفمن الكبر ذلك؟ قال: لا ، إنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال».

وأخرج ابن مردويه(٥)، وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب: أنه قال: نزلت هذه الآية؛ يعني: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾: إلخ في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس.

وأخرج ابن مردويه(٦) عن ابن عباس نحوه.

وأخرج ابن مردويه(٧) عَنْ عدي بن حاتم قال: لما دخل على النبيّ ﷺ ألقى

---

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٤).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٢) من طريق الأشعث، به.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٣) بسند ضعيف.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٤٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٢٣) من طريق أشعث السَّمان، به.
(٤) في «تفسيره» (١٠/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩).
(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٤).
وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٢/ ٤٨٩).
(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٤).
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٥).

إليه وسادةً، فجلس على الأرض، فقال: أشهد أنّك لا تبغي علوّاً في الأرض ولا فساداً فأسلم.

وأخرج ابن أبي حاتم(١)، عن الضحاك.

وأخرج أيضاً ابن مردويه(٢) عَنْ عليّ بن الحسين بن واقد: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية أنزلت على رسول الله ﷺ بالجحفة حين خرج النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي من طرق عن ابن عباس(٣) في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: إلى مكة، زاد ابن مردويه: كما أخرجك منها.

[تأويل ﴿مَعَادٍ﴾ في الآية]:

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري(٤) ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: الآخرة.

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في «تاريخه»، وأبو يعلى، وابن المنذر عنه(٥) أيضاً [٣/٣٦٥] في قوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال: معاده الجنة، وفي لفظ: معاده: آخرته.

وأخرج الحاكم في التاريخ، والديلمي عن عليّ بن أبي طالب(٥) قال: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ الجنة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٢٦) بسند ضعيف لإعضاله.

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٤٥).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٧٧٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٣٨٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٣٥٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٢٦)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٥٢٠، ٥٢١).

(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٤٦).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٣٤٦، ٣٤٧)، وأبو يعلى رقم (١١٣١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٨٨): «رجاله ثقات».

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٣٩٢)، والبخاري في «تاريخه» (١/٢٨٠)، وأبو يعلى رقم (١١٣١).

وأخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[١] نحوه.

وأخرج ابن مردويه[٢] عنه قال: لما نزلت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] قالت الملائكة: هلك أهلُ الأرض، فلما نزلت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قالت الملائكة: هلك كلّ نفس، فلما نزلت ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ قالت الملائكة: هلك أهل السماء والأرض.

وأخرج عبدُ بن حميد[٣] عن ابن عباس: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ قال: إلّا ما أريد به وجهه.

۞ ۞ ۞

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٤٦).
وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٢٦) من طريق عكرمة، به.
(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٤٧) إلى ابن المنذر.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٤٧).

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

هي تسع وستون[١] آية.

[اختلف في كونها مكيَّة أو مدنية]:

وقد اختُلف في كونها مكية، أو مدنية، أو بعضها مكيّاً، وبعضها مدنيّاً على ثلاثة أقوال:

الأوّل: أَنَها مكية كلها.

أخرجه ابن الضريس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس[٢].

وأخرجه ابن مردويه[٣] عَنْ عبد الله بن الزبير، وبه قال الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد.

والقول الثاني: أنّها مدنية كلها، قال القرطبي[٤]: وهو أحد قولي ابن عباس، وقتادة.

والقول الثالث: أَنّها مكية إلّا عشر آيات من أوّلها، قال القرطبي[٥]: وهو أحد قولي ابن عباس، وقتادة، وهو قول يحيى بن سلام.

وحكي عَنْ عليّ بن أبي طالب[٦]: أنها نزلت بين مكة، والمدينة، وهذا قول رابع.

---

(١) «الوسيط» (٣/ ٤١٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٣٣)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٠٣) للداني.

(٢) أخرجه ابن الضريس (ص٣٣ ـ ٣٥)، والنحاس (ص٦٠١)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١١٣، ١٤٤).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٩).

(٤) في «تفسيره» (١٦/ ٣٣٣).

(٥) في «تفسيره» (١٦/ ٣٣٣).

(٦) «النكت والعيون» (٤/ ٢٧٤).

وأخرج الدارقطني[١] في «السُّنن» عن عائشة: أنّ رسول الله ﷺ كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات وأربع سجدات، يقرأ في الركعة الأولى العنكبوت أو الروم، وفي الثانية يسٓ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[الإيمان والفتنة]:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ
لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ
خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ
وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى في سورة البقرة، والاستفهام في قوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ للتقريع[٢] والتوبيخ، و﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾ في موضع نصب بحَسِبَ وهي وما دخلت عليه قائمة مقام المفعولين على قول سيبويه[٣] والجمهور[٤]

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٢/ ٦٤).
وقال العظيم آبادي: «سعيد بن حفص، قال ابن القطان: لا أعرف حاله».
(٢) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٣١٣)، و«روح المعاني» (٢/ ٣٠٠).
(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٤٧)، وانظر: «الكتاب» (١/ ٤٨١).
(٤) «التبيان» (٢/ ١٠٢٩)، و«الفريد» (٣/ ٧٣١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٤٠).

و﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ في موضع نصب على تقدير: لأن يقولوا، أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا، وقيل: هو بدل من أن يُتركوا، ومعنى الآية: أنّ الناس لا يتركون بغير اختبار، ولا ابتلاء. ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ أي: وهم لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم وليس الأمر كما حسبوا، بل لا بد أن يختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق، والصادق من الكاذب؛ فالآية مسوقة لإنكار[(١)] ذلك الحسبان، واستبعاده، وبيان أنّه لا بد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها.

قال الزجاج[(٢)]: المعنى: أحسبوا أن نقنَع منهم بأن يقولوا: إنا مؤمنون فقط ولا يمتحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم؟ وهو قوله: ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾.

قال السُدّي[(٣)]، وقتادة[(٤)]، ومجاهد[(٥)]: أي: لا يبتلون في أموالهم، وأنفسهم بالقتل والتعذيب وسيأتي في بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرناه، وظاهرها شمول كلّ الناس مِنْ أهل الإيمان، وإن كان السبب خاصّاً. فالاعتبار بعموم اللفظ كما قررناه غير مرّة.

قال ابن عطية[(٦)]: وهذه الآية، وإن كانت نازلة في سبب خاص، فهي باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالأسْر ونكاية العدوّ، وغير ذلك.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾؛ أي: هذه سُنَّة الله في عباده، وأنه يختبر مؤمني هذه الأمة كما اختبر مَنْ قبلهم من الأمم كما جاء به القرآن في غير موضع من قصص الأنبياء وما وقع مع قومهم من المحن وما اختبر الله به أتباعهم ومن آمن بهم من تلك الأمور التي نزلت بهم.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٩).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٣) بسند حسن.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٥٦) بسند صحيح من طريق سعيد بن أبي عروبة، به. وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٩١) بسند صحيح من طريق معمر، به.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٥٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٢) بسند صحيح.
(٦) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٠٠).

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في قولهم: آمنا ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ منهم في ذلك، قرأ الجمهور «فليَعلَمنّ» بفتح[١] الياء، واللام في الموضعين: أي: ليظهرنّ الله الصادق والكاذب في قولهم ويُميز بينهم، وقرأ عليّ بن أبي طالب في الموضعين بضم الياء[٢]، وكسر اللام.

والمعنى: أي: يعلم الطائفتين في الآخرة بمنازلهم، أو يعلم الناس بصدق من صدق ويفضح الكاذبين بكذبهم، أو يضع لكلّ طائفة علامة تشتهر بها، وتتميز عن غيرها ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾؛ أي: يفوتونا، ويُعْجِزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون، وهو سادّ مسدّ مفعولي حسب، وأم هي: المنقطعة[٣] ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: بئس الذي يحكمونه حكمهم ذلك.

وقال الزجاج[٤]: «ما» في موضع نصب بمعنى: ساء شيئاً، أو حُكماً يحكمون. قال[٥]: ويجوز: أن تكون «ما» في موضع رفع بمعنى: ساء الشيء، أو الحكم حكمهم، وجعلها ابن كيسان[٦] مصدرية: أي: ساء حكمهم ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مَنْ كان يطمع، والرجاء بمعنى: الطمع. قاله سعيد بن جبير. وقيل: الرجاء هنا بمعنى: الخوف.

قال القرطبي[٧]: أجمع أهل التفسير أنّ المعنى: من كان يخاف الموت، ومنه قول الهُذلي[٨]:

إذا لسعتْهُ الدَّبرُ لم يرجُ لسعَها[٩]

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٠)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٥٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٠٦).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٥٩).
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٠٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣١٤).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠).
(٥) الزجاج في «معانيه» (٤/ ١٥٩).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٤٨)، ومكي في «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٦٦).
(٧) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩).
(٨) «شرح أشعار الهذليين» (ص١٤٠)، و«خزانة الأدب» (٥/ ٤٩٩).
(٩) وعجزه:

وخالفَها في بيت نُوبٍ عوامل

قال الزجاج[(١)]: معنى مَنْ كان يرجو لقاء الله: مَنْ كان يرجو ثواب لقاء الله؛ أي: ثواب المصير إليه؛ فالرجاء على هذا معناه: الأمل ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ﴾؛ أي: الأجل المضروب للبعث آتٍ لا محالة.

قال مقاتل[(٢)]: يعني: يوم القيامة.

والمعنى: فليعمل لذلك اليوم كما في قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] و«مَنْ» في الآية التي هنا يجوز أَنْ تكون شرطية[(٣)]، والجزاء ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ﴾ ويجوز: أَنْ تكون موصولة[(٤)]، ودخلت الفاء في جوابها تشبيهاً لها بالشرطية.

وفي الآية مِنْ الوعد والوعيد، والترهيب والترغيب ما لا يخفى.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يسرّونه وما يعلنونه ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ﴾؛ أي: مَنْ جاهد الكفّار، وجاهد نفسَه بالصبر على الطاعات فإنما يجاهد لنفسه: أي: ثواب ذلك له لا لغيره ولا يرجع إلى الله سبحانه من نفع[(٥)] ذلك شيء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا يحتاج إلى طاعاتهم كما لا تضرّه معاصيهم.

وقيل: المعنى: ومَنْ جاهد[(٦)] عدوّه لنفسه لا يريد بذلك وجه الله فليس لله حاجة بجهاده، والأوّل أولى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ أي: لنغطينّها عنهم بالمغفرة بسبب ما عملوا مِنْ الصالحات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: بأحسن جزاء أعمالهم.

وقيل: بجزاء أحسن أعمالهم، والمراد بـ﴿أَحْسَنَ﴾: مُجرّد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن[(٧)] مسكوتاً عنه، وقيل: يعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن منه كما في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٦٠).
(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٣٣).
(٣) «التبيان» (٢/ ١٠٢٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣١٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٤٨).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٣٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣١٠).
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٣٩).
(٧) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٢).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ انتصاب[١] حُسناً على أنه نعت مصدر محذوف: أي: إيصاءً حسناً على المبالغة، أو على حذف المضاف: أي: ذا حسنٍ. هذا مذهب البصريين[٢]، وقال الكوفيون[١]: تقديره: ووصينا الإنسان أَنْ يفعل حسناً، فهو مفعول لفعل مقدّر، ومنه قول[٣] الشاعر:

عَجِبتُ من دَهْمَاءَ إِذْ تشكُونا ومِنْ أَبي دَهْمَاءَ إِذْ يُوصِينا
خيراً بها كأنَّما خَافُونا

أي: يوصينا أَنْ نفعل بها خيراً، ومثله قول الحُطيئة[٤]:

وصيتُ من بَرّة قَلْباً حَرّا بالكلبِ خَيْراً والحماةِ شَرّا

[التوصية ببر الوالدين]:

قال الزجاج[٥]: معناه: ووصينا الإنسان: أن يفعل بوالديه ما يحسن.

وقيل: هو صفة لموصوف محذوف: أي: ووصيناه أمراً ذا حسن، وقيل: هو منتصب على أنه مفعول به على التضمين؛ أي: ألزمناه حسناً، وقيل: منصوب[٦] بنزع الخافض: أي: ووصيناه بحسن، وقيل: هو مصدر[٦] لفعل محذوف: أي: يحسن حسناً، ومعنى الآية: التوصية للإنسان بوالديه بالبرّ بهما والعطف عليهما.

قرأ الجمهور ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء[٧]، وإسكان السين، وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك بفتحهما[٨]، وقرأ الجحدري «إحساناً»[٩] وكذا في مصحف أبيّ.

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٢٩)، و«الفريد» (٣/ ٧٣٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣١١).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٤٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣١١).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٤٠)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٢).
(٤) انظر: «الدر المصون» (٦/ ١٨٤) وفي (٩/ ١١).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٦١).
(٦) «التبيان» (٢/ ١٠٢٩)، و«الفريد» (٣/ ٧٣٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣١١).
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٤١). قراءة الجمهور هي قراءة العشرة وهي متواترة وما عداها فشاذة.
(٨) «القراءات الشاذة» (ص١١٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٤٢).
(٩) وهي قراءة شاذة. «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣١٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٤١).

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾؛ أي: طلبا منك وألزماك أن تشرك بي إلٰها ليس لك به علم بكونه إلٰهاً، فلا تطعهما فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعبّر بنفي العلم عن نفي الإلٰه؛ لأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه، فكيف بما علم بطلانه؟ وإذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع مجرّد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى.

ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية لله كما صحّ ذلك عن رسول الله ﷺ ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها، فأجازي كُلّاً منكم بما يستحقه.

والموصول في قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ﴾ في محل رفع[1] على الابتداء وخبره ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: في زمرة الراسخين في الصلاح.

ويجوز أنْ يكون في محل[2] نصب على الاشتغال، ويجوز أن يكون المعنى: لندخلنهم في مدخل الصالحين، وهو: الجنّة كذا قيل، [٣/٣٦٦] والأوّل أولى.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾؛ أي: في شأن الله، ولأجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الإيمان، وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات من إيقاع الأذى عليهم لأجل الإيمان بالله، والعمل بما أمر به ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ التي هي ما يوقعونه عليه من الأذى ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: جزع من أذاهم فلم يصبر عليه، وجعله في الشدّة والعظم كعذاب الله، فأطاع الناس كما يطيع الله، وقيل: هو المنافق إذا أُوذي في الله رجع عَنْ الدين فكفر.

قال الزجّاج[3]: ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذية في الله. ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ أي: نصر من الله للمؤمنين، وفتح، وغلبة للأعداء، وغنيمة يغنمونها منهم ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾؛ أي: داخلون معكم في دينكم، ومعاونون لكم على

(١) «روح المعاني» (٢٠/٣١٥)، و«التبيان» (٢/١٠٣٠)، و«الفريد» (٣/٧٣٤).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/١٦١).

عدوّكم، فكذبهم الله وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: هو سبحانه أعلم بما في صدورهم منهم من خير وشرّ، فكيف يدّعون هذه الدعوى الكاذبة؟

وهؤلاء هم قوم ممن كان في إيمانهم ضعف، كانوا إذا مسهم الأذى من الكفار وافقوهم. وإذا ظهرت قوّة الإسلام، ونصر الله المؤمنين في موطن من المواطن ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ وقيل: المراد بهذا، وما قبله المنافقون. قال مجاهد: نزلت في ناس كانوا يؤمنون بالله بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة افتتنوا[١].

وقال الضحاك[٢]: نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك.

والظاهر أن هذا النظم من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ نازل في المنافقين لما يظهر من السياق، ولقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فإنّها لتقرير ما قبلها وتأكيده: أي: ليميزنّ الله بين الطائفتين، ويُظهر إخلاص المخلصين ونفاق المنافقين؛ فالمخلص الذي لا يتزلزل بما يصيبه من الأذى ويصبر في الله حق الصبر، ولا يجعل فتنةَ الناس كعذاب الله، والمنافق الذي يميل هكذا وهكذا فإن أصابه أذى من الكافرين وافقهم وتابعهم وكفر بالله ﷻ، وإن خفقت ريح الإسلام، وطلع نصره، ولاح فتحه، رجع إلى الإسلام وزعم أنه من المسلمين.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ اللام في «للذين آمنوا» هي: لام التبليغ[٣]: أي: قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه في غير موضع: أي: قالوا لهم: اسلكوا طريقتنا وادخلوا في ديننا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾؛ أي: إنْ كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث والنشور كما تقولون، فلنحمل ذلك عنكم فنؤاخذ به دونكم، واللام في لنحمل لام الأمر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك.

---

(١) «الوسيط» (٣/ ٤١٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣١٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٦٥) بسند حسن.

(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٣١٦ ـ ٣١٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣١٧).

وقال الفراء[1]، والزجاج[2]: هو أمرٌ في تأويل الشرط والجزاء: أي: إن تتبعوا سبيلنا نحملْ خطاياكم، ثم ردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ﴾ مِنْ الأولى[3] بيانية، والثانية[3] مزيدة للاستغراق: أي: وما هم بحاملين شيئاً من خطيئاتهم التي التزموا بها وضمنوا لهم حملها.

ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب في هذا التحمل، فقال: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم.

قال المهدوي[4]: هذا التكذيب لهم من الله ﷻ حمل على المعنى؛ لأن المعنى: إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم، فلما كان الأمر يرجع في المعنى إلى الخبر أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾؛ أي: أوزارهم التي عملوها، والتعبير عنها بالأثقال للإيذان بأنّها ذنوب عظيمة ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾؛ أي: أوزاراً مع أوزارهم، وهي: أوزار مَنْ أضلوهم وأخرجوهم عن الهدى إلى الضلالة، ومثله قوله سبحانه: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] ومثله قوله ﷺ: «من سنّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها» كما في حديث أبي هريرة[5] الثابت في «صحيح مسلم» وغيره: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تقريعاً وتوبيخاً ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾؛ أي: يختلقونه من الأكاذيب التي كانوا يأتون بها في الدنيا وقال مقاتل[6]: يعني: قولهم: نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله.

وقد أخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[7] في

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٤).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٦١ ـ ١٦٢).
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٣١٧ ـ ٣١٨)، و«الفريد» (٣/ ٧٣٤)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣٠).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٤٣).
(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (١٦/ ٢٦٧٤)، وابن ماجه رقم (٢٠٦)، والدارمي (١/ ١٣١).
(٦) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤١٥).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٥٨، ٣٥٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣١) من طريق مطر، عن الشعبي.

قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ الآية قال: أنزلت في ناس كانوا بمكة قد أقرّوا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما أنزلت آية الهجرة: أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا، قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة، فاتبعهم المشركون، فردّوهم، فنزلت فيهم هذه الآية، فكتبوا إليهم: أنه قد أنزل فيكم كذا وكذا، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قتلناه فخرجوا، فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم مَنْ قُتل ومنهم من نجا، فأنزل الله فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠].

وأخرج ابن أبي حاتم(١) عن قتادة نحوه بأخصر منه.

وأخرج ابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير(٢) قال: نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾ الآية.

[أول من أظهر الله إسلامه سبعة]:

وأخرج ابن ماجه، وابن مردويه عن ابن مسعود(٣) قال: أوّل من أظهر الله إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر وسمية أم عمار، وعمار، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر، فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلّا وقد أتاهم على ما أرادوا إلّا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدْ.

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣١) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٥٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٥٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٣/ ٣٧٥، ٣٧٦) من طريق ابن جريج، به.

(٣) أخرجه ابن ماجه رقم (١٥٠). وهو حديث صحيح.
وأخرجه الحاكم (٣/ ٢٨٤) وصحّحه ووافقه الذهبي، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٧٠٤١).

مجاهد[1] في قوله: ﴿أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ قال: أن يعجزونا.

[أم سعد بن أبي وقاص ومجاهدتها له ليكفر]:

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص[2] قال: قالت أمي: لا آكل طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى تكفر بمحمد، فامتنعت من الطعام، والشراب حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا، فنزلت هذه الآية ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ﴾.

وأخرجه أيضاً الترمذي[3] من حديثه، وقال: نزلت فيّ أربع آيات، وذكر نحو هذه القصة، وقال: حسن صحيح.

وقد أخرج هذا الحديث أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي أيضاً[4].

[أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل]:

وأخرج أحمد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن ماجه، وأبو يعلى، وابن حبان، وأبو نعيم، والبيهقي، والضياء عن أنس[5] قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثالثة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلّا ما وارى إبط بلال».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[6] في قوله: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾ قال: يرتدّ عن دين الله إذا أوذي في الله.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٦٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٣) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٦) من طريق سماك بن حرب، به.

(٣) أخرجه الترمذي في «السنن» رقم (٣١٨٩).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٨١)، ومسلم رقم (٤٤/ ١٧٤٨)، وأبو داود رقم (٢٧٤٠)، والنسائي في «التفسير» رقم (٢١٦).

(٥) أخرجه أحمد رقم (١٢٢١٢) و(١٤٠٥٥)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٦٤) و(١٤/ ٣٠٠)، وعبد بن حميد رقم (١٣١٥ ـ منتخب)، والترمذي رقم (٢٤٧٢)، وابن ماجه رقم (١٥١)، وأبو يعلى رقم (٣٤٢٣)، وابن حبان رقم (٦٥٦٠)، وأبو نعيم (١/ ١٥٠) و(٦/ ٢٥٢)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٦٣٢)، والضياء في «المختارة» رقم (١٦٣٣). وهو حديث صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٦٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٣٨) بسند ضعيف.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

[قصة إبراهيم وقومه]:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾
يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾
وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ
﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ
إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أجمل سبحانه قصة نوح تصديقاً لقوله في أوّل السورة: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ٣] وفيه تثبيت(١) للنبي ﷺ، كأنه قيل له: إن نوحاً لبث ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعو قومه، ولم يؤمن منهم إلّا قليل، فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك، وكثرة عدد أُمتّك.

(١) «جامع البيان» (١٨/ ٣٧٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٤٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٢٢).

قيل: ووقع في النظم إلّا خمسين عاماً، ولم يقل: تسعمائة سنة وخمسين؛ لأن في الاستثناء(١) تحقيق العدد بخلاف الثاني، فقد يُطلق على ما يقرب منه.

وقد اختلف في مقدار عمر نوح.

وسيأتي آخر البحث، وليس في الآية إلّا أنّه لبث فيهم هذه المدة، وهي لا تدل على أنّها جميع عمره.

فقد تلبث في غيرهم قبل اللبث فيهم، وقد تلبث في الأرض بعد هلاكهم بالطوفان، والفاء في ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ للتعقيب(٢): أي: أخذهم عقب تمام المدة المذكورة، والطوفان يقال: لكلّ شيءٍ كثير مطيف بجمعٍ، محيط بهم من مطر، أو قتل، أو موت قاله النحاس(٣).

وقال سعيد بن جبير، وقتادة، والسدي: هو: المطر(٤)، وقال الضحاك(٥): الغرق، وقيل: الموت(٦)، ومنه قول الشاعر:

أفـنـاهُـم طُـوفـانُ مـوتٍ جـارفُ(٧) ....

وجملة ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في محل نصب(٨) على الحال: أي: مستمرون [٣/٣٦٧] على الظلم، ولم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح، وذكّرهم هذه المدّة بطولها ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾؛ أي: أنجينا نوحاً وأنجينا مَنْ معه في السفينة من أولاده وأتباعه، واختلف في عددهم على أقوال.

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾؛ أي: السفينة ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: عبرةً عظيمة لهم، وفي كونها آية وجوه(٩):

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٢٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٤٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٢٠).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) في «معاني القرآن» (٥/ ٢١٧).
(٤) ذكره عنهم الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٢٧٩)، والقرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٤٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٧١) بسند حسن.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤٢) من طريق المنهال بن خليفة، به.
(٧) «جامع البيان» (١٨/ ٣٧١)، و«النكت والعيون» (٤/ ٢٧٩).
(٨) «الفريد» (٣/ ٧٣٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٢٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٥٠، ٢٥٢).
(٩) «تفسير الرازي» (٢٥/ ٤٢).

أحدها: أنها كانت باقية على الجوديّ مدة مديدة.

وثانيها: أن الله سلم السفينة من الرياح المزعجة.

وثالثها: أنّ الماء غيض قبل نفاذ الزاد.

وهذا غير مناسب لوصف السفينة بأن الله جعلها آية، وقيل: إن الضمير[١] راجع في جعلناها إلى الواقعة، أو إلى النجاة، أو إلى العقوبة بالغرق.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ انتصاب[٢] إبراهيم بالعطف على نوحاً وقال الكسائي[٣]: هو معطوف على الهاء في جعلناها، وقيل: منصوب بمقدّر: أي: واذكر إبراهيم. وإذ قال منصوب على الظرفية: أي: وأرسلنا إبراهيم وقت قوله لقومه: اعبدوا الله، أو جعلنا إبراهيم آية وقت قوله هذا: أو واذكر إبراهيم وقت قوله. على أن الظرف[٤] بدل اشتمال من إبراهيم.

[بيان حقيقة دعوة إبراهيم عليه السلام وتحبيبها إليهم]:

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ أي: أفردوه بالعبادة وخُصّوه بها، واتقوه أن تشركوا به شيئاً ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: عبادة الله وتقواه خير لكم من الشرك، ولا خير في الشرك أبداً ولكنّه خاطبهم باعتبار اعتقادهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم، أو تعلمون علماً تميزون به بين ما هو خير وما هو شرّ.

قرأ الجمهور «وإبراهيمَ» بالنصب[٥]. ووجهه ما قدّمنا.

وقرأ النخعي، وأبو جعفر، وأبو حنيفة بالرفع[٦] على الابتداء، والخبر مقدّر: أي: ومن المرسلين إبراهيم.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ بيّن لهم إبراهيم أنّهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضرّ ولا يسمع ولا يبصر، والأوثان هي: الأصنام.

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٠٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٤٩)، و«الفريد» (٣/ ٧٣٤ ـ ٧٣٥)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣٠).

(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٥٢).

(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٣٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٢٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٤٧).

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٤٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٢٤).

(٦) «القراءات الشاذة» (ص١١٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٤٧)، و«حاشية الجمل» (٣/ ٣٧٠). الرواية عن أبي جعفر شاذة عنه، وقراءة النصب هي قراءة العشرة المتواترة.

وقال أبو عبيدة[(١)]: الصنم: ما يُتخذ مِنْ ذهب أو فضة أو نحاس، والوثن ما يتخذ مِنْ جصّ أو حجارة.

وقال الجوهري[(٢)]: الوثن: الصنم، والجمع: أوثان ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾؛ أي: وتكذبون كذباً على أنّ معنى تخلقون: تكذبون، ويجوز أن يكون معناه: تعملون وتنحتون: أي: تعملونها، وتنحتونها للإفك.

قال الحسن[(٣)]: معنى تخلقون: تنحتون: أي: إنما تعبدون أوثاناً وأنتم تصنعونها.

قرأ الجمهور[(٤)]: «تَخْلُقون» بفتح الفوقية، وسكون الخاء، وضم اللّام مضارع خلق، وإفكاً بكسر الهمزة، وسكون الفاء. وقرأ عليّ بن أبي طالب[(٥)]، وزيد بن عليّ والسلمي وقتادة بفتح الخاء، واللام مشدّدة، والأصل تتخلقون. وروي عن زيد بن عليّ: أنه قرأ بضم[(٦)] التاء، وتشديد اللام مكسورة.

وقرأ ابن الزبير وفضيل بن ورقان «أَفِكا» بفتح[(٧)] الهمزة وكسر الفاء، وهو مصدر كالكذب، أو صفة لمصدر محذوف: أي: خلقا أفكا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾؛ أي: لا يقدرون على أنْ يرزقوكم شيئاً مِنْ الرزق ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾؛ أي: اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله، فهو الذي عنده الرزق كله، فاسألوه من فضله ووحدوه دون غيره.

﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾؛ أي: على نعمائه، فإنّ الشكر موجب لبقائها وسبب للمزيد عليها، يقال: شكرتُه وشكرت له. ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت ثم بالبعث لا إلى غيره

---

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ١١٤).

(٢) في «الصحاح» (٦/ ٢١٢١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٩٦) بسند صحيح.

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٧)، و«جامع البيان» (١٨/ ٣٧٤)، و«معاني القرآن» للفراء (٢٠/ ٣١٥).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٠). قراءة الشعرة (تَخْلُقون) بفتح الفوقية فخاء ساكنة بعدها لام مخففة مضمومة، والقراءتان الأخريات شاذتان.

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٨)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٢٥).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٨)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٠).

﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ قيل: هذا من قول إبراهيم: أي: وإن تكذبوني فقد وقع ذلك لغيري ممن قبلكم، وقيل: هو من قول الله سبحانه: أي: وإن تكذبوا محمداً فذلك عادة الكفار مع مَنْ سلف ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ لقومه الذي أرسل إليهم، وليس عليه هدايتهم وليس ذلك في وسعه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ قرأ الجمهور «أَوَلم يروا» بالتحتية[(١)] على الخبر، واختار هذه القراءة أبو عُبيد[(٢)] وأبو حاتم. قال أبو عبيد[(٣)]: كأنه قال: أَوَلم ير الأمم.

وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وثّاب وحَمْزة والكسائي بالفوقية[(٤)] على الخطاب من إبراهيم لقومه، وقيل: هو خطاب من الله لقريش.

قرأ الجمهور «كيف يُبدئ» بضم[(٥)] التحتية من أَبدأ يُبدئ، وقرأ الزبيري وعيسى بن عمر وأبو عمرو بفتحها[(٦)] مِنْ بدأ يَبْدأ.

[قدرة الله على الابتداء والإيجاد]:

وقرأ الزهري[(٧)] «كيف بدأ» والمعنى: ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداءً: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح، ثم يخرجه إلى الدنيا، ثم يتوفاه بعد ذلك؟ وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات، فإذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والإيجاد، فهو القادر على الإعادة، والهمزة لإنكار عدم رؤيتهم، والواو للعطف على مقدّر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ لأنه إذا أراد أمراً قال له: كن فيكون.

ثم أمر[(٨)] سبحانه إبراهيم أَنْ يأمر قومه بالمسير في الأرض ليتفكروا ويعتبروا،

---

(١) «النشر» (٢/ ٣٤٣)، و«التيسير» (ص١٧٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٢٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٧٧).

(٢) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٥١).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٦/ ٣٥١).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة. ولأبي بكر وجه عن عاصم بالتحتية.

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٣٤٩)، و«التيسير» (ص١٧٣).

(٦) «حاشية الشهاب» (٧/ ٩٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٤٩). هي قراءة شاذة، ورواية شاذة عن أبي عمرو.

(٧) «المحتسب» (٢/ ١٦١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٢٨). قراءة الزهري شاذة.

(٨) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٢٩)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٢١١).

فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على كثرتهم واختلاف ألوانهم وطبائعهم وألسنتهم، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية والأمم الخالية وآثارهم؛ لتعلموا بذلك كمال قدرة الله.

وقيل: إن المعنى: قل لهم يا محمد: سيروا، ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أن الله الذي بدأ النشأة الأولى، وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانيةً عند البعث، والجملة عطف على جملة سيروا في الأرض داخلة معها في حيز القول، وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لما قبلها.

قرأ الجمهور بـ«النشأة» بالقصر[(١)]، وسكون الشين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالمدّ[(٢)]، وفتح الشين، وهما لغتان كالرأفة، والرآفة. وهي منتصبة[(٣)] على المصدرية بحذف الزوائد، والأصل الإنشاءة.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: هو سبحانه بعد النشأة الآخرة يعذب من يشاء تعذيبه، وهم الكفار، والعصاة، ويرحم من يشاء رحمته، وهم المؤمنون به المصدّقون لرسله العاملون بأوامره، ونواهيه ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾؛ أي: ترجعون، وتردّون لا إلى غيره ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفراء[(٤)]: ولا مَنْ في السماء بمعجزين الله فيها. قال: وهو كما في قول حسان[(٥)]:

فَمَنْ يهجُو رسولَ اللَّهِ مِنكُمْ ... وَيَمدحُه وينصُره سَوَاءُ

أي: ومَنْ يمدحه وينصره سواء. ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]؛ أي: إلّا من له مقام معلوم، والمعنى: أنه لا يعجزه سبحانه أهل الأرض في الأرض، ولا أهل السماء في السماء إن عصوه.

وقال قطرب[(٦)]: إن معنى الآية: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتني فلان ها هنا ولا بالبصرة: يعني: ولا بالبصرة لو صار إليها. وقال

---

(١) «التيسير» (ص١٧٣)، و«النشر» (٢/ ٣٤٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٥٢).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣)، و«الفريد» (٣/ ٧٣٦)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣٠).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٥).
(٥) انظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٦٤).
(٦) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٣٧).

المبرِّد[١]: المعنى: ولا من في السماء. على أن «من» ليست موصولة[٢] بل نكرة، وفي السماء صفة لها، فأقيمت الصفة مقام الموصوف، وردّ ذلك عليّ بن سليمان[٢] وقال: لا يجوز، ورجّح ما قاله قُطْرب.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ «من» مزيدة[٣] للتأكيد: أي: ليس لكم وليّ يواليكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم عذاب الله. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ المراد بالآيات: الآيات التنزيلية[٤] أو التكوينية أو جميعهما، وكفروا بلقاء الله: أي: أنكروا البعث وما بعده، ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل الله سبحانه، والإشارة بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إلى الكافرين بالآيات واللقاء، وهو مبتدأ وخبره ﴿يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾؛ أي: إنّهم في الدنيا آيسون من رحمة الله لم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله ولا ما أخبرتهم به رسله.

وقيل: المعنى: أنهم[٥] ييأسون يوم القيامة من رحمة الله وهي الجنة. والمعنى: أنهم أُويِسوا مِنْ الرحمة ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كرّر[٦] سبحانه الإشارة للتأكيد، ووصف العذاب بكونه أليماً للدلالة على أنه في غاية الشدّة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ هذا رجوع إلى خطاب إبراهيم بعد الاعتراض بما تقدّم من خطاب محمد ﷺ على قول من قال: إن قوله: قل: سيروا في الأرض خطاب لمحمد ﷺ، وأما على قول من قال: إنه خطاب لإبراهيم عليه السلام؛ فالكلام في سياقه سابقاً ولاحقاً: أي: قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم: افعلوا بإبراهيم أحد الأمرين المذكورين.

[سلب خاصية الإحراق من النار، وآيتها العظيمة]:

ثم اتفقوا على تحريقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وجعلها عليه برداً وسلاماً ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في إنجاء الله لإبراهيم ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ بيّنة: أي: دلالات واضحة،

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٥٣).
(٢) «التبيان» (٢/ ١٠٣١)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٦٨).
(٣) «التبيان» (٢/ ١٠٣١)، و«الفريد» (٣/ ٧٣٧ ـ ٧٣٨).
(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٣٥)، و«تفسير الرازي» (٢٥/ ٥٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٢٢).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٣٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٢٣).

وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة الله، وبديع صنعه؛ حيث أضرموا تلك النار العظيمة، وألقوه فيها، ولم تحرقه، ولا أثّرت فيه أثراً؛ بل صارت إلى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة، والإحراق، وإنما خصّ المؤمنون؛ لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه، وأما من عداهم، فهم عن ذلك غافلون.

قرأ الجمهور بنصب[1] «جوابَ قومه» على أنه خبر كان وما بعده اسمها، وقرأ سالم الأفطس وعمرو بن دينار، والحسن برفعه[2] على أنه اسم كان، وما بعده في محل نصب على الخبر.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: قال إبراهيم لقومه: أي: للتوادد بينكم والتواصل لاجتماعكم على عبادتها وللخشية من ذهاب المودّة فيما بينكم إن تركتم عبادتها.

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: «مودّةُ بينكم» برفع مودّة[3] غير منوّنة وإضافتها إلى بينكم. وقرأ الأعمش، وابن وثاب «مودّةٌ» برفعها[4] منوّنة. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بنصب «مَّوَدَّةً»[5] منوّنة، ونصب بينَكم على الظرفية. وقرأ حمزة وحفص بنصب «مودّةَ»[6] مضافة إلى بينِكم.

فأما قراءة الرفع، فذكر الزجاج[7] لها وجهين:

الأوّل: أنها ارتفعت على خبر إنّ في «إنما اتخذتم»، وجعل ما موصولة. والتقدير: إن الذي اتخذتموه من دون الله أوثاناً مودّةُ بينكم.

والوجه الثاني: أن تكون على إضمار مبتدأ: أي: هي مودّةٌ، أو تلك مودّة.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٥١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٣٦)، و«التبصرة والتذكرة» (١/ ١٨٥).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة الحسن شاذة.
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٣٥٢)، و«التيسير» (ص١٧٣)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٦٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٧٩).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص١١٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٥٢). قراءة الأعمش وابن وثّاب شاذة.
(٥) «التيسير» (ص١٧٣)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣١)، و«جامع البيان» (١٨/ ٣٨٢)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٥).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٣١٧).

والمعنى: أن المودّة هي التي جمعتكم على عبادة الأوثان، واتخاذها. قيل: ويجوز أن تكون مودّة مرتفعة [٣/٣٦٨] بالابتداء، وخبرها في الحياة الدنيا.

ومَنْ قرأ برفع مودّة منوّنة، فتوجيهه كالقراءة الأولى، ونصب بينكم على الظرفية.

ومَنْ قرأ بنصب[١] مودّة، ولم ينوّنها جعلها مفعول اتخذتم، وجعل إنما حرفاً واحداً للحصر، وهكذا من نصبها، ونوّنها.

ويجوز أَنْ يكون النصبُ في هاتين القراءتين على أن المودّة علة، فهي مفعول لأجله[٢]، وعلى قراءة الرفع يكون مفعول اتخذتم الثاني محذوفاً؛ أي: أوثاناً آلهة، وعلى تقدير أن (ما) في قوله: «إنما اتخذتم» موصولة يكون المفعول الأوّل ضميرها: أي: اتخذتموه، والمفعول الثاني أوثاناً ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: يكفر بعض هؤلاء المتخذين للأوثان العابدين لها بالبعض الآخر منهم؛ فيتبرأ القادة من الأتباع، والأتباع من القادة.

وقيل: المعنى: يتبرأ العابدون للأوثان مِنْ الأوثان، وتتبرأ الأوثان من العابدين لها ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ أي: يلعن كلّ فريق الآخر على التفسيرين المذكورين ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ أي: الكفار، وقيل: يدخل في ذلك الأوثان: أي: هي منزلكم الذي تأوون إليه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ يخلصونكم منها بنصرتهم لكم ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾؛ أي: آمن لإبراهيم لوط، فصدّقه في جميع ما جاء به، وقيل: إنه لم يؤمن به إلّا حين رأى النار لا تحرقه، وكان لوط ابن أخي إبراهيم.

[إبرهيم هو الذي قال إني مهاجر إلى ربي]:

﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ قال النخعي[٣]، وقتادة: الذي قال: إني مهاجر إلى ربي هو: إبراهيم.

قال قتادة[٤]: هاجر من كوثى، وهي قرية من سواد الكوفة إلى حرّان، ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط، وامرأته سارّة.

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٣١)، و«الفريد» (٣/ ٧٣٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٥١ ـ ٣٥٢).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) ذكره عنهما ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢١٦).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٠) بسند صحيح.

والمعنى: إنّي مهاجر عَنْ دار قومي إلى حيث أعبد ربي ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: الغالب الذي أفعاله جارية على مقتضى الحكمة.

وقيل: إن القائل: إنّي مهاجر إلى ربي هو[1]: لوط، والأوّل أولى لرجوع الضمير في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ إلى إبراهيم. وكذا في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، وكذا في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فإن هذه الضمائر كلها لإبراهيم بلا خلاف: أي: منّ الله عليه بالأولاد، فوهب له إسحاق ولداً له، ويعقوب ولداً لولده إسحاق، وجعل في ذرّيته النبوّة، فلم يبعث الله نبيّاً بعد إبراهيم إلّا مِنْ صلبه، ووحّد الكتاب؛ لأن الألف، واللام فيه للجنس الشامل[2] للكتب، والمراد: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن.

ومعنى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ﴾: أنّه أُعطي في الدنيا الأولاد، وأخبره الله باستمرار النبوّة فيهم، وذلك مما تقرّ به عينُه، ويزداد به سروره، وقيل: أجره في الدنيا أن أهل الملل كلها تدّعيه، وتقول: هو منهم.

وقيل: أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً، وعاقبةً حسنة، وإنه في الآخرة لمن الصالحين: أي: الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة، وكثرة العطاء من الربّ سبحانه[3].

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس[4] قال: بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس، وفشوا.

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢١٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٥٦).

(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٤٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٢٤)، و«مجمع البيان» (٢٠/ ٣٥٥).

(٣) انظر: «النكت والعيون» (٤/ ٢٨١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣)، و«معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٢٢٠).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٦٠، ٦١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤١)، والحاكم (٢/ ٥٤٥، ٥٤٦) بسند ضعيف؛ لضعف علي بن زيد، وهو ابن جدعان.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة[١] قال: كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى قومه، وبعد ما بعث ألفاً وسبعمائة سنة.

وأخرج ابن جرير[٢] عن عون بن أبي شدّاد قال: إن الله أرسل نوحاً إلى قومه، وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فلبث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة.

وأخرج ابن أبي الدنيا[٣] في كتاب «ذمّ الدنيا» عن أنس بن مالك قال: جاء ملَكُ الموت إلى نوح، فقال: يا أطول النبيين عُمْراً كيف وجدت الدنيا، ولذتها؟ قال: كرجل دخل بيتاً له بابان، فقال في وسط البيت هنيهة، ثم خرج من الباب الآخر.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة[٤] في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: أبقاها الله آية، فهي على الجوديّ.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ قال: تقولون كذباً.

وأخرج ابن جرير[٦] عن ابن عباس في قوله: ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ قال: هي: الحياة بعد الموت، وهو النشور.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم[٧] عنه أيضاً في قوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ قال: صدّق لوط إبراهيم.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٦).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤٢) بسند حسن.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «ذم الدنيا» رقم (٢٢٩).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٧٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤٣) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٧٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤٤) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٧٨) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٨٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٠) بسند ضعيف.

[أول من هاجر من المسلمين بأهله إلى الحبشة عثمان بن عفان]:

وأخرج أبو يعلى، وابن مردويه عن أنس[١] قال: «أوّل من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان، فقال النبي ﷺ: صحبهما الله، إن عثمان لأوّل مَنْ هاجر إلى الله بأهله بعد لوط».

وأخرج ابن منده، وابن عساكر عن أسماء بنت أبي بكر[٢] قالت: «هاجر عثمان إلى الحبشة، فقال النبي ﷺ: إنه أوّل من هاجر بعد إبراهيم ولوط».

وأخرج ابن عساكر والطبراني والحاكم في الكنى عن زيد بن ثابت[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان بين عثمان، وبين رقية، وبين لوط مهاجر».

وأخرج ابن عساكر[٤] عن ابن عباس قال: أوّل من هاجر إلى رسول الله ﷺ عثمان بن عفان كما هاجر لوط إلى إبراهيم.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ قال: هما ولدا إبراهيم، وفي قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ قال: إن الله وصى أهل الأديان بدينه، فليس من أهل الأديان دين إلّا وهم يتولون إبراهيم، ويرضون به.

---

(١) أخرجه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» رقم (٤٣٣٦) عن قتادة مرسلاً.
وأخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» رقم (١٢٣، ٢٩٧٨)، وفي «السُّنَّة» رقم (١٣١١)، والطبراني رقم (١٤٣) من طريق قتادة، عن النضر بن أنس، عن أنس.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٨٠، ٨١): «فيه الحسن بن زياد البرجمي، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

(٢) أخرجه ابن منده كما في «الإصابة» (٧/ ٦٤٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣/ ١٥٠)، (٣٩/ ٣٠، ٣١).
وقال الحافظ: «إسناده واهٍ».

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٩/ ٣١) و(٥٠/ ٣٠٨)، والطبراني رقم (١٨٨١) بسند ضعيف جدّاً.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٨١): «فيه عثمان ابن خال العثماني، متروك».

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٩/ ٣٠) و(٥٠/ ٣٠٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٢) بسند ضعيف.

وأخرج هؤلاء[١] عنه أيضاً في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ قال: الذكر الحسن.

وأخرج ابن جرير[٢] عنه أيضاً قال: الولد الصالح، والثناء.

وقول ابن عباس: هما ولدا إبراهيم لعلّه يريد ولده، وولد ولده؛ لأنّ ولد الولد بمنزلة الولد، ومثل هذا لا يخفى على مثل ابن عباس فهو حبر الأمة، وهذه الرواية[٣] عنه هي مِنْ رواية العوفي.

وفي «الصحيحين»: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[٤].

[قصة لوط مع قومه]:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٢) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٨٧) بسند ضعيف.

(٣) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٩٦)، والبخاري في «صحيحه» رقم (٣٣٨٢).

[قصص مدين وعاد وثمود وغيرهم]:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا
وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بالعطف على نوحاً، أو على إبراهيم، أو بتقدير: اذكر.

قال الكسائي[(١)]: المعنى: وأنجينا لوطاً أو وأرسلنا لوطاً.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ظرف للعامل في لوط ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ قرأ أبو عَمْرو وحمزة والكسائي وأبو بكر «أئنكم» بالاستفهام[(٢)].

وقرأ الباقون بلا استفهام[(٣)]، والفاحشة: الخصلة المتناهية في القُبْح، وجملة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مقرّرة[(٤)] لكمال قُبح هذه الخصلة وأنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم. ثم بيّن سبحانه هذه الفاحشة، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾؛ أي: تلوطون بهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ قيل: إنّهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمرّ بهم من المسافرين، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم فقطعوا السبيل بهذا السبب. قال الفراء[(٥)]: كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٣٥٥).

(٢) «النشر» (١/ ٣٧٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ٢٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٥٣).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٤٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٢٤).

(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٦).

وقيل: كانوا يقطعون الطريق على المارّة بقتلهم ونهبهم. والظاهر أَنَّهم كانوا يفعلون ما يكون سبباً لقطع الطريق من غير تقييد[1] بسبب خاص، وقيل: إن معنى قطع الطريق: قطع النسل بالعدول عَنْ النساء إلى الرجال ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ النادي، والنديّ، والمنتدى: مجلس القوم، ومتحدّثهم.

واختُلف في المنكر الذي كانوا يأتونه فيه.

فقيل: كانوا يحذفون[2] الناس بالحصباء ويستخفون بالغريب.

وقيل: كانوا يتضارطون[3] في مجالسهم.

وقيل: كانوا يأتون[4] الرجال في مجالسهم، وبعضهم يرى بعضاً.

وقيل[5]: كانوا يلعبون بالحمام.

وقيل: كانوا يخضبون[6] أصابعهم بالحناء.

وقيل: كانوا يناقرون بين الديكة ويناطحون[7] بين الكباش.

وقيل: يلعبون بالنرد[8] والشطرنج، ويلبسون المصبغات. ولا مانع مِنْ أَنّهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات.

قال الزجاج[9]: وفي هذا إعلام أنّه لا ينبغي أن يتعاشر الناس على المنكر، وأنْ لا يجتمعوا على الهزؤ، والمناهي. ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلونه

---

(١) «النكت والعيون» (٤/ ٢٨٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٦٨٩١)، والترمذي رقم (٣١٩٠)، والطبراني (ج٢٤ رقم ١٠٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٠٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٧٥٥) من حديث أم هانئ. وهو حديث ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٨٩)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ١٩٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٤) من طريق عروة بن الزبير، عن عائشة.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٩١) عن مجاهد بسند صحيح.

(٥) قاله مجاهد. «روح المعاني» (٢٠/ ٣٤٤)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٢٤٠).

(٦)(٧) قاله ابن عباس. «معالم التنزيل» (٦/ ٢٤٠)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٢١٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٤٤).

(٨) انظر: المصادر المتقدمة.

(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٦٨).

أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾؛ أي: فما أجابوا بشيء إلّا بهذا القول رجوعاً منهم إلى التكذيب، واللَّجاج، والعناد.

وقد تقدّم الكلام على هذه الآية، وقد تقدّم في سورة النمل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] وتقدّم في سورة الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ [٣/٣٦٩] أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وقد جُمع بين هذه الثلاثة المواضع بأنّ لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد، ومكرّراً للنهي لهم، والوعيد عليهم، فقالوا له أوّلاً: ائتنا بعذاب الله كما في هذه الآية، فلما كثر منه ذلك، ولم يسكت عنهم قالوا: أخرجوهم كما في الأعراف، والنمل، وقيل: إنهم قالوا أوّلاً: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، ثم قالوا ثانياً: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

ثم إن لوطاً لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه فـ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بإنزال عذابك عليهم. وإفسادُهم، هو بما سبق من إتيان الرجال، وعمل المنكر في ناديهم، فاستجاب الله سبحانه، وبعث لعذابهم ملائكته وأمرهم بتبشير إبراهيم قبل عذابهم، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ أي: بالبشارة بالولد، وهو: إسحاق، وبولد الولد، وهو: يعقوب ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ أي: قالوا لإبراهيم هذه المقالة، والقرية هي: قرية سدوم التي كان فيها قوم لوط، وجملة ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك: أي: إهلاكنا لهم بهذا السبب ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾؛ أي: قال لهم إبراهيم: إن في هذه القرية التي أنتم مهلكوها لوطاً فكيف تهلكونها؟ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ من الأخيار والأشرار ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ من العذاب.

قرأ الأعمش، وحمزة، ويعقوب، والكسائي «لَنُنْجَينه» بالتخفيف(١)، وقرأ

---

(١) «التيسير» (ص١٧٣)، و«النشر» (٢/٢٥٩)، و«البحر المحيط» (٨/٣٥٥).

الباقون[١] بالتشديد ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: الباقين في العذاب، وهو لفظ مشترك بين الماضي والباقي، وقد تقدّم تحقيقه.

وقيل: المعنى: من الباقين في القرية التي سينزل بها العذاب، فَتُعذّب من جملتهم ولا تنجو فيمن نجا ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾؛ أي: لما جاءت الرسل لوطاً بعد مفارقتهم إبراهيم سيئ بهم: أي: جاءه ما ساءه وخاف منه؛ لأنه ظنّهم من البشر، فخاف عليهم من قومه لكونهم في أحسن صورة من الصور البشرية، و«أن» في أن جاءت زائدة[٢] للتأكيد.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾؛ أي: عَجز عَنْ تدبيرهم، وحزن، وضاق[٣] صدره، وضيق الذراع: كناية عن العجز، كما يُقال: في الكناية عن الفقر: ضاقت يده، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة هود.

ولما شاهدت الملائكة ما حلّ به من الحزن، والتضجر ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾؛ أي: لا تخف علينا من قومك، ولا تحزن، فإنهم لا يقدرون علينا ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ﴾ من العذاب الذي أمرنا الله بأن ننزله بهم ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أخبروا لوطاً بما جاءوا به من إهلاك قومه وتنجيته، وأهله إلّا امرأته كما أخبروا بذلك إبراهيم، قرأ حمزة، والكسائي، ويعقوب، والأعمش «مُنْجُوك» بالتخفيف[٤].

وقرأ الباقون[٥] بالتشديد.

قال المبرِّد[٦]: الكاف في منجوك مخفوض، ولم يجز عطف الظاهر على المضمر المخفوض، فحمل الثاني على المعنى، وصار التقدير: وننجي أهلك.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٥٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٤٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٧٩).

(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٤٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٢٦).

(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٣٢٧).

(٤) «النشر» (٢/ ٢٥٩)، و«التيسير» (ص١٧٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٥٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٧٩). ومع مَنْ قرأ بالتخفيف ابن كثير وخلف.

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٥٥).

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله، والرُّجْزُ: العذاب؛ أي: عذاباً مِنْ السماء، وهو: الرمي بالحجارة، وقيل: إحراقهم بنار نازلة من السماء، وقيل: هو الخسف، والحَصْب كما في غير هذا الموضع، ومعنى كون الخسف من السماء: أن الأمر به نزل من السماء.

قرأ ابن عامر: «مُنزّلون» بالتشديد[1]. وبها قرأ ابن عباس. وقرأ الباقون بالتخفيف[2]، والباء في ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ للسببية: أي: لسبب فسقهم ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾؛ أي: أبقينا مِنْ القرية علامة ودلالة بيِّنة، وهي الآثار التي بها من الحجارة التي رجموا بها، وخراب الديار.

وقال مجاهد[3]: هو الماء الأسود الباقي على وجه أرضهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر، وخص مَنْ يعقل؛ لأنه الذي يفهم أن تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾؛ أي: وأرسلناه إليهم.

وقد تقدّم ذكره، وذكر نسبه، وذكر قومه في سورة الأعراف، وسورة هود ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أفردوه بالعبادة وخصّوه بها. ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾؛ أي: توقعوه وافعلوا اليوم من الأعمال ما يدفع عذابه عنكم.

قال يونس النحوي[4]: معناه: اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الأعمال.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ العُثُو، والعُثْي أشدّ الفساد. وقد تقدّم تفسيره. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾؛ أي: الزلزلة، وتقدّم في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

---

(١) «النشر» (٢/ ٢٥٩)، و«التيسير» (ص٩٠، ١٧٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٥٠).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «معالم التنزيل» (٦/ ٢٤١).
قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧)، يقول تعالى ذكره: ولقد أبقينا من فعلتنا التي فعلنا بهم ﴿ءَايَةًۢ﴾ يقول: عبرةً بيِّنة، وعظةً واعظة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله حُججه، ويتفكرون في مواعظه، وتلك الآية البيِّنة هي عندي عُفُوُّ آثارهم، ودُرُوس معالمهم.
(٤) ذكره القرطبي في«تفسيره» (١٦/ ٣٦١)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (٣/ ١٥٠).
يونس بن يحيى بن نباتة القرشي المدني النحوي (ت٢٠٦هـ) وهو من رواة الحديث.
«تقريب التهذيب» (٢/ ٥٤٧ رقم ٧٩١٨)، و«الكاشف» (٣/ ٢٦٧ رقم ٦٥٩٧).

﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٦٧]؛ أي: صيحة جبريل، وهي سبب الرجفة ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾؛ أي: أصبحوا في بلدهم أو منازلهم جاثمين على الركب ميتين ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ﴾ قال الكسائي[١]: قال بعضُهم: هو راجع إلى أوّل السورة: أي: ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عاداً وثمود، قال: وأحبّ إليّ أن يكون على «فأخذتهم الرجفة»؛ أي: وأخذت عاداً وثمود.

وقال الزجاج[٢]: التقدير: وأهلكنا عاداً وثمود، وقيل: المعنى: واذكر عاداً، وثموداً إذْ أرسلنا إليهم هوداً وصالحاً ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾؛ أي: وقد ظهر لكم يا معاشر الكفار مِنْ مساكنهم بالحِجْر، والأحقاف آيات بينات تتعظون بها، وتتفكرون فيها، ففاعل تبين محذوف ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التي يعملونها من الكفر، ومعاصي الله ﴿فَصَدَّهُمۡ﴾ بهذا التزيين ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: الطريق الواضح الموصل إلى الحق ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾؛ أي: أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال. قال الفراء[٣]: كانوا عقلاء ذوي بصائر فلم تنفعهم بصائرهم.

وقيل: المعنى: كانوا مستبصرين[٤] في كُفرهم وضلالتهم معجبين بها يحسبون أنّهم على هُدى، ويرون أن أمرهم حقّ، فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ﴾ قال الكسائي[٥]: إن شئت كان محمولاً على «عاداً» وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على «فصدّهم عن السبيل»؛ أي: وصدّ قارون وفرعون وهامان.

وقيل: التقدير: وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عن عبادة الله ﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾؛ أي: فائتين، يقال: سبق طالبه: إذا فاته: وقيل: وما كانوا سابقين في الكُفْر؛ بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة، ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾؛ أي: عاقبنا بكفره وتكذيبه.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٥٦).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٦٨).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٧).
(٤) قاله مجاهد. «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٦٢).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٥٦).

قال الكسائي[٤]: «فكلاً أخذنا»؛ أي: فأخذنا كلاً بذنبه ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾؛ أي: ريحاً تأتي بالحصباء، وهي الحصى الصغار فترجمهم بها، وهم قوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم ثمود وأهل مدين ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ وهو قارون وأصحابه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ وهم قوم نوح وقوم فرعون ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما فعل بهم؛ لأنّه قد أرسل إليهم رُسله وأنزل عليهم كتبه ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ باستمرارهم على الكفر وتكذيبهم للرسل وعملهم بمعاصي الله.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: مجلسكم.

وأخرج الفريابي، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن أبي الدنيا في كتاب الصمت، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، وابن عساكر عن أمّ هانئ[٢] بنت أبي طالب قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن قول الله سبحانه: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال: كانوا يجلسون بالطريق، فيحذفون أبناء السبيل، ويسخرون منهم».

قال الترمذي: بعد إخراجه، وتحسينه: ولا نعرفه إلّا من حديث حاتم بن أبي صغيرة عن سماك.

وأخرج ابن مردويه[٣] عن جابر: أن النبي ﷺ نهى عن الخذف، وهو قول الله سبحانه: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.

وأخرج ابن مردويه[٣] عن ابن عمر في الآية قال: هو الخذف. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٩٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٦٨٩١، ٢٧٣٨٣)، والترمذي رقم (٣١٩٠)، وابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت» رقم (٢٨٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٨٩، ٣٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٤)، والطبراني (ج٢٤ رقم ١٠٠٠، ١٠٠٢)، والحاكم (٢/ ٤٠٩) و(٤/ ٢٨٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٧٥٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٠/ ٣٢٣). وهو حديث ضعيف، وقد تقدم.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦١).

وأخرج البخاري في «تاريخه»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عائشة[(١)] في الآية قالت: الضراط.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله[(٢)]: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ قال: الصيحة، وفي قوله: ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ قال: في الضلالة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[(٣)] في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ قال: قوم لوط ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قال: ثمود ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ قال: قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قال: قوم نوح.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

[مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن]:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يوالونهم، ويتكلون عليهم في حاجاتهم من دون الله سواء كانوا من الجماد أو الحيوان ومن الأحياء أو من

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ١٩٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٤) وقد تقدم.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٩٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٥٩، ٣٠٦٠) عن مجاهد بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٠١، ٤٠٢) بسند ضعيف.

الأموات ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فإنّ بيتها لا يُغني عنها شيئاً لا في حرّ ولا قرّ ولا مطر، كذلك ما اتخذوه وليّاً من دون الله، فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع، ولا يغني عنهم شيئاً.

قال الفراء[١]: هو مَثَلٌ ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضرّه كما أَنّ بيت العنكبوت لا يقيها حرّاً ولا برداً. قال: ولا يحسن الوقف على العنكبوت؛ لأنّه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء شبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضرّ به.

وقد جوّز الوقف على العنكبوت الأخفش[٢] وغلّطه ابن الأنباري[٣] قال: لأن اتخذت صلة للعنكبوت كأنه قال: كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتاً، فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول.

والعنكبوت تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وتجمع على عناكب، [٣/٣٧٠] وعنكبوتات، وهي: الدّويبة الصغيرة التي تنسج نسجاً رقيقاً. وقد يقال لها: عكنبات، ومنه قول الشاعر:

كَأنَّما يَسْقُطُ من لُغامِها بيتُ عَكَنْباتٍ على زِمَامِها[٤]

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيت أضعف منه مما يتخذه الهوامّ بيتاً، ولا يدانيه في الوهي والوهن شيء من ذلك ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتاً، أو لو كانوا يعلمون شيئاً من العلم لعلموا بهذا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ (ما) استفهامية، أو نافية، أو موصولة، و﴿مِن﴾ للتبعيض[٥] أو مزيدة للتوكيد.

وقيل: إن هذه الجملة على إضمار القول: أي: قل للكافرين: إن الله يعلم أيّ شيء يدعون من دونه. وجزم أبو علي الفارسي[٦] بأنّها استفهامية، وعلى تقدير النفي

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٧). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٣).
(٣) في «إيضاح الوقف والابتداء» (٢/ ٨٢٧ ـ ٨٢٨).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٦٤).
(٥) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٥٧)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٦٣)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣٣).
(٦) في «الحجة» (٥/ ٤٣٤).

كأنه قيل: إن الله يعلم أنكم لا تدعون من دونه مِنْ شيء: يعني: ما تدعونه ليس بشيءٍ، وعلى تقدير الموصولة: إن الله يعلم الذين تدعونهم من دونه، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، و﴿مِن شَىْءٍ﴾ عبارة عن المصدر.

قرأ عاصم وأبو عمرو ويعقوب «يَدْعون» بالتحتية[1]. واختار هذه القراءة أبو عُبيد[2] لذكر الأمم قبل هذه الآية.

وقرأ الباقون بالفوقية[3] على الخطاب ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الغالبُ المُصْدِر، أفعالَه على غاية الإحكام والإتقان ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾؛ أي: هذا المثل وغيره من الأمثال التي في القرآن نضربها للناس تنبيهاً لهم، وتقريباً لما بَعُد من أفهامهم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾؛ أي: يفهمها ويتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ بالله، الراسخون في العلم المتدبِّرون المتفكرون لما يتلى عليهم، وما يشاهدونه، ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل والقسط مراعياً في خلقها مصالح عباده.

وقيل: المراد بالحق: كلامه وقدرته، ومحل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ النصب على الحال.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لدلالة عظيمة، وعلامة ظاهرة على قدرته، وتفرّده بالإلٰهية، وخص المؤمنين؛ لأنهم الذين ينتفعون بذلك.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: القرآن، وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن، والمحافظة على قراءته مع التدبّر لآياته، والتفكر في معانيه.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: دم على إقامتها، واستمرّ على أدائها كما أُمرتَ بذلك، وجملة: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» تعليل لما قبلها، والفحشاء ما قَبُح مِنْ العمل، والمنكر: ما لا يُعرف في الشريعة: أي: تمنعه عَنْ معاصي الله، وتُبْعده منها، ومعنى نهيها عَنْ ذلك: أنّ فعلها يكون سبباً للانتهاء، والمراد هنا الصلوات المفروضة

---

(١) «التيسير» (ص١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٦٣).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٥).

(٣) «التيسير» (ص١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٦٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٦٥).

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾؛ أي: أكبر مِنْ كلِّ شيء: أي: أفضل من العبادات كلها بغير ذكر.

قال ابن عطية[١]: وعندي أنّ المعنى: ولذكر الله أكبر على الإطلاق: أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء، والمنكر؛ فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل ما لم يكن منه في الصلاة؛ لأنّ الانتهاء لا يكون إلّا من ذاكر لله مراقب له. وقيل: ذكر الله أكبر من الصلاة في النهي عن الفحشاء، والمنكر مع المداومة عليه.

قال الفراء[٢]، وابن قتيبة[٣]: المراد بالذكر في الآية: التسبيح، والتهليل، يقول: هو أكبر، وأحرى بأنْ ينهى عن الفحشاء والمنكر. وقيل: المراد بالذكر هنا الصلاة: أي: وللصلاة أكبر من سائر الطاعات، وعبّر عنها بالذكر كما في قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] للدلالة على أن ما فيها مِنْ الذكر هو العمدة في تفضيلها على سائر الطاعات.

وقيل: المعنى: ولذكر الله لكم بالثواب، والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له في عبادتكم وصلواتكم، واختار هذا ابن جرير[٤]، ويؤيده حديث: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومَنْ ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[٥].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو مجازيكم بالخير خيراً، وبالشرّ شرّاً ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: إلّا بالخصلة التي هي أحسن، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله ﷻ، والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاءَ إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ﴾ بأن أفرطوا في المجادلة، ولم يتأدّبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشين في مجادلتهم.

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٢٥). (٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٧).

(٣) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣٣٨). (٤) في «جامع البيان» (١٨/ ٤١٧).

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥١)، والبخاري رقم (٧٤٠٥)، ومسلم رقم (٢/ ٢٦٧٥)، والترمذي رقم (٣٦٠٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه رقم (٣٨٢٢) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هكذا فسّر الآية أكثر المفسرين[١] بأن المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى.

وقيل: معنى الآية: لا تجادلوا مَنْ آمن بمحمد من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وسائر من آمن منهم إلّا بالتي هي أحسن: يعني: بالموافقة فيما حدّثوكم به من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول هم: الباقون على كفرهم. وقيل: هذه الآية منسوخة بآيات القتال، وبذلك قال قتادة[٢]، ومقاتل[٣].

قال النحاس[٤]: مَنْ قال: هي منسوخة احتج بأنّ الآية مكية، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك.

قال سعيد بن جبير[٥]، ومجاهد[٦]: إن المراد بالذين ظلموا منهم: الذين نصبوا القتال للمسلمين، فجدالهم[٧] بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية.

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ مِنْ القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ من التوراة، والإنجيل: أي: آمنا بأنّهما منزلان من عند الله، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية والبعثة المحمدية، ولا يدخل في ذلك ما حرّفوه وبدّلوه ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ لا شريك له ولا ضدّ ولا ندّ ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾؛ أي: ونحن معاشر أمة محمد مطيعون له خاصة، لم نقل: عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا اتخذنا أحبارنا ورهباننا أرباباً مِنْ دون الله، ويحتمل أن يراد: ونحن جميعاً منقادون له،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٧١)، و«الوسيط» (٣/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٢٠)، وابن الجوزي في «النواسخ» (ص٤٢٢، ٤٢٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٨) من طرق، بأسانيد صحيحة.

(٣) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٢٤٨).

(٤) في «الناسخ والمنسوخ» رقم (٧٤٦).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤١٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٩، ٣٠٧٠) من طريق شريك، به.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤١٨) بسند صحيح.

(٧) «جامع البيان» (١٨/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).

ولا يقدح في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتمّ مِنْ انقياد أهل الكتاب، وطاعتهم أبلغ من طاعاتهم.

وقد أخرج ابن جرير[(١)] عن ابن عباس في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية قال: ذاك مثل ضربه الله لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت.

وأخرج أبو داود[(٢)] في مراسيله عن يزيد بن مرثد قال: قال رسول الله ﷺ: «العنكبوت شيطان مسخها الله، فمن وجدها، فليقتلها».

وأخرج ابن أبي حاتم[(٣)] عن يزيد بن ميسرة قال: العنكبوت شيطان.

وأخرج الخطيب[(٤)] عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت أنا وأبو بكر الغار، فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب، فلا تقتلوهنّ» وروى القرطبي في تفسيره عن عليّ أيضاً أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيت يورث الفقر.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٥)] عن عطاء الخراساني قال: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود، والثانية على النبيّ ﷺ.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٦)] في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ قال: في الصلاة منتهى ومزدجر عن المعاصي.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن عمران بن حصين[(٧)] قال: سئل

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٠٤) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص٢٤٠). وهو حديث موضوع. انظر: «السلسلة الضعيفة» رقم (١٥١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٣) من طريق إسماعيل بن عياش، به.

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (١٠/ ١٠١).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٣) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٠٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٠٦٦) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٦٥، ٣٠٦٦). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «منكر». «السلسلة الضعيفة» رقم (٩٨٥).

النبي ﷺ عن قول الله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فقال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له».

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلّا بعداً».

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في «الشعب» عن الحسن[٢] قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»، وفي لفظ: «لم يزدد بها مِنْ الله إلّا بُعْداً».

وأخرج الخطيب[٣] عن ابن عمر مرفوعاً نحوه.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن مسعود[٤] مرفوعاً نحوه. قال السيوطي[٥]: وسنده ضعيف.

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني والبيهقي في «الشعب»[٦] عنه نحوه موقوفاً.

قال ابن كثير[٧] في «تفسيره»: والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن، وقتادة والأعمش وغيرهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٦٦)، والطبراني رقم (١١٠٢٥). وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «باطل». «السلسلة الضعيفة» رقم (٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٤٠٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٢٦٢) من طريق إسماعيل بن مسلم، به.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤١٠) من طريق ابن علية، به.

(٣) أخرجه الخطيب ـ رواة مالك ـ كما في «ذيل الميزان» (ص١٣٠، ١٣١). وقال الدارقطني: «موضوع».

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٠٩).

(٥) في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٥).

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٠٩)، والطبراني رقم (٨٥٤٣)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٢٦٤). وهو حديث صحيح.

(٧) في «تفسيره» (١٠/ ٥١٤).

وأخرج ابنُ جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[١] في قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يقول: ولذكر الله لعباده إذا ذكروه أكبر من ذكرهم إياه.

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في «الشعب» عن عبد الله بن ربيعة[٢] قال: سألني ابن عباس عن قول الله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فقلت: ذكر الله بالتسبيح والتهليل والتكبير قال: لذكر الله إيّاكم أكبر من ذكركم إياه، ثم قال: اذكروني أذكركم.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» وابن جرير عن ابن مسعود[٣] ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال: ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله.

وأخرج ابن السني وابن مردويه والديلمي عن ابن عمر[٤] نحوه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٥] في الآية قال: لها وجهان: ذكر الله أكبر مما سواه، وفي لفظ: ذكر الله عند ما حرّمه، وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه.

[فضل ذكر الله]:

وأخرج أحمد في الزهد، وابن المنذر عن معاذ بن جبل[٦] قال: ما عمل آدميّ عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال:

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٦١٣ ـ ٦١٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٦٧) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٤١١، ٤١٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٢٠٦٧)، والحاكم (٢/٤٠٩)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٧٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/٩٨) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٢٩٨)، وعبد الله بن أحمد (ص٢١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٤١٤) بسند حسن.

(٤) أخرجه الديلمي في «مسنده» رقم (٧١٧٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٤١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/٣٠٦٨) من طريق إسماعيل بن إبراهيم، به.

(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٨٤).

ولا أن يضرب بسيفه حتى يتقطع؛ لأنّ الله يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم في الكنى، والبيهقي في «الشعب» عن عنترة[١] قال: قلت لابن عباس: أيّ العمَل أفضل؟ قال: ذكر الله.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عنه في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ قال: بلا إلٰه إلّا الله.

وأخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة[٣] قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد، ونحن له مسلمون».

وأخرج البيهقي في «الشُعب» والديلمي وأبو نصر السجزي في «الإبانة» عن جابر بن عبد الله[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنّهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا، إمّا أن تصدّقوا بباطل أو تكذبوا بحق، والله لو كان موسى حيّاً بين أظهركم ما حلّ له إلّا أن يتبعني».

وأخرج [٣/٣٧١] عبد الرزاق، وابنُ جرير عن ابن مسعود[٥] قال: لا تسألوا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٥٦٤، ٥٦٥) و(١٣/ ٣٧٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٦٧١، ٦٧٢، ٢٠٣٠).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٦٩).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١٣٨٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٢٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٠)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥٢٠٧)، وفي «السنن الكبرى» (١٠/ ١١٣).

(٤) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٠، ١١)، وفي «الشعب» رقم (١٧٩)، والديلمي في «مسنده» رقم (٧٤٦٩)، وأحمد رقم (١٤٦٣١) بسند ضعيف.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (١٩٢١٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٣) بسند ضعيف.

أهل الكتاب، وذكر نحو حديث جابر، ثم قال: فإن كنتم سائِليهم لا محالة، فانظروا ما واطأ كتابَ الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه.

[القرآن يتبع مواضع شبهاتهم]:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ﴾ هذا خطاب لرسول الله ﷺ، والإشارة إلى مصدر الفعل كما بيَّناه في مواضع كثيرة: أي: ومثل ذلك الإنزال البديع أنزلنا إليك الكتاب، وهو: القرآن، وقيل: المعنى: كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ﴾؛ يعني: مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وخصّهم بإيتائهم الكتاب لكونهم العاملين به، وكأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه، وجحدهم لصفات رسول الله ﷺ المذكورة فيه ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ﴾ الإشارة إلى أهل مكة(١).

والمراد: أن منهم، وهو من قد أسلم ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ﴾؛ أي: بالقرآن، وقيل:

---

(١) «جامع البيان» (١٨/ ٤٢٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٧٤).

الإشارة إلى جميع العرب ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؛ أي: آيات القرآن ﴿إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ المُصمِّمون على كفرهم من المشركين وأهل الكتاب ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ﴾ الضمير في قبله راجع إلى القرآن؛ لأنه المراد بقوله: أنزلنا إليك الكتاب: أي: ما كنت يا محمد تقرأ قبل القرآن كتاباً، ولا تقدر على ذلك؛ لأنك أمّي لا تقرأ ولا تكتب ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾؛ أي: ولا تكتبه؛ لأنك لا تقدر على الكتابة.

قال مجاهد(١): كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمَّداً ﷺ لا يخط، ولا يقرأ فنزلت هذه الآية.

قال النحاس(٢): وذلك دليل على نبوّته؛ لأنّه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل كتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ أي: لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لقالوا: لعلّه وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة أو من الكتب المدوّنة في أخبار الأمم، فلما كنتَ أميّاً لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا محل للشك أبداً؛ بل إنكار من أنكر وكفر من كفر مجرّد عناد وجحود بلا شبهة، وسمّاهم مبطلين؛ لأن ارتيابهم على تقدير أنه ﷺ يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور نزاهته ووضوح معجزاته ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾؛ يعني: القرآن ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؛ يعني: المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده ﷺ، وحفظوه بعده.

وقال قتادة ومقاتل: إنّ الضمير يرجع إلى النبيّ ﷺ؛ أي: بل محمد آيات بيِّنات؛ أي: ذو آيات(٣).

وقرأ ابن مسعود(٤): «بل هي آيات بيِّنات» قال الفراء(٥): معنى هذه القراءة: بل آيات القرآن آيات بيِّنات.

---

(١) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٣١).
(٢) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٥٨).
(٣) انظر: «جامع البيان» (١٨/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٧٣).
(٤) وهي قراءة شاذة. «البحر المحيط» (٨/ ٣٦٢)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٣٢).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣١٧).

واختار ابن جرير[١] ما قاله قتادة، ومقاتل، وقد استدل لما قالاه بقراءة ابن السَميفع[٢]: «بل هذا آيات بينات» ولا دليل في هذه القراءة على ذلك؛ لأن الإشارة يجوز أنْ تكون إلى القرآن كما جاز أن تكون إلى النبي ﷺ؛ بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم احتياج ذلك إلى التأويل، والتقدير: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ أي: المجاوزون للحدّ في الظلم ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: قال المشركون هذا القول، والمعنى: هلّا أنزلت عليه آيات كآيات الأنبياء وذلك كآيات موسى وناقة صالح وإحياء المسيح للموتى؟

ثم أمره الله سبحانه أن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزلها على من يشاء من عباده، ولا قدرة لأحد على ذلك ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذركم كما أُمرتُ، وأبين لكم كما ينبغي، ليس في قدرتي غير ذلك.

قرأ ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي: «لولا أنزل عليه آيةٌ» بالإفراد[٣]. وقرأ الباقون بالجمع[٤]، واختار هذه القراءة أبو عبيد[٥] لقوله: «قل إنما الآيات».

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذه الجملة مستأنفة للردّ على اقتراحهم، وبيان بطلانه: أي: أو لم يكف المشركين مِنْ الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحدّيتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه، فعجزوا؟

ولو أتيتهم بآيات موسى، وآيات غيره من الأنبياء لما آمنوا كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كلِّ زمان ومكان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى الكتاب الموصوف بما ذكر ﴿لَرَحْمَةً﴾ عظيمة في الدنيا والآخرة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في الدنيا يتذكرون بها وترشدهم إلى الحق ﴿لِقَوْمٍ

---

(١) في «جامع البيان» (١٨/ ٤٢٧).

(٢) وهي قراءة شاذة.

(٣) «التيسير» (ص١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٧٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٦٢).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٧٧).

﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: لقوم يصدّقون بما جئت به من عند الله، فإنّهم هم الذين ينتفعون بذلك.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾؛ أي: قُلْ للمكذبين: كفى الله شهيداً بما وقع بيني وبينكم ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه من ذلك خافية، ومن جملته ما صدر بينكم وبين رسوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ أي: آمنوا بما يعبدونه من دون الله وكفروا بالحق، والله سبحانه، أولئك هم الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ استهزاءً وتكذيباً منهم بذلك كقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد جعله الله لعذابهم، وعيّنه، وهو القيامة.

وقال الضحاك[1]: الأجل: مدّة أعمارهم؛ لأنّهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ أي: لولا ذلك الأجل المضروب لجاءهم العذاب الذي يستحقونه بذنوبهم.

وقيل: المراد بالأجل المسمى: النفخة الأولى[2]، وقيل: الوقت[3] الذي قدّره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل، والأسر يوم بدر.

والحاصل: أنّ لكلِ عذاب أجلاً لا يتقدّم عليه، ولا يتأخر عنه كما في قوله سبحانه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وجملة: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها، ومعنى بغتة: فجأة.

وجملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ في محل نصب[4] على الحال: أي: حال كونهم لا يعلمون بإتيانه، ثم ذكر سبحانه أنَّ موعد عذابهم النار، فقال: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾؛ أي: يطلبون منك تعجيل عذابهم، والحال أن مكان

---

(١) «الوسيط» (٣/ ٤٢٤)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٢٥١).
(٢) قاله يحيى بن سلام. «النكت والعيون» (٤/ ٢٩٠).
(٣) قاله ابن شجرة. «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٧٧).
(٤) «الفريد» (٣/ ٧٤٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٨٥).

العذاب مُحيط بهم: أي: سيحيط بهم عن قُرب، فإن ما هو آت قريب، والمراد بالكافرين: جنسهم، فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولاً أوّليّاً، فقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ إخبار عنهم، وقوله ثانياً: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ تعجّب منهم[(١)]، وقيل: التكرير للتأكيد.

ثُمّ ذكر سبحانه كيفية إحاطة العذاب بهم، فقال: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾؛ أي: مِنْ جميع جهاتهم، فإذا غشيهم العذاب على هذه الصفة، فقد أحاطت بهم جهنم ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ القائل: هو الله سبحانه، أو بعض ملائكته بأمره؛ أي: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون مِنْ الكفر، والمعاصي. قرأ أهل المدينة، والكوفة: «نقول» بالنون[(٢)].

وقرأ الباقون بالتحتية[(٣)]، واختار القراءة الأخيرة أبو عبيد[(٤)] لقوله: ﴿يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة «ويقال[(٥)] ذوقوا».

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والإسماعيلي في معجمه عن ابن عباس[(٦)] في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب كان أميّاً، وفي قوله: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال: كان الله أنزل شأن محمد في التوراة، والإنجيل لأهل العلم، وعلّمه لهم، وجعله لهم آية، فقال لهم: إن آية نبوّته أن يخرج حين يخرج ولا يعلم كتاباً ولا يخطه بيمينه، وهي الآيات البينات التي قال الله تعالى.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٨٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٣٤).
(٢) «التيسير» (ص١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٦٣). نافع قرأ بالياء وهو من أهل المدينة.
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٨١).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٣٦٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٨٧). وهي قراءة شاذة.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٢٤ ـ ٤٢٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧١)، والإسماعيلي في «معجمه» (٣/ ٧٥٠) بسند ضعيف.

وأخرج البيهقي[١] في «سُننه» عن [ابن مسعود][٢] في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ الآية قال: لم يكن رسول الله ﷺ يقرأ ولا يكتب.

وأخرج الفريابي، والدارمي، وأبو داود في مراسيله، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة[٣] قال: جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بقوم حُمْقاً، أو ضلالةً أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيِّهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم» فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ الآية.

وأخرجه الإسماعيلي في معجمه، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة[٤]، فذكره بمعناه.

وأخرج عبد الرزاق في المصنف، والبيهقي في «الشعب» عن الزهري[٥]: «أن حفصة جاءت إلى النبي ﷺ بكتاب من قصص يوسف في كَتِف، فجعلت تقرؤه والنبي ﷺ يتلوّن وجهه، فقال: والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف، وأنا نبيّكم فاتّبعتموه وتركتموني لضللتم».

[كراهة تعلُّم كتب أهل الكتاب]:

وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن الضريس، والحاكم في الكنى، والبيهقي في «الشعب» عن عبد الله بن الحارث[٦] الأنصاري قال: «دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك، فتغيَّر وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله قطُّ، فقال عبد الله بن الحارث لعمر: أما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر:

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٤٢) عن ابن عباس.

(٢) كذا في المخطوط، وصوابه: ابن عباس كما في «سنن البيهقي».

(٣) أخرجه الدارمي (١/ ١٢٤)، وأبو داود في «المراسيل» (ص٢٢٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٢٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٢، ٣٠٧٣) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه الإسماعيلي في «معجمه» (٣/ ٧٧٢).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (١٠١٦٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥٢٠٥) رجاله ثقات ولكنه منقطع؛ بل معضل بين الزهري وحفصة. «الإرواء» (٦/ ٣٧).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٠١٦٤، ١٩٢١٣)، وابن الضريس رقم (٩٠)، والبيهقي رقم (٥٢٠١)، وأحمد في «مسنده» رقم (١٥٨٦٤، ١٨٣٣٥) بسند ضعيف.

رضينا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّد نبياً، فسُرِّي عن رسول الله ﷺ، وقال: لو نزل موسى فاتبعتموه، وتركتموني لضللتم، أنا حظكم من النبيين، وأنتم حظّي من الأمم».

وأخرج نحوه عبد الرزاق، والبيهقي من طريق أبي قلابة عن عمر(١).

وأخرج البيهقي، وضعفه عَنْ عمر بن الخطاب(٢) قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن تعلم التوراة، فقال: لا تتعلمها وآمن بها، وتعلموا ما أنزل إليكم، وآمنوا به».

[جهنم مخلوقة على صفاتها الواردة في الكتاب والسُّنَّة]:

وأخرج ابنُ أبي حاتم(٣) عن ابن عباس [٣٧٢/٣] في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ قال: جهنم هو هذا البحر الأخضر تَنْتثر الكواكب فيه، وتكون فيه الشمس، والقمر، ثم يستوقد، فيكون هو: جهنم.

وفي هذا نكارة شديدة، فإن الأحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بأنّ جهنم موجودةٌ مخلوقة على الصفات التي ورد بها الكتاب والسُّنَّة.

[الدعوة إلى الهجرة والفرار بالدين]:

﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ
خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا
تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَـٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٠١٦٣)، والبيهقي رقم (٥٢٠٢) بسند منقطع.

(٢) أخرجه البيهقي رقم (٥٢٠٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٠٧٥/٩) بسند ضعيف.

رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ
ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا
لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

لما ذكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب ومن المشركين، وجمعهم في الإنذار وجعلهم من أهل النار، اشتدّ عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه، فقال الله سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفاً وتكريماً، والذين آمنوا صفة مُوضِّحة أو مميزة ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان، وفي مكايدة للكفار فاخرجوا منها؛ لتتيسر لكم عبادتي وحدي، وتتسهل عليكم.

[متى تكون الهجرة؟]:

قال الزجاج(١): أُمروا بالهجرة مِنْ الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله، وكذلك يَجبُ على مَنْ كان في بلد يُعمل فيها بالمعاصي، ولا يمكنه تغيير ذلك أن يُهاجر إلى حيثُ يتهيأ له أن يعبد الله حق عبادته.

وقال مُطرِّف بن الشخير(٢): المعنى: إنَّ رحمتي واسعة، ورزقي لكم واسع، فابتغوه في الأرض. وقيل: المعنى: إنّ أرضي التي هي أرض الجنّة واسعة، فاعبدونِ حتى أورثكموها. وانتصاب إِيّاي(٣) بفعل مضمر: أي: فاعبدوا إياي.

ثم خوّفهم سبحانه بالموت؛ ليهون عليهم أمر الهجرة، فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت لا محالة،

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٧٢).

(٢) «النكت والعيون» (٤/ ٢٩١)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٢٥٢).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٣٤، ٤٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٦) من طريق زيد بن الحباب، به.

(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٨٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٧٢).

فلا يصعب عليكم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان والخِلّان، ثُمّ إلى الله المرجع بالموت والبعث لا إلى غيره، فكلٌّ حيّ في سفر إلى دار القرار وإنْ طال لبثه في هذه الدار. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ في هذا الترغيب إلى الهجرة، وأن جزاء من هاجر أن يكون في غُرف الجنة، ومعنى «لنبوّئنهم»: لننزلنهم غُرف الجنّة، وهي علاليها: فانتصاب[(١)] غرفاً على أنّه المفعول الثاني على تضمين نبوئنهم معنى: ننزلنّهم، أَو على الظرفية مع عدم التضمين؛ لأن «نبوئنهم» لا يتعدّى إلّا إلى مفعول واحد، وإما منصوب[(٢)] بنزع الخافض اتساعاً؛ أي: في غرف الجنة وهو مأخوذ مِنْ المباءة وهي: الإنزال.

قرأ أبو عَمْرو، ويعقوب، والجحدري، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وخلف: «يا عباديْ» بإسكان الياء[(٣)]، وفتحها[(٤)] الباقون.

وقرأ ابن عامر: «إن أرضيَ» بفتح الياء[(٥)]، وسكنها الباقون[(٦)].

وقرأ السُّلمي، وأَبو بكر عَنْ عاصم: «يرجعون» بالتحتية[(٧)]، وقرأ الباقون[(٨)] بالفوقية. وقرأ ابن مسعود والأعمش ويحيى بن وثّاب وحمزة والكسائي: «لنثوينّهم»[(٩)] بالثاء المثلثة مكان الباء الموحدة، وقرأ الباقون[(١٠)] بالباء الموحدة، ومعنى لنثوينّهم بالمثلثة: لنعطينّهم غُرفاً يثوون فيها مِنْ الثوى وهو: الإقامة.

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٣٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٨٩)، و«الفريد» (٣/ ٧٤٣).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «النشر» (٢/ ٣٤٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٨١)، و«التيسير» (ص١٧٤).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «النشر» (٢/ ٣٤٤)، و«التيسير» (ص١٧٤)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٨١)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٨١).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٣٦٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٣)، و«التيسير» (ص١٧٤). ويعقوب يقرأها بالفوقية وكسر الجيم مبنيًا للفاعل.
(٨) انظر: المصادر المتقدمة.
(٩) «التيسير» (ص١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٤)، و«جامع البيان» (١٨/ ٤٣٦).
(١٠) «البحر المحيط» (٨/ ٣٦٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٧٣)، و«جامع البيان» (١٨/ ٤٣٦)، و«النشر» (٢/ ٣٤٤).

قال الزجاج[١]: يقال: ثوى الرجل: إذا أقام، وأثويتُه: إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه. قال الأخفش: لا تعجبني هذه القراءة؛ لأنك لا تقول: أثويته الدار؛ بل تقول: في الدار، وليس في الآية حرف جرّ في المفعول الثاني.

قال أبو علي الفارسي[٢]: هو على إرادة حرف الجرّ، ثم حُذف كما تقول: أمرتك الخير: أي: بالخير. ثم وصف سبحانه تلك الغُرف، فقال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي: مِنْ تحت الغُرف ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في الغُرف لا يموتون أبداً، أو في الجنّة، والأوّل أولى ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف: أي: نعم أجر العاملين أجرُهم، والمعنى: العاملين للأعمال الصالحة.

ثم وصف هؤلاء العاملين، فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مشاق التكليف، وعلى أذية المشركين لهم، ويجوز أَنْ يكون منصوباً على المدح ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يفوّضون أمورهم إليه في كل إقدام، وإحجام.

ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر، والتوكل، وهو النظر في حال الدوابّ، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ قد تقدّم الكلام في كأين، وأنّ أصلها: أي: دخلت عليه كاف التشبيه، وصار فيها معنى كم كما صرح به الخليل[٣] وسيبويه، وتقديرها عندهما: كشيءٍ كثيرٍ من العدد من دابة.

وقيل: المعنى: وكم مِنْ دابة. ومعنى «لا تحمل رزقها»: لا تُطيق حمل رزقها لضعفها ولا تدّخره، وإنما يرزقها الله مِنْ فضله ويرزقكم، فكيفَ لا يتوكلون على الله مع قوّتهم وقدرتهم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها، وعجزها؟

قال الحسن[٤]: تأكل لوقتها لا تدّخر شيئاً.

قال مُجاهد[٥]: يعني: الطير والبهائم تأكل بأفواهها، ولا تحمل شيئاً.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ الذي يسمع كلَّ مسموع ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٧٣). (٢) في «الحجة» للقرّاء السبعة (٥/ ٤٤٠).
(٣) ذكره عنهما القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٨٥).
(٤) «النكت والعيون» (٤/ ٢٩٣).
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٨٥)، و«النكت والعيون» (٤/ ٢٩٣).

[عجباً لأمر المشركين يقرون بخالقهم ورازقهم ويعبدون غيره]:

ثم إنه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم، وعجب السامع من كونهم يقرّون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحّدونه ويتركون عبادة غيره، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: خلقها، لا يقدرون على إنكار ذلك ولا يتمكنون من جحوده ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف يُصرفون عن الإقرار بتفرّده بالإلٰهية، وأنه وحده لا شريك له؟ والاستفهام للإنكار[1] والاستبعاد.

ولما قال المشركون لبعض المؤمنين: لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع سبحانه ذلك بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾؛ أي: التوسيع في الرزق والتقتير له هو مِنْ الله الباسط القابض يبسطه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء، على حسب ما تقتضيه حكمته، وما يليق بحال عباده من القبض والبسط، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح عباده وفسادهم. ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: نزّله وأحيا به الأرض: الله، يعترفون بذلك لا يجدون إلى إنكاره سبيلاً.

ثم لمّا اعترفوا هذا الاعتراف في هذه الآيات، وهو يقتضي بطلان[2] ما هم عليه من الشرك وعدم إفراد الله سبحانه بالعبادة، أمر رسوله ﷺ: أن يحمد الله على إقرارهم وعدم جحودهم مع تصلبهم في العناد وتشدّدهم في ردّ كل ما جاء به رسول الله من التوحيد، فقال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: احمد الله على أن جعل الحق معك وأظهر حجّتك عليهم، ثم ذمهم فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأشياء التي يتعقّلها العقلاء. فلذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ماهم عليه عند كل عاقل.

ثم أشار سبحانه إلى تحقير الدنيا، وأنها من جنس اللعب، واللهو: وأن الدار على الحقيقة هي: دار الآخرة، فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ من

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٩١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٣٥).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٥/ ٨٩ ـ ٩٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٩١ ـ ٣٩٢).

جنس ما يلهو به الصبيان ويلعبون به ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾. قال ابن قتيبة[١]، وأبو عبيدة[٢]: إنّ الحيوان: الحياة.

قال الواحدي[٣]: وهو قول جميع المفسرين ذهبوا إلى أنَّ معنى الحيوان هٰهنا: الحياة، وأنّه مصدر بمنزلة الحياة، فيكون كالنزوان والغليان، ويكون التقدير: وإن الدار الآخرة لهي دار الحيوان أو ذات الحيوان؛ أي: دار الحياة الباقية التي لا تزول، ولا ينغصها موت ولا مرض ولا همّ ولا غمّ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم لما آثروا عليها الدار الفانية المنغصة[٤].

ثم بيَّن سبحانه أنه ليس المانع لهم من الإيمان إلّا مجرّد تأثير الحياة، فقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: إذا انقطع رجاؤهم من الحياة، وخافوا الغرق رجعوا إلى الفطرة، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام؛ لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدّة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: فاجئوا المعاودة إلى الشرك، ودعوا غير الله سبحانه. والركوب هو: الاستعلاء، وهو متعدّ[٥] بنفسه، وإنما عدّي بكلمة في للإشعار بأن المركوب في نفسه من قبيل الأمكنة. واللام في ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ للتعليل؛ أي: فاجئوا الشرك بالله ليكفروا بنعمة الله وليتمتعوا بهما، فهما في الفعلين لام كي.

وقيل: هما لاما الأمر تهديداً ووعيداً: أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة وتمتّعوا، ويدلّ على هذه القراءة قراءة أبيّ[٦]: «وتمتعوا» وهذا الاحتمال للأمرين إنما هو على قراءة أَبي عمرو وابن عامر وعاصم وورش بكسر اللام[٧]، وأما على

---

(١) قال ابن قتيبة في «تفسير غريب الحديث» (ص٣٣٩): يعني: «الجنةُ هي دار الحياة؛ أي: لا موت فيها».
(٢) في «مجاز القرآن» (٢/ ١١٧).
(٣) في «الوسيط» (٣/ ٤٢٦).
(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٩٤)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٣٧).
(٥) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٩٤)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٣٧).
(٦) وهي قراءة شاذة. «الجامع القرآن» (١٦/ ٣٨٨)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٥٤٤).
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٣٦٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣٥)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٨٤)، و«جامع البيان» (١٨/ ٤٤٢).

قراءة الجمهور(١) بسكونها فلا خلاف أنّها لام الأمر، وفي قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد(٢) عظيم لهم؛ أي: فسيعلمون عاقبة ذلك، وما فيه من الوبال عليهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾؛ أي: ألم ينظروا؟ يعني: كفّار قريش أنا جعلنا حرمهم هذا حرماً آمناً يأمن فيه ساكنهُ من الغارة والقتل والسبي والنهب، فصاروا [٣/١٧٣] في سلامة، وعافية مما صار فيه غيرهم من العرب، فإنّهم في كل حين تطرقهم الغارات، وتجتاح أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود، وتستبيح حرمهم، وأموالهم شطار العرب، وشياطينها.

وجملة ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ في محل(٣) نصب على الحال؛ أي: يختلسون من حولهم بالقتل والسبي، والنهب، والخطف: الأخذ بسرعة.

وقد مضى تحقيق معناه في سورة القصص.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾، وهو: الشرك بعد ظهور حجة الله عليهم وإقرارهم بما يوجب التوحيد ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ يجعلون كفرها مكان شكرها، وفي هذا الاستفهام من التقريع(٤)، والتوبيخ ما لا يقادر قدره ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: لا أحد أظلم منه وهو مَنْ زعم أن لله شريكاً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾؛ أي: كذّب بالرسول الذي أُرسل إليه، والكتاب الذي أنزله على رسوله.

وقال السديّ(٥): كذّب بالتوحيد، والظاهر شموله لما يصدق عليه أنّه حق.

ثم هدّد المكذبين وتوعّدهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: مكان يستقرّون فيه والاستفهام(٦) للتقرير، والمعنى: أليس يستحقّون الاستقرار فيها، وقد فعلوا ما فعلوا؟

ثم لمّا ذكر حال المشركين الجاحدين للتوحيد الكافرين بنعم الله أردفه بحال

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٩٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٣٧).
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٩٥).
(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٣٩٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٣٧).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٩٠)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٣٩).
(٦) «الوسيط» (٣/ ٤٢٦)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٢٥٦).

عباده الصالحين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾؛ أي: جاهدوا في شأن الله لطلب مرضاته، ورجاء ما عنده من الخير لنهدينّهم سبلنا: أي: الطريق الموصل إلينا.

قال ابن عطية[١]: هي مكيَّة نزلت قبل فرض الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عامّ في دين الله وطلب مرضاته، وقيل: الآية هذه نزلت في العُبَّاد[٢].

وقال إبراهيم بن أدهم[٣]: هي في الذين يَعملون بما يعلمون.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالنصر والعون، ومَنْ كان معه لم يُخْذَل، ودخلت لام التوكيد[٤] على مع بتأويل كونها اسماً أو على أنها حرف، ودخلت عليها لإفادة معنى الاستقرار كما تقول: إن زيداً لفي الدار، والبحث مقرّر في علم النحو.

قد أخرج ابن مردويه[٥] عن عليّ بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ قلت: يا ربّ أيموت الخلائق كلهم، ويبقى الأنبياء؟ فنزلت: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾». وينظر كيف صحة هذا، فإن النبي ﷺ بعد أن يسمع قول الله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] يعلم أنه ميت، وقد علم أن مَنْ قبله من الأنبياء قد ماتوا، وأنه خاتم الأنبياء، فكيف ينشأ عن هذه الآية ما سأل عنه عليّ رضي الله عنه من قوله: «أيموت الخلائق ويبقى الأنبياء؟»، فلعلّ هذه الرواية لا تصح مرفوعة، ولا موقوفة.

وأخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي، وابن عساكر، قال السيوطي[٦]: بسند ضعيف عن ابن عمر[٧] قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط التمر، ويأكل، فقال

---

(١) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٩٠) عن الحسن.
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٩٠) عن ابن عباس وإبراهيم بن أدهم.
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٦٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٣٩٨).
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥).
(٦) قاله السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٥).
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٧٨، ٣٠٧٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ١٢٧، ١٢٨).

لي: مالك لا تأكل؟ قلتُ: لا أشتهيه يا رسول الله، قال: لكني أشتهيه، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي، فأعطاني مثل ملك كسرى، وقيصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبّون رزق سنتهم، ويَضْعف اليقين. قال: فوالله ما برحنا، ولا رُمْنا حتى نزلت: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: إنّ الله لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، ألا وإني لا أكنز ديناراً، ولا درهماً، ولا أخبأ رزقاً لغد».

وهذا الحديث فيه نكارةٌ شديدة لمخالفته لما كان عليه النبي ﷺ، فقد كان يعطي نساءَه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتبرة. وفي إسناده أبو العطوف[1] الجوزي وهو ضعيف.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[2] ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ قال: باقية.

وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في «الشعب» عن أبي جعفر[3] قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عجباً كل العجب للمصدّق بدار الحيوان، وهو يسعى لدار الغرور»، وهو مرسل.

❁ ❁ ❁

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» (١٠/ ٥٢٧): «هذا حديث غريب، وأبو العطوف الجزري ضعيف».
وقال القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٨٥): «وهذا ضعيف، يضعفه أنّه عليه الصلاة والسلام كان يدّخر لأهله قوت سنتهم، اتفق عليه البخاريومسلم، وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٤٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٨١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» رقم (١٤)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٠٥٣٩). وهو حديث موضوع. قاله الألباني رَحِمَهُ الله في «السلسلة الضعيفة» رقم (١٠٧٨).

سُورَةُ الرُّومِ

هي ستون آية، قال القُرْطبي[١] كلها مكيَّة بلا خلاف.

[السورة كلها مكيَّة بلا خلاف]:

وأخرج ابن الضرير، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس[٢] قال: نزلت سورة الروم بمكة.

وأخرج ابن مردويه[٣] عن ابن الزبير مثله.

وأخرج عبد الرزاق، وأحمد. قال السيوطي[٤] بسند حسن عن رجل[٥] من الصحابة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ فيها سورة الروم.

وأخرج البزار[٦] عن الأغرّ المدني مثله.

وأخرج عبدُ الرزاق عَنْ معمر، عن عبد الملك بن عمير[٧]: أن النبي ﷺ قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم.

وأخرج ابن أبي شيبة في «المُصنّف»، وأحمد، وابن قانع من طريق عبد الملك بن عُمير[٨] مثل حديث الرجل الذي من الصحابة، وزاد: يتردّد فيها،

---

(١) في «تفسيره» (١٦/ ٣٩٢).

(٢) أخرجه ابن الضريس في «فضائله» (١٧)، والنحاس في «ناسخه» (ص٦١١)، والبيهقي (٧/ ١٤٣، ١٤٤).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٨).

(٤) في «الدر المنثور» (٦/ ٤٧٨).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٢٧٢٥)، وأحمد رقم (١٥٨٧٣، ٢٣٠٧٢، ٢٣١٢٥) بسند حسن.

(٦) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (١٧٧ ـ «كشف»).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١١٩): «وفيه مؤمل بن إسماعيل وهو ثقة وقيل فيه: إنه كثير الخطأ».

(٧) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٢٧٣٠) بسند صحيح.

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١/ ٥)، وأحمد رقم (١٥٨٧٢، ١٥٨٧٤)، وابن قانع (١/ ٣٤٦) بسند حسن.

فلما انصرف قال: إنما يلبس علينا في صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور، من شهد الصلاة، فليحسن الطهور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ
سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ
مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ
أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ
أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾.

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة في فاتحة سورة البقرة، وتقدّم الكلام على محلها من الإعراب، ومحلّ أمثالها في غير موضع من فواتح السور، قرأ الجمهور[١]. ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ بضم الغين المعجمة وكسر اللام مبنيّاً للمفعول، وقرأ عليّ بن أبي طالب وأبو سعيد الخدري ومعاوية بن قرّة وابن عمر وأهل الشام بفتح الغين[٢] واللام مبنياً للفاعل.

[لِمَ أَحب المسلمون ظهور الروم على الفرس؟]:

قال النحاس[٣]: قراءة أكثر الناس ﴿غُلِبَتِ﴾ بضم الغين وكسر اللام. قال أهل التفسير: غَلَبت فارسٌ الرومَ ففرح بذلك كفار مكة، وقالوا: الذين ليس لهم

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٧٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٧٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٩٢).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٦)، و«حاشية الشهاب» (٧/ ١١٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٠٤).
قراءة العشرة بضم الغين وكسر اللّام على البناء للمفعول والقراءة بالبناء للفاعل شاذة.

(٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٢).

كتاب غلبوا الذين لهم كتاب وافتخروا على المسلمين وقالوا: نحن أيضاً نغلبكم كما غلبت فارس الروم، وكان المسلمين يُحبّون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب.

ومعنى ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: في أقرب أرضهم(١) مِنْ أرض العرب، أو في أقرب أرض العرب منهم، قيل: هي أرض الجزيرة، وقيل: أذرعات، وقيل: كَسْكَر، وقيل: الأردن، وقيل: فلسطين، وهذه المواضع هي أقرب إلى بلاد العرب من غيرها، وإنما حُملت الأرض على أرض العرب؛ لأنها المعهود في ألسنتهم إذا أطلقوا الأرض أرادوا بها جزيرة العرب، وقيل: إن الألف واللام عوض عن المضاف إليه.

والتقدير: في أدنى أرضهم، فيعود الضمير إلى الروم، ويكون المعنى: في أقرب أرض الروم مِنْ العرب.

قال ابنُ عطية(٢): إن كانت الوقعة بأَذْرعات، فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وإن كانت الوقعة بالجزيرة، فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردن، فهي أدنى إلى أرض الروم. ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾؛ أي: والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون أهلَ فارس، والغَلَب والغَلَبَةُ: لغتان، والمصدر مضاف إلى المفعول على قراءة الجمهور، وإلى الفاعل على قراءة غيرهم.

قرأ الجمهور(٣): «سيَغْلِبون» مبنيّاً للفاعل، وقرأ علي(٤)، وأبو سعيد، ومعاوية بن قرّة، وابن عمر، وأهل الشام على البناء للمفعول، وسيأتي في آخر البحث ما يقوّي قراءة الجمهور في الموضعين. وقرأ أبو حيوة الشامي، وابن السميفع: «من بعد غَلْبهم» بسكون اللام(٥) ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ متعلق بما قبله، وقد تقدّم تفسير البِضْع، واشتقاقه في سورة يوسف.

---

(١) «النكت والعيون» (٤/٢٩٨)، و«روح المعاني» (٢٠/٤٠٣).

(٢) في «المحرر الوجيز» (١٢/٢٤٢).

(٣) «البحر المحيط» (٨/٣٧٤)، و«روح المعاني» (٢٠/٤٠٤).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص١١٦)، و«البحر المحيط» (٨/٣٧٤)، و«روح المعاني» (٢٠/٤٠٤). هي قراءة شاذة.

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/٣٩٨). هي قراءة شاذة.

والمراد به هنا: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالقدرة وإنقاذ الأحكام وقت مغلوبيتهم، ووقت غالبيتهم، فكلّ ذلك بأمر الله سبحانه، وقضائه.

قرأ الجمهور(١): «مِنْ قبلُ ومن بعدُ» بضمهما لكونهما مقطوعين عن الإضافة، والتقدير: من قبل الغلب، ومن بعده، أو من قبل كل أمر ومن بعده.

وحكى الكسائي «مِنْ قبلٍ ومن بعدُ» بكسر الأوّل منوّناً، وضم الثاني بلا تنوين(٢).

وحكى الفراء(٣) «مِنْ قبلِ ومن بعدِ» بكسرهما من غير تنوين، وغلّطه النحاس(٤).

قال شهاب الدين: قد قرئ بكسرهما منوّنين.

قال الزجاج(٥): ومعنى الآية: مِنْ متقدّم، ومن متأخر. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يوم أن تغلب الرومُ على فارس في بضع سنين يفرح المؤمنون بنصر الله للروم؛ لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب بخلاف فارس فإنّه لا كتاب لهم، ولهذا سرّ المشركون بنصرهم على الروم.

وقيل: نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس، والأوّل أولى.

[إنباء القرآن بما سيكون دلالة على صدقه]:

قال الزجاج(٦): وهذه الآية من الآيات التي تدل على أن القرآن من عند الله؛ لأنَّه إنباء بما سيكون، وهذا لا يعلمه إلّا الله سبحانه ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ أن ينصره

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٧٥)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣٦)، و«حاشية الجمل» (٣/ ٣٨٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٣٩٩).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٤/ ١٧٦).

(٤) قال النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣): «وحكى الفراء «من قبلِ ومن بعد» مخفوضتن بغير تنوين، وللفراء في هذا الفصل من كتابه في القرآن أشياء كثيرة، الغلط فيها بيِّن، فمنها أنه زعم أنّه يجوز «من قبلِ ومن بعدِ». القراءة بكسرهما شاذة منونين أو من دون تنوين.

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٧٦).

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٧٦).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ القاهر ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة لعباده المؤمنين، وقيل: المراد بالرحمة هنا: الدنيوية، وهي شاملة للمسلم، والكافر.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ أي: وعَدَ اللهُ وعداً لا يخلفه، وهو ظهور الروم على فارس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الله لا يخلف وعده، وهم الكفار، وقيل: كفار[١] مكة على الخصوص ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: يعلمون ظاهر ما يشاهدونه من زخارف الدنيا، وملاذها، وأمر معاشهم، وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية[٢].

وقيل[٣]: هو ما تُلقيه الشياطين إليهم مِنْ أمور الدنيا عند استراقهم السمع، وقيل: الظاهر: الباطل.

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ التي هي النعمة الدائمة واللذة الخالصة ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا يلتفتون إليها، ولا يعدّون لها ما يُحتاج إليه، أو غافلون عن الإيمان بها، والتصديق بمجيئها ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ [٣/٣٧٤] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ الهمزة[٤] للإنكار عليهم، والواو للعطف على مقدّر كما في نظائره، و﴿فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ ظرف[٥] للتفكر، وليس مفعولاً للتفكر[٦].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٠٠). (٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٤١٣).

(٣) «النكت والعيون» (٤/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٠١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤١٤).

(٥) «الكشاف» (٤/ ٥٦٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤١٤ ـ ٤١٥).

(٦) قال الرازي في «تفسيره» (٢٥/ ٩٩): «قدم هٰهنا دلائل الأنفس على دلائل الآفاق، وفي قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] قدم دلائل الآفاق، وذلك لأن المفيد إذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فإن فهمه السامع المستفيد فذلك وإلا يذكرها على وجه أبين منه، وينزل درجة فدرجة، وأما المستفيد فإنه يفهم أولاً الأبين، ثم يرقى إلى فهم ذلك الأخفى الذي لم يكن فهمه بتفهمه بعد فهم الأبين المذكور آخراً، فالمذكور من المفيد آخراً مفهوم عند السامع أولاً، إذا علم هذا فنقول هٰهنا الفعل كان منسوباً إلى السامع حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾؛ يعني: فيما فهموه أولاً ولم يرتقوا إلى فهمه ثانياً، وأمَّا في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ الأمر منسوب إلى المفيد المسمع فذكر (أولاً) الآفاق فإن لم يفهموه فالأنفس لأنّ دلائل الأنفس لا ذهول للإنسان عنها، وهذا الترتيب مراعى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩]؛ أي: يعلمون الله بدلائل الأنفس في سائر الأحوال ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩] بدلائل الآفاق.

والمعنى: أن أسباب التفكر حاصلة لهم، وهي أنفسُهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانية الله وصدق أنبيائه، وقيل: إنّها مفعول للتفكر. والمعنى: أو لم يتفكروا في خلق الله إيّاهم ولم يكونوا شيئاً؟ و«ما» في «ما خلق الله» نافية[١]؛ أي: لم يخلقها إلّا بالحق الثابت الذي يحق ثبوته، أو هي اسم في محل نصب[٢] على إسقاط الخافض: أي: مما خلق الله، والعامل فيها العلم الذي يؤدي إليه التفكر.

وقال الزجّاج[٣] في الكلام حذف: أي: فيعلموا، فجعل (ما) معمولة للفعل المقدّر لا للعلم المدلول عليه، والباء في ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إما للسببية[٤]، أو هي ومجرورها في محل نصب[٥] على الحال: أي: ملتبسة بالحق.

قال الفراء[٦]: معناه: إلّا للحق: أي: للثواب، والعقاب، وقيل: بالحق: بالعدل، وقيل: بالحكمة، وقيل: بالحق: أي: أنّه هو الحق وللحق خلقها ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطُوف على الحق: أي: وبأجلٍ مسمى للسماوات، والأرض، وما بينهما تنتهي إليه، وهو: يوم القيامة، وفي هذا تنبيه على الفناء، وأن لكل مخلوقٍ أجلاً لا يجاوزه.

وقيل: معنى ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أنّه خلق ما خلق في وقت سمَّاه لخلق ذلك الشيء ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: لكافرون بالبعث بعد الموت، واللّام هي: المؤكّدة[٧].

والمراد بهؤلاء: الكفّار على الإطلاق أو كفار مكة. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام للتقريع[٨]، والتوبيخ لعدم تفكرهم في الآثار وتأملهم لمواقع الاعتبار،

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٣٧)، و«الفريد» (٣/ ٧٥٠)، و«روح المعاني» (٢/ ٤١٥).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٧٨).

(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٦٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤١٥).

(٥) «التبيان» (٢/ ١٠٣٧)، و«الفريد» (٣/ ٧٥٠).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٢).

(٧) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٦٦)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣٧)، و«الفريد» (٣/ ٧٥٠).

(٨) «روح المعاني» (٢٠/ ٤١٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٧٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٤٤).

والفاء في ﴿فَيَنظُرُوا﴾ للعطف على يسيروا داخل تحت ما تضمنه الاستفهام من التقريع والتوبيخ.

والمعنى: أنّهم قد ساروا وشاهدوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من طوائف الكفار الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم بالله وجحودهم للحق، وتكذيبهم للرسل.

وجملة: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ مُبيّنة للكيفية التي كانوا عليها، وأنهم أقدر مِنْ كفّار مكة، ومَنْ تابعهم على الأمور الدنيوية، ومعنى ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾: حرثوها وقلبوها للزراعة وزاولوا أسباب ذلك، ولم يكن أهل[1] مكة أهل حرث ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾؛ أي: عمروها عمارةً أكثر مما عمرها هؤلاء؛ لأن أولئك كانوا أطول منهم أعماراً، وأقوى أجساماً، وأكثر تحصيلاً لأسباب المعاش، فعمروا الأرض بالأبنية، والزراعة والغرس.

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ بالبينات؛ أي: المُعجزات. وقيل: بالأحكام الشرعية[2].

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بتعذيبهم على غير ذنب ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والتكذيب ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾؛ أي: عملوا السيئات من الشرك والمعاصي ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ هي فُعْلى مِنْ السوء تأنيث الأسوأ[3]، وهو: الأقبح: أي: كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، وقيل: هي اسمٌ لجهنم كما أن الحُسْنى[4] اسم للجنة، ويجوز أن تكون مصدراً كالبُشْرى والذكرى، وصفت به العقوبة مبالغة.

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: «عاقبةُ» بالرفع[5] على أنها اسم كان،

---

(١) «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٧٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٧٥٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٠٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤١٨)، و«جامع البيان» (١٨/ ٤٦٦).

(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٤١).

(٤) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٢٤٧).

(٥) «التيسير» (ص١٧٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٧٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٠٣).

وتذكير الفعل لكون تأنيثها مجازياً. والخبر السوآى: أي: الفِعْلة، أو الخصلة أو العقوبة السوآى أو الخبر ﴿أَن كَذَّبُوا﴾؛ أي: كان آخر أمرهم التكذيب، وقرأ الباقون «عاقبةَ» بالنصب[١] على خبر كان، والاسم السوئ أو أن كذبوا، ويكون التقدير: ثم كان التكذيب عاقبة الذين أساءوا، والسوآى مصدر أساءوا، أو صفة لمحذوف.

وقال الكسائي[٢]: إن قوله: ﴿أَن كَذَّبُوا﴾ في محل نصب على العلة: أي: لأنْ كذبوا بآيات الله التي أنزلها على رسله، أو بأن كذبوا، ومن القائلين بأن السوآى: جهنّم: الفراء[٣]، والزجاج[٤]، وابن قتيبة[٥]، وأكثر المفسرين[٦]، وسُمّيت: سوآى لكونها تسوء صاحبها.

قال الزجاج[٧]: المعنى: ثم كان عاقبة الذين أشركوا النارَ بتكذيبهم آيات الله، واستهزائهم، وجملة: ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عطف على كذّبوا داخلة معه في حكم العِلّية على أحد القولين، أو في حكم الاسمية لكان، أو الخبرية لها على القول الآخر.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسّنه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني في الكبير، والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس[٨] في قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم كانوا أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.

(٢) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٢٤٧).

(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٢). (٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٧٩).

(٥) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣٤٠).

(٦) «الوسيط» (٣/ ٤٢٩)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٢٦٣).

(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (١٧٩).

(٨) أخرجه أحمد رقم (٢٤٩٥، ٢٧٦٩)، والترمذي رقم (٣١٩٣)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٣٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٦)، وابن مردويه كما في «تخريج الإحياء» (٦/ ١٠٧٧)، والبيهقي (٢/ ٣٣٠، ٣٣١)، والضياء (١٠/ ١٤٤، ١٤٥ رقم ١٤٤). وهو حديث صحيح.

أصحاب كتاب، فذكروه لأبي بكر، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنّهم سيغلبون»، فذكره أبو بكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل بينهم أجلاً خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال: ألا جعلته ـ أراه قال ـ: دونَ العشر، فظهرت الروم بعد ذلك، فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فغلبت، ثم غلبت بعد بقول الله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ قال سفيان: سمعتُ أنّهم ظهروا عليهم يوم بدر.

[أبو بكر رضي الله عنه وضربه أجلاً لظهور الروم على الفرس]:

وأخرج أبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عن البراء بن عازب[(١)] نحوه، وزاد: أنّه لما مضى الأجل، ولم تغلب الروم فارساً، ساء النبيّ ما جعله أبو بكر مِنْ المدّة وكرهه وقال: «ما دعاك إلى هذا؟» قال: تصديقاً لله ولرسوله، فقال: «تعرّض لهم، وأعظم الخطة، واجعله إلى بضع سنين»، فأتاهم أبو بكر فقال: هل لكم في العود، فإنّ العود أحمد؟ قالوا: نعم، فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارساً، وربطوا خيولهم بالمدائن، وبنوا رومية، فقمر أبو بكر، فجاء به أبو بكر يحمله إلى رسول الله ، فقال: «هذا السحت تصدّق به».

وأخرج الترمذي وصححه، والدارقطني في الأفراد، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والبيهقي في «الشعب» عن نيار[(٢)] بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين الروم، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم؛ لأنّهم وإيّاهم أهل الكتاب، وفي

---

(١) أخرجه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» رقم (٤٠٦١)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/٧)، وابن مردويه كما في «تخريج الإحياء» (٢/١٠٧٦)، وابن عساكر (١/ ٣٧٣) بسند حسن.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣١٩٤)، والدارقطي كما في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠٧٧)، والطبراني في «الأوسط» رقم (٧٢٦٦) مختصراً، وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كما في «تخريج الإحياء» (٢/ ١٠٧٧). وهو حديث حسن.

ذلك يقول الله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وكانت قريش تحبّ ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب، ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر: ذلك بيننا وبينكم يزعم صاحبك: أنّ الروم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: لم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهي إليه، قال: فسموا بينهم ستّ سنين، فمضت الستّ قبل أن يظهروا، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم، فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ستّ سنين؛ لأن الله قال: ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ فأسلم عند ذلك ناس كثير.

وأخرج الترمذي وحسّنه، وابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس(١): أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «ألا احتطت يا أبا بكر، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع».

وأخرج البخاري(٢) عنه في تاريخه نحوه.

وأخرج الفريابي، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أبي سعيد(٣) قال: لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس، فأعجب ذلك المؤمنين، فنزلت ﴿الٓمٓ ۝١ غَلَبَتِ ٱلرُّومُ﴾ قرأها بالنصب: يعني: للغين(٤) على البناء للفاعل إلى قوله: ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾. قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس، وهذه الرواية مفسرة لقراءة أبي سعيد ومن معه.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣١٩١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٤٩). وهو حديث ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٢/ ٣٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢٩٣٥، ٣١٩٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٥٧، ٤٥٨)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٣). وهو حديث صحيح.

(٤) وهي قراءة شاذة وقد تقدم ذكرها.

وأخرج الحاكم وصحّحه عن أبي الدرداء[(١)] قال: سيجيء أقوام يقرأون: «﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾»؛ يعني: بفتح الغين، وإنما هي غُلبت: يعني: بضمها، وفي الباب: روايات وما ذكرناه يغني عمَّا سواه.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٢)] ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ يعني: معايشهم متى يَغْرسون، ومتى يزرعون، ومتى يحصدون.

وأخرج ابن مردويه[(٣)] عن ابن عمرو في قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ قال: كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل.

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ⑪ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ⑫ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ⑬ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ⑭ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ⑮ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ⑯ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ⑰ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ⑱ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ⑲﴾.

[بعض آيات الله الناطقة بقدرته ووحدانيته]:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ⑳ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ㉑ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ㉒ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ㉓ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٦١) بسند ضعيف، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٨٨).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ أي: يخلقهم أوّلاً، ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى موقف الحساب، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيئ بإساءته، وأفرد الضمير[١] في ﴿يُعِيدُهُۥ﴾ باعتبار لفظ الخلق، وجمعه في ﴿تُرْجَعُونَ﴾ باعتبار معناه.

قرأ أبو بكر، وأبو عمرو «يُرْجَعون» بالتحتية[٢]. وقرأ الباقون بالفوقية[٣] على الخطاب، والالتفات المؤذن[٤] بالمبالغة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ قرأ الجمهور[٥] «يُبْلس» على البناء للفاعل. وقرأ السلمي[٦] على البناء للمفعول، يقال: أبلس الرجل[٧]: إذا سكت، وانقطعت حجته.

قال الفراء[٨] والزجاج[٩]: المبلس: الساكت المنقطع في حجته الذي أيس أن يهتدي إليها، ومنه قول العجّاج[١٠]:

يا صَاحِ هَلْ تَعْرِف رَسْماً مُكْرَسا قال: نَعَم أَعْرِفُهُ وأَبْلَسا

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٧٩).
(٢) «التيسير» (ص١٧٥)، و«النشر» (٢/ ٢٠٨، ٣٤٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٧٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٠٤). في هذه الكلمة أربع قراءات ما ذكره المؤلف والثالثة بالتحتية مع كسر الجيم على البناء للفاعل وهي قراءة روح. والرابعة بالفوقية وكسر الجيم على البناء للفاعل وهي قراءة رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٤).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٢٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٤٥).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٣٧٩)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣٨)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٣).
(٦) «القراءات الشاذة» (ص١١٦)، و«التبيان» (٢/ ١٠٣٨).
(٧) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص١٤٣)، و«تهذيب اللغة» (١٢/ ٤٤١).
(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٣).
(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٧٩).
(١٠) انظر: «ديوانه» (ص٥٦).

وقال الكلبي[١]: أي: يئس المشركون [٣/٣٧٥] من كل خير حين عاينوا العذاب، وقد قدّمنا تفسير الإبلاس عند قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟﴾؛ أي: لم يكن للمشركين يوم تقوم الساعة من شركائهم الذين عبدوهم من دون الله شفعاء يُجيرونهم من عذاب الله ﴿وَكَانُوا۟﴾ في ذلك الوقت ﴿بِشُرَكَآئِهِمْ﴾؛ أي: بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله ﴿كَـٰفِرِينَ﴾؛ أي: جاحدين لكونهم آلهة؛ لأنّهم علموا إذ ذاك أنهم لا ينفعون، ولا يضرون.

وقيل: إن معنى الآية: كانوا في الدنيا كافرين[٢] بسبب عبادتهم، والأوّل أولى.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾؛ أي: يتفرّق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ والمراد بالتفرّق: أن كل طائفة تنفرد؛ فالمؤمنون يصيرون[٣] إلى الجنّة، والكافرون إلى النار، وليس المراد تفرّق كلّ فرد منهم عن الآخر، ومثله قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وذلك بعد تمام الحساب، فلا يجتمعون أبداً.

ثم بيّن سبحانه كيفية تفرّقهم، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾، قال النحاس[٤]: سمعتُ الزجّاج يقول: معنى «أما»: دع ما كنا فيه، وخذ في غيره، وكذا قال سيبويه[٥]: إن معناها: مهما يكن من شيء، فخذ في غير ما كنا فيه، والروضة: كلُّ أرض ذات نبات.

قال المفسرون[٦]: والمراد بها هنا الجنّة؛ ومعنى يُحْبرون: يُسرّون، والحبور والحبرة: السرور؛ أي: فهم في رياض الجنّة ينعمون، قال أبو عبيد[٧]: الروضة: ما

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٣٠).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٠٤)، و«جامع البيان» (١٨/ ٤٦٩).
(٣) «جامع البيان» (١٨/ ٤٦٩)، و«الوسيط» (٣/ ٤٣٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٢٢).
(٤) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٦٧).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٦٧).
(٦) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٣٠)، و«جامع البيان» (١٨/ ٤٧٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٢٤).
(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٦٧) عن أبي عبيدة.

كان في سفل، فإذا كان مرتفعاً، فهو: تُرعة، وقال غيره: أحسن ما تكون الروضة إذا كانت في مكان مرتفع، ومنه قول الأعشى[(١)]:

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الحَزْنِ مُعشِبَةٌ ... خَضْراءُ جادَ عَلَيها مُسْبِلٌ هَطِلُ

وقيل: معنى «يُحْبرون»: يُكْرمون. قال النحاس[(٢)]: حكى الكسائي حبرته: أي: أكرمته، ونعمته، والأولى تفسير يُحْبرون بالسرور كما هو المعنى العربيّ[(٣)]، ونفس دخول الجنة يستلزم الإكرام، والنعيم، وفي السرور زيادة على ذلك. وقيل: التحبير التحسين، فمعنى يُحبرون: يُحسن إليهم، وقيل: هو السماع الذي يسمعونه في الجنة.

وقيل غير ذلك، والوجه ما ذكرناه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وكذّبوا بـ ﴿بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾؛ أي: البعث، والجنّة والنار، والإشارة بقوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى المتصفين بهذه الصفات، وهو: مبتدأ وخبره ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾؛ أي: مُقيمون فيه، وقيل: مَجْموعون، وقيل: نازلون، وقيل: مُعذبون، والمعاني متقاربة[(٤)]، والمراد دوام عذابهم.

ثم لما بيّن عاقبة طائفة المؤمنين، وطائفة الكافرين أرشد المؤمنين إلى ما فيه الأجر الوافر، والخير العام، فقال: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ أي: فإذا علمتم ذلك، فسبّحوا الله؛ أي: نزهوه عمَّا لا يليق به في وقت الصباح والمساء، وفي العشي، وفي وقت الظهيرة. وقيل: المراد بالتسبيح هنا: الصلوات الخمس، فقوله: «حين تمسون» صلاة المغرب، والعشاء، وقوله: «وحين تُصبحون» صلاة الفجر، وقوله: «وعشيًّا» صلاة العصر.

وقوله: «وحين تُظهرون» صلاة الظهر، كذا قال الضحاك[(٥)]، وسعيد بن جبير، وغيرهما.

---

(١) انظر: «ديوان الأعشى» (ص١٠٧). (٢) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٦٨).
(٣) «تهذيب اللغة» (٥/ ٣٢)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢١٥).
(٤) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٥٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٢٥).
(٥) «النكت والعيون» (٤/ ٣٠٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٢٧).

قال الواحدي[(١)]: قال المفسرون: إن معنى «فسبحان الله»: فصلوا لله.

قال النحاس[(٢)]: أهل التفسير على أن هذه الآية في الصلوات قال: وسمعت محمد بن يزيد يقول: حقيقته عندي: فسبحوا الله في الصلوات؛ لأنّ التسبيح يكون في الصلاة.

وجملة: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معترضة مسوقة للإرشاد إلى الحمد، والإيذان بمشروعية الجمع بينه، وبين التسبيح كما في قوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ٣]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقيل: معنى، وله الحمد: أي: الاختصاص له بالصلاة التي يقرأ فيها الحمد، والأول أولى.

وقرأ عكرمة[(٣)]: «حيناً تمسون وحيناً تصبحون».

والمعنى: حيناً تمسون فيه، وحيناً تصبحون فيه، والعشيّ: من صلاة المغرب إلى العَتَمة. قاله الجوهري[(٤)].

وقال قوم: هو من زوال الشمس إلى طلوع الفجر، ومنه قول الشاعر[(٥)]:

غَدَونا غُدوة سَحَرًا بليلٍ   عَشيا بعد ما انتصفَ النَّهارُ

وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ معطوف على حين، و﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بنفس الحمد: أي: الحمد له يكون في السماوات، والأرض ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسان من النطفة، والطير من البيضة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ كالنطفة، والبيضة من الحيوان.

[ما وجه تعلُّق هذه الآية بالتي قبلها؟]:

وقد سبق بيان هذا في سورة آل عمران.

قيل: ووجه[(٦)] تعلّق هذه الآية بالتي قبلها أَنّ الإنسان عند الصباح يخرج من شبه الموت، وهو: النوم إلى شبه الوجود، وهو: اليقظة، وعند العشاء يخرج من

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ٤٣٠).
(٢) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٦٨).
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٣٨١)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٣). وهي قراءة شاذة.
(٤) في «الصحاح» (٥/ ١٩٧٩).
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١٠)، والجوهري في «الصحاح» (٥/ ١٩٧٩).
(٦) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٥/ ١٠٧).

اليقظة إلى النوم. ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس، وهو شبيه بإخراج الحيّ من الميت ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؛ أي: ومثل ذلك الإخراج تُخرجون مِنْ قبوركم. قرأ الجمهور(١): «تُخْرَجون» على البناء للمفعول.

وقرأ حمزة، والكسائي على البناء للفاعل(٢)، فأسند الخروج إليهم كقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ [المعارج: ٤٣] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ أي: من آياته الباهرة الدالة على البعث أن خلقكم: أي: خلق أباكم آدم مِنْ تراب، وخلقكم في ضمن خلقه؛ لأنّ الفرع مستمد من الأصل، ومأخوذ منه.

وقد مضى تفسير هذا في الأنعام، و«أن» في موضع رفع بالابتداء(٣)، ومن آياته خبره ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ «إذا» هي(٤) الفُجائية: أي: ثم فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض، وإذا الفجائية، وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء، لكنّها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة، وهي أطوار الإنسان كما حكاه الله في مواضع: مِنْ كونه نطفة، ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً مكسوّاً لحماً فاجأ البشرية والانتشار، ومعنى تنتشرون: تنصرفون فيما هو قوام معايشكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ أي: ومن علاماته، ودلالاته الدالة على البعث أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً؛ أي: من جنسكم في البشرية، والإنسانية، وقيل: المراد: حوّاء، فإنه خلقها من ضلع آدم.

﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾؛ أي: تألفوها، وتميلوا إليها، فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر، ولا يميل قلبه إليه ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾؛ أي: وداداً وتراحماً بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة فضلاً عن مودّة ورحمة.

---

(١) «النشر» (٢/ ٢٢٤، ٢٢٥)، و«التيسير» (ص١٧٥)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٩٤).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٦٩)، و«الفريد» (٣/ ٧٥٣ ـ ٧٥٤).
(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٣٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٤٩).

وقال مجاهد[١]: المودّة: الجماع، والرحمة: الولد، وبه قال الحسن[٢].

وقال السديّ[٣]: المودّة: المحبة، والرحمة الشفقة.

وقيل: المودّة حبّ الرجل امرأته، والرحمة رحمته إياها مِنْ أن يصيبها بسوء.

وقوله: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ في موضع رفع على الابتداء، ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ خبره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور سابقاً. ﴿لَأَيَـٰتٍ﴾ عظيمة الشأن، بديعة البيان، واضحة الدلالة على قدرته سبحانه على البعث، والنشور ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادّة له يتحصّل عنه، وأما الغافلون عن التفكر فما هم إلّا كالأنعام.

[دلائل الآفاق]:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإن من خَلقَ هذه الأجرام العظيمة التي هي أجرام السماوات والأرض، وجعلها باقيةً ما دامت هذه الدار، وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ما هو عبرة للمعتبرين قادر على أن يخلقكم بعد موتكم وينشركم من قبوركم ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾؛ أي: لغاتكم مِنْ عرب، وعجم وترك وروم وغير ذلك من اللغات.

﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ من البياض والسواد والحمرة والصفرة، والزرقة والخضرة مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة، ويجمعكم نوع واحد وهو الإنسانية، وفصل واحد وهو الناطقية، حتى صرتم متميزين في ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا؛ بل في كل فرد من أفرادكم ما يميزه عَنْ غيره من الأفراد، وفي هذا من بديعِ القدرة ما لا يعقله إلّا العالمون، ولا يفهمه إلّا المتفكرون ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ الذين هم من جنس هذا العالَم من غير فرق بين برّ وفاجر.

قرأ الجمهور[٤] بفتح لام العالمين، وقرأ حفص وحده بكسرها[٥].

---

(١) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٢٥٣).
(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٣٣).
(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٠٥).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٣٨٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤٤)، و«التيسير» (ص١٧٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٨٣).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

قال الفراء[١]: وله وجه جيد؛ لأنَّه قد قال: ﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤] ﴿لَآيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ قيل: في الكلام تقديم[٢] وتأخير. والتقدير: ومن آياته منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار.

وقيل: المعنى صحيح مِنْ دون تقديم وتأخير؛ أي: ومن آياته العظيمة أنكم تنامون بالليل وتنامون بالنهار في بعض الأحوال للاستراحة كوقت القيلولة، وابتغاؤكم من فضله فيهما، فإنّ كل واحد منهما يقع فيه ذلك، وإن كان ابتغاء الفضل في النهار أكثر.

والأوّل هو المناسب لسائر الآيات الواردة في هذا المعنى، والآخر هو المناسب للنظم القرآني ها هنا.

ووجه[٣] ذكر النوم، والابتغاء ها هنا، وجعلهما من جملة الأدلة على البعث: أنّ النوم شبيه بالموت، والتصرّف في الحاجات والسعي في المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ أي: يسمعون الآيات والمواعظ سماع متفكّر متدبر، فيستدلون بذلك على البعث ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ المعنى: أن يريكم، فحذف «أن» لدلالة الكلام عليه كما قال طرفة[٤]:

أَلَا أيُهذا اللَّائمِي أحضر الوَغَى ... وأنْ أشهدَ اللّذاتِ هَلْ أنتَ مُخلدِي

والتقدير: أنْ أحضر، فلما حذف الحرف في الآية، والبيت بطل عمله، ومنه المثل المشهور: «تسمع بالمعيدي خيرٌ مِنْ أن تراه»[٥]، وقيل: هو على التقديم، والتأخير: أي: ويريكم البرق من آياته، فيكون من عطف جملة فعلية على جملة

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٣١).

(٢) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٥٢).

(٣) «تفسير الرازي» (٢٥/ ١١٢).

(٤) انظر: «ديوانه» (ص٣٢).

(٥) هذا المثل يضرب لمن خبره خير من مرآه، وأول من قاله المنذر بن ماء السماء. «مجمع الأمثال» (١/ ١٢٩ رقم ٦٥٥).

اسمية، ويجوز[١] أن يكون «يريكم» صفة لموصوف محذوف: أي: ومن آياته آية يريكم بها وفيها البرق، وقيل: التقدير: ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته.

قال الزجاج[٢]: فيكون من عطف جملة على جملة.

قال قتادة[٣]: خوفاً للمسافر، وطمعاً للمقيم.

وقال الضحاك[٤]: خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث.

وقال يحيى بن سلام[٥]: خوفاً من البرد أن يهلك الزرع، وطمعاً في المطر أن يحيي الزرع.

وقال ابن بحر[٦]: خوفاً أن يكون البرق برقاً خُلَّباً لا يمطر، وطمعاً أن يكون ممطراً، وأنشد:

لَا يكُنْ بَرقُكَ بَرْقاً خُلَّبا ... إنَّ خيرَ البَرْقِ ما الغَيْثُ مَعَهْ[٧]

وانتصاب خوفاً وطمعاً على العلة ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾؛ أي: يحييها بالنبات بعد موتها باليباس ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإن من له نصيب من العقل يعلم أن ذلك آية يستدلّ بها على القدرة الباهرة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أي: قيامهما واستمساكهما بإرادته سبحانه، وقدرته بلا عمد يعمدهما، ولا مستقرّ يستقران عليه.

قال الفراء[٨]: يقول: أن تدوما قائمتين بأمره[٩].

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾؛ أي: ثم بعد موتكم ومصيركم

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٣٨ ـ ١٠٣٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٥٣٧)، و«الفريد» (٣/ ٧٥٤).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٨٢).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٨٠) بسند صحيح.
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١٤)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٠٧).
(٥) «النكت والعيون» (٤/ ٣٠٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤١٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٣٨).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.
(٧) انظر: «عيون الأخبار» (ص٢٧٦)، و«جمهرة الأمثال» (٣/ ١٥٦)، و«خزانة الأدب» (٦/ ٤٧١).
(٨) في «معاني القرآن» (٢/ ٣٢٣).
(٩) ثم قاله الفراء: «بغير عمدٍ».

[٣/٣٧٦] في القبور إذا دعاكم دعوة واحدة فاجأتم الخروج منها بسرعة من غير تلبث ولا توقف، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع.

و﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بدعا: أي: دعاكم من الأرض التي أنتم فيها، كما يقال: دعوته من أسفل الوادي، فطلع إليّ، أو متعلق بمحذوف هو صفة لدعوة، أو متعلق بمحذوف يدلّ عليه تخرجون: أي: خرجتم من الأرض، ولا يجوز أن يتعلق بتخرجون؛ لأن ما بعد إذ لا يعمل فيما قبلها.

وهذه الدعوة هي نفخة إسرافيل الآخرة في الصور على ما تقدّم بيانه، وقد أجمع[١] القرّاء على فتح التاء[٢] في «تَخْرجون» هنا، وغلط من قال: إنه قرئ هنا بضمها على البناء[٣] للمفعول، وإنما قرئ بضمها في الأعراف.

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من جميع المخلوقات مُلْكاً، وتصرّفاً وخَلْقاً ليس لغيره في ذلك شيء ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ أي: مطيعون طاعة انقياد[٤].

وقيل: مقرّون[٥] بالعبودية، وقيل: مصلون[٦]، وقيل: قائمون[٧] يوم القيامة كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]؛ أي: للحساب، وقيل: بالشهادة أنهم عباده[٨]، وقيل: مخلصون[٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت، فيحييه الحياة الدائمة ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: هَيّنٌ عليه لا يستصعبه، أو أهون عليه بالنسبة إلى قدرتكم، وعلى ما يقوله بعضكم لبعض، وإلّا فلا شيء في قدرته بعضه أهون من بعض؛ بل كل الأشياء مستوية يوجدها بقوله: كن فتكون.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١١).
(٢) «النشر» (٢/ ٢٢٤، ٢٢٥)، و«التيسير» (ص١٧٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٤٣).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة. وردت عن ابن عامر وعاصم وهي رواية شاذة عنهما.
(٤) قاله النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٧٠).
(٥) قاله عكرمة وأبو مالك والسُّدي. «النكت والعيون» (٤/ ٣٠٩).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١٦)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٠٩) عن ابن عباس.
(٧) قاله الربيع بن أنس. «النكت والعيون» (٤/ ٣٠٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤١٦).
(٨) قاله الحسن. المصدرين المتقدمين.
(٩) قاله سعيد بن جبير. «النكت والعيون» (٤/ ٣٠٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤١٧).

قال أبو عبيدة[(١)]: مَنْ جعل أهون عبارة عن تفضيل شيء على شيء، فقوله مردود بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٩]، وبقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيراً كما في قول الفرزدق[(٢)]:

إنَّ الذي سمكَ السَّماءَ بَنَى لنا بَيْتاً دَعَائمُه أعزُّ وأطُول

أي: عزيزة طويلة، وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك:

تمنَّى رجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمُتْ فتلكَ سبيل لستُ فيها بأوحدِ[(٣)]

أي: لست بواحد، ومثله قول الآخر:

لعمرُكَ إنَّ الزِّبرقانَ لباذلٌ لمعروفِه عند السِّنين وأفضلُ[(٤)]

أي: وفاضل، وقرأ عبد الله[(٥)] بن مسعود «وهو عليه هين»، وقال مجاهد[(٦)]، وعكرمة، والضحاك: إن الإعادة أهون عليه: أي: على الله من البداية: أي: أيسر، وإن كان جميعه هيناً. وقيل: المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداية.

وقيل: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ للخلق: أي: وهو أهون على الخلق؛ لأنه يصاح بهم صيحة واحدة، فيقومون، ويقال لهم: كونوا فيكونون، فلذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة إلى آخر النشأة ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

قال الخليل[(٧)]: المثل: الصفة: أي: وله الوصف الأعلى ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥، ومحمد: ١٥]؛ أي: صفتها.

---

(١) في «مجاز القرآن» (٢/ ١٢١). (٢) انظر: «ديوانه» (ص٧١٤).

(٣) انظر: «جامع البيان» (٢٤/٤٧٨)، و«مجاز القرآن» (٢/ ٣٠١)، و«الاختيارات» للأخفش (ص١٦١).

(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/٤١٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٨٧) دون نسبة.

(٥) وهي قراءة شاذة. انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٢٥٦)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٥٥).

(٦) انظر هذه الأقوال في: «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/٤١٨)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٥٥)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٢٦٧).

(٧) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٧٠).

وقال مجاهد: المثل الأعلى: قول: لا إله إلّا الله، وبه قال قتادة[١].

وقال الزجاج[٢]: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل.

وقيل: المثل الأعلى: هو أنه ليس كمثله شيء، وقيل: هو أن ما أراده كان بقول: كن، و﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بمضمون الجملة المتقدّمة.

والمعنى: أنه سبحانه عُرف بالمثل الأعلى، ووصف به في السماوات والأرض، ويجوز أن يتعلق[٣] بمحذوف على أنه حال من ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أو من المثل، أو من الضمير في ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في مُلكه القادر الذي لا يغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله، وأفعاله.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[٤] عن ابن عباس في قوله: ﴿يُبْلِسُ﴾ قال: يبتئس.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ﴿يُبْلِسُ﴾ قال[٥]: يكتئب، وعنه الإبلاس: الفضيحة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ قال: يكرمون.

وأخرج الديلمي[٧] عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة قال الله: أين الذين كانوا ينزّهون أسماعهم، وأبصارهم عن مزامير الشيطان؟ ميزوهم، فيميزون في كثب المسك، والعنبر؛ ثم يقول للملائكة: أسمعوهم من تسبيحي وتحميدي وتهليلي، قال: فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط».

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٨٩) بسند صحيح. وقول مجاهد ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٥٧٦).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٨٤).
(٣) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٤٦)، و«الفريد» (٣/ ٧٥٦).
(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٨٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٦٨) بسند حسن، عن مجاهد.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٧١) بسند صحيح.
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٧).

وأخرج الدينوري[١] في «المجالسة» عن مجاهد قال: ينادي مناد يوم القيامة فذكر نحوه، ولم يسمّ من رواه له عن رسول الله.

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذمّ الملاهي، والأصبهاني في الترغيب عن محمد بن المنكدر[٢] ونحوه.

وأخرج ابن أبي الدنيا، والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنة، قال السيوطي[٣] بسند صحيح عن ابن عباس[٤] قال: «في الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب المجدّ في ظلها مائة عام، فيخرج أهل الجنة أهل الغرف، وغيرهم، فيتحدّثون في ظلها، فيشتهي بعضهم، ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله ريحاً من الجنة، فتحرّك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا».

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة[٥] مرفوعاً نحوه.

وأخرج الفريابي، وابن مردويه عن ابن عباس[٦] قال: «كل تسبيح في القرآن، فهو صلاة».

وأخرج عبد الرزاق، والفريابي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن أبي رزين قال: جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس[٧]، فقال: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، فقرأ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الصبح ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر، وقرأ: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨].

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» رقم (٧٢).
(٣) في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٧).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» رقم (٢٦٦).
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٧).
(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٨).
(٧) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (١٧٧٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٧٤)، وابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ٣٢١ رقم ٩٣٢)، والطبراني رقم (١٠٥٩٦)، والحاكم (٢/ ٤١٠، ٤١١) من طريق سفيان، عن عاصم، به.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر عنه[١] قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ قال: المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾: العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: الظهر.

وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن السني في عمل يوم وليلة، والطبراني، وابن مردويه والبيهقي في الدعوات عن معاذ بن أنس[٢]، عن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذي وفّى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح، وأمسى: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السماوات، والأرض، وعشياً، وحين تظهرون» وفي إسناده ابن لهيعة.

وأخرج أبو داود، والطبراني، وابن السني، وابن مردويه عن ابن عباس[٣]، عن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أدرك ما فاته في يومه، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته» وإسناده ضعيف[٤].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[٥] في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ يقول: مطيعون: يعني: الحياة والنشور، والموت، وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٦] في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: أيسر.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٨٩)، وابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ٣٢٢ رقم ٩٢٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٧٤ - ٤٧٥) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٥٦٢٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (٢/ ٥٠٧) و(٢٢/ ٧٧، ٧٨)، وابن السني رقم (٧٨)، والطبراني (ج٢٠ رقم ٤٢٧، ٤٢٨)، وابن مردويه، وابن أبي حاتم كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٨٥) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه أبو داود رقم (٥٠٧٦)، والطبراني رقم (١٢٩٩١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٥٦، ٧٩). وهو حديث ضعيف جدّاً.

(٤) بل ضعيف جدّاً. انظر: «ضعيف سنن أبي داود» رقم (١٠٨).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٨٣) بسند ضعيف.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٨٦) بسند صحيح، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩٠).

وأخرج ابن الأنباري(١) عنه أيضاً في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: الإعادة أهون على المخلوق؛ لأنه يقول له يوم القيامة: كن فيكون، وابتدأ الخلقة من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه(٢) أيضاً في قوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ يقول: ليس كمثله شيء.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا
رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا
لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا
تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ
إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ
إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ
فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ
﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ
يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا﴾ قد تقدّم تحقيق معنى المثل، و«من» في ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ لابتداء الغاية، وهي ومجرورها في محلّ نصب(٣) صفة لمثلاً؛ أي: مثلاً منتزعاً، ومأخوذاً من أنفسكم، فإنها أقرب شيء منكم، وأبين من غيرها عندكم، فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة، وأعظم وضوحاً.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩١).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٨٨، ٤٨٩) بسند صحيح، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩٠).
(٣) «الفريد» (٣/ ٧٥٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٤٧).

ثم بين المثل المذكور، فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا﴾ «من» في «مما ملكت» للتبعيض[(١)]، وفي «من شركاء» زائدة للتأكيد، والمعنى: هل لكم شركاء فيما رزقناكم كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم؟ وهم: العبيد والإماء، والاستفهام للإنكار[(٢)].

وجملة ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ جواب للاستفهام الذي بمعنى: النفي، ومحققة لمعنى الشركة بينهم وبين العبيد والإماء المملوكين لهم في أموالهم: أي: هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرّف بما رزقناكم من الأموال، ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم.

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الكاف[(٣)] نعت مصدر محذوف: أي: تخافونهم خيفةً كخيفتكم أنفسكم: أي: كما تخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية وملك الأموال، وجواز التصرف، والمقصود[(٤)] نفي الأشياء الثلاثة: الشركة بينهم وبين المملوكين، والاستواء معهم وخوفهم إياهم.

وليس المراد ثبوت الشركة ونفي الاستواء، والخوف كما قيل في قولهم: ما تأتينا فتحدّثنا.

[إقامة الحجَّة على المشركين]:

والمراد: إقامة الحجة على المشركين، فإنَّهم لا بدّ أن يقولوا: لا نرضى بذلك، فيقال لهم: فكيف تنزّهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم، وهم أمثالكم في البشرية، وتجعلون عبيد الله شركاء له؟ فإذا بطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة، بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد الله تعالى، ولم يبق إلّا أنه الربّ وحده لا شريك له [٣/٣٧٧].

قرأ الجمهور «أنفسَكم» بالنصب[(٥)] على أنه معمول المصدر المضاف إلى

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٤٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٤٧)، و«الفريد» (٣/ ٧٥٦).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٤٧).
(٣) «الفريد» (٣/ ٧٥٦)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٤٨).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٢٠ ـ ٤٢١).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٣٨٨)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٤٨)، و«الدر المصون» (٩/ ٤٣).

فاعله، وقرأ ابن أبي[١] عبلة بالرفع على إضافة المصدر إلى مفعوله ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ تفصيلاً واضحاً وبياناً جليّاً.

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها، والتفكر فيها. ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وإرشادهم إلى الحق بما ضربه لهم من المثل، فقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾؛ أي: لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائغة، وآراءهم الفاسدة الزائفة، ومحل «بغير علم» النصب[٢] على الحال: أي: جاهلين بأنهم على ضلالة ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾؛ أي: لا أحد يقدر على هدايته؛ لأن الرشاد والهداية بتقدير الله وإرادته.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ أي: ما لهؤلاء الذين أضلهم الله من ناصرين ينصرونهم، ويحولون بينهم، وبين عذاب الله سبحانه.

ثم أمر رسوله ﷺ بتوحيده وعبادته كما أمره، فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾ شبه الإقبال على الدين بتقويم وجهه إليه وإقباله عليه، وانتصاب ﴿حَنِيفًاۚ﴾ على الحال[٣] من فاعل أقم، أو من مفعوله: أي: مائلاً إليه مستقيماً عليه غير ملتفت إلى غيره من الأديان الباطلة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ الفطرة في الأصل: الخِلْقة، والمراد بها هنا: الملّة: وهي: الإسلام والتوحيد.

قال الواحدي[٤]: هذا قول المفسرين في فطرة الله، والمراد بالناس هنا: الذين فطرهم الله على الإسلام؛ لأنّ المشرك لم يفطر على الإسلام، وهذا الخطاب وإن كان خاصّاً برسول الله، فأمته داخلة معه فيه.

قال القرطبي[٥] باتفاق من أهل التأويل.

والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم، وأنهم

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة. القراءة بالرفع قراءة شاذة.
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٣٨٨)، و«الدر المصون» (٩/ ٤٥).
(٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٧١)، و«الفريد» (٣/ ٧٥٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٥١).
(٤) في «الوسيط» (٣/ ٤٣٣).
(٥) في «تفسيره» (١٦/ ٤٢٢).

جميعاً مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم، فيبقون بسببها على الكفر كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح[(١)] قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلّا يولد على الفطرة»، وفي رواية «على هذه الملة، ولكن أبواه يهوّدانه، وينصّرانه، ويمجّسانه كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟».

ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾. وفي رواية «حتى تكونوا أنتم تجدعونها».

وسيأتي في آخر البحث ما ورد معاضداً لحديث أبي هريرة هذا، فكل فرد من أفراد الناس مفطور: أي مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة، ومَنْ بعدهم وقول جماعة من المفسرين[(٢)]، وهو: الحق.

والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب جمهور السلف. وقال آخرون: هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها، فإنه ابتدأهم للحياة والموت، والسعادة، والشقاوة.

والفاطر في كلام العرب[(٣)] هو: المُبتدئ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة، وإهمال معناها شرعاً.

والمعنى الشرعي مقدّم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع، ولا ينافي ذلك ورود الفطرة في الكتاب أو السُّنَّة في بعض المواضع مراداً بها المعنى اللغوي كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]؛ أي: خالقها ومبتديها، وكقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يسٓ: ٢٢] إذ لا نزاع في أن المعنى اللغوي هو هذا، ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة، وهو ما ذكره الأوّلون كما بيناه، وانتصاب فطرة على أنها مصدر مؤكد للجملة التي قبلها.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣١٥)، والبخاري رقم (٤٧٧٥)، ومسلم رقم (٢٢/ ٤٧٧٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨)، و«المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٥٨)، و«التمهيد» لابن عبد البر (١٨/ ١٣١).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

وقال الزجاج[(١)]: فطرة منصوب بمعنى: اتبع فطرة الله، قال: لأن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتبع الدين، واتبع فطرة الله.

وقال ابن جرير[(٢)]: هي مصدر من معنى، «فأقم وجهك»؛ لأن معنى ذلك: فطَر الله الناس على الدين، وقيل: هي منصوبة على الإغراء: أي: الزموا فطرة الله، أو عليكم فطرة الله، وردّ هذا الوجه أبو حيان[(٣)]، وقال: إن كلمة الإغراء لا تضمر إذ هي عوض عن الفعل، فلو حذفها لزم حذف العوض، والمعوّض عنه وهو إجحاف.

وأجيب بأن هذا رأي البصريين[(٤)]، وأما الكسائي[(٥)]، وأتباعه، فيجيزون ذلك.

وجملة: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة: أي: هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه.

وقيل: هو نفي معناه: النهي؛ أي: لا تبدّلوا خلق الله.

قال مجاهد[(٦)]، وإبراهيم النخعي[(٧)]: معناه: لا تبديل لدين الله.

قال قتادة[(٨)]، وابن جبير[(٩)]، والضحاك[(١٠)]، وابن زيد[(١١)]: هذا في المعتقدات.

وقال عكرمة[(١٢)]: إن المعنى: لا تغيير لخلق في البهائم بأن تخصى فُحولها

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٨٤).

(٢) في «جامع البيان» (١٨/ ٤٩٣). (٣) في «البحر المحيط» (٨/ ٣٨٩).

(٤) انظر: «روح المعاني» (٢٠/ ٤٥١ ـ ٤٥٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٨٩).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٥٢).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٩٤) بسند صحيح.

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٩٦) بسند ضعيف.

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٩٥) بسند صحيح.

(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٩٥) من طريق حميد الأعرج، عن سعيد بن جبير.

(١٠) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٩٥) بسند ضعيف.

(١١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦) بسند صحيح.

(١٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٩٦) بسند ضعيف.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾؛ أي: ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم، أو لزوم الفطرة هو: الدين القيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك حتى يفعلوه، ويعملوا به ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: راجعين إليه بالتوبة، والإخلاص، ومطيعين له في أوامره ونواهيه. ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

فَإِنْ تَابُوا فَإِنَّ بَنِي سُلَيْمٍ وَقَوْمَهُمُ هَوَازِنَ قَدْ أَنَابُوا[١]

قال الجوهري[٢]: أناب إلى الله: أقبل وتاب، وانتصابه على الحال من فاعل (أقم). قال المبرد[٣]: لأن معنى أقم وجهك: أقيموا وجوهكم.

قال الفراء[٤]: المعنى: فأقم وجهك ومن معك منيبين، وكذا قال الزجاج[٥]، وقال: تقديره: فأقم وجهك وأمتك؛ فالحال من الجميع. وجاز حذف المعطوف لدلالة منيبين عليه.

وقيل: هو منصوب على القطع[٦]، وقيل: على أنه خبر لكان محذوفة: أي: وكونوا منيبين إليه لدلالة «ولا تكونوا من المشركين» على ذلك، ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإنابة، فقال: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾؛ أي: باجتناب معاصيه، وهو معطوف على الفعل المقدر ناصباً لمنيبين.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي أمرتم بها ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بالله.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ هو بدل مما قبله بإعادة الجار، والشيع: الفِرَق: أي: لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقاً في الدين يشايع بعضُهم بعضاً من أهل البدع، والأهواء.

وقيل: المراد بالذين فرّقوا دينهم شيعاً: اليهود والنصارى. وقرأ حمزة: والكسائي «فارقوا دينهم»[٧]، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب: أي: فارقوا دينهم الذي يجب اتباعه وهو: التوحيد.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٣٠ ـ ٤٣١).
(٢) في «الصحاح» (١/ ٢٢٩).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٣١).
(٤) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٥).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٨٥).
(٦) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٥٥).
(٧) «التيسير» (ص١٠٨)، و«النشر» (٢/ ٢٦٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٣٢).

وقد تقدّم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنعام ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾؛ أي: كل فريق بما لديهم من الدين المبني على غير الصواب مسرورون مبتهجون يظنون أنّهم على الحق وليس بأيديهم منه شيء.

وقال الفراء[١]: يجوز أن يكون قوله: «من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً» مستأنفاً كما يجوز أن يكون متصلاً بما قبله ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾؛ أي: قحط وشدّة ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ أن يرفع ذلك عنهم، واستغاثوا به ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: راجعين إليه ملتجئين به لا يعوّلون على غيره، وقيل: مقبلين عليه بكل قلوبهم ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بإجابة دعائهم، ورفع تلك الشدائد عنهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ «إذا» هي: الفجائية[٢] وقعت جواب الشرط؛ لأنها كالفاء في إفادة التعقيب: أي: فاجأ فريق منهم الإشراك، وهم الذين دعوه، فخلّصهم مما كانوا فيه.

وهذا الكلام مسوق للتعجيب مِنْ أحوالهم، وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله سبحانه عند نزول الشدائد، والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم، واللام في ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هي: لام كي، وقيل: لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد، وقيل: هي لام العاقبة[٣]، ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع، فقال: ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يتعقب هذا التمتع الزائل من العذاب الأليم.

قرأ الجمهور «فتمتعوا» على الخطاب[٤]. وقرأ أبو العالية بالتحتية[٥] على البناء للمفعول، وفي مصحف ابن مسعود[٦]: «فليتمتعوا» ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ «أم» هي: المنقطعة، والاستفهام للإنكار.

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٥).
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٥٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤١)، و«الفريد» (٣/ ٧٥٧).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٣٩٢)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٥٧). وهي القراءة المتواترة، وما عداها فشاذة.
(٥) «المحتسب» (٢/ ١٦٤)، و«القراءات الشاذة» (ص٩٠، ١١٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٩٢).
(٦) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٥٧)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧٩).

والسلطان: الحجة الظاهرة ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾؛ أي: يدل كما في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

قال الفراء[(١)]: إن العرب تؤنث السلطان، يقولون: قضت به عليك السلطان، فأما البصريون فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن، والتأنيث عندهم جائز؛ لأنه بمعنى: الحُجة.

وقيل: المراد بالسلطان هنا: الملك ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: ينطق بإشراكهم بالله سبحانه، ويجوز أن تكون الباء سببية: أي: بالأمر الذي بسببه يشركون.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾؛ أي: خصباً ونعمة وسعة وعافية ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ فرح بَطَرٍ وأشر، لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها إليهم ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ شدة على أي صفة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: بسبب ذنوبهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ القنوط: الإياس من الرحمة، كذا قال الجمهور[(٢)].

وقال الحسن[(٣)]: القنوط: ترك فرائض الله سبحانه.

قرأ الجمهور «يقنَطون» بضم النون[(٤)]، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب بكسرها[(٥)] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ويوسع له ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق على من يشاء لمصلحة في التوسيع لمن وسّع له، وفي التضييق على من ضيق عليه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيستدلون على الحق لدلالتها على كمال القدرة، وبديع الصنع وغريب الخلق.

وقد أخرج الطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس[(٦)] قال: كان يلبي أهل

---

(١) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٢٥). (٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٣٤).

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣١٥).

(٤) «النشر» (٢/ ٣٠٢)، و«التيسير» (ص١٣٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٣٥). الصواب: بفتح النون وانظر: «النشر» (٢/ ٢٢٦) لعلّه سبق قلم.

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) أخرجه الطبراني في «الكبير» رقم (١٢٣٤٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٢٦): «وفيه حمّاد بن شعيب وهو ضعيف».

الشرك: لبيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فأنزل الله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير[١] عنه في الآية قال هي في الآلهة، وفيه يقول: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢] عنه أيضاً في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال: دين الله ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ قال: القضاء القيم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن الأسود بن سريع[٣]، «أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خيبر، فقاتلوا المشركين، فانتهى القتل إلى الذرية، فلما جاؤوا قال النبي ﷺ: ما حملكم على قتل الذرية؟ [٣/٣٧٨] قالوا: يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين، قال: وهل خياركم إلّا أولاد المشركين؟ والذي نفسي بيده، ما من نسمة تولد إلّا على الفطرة حتى يُعرب عنها لسانُها».

وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً» رواه أحمد عن الربيع بن أنس، عن الحسن، عن جابر.

وقال الإمام أحمد في «المسند»[٥]: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار: «أن رسول الله ﷺ خطب يوماً، فقال

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٩٠) بسند ضعيف، عطاء الخراساني لم يسمع من ابن عباس.

(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٢٠٠٩٠)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٨٦)، وأحمد رقم (١٥٥٨٨، ١٥٥٨٩، ١٦٢٩٩، ١٦٣٠٣)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٨٦١٦)، والحاكم (٢/ ١٢٣) وسكت عنه، وقال الذهبي: «على شرط البخاري ومسلم» بسند رجاله ثقات، ولكنه منقطع، الحسن وهو البصري لم يسمع من الأسود بن سريع.

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٣)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٢١): «فيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات».

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٦٢)، ومسلم رقم (٦٣/ ٢٨٦٥)، والطبراني (ج١٧ رقم ٩٨٧).

في خطبته حاكياً عن الله سبحانه: وإنِّي خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فأضلتهم عَنْ دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم» الحديث.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن
زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ
يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ
﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن
رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

[ما ينبغي أن يقابل به العباد نعمة الله الوهاب]:

لما بيّن سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى ما ينبغي من مواساة القرابة، وأهل الحاجات ممن بسط الله له في رزقه، فقال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾، والخطاب للنبي ﷺ، وأمته أسوته، أو لكل مكلف له مال وسّع الله به عليه، وقدم الإحسان إلى القرابة؛ لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها، والمراد: الإحسان إليهم بالصدقة والصلة والبر ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ أي: وآت المسكين، وابن السبيل حقهما الذي يستحقانه.

ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان، ولكون ذلك واجباً[1] لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته، وكفاية مَنْ يعول.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٣٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٦٢)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٠٢).

وقد اختلف في هذه الآية هل هي محكمة، أو منسوخة؟ قيل: هي منسوخة بآية المواريث. وقيل: محكمة[١]، وللقريب في مال قريبه الغنيّ حقّ واجب، وبه قال مجاهد[٢]، وقتادة.

قال مجاهد[٣]: لا تقبل صدقة من أحد، ورَحِمه محتاج. قال مقاتل[٤]: حق المسكين أَنْ يُتصدّق عليه، وحق ابن السبيل الضيافة. وقيل: المراد بالقربى: قرابة النبيّ ﷺ. قال القرطبي[٥]: والأوّل أصح، فإنّ حقهم مبين في كتاب الله ﷻ في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٤١] وقال الحسن[٦]: إن الأمر في إيتاء ذي القربى للندب ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذلك الإيتاء أفضل مِنْ الإمساك لمن يريد التقرّب إلى الله سبحانه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لوجه الله امتثالاً لأمره.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ قرأ الجمهور «آتيتم» بالمدّ[٧] بمعنى: أعطيتم.

وقرأ مجاهد، وحميد، وابن كثير بالقصر[٨] بمعنى: ما فعلتم.

وأجمعوا[٩] على القراءة بالمدّ في قوله: «وما آتيتم مِنْ زكاة»، وأصل الربا: الزيادة، وقراءة القصر تؤول إلى قراءة المدّ؛ لأن معناها: ما فعلتم على وجه الإعطاء، كما تقول: أتيت خطأً، وأتيت صواباً.

والمعنى في الآية: ما أعطيتم مِنْ زيادة خالية عَنْ العوض ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ليزيد، ويزكوا في أموالهم ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يبارك الله فيه.

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٣٦): «وقيل: لا نسخ؛ بل للقريب حقٌّ لازمٌ في البر على كل حال، وهو الصحيح».

(٢) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٣٦)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٧٤).

(٣) ذكره النحاس في«تفسيره» (٣/ ٢٧٤).

(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٣٤).

(٥) في «تفسيره» (١٦/ ٤٣٦).

(٦) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٦٢).

(٧) «التيسير» (ص٣٠)، و«النشر» (٢/ ٢٢٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٩٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٨٤).

(٨) انظر: المصادر المتقدمة.

(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٣٧).

[اختلفوا هنا في المراد بالربا]:

قال السديّ[١]: الربا في هذا الموضع: الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة؛ لأنّ ذلك لا يربو عند الله لا يؤجر عليه صاحبه، ولا إثم عليه، وهكذا قال قتادة[٢]، والضحاك[٣]. قال الواحدي[٤]: وهذا قول جماعة المفسرين.

قال الزجاج[٥]: يعني: دفع الإنسان الشيء؛ ليعوّض أكثر منه، وذلك ليس بحرام، ولكنه لا ثواب فيه؛ لأن الذي يهبه يستدعي به ما هو أكثر منه.

وقال الشعبي[٦]: معنى الآية: أن ما خدم به الإنسان أحداً، لينتفع به في دنياه فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله.

وقيل: هذا كان حراماً على النبي ﷺ على الخصوص لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦] ومعناها: أن تعطي فتأخذ أكثر منه عوضاً عنه. وقيل: إن هذه الآية نزلت في هبة الثواب.

قال ابن عطية[٧]: وما يجري مجراه مما يصنعه الإنسان؛ ليجازى عليه.

قال عكرمة[٨]: الربا ربوان: فربا حلال، وربا حرام. فأما الربا الحلال، فهو: الذي يهدي يلتمس ما هو أفضل منه: يعني: كما في هذه الآية.

وقيل: إن هذا الذي في هذه الآية هو الربا المحرّم، فمعنى لا يربو عند الله على القول: لا يحكم به؛ بل هو للمأخوذ منه.

قال المهلب[٩]: اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب، فقال مالك[١٠]: ينظر فيه، فإن كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله ذلك،

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٣٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٠٥) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٠٥) بسند حسن.

(٤) في «الوسيط» (٣/ ٤٣٥).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٨٧).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٠٥) بسند ضعيف.

(٧) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٦٣).

(٨) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٣٧).

(٩) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٣٨)، وابن العربي في «أحكام القرآن» (٣/ ١٤٨٠).

(١٠) في «الموطأ» (٢/ ٧٥٤).

مثل هبة الفقير للغنيّ، وهبة الخادم للمخدوم، وهبة الرجل لأميره، وهو أحد قولي الشافعي[(١)].

وقال أبو حنيفة[(٢)]: لا يكون له ثواب إذا لم يشترط، وهو قول الشافعي[(٣)] الآخر.

قرأ الجمهور: «لِيَربَوا» بالتحتية[(٤)] على أن الفعل مسند إلى ضمير الربا.

وقرأ نافع، ويعقوب بالفوقية[(٥)] مضمومة خطاباً للجماعة بمعنى: لتكونوا ذوي زيادات.

وقرأ أبو مالك[(٦)] «لتربوها» ومعنى الآية: أنه لا يزكو عند الله، ولا يثيب عليه؛ لأنه لا يقبل إلّا ما أريد به وجهه خالصاً له.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، وإنما تقصدون بها ما عند الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ المضعف ذوو الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

قال الفراء[(٧)]: هو نحو قولهم: مسمن، ومعطش، ومضعف إذا كانت له إبل سمان، أو عطاش، أو ضعيفة.

وقرأ أبيّ: «المُضْعَفون» بفتح[(٨)] العين اسم مفعول.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين، وأنه الخالق الرازق

---

(١) انظر: «البيان» للعمراني (٨/ ١٣٢).

(٢) «بدائع الصنائع» (٦/ ١١٥ ـ ١١٦). (٣) «البيان» للعمراني (٨/ ١٣١ ـ ١٣٢).

(٤) «التيسير» (ص١٧٥)، و«النشر» (٢/ ٣٤٤)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٠٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٩٣).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) وهي قراءة شاذة. «البحر المحيط» (٨/ ٣٩٣).

(٧) في «معاني القرآن» (٢/ ٣٢٥).

(٨) «البحر المحيط» (٨/ ٣٩٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٨٨)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٦). وهي قراءة شاذة.

المميت المحيي، ثم قال على جهة الاستفهام(١): ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ ومعلوم أنهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك، فتقوم عليهم الحجة.

ثم نزّه سبحانه نفسه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: نزّهوه تنزيهاً، وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك.

وقوله: «من شركائكم» خبر مقدّم، ومن للتبعيض(٢)، والمبتدأ هو الموصول: أعني: مَنْ يفعل، «ومن ذلكم» متعلق بمحذوف؛ لأنّه حال من شيء المذكور بعده، ومن في «من شيء» مزيدة(٣) للتوكيد، وأضاف الشركاء إليهم؛ لأنهم كانوا يسمونهم آلهة، ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بيّن سبحانه: أن الشرك، والمعاصي سبب لظهور الفساد في العالم.

واختلف في معنى ظهور الفساد المذكور، فقيل: هو القحط، وعدم النبات، ونقصان الرزق، وكثرة الخوف ونحو ذلك، وقال مجاهد(٤)، وعكرمة(٥): فساد البرّ: قتل ابن آدم أخاه: يعني: قتل قابيل لهابيل، وفي البحر الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً.

وليت شعري أيّ دليل دلهما على هذا التخصيص البعيد، والتعيين الغريب، فإن الآية نزلت على محمد ﷺ، والتعريف في الفساد يدلّ على الجنس، فيعم كل فساد واقع في حيزي: البرّ والبحر.

وقال السديّ(٦): الفساد: الشرك وهو أعظم الفساد.

ويمكن أن يقال: إن الشرك، وإن كان الفرد الكامل في أنواع المعاصي، ولكن لا دليل على أنّه المراد بخصوصه.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٦٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٩٤).
(٢) «الفريد» (٣/ ٧٦٠)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٩٤).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥١٢) بسند صحيح.
(٥) ذكره معالم التنزيل (٦/ ٢٧٤) عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد.
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٤٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٦/ ٣٠٥).

وقيل[١]: الفساد: كساد الأسعار وقلة المعاش، وقيل: الفساد قطع السبل والظلم، وقيل: غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه.

[الذنوب سبب الفساد]:

والظاهر من الآية ظهور ما يصح[٢] إطلاق اسم الفساد عليه سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم، وتظالمهم، وتقاتلهم. أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط، وكثرة الخوف، والموتان، ونقصان الزرائع، ونقصان الثمار. والبرّ، والبحر هما المعروفان المشهوران وقيل: البرّ الفيافي، والبحر: القرى التي على ماء قاله عكرمة[٣]، والعرب تسمي الأمصار: البحار.

قال مجاهد[٤]: البرّ ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان على شط نهر. والأوّل أولى.

ويكون معنى البرّ: مدن البرّ، ومعنى البحر: مدن البحر، وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها.

والباء في ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ للسببية[٥]، و(ما) إما موصولة[٦] أو مصدرية ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ اللّام متعلقة بظهر، وهي: لام العلة[٧]: أي: ليذيقهم عقاب بعض عملهم، أو جزاء بعض عملهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عمَّا هم فيه من المعاصي، ويتوبون إلى الله.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ لما بين سبحانه

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٦٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٦٩)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٠٩).

(٣) «النكت والعيون» (٤/ ٣١٧).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥١٠) بسند صحيح.

(٥) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٧٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٥٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٧٥).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

(٧) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٥٨)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٧٠).

ظهور الفساد بما كسبت أيدي المشركين، والعصاة بيّن لهم ضلال أمثالهم من أهل الزمن الأوّل، وأمرهم بأن يسيروا(١) لينظروا آثارهم، ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم، فإن منازلهم خاوية، وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد، وثمود، ونحوهم من طوائف الكفار [٣/٣٧٩].

وجملة: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ مستأنفة لبيان الحالة التي كانوا عليها، وإيضاح السبب الذي صارت عاقبتهم به إلى ما صارت إليه ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ هذا خطاب(٢) لرسول الله ﷺ، وأمته أسوته فيه، كأن المعنى: إذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدّم، فأقم وجهك يا محمد إلخ.

قال الزجاج(٣): اجعل جهتك اتّباع الدين القيّم، وهو: الإسلام المستقيم ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾؛ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ﴾ لا يقدر أحد على ردّه، والمردّ مصدر ردّ، وقيل: المعنى: أوضح الحق وبالغ في الأعذار.

و﴿مِنَ اللَّهِ﴾ يتعلق بيأتي، أو بمحذوف يدل عليه(٤) المصدر: أي: لا يردّه من الله أحد.

وقيل: يجوز أَنْ يكون المعنى: لا يردّه الله لتعلق إرادته القديمة بمجيئه، وفيه مِنْ الضعف وسوء الأدب مع الله ما لا يخفى ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله يتصدعون، والتصدع: التفرق، يقال: تصدع القوم إذا تفرقوا، ومنه قول الشاعر:

وكُنَّا كَنَدْمَاني جُذَيْمَةَ بُرهةً … من الدَّهر حتى قِيل: لَنْ يَتَصدّعَا(٥)

والمراد بتفرقهم هاهنا أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، وأهل النار يصيرون إلى النار ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾؛ أي: جزاء كفره، وهو النار ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ أي: يوطئون لأنفسهم منازل في الجنة بالعمل الصالح، والمهاد: الفراش، وقد مَهَدتُ(٦) الفراش مَهْداً: إذا بسطتُه ووطأته، فجعل الأعمال

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٧٢)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥١٤).

(٢) «جامع البيان» (١٨/ ٥١٤ ـ ٥١٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٤٤)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٧٢).

(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٨٨). (٤) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٣٩٦).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٤٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٩٦).

(٦) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧٨٠).

الصالحة التي هي سبب لدخول الجنة كبناء المنازل في الجنة وفرشها.

وقيل: المعنى: فعلى أنفسهم يُشفقون، من قولهم في المشفق: «أمٌّ فَرشَتْ فأنامَتْ»، وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص[١].

وقال مجاهد[٢]: «فلأنفسهم يمهدون» في القبر.

واللام في ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ متعلقة بيصدّعون أو يمهدون: أي: يتفرّقون ليجزي الله المؤمنين بما يستحقونه من فضله أو يمهدون لأنفسهم بالأعمال الصالحة؛ ليجزيهم، وقيل: يتعلق بمحذوف.

قال ابن عطية[٣]: تقديره: ذلك ليجزي، وتكون الإشارة إلى ما تقدّم من قوله: مَنْ عمل ومَنْ كفر.

وجعل أبو حيان[٤] قسيم قوله: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» محذوفاً لدلالة قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ عليه؛ لأنه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه وغضبه يستتبع عقوبته.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾؛ أي: ومن دلالات بديع قدرته إرسال الرياح مبشرات بالمطر؛ لأنها تتقدّمه كما في قوله سبحانه: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] قرأ الجمهور[٥]: «الرياح»، وقرأ الأعمش: «الريح» بالإفراد[٦] على قصد الجنس لأجل قوله: «مبشرات»، واللام في قوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ متعلقة بيرسل: أي: يرسل الرياح مبشرات، ويرسلها ليذيقكم من رحمته: يعني: الغيث والخصب، وقيل: هو متعلق[٧] بمحذوف: أي: وليذيقكم أرسلها.

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٥/٣٥٨)، و«روح المعاني» (٢٠/٤٧٤).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٥١٦)، والبيهقي في «عذاب القبر» رقم (١٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٩٧) بسند صحيح.
(٣) في «المحرر الوجيز» (١٢/٢٧٦). (٤) في «البحر المحيط» (٨/٣٩٧).
(٥) «البحر المحيط» (٨/٣٩٨)، و«النشر» (٢/٢٢٣)، و«روح المعاني» (٢٠/٤٧٨)، و«التيسير» (ص٧٨).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة. وقراءة الأعمش شاذة.
(٧) «روح المعاني» (٢٠/٤٧٨)، و«البحر المحيط» (٨/٣٩٨ ـ ٣٩٩).

وقيل: الواو مزيدة[١] على رأي من يجوز ذلك، فتتعلق اللام بيرسل ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ معطوف على ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾: أي: يرسل الرياح لتجري الفلك في البحر عند هبوبها، ولما أسند الجري إلى الفلك عقبه بقوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: تبتغوا الرزق بالتجارة التي تحملها السفن ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعم فتفردون الله بالعبادة وتستكثرون من الطاعة.

وقد أخرج ابن أبي حاتم[٢] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الآية قال: الربا ربوان: ربا لا بأس به، وربا لا يصلح. فأما الربا الذي لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها وأضعافها.

وأخرج البيهقي[٣] عنه قال: هذا هو الربا الحلال أن يهدي يريد أكثر منه، وليس له أجر ولا وزر ونهى النبي ﷺ خاصة فقال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم[٤] عنه أيضاً: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ قال: هي الصدقة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٥] عنه أيضاً في قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال: البر: البرية التي ليس عندها نهر، والبحر ما كان من المدائن والقرى على شط نهر.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم[٦] عنه أيضاً في الآية قال: نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا.

وأخرج ابن المنذر[٧] عنه أيضاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: من الذنوب.

---

(١) «الفريد» (٣/ ٧٦٠ ـ ٧٦١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٧٨).
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩١).
(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٥١).
(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٠٣، ١٠٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٠٧، ٥٠٨) بسند ضعيف.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٦).
(٦) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٦)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩٢).
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٧).

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[١] عنه أيضاً ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ قال: يتفرقون.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

[نصرة الله لعباده المؤمنين حقٌّ عليه]:

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كما أرسلناك[٢] إلى قومك ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: بالمعجزات، والحجج النيرات، فانتقمنا منهم: أي: فكفروا ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾؛ أي: فعلوا الإجرام، وهي: الآثام ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥١٥) بسند صحيح، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩٣).

(٢) «جامع البيان» (١٨/ ٥١٨ ـ ٥١٩).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا إخبار مِنْ الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، وفيه تشريف للمؤمنين، ومزيد تكرمة لعباده الصالحين، ووقف بعض القراء[١] على (حقّاً)، وجعل اسم كان ضميراً فيها، وخبرها (حقّاً): أي: وكان الانتقام حقّاً.

قال ابن عطية[٢]: وهذا ضعيف، والصحيح أن (نصر المؤمنين) اسمها، و(حقّاً) خبرها، و(علينا) متعلق بـ(حقّاً)، أو بمحذوف هو صفة له.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وابن كثير، وابن محيصن: «يرسل الريح» بالإفراد[٣].

وقرأ الباقون[٤] «الرياح».

[الرياح رحمة والريح عذاب إلا أن يُقيَّد]:

قال أبو عمرو[٥]: كل ما كان بمعنى الرحمة، فهو جمعٌ وما كان بمعنى العذاب فهو موحد، وهذه الجملة مستأنفة مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح، فتكون على هذا جملة: «ولقد أرسلنا» إلى قوله: «وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين» معترضة ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾؛ أي: تُزْعجه[٦] من حيث هو ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ تارة سائراً وتارة واقفاً، وتارة مطبقاً، وتارة غير مطبق، وتارة إلى مسافة بعيدة، وتارة إلى مسافة قريبة.

وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة، وفي سورة النور ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ تارة أخرى، أو يجعله بعد بسطه قطعاً متفرقة، والكِسَف[٧] جمع كِسْفة والكِسْفة: القطعة مِنْ السحاب.

وقد تقدم تفسيره، واختلاف القراءة فيه.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ الودق: المطر، ومن خلاله: من وسطه. وقرأ

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠).
(٢) في «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).
(٣) «التيسير» (ص٧٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٣٩٨).
(٤) انظر: المصادر السابقة.
(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٤٧).
(٦) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٨٠).
(٧) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٧١١)، و«تهذيب اللغة» (١٠/ ٧٥).

أبو العالية، والضحاك «يخرج من خلله[١]».

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾؛ أي: بلادهم وأرضهم ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ إذا: هي الفجائية[٢]؛ أي: فاجئوا الاستبشار بمجيء المطر، والاستبشار: الفرح.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: من قبل أن ينزل عليهم المطر، وإن هي: المخففة، وفيها ضمير شأن مقدر هو اسمها: أي: وإن الشأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم، وقوله: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ تكرير للتأكيد، قاله الأخفش[٣]، وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس[٤].

وقال قطرب[٥]: إن الضمير في: قبله راجع إلى المطر؛ أي: وإن كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر. وقيل: المعنى: من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع والمطر، وقيل: من قبل أن ينزل عليهم، من قبل السحاب؛ أي: من قبل رؤيته، واختار هذا النحاس[٦].

وقيل: الضمير عائد إلى الكسف، وقيل: إلى الإرسال، وقيل: إلى الاستبشار.

والراجح الوجه الأول، وما بعده من هذه الوجوه كلها، ففي غاية التكلف والتعسف، وخبر كان ﴿لَمُبۡلِسِينَ﴾؛ أي: آيسين أو بائسين. وقد تقدّم تحقيق الكلام في هذا.

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ الناشئة عن إنزال المطر من النبات والثمار والزرائع التي بها يكون الخصب ورخاء العيش: أي: انظر نظر اعتبار واستبصار لتستدلّ بذلك على توحيد الله وتفرده بهذا الصنع العجيب.

---

(١) وهي قراءة شاذة. «المحتسب» (٢/ ١٦٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٤٧).
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٨١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٥٩).
(٣) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٥٨).
(٤) في «معاني القرآن» (٥/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).
(٥) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٢٦٩).
(٦) في «معاني القرآن» (٥/ ٢٦٩).

قرأ الجمهور «أَثَر» بالتوحيد[1]. وقرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي آثار بالجمع[2].

﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ فاعل الإحياء ضمير يعود إلى الله سبحانه، وقيل: ضمير يعود إلى الأثر، وهذه الجملة في محل نصب بانظر: أي: انظر إلى كيفية هذا الإحياء البديع للأرض.

وقرأ الجحدري، وأبو حيوة: «تحيي» بالفوقية[3] على أن فاعله ضمير يعود إلى الرحمة، أو إلى الآثار على قراءة من قرأ بالجمع.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إلى الله سبحانه: أي: إنَّ الله العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة ﴿لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾؛ أي: لقادر على إحيائهم في الآخرة وبعثهم ومجازاتهم كما أحيا الأرض الميتة بالمطر ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: عظيم القدرة كثيرها.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ الضمير في ﴿فَرَأَوْهُ﴾ يرجع إلى الزرع[4] والنبات الذي كان من أثر رحمة الله: أي: فرأوه مُصْفَّراً من البرد الناشئ عن الريح التي أرسلها الله بعد اخضراره.

وقيل: راجع إلى[5] الريح وهو يجوز تذكيره، وتأنيثه. وقيل: راجع إلى الأثر المدلول عليه بالآثار. وقيل: راجع[6] إلى السحاب؛ لأنه إذا كان مصفراً لم يمطر والأول أولى.

واللام هي[7]: الموطئة، وجواب القسم ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾، وهو يسدّ مسد جواب الشرط. والمعنى: ولئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة، فضربت زرعهم

---

(١) «التيسير» (ص١٧٥)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٨٥)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٢٢)، و«النشر» (٢/ ٣٤٥).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة.

(٣) وهي قراءة شاذة. «المحتسب» (٢/ ١٦٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٠٠).

(٤) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٨٣)، و«الدر المصون» (٩/ ٥٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٠٠).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٤٠٠ ـ ٤٠١)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٨٣).

(٧) «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٥٦٣)، و«الإملاء» (٤/ ١٧٩).

بالصفار لظلُّوا من بعد ذلك يكفرون بالله ويجحدون نعمه، وفي هذا دليل على سرعة تقلّبهم وعدم صبرهم وضعف قلوبهم، وليس كذا حال أهل الإيمان.

ثم شبههم بالموتى وبالصُّمِّ[(١)]، فقال: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إذا دعوتهم، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ومعرفتهم للصواب ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إذا دعوتهم إلى الحق ووعظتهم بمواعظ الله وذكرتهم الآخرة وما فيها، وقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ بيان لإعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالأموات وكونهم صُمّ الآذان قد تقدّم تفسير هذا في سورة النمل.

ثم وصفهم بالعمى، فقال: [٣/٣٨٠] ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ لفقدهم للانتفاع بالأبصار كما ينبغي، أو لفقدهم للبصائر ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ أي: ما تسمع إلّا هؤلاء لكونهم أهل التفكر والتدبر والاستدلال بالآثار على المؤثر ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: منقادون للحق متبعون له.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ ذكر سبحانه استدلالاً آخر على كمال قدرته، وهو خلق الإنسان نفسه على أطوار مختلفة ومعنى من ضعف: من نطفة.

قال الواحدي[(٢)]: قال المفسرون: من نطفة، والمعنى: من ذي ضعف.

وقيل: المراد: حال الطفولية والصغر ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وهي قوّة الشباب، فإنه إذ ذاك تستحكم القوّة، وتشتدّ الخلقة إلى بلوغ النهاية ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾؛ أي: عند الكبر، والهرم ﴿وَشَيْبَةً﴾ الشيبة هي: تمام الضعف ونهاية الكبر.

قرأ الجمهور «ضُعْف» بضم[(٣)] الضاد في هذه المواضع.

وقرأ عاصم، وحمزة بفتحها[(٤)]. وقرأ الجحدري بالفتح في الأوّلين[(٥)]، والضم في الثالث.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٤٩)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٨٧).

(٢) في «الوسيط» (٣/ ٤٣٨).

(٣) «التيسير» (ص١٧٥، ١٧٦)، و«النشر» (٢/ ٣٤٥)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٩٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٠١).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «المحرر الوجيز» (١٢/ ٢٧١)، وجاء في «الجامع الأحكام القرآن» (١٦/ ٤٥٠): بالفتح =

قال الفراء[١]: الضم لغة قريش، والفتح لغة تميم.

قال الجوهري[٢]: الضعف والضعف: خلاف القوّة، وقيل[٣]: هو بالفتح في الرأي، وبالضم في الجسم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ يعني: من جميع الأشياء ومن جملتها القوّة والضعف في بني آدم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بتدبيره ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على خلق ما يريده.

وأجاز الكوفيون[٤]: «من ضَعَف» بفتح الضاد والعين.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامة وسميت ساعة؛ لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؛ أي: يحلفون ما لبثوا في الدنيا أو في قبورهم غير ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدّة لبثهم واستقرّ ذلك في أذهانهم، فحلفوا عليه وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع.

وقال ابن قتيبة[٥]: إنهم كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل، وهذا هو الظاهر؛ لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا، فقد علم كل واحد منهم مقداره، وإن أرادوا لبثهم في القبور فقد حلفوا على جهالة إذْ كانوا لا يعرفون الأوقات في البرزخ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ يقال: أُفك الرجل: إذا صُرف عن الصدق[٦].

فالمعنى: مثل ذلك الصرف كانوا يُصرفون. وقيل: المراد يصرفون عن الحق، وقيل: عن الخير، والأوّل أولى، وهو دليل على أن حلفهم كذب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ اختلف في تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: علماء الأمم، وقيل: مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع مِنْ الحمل على الجميع[٧]. ومعنى ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: في علمه[٨] وقضائه.

قال الزجّاج[٩]: في علم الله المُثبت في اللّوح المحفوظ.

= فيهما، «ضُعفاً» بالضم خاصة، أراد أن يجمع بين اللغتين.
وجاء في «روح المعاني» (٢٠/ ٤٩٤) الضمُّ في الأول والفتح فيما بعد.

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٠).
(٢) في «الصحاح» (٤/ ٣٩٠).
(٣) «تهذيب اللغة» (١/ ٤٨٢).
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٧٨).
(٥) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣٤٣).
(٦) «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٢٧٢).
(٧) انظر: «النكت والعيون» (٤/ ٣٢٣)، و«زاد المسير» (٦/ ٣١٢) و (٧/ ٤٠٢).
(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٥٢).
(٩) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٩٢).

قال الواحدي[١]: والمفسّرون حملوا هذا على التقديم، والتأخير على تقدير: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله، وكان ردّ الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد، أو للمقابلة لليمين باليمين، ثم نبّهوهم على طريقة التبكيت بأن ﴿هَٰذَا﴾ الوقت الذي صاروا فيه هو ﴿يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق؛ بل كنتم تستعجلونه تكذيباً واستهزاء ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ أي: لا ينفعهم الاعتذار يومئذٍ ولا يفيدهم علمُهم بالقيامة[٢].

وقيل: لما ردّ عليهم المؤمنون سألوا الرجوع إلى الدنيا واعتذروا فلم يعذروا.

قرأ الجمهور: «لا تنفع» بالفوقية[٣]، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بالتحتية[٤].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يقال: استعتبته، فأعتبني: أي: استرضيته، فأرضاني، وذلك إذا كنت جانياً عليه وحقيقة أعتبته أزلت عتبه.

والمعنى: أنّهم لا يدعون إلى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا إلى ذلك في الدنيا ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: من كلّ مثل من الأمثال التي تدلهم[٥] على توحيد الله، وصدق رسله، واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ من آيات القرآن الناطقة بذلك، أو لئن جئتهم بآية كالعصا واليد ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؛ أي: ما أنت يا محمد وأصحابك إلّا مبطلون أصحاب أباطيل تتبعون السحر، وما هو مشاكل له في البطلان ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الفاقدين للعلم النافع الذي يهتدون به إلى الحق وينجون به من الباطل.

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ٤٣٩).
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٦٢).
(٣) «التيسير» (ص١٧٦)، و«النشر» (٢/ ٣٤٦)، و«روح المعاني» (٢٠/ ٤٩٨).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة.
(٥) «الوسيط» (٣/ ٤٣٩)، و«زاد المسير» (٦/ ٣١٢)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩).

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر معللاً لذلك بحقية وعد الله وعدم الخلف فيه، فقال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما تسمعه منهم من الأذى وتنظره من الأفعال الكفرية؛ فإن الله قد وعدك بالنصر عليهم، وإعلاء حجتك وإظهار دعوتك، ووعده حقٌّ لا خلف فيه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: لا يحملنك على الخفة ويستفزنّك عن دينك وما أنت عليه الذين لا يوقنون بالله، ولا يصدقون أنبياءه ولا يؤمنون بكتبه، والخطاب للنبي ﷺ، يقال: استخف فلان فلاناً؛ أي: استجهله حتى حمله على اتباعه في الغيّ.

قرأ الجمهور: «يستخفنّك» بالخاء المعجمة[١]، والفاء، وقرأ يعقوب، وابن أبي إسحاق بحاء مهملة[٢] وقاف من الاستحقاق، والنهي في الآية من باب: لا أرينك هاهنا.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أبي الدرداء[٣] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردّ عن عرض أخيه إلّا كان حقّاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة، ثم تلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾»، وهو من طريق شهر بن حوشب عن أمّ الدرداء، عن أبي الدرداء.

وأخرج أبو يعلى، وابن المنذر عنه[٤] في قوله: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ قال: قطعاً بعضها فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ قال: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ قال: من بينه.

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس[٥] قال:

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٤٠٤)، و«زاد المسير» (٦/ ٣١٣)، و«النشر» (٢/ ٢٤٦).

(٢) «المحتسب» (٢/ ١٦٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٠٤)، و«حاشية الشهاب» (٧/ ١٣١). القراءة المتواترة هي (يستخفّنك) بالخاء المعجمة وتشديد النون، وقرأ رويس عن يعقوب بتخفيف النون ساكنة مع الخاء المعجمة وما رواه عن يعقوب بالحاء والقاف فهي رواية شاذة عنه. انظر: «النشر» (٢/ ٢٤٦).

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٩٩).
وأخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١٠/ ٣٦ ـ ٣٧)، وأحمد في «مسنده» رقم (٢٧٥٣٦). وهو حديث حسن لغيره.

(٤) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» رقم (٢٦٦٥).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠١).

نزلت هذه الآية ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ في دعاء النبي ﷺ لأهل بدر، والإسناد ضعيف.

والمشهور في «الصحيحين»[١]، وغيرهما: أن عائشة استدلت بهذه الآية على ردّ رواية مَنْ روى من الصحابة: أن النبي ﷺ نادى أهل قليب بدر، وهو من الاستدلال بالعام على ردّ الخاص، فقد قال النبيّ ﷺ لما قيل له: إنك تنادي أجساداً بالية: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم».

وفي مسلم[٢] من حديث أنس: «أن عمر بن الخطاب لما سمع النبيّ ﷺ يناديهم، فقال: يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث، وهل يسمعون؟ يقول الله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يطيقون أن يجيبوا».

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (١٣٧٠)، وأحمد (٢/ ١٣١).
(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٧٧/ ٢٨٧٤).

سُورَةُ لُقْمَانَ

آياتها أربع وثلاثون آية.

[السورة مكية إلا ثلاث آيات في قول ابن عباس]:

وهي مكية إلّا ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧ ـ ٢٩] إلى تمام الآيات الثلاث.

قاله ابن عباس فيما أخرجه النحاس[١] عنه.

وأخرج ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»[٢] عنه: أنها مكيّة، ولم يستثن.

وحكى القرطبي[٣] عن قتادة: أنها مكية إلّا آيتين.

وأخرج النسائي، وابن ماجه عن البراء[٤] قال: كنا نصلي خلف النبيّ ﷺ الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[القرآن وأثره]:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ

(١) أخرجه النحاس في «ناسخه» (ص٦١٩).
(٢) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص٣٣ ـ ٣٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٤٢ ـ ١٤٤).
(٣) في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٥).
(٤) أخرجه النسائي في «السنن» رقم (٩٧٠)، وابن ماجه رقم (٨٣٠). وهو حديث ضعيف.

أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى
ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ
زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿١١﴾﴾.

قوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قد تقدم الكلام على أمثال فاتحة هذه السورة ومحلها من الإعراب مستوفى فلا نُعيده، وبيان مرجع الإشارة أيضاً، و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ إما أَنْ يكون بمعنى: مُفْعَل، أو بمعنى: فاعل، أو بمعنى: ذي الحكمة، أو الحكيم قائلُه، و﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ منصوبان[1] على الحال على قراءة الجمهور[2].

[المحسن من يعبد الله كأنه يراه]:

قال الزجاج[3]: المعنى: تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة، وقرأ حمزة «ورحمةٌ» بالرفع[4] على أنهما خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو هدى ورحمة، ويجوز أن يكون خبر تلك، والمحسن العامل للحسنات، أو مَنْ يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح[5] لما سأله جبريل عن الإحسان: فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ثم بين عمل المحسنين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، والموصول[6] في محل جر على الوصف للمحسنين، أو في محل رفع، أو نصب على المدح أو القطع، وخص هذه العبادات الثلاث؛ لأنها عمدة العبادات ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قد تقدم تفسير هذا في أوائل سورة البقرة.

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٤٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ٨).
(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨١)، و«التيسير» (ص١٧٦)، و«النشر» (٢/ ٣٤٦).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٩٣).
(٤) «التبيان» (٢/ ١٠٤٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٠٨).
(٥) تقدم نصه وتخريجه.
(٦) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨١)، و«روح المعاني» (٢١/ ٨).

والمعنى هنا: أن أولئك المتصفين بالإحسان، وفعل تلك الطاعات التي هي أمَّهات العبادات هم على طريقة الهدى، وهم الفائزون بمطالبهم، الظافرون بخيري الدارين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: محل ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الرفع[1] على الابتداء كما تقدم بيانه في سورة البقرة، [٣/٣٨١] وخبره ﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾، و«من» إما موصولة أو موصوفة، ولهو الحديث: كلُّ ما يُلهي عَنْ الخير، مِنْ الغناء والملاهي والأحاديث المكذوبة، وكل ما هو مُنكر والإضافة بيانية.

وقيل: المراد شراء القينات المغنيات والمغنين، فيكون التقدير: من يشتري أهل لهو الحديث. قال الحسن[2]: لهو الحديث المعازف والغناء.

وروي عنه أنّه قال: هو الكفر والشرك.

قال القرطبي[3]: إنّ أولى ما قيل في هذا الباب: هو تفسير لهو الحديث بالغناء، قال: وهو قول الصحابة، والتابعين. واللام في ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ للتعليل.

قرأ الجمهور[4] بضم الياء من «ليُضل»؛ أي: ليضل غيرَه عَنْ طريق الهدى ومنهج الحق، وإذا أضلَّ غيره فقد ضلَّ في نفسه.

وقرأ ابنُ كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن، وحُميد، وورش، وابن أبي إسحاق بفتح[5] الياء؛ أي: ليضل هو في نفسه.

قال الزجاج[6]: مَنْ قرأ بضم الياء، فمعناه: ليُضلّ غيرَه، فإذا أضل غيره فقد ضل هو، ومَنْ قرأ بفتح الياء، فمعناه: ليصير أمره إلى الضلال، وهو وإن لم يكن يشتري للضلالة فإنّه يصير أمره إلى ذلك، فأفاد هذا التعليل أنه إنما

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ١٠)، و«إعراب القرآن للنحاس» (٣/ ٢٨١).

(٢) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٥). (٣) في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٩).

(٤) «التيسير» (ص١٣٤)، و«النشر» (٢/ ٢٩٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٠٩ ـ ٤١٠). والصواب «ورويس» بدلًا من ورش، فإنَّ ورش يقرأ بالضم. ورويس يقرأ في وجه عنه بالفتح، والوجه الثاني رويس عن يعقوب بالضم.

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

(٦) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٩٤).

يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا المقصد، ويُؤيد هذا سبب نزول الآية وسيأتي.

[أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه]:

قال الطبري[(١)]: قد أجمع علماء الأمصار على كراهة الغناء والمنع منه، وإنما فارق الجماعة إبراهيم بن سعد، وعبد الله العنبري.

قال القاضي أبو بكر بن العربي[(٢)]: يجوز للرجل أَنْ يسمع غناء جاريته إذ ليس شيء منها عليه حرام لا مِنْ ظاهرها، ولا من باطنها، فكيف يُمنع من التلذذ بصوتها؟

[يرى المصنف أن السماع ليس محرماً بإطلاق]:

قلتُ: قد جمعتُ رسالةً مشتملة[(٣)] على أقوال أهل العلم في الغناء، وما استدل به المحللون له والمحرمون له، وحققتُ هذا المقام بما لا يحتاج مَنْ نظر فيها وتدبّر معانيها إلى النظر في غيرها، وسميتها: «إبطال دعوى الإجماع، على تحريم مُطلق السماع» فمن أحب تحقيق المقام كما ينبغي، فليرجع إليها.

ومحل قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ النصب على الحال[(٤)]؛ أي: حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه أو بحال ما ينفع من التجارة، وما يضر، فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض.

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قرأ الجمهور برفع[(٥)] «يتخذُها» عطفاً على يشتري فهو من جملة الصلة، وقيل: الرفع[(٦)] على الاستئناف، والضمير المنصوب في يتخذها يعود إلى الآيات المتقدم ذكرها، والأول أولى.

وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش «ويتخذَها» بالنصب[(٧)] عطفاً على يُضل،

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٣٦).
(٢) في «أحكام القرآن» (٣/ ١٤٨٢).
(٣) هي «إبطال دعوى الإجماع» طبعت ضمن «الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني» (١٠/ ١٥٩٩).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٠)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٠).
(٥) «النشر» (٢/ ٣٤٦)، و«التيسير» (ص١٧٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤١٠).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة. وممّن قرأ بالنصب حفص عن عاصم.
(٧) «التيسير» (ص١٧٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤١٠)، و«النشر» (٢/ ٣٤٦).

والضمير المنصوب راجع إلى السبيل، فتكون على هذه القراءة من جملة التعليل للتحريم.

والمعنى: أَنَّه يشتري لهو الحديث للإضلال عَنْ سبيل الله، واتخاذ السبيل هزواً؛ أي: مهزوءاً به، والسبيل يُذكّر ويؤنث، والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إلى مَن والجمع باعتبار معناها كما أن الإفراد في الفعلين باعتبار لفظها.

والعذاب المهين: هو الشديد الذي يصير به مَنْ وقع عليه مهيناً ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: وإذا تتلى آياتُ القرآن على هذا المستهزئ ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾؛ أي: أعرض عنها حال كونه مبالغاً في التكبر.

وجملة: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ في محل نصب[1] على الحال؛ أي: كأن ذلك المُعرض المستكبر لم يسمعها مع أنه قد سمعها، ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع.

وجملة ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ حال[2] ثانية أو بدل من التي قبلها، أو حال من ضمير يسمعها، ويجوز أَنْ تكون مستأنفة، والوَقْر الثقل، وقد تقدم بيانه، وفيه مبالغة في إعراض ذلك المعرض ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: أخبره بأن له العذاب البليغ في الألم.

ثم لما بيّن سبحانه حال مَنْ يعرض عن الآيات بيّن حال من يُقْبل عليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: آمنوا بالله وبآياته، ولم يعرضوا عنها بل قبلوها وعملوا بها ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ أي: نعيم الجنات[3]، فعكسه للمبالغة، جعل لهم جنات النعيم كما جعل للفريق الأول العذاب المُهين، وانتصاب ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ على الحال، وقرأ زيد بن علي «خالدون فيها» على أنه خبر ثان؛ لأن ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ هما مصدران[4] الأول مؤكد لنفسه؛ أي: وعد الله وعداً، والثاني مؤكد لغيره، وهو مضمون الجملة الأولى، وتقديره حق ذلك حقّاً.

---

(١) «روح المعاني» (٢١/٤٢)، و«التبيان» (٢/١٠٤٣)، و«البحر المحيط» (٨/٤٠٩).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «روح المعاني» (٢١/٤٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٣٦٧).
(٤) «روح المعاني» (٢١/٤٣)، و«التبيان» (٢/١٠٣٦).

والمعنى: أنّ وعده كائن لا محالة ولا خلف فيه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبه غالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل أفعاله وأقواله.

ثم بيّن سبحانه عزته وحكمته بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ العَمَد: جمع عِماد.

وقد تقدم الكلام فيه في سورة الرعد، و(ترونها) في محل[١] جرّ صفة لعمد، فيمكن أنْ تكون ثَمّ عمد ولكن لا ترى. ويجوز أن تكون في موضع[٢] نصب على الحال؛ أي: ولا عمد البتة.

قال النحاس[٣]: وسمعتُ علي بن سليمان يقول: الأولى أن يكون مستأنفاً؛ أي: ولا عمد ثَمَّ، ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾؛ أي: جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في محل نصب على العلة؛ أي: كراهة أنْ تميد بكم، والكوفيون يقدّرونه لئلا تميد.

والمعنى: أنها خلقها، وجعلها مستقرّة ثابتة لا تتحرّك بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أي: مِنْ كلّ نوع من أنواع الدوابّ، وقد تقدّم بيان معنى البثّ.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: أنزلنا من السماء مطراً، فأنبتنا فيها بسبب إنزاله من كلّ زوج: أي: من كل صنف، ووصفه بكونه كريماً لحسن لونه وكثرة منافعه.

وقيل: إن المراد بذلك الناس؛ فالكريم منهم مَنْ يصير إلى الجنة، واللئيم من يصير إلى النار. قاله الشعبي[٤] وغيره، والأوّل أولى.

والإشارة[٥] بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما ذكر في خلق السمٰوات والأرض، وهو: مبتدأ، وخبره ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مخلوقه ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ من

---

(١) «التبيان» (٢/ ٧٤٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٥٦٤).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٨٢).
(٤) «الجامع الأحكام» (١٦/ ٤٦٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨٣).
(٥) «معالم التنزيل» (٦/ ٢٨٥)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٤٤ ـ ٥٤٥).

آلهتكم التي تعبدونها، والاستفهام للتقريع[١] والتوبيخ.

والمعنى: فأروني أيّ شيء خلقوا مما يحاكي خلق الله أو يقاربه، وهذا الأمر لهم لقصد التعجيز والتبكيت. ثم أضرب[٢] عن تبكيتهم بما ذكر إلى الحكم عليهم بالضلال الظاهر، فقال: ﴿بَلِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى ضَلَـٰلٍ﴾ فقرّر ظلمهم أوّلاً، وضلالهم ثانياً، ووصف ضلالهم بالوضوح والظهور، ومَنْ كان هكذا فلا يعقل الحجة ولا يهتدي إلى الحق.

وقد أخرجَ البيهقي في «الشُّعب» عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾؛ يعني: باطل الحديث: وهو النضر بن الحارث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم وصنيعهم في دهرهم، وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام، ويُكذّب بالقرآن.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن مردويه[٤] عنه في الآية قال: باطل الحديث، وهو: الغناء ونحوه ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: قراءة القرآن، وذكر الله، نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية.

وأخرج البخاري في الأدب المفرد، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «السُّنن» عنه[٥] أيضاً في الآية قال: هو الغناء وأشباهه.

وأخرج ابنُ جرير، وابن المنذر، وابن مردويه[٦] عنه أيضاً في الآية قال: الجواري الضاربات[٧].

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ٤٥ ـ ٤٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٦٨).
(٢) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٦٨).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٥١٩٤) بسند ضعيف جدّاً، محمد بن مروان السدي ضعيف، وأبو صالح باذام ضعيف مدلس.
(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٤).
وأخرجه ابن جرير في «الجامع البيان» (١٨/ ٥٣٦، ٥٣٩، ٥٤٠) بسند ضعيف
(٥) أخرجه البخاري في «الأدب» رقم (٧٨٦، ١٢٦٥)، وابن أبي الدنيا رقم (٢٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٣٥، ٥٣٦)، و«البيهقي» (١٠/ ٢٢٣) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٨/ ١٤٦).
(٧) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٥) إلى ابن عساكر.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصحّحه، والبيهقي في «الشُّعب» عن أبي الصهباء[١] قال: سألت عبد الله بن مسعود عن قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: هو والله الغناء.

ولفظ ابن جرير: هو الغناء واللهِ الذي لا إله إلّا هو، يردّدها ثلاث مرات.

وأخرج سعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي عن أبي أمامة[٢]، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القَينات، ولا تشتروهنّ، ولا خير في تجارة فيهنّ، وثمنهنّ حرام» في مثل هذا أُنزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الآية، وفي إسناده عُبيد الله بن زحر عَنْ عليّ بن يزيد، عن القاسم بن عبد الرحمٰن وفيهم ضعف.

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي، وابن مردويه عن عائشة[٣] قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرّم القَينة وبيعها وثمنها وتعليمها، والاستماع إليها، ثم قرأ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾».

وأخرج ابن أبي الدنيا، والبيهقي في السُّنن عن ابن مسعود[٤] قال: قال رسول الله ﷺ: «الغناء يُنبتُ النفاق كما ينبت الماء البَقْل» وروياه عنه موقوفاً.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/٣٠٩)، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» رقم (٢٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٣٥)، والحاكم (٢/ ٤١١)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥٠٩٦) بسند حسن.

(٢) أخرجه أحمد رقم (٢٢١٦٩، ٢٢٢٨٠)، والترمذي رقم (١٢٨٢، ٣١٩٥)، وابن ماجه رقم (٢١٦٨)، وابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» رقم (٢٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٣٢)، والطبراني رقم (٧٨٠٥، ٧٨٦١، ٧٨٦٢)، والبيهقي (٦/ ١٥٢١٤) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» رقم (٢٥) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» رقم (٣٠، ٣١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣)، وفي «الشعب» رقم (٤٧٤٦) بسند ضعيف. فيه محمد بن صالح. قال ابن حبان: «يخطئ» وعبد الله بن عبد العزيز ضعيف، وإبراهيم بن طهمان تكلم فيه.

وأخرج ابن أبي الدنيا، وابن مردويه عن أبي أمامة[١]: أن رسول الله ﷺ قال: «ما رفع أحد صوته بغناء إلّا بعث الله إليه شيطانين يَجْلسان على مَنْكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يُمسك».

وفي الباب أحاديث في كل حديث منها مقال.

وأخرج البيهقي في «الشعب» عن ابن مسعود[٢] في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً.

وأخرج ابن مردويه[٣]، عن عبد الله بن عمر: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: إنما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل».

[النهي عن سماع المعازف]:

وأخرج ابنُ أبي الدنيا، والبيهقي عن نافع[٤] قال: كنت أسير مع عبد الله بن عمر في طريق فسمع زَمَّارة، فوضع أصبعيه في أذنيه، ثم عدل عن الطريق، فلم يزل يقول: يا نافع أتسمع؟ قلت: لا، فأخرج أصبعيه من أذنيه، وقال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ صنع.

وأخرج ابن أبي الدنيا[٥] عن عبد الرحمٰن بن عوف: أَنّ رسول الله ﷺ قال: «إنما نَهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين: صوتٍ عند نَغْمة لهو ومزامير شيطان وصوت عند مصيبة خَمْش وجوهٍ، وشَق جيوب ورنَّة شيطان».

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» رقم (٤٣)، والطبراني رقم (٧٨٢٥). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٢٢، ١٢٣): «رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها وثقوا وضعفوا».

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٥١٠٤).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» رقم (٦٨)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٢٢) وفي «الشعب» رقم (٥١٢٠)، وأحمد رقم (٤٥٣٥، ٤٩٦٥)، وأبو داود رقم (٤٩٢٤). وهو حديث حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «ذم الملاهي» رقم (٦٤) بسند ضعيف.

[قصة لقمان ووصيته لابنه]:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ
لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ
ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَـٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

اختُلف في لقمان هل هو عجمي أم عربي؟ مشتق من اللقم، فمن قال: إنه عجمي منعه للتعريف والعجمة، ومن قال: إنّه عربي منعه للتعريف، ولزيادة الألف، والنون[(١)].

واختلفوا أيضاً هل هو نبيّ أم رجل صالح؟ فذهب أكثر أهل العلم[(٢)] إلى أنه ليس بنبيّ.

وحكى الواحدي[(٣)] عَنْ عكرمة، والسدي، والشعبي: أنّه كان نبيّاً، والأوّل أرجح لما سيأتي في آخر البحث.

وقيل: لم يقل بنبوّته إلّا عكرمة[(٤)] فقط، مع أن الراوي لذلك عنه جابر الجعفي، وهو ضعيف جدّاً.

---

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨٣)، و«التبيان» (١٠٤٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٦٩)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٤٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٧).

(٣) في «الوسيط» (٣/ ٤٤٢).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٤٩) بسند ضعيف.

وهو: لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ، وهو: آزر أبو إبراهيم، وقيل: هو لقمان بن عنقا بن سرون. وكان نوبيّاً مِنْ أهل أَيلة ذكره السهيلي(١).

قال وهب(٢): هو: ابن أخت أيوب. وقال مقاتل(٢): هو: ابن خالته، عاش ألف سنة، وأخذ عنه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود قطع الفتوى، فقيل له، فقال: ألا أكتفي إذ كفيت؟

قال الواقدي(٣): كان قاضياً في بني إسرائيل، [٣/٣٨٢] والحكمة التي آتاه الله هي(٤): الفقه والعقل والإصابة في القول، وفسر الحكمة من قال بنبوّته بالنبوّة ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أن: هي المفسرة؛ لأن في إيتاء الحكمة معنى: القول، وقيل: التقدير: قلنا له: أن اشكر لي.

وقال الزجاج(٥): المعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة؛ لأن يشكر الله تعالى. وقيل(٦): بأن أشكر لي فشكر فكان حكيماً بشكره، والشكر لله الثناء عليه في مقابلة النعمة وطاعته فيما أمر به.

ثم بيَّن سبحانه: أن الشكر لا ينتفع به إلَّا الشاكر، فقال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأن نفع ذلك راجع إليه، وفائدته حاصلة له، إذ به تستبقى النعمة، وبسببه يستجلب المزيد لها من الله سبحانه.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾؛ أي: من جعل كفر النعم مكان شكرها، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن شكره غير محتاج إليه، ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد من خلقه لإنعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها، ولا يحصر عددها، وإن لم يحمده أحد من خلقه، فإن كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال.

قال يحيى بن سلام(٧): غنيّ عن خلقه حميد في فعله ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾.

---

(١) في «التعريف والإعلام» (ص١٣٤).
(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٨٦).
(٣) انظر: «عرائس المجالس» (ص٣٥٠).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٤٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٠٥)، وأحمد في «الزهد» (ص٤٨) بسند صحيح.
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٩٥).
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٧١).
(٧) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٣٣).

قال السهيلي[١]: اسم ابنه ثاران في قول ابن جرير[٢]، والقتيبي[٣]. وقال الكلبي[٤]: مشكم. وقال النقاش[٥]: أنعم. وقيل: ماتان.

قال القشيري[٦]: كان ابنه، وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما، وهذه الجملة معطوفة على ما تقدّم، والتقدير: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً في نفسه، وحين جعلناه واعظاً لغيره.

قال الزجاج[٧]: «إذ» في موضع نصب بآتينا. والمعنى: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال.

قال النحاس[٨]: وأحسبه غلطاً؛ لأن في الكلام واواً، وهي تمنع من ذلك، ومعنى ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾: يخاطبه بالمواعظ التي ترغبه في التوحيد وتصدّه عن الشرك.

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قرأ الجمهور بكسر[٩] الياء.

وقرأ ابن كثير بإسكانها[١٠]. وقرأ حفص بفتحها[١١]، ونهيه عن الشرك يدلّ على أنه كان كافراً كما تقدّم، وجملة: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل لما قبلها، وبدأ في وعظه بنهيه عن الشرك؛ لأنه أهمّ من غيره.

وقد اختلف في هذه الجملة، فقيل: هي من كلام لقمان، وقيل: هي من كلام الله، فتكون منقطعة عمّا قبلها، ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح[١٢]: أنها لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على الصحابة،

---

(١) في «التعريف والإعلام» (ص١٣٤).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٧١).
(٣) في «المعارف» لابن قتيبة (ص٥٥).
(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٣٣).
(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٣٣).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٧١).
(٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٩٦).
(٨) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٤٨).
(٩) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٣)، و«النشر» (٢/ ٢٨٩)، و«التيسير» (ص١٧٦)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٥٢٩).
(١٠) انظر: المصادر المتقدمة.
(١١) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ٥٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨٤).
(١٢) أخرجه البخاري رقم (٤٧٧٦)، ومسلم رقم (١٢٤/ ١٩٧)، والترمذي رقم (٣٠٦٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في «التفسير» رقم (١٨٦) كلهم عن ابن مسعود.

وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه. فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فطابت أنفسهم.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ هذه التوصية بالوالدين، وما بعدها إلى قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ اعتراض بين كلام لقمان لقصد التأكيد لما فيها من النهي عن الشرك بالله، وتفسير التوصية هي قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، وما بينهما اعتراض بين المفسَّر، والمفسِّر.

وفي جعل الشكر لهما مقترناً بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد، وأكبرها وأشدّها وجوباً.

ومعنى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾: أنها حملته في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضَعْفاً على ضعف، وقيل: المعنى: إن المرأة ضعيفة الخِلْقة، ثم يضعفها الحمل، وانتصاب(١)، وهناً على المصدر.

وقال النحاس(٢) على أنّه مفعول ثان بإسقاط الحرف: أي: حملته بضعف على ضعف.

وقال الزجاج(٣): المعنى: لزمها بحملها إياه أَنْ تضعف مرّة بعد مرة، وقيل: انتصابه على الحال مِنْ أمه، و﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ صفة لوهناً؛ أي: وهناً كائناً على وهن، قرأ الجمهور بسكون(٤) الهاء في الموضعين. وقرأ عيسى الثقفي، وهي رواية عن أبي عمرو بفتحهما(٥)، وهما لغتان.

قال قعنب(٦):

هَلْ لِلعَوَاذِلِ من ناهٍ فيزجُرَها إنَّ العَوَاذِلَ فيهَا الأَيْنُ والوَهَنُ

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٤٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ٥٣).
(٢) في «معاني القرآن» (٣/ ٢٨٤).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٩٦).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ٥٣)، و«زاد المسير» (٦/ ٣١٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٧٤).
(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١٦ ـ ١١٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤١٤). وهي رواية شاذة عن أبي عمرو.
(٦) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٣٤).

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ الفصال: الفطام وهو أن يفصل الولد عن الأم، وهو مبتدأ[١] وخبره الظرف.

وقرأ الجحدري[٢] وقتادة وأبو رجاء والحسن ويعقوب «وفَصْله»، وهما لغتان، يقال: انفصل عن كذا: أي: تميز وبه سُمّي الفصيل.

وقد قدّمنا أن «أن» في قوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ هي: المفسرة. وقال الزجاج[٣]: هي: مصدرية. والمعنى: بأن اشكر لي.

قال النحاس[٤]: وأجود منه أن تكون «أن» مفسِّرة.

وجملة: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تعليل لوجوب امتثال الأمر: أي: الرجوع إليّ لا إلى غيري ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ أي: ما لا علم لك بشركته ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾ في ذلك.

وقد قدّمنا تفسير الآية، وسبب نزولها في سورة العنكبوت.

وانتصاب ﴿مَعۡرُوفٗاۖ﴾ على أنّه صفة لمصدر[٥] محذوف؛ أي: وصاحبهما صحاباً معروفاً، وقيل: هو منصوب[٦] بنزع الخافض، والتقدير بمعروف ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾؛ أي: اتبع سبيل مَنْ رجع إليّ من عبادي الصالحين بالتوبة والإخلاص ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ جميعاً لا إلى غيري ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: أخبركم عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ مِنْ خير، وشرّ، فأجازي كلّ عامل بعمله.

وقد قيل: إن هذا السياق من قوله: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إلى هنا من كلام لقمان فلا يكون اعتراضاً، وفيه بُعدٌ.

ثم شرع سبحانه في حكاية بقية كلام لقمان في وعظه لابنه، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ

(١) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨٥).
(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤١٤).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٩٦).
(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨٥).
(٥) «التبيان» (٢/ ١٠٤٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٨٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨٥).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ الضمير في إنها عائد إلى الخطيئة لما روي: أن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملتُ الخطيئة حيثُ لا يراني أحد هل يعلمها الله؟ فقال: إنّها أي: الخطيئة، والجملة الشرطية مفسرة للضمير؛ أي: إن الخطيئة إن تك مثقال حبة من خردل.

قال الزجاج[1]: التقدير: إنّ التي سألتني عنها إن تك مثقال حبةٍ من خردل، وعبّر بالخردلة؛ لأنها أصغر الحبوب، ولا يدرك بالحسّ ثقلها، ولا ترجح ميزاناً.

وقيل: إن الضمير في ﴿إِنَّهَآ﴾ راجع إلى الخصلة من الإساءة والإحسان؛ أي: إنّ الخصلة من الإساءة والإحسان إن تك مثقال حبة إلخ، ثم زاد في بيان خفاء الحبة مع خفتها فقال: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ فإن كونها في الصخرة قد صارت في أخفى مكان وأحرزه ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: أو حيث كانت من بقاع السماوات أو من بقاع الأرض ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: يحضرها ويحاسب فاعلها عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ لا تخفى عليه خافية؛ بل يصل علمه إلى كل خفيّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بكل شيء لا يغيب عنه شيء.

قرأ الجمهور «إنْ تَكُ» بالفوقية[2] على معنى: إن تك الخطيئة أو المسألة أو الخصلة أو القصة.

وقرأوا «مثقالَ» بالنصب[3] على أنه خبر كان، واسمها هو أحد تلك المقدرات.

وقرأ نافع[4] برفع «مثقالُ» على أنه اسم كان وهي تامّة. وأنَّث الفعل في هذه القراءة لإضافة مثقال إلى المؤنث.

وقرأ الجمهور «فتكن» بضم الكاف[5].

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٩٧ ـ ١٩٨).
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٤)، و«النشر» (٢/ ٣٢٤)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٢٠).
(٣) «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٨٨)، و«النشر» (٢/ ٣٢٤)، و«التيسير» (ص١٥٥).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة. ومعه بالرفع أيضًا أبو جعفر. «النشر» (٢/ ٣٢٤).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٤)، و«النشر» (٢/ ٣٢٤)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٢٠).

وقرأ الجحدري بكسرها[(١)]، وتشديد النون. من الكنّ الذي هو الشيء المُغطّى.

قال السدّي[(٢)]: هذه الصخرة هي صخرة ليست في السماوات، ولا في الأرض.

ثم حكى سبحانه عن لقمان: أنه أمر ابنه بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصيبة، ووجه تخصيص هذه الطاعات أنها أمهات[(٣)] العبادات، وعماد الخير كله، والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إلى الطاعات المذكورة، وخبر «إنّ» قوله: ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: ممَّا جعله الله عزيمة وأوجبه على عباده. وقيل: المعنى: مِنْ حق الأمور التي أمر الله بها.

والعزم يجوز أَنْ يكون بمعنى: المعزوم؛ أي: من معزومات الأمور، أو بمعنى: العازم كقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١] قال المبرد[(٤)]: إن العين تبدل حاء. فيقال: عزم، وحزم.

قال ابن جريج[(٥)]: ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم أهل الأخلاق، وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، وصوّب هذا القرطبي[(٦)] ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قرأ الجمهور[(٧)] «تُصَعِّر»، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم «تُصاعِر»[(٨)] والمعنى متقارب.

والصعر[(٩)]: الميل، يقال: صعر خدّه، وصاعر خدّه: إذا أمال وجهه،

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١١٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤١٤).

(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ٣٢١) عن السدي، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨)، عن ابن عباس.

(٣) «المحرر الوجيز» (١٣/ ١٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٧٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٦٢).

(٤) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢١/ ٦٣).

(٥) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ١٨).

(٦) في «تفسيره» (١٦/ ٤٨٠) وهو من كلام ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ١٨).

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٦)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٥٩)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٢٢)، و«التيسير» (ص١٧٦)، و«النشر» (٢/ ٣٤٦). صواب العزو: وقرأ نافع وأبو عمرو والكوفيون سوى عاصم (تُصاعِر) وقرأ باقي العشرة ومنهم عاصم (تُصعِّر) «النشر» (٢/ ٣٤٦).

(٨) انظر: المصادر المتقدمة.

(٩) «تهذيب اللغة» (٢/ ٢٦)، و«تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٣٤٤).

وأعرض تكبّراً. والمعنى: لا تعرض عن الناس تكبّراً عليهم. ومنه قول الشاعر[(١)]:

وَكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشينا إليهِ بالسيوفِ نُعاتبه

ورواه ابن جرير[(٢)] هكذا:

وكُنَّا إذا الجبَّارُ صَعَّر خَدّه أقمنا له من مَيْله فَتَقوّما

قال الهروي[(٣)] ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لا تُعرض عنهم تكبراً، يقال: أصاب البعير صَعْر: إذا أصابه داء يلوي عنقه؛ وقيل: المعنى: ولا تلو شدقك إذا ذُكر الرجل عندك كأنك تحتقره.

وقال ابن خواز منداد[(٤)]: كأنّه نهى أن يذلّ الإنسان نفسه من غير حاجة، ولعله فهم من التصعير التذلل. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾؛ أي: خيلاء، وفرحاً، والمعنى: النهي عَنْ التكبر، والتجبر. والمختار يمرح في مشيه، وهو مصدر[(٥)] في موضع الحال. وقد تقدّم تحقيقه.

وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تعليل للنهي؛ لأنّ الاختيال هو المرح، والفخور هو الذي يفتخر على الناس بما له من المال، أو الشرف، أو القوّة، أو غير ذلك، وليس منه التحدّث بنعم الله، فإنّ الله يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾؛ أي: توسط فيه، والقصد ما بين الإسراع، والبطء. يقال: قصد فلان في مشيته: إذا مشى مستوياً لا يدبّ دبيب المتماوتين، ولا يثب وثوب الشياطين.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ[(٦)] كان إذا مشى أسرع، فلا بدّ أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحدّ في السرعة.

---

(١) وهو: عمرو بن حُنيّ التَّغلبي.
انظر: «الشعر والشعراء» (ص١٣)، و«مجاز القرآن» (٢/ ١٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٨).
(٢) في «جامع البيان» (١٨/ ٥٥٩).
وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ١٨): وهو خطأ؛ لأنَّ قافية الشعر مخفوضة.
(٣) في «الغريبين» (٤/ ١٠٧٨).
(٤) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢١/ ٦٣).
(٥) «روح المعاني» (٢١/ ٦٤)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٨٣).
(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٥٠)، والترمذي رقم (٣٦٤٨) وقال: «هذا حديث غريب» =

وقال مقاتل[(١)]: معناه: لا تختل في مشيتك.

وقال عطاء[(٢)]: امش بالوقار، والسكينة، كقوله: ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]. ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾؛ أي: انقص منه، واخفضه، ولا تتكلف رفعه فإنّ الجهر بأكثر مِنْ الحاجة يؤذي السامع.

وجملة: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ تعليل للأمر بالغضّ من الصوت: أي: أوحشها وأقبحها.

قال قتادة[(٣)]: أقبح الأصوات صوت الحمير أوّله زفير، وآخره شهيق.

قال المبرد[(٤)]: تأويله إن الجهر بالصوت ليس بمحمود، وإنه داخل في باب الصوت المنكر. واللام في ﴿لَصَوۡتُ﴾ للتأكيد، ووحد الصوت مع كونه مضافاً إلى الجمع؛ لأنه مصدر، وهو يدلّ على الكثرة، وهو مصدر صات يصوت صوتاً، فهو صائت.

وقد أخرج ابن مردويه[(٥)] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما كان لقمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: كان حبشيّاً».

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا في كتاب المملوكين، [٣/٣٨٣] وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٦)] قال: كان لقمان عبداً حبشيّاً نجّاراً.

وأخرج الطبراني، وابن حبان في الضعفاء، وابن عساكر عنه[(٧)]: قال

= كلاهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (١/ ٩٦)، والترمذي رقم (٣٦٣٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» كلاهما عن علي رضي الله عنه.

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٤٤).
(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٤٤).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٦٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٠٦) بسند صحيح.
(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٤٤).
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٩).
(٦) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٠٩).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٤٧) بسند ضعيف.
(٧) أخرجه الطبراني رقم (١١٤٨٢)، وابن حبان (١/ ١٧٩، ١٨٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/ ٤٦٢). وهو حديث ضعيف. =

رسول الله ﷺ: «اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن». قال الطبراني: أراد الحبشة.

وأخرج ابن مردويه[(١)] عنه أيضاً في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ يعني: العقل، والفهم، والفطنة في غير نبوّة.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن عكرمة[(٢)]: أنه كان نبيّاً.

وقد قدّمنا أن الراوي عنه جابر[(٣)] الجعفي، وهو ضعيف جدّاً.

وأخرج أحمد، والحكيم الترمذي، والحاكم في الكنى، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمر[(٤)]، عن النبيّ ﷺ قال: «إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه».

وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وَحِكَمِه، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء، ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله.

وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع، وفيه كفاية وما عدا ذلك مما لم يصح فليس في ذكره إلا شغلة للحيز، وقطيعة للوقت، ولم يكن نبيّاً حتى يكون ما نقل عنه من شرع مَنْ قبلنا، ولا صحّ إسناد ما روي عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلمات الحكمة التي هي ضالة المؤمن.

وأخرج أبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي: أن سعد بن أبي وقاص[(٥)] قال: أنزلت فيّ هذه الآية ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾، وقد تقدّم ذكر هذا.

= انظر: «السلسلة الضعيفة» رقم (٦٨٧).

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥١٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٤٩) بسند ضعيف وقد تقدم.

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ٥١): وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم (٥٦٠٥، ٥٦٠٦)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٣٤٤) بسند صحيح.

(٥) أخرجه أحمد رقم (٧٨٢)، والطبراني كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٥٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٠/ ٣٣١) بسند ضعيف.

وأخرج ابن جرير[١] عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص.

وأخرج ابن جرير[٢] عن ابن عباس في قوله: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ قال: شدّة بعد شدّة، وخلقاً بعد خلق.

وأخرج الطبراني، وابن عديّ، وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري[٣]: أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، فقال: ليّ الشدق.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قال: لا تتكبّر، فتحتقر عباد الله، وتعرض عنهم إذا كلموك.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه[٥] في الآية قال: هو الذي إذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٥٣) من طريق شعبة عن ابن إسحاق عن هبيرة.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٥٠) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه الطبراني رقم (٤٠٧٢)، وابن عدي (٧/ ٢٥٤٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١١٤): «فيه واصل بن السائب وهو متروك».

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٥٩)، وابن أبي حاتم كما في «الإتقان» (٢/ ٣٦) بسند صحيح.

(٥) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٤)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣٠٩٩).

﴿وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

لما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع إلى توبيخ[(١)] المشركين، وتبكيتهم، وإقامة الحجج عليهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قال الزجاج[(٢)]: معنى تسخيرها للآدميين: الانتفاع بها، انتهى. فمن مخلوقات السمٰوات المسخرة لبني آدم: أي: التي ينتفعون بها الشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك.

ومن جملة ذلك: الملائكة فإنّهم حفظة[(٣)] لبني آدم بأمر الله سبحانه، ومن مخلوقات الأرض المسخرة لبني آدم: الأحجار، والتراب، والزرع، والشجر، والثمر، والحيوانات التي ينتفعون بها، والعشب الذي يرعون فيه دوابهم، وغير ذلك مما لا يحصى كثرةً.

فالمراد بالتسخير[(٤)]: جعل المسخر بحيث ينتفع به المسخر له سواء كان منقاداً له، وداخلاً تحت تصرّفه أم لا ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾؛ أي: أتمّ، وأكمل عليكم نعمه، يقال: سبغت النعمة إذا تمت وكملت.

قرأ الجمهور: «أسبغ» بالسين[(٥)]، وقرأ ابنُ عباس، ويحيى بن عمارة: «أصبغ» بالصاد[(٦)] مكان السين. والنِّعم جمع نعمة على قراءة نافع[(٧)]، وأبي عمرو، وحفص،

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ٧٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٧٣).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ١٩٩). (٣) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٨٦).
(٤) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٤٠٢).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٨)، و«التيسير» (ص١٧٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ٧٣).
(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٦٨) وهي: «لغة بني كلب يبدلون من السين إذا اجتمعت مع أحد الحروف المستعلية الغين والخاء والقاف صاداً...». حاشية الشهاب. ولكنها قراءة شاذة.
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٨)، و«التيسير» (ص١٧٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨٦)، و«النشر» (٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

وقرأ الباقون: «نِعْمة» بسكون العين على الإفراد(١)، والتنوين اسم جنس يراد به الجمع، ويدلّ به على الكثرة، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وهي قراءة ابن عباس. والمراد بالنعم الظاهرة: ما يدرك بالعقل، أو الحسّ، ويعرفه من يتعرفه، وبالباطنة: ما لا يدرك للناس، ويخفى عليهم.

وقيل(٢): الظاهرة: الصحة، وكمال الخَلْق، والباطنة: المعرفة، والعقل. وقيل(٣): الظاهرة: ما يرى بالأبصار مِنْ المال، والجاه، والجمال، وفعل الطاعات، والباطنة: ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله، وحسن اليقين، وما يدفعه الله عن العبد من الآفات.

وقيل(٤): الظاهرة: نعم الدنيا، والباطنة: نعم الآخرة. وقيل(٥): الظاهرة: الإسلام، والجمال، والباطنة: ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾؛ أي: في شأن الله سبحانه في توحيده، وصفاته مكابرةً، وعناداً بعد ظهور الحق له، وقيام الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مَنْ عقل ولا نقل ﴿وَلَا هُدًى﴾ يهتدي به إلى طريق الصواب ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزله الله سبحانه؛ بل مجرّد تعنت، ومحض عناد، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إذا قيل لهؤلاء المجادلين، والجمع باعتبار معنى: مَنْ، اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت، و﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فنعبد ما كانوا يعبدونه من الأصنام، ونمشي في الطريق التي كانوا يمشون بها في دينهم.

ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد(٦) والتبكيت ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: يدعو آباءهم الذين اقتدوا بهم في دينهم؛ أي:

---

(١) انظر: المصادر المتقدمة.
(٢) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٧٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨٦).
(٣) «النكت والعيون» (٤/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٨٦) عن المحاسبي.
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٤٥٠٣) عن مقاتل.
(٦) «روح المعاني» (٢١/ ٧٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٧٣).

يتبعونهم في الشرك، ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك، ويجوز أن يراد أنّه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير؛ لأنه زين لهم اتباع آبائهم والتدين بدينهم، ويجوز أن يراد أنّه يدعو جميع التابعين، والمتبوعين إلى العذاب. فدعاؤه للمتبوعين بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم، وجواب لو محذوف؛ أي: يدعوهم، فيتبعونهم، ومحل الجملة النصب[(١)] على الحال.

وما أقبح التقليد، وأكثر ضرره على صاحبه، وأوخم عاقبته، وأشأم عائدته على مَنْ وقع فيه. فإن الداعي له إلى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلّا تحترق، فتأبى ذلك، وتتهافت في نار الحريق، وعذاب السعير.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: يفوّض إليه أمره، ويُخْلِص له عبادته، ويُقبل عليه بكلِّيته ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله؛ لأن العبادة من غير إحسان لها، ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها لا تقع بالموقع الذي تقع به عبادة المحسنين.

وقد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الإحسان أنه قال له: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٢)].

﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾؛ أي: اعتصم بالعهد الأوثق، وتعلق به، وهو تمثيل لحال مَنْ أسلم وجهه إلى الله بحال مَنْ أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسَّك بأوثق عرى حبل متدلّ منه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: مصيرها إليه لا إلى غيره.

وقرأ عليّ بن أبي طالب، والسلمي، وعبد الله بن مسلم بن يسار «ومن يسلّم» بالتشديد[(٣)] قال النحاس[(٤)]: والتخفيف في هذا أعرف كما قال ﷻ: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ٧٥).

(٢) تقدم مراراً. وهو حديث صحيح.

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٤١٨)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٢٥)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٧). وهي قراءة شاذة

(٤) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٨٧).

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾؛ أي: لا تحزن لذلك، فإن كفره لا يضرك، بيّن سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين، ثم توعدهم بقوله: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾؛ أي: نخبرهم بقبائح أعمالهم، ونجازيهم عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بما تسرّه صدورُهم، لا تخفى عليه من ذلك خافية، فالسرّ عنده كالعلانية.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾؛ أي: نبقيهم في الدنيا مدةً قليلة يتمتعون بها.

فإن النعيم الزائل هو أقلُ قليلٍ بالنسبة إلى النعيم الدائم. وانتصاب قليلاً على أنه صفة لمصدر محذوف؛ أي: تمتيعاً قليلاً ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: نلجئهم إلى عذاب النار. فإنه لا أثقل[1] منه على مَنْ وقع فيه، وأصيب به، فلهذا استعير له الغلظ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يعترفون بالله خالق ذلك لوضوح الأمر فيه عندهم. وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد، وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: قل يا محمد: الحمد لله على اعترافكم، فكيف تعبدون غيره، وتجعلونه شريكاً له؟ أو المعنى: فقل: الحمد لله على ما هدانا له من دينه، ولا حمد لغيره، ثم أضرب عن ذلك، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا ينظرون، ولا يتدبرون حتى يعلموا أن خالق هذه الأشياء هو الذي تجب له العبادة دون غيره ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكاً وخلقاً فلا يستحق العبادة غيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن غيره ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المستحق للحمد، أو المحمود من عباده بلسان المقال، أو بلسان الحال.

ثم لما ذكر سبحانه أن له ما في السماوات والأرض أتبعه بما يدلّ على أن له وراء ذلك ما لا يحيط به عدد، ولا يحصر بحدّ، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾؛ أي: لو أن جميع ما في الأرض من الشجرة أقلام، ووحّد[2] الشجرة لما تقرّر في علم المعاني أن استغراق المفرد أشمل، فكأنّه قال: كل شجرة شجرة

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ٧٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٧٤).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٧٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ٨٠).

حتى لا يبقى مِنْ جنس الشجر واحدة إلا وقد بُريت أقلاماً، وجمع الأقلام لقصد[١] التكثير؛ أي: لو أن يعدّ كل شجرة من الشجر أقلاماً.

قال أبو حيان[٢]: وهو مِنْ وقوع المفرد موقع الجمع، والنكرة موقع المعرفة كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦].

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾؛ أي: يمدّه من بعد نفاده سبعة أبحر. قرأ الجمهور «والبحرُ» بالرفع[٣] على أنه مبتدأ، ويمدّه خبره. والجملة في محل الحال؛ أي: والحال أن البحر المحيط مع سعته يمدّه السبعة الأبحر مدّاً لا ينقطع، كذا قال سيبويه[٤].

وقال المبرد[٥]: إن البحر مرتفع بفعل مقدّر تقديره ولو ثبت البحر حال كونه تمدّه من بعده سبعة أبحر، وقيل: هو مرتفع بالعطف على «أن»، و«ما» في حيزها.

وقرأ أبو عمرو، وابن أبي إسحاق، [٣/٣٨٤] و«البحرَ» بالنصب[٦] عطفاً على اسم أن، أو بفعل مضمر يفسّره يمدّه.

وقرأ ابن هرمز[٧]، والحسن «يُمِدّه» بضم حرف المضارعة، وكسر الميم، من أمدّ.

وقرأ جعفر بن محمد، والبحر «مداده»[٨]، وجواب لو ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: كلماته التي هي عبارة عن معلوماته.

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ٨٠ ـ ٨١). (٢) في «البحر المحيط» (٨/ ٤٢٠).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٤٢١)، و«التيسير» (ص١٧٧)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٨٤).

(٤) في «الكتاب» (٢/ ١٤٤).

(٥) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٤٢٠).

(٦) «البحر المحيط» (٤١٩ ـ ٤٢٠)، و«التيسير» (ص١٧٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٨٩)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤٥).

(٧) «المحتسب» (٢/ ١٦٩)، و«البحر المحيط» (٢/ ٤٢٠)، و«روح المعاني» (٢١/ ٨٥). وهي قراءة شاذة.

(٨) «المحتسب» (٢/ ١٦٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٨٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٢٠). وهي قراءة شاذة مخالفة للرسم.

قال أبو عليّ الفارسي(١): [المراد بالكلمات، والله أعلم: ما في المقدور](٢) دون ما خرج منه إلى الوجود، ووافقه القفّال، فقال: المعنى: أن الأشجار لو كانت أقلاماً، والبحار مداداً، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته، ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب.

قال القشيري(٣): ردّ القفال معنى الكلمات إلى المقدورات. وحمل الآية على الكلام القديم أولى.

قال النحاس(٤): قد تبين أنّ الكلمات هاهنا يراد بها العلم، وحقائق الأشياء؛ لأنّه ﷻ علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السماوات والأرض من شيء، وعلم ما فيه من مثاقيل الذرّ، وعلم الأجناس كلها، وما فيها من شعرة، وعضو، وما في الشجرة من ورقة، وما فيها من ضروب الخلق.

وقيل: إن قريشاً قالت: ما أكثر كلام محمد، فنزلت؛ قاله السديّ(٥).

وقيل: إنها لما نزلت: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] في اليهود، قالوا: كيف، وقد أوتينا التوراة فيها كلام الله، وأحكامه؟ فنزلت.

قال أبو عُبيدة(٦): المراد بالبحر هنا: الماء العذب الذي ينبت الأقلام وأما الماء المالح، فلا ينبت الأقلام.

قلتُ: ما أسقط هذا الكلام، وأقلّ جدواه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: غالب لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن حكمته، وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: إلا كخلق نفس واحدة، وبعثها.

قال النحاس(٧): كذا قدّره النحويون كخلق نفس مثل قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

---

(١) في «الحجة» (٥/ ٤٥٨).

(٢) كذا في المخطوط: والذي في «الحجة»: المراد بذلك، والله أعلم: ما في المُقدَّر.

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٨٩). (٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٢٩٢).

(٥) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٢٣).

(٦) في «مجاز القرآن» (٢/ ١٢٨). (٧) «إعراب القرآن» (٥/ ٢٩٢).

قال الزجاج[١]: أي: قدرة الله على بعث الخلق كلهم، وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ لكل ما يسمع ﴿بَصِيرٌ﴾ بكل ما يبصر.

وقد أخرج البيهقي في «الشعب»[٢] عن عطاء قال: سألتُ ابن عباس عن قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، قال: هذه من كنوز علمي سألتُ عنها رسول الله ﷺ، فقال: «أما الظاهرة: فما سوّى من خَلقِك، وأما الباطنة: فما ستر من عورتك، ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم».

وأخرج ابن مردويه، والبيهقي في «الشعب»، والديلمي، وابن النجار عنه[٣] قال: «سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فقال: أما الظاهرة: فالإسلام وما سوّى من خَلقِك وما أسبغ عليك من رزقه، وأما الباطنة: فما ستر من مساوي عملك».

وأخرج ابن مردويه[٤] عنه أيضاً قال: النعمة الظاهرة الإسلام، والنعمة الباطنة كل ما يستر عليكم من الذنوب، والعيوب، والحدود.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[٥] عنه أيضاً: أنه قال في تفسير الآية. هي: لا إله إلا الله.

وأخرج ابنُ إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم[٦] عنه أيضاً في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية «أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: يا محمد أرأيت قولك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] إيَّانا تريد أم قومك؟ فقال: كُلّاً، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنّا قد أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال: إنها في علم الله قليل، وأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية».

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٠٠).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٤٥٠٤).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٤٥٠٤)، والديلمي رقم (٧١٦٧).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٦).
(٥) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٦).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٦٨) من طريق سفيان، به.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٧٢، ٥٧٣)، وابن إسحاق كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٧٨) بسند ضعيف.

وأخرجه ابن مردويه[(١)] عنه بأطول منه.

وأخرج ابن مردويه[(١)] أيضاً عن ابن مسعود نحوه.

[الحقيقة الكبرى التي تعتمد عليها الحقائق جميعاً بأن الله هو الحق وما دونه الباطل]:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

الخطاب بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لكلّ أحد يصلح لذلك، أو للرسول ﷺ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: يدخل كل واحد منهما في الآخر.

وقد تقدّم تفسيره في سورة الحج والأنعام ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ أي: ذللهما، وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديراً للآجال، وتتميماً للمنافع، والجملة معطوفة على ما قبلهما مع اختلافهما.

﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ اختُلف[(٢)] في الأجل المسمى ماذا هو؟ فقيل: هو يوم القيامة، وقيل: وقت الطلوع، ووقت الأفول، والأوّل أولى.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٢٧).

(٢) «النكت والعيون» (٤/ ٣٤٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٩٢)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٧٦).

وجملة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ معطوفة على ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾: أي: خبير بما تعملونه من الأعمال لا تخفى عليه منها خافية؛ لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة فقدرته على العلم بما تعملونه بالأولى.

قرأ الجمهور «تَعْملون» بالفوقية[1]، وقرأ السلمي، ونصر بن عامر، والدوري عن أبي عمرو بالتحتية[2] على الخبر.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم ذكره، والباء في ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ للسببية[3]؛ أي: ذلك بسبب أنّه سبحانه ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ وغيره الباطل، أو متعلقة بمحذوف؛ أي: فعل ذلك ليعلموا أنه الحق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قال مجاهد[4]: الذي يدعون من دونه هو الشيطان، وقيل: ما أشركوا به من صنم، أو غيره، وهذا أولى.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ معطوفة على جملة «أنّ الله هو الحق» والمعنى: أن ذلك الصُّنع البديع الذي وصفه في الآيات المتقدّمة للاستدلال به على حقية الله، وبطلان ما سواه، وعلوّه، وكبريائه: هو العليّ في مكانته، ذو الكبرياء في ربوبيته، وسلطانه.

ثم ذكر من عجيب صُنعه، وبديع قدرته نوعاً آخر، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بلطفه بكم، ورحمته لكم، وذلك من أعظم نعمه عليكم؛ لأنّها تخلصكم من الغرق عند أسفاركم في البحر لطلب الرزق، وقرأ ابن هرمز[5] «بنعمات الله» جمع نعمة ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ «من» للتبعيض[6]: أي: ليريكم بعض آياته.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٤٢٢)، و«الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٤٥٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٩٢).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ٩٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٢٢). هي قراءة شاذة، ورواية شاذة عن أبي عمرو.

(٣) «روح المعاني» (٢١/ ٩٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٧٦).

(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٤٦).

(٥) «القراءات الشاذة» (ص١١٧)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٢٣).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٩٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ٩٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٧٦).

قال يحيى بن سلام[١]: وهو جري السفن في البحر بالريح.

وقال ابن شجرة[٢]: المراد بقوله: من آياته ما يشاهدونه من قدرة الله.

وقال النقاش[٣]: ما يرزقهم الله في البحر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ هذه الجملة تعليل لما قبلها: أي: إنّ فيما ذُكر لآيات عظيمة لكل من له صبر بليغ، وشكر كثير يصبر عن معاصي الله، ويشكر نعمه.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ شبّه الموج[٤] لكبره بما يظلّ الإنسان من جبل أو سحاب، أو غيرهما، وإنما شبه الموج[٥]، وهو واحد بالظلل، وهي جمع؛ لأن الموج يأتي شيئاً بعد شيء ويركب بعضُه بعضاً.

وقيل: إن الموج في معنى الجمع؛ لأنه مصدر، وأصل الموج: الحركة، والازدحام، ومنه يقال: ماج البحر، وماج الناس.

وقرأ محمد بن الحنفية[٦] «موج كالظلال» جمع ظُلّة. ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: دعوا الله وحده لا يعوّلون على غيره في خلاصهم؛ لأنهم يعلمون أنه لا يضرّ ولا ينفع سواه، ولكنّه تغلب على طبائعهم العادات، وتقليد الأموات، فإذا وقعوا في مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله، وأخلصوا دينهم له طلباً للخلاص، والسلامة مما وقعوا فيه ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ صاروا على قسمين:

فقسم ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: موفٍ بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين له، باق على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر وأخرجه إلى البرّ سالماً. قال الحسن[٧]: معنى مقتصد: مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة.

وقال مجاهد[٨]: مقتصد في القول مُضمر للكفر، والأولى ما ذكرناه، ويكون

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٩٧).
(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٤٦).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٩٧).
(٤) «معالم التنزيل» (٦/ ٢٩٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ٩٨).
(٥) «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٠).
(٦) «القراءات الشاذة» (ص١١٧).
(٧) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٤٨).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٨٠) بسند صحيح.

في الكلام حذف، والتقدير فمنهم مقتصد، ومنهم كافر. ويدلّ على هذا المحذوف قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختر: أسوأ الغدر، وأقبحه، ومنه قول الأعشى[(١)]:

بـالأَبْـلـقِ الـفَـرْدِ مِـن تَـيْـمـاءَ مَـنْـزلُـه حِـصْـنٌ حَـصِـيـنٌ وجَـارٌ غـيـرُ خَـتَّـارِ

قال الجوهري[(٢)]: الختر الغدر، يقال: ختره، فهو: ختار.

قال الماوردي[(٣)]: وهذا قول الجمهور.

وقال ابن عطية[(٤)]: إنه الجاحد، وجحد الآيات: إنكارها، والكفور: عظيم الكفر بنعم الله سبحانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ أي: لا يغني الوالد عن ولده شيئاً، ولا ينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه.

وقد تقدّم بيان معناه في البقرة.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ذكر سبحانه فردين مِنْ القرابات، وهو الوالد والولد، وهما الغاية في الحنوّ والشفقة على بعضهم البعض، فما عداهما من القرابات لا يجزي بالأولى فكيف بالأجانب؟

اللَّهُمَّ اجعلنا ممّن لا يرجو سواك، ولا يعوّل على غيرك.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لا يتخلف فما وعد به مِنْ الخير، وأوعد به من الشرّ، فهو كائن لا محالة ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، وزخارفها فإنها زائلة ذاهبة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قرأ الجمهور: «الغَرور» بفتح الغين[(٥)] المعجمة، والغَرور هو: الشيطان؛ لأنّ من شأنه أن يغرّ الخلق، ويمنيهم بالأماني الباطلة ويلهيهم عن الآخرة ويصدّهم عن طريق الحق.

وقرأ سماك بن حرب، وأبو حيوة، وابن السميفع بضم الغين[(٦)] مصدر غرّ يغرّ

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥).

(٢) في «الصحاح» (٢/ ٦٤٢). (٣) في «النكت والعيون» (٤/ ٣٤٨).

(٤) في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٢٦).

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٤٢٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٠٤)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٤٩).

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٤٢٤)، و«المحتسب» (٢/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٠٤). القراءة بضم الغين شاذة.

غروراً، ويجوز أن يكون مصدراً واقعاً وصفاً للشيطان(١) على المبالغة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: علم وقتها الذي تقوم فيه.

قال الفراء(٢): إن معنى هذا الكلام، النفي: أي: ما يعلمه أحد إلا الله ﷻ.

قال النحاس(٣): وإنما صار فيه معنى النفي لما ورد عن النبي ﷺ(٤): أنه قال في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] إنها هذه. ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في الأوقات التي جعلها معينة لإنزاله، ولا يعلم ذلك غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ من الذكور والإناث، والصلاح والفساد ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة والأنبياء والجنّ والإنس [٣/٣٨٥] ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِنْ كسب دينٍ أو كسب دنيا ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾؛ أي: بأيّ مكان يقضي الله عليها بالموت.

قرأ الجمهور(٥): «ويُنزّل الغيثَ» مشدّداً. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي مخففاً(٦).

وقرأ الجمهور(٧): «بأيّ أرضٍ»، وقرأ أبيّ بن كعب(٨)، وموسى الأهوازي: «بأية»، وجوّز ذلك الفراء(٩)، وهي: لغة ضعيفة.

قال الأخفش(١٠): يجوز أن يقال: مررت بجارية أيّ جارية.

---

(١) قال الراغب في «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٦٠٤): فالغَرُور: كلُّ ما يغرُّ الإنسان من مالٍ وجاهٍ وشهوة وشيطان، وقد فُسِّرَ بالشيطان إذ هو أخبث الغارِّين، وبالدنيا لما قيل:
الدُّنيا تغرُّ وتضرُّ وتمرُّ
وقال الراغب في (ص٦٠٥): يقال: غررت فلاناً: أصبتُ غِرته ونلت منه ما أُريده، والغرَّةُ: غفلة اليقظة، والغِرار: غفلة مع غفوة.

(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٠). (٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٨٩).

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤٦٩٧) من حديث ابن عمر ﵄.

(٥) «النشر» (٢/ ٢١٨)، و«التيسير» (ص١٧٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (١/ ٢٥٤)، و«البحر المحيط» (١/ ٣٠٦).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة.

(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٤٢٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٩٨).

(٨) «القراءات الشاذة» (ص١١٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٢٥)، و«حاشية الشهاب» (٧/ ١٤٥ ـ البيضاوي). هي قراءة شاذة.

(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٠). (١٠) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٥٩).

قال الزجاج[(١)]: من ادّعى أنّه يعلم شيئاً من هذه الخمس فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه.

وقد أخرج ابن جرير[(٢)] عن ابن عباس في قوله: ﴿خَتَّارٍ﴾ قال: جحّاد.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم[(٣)] عنه في قوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قال: هو الشيطان.

وكذا قال مجاهد[(٤)]، وعكرمة[(٥)]، وقتادة[(٦)].

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد[(٧)] قال: «جاء رجل من أهل البادية، فقال: إن امرأتي حُبلى، فأخبرني ما تلد؟ وبلادنا مجدبة، فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمتُ متى ولدت فأخبرني متى أموت؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الآية».

وأخرج ابن المنذر[(٨)] عن عكرمة نحوه وزاد: وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وزاد أيضاً أنه سأله عَنْ قيام الساعة.

[مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله]:

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر[(٩)] قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا متى تقوم

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٨١) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠)، وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١٠١).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٤٦١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٨١) بسند صحيح.

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠) إلى عبد بن حميد.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٣٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٨٣) بسند صحيح.

(٧) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٨٥)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٨٦) بسند صحيح.

(٨) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠).

(٩) أخرجه البخاري رقم (١٠٣٩، ٤٦٩٧، ٧٣٧٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٨٦، ٥٨٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٠٤ رقم ٧٣٦٧).
• وقد عزاه المزي في «التحفة» رقم (٧١٥٨) إلى البخاري وحده. وقال ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ٨٢) «انفرد بإخراجه البخاري».

الساعة إلا الله، ولا ما في الأرحام إلا الله، ولا متى ينزل الغيث إلا الله، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إلا الله».

وفي «الصحيحين»، وغيرهما من حديث أبي هريرة[١] في حديث سؤاله عن الساعة، وجوابه بأشراطها، ثم قال: «في خمس لا يعلمهنّ إلا الله، ثم تلا هذه الآية» وفي الباب أحاديث.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم رقم (٩، ١٠)، وابن ماجه رقم (٤٠٤٤)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٦٧، ١٦٨).

سُورَةُ السَّجْدَةِ

هي ثلاثون آية.

وهي مكيَّة كما رواه ابن الضريس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس(١)، ورواه ابن مردويه(٢) عن ابن الزبير.

وأخرج ابن النحاس(٣) عن ابن عباس قال: هي مكية سوى ثلاث آيات ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ إلى تمام الآيات الثلاث [السجدة: ١٨ ـ ٢٠]. وكذا قال الكلبي(٤)، ومقاتل(٤).

وقيل(٥): إلّا خمس آيات من قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ٢٠].

[ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ السجدة في «فجر يوم الجمعة»]:

وقد ثبت عند مسلم، وأهل السُّنن من حديث أبي هريرة(٦): «أن النبيّ ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ السجدة و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ﴾ [الدهر: ١].

وأخرجه البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديثه(٧) أيضاً.

وأخرج أبو عبيد في «فضائله»، وأحمد، وعبد بن حميد، والدارمي،

---

(١) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» رقم (١٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٤٣، ١٤٤).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٤).

(٣) أخرجه النحاس في «ناسخه» (٢/ ٥٨٠).

(٤) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٥٢).

(٥) انظر: المصدرين المتقدمين.

(٦) أخرجه البخاري رقم (٨٩١، ١٠٦٨)، ومسلم رقم (٨٨٠)، والنسائي رقم (٩٥٤)، وابن ماجه رقم (٨٢٣)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٤١).

(٧) انظر: التعليقة المتقدمة.

والترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن جابر(١) قال: «كان النبيّ ﷺ لا ينام حتى يقرأ الٓمٓ تنزيل السجدة و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

وأخرج أبو نصر، والطبراني، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس(٢) يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صلى أربع ركعات خلف العشاء الأخيرة قرأ في الركعتين الأوليين ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] «و» ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وفي الركعتين الأخريين ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] و﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١] السجدة كتبن له كأربع ركعات من ليلة القدر».

[فضل قراءة سورة السجدة]:

وأخرج ابن مردويه(٣) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، و﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة بين المغرب والعشاء الآخرة فكأنما قام ليلة القدر».

وأخرج ابن مردويه(٣) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ في ليلة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿يسٓ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كنّ له نوراً وحرزاً من الشيطان، ورفع في الدرجات إلى يوم القيامة».

وأخرج ابن الضريس(٤) عن المسيب بن رافع: أن النبيّ ﷺ قال: «﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ تجيء لها جناحات يوم القيامة تظلّ صاحبها وتقول: لا سبيل عليه لا سبيل عليه».

---

(١) أخرجه أبو عبيد (ص١٣٦)، وأحمد في «مسنده» رقم (١٤٦٥٩)، وعبد بن حميد رقم (١٠٣٨ ـ المنتخب)، والحاكم (٢/ ٤١٢). وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٣٠، ٢٣١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٤٧٧).

قال الهيثمي: وفيه يزيد بن سنان أبو فروة، ضعَّفه أحمد، وكانت فيه غفلة.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٥).

(٤) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» رقم (٢١٥).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ
مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ
أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ
مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ۝٩ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠
قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾.

قوله: ﴿الٓمٓ﴾ قد قدمنا الكلام على فاتحة هذه السورة، وعلى محلها من الإعراب في سورة البقرة، وفي مواضع كثيرة من فواتح السور، وارتفاع ﴿تَنزِيلُ﴾ على أنه خبر(١) لمبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبرٍ على تقدير أنّ «الٓمٓ» في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر لقوله: «الٓمٓ» على تقدير أنه اسم للسورة، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في محل نصب(٢) على الحال.

ويجوز(٣) أَنْ يكون ارتفاع تنزيل على أنه مبتدأ، وخبره لا ريب فيه، و﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في محلّ نصبٍ(٤) على الحال، ويجوز أن تكون هذه كلها أخباراً للمبتدأ المُقَدّر قبل تنزيل، أو لقوله: ﴿الٓمٓ﴾ على تقدير أنه مبتدأ لا على تقدير أنه حروف مسرودة على نمط التعديد.

قال مكي(٥): وأحسن الوجوه أَنْ تكون «لا ريب فيه» في موضع الحال، و﴿مِن

---

(١) «الفريد» (٤/ ١٩)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٢٣).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «التبيان» (٢/ ١٠٤٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٢٣).
(٤) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩١)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤٧)، و«الفريد» (٤/ ١٩).
(٥) في «مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٨٦).

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الخبر، والمعنى على هذه الوجوه: أن تنزيل الكتاب المتلوّ لا ريب فيه، ولا شك، وأنّه منزل مِنْ ربّ العالمين، وأنّه ليس بكذبٍ، ولا سحر، ولا كهانة، ولا أساطير الأوّلين.

و«أم» في ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ هي: المنقطعة[١] التي بمعنى: بل، والهمزة: أي: بل أيقولون هو مُفترى؟ فأضربَ عَنْ الكلام الأوّل إلى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمِّن للتقريع[٢] والتوبيخ، ومعنى «افتراه»: افتعله، واختلقه، ثم أضرب عَنْ معتقدهم إلى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب، فقال: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فكذّبهم سبحانه في دعوى الافتراء.

ثم بيّن العلة التي كان التنزيل لأجلها، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وهم العرب، وكانوا أُمَّة أميَّة لم يأتهم رسول، وقيل: قريش خاصة[٣]، والمفعول الثاني لتنذر محذوف؛ أي: لتنذر قوماً العقاب.

وجملة: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ في محلّ نصبٍ[٤] على الحال، ومن قبلك صفة لنذير، وجوّز أبو حيان[٥] أن تكون ما موصولة.

والتقدير: لتنذر قوماً العقابَ الذي أتاهم من نذير من قبلك، وهو ضعيف جدّاً، فإن المراد تعليل الإنزال بالإنذار لقومٍ لم يأتهم نذير قبله، لا تعليله بالإنذار لقوم قد أُنذروا بما أنذرهم به، وقيل: المراد بالقوم أهل الفترة[٦] ما بين عيسى، ومحمد ﷺ ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ رجاءَ أَنْ يهتدوا، أو كي يهتدوا.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد تقدّم تفسير هذه الآية في سورة الأعراف، والمراد مِنْ ذكرها هنا: تعريفهم كمال قدرته وعظيم صنعه؛ ليسمعوا القرآن، ويتأمّلوه، ومعنى خلق: أوجد، وأبدع.

---

(١) «الفريد» (٤/ ١٩)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤٧)، و«الإملاء» (٤/ ١٨٣).
(٢) «روح المعاني» (٢١/ ١٢٣)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٨١).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٩٠) بسند صحيح.
(٤) «روح المعاني» (٢١/ ١٢٩)، و«الفريد» (٤/ ٢٠).
(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٤٣٠).
(٦) «معالم التنزيل» (٦/ ٢٩٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٧)، و«المحرر الوجيز» (١٣/ ٣٠).

قال الحسن: الأيام هنا هي مِنْ أيام الدنيا، وقيل: مقدار اليوم، ألف سنة من سني الدنيا، قاله الضحاك[١]، فعلى هذا المراد بالأيام هنا: هي من أيام الآخرة لا مِنْ أيام الدنيا، وليست ثُمّ للترتيب في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ﴾؛ أي: ليس لكم مِنْ دون الله، أو من دون عذابه من وليّ يواليكم ويردّ عنكم عذابَه، ولا شفيع يشفع لكم عنده ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تذكر تدبّر، وتفكر، وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم، ويعقل حتى تنتفعوا بها. ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ لما بيّن سبحانه خلق السماوات والأرض وما بينهما بيّن تدبيره لأمرها؛ أي: يحكم الأمر بقضائه وقدره من السماء إلى الأرض.

والمعنى: ينزل أمره مِنْ أعلا السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] ومسافة ما بين سماء الدنيا والأرض التي تحتها نزولاً وطلوعاً ألف[٢] سنة من أيام الدنيا.

وقيل: المراد بالأمور[٣]: المأمور به من الأعمال: أي: ينزله مدبراً من السماء إلى الأرض. وقيل: يُدبّر أمر الدنيا بأسبابٍ سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وآثارها إلى الأرض.

وقيل: ينزل الوحي مع جبريل. وقيل: العرش موضع التدبير كما أن ما دون العرش موضع التفصيل كما في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الرعد: ٢] وما دونَ السماوات موضع[٤] التصريف، قال الله: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الفرقان: ٥٠].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٩٢، ٥٩٣) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥) عن ابن عباس بسند صحيح.
(٣) «النكت والعيون» (٤/ ٣٥٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٣).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٩).

[القول في عروج الملائكة بأعمال العباد]:

ثم لمّا ذكر سبحانه تدبير الأمر قال: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ أي: ثم يرجع ذلك الأمر، ويعود ذلك التدبير إليه سبحانه في يوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، وذلك باعتبار مسافة النزول من السماء والطلوع من الأرض كما قدّمنا.

وقيل: إنّ المراد أنه يعرج إليه في يوم القيامة الذي مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ويموت من فيها.

وقيل: هي أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع من يرسله إليها من الملائكة(١).

والمعنى: أنّه يثبت ذلك عنده، ويكتب في صحف ملائكته ما عمله أهل الأرض في كلّ وقت من الأوقات إلى أن تبلغ مدة الدنيا آخرها، وقيل: معنى ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾: يثبت في علمه موجوداً بالفعل في برهة من الزمان هي مقدار ألف سنة، والمراد طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان.

وقيل: يدبر أمر الحوادث اليومية بإثباتها في اللوح المحفوظ، فتنزل بها الملائكة، ثم تعرج إليه في زمان هو كألف سنة من أيام الدنيا. وقيل: يقضي قضاء ألف سنة، فتنزل به الملائكة، ثم يعرج بعد الألف لألف آخر. وقيل: المراد: أن الأعمال التي هي طاعات يدبّرها الله سبحانه، وينزل بها ملائكته ثم لا يعرج إليها منها إلا الخالص بعد مدّة متطاولة لقلة المخلصين من عباده.

وقيل: الضمير في يعرج يعود إلى الملك وإن لم يجر له ذكر لأنه مفهوم من السياق. وقد جاء صريحاً في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] والضمير في إليه يرجع إلى السماء على لغة مَنْ يذكّرها، أو إلى مكان الملك الذي يرجع إليه، [٣/٣٨٦] وهو الذي أقرّه الله فيه.

وقيل: المعنى: يدبر أمر(٢) الشمس في طلوعها، وغروبها، ورجوعها إلى موضعها من الطلوع في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة، وقيل: المعنى: أن المَلك يعرج إلى الله في يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة. لأن ما بين

---

(١) «النكت والعيون» (٤/٣٥٣ ـ ٣٥٤).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٠)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٠ ـ ١٣١).

السماء والأرض مسافة خمسمائة عام، فمسافة النزول من السماء إلى الأرض، والرجوع من الأرض إلى السماء ألف عام، وقد رجّح هذا جماعة من المفسرين منهم ابنُ جرير.

وقيل: مسافة النزول ألف سنة، ومسافة الطلوع ألف سنة، روي ذلك عن الضحاك[١]، وهذا اليوم هو عبارة عَنْ زمان يتقدر بألف سنة، وليس المراد به مُسمّى اليوم الذي هو مدّة النهار بين ليلتين، والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر[٢]:

يومانِ يومُ مقاماتٍ وأنديةٍ ... ويومُ سيرٍ إلى الأعداء تأديبُ

فإن الشاعر لم يرد يومين مَخْصوصين، وإنما أراد أن زمانهم ينقسم شطرين، فعبّر[٣] عن كل واحد من الشطرين بيوم.

قرأ الجمهور[٤] «يَعْرُج» على البناء للفاعل.

وقرأ ابن أبي عبلة على البناء[٥] للمفعول، والأصل: يُعرج به، ثم حذف حرف الجار، فاستتر الضمير.

وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية وبين قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فقيل في الجواب: إنّ يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، ولكنّه باعتبار[٦] صعوبته، وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة، والعرب تصف كثيراً يوم المكروه بالطول كما تصف يوم السرور بالقِصَر كما قال الشاعر:

ويومٍ كظلِّ الرُّمح قَصَّر طولَه ... دمُ الزِّق عنَّا واصطفافُ المَزَاهرِ[٧]

---

(١) «النكت والعيون» (٤/ ٣٥٤).

(٢) هو: سلامة بن جندل. انظر: «ديوانه» (ص٩٤).

(٣) «النكت والعيون» (٤/ ٣٥٤).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٤٣١)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٦)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٣٤).

(٥) وهي قراءة شاذة.
«البحر المحيط» (٨/ ٤٣١ ـ ٤٣٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٦)، و«حاشية الشهاب» (٧/ ١٤٨).

(٦) قاله ابن عباس كما في «معاني القرآن» (٥/ ٣٩٩).

(٧) انظر: «جمهرة الأمثال» (٢/ ١٩)، و«الحيوان» (٦/ ١٧٩).

وقول الآخر:

ويـومٍ كـإبـهـامِ الـقَـطَـاة قـطـعـتُـه

وقيل[1]: إن يوم القيامة فيه أيام، فمنها ما مقداره ألف سنة، ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة. وقيل: هي أوقات مختلفة يُعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة، ثم ينقل إلى نوع آخر، فيعذب به خمسين ألف سنة. وقيل: مواقف القيامة خمسون موقفاً كل موقف ألف سنة، فيكون معنى ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: أنّه يعرج إليه في وقت مِنْ تلك الأوقات، أو موقف من تلك المواقف.

وحكى الثعلبي[2] عَنْ مجاهد، وقتادة، والضحاك: أنه أراد سبحانه في قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] المسافة مِنْ الأرض إلى سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل، والمراد: أنه يسير جبريل، ومن معه من الملائكة في ذلك المقام إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد مِنْ أيام الدنيا، وأراد بقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المسافة التي بين الأرض، وبين سماء الدنيا هبوطاً، وصعوداً فإنّها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا.

وقيل: إنّ ذلك إشارة إلى امتداد نفاذ الأمر، وذلك لأن من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين، وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة، فقوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ يعني: يدبر الأمر في زمان يوم منه ألف سنة. فكم يكون الشهر منه؟ وكم تكون السَّنَة منه؟ وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة، وبين خمسين ألف سنة.

وقيل: غير ذلك. وقد وقفَ حبر الأُمَّة ابن عباس لما سئل عن الآيتين كما سيأتي في آخر البحث إنْ شاء الله.

قرأ الجمهور ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بالفوقية[3] على الخطاب، وقرأ الحسن، والسلمي، وابن وثاب، والأعمش بالتحتية[4] على الغيبة.

---

(١) «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٢٩٩). (٢) في «تفسيره» (٧/ ٣٢٦).
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٤٣٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١١).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص١١٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٦)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٣٢). وهي قراءة شاذة.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الله سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الأوصاف، وهو مبتدأ وخبره ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم. وفي هذا معنى[1] التهديد؛ لأنّه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر، فهو مجاز لكل عاملٍ بعمله، أو فهو يدبّر الأمر بما تقتضيه حكمته ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر الغالب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده، وهذه أخبار لذلك المبتدأ، وكذلك قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ هو خبر آخر، قرأ الجمهور «خَلَقه» بفتح اللام[2]، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإسكانها[3].

فعلى القراءة الأولى هو فعل ماض نعتاً لشيء، فهو في محل جرّ.

وقد اختار قراءة الجمهور أبو عُبيدة[4]، وأبو حاتم، ويجوز أن تكون صفة للمضاف فيكون في محل نصب. وأما على القراءة الثانية ففي نصبه[5] أوجه:

الأوّل: أن يكون بدلاً مِنْ كل شيء بدل اشتمال، والضمير عائد إلى كل شيء، وهذا هو الوجه المشهور عند النحاة.

الثاني: أنه بدل كل مِنْ كل، والضمير راجع إلى الله سبحانه؛ ومعنى أحسن: حسن؛ لأنّه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة، فكل المخلوقات حسنة.

الثالث: أنْ يكون كل شيء هو المفعول الأوّل، وخَلْقه هو المفعول الثاني على تضمين ﴿أَحْسَنَ﴾ معنى: أعطى، والمعنى: أعطى كل شيء خلقه الذي خصّه به، وقيل: على تضمينه معنى: ألهم، قال الفراء[6]: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه.

الرابع: أنَّه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة؛ أي: خلقه خلقاً

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٣٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٨٢).

(٢) «النشر» (٢/ ٣٤٧)، و«التيسير» (ص١٧٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩١)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤٨)، و«جامع البيان» (١٨/ ٥٤٧).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٢).

(٥) «التبيان» (٢/ ١٠٤٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٧)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ٥٦٧).

(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

كقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨] وهذا قول سيبويه[١]، والضمير يعود إلى الله سبحانه.

والخامس: أنه منصوب بنزع[٢] الخافض، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه.

ومعنى الآية: أنّه أتقن، وأحكم خلق مخلوقاته، فبعض المخلوقات، وإن لم تكن حسنة في نفسها، فهي متقنة مُحكمة، فتكون هذه الآية معناها معنى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥]؛ أي: لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، ولا خلق البهيمة على خلق الإنسان.

وقيل: هو عموم[٣] في اللفظ خصوص في المعنى؛ أي: أحسن خَلق كلِّ شيء حسن ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾؛ يعني: آدم خلقه مِنْ طين، فصار على صورة بديعة، وشكل حسن ﴿جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾؛ أي: ذريته ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ سميت الذرية سلالة؛ لأنها تُسلّ من الأصل، وتنفصل عنه، وقد تقدم تفسيرها في سورة المؤمنين؛ ومعنى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ من ماء ممتهن لا خطر له عند الناس، وهو المنيّ.

وقال الزجاج[٤]: من ماء ضعيف. ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾؛ أي: الإنسان الذي بدأ خلقه من طين، وهو: آدم، أو جميع النوع، والمراد: أنّه عدل خلقه، وسوّى شكله، وناسب بين أعضائه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ الإضافة[٥] للتشريف، والتكريم.

وهذه الإضافة تقوّي أنّ الكلام في آدم لا في ذريته، وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع، ثم خاطب جميع النوع، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾؛ أي: خلق لكم هذه الأشياء تكميلاً لنعمته عليكم، وتتميماً لتسويته لخلقكم حتى تجتمع لكم النِّعم، فتسمعون كلَّ مسموع، وتبصرون كل مبصر، وتتعقلون كل متعقل،

---

(١) في «الكتاب» (١/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

(٢) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٢)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤٨).

(٣) «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢٠٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٢)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٥٥).

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٠٥).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٥)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٨٣).

وتفهمون كل ما يفهم، وأفرد السمع لكونه مصدراً يشمل القليل، والكثير.

وخصَّ[١] السمع بذكر المصدر دونَ البصر والفؤاد، فذكرهما بالاسم ولهذا جُمعا؛ لأنّ السمع قوّة واحدة، ولها محل واحد، وهو: الأذن، ولا اختيار لها فيه، فإن الصوت يصل إليها، ولا تقدر على ردّه. ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض، بخلاف الأبصار، فمحلها العين، وله فيه اختيار، فإنها تتحرّك إلى جانب المرئي دون غيره، وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء؛ وكذلك الفؤاد له نوع اختيار في إدراكه، فيتعقل هذا دون هذا، ويفهم هذا دون هذا.

قرأ الجمهور[٢]: «وبدأ» بالهمز، والزهري[٣] بألف خالصة بدون همز، وانتصاب ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ على أنّه صفة مصدر محذوف؛ أي: شكراً قليلاً، أو صفة زمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله، وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قد تقدم اختلاف القراء في هذه الهمزة، وفي الهمزة التي بعدها.

والضلال[٤]: الغيبوبة، يقال: ضلّ الميت في التراب إذا غاب وبطل، والعرب تقول للشيء إذا غلب عليه غيرُه حتى خَفِيَ أثرُه قد ضلّ، ومنه قول الأخطل[٥]:

كُنت القَذَى في موجٍ أكدرَ مُزبدٍ قذَف الأَتيّ بها فضَلَّ ضَلالا

قال قُطرب[٦]: معنى ضَلَلْنا في الأرض: غبنا في الأرض.

قرأ الجمهور[٧] «ضَلَلْنا» بفتح ضاد معجمة، ولام مفتوحة بمعنى: ذهبنا وضعنا، وصرنا تراباً، وغبنا عن الأعين.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٢٥/ ١٧٤ ـ ١٧٥).
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٤٣٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٣٨).
(٣) «المحتسب» (٢/ ١٧٣)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٣٣). قراءة الزهريَّ شاذة، ولكن حمزة إذا وقف عليها أبدلها ألفًا خالصة مِنْ دون همز.
(٤) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥١٠)، و«تهذيب اللغة» (١١/ ٤٦٢).
(٥) انظر: «ديوان الأخطل» (ص٥٠).
(٦) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٥٦).
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٤٣٤)، و«جامع البيان» (١٨/ ٦٠٢)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٣٥). قراءة الجمهور هي المتواترة وما عداها فشاذ.

وقرأ يحيى بن يَعْمُر، وابن محيصن، وأبو رجاء «ضَلِلنا» بكسر[١] اللام، وهي لغة العالية من نجد، قال الجوهري[٢]: وأهل العالية يقولون: ضلِلت بالكسر، قال: وأضله: أي: أضاعه وأهلكه، يقال: ضلّ الميت إذا دفن.

وقرأ عليّ بن أبي طالب، والحسن، والأعمش وأبان بن سعيد «صللنا» بصاد مهملة[٣]، ولام مفتوحة: أي: أَنْتَنّا.

قال النحاس[٤]: ولا يعرف في اللغة صللنا، ولكن يقال: صلّ اللحم: إذا أنتن.

قال الجوهري[٥]: صلّ اللحم يصِلّ بالكسر صلولاً: إذا أنتن، مطبوخاً كان، أو نيئاً، ومنه قول الحطيئة[٦]:

ذاكَ فتى يَبذُل ذا قُدرةٍ   لا يُفسد اللَّحمَ لديهِ الصُّلولُ

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾؛ أي: نُبعث، ونصير أحياء؟ والاستفهام[٧] للاستنكار، وهذا قول منكري البعث من الكفار، فأضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بإنكار البعث إلى بيان ما هو أبلغ منه، وهو كفرهم بلقاء الله، فقال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ أي: جاحدون له مكابرةً، وعناداً، فإن اعترافهم بأنّه المبتدئ للخلق يستلزم اعترافهم بأنّه قادر على الإعادة.

ثم أمرَ سُبحانه رسولَه ﷺ: أن يبيّن لهم الحق، ويردّ عليهم ما زعموه من الباطل، فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ يقال: توفّاه الله، واستوفى روحه إذا قبضه إليه، وملَك الموت هو: عزرائيل، ومعنى وكِّل بكم: وكل بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم [٣/٣٨٧] ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي: تصيرون إليه أحياء بالبعث والنشور لا إلى غيره، فيجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١١٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٣٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٦).
(٢) في «الصحاح» (٥/ ١٧٤٨).
(٣) «القراءات الشاذة» (ص١١٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٣٤).
(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٣). (٥) في «الصحاح» (٥/ ١٧٤٥).
(٦) انظر: «ديوانه» (ص٧٧).
(٧) «روح المعاني» (٢١/ ١٤٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٨٤).

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس[1] في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ الآية قال: هذا في الدنيا تعرج الملائكة في يوم مقداره ألف سنة.

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه[2] عنه في قوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: مِنْ الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في «المصاحف»، والحاكم وصحّحه عن عبد الله بن أبي مليكة[3] قال: دخلتُ على عبد الله بن عباس أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان بن عفان، فقال له ابن فيروز: يا أبا عباس، قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فكأن ابن عباس اتهمه فقال: ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ قال: إنما سألتك؛ لتخبرني، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، اللهُ أعلم بهما، وأكره أَنْ أقول في كتاب الله ما لا أعلم. فضرب الدهر من ضرباته حتى جلست إلى ابن المسيّب، فسأله عنهما إنسان، فلم يخبره، ولم يدر، فقلت: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس؟ قال: بلى، فأخبرته فقال للسائل: هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيها، وهو أعلم مني.

وأخرج ابن أبي حاتم[4] عن ابن عباس في قوله: ﴿كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: لا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك اليوم حتى يقضي بين العباد، فينزل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ولو كان إلى غيره لم يفرغ في خمسين ألف سنة.

وأخرج ابن جرير[5] عنه أيضاً في قوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ﴾ من أيامكم هذه، ومسيرة ما بين السماء والأرض خمسمائة عام.

وأخرج ابن أبي شيبة، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، وابن جرير، وابن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥) بسند صحيح.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٩٤)، والحاكم (٢/ ٤١٢) بسند حسن.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٠٨)، والحاكم (٤/ ٦١٠).
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٨).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٩٣) بسند حسن.

المنذر عن ابن عباس[(١)]: أنه كان يقرأ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قال: أما رأيت القردة؟ ليست بحسنة، ولكنه أحكم خلقها.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٢)] عنه أيضاً في الآية: أنه قال: أما إن إست القردة ليست بحسنة، ولكنه أحكم خلقها، وقال: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ صورته. وقال: ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ القبيح والحسن والعقارب والحيات، وكلّ شيء مما خلق، وغيره لا يحسن شيئاً من ذلك.

وأخرج الطبراني[(٣)] عن أبي أمامة قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ لقينا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة قد أسبل، فأخذ النبي ﷺ بناحية ثوبه، فقال: يا رسول الله إني أحمش الساقين، فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو بن زرارة إن الله ﷻ قد أحسن كلّ شيء خلقه، يا عمرو بن زرارة إن الله لا يحب المسبلين».

وأخرج أحمد، والطبراني عن الشريد بن سويد[(٤)] قال: «أبصر النبي ﷺ رجلاً قد أسبل إزاره، فقال: ارفع إزارك، فقال: يا رسول الله إنّي أحنَف تصطك ركبتاي، فقال: «ارفع إزارك كلّ خلق الله حسن»».

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ
صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا
نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ
بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ
يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ
جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٥٩٧، ٥٩٨) بسند ضعيف.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٩).
(٣) أخرجه الطبراني رقم (٧٩٠٩).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٢٤): رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها ثقات.
(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٤٧٢، ١٩٤٧٥)، والطبراني رقم (٧٢٤٠، ٧٢٤١) بسند صحيح.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ
كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ
﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المراد بالمجرمين: هم القائلون أئذا ضللنا؟ والخطاب[1] هنا لكل مَنْ يصلح له أو لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يراد بالمجرمين كل مجرم، ويدخل فيه أولئك القائلون دخولاً أوليّاً، ومعنى ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: مطأطئوها حياءً وندماً على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله والعصيان له ومعنى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: عند محاسبته لهم.

[مخاطبة الله للنبي مخاطبة لأمّته]:

قال الزجاج[2]: والمخاطبة للنبي ﷺ مخاطبة لأمته؛ فالمعنى: ولو ترى يا محمد مُنكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ أي: يقولون: ربنا أبصَرْنا الآن ما كنّا نكذب به، وسمعنا ما كنا ننكره، وقيل[3]: أبصرنا صدق وعيدك، وسمعنا تصديق رسلك، فهؤلاء أبصروا حين لم ينفعهم البصر، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ كما أمرتنا ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ أي: مصدقون، وقيل: مصدقون بالذي جاء به محمد ﷺ، وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعاً فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا، وأنّى لهم ذلك فقد حقَّت عليهم كلمة الله فإنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقيل: معنى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: أنها قد زالت[4] عنهم الشكوك التي كانت تخالطهم في الدنيا؛ لما رأوا ما رأوا، وسمعوا ما سمعوا، ويجوز أن يكون معنى ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾: صرنا ممن يسمع ويبصر فلا يحتاج إلى تقدير مفعول، ويجوز أن يكون ﴿صَٰلِحًا﴾ مفعولاً لنعمل كما يجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف، وجواب لو

(١) «جامع البيان» (١٨/ ٦٠٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٢).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٠٦).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٤٥).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٤٥ ـ ١٤٦).

محذوف؛ أي: لرأيت أمراً فظيعاً، وهولاً هائلاً ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ هذا ردّ عليهم لما طلبوا الرجعة؛ أي: لو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها، فهدينا الناس جميعاً فلم يكفر منهم أحد.

قال النحاس[١]: في معنى هذا قولان:

أحدهما: أنّه في الدنيا.

والآخر: أنه في الآخرة؛ أي: ولو شئنا لرددناهم إلى الدنيا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وجملة ولو شئنا مقدّرة بقول معطوف على المقدّر قبل قبوله: «أبصرنا»؛ أي: ونقول لو شئنا.

ومعنى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾؛ أي: نفذ قضائي وقدري، وسبقت كلمتي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هذا هو القول الذي وجب من الله، وحقّ على عباده، ونفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول أنّه لا يعطي كلّ نفس هداها، وإنما قضى عليهم بهذا؛ لأنه سبحانه قد علم أنّهم من أهل الشقاوة، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى.

والفاء[٢] في قوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله، والباء في ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ للسببية، وفيه إشعار بأنّ تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدّم؛ بل بذاك وهذا.

واختلف في النسيان[٣] المذكور هنا، فقيل: هو النسيان الحقيقي، وهو الذي يزول عنده الذكر؛ وقيل: هو الترك.

والمعنى على الأوّل: أنهم لم يعملوا لذلك اليوم، فكانوا كالناسين له الذين لا يذكرونه.

وعلى **الثاني**: لا بدّ من تقدير[٤] مضاف قبل لقاء؛ أي: ذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا، ورجح الثاني المبرد[٥] وأنشد:

---

(١) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٩٤).
(٢) «روح المعاني» (٢١/ ١٥١)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٨٦).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٦)، و«جامع البيان» (١٨/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧).
(٤) «الفريد» (٤/ ٢٣)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤٩).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥).

كـأنَّـه خـارجٌ مـن جـنـب صـفـحـتـهِ سَـفُّـودُ شَـرْبٍ نَـسَـوْه عـنـد مُـفْـتـأدِ[١]

أي: تركوه، وكذا قال الضحاك[٢]، ويحيى بن سلام: إنّ النسيان هنا بمعنى: الترك.

قال يحيى بن سلام[٣]: والمعنى: بما تركتم الإيمان بالبعث في هذا اليوم تركناكم من الخير، وكذا قال السدّي[٣].

وقال مجاهد[٤]: تركناكم في العذاب، وقال مقاتل[٤]: إذا دخلوا النار، قالت لهم الخزنة: ذوقوا العذاب بما نسيتم، واستعار الذوق للإحساس، ومنه قول طفيل[٥]:

فـذوقُـوا كـمـا ذُقـنـا غَـدَاة مـحـجَّـةٍ مـن الـغَـيْـظ في أكـبـادِنـا والـتـحـوّبِ

وقوله: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير لقصد التأكيد؛ أي: ذوقوا العذاب الدائم الذي لا ينقطع أبداً؛ بما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي.

قال الرازي[٦] في «تفسيره»: إن اسم الإشارة في قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أن يكون إشارة إلى اللقاء، وأن يكون إشارة إلى اليوم، وأن يكون إشارة إلى العذاب، وجملة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مستأنفة لبيان مَنْ يستحق الهداية إلى الإيمان ومَنْ لا يستحقها.

والمعنى: إنما يُصدّق بآياتنا وينتفع بها ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ لا غيرهم ممّن يذكر بها؛ أي: يُوعظ بها، ولا يتذكر، ولا يؤمن بها، ومعنى ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾: سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيماً لآيات الله، وخوفاً من سطوته وعذابه ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: نزّهوه عن كل ما لا يليق به ملتبسين بحمده على نعمه التي أجلّها وأكملها الهداية إلى الإيمان بالآيات، والمعنى: قالوا في سجودهم:

---

(١) قائله: النابغة الذبياني. انظر: «ديوانه» (ص٣٢).
(٢) ذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٦٠)، والقرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٦).
(٣) «النكت والعيون» (٤/ ٣٦٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٦).
(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٦٠).
(٥) طفيل هو: ابن عن الغنوي.
(٦) في «تفسيره» (٢٥/ ١٨٠).

سبحان الله وبحمده أو سبحان ربي الأعلى وبحمده. وقال سفيان[(١)]: المعنى: صلُّوا حمداً لربهم.

وجملة: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في محل نصب[(٢)] على الحال؛ أي: حال كونهم خاضعين لله متذلّلين له غير مستكبرين عليه ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾؛ أي: ترتفع وتنبو يقال: جَفى الشيء عَنْ الشيء وتجافى عنه: إذا لم يلزمه ونبا عنه، والمضاجع: جمع المضجع وهو الموضع الذي يضطجع فيه.

قال الزجاج[(٣)] والرمّاني[(٤)]: التجافي، والتجفي إلى جهة فوق، وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سبٍّ ونحوه، والجنوب: جمع جَنْب.

والجملة في محل نصب[(٥)] على الحال؛ أي: متجافية جنوبهم عن مضاجعهم، وهم المتهجّدون في الليل، الذين يقومون للصلاة عَنْ الفِراش، وبه قال الحسن[(٦)]، ومجاهد[(٧)]، وعطاء[(٨)]، والجمهور[(٩)]، والمراد بالصلاة: صلاة التنفل بالليل من غير تقييد.

وقال قتادة[(١٠)]، وعكرمة: هو التنفل ما بين المغرب والعشاء، وقيل: صلاة[(١١)] العشاء فقط، وهو رواية عن الحسن، وعطاء، وقال الضحاك[(١٢)]: صلاة العشاء، والصبح في جماعة.

وقيل: هم الذين يقومون لذكر الله سواء كان في صلاة أو غيرها.

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٨).
(٢) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٢٠٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠٤٩)، و«الفريد» (٤/ ٢٤).
(٣) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٠٧).
(٤) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٨)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٣٦).
(٥) «التبيان» (٢/ ١٠٤٩)، و«الفريد» (٤/ ٢٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٥٣).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦١٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١٠)، وأبو داود رقم (١٣٢١) بسند حسن.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦١٢) بسند صحيح.
(٨)(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٩).
(١٠) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٩)، والماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٦٧).
(١١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٦٣) عن الحسن وعطاء.
(١٢) الماوردي في «النكت والعيون» (٢/ ٣٦٣)، عن أبي الدرداء وعبادة.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ [٣/٣٨٨] خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ هذه الجملة في محل نصب[١] على الحال أيضاً من الضمير الذي في جنوبهم فهي حال بعد حال، ويجوز أن تكون الجملة الأولى مستأنفة لبيان نوع من أنواع طاعاتهم.

والمعنى: تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين ربهم خوفاً مِنْ عذابه، وطمعاً في رحمته. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: مِنْ الذي رزقناهم، أو من رزقهم، وذلك الصدقة الواجبة، وقيل: صدقة النفل، والأولى الحمل على العموم، وانتصاب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ على العلة، ويجوز أَنْ يكونا مصدرين منتصبين[٢] بمقدّر ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ النكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: لا تعلم نفس من النفوس أيّ نفس كانت ما أخفاه الله سبحانه لأولئك الذين تقدّم ذكرهم مما تقرّ به أعينهم.

قرأ الجمهور «قُرّة» بالإفراد[٣]، وقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو الدرداء «مِنْ قرّات» بالجمع[٤].

وقرأ حمزة «ما أُخْفِيْ» بسكون[٥] الياء على أنه فعل مضارع مسند إلى الله سبحانه، وقرأ الباقون بفتحها[٦] فعلاً ماضياً مبنيّاً للمفعول، وقرأ ابن مسعود «ما نُخْفي» بالنون مضمومة، وقرأ الأعمش «يُخْفي» بالتحتية[٧] مضمومة.

قال الزجاج[٨] في معنى قراءة حمزة: أي: ما أخفى الله لهم، وهي قراءة محمد بن كعب، و«ما» في موضع[٩] نصب، ثم بيّن سبحانه: أن ذلك بسبب

---

(١) «التبيان» (٢/١٠٤٩)، و«الفريد» (٤/٢٤)، و«روح المعاني» (٢١/١٥٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/٢٩٥).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) «فتح الباري» (٨/٣٩٧)، و«البحر المحيط» (٨/٢٣٧)، و«زاد المسير» (٦/٢٤٠).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص١١٨)، و«المحتسب» (٢/١٧٤)، و«البحر المحيط» (٨/٢٣٧). وهي قراءة شاذة.
(٥) «النشر» (ص١٧٧)، و«التيسير» (٢/٣٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/٢٣٧).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة.
(٧) «القراءات الشاذة» (ص١١٨)، و«البحر المحيط» (٨/٢٣٧). قراءة ابن مسعود والأعمش شاذة.
(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/٢٠٨).
(٩) «روح المعاني» (٢١/١٥٧)، و«التبيان» (٢/١٠٤٩)، و«الفريد» (٤/٢٤ ـ ٢٥).

أعمالهم الصالحة، فقال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا، أو جوزوا جزاء بذلك.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ الاستفهام[١] للإنكار؛ أي: ليس المؤمن كالفاسق فقد ظهر ما بينهما من التفاوت، ولهذا قال: ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ ففيه زيادة تصريح لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام.

قال الزجاج[٢]: جعل الاثنين جماعة حيث قال: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ﴾ لأجل معنى: مَنْ، وقيل: لكون الاثنين أقلّ الجمع، وسيأتي بيان سبب نزولها آخر البحث.

ثم بيّن سبحانه عاقبة حال الطائفتين، وبدأ بالمؤمنين، فقال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ قرأ الجمهور: «جناتُ» بالجمع[٣]، وقرأ طلحة بن مصرّف: «جنةُ المأوى» بالإفراد[٤]، والمأوى هو: الذي يأوون إليه، وأضاف الجنات إليه لكونه المأوى الحقيقي، وقيل: المأوى جنة من الجنات، وقد تقدّم الكلام على هذا.

ومعنى: ﴿نُزُلَۢا﴾ أنها معدّة لهم عند نزولهم، وهو في الأصل ما يعدّ للنازل من الطعام والشراب كما بيّناه في آل عمران، وانتصابه[٥] على الحال.

وقرأ أبو حيوة «نُزْلاً» بسكون[٦] الزاي.

والباء في ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ للسببية[٧]؛ أي: بسبب ما كانوا يعملونه، أو بسبب عملهم، ثم ذكر الفريق الآخر، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾؛ أي: خرجوا عن طاعة الله، وتمرّدوا عليه، وعلى رسله ﴿فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾؛ أي: منزلهم الذي يصيرون إليه، ويستقرون فيه هو: النّار ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾؛ أي: إذا أرادوا الخروج منها ردّوا إليها راغمين مكرهين.

---

(١) «روح المعاني» (٢١/١٥٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٣٨٨).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/٢٠٨).
(٣) «البحر المحيط» (٨/٤٣٨)، و«روح المعاني» (٢١/١٥٨).
(٤) «البحر المحيط» (٨/٤٣٨)، و«القراءات الشاذة» (ص١١٨). وهي قراءة شاذة.
(٥) «روح المعاني» (٢١/١٥٨)، و«التبيان» (١/٣٢٣)، و«الفريد» (٤/٢٥).
(٦) «روح المعاني» (٢١/١٥٩)، و«زاد المسير» (٦/٣٤٠)، و«البحر المحيط» (٨/٤٣٨). وهي قراءة شاذة.
(٧) «روح المعاني» (٢١/١٥٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٣٨٨).

وقيل: إذ دفعهم اللهب إلى أعلاها[١] رُدّوا إلى مواضعهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، والقائل لهم هذه المقالة هو: خزنة جهنم من الملائكة، أو القائل لهم هو الله ﷻ، وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الإغاظة لهم ما لا يخفى.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، وهو عذاب الدنيا، قال الحسن[٢] وأبو العالية[٣]، والضحاك[٤]، والنخعي[٥]: هو مصائب الدنيا، وأسقامها، وقيل: الحدود[٦]، وقيل: القتل[٧] بالسيف يوم بدر، وقيل[٨]: سنين الجوع بمكة.

وقيل: عذاب[٩] القبر، ولا مانع مِنْ الحمل على الجميع ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، وهو عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ مما هم فيه من الشرك والمعاصي؛ بسبب ما ينزل بهم من العذاب إلى الإيمان والطاعة، ويتوبون عمَّا كانوا فيه، وفي هذا التعليل دليل على ضعف قول مَنْ قال: إن العذاب الأدنى هو عذاب القبر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾؛ أي: لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الإقبال على الإيمان والطاعة، فجعل الإعراض مكان ذلك، والمجيء بثمّ للدلالة على استبعاد ذلك، وأنه مما ينبغي أن لا يكون ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾؛ أي: من أهل الإجرام على العموم، فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولاً أوّليّاً.

---

(١) «جامع البيان» (١٨/ ٦٢٦)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٥٩)، و«الكشاف» (٥/ ٣٦).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٢٩) بسند صحيح.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٢٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٩٨٢٢) بسند حسن.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٢٨) بسند ضعيف.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٣١)، وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٥٢) بسند صحيح من طريق جرير، به.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٢٩) عن ابن عباس بسند حسن.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٣٠)، عن الحسن بن علي. قال: «القتل بالسيف صبراً» بسند ضعيف.
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٣٠)، عن مجاهد بسند صحيح.
(٩) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٣١)، عن مجاهد بسند ضعيف.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عباس[(١)] في قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ﴾ قال: تركناكم.

وأخرج البيهقي في الشعب[(٢)] عنه قال: نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾؛ أي: أتوها ﴿وَسَبَّحُواْ﴾؛ أي: صلوا بأمر ربهم ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن إتيان الصلاة في الجماعات.

وأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، ومحمد بن نصر في كتاب «الصلاة» عن أنس بن مالك[(٣)]: أن هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ نزلت في انتظار الصلاة التي تُدْعى العتمة.

وأخرج البخاري في «تاريخه»، وابن مردويه عنه قال: نزلت في صلاة العشاء. وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه[(٤)] أيضاً في الآية قال: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء.

وأخرج ابن أبي شيبة[(٥)] عنه قال: كنا نجتنب الفرش قبل صلاة العشاء.

وأخرج عبد الرزاق في المصنف، وابن مردويه عنه[(٦)] أيضاً قال: ما رأيت رسول الله ﷺ راقداً قط قبل العشاء، ولا متحدّثاً بعدها، فإن هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾.

وأخرج ابن مردويه[(٧)] عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: تتجافى جنوبهم عن المضاجع قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء، فأثنى عليهم، فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه؛ فوقتها قبل أن ينام الصغير، ويكسل الكبير.

وأخرج ابن مردويه[(٧)] عن بلال قال: كنا نجلس في المسجد، وناس من

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٠٧) بسند صحيح.
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» رقم (٢٩١٣).
(٣) أخرجه الترمذي رقم (٣١٩٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦١١)، ومحمد بن نصر في «مختصر قيام الليل» (ص٩). وهو حديث صحيح.
(٤) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٢/ ٣٤٤).
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢/ ٣٣٤).
(٦) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (٢١٣٨).
(٧) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٦).

أصحاب رسول الله ﷺ يُصلون بعد المغرب إلى العشاء تتجافى جنوبهم عَنْ المضاجع.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد»، وابن عديّ وابن مردويه عن أنس[١] نحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود، ومحمد بن نصر، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه»[٢] عن أنس في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ قال: كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يُصلّون.

وأخرج أحمد، وابن جرير، وابن مردويه عن معاذ بن جبل[٣]، عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ قال: قيام العبد من الليل.

وأخرج أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن ماجه، وابن نصر في كتاب الصلاة، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشُّعب» عن معاذ بن جبل[٤]، عن النبيّ ﷺ، وذكر حديثاً، وأرشد فيه إلى أنواع من الطاعات، وقال فيه: «وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾».

وأخرج ابن مردويه[٥] عن أبي هريرة مرفوعاً في حديث قال فيه: «وصلاة المرء في جوف الليل، ثم تلا هذه الآية».

---

(١) أخرجه ابن عدي (٢/ ٦١٢)، وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٨٦).
وقال ابن عدي: قال يحيى بن معين: الحارث بن وجيه ليس حديثه بشيء.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٩٧، ١٩٨)، وأبو داود رقم (١٣٢١، ١٣٢٢)، ومحمد بن نصر في «مختصر قيام الليل» (ص٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٠٩)، والبيهقي (٣/ ١٩). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد رقم (٢٢٠٢٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦١٥). وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده.

(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٢٠١٦، ٢٢٠٣٢)، والترمذي رقم (٢٦١٦)، ووالنسائي رقم (٢٢٢٥)، وابن ماجه رقم (٣٩٧٣)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» رقم (١٩٧، ١٩٨)، وفي «مختصر قيام الليل» (ص٩٢٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦١٤، ٦١٥)، والحاكم (٢/ ٤١٢، ٤١٣)، والبيهقي رقم (٢٨٠٦، ٣٣٤٩، ٤٢٢٥). وهو حديث صحيح.

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٧).

وأخرج ابن مردويه(١) عن أنس في الآية قال: كان لا تمرّ عليهم ليلة إلا أخذوا منها.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» من طريق أبي عبد الله الجدلي عن عبادة بن الصامت عَنْ كعب(٢) قال: «إذا حُشر الناس نادى مناد: هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟» الحديث.

وأخرج ابن جرير(٣) عن ابن عباس في الآية يقول: تتجافى لذكر الله كلما استيقظوا ذكروا الله، إما في الصلاة، وإما في القيام، أو قعود، أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله.

وأخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، ومحمد بن نصر، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في البعث عن ابن عباس(٤) قال: كان عرش الله على الماء، فاتخذ جنة لنفسه، ثم اتخذ دونها أخرى، ثم أطبقهما بلؤلؤة واحدة، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٢] لم يعلم الخلق ما فيهما، وهي التي قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ تأتيهم منها كل يوم تحفة.

وأخرج الفريابي، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه عن ابن مسعود(٥) قال: إنه لمكتوب في التوراة: لقد أعدّ الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلم ملَكٌ مقرّب، ولا نبيّ مرسل وإنه لفي القرآن ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٤٧).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١٨٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦١٣) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦١٩، ٦٢٠)، ومحمد بن نصر في «مختصر قيام الليل» (ص٩)، وأبو الشيخ رقم (٢٢٨)، والحاكم (٢/ ٤٧٥)، والبيهقي في «البعث» رقم (٢٤٣) بسند حسن.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ١١٢)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦١٧، ٦١٨)، والطبراني رقم (٩٠٣٩)، والحاكم (٢/ ٤١٤) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٠): رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عَنْ أبي هريرة[١]، عن رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾».

وفي الباب أحاديث عن جماعة من الصحابة، وهي معروفة فلا نطول بذكرها.

وأخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني» والواحدي وابن عدي وابن مردويه والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس[٢] قال: قال الوليد بن عقبة لعليّ بن أبي طالب: أنا أحدّ منك سناناً، وأنشط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له عليّ: اسكت فإنما أنت فاسق، فنزلت: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾؛ يعني بالمؤمن: عليّاً، وبالفاسق: الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

وأخرج ابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر عنه[٣] في الآية نحوه.

وروي نحو هذا عن عطاء بن يسار[٤]، والسديّ[٥]، وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى[٦].

وأخرج الفريابي، وابن منيع، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود[٧] في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قال: يوم بدر ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٧٩)، ومسلم رقم (٢/ ٢٨٢٤)، والترمذي رقم (٤٠٩٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه أبو الفرج الأصبهاني في «الأغاني» (٥/ ١٤٠)، والواحدي في «أسباب النزول» رقم (٥٠٠)، وابن عدي (٦/ ٢١٣١)، وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٨٨)، والخطيب (١٣/ ٣٢١)، وابن عساكر (٦٣/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٣/ ٢٣٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٢٥) بسند ضعيف.

(٥) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٣) إلى ابن أبي حاتم.

(٦) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١٠٩).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣٤)، والطبراني رقم (٩٠٣٨)، والحاكم (٢/ ٤١٤) بسند صحيح.

﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: يوم القيامة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: لعلّ من بقي منهم أن يتوب فيرجع.

وأخرج ابن أبي شيبة والنسائي وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن مسعود في الآية قال: العذاب الأدنى سنون أصابتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: يتوبون.

وأخرج مسلم، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وأبو عوانة في «صحيحه»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن أبيّ بن كعب[١] في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم [٣/٣٨٩] مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قال: مصائب الدنيا والروم والبطشة، والدخان.

وأخرج ابن جرير[٢] عنه قال: يوم بدر.

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٣] ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قال: الحدود ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال: يتوبون.

وأخرج ابن منيع، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه. قال السيوطي[٤] بسند ضعيف عن معاذ بن جبل[٥]: سمعت رسول الله يقول: «ثلاث من فعلهنّ فقد أجرم، مَنْ عقد لواء في غير حق، أو عقّ والديه، أو مشى مع ظالم لينصره، فقد أجرم» يقول الله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

قال ابن كثير[٦] بعد إخراجه: هذا حديث غريب.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٧٩٩)، وعبد الله بن أحمد رقم (٢١١٧٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٢٧، ٦٢٨)، والحاكم (٤/ ٤٢٧، ٤٢٨)، والبيهقي رقم (٩٨٢١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٣٠ ـ ٦٣١) بسند صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٣١) بسند حسن.

(٤) في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٥).

(٥) أخرجه أحمد بن منيع كما في «المطالب العالية» رقم (٤٠٩٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٣٥)، وابن أبي حاتم في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٠٥)، والطبراني (ج٢٠ رقم ١١٢). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

(٦) في «تفسيره» (١١/ ١٠٥).

[مواعظ وعبر]:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
(٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن
قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا
نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ
(٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: التوراة ﴿فَلَا تَكُن﴾ يا محمّد ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾؛ أي: شك وريبة ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قال الواحدي[1]: قال المفسرون: وعد رسول الله ﷺ أنه سيلقى موسى قبل أنْ يموت، ثم لقيه في السماء، أو في بيت المقدس حين أسري به. وهذا قول مجاهد، والكلبي، والسديّ. وقيل[2]: فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة، وستلقاه فيها. وقيل[3]: فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب؛ قاله الزجاج[4].

وقال الحسن[5]: إنّ معناه: ولقد آتينا موسى الكتاب، فكُذّب، وأوذي، فلا تكن في شك من أنّه سيلقاك ما لقيه من التكذيب، والأذى، فيكون الضمير في لقائه على هذا عائداً على محذوف، والمعنى: من لقاء ما لاقى موسى.

قال النحاس[6]: وهذا قول غريب.

وقيل: في الكلام تقديم[7] وتأخير، والمعنى: قل: يتوفاكم ملك الموت الذي

(١) في «الوسيط» (٣/ ٤٥٥).
(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٦٦).
(٣) نسبه الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٦٦) إلى مجاهد والزجاج.
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٠٨).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٩٦).
(٦) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٩٦).
(٧) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٤١ ـ ٤٢).

وكل بكم، فلا تكن في مرية من لقائه، فجاء معترضاً بين ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وبين ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وقيل: الضمير راجع إلى الكتاب الذي هو الفرقان كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٦] والمعنى: إنَّا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنّك لقيت مثله، ونظيره، وما أبعد هذا، ولعلّ الحامل لقائله عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فإنّ الضمير راجع إلى الكتاب.

وقيل: إنّ الضمير في لقائه عائد إلى الرجوع المفهوم من قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]؛ أي: لا تكن في مرية من لقاء الرجوع، وهذا بعيد أيضاً.

واختلف في الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾، فقيل: هو راجع إلى الكتاب؛ أي: جعلنا التوراة هُدى لبني إسرائيل، قاله الحسن، وغيره.

وقال قتادة: إنه راجع إلى موسى؛ أي: وجعلنا موسى هدى لبني إسرائيل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾؛ أي: قادةً يقتدون به في دينهم، وقرأ الكوفيون[١]: «أئمةً» قال النحاس[٢]: وهو لحن عند جميع النحويين؛ لأنّه جمع بين همزتين في كلمة واحدة.

ومعنى ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: يدعونهم إلى الهداية بما يلقونه إليه من أحكام التوراة ومواعظها بأمرنا: أي: بأمرنا لهم بذلك أو لأجل أمرنا.

وقال قتادة[٣]: المراد بالأئمة الأنبياء منهم. وقيل: العلماء.

﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ قرأ الجمهور[٤] «لَمّا» بفتح اللام، وتشديد الميم؛ أي: حين صبروا، والضمير للأئمة، وفي «لما» معنى: الجزاء[٥]، والتقدير: لما صبروا جعلناهم أئمة.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٤١). هي قراءة متواترة وبها قرأ ابن عامر وروح عن يعقوب وقرأ الباقون بتسهيل الهمزة الثانية بين بين وابدالها ياءً محضةً. «النشر» (١/ ٣٧٨).

(٢) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٩٨).

(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٢).

(٤) «التيسير» (ص١٧٧)، و«النشر» (٣/ ٣٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٤١).

(٥) «روح المعاني» (٢١/ ١٧٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٣٨٩).

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، ورويس عن يعقوب، ويحيى بن وثّاب بكسر اللام، وتخفيف[١] الميم؛ أي: جعلناهم أئمة لصبرهم، واختار هذه القراءة أبو عبيد[٢] مستدلاً بقراءة[٣] ابن مسعود: «بما صبروا» بالباء، وهذا الصبر هو صبرهم على مشاقّ التكليف والهداية للناس.

وقيل: صبروا عن الدنيا ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التنزيلية ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يصدّقونها، ويعلمون أنها حق، وأنها من عند الله لمزيد تفكرهم وكثرة تدبرهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: يقضي بينهم ويحكم بين المؤمنين والكفار ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقيل: يقضي بين الأنبياء وأممهم، حكاه النقاش[٤] ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ أي: أو لم يتبيّن لهم؟ والهمزة للإنكار، والفاعل ما دلّ عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾؛ أي: أَوْ لم نبين لهم كثرة إهلاكنا من قبلهم؟.

قال الفراء[٥]: كم في موضع رفع بـ «يهد».

وقال المبرد[٦]: إن الفاعل الهدى المدلول عليه بـ «يهد»؛ أي: أو لم يهد لهم الهدى؟

وقال الزجاج[٧]: كم في موضع نصب بأهلكنا، قرأ الجمهور: «أو لم يهد» بالتحتية[٨]، وقرأ السلمي، وقتادة، وزيد عن يعقوب[٩] بالنون، وهذه القراءة واضحة.

قال النحاس[١٠]: والقراءة بالياء التحتية فيها إشكال؛ لأنّه يقال: الفعل لا يخلو

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٤٤١)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٧١)، و«التيسير» (ص١٧٧)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧). الصواب أن خلف مع الجمهور بفتح اللّام وتشديد الميم.
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٣).
(٣) «روح المعاني» (٢١/ ١٧٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٤١)، و«جامع البيان» (١٨/ ٦٣٨).
(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٦٧).
(٥) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٢).
(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٣).   (٧) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢١١).
(٨) «البحر المحيط» (٦/ ٤٤١)، و«جامع البيان» (١٨/ ٦٣٩)، و«زاد السير» (٦/ ٣٤٤).
(٩) «القراءات الشاذة» (ص١١٨)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٩٠). هي رواية شاذة عن يعقوب.
(١٠) في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٩٨).

مِنْ فاعل فأين الفاعل ليهد؟ ويجاب عنه بأن الفاعل هو ما قدّمنا ذكره، والمراد بالقرون: عاد وثمود ونحوهم.

وجملة: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ﴾ في محل نصب[(١)] على الحال من ضمير لهم؛ أي: والحال أنهم يمشون في مساكن المُهلَكين، ويشاهدونها، وينظرون ما فيها من العبر وآثار العذاب، ولا يعتبرون بذلك، وقيل: يعود إلى المهلكين.

والمعنى: أهلكناهم حال كونهم ماشين في مساكنهم، والأوّل أولى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَأَيَٰتٍۚ﴾ عظيمات ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ها ويتعظون بها؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾؛ أي: أولم يعلموا بسوقنا الماء إلى الأرض التي لا تنبت إلا بسوق الماء إليها؟ وقيل: هي اليابسة، وأصله من الجرز، وهو: القطع؛ أي: التي قطع نباتها لعدم الماء، ولا يقال: للتي لا تنبت أصلاً كالسباخ جرز لقوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ قيل: هي أرض اليمن، وقيل: أرض عدن.

وقال الضحاك[(٢)]: هي الأرض العطشى.

وقال الفراء[(٣)]: هي الأرض التي لا نبات فيها. وقال الأصمعي[(٤)]: هي الأرض التي لا تنبت شيئاً.

قال المبرد[(٥)]: يبعد أَنْ تكون لأرض بعينها لدخول الألف واللام.

وقيل: هي مشتقة مِنْ قولهم: رجل جروز: إذا كان لا يُبقي شيئاً إلا أكله، ومنه قول الراجز[(٦)]:

خِبٌّ جَروزٌ وإذا جاع بكى ... ويأكلُ التَّمر ولا يُلقي النَّوى

وكذلك ناقة جروز: إذا كانت تأكل كل شيء تجده.

وقال مجاهد[(٧)]: إنها أرض النيل؛ لأن الماء إنما يأتيها في كل عام ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾: أي: بالماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾؛ أي: من الزرع كالتبن، والورق

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ١٧١)، و«التبيان» (٢/ ٩٠٨).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٤). (٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٣).
(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٩٩).
(٥) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٢٩٩).
(٦) قائله: الشماخ. انظر: «ديوانه» (ص٣٨٠ ـ ٣٨١).
(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٥).

ونحوهما مما لا يأكله الناس ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾؛ أي: يأكلون الحبوب الخارجة في الزرع مما يقتاتونه.

وجملة: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ في محلّ نصب على الحال ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذه النعم، ويشكرون المنعم، ويوحدونه لكونه المنفرد بإيجاد ذلك؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ القائلون هم الكفار على العموم، أو كفار مكة على الخصوص؛ أي: متى الفتح الذي تعدونا به؟ يعنون بالفتح: القضاء، والفصل بين العباد، وهو يوم البعث الذي يقضي الله فيه بين عباده، قاله مجاهد(١) وغيره.

وقال الفراء(٢) والقتيبي(٣): هو فتح مكة.

قال قتادة(٤): قال أصحاب النبيّ ﷺ للكفار: إن لنا يوماً ننعم فيه ونستريح، ويحكم الله بيننا وبينكم؛ يعنون: يوم القيامة، فقال الكفار: متى هذا الفتح؟

وقال السديّ(٥): هو يوم بدر؛ لأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون للكفار: إن الله ناصرنا ومظهرنا عليكم.

و«متى» في قوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ في موضع(٦) رفع، أو في موضع نصب على الظرفية.

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وفي هذا دليل على أن يوم الفتح هو يوم القيامة؛ لأنّ يوم فتح مكة، ويوم بدر هما مما ينفع فيه الإيمان، وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح، وقبل ذلك منهم النبيّ ﷺ، ومعنى ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: لا يُمهلون ولا يؤخرون و﴿يَوْمَ﴾ في ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ منصوب(٧) على الظرفية، وأجاز الفراء الرفع(٨).

---

(١) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٣١٤).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٣) (٣) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣٤٧).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٤٤) بسند صحيح.
(٥) انظر: «النكت والعيون» (٤/ ٣٦٨).
(٦) «الفريد» (٤/ ٢٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٩).
(٧) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٩). (٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٣).

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: عن سفههم وتكذيبهم ولا تجبهم إلا بما أمرت به ﴿وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾؛ أي: وانتظر يوم الفتح، وهو: يوم القيامة أو يوم إهلاكهم بالقتل إنّهم منتظرون بك حوادث الزمان مِنْ موت أو قتل أو غلبة كقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢] ويجوز أَنْ يراد: إنهم منتظرون لإهلاكهم، والآية منسوخة[١] بآية السيف.

وقيل: غير منسوخة، إذْ قد يقع الإعراض مع الأمر بالقتال.

وقرأ ابن السميفع «إنّهم مُنتظَرون» بفتح[٢] الظاء مبنيّاً للمفعول، ورويت هذه القراءة عن مجاهد وابن محيصن.

قال الفراء[٣]: لا يصح هذا إلا بإضمار؛ أي: إنهم منتظر بهم. قال أبو حاتم[٤]: الصحيح الكسر؛ أي: انتظر عذابهم إنهم منتظرون هلاكك.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث ابن عباس[٥] قال: قال النبي ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق [٣/٣٩٠] إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكاً خازن جهنم، والدجال في آياتٍ أراهنّ الله إياي» قال: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ فكان قتادة يفسرها: أن النبي ﷺ قد لقي موسى. ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل.

وأخرج الطبراني، وابن مردويه، والضياء في المختارة بسند قال السيوطي[٦]: صحيح عن ابن عباس[٧]، عن النبي ﷺ ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ قال: من لقاء موسى، قيل: أَوَ لقي موسى؟ قال: نعم، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥].

---

(١) «جامع البيان» (١٨/ ٦٤٤ ـ ٦٤٥)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٨١).
(٢) «المحتسب» (٢/ ١٧٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٤٢).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٧).
(٤) ذكره ابن جني في «المحتسب» (٢/ ١٧٥).
(٥) أخرجه البخاري رقم (٣٢٣٩)، ومسلم رقم (١٦٥)، والطبراني رقم (١٢٧٤٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٨٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٣٦) من طرق.
(٦) في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٦).
(٧) أخرجه الطبراني رقم (١٢٧٥٨)، والضياء في «المختارة» (١٠/ ٣٤، ٣٥ رقم ٢٧ ـ ٢٩).

وأخرج الفريابي، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[1] في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ قال: الجرز التي لا تُمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم[2] عنه في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ قال: أرض باليمن.

قال القرطبي[3] في «تفسيره»: والإسناد عن ابن عباس صحيح لا مطعن فيه.

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس[4] في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: يوم بدر فتح للنبي ﷺ، فلم ينفع الذين كفروا إيمانهم بعد الموت.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الفريابي كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٨٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٤٢) بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٦٤١ ـ ٦٤٢) بسند صحيح.

(٣) في «تفسيره» (١٧/ ٤٤).

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١٤، ٤١٥).

سُورَةُ الأَحْزَابِ

هي ثلاث وسبعون آية، وهي مدنية.

أخرج ابن الضُّرَيس، والنحاس، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» من طرق عن ابن عباس[١] قال: نزلت سورة الأحزاب بالمدينة.

وأخرج ابن مردويه[٢] عن ابن الزبير مثله.

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف»، والطيالسي، وسعيد بن منصور، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن منيع، والنسائي، وابن المنذر، وابن الأنباري في «المصاحف»، والدارقطني في الإفراد، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في «المختارة» عن زرّ[٣] قال: قال لي أبيّ بن كعب: كأين تقرأ سورة الأحزاب، أو كأين تعدّها، قلت: ثلاثاً وسبعين آية، فقال: أقط؟ لقد رأيتها، وإنها لتعادل سورة البقرة، أو أكثر من سورة البقرة، ولقد قرأنا فيها «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم» فرفع فيما رفع. قال ابن كثير[٤]: وإسناده حسن.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عباس[٥]: أن عمر بن الخطاب قام، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس إن الله بعث محمَّداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فقرأناها، ووعيناها

---

(١) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» رقم (١٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٤٣، ١٤٤).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق رقم (١٣٣٦٢)، والطيالسي رقم (٥٤٢)، وعبد الله بن أحمد رقم (٢١٢٠٦، ٢١٢٠٧)، وابن أبي عمر كما في «الإتحاف بذيل المطالب» رقم (٥٣٨٨)، والنسائي في «السنن» (٧١٥٠)، وابن حبان رقم (٤٤٢٨، ٤٤٢٩)، والحاكم (٢/ ٤١٥)، (٤/ ٣٥٩)، وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٩٤)، والضياء رقم (١١٦٤ ـ ١١٦٦) بسند حسن.

(٤) في «تفسيره» (١١/ ١١١).

(٥) أخرجه البخاري رقم (٦٨٣٠)، ومسلم رقم (١٦٩١)، ومالك (٢/ ٨٢٣).

«الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، ورجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله.

وقد روي عنه نحو هذا من طرق.

وأخرج ابن مردويه[١] عن حذيفة قال: قال لي عمر بن الخطاب: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قلتُ: ثنتين، أو ثلاثاً وسبعين؛ قال: إن كانت لتقارب سورة البقرة، وإن كان فيها لآية الرجم.

وأخرج البخاري في «تاريخه» عن حذيفة[٢] قال: قرأت سورة الأحزاب على رسول الله ﷺ، فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها.

وأخرج أبو عبيد في «الفضائل»، وابن الأنباري، وابن مردويه عن عائشة[٣] قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبي ﷺ مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم يقرر منها إلا على ما هو الآن.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ
مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى
ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ
وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ
كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٥٥٩).
(٢) أخرجه البخاري في «تاريخه» (٤/٢٤١).
(٣) أخرجه أبو عبيد في «فضائله» (ص١٩٠).

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ أي: دُمْ على ذلك وازدد منه ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة ومَنْ هو على مثل كفرهم ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾؛ أي: الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر.

قال الواحدي[١]: إنّه أراد سبحانه بالكافرين أبا سفيان، وعكرمة، وأبا الأعور[٢] السلمي، وذلك أنهم قالوا للنبيّ ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها. قال: ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

وسيأتي آخر البحث بيان سبب نزول الآية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: كثير العلم والحكمة بليغهما.

قال النحاس[٣]: ودلّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ على أنه كان يميل إليهم؛ يعني: النبي ﷺ استدعاء لهم إلى الإسلام، والمعنى: أن الله ﷻ لو علم أن ميلك إليهم فيه منفعة لما نهاك عنهم؛ لأنّه حكيم.

ولا يخفى بُعد هذه الدلالة التي زعمها، ولكن هذه الجملة تعليل لجملة الأمر بالتقوى. والنهي عَنْ طاعة الكافرين، والمنافقين.

[الله سبحانه يأمر وينهى لحكمة وإن خفيتْ]:

والمعنى: أنّه لا يأمرك أو ينهاك إلا بما علم فيه صلاحاً أو فساداً لكثرة علمه وسعة حكمته ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِنْ القرآن؛ أي: اتبع الوحي في كل أمورك، ولا تتبع شيئاً مما عداه من مشورات الكافرين، والمنافقين، ولا من الرأي البحت، فإنّ فيما أوحي إليك ما يغنيك عن ذلك.

وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تعليل لأمره باتِّباع ما أوحى إليك، والأمر له ﷺ أمر لأمته، فهم مأمورون باتِّباع القرآن كما هو مأمور باتِّباعه، ولهذا

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ٤٥٧).

(٢) أبو الأعور السلمي: عمرو بن سفيان بن عبد شمس بن سعد السلمي، مشهور بكنيته، أسلم بعد حنين. «أسد الغابة» (٤/ ٢٣٢).

(٣) في «إعراب القرآن» (٣/ ٣٠١).

جاء بخطابه، وخطابهم في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على قراءة الجمهور بالفوقية[١] للخطاب، واختار هذه القراءة أبو عبيد[٢] وأبو حاتم.

وقرأ أبو عَمْرو، والسلمي، وابن أبي إسحاق بالتحتية[٣] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: اعتمد عليه وفوّض أمورك إليه، وكفى به حافظاً يحفظ مَنْ توكل عليه.

ثم ذكر سبحانه مثلاً توطئة وتمهيداً لما يتعقبه من الأحكام القرآنية التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه، فقال: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ﴾.

وقد اختلف في سبب نزول هذه الآية كما سيأتي، وقيل: هي مثل ضربه الله للمظاهر[٤]؛ أي: كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المُظاهر أمه حتى يكون له أمَّان، وكذلك لا يكون الدعيّ ابناً لرجلين.

وقيل[٥]: كان الواحد من المنافقين يقول: لي قلب يأمرني بكذا وقلب بكذا، فنزلت الآية لردّ النفاق، وبيان أنه لا يجتمع مع الإسلام كما لا يجتمع قلبان، والقلب بَضْعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها الله، وجعلها محلّاً للعلم.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ﴾، قرأ الكوفيون، وابن عامر: «اللائي» بياء ساكنة[٦] بعد همزة، وقرأ أبو عَمْرو، والبزي بياء ساكنة[٧] بعد ألف محضة.

قال أبو عمرو بن العلاء[٨]: إنّها لغة قريش التي أمر الناس أن يقرءوا بها،

---

(١) «التيسير» (ص١٧٧)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩٣).
(٢) انظر: المصادر المتقدمة.
(٣) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٥١). وهما قراءتان متواترتان.
(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٣١٠٦) عن الزهري ومقاتل.
(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٥٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٤٩٢).
(٦) «النشر» (١/ ٤٠٤)، و«التيسير» (ص١٧٧)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩٣)، و«التبيان» (٢/ ١٠٥١).
(٧) انظر: المصادر المتقدمة.
(٨) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٤٥٢).

وقرأ قُنبل، وورش بهمزة مكسورة[١] بدون ياء.

[أوجه قراءة ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾]:

قرأ عاصم: «تُظاهرون» بضم الفوقية[٢]، وكسر الهاء بعد ألف مضارع ظاهر، وقرأ ابن عامر بفتح الفوقية[٣]، والهاء، وتشديد الظاء مضارع تظاهر، والأصل تتظاهرون، وقرأ الباقون[٤]: «تَظّهرون» بفتح الفوقية، وتشديد الظاء بدون ألف، والأصل: تتظهرون، والظهار مشتق مِنْ الظهر، وأصله أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي.

والمعنى: وما جعل الله نساءكم اللائي تقولون لهنّ هذا القول كأمهاتكم في التحريم، ولكنّه منكر مِنْ القول وزور، كذلك ﴿مَّا جَعَلَ﴾ الأدعياء الذين تدّعون أنّهم ﴿أَبْنَآءَكُمْۚ﴾ أبناء لكم، والأدعياء جمع دعيّ، وهو الذي يدعي ابناً لغير أبيه، وسيأتي الكلام في الظهار في سورة المجادلة.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى ما تقدّم من ذكر الظهار، والادعاء، وهو مبتدأ، وخبره ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ﴾؛ أي: ليس ذلك إلا مجرد قول بالأفواه، ولا تأثير له، فلا تصير المرأة به أمّاً ولا ابن الغير به ابناً، ولا يترتب على ذلك شيء من أحكام الأمومة والبنوّة.

وقيل: الإشارة راجعة إلى الادّعاء؛ أي: ادّعاؤكم أنّ أبناء الغير أبناؤكم لا حقيقة له[٥]؛ بل هو مجرّد قول بالفم ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ الذي يحقّ اتباعه لكونه حقّاً في نفسه لا باطلاً، فيدخل تحته دعاء الأبناء لآبائهم ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾؛

---

(١) «التيسير» (ص١٧٧ ـ ١٧٨)، و«النشر» (١/ ٤٠٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٢). ومع قنبل قالون ويعقوب.

(٢) «روح المعاني» (٢١/ ١٨٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٢).

(٣) «النشر» (٢/ ٣٤٧)، و«التيسير» (ص١٧٨).

(٤) «روح المعاني» (٢١/ ١٨٨)، و«التيسير» (ص١٧٨)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٢). كما ذكر المؤلف في عزوه لقراءة عاصم وابن عامر لكن تبقى قراءة أخرى وهي لحمزة والكسائي وخلف تظاهرون كقراءة ابن عامر لكن مع تخفيف الظاء والرابعة ما ذكره المؤلف من (تَظّهرون) بتشديد الظاء بدون ألف.

(٥) «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٨٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ١٨٩).

أي: يدلّ على الطريق الموصلة إلى الحق، وفي هذا إرشاد للعباد إلى قول الحق وترك قول الباطل والزور.

ثم صرّح سبحانه بما يجب على العباد من دُعاء الأبناء للآباء، فقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ للصُّلب وانسبوهم إليهم، ولا تدعوهم إلى غيرهم، وجملة: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعليل للأمر بدعاء الأبناء للآباء، والضمير راجع إلى مصدر ادعوهم.

ومعنى أقسط: أعدل؛ أي: أعدل كلّ كلام يتعلق بذلك، فترك الإضافة للعموم كقوله: الله أكبر، وقد يكون المضاف إليه مقدّراً خاصّاً؛ أي: أعدل من قولكم: هو ابن فلان ولم يكن ابنه لصلبه.

ثم تمّم سبحانه الإرشاد للعباد، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾؛ أي: فهم إخوانُكم في الدين وهم مواليكم، فقولوا: أخي ومولاي، ولا تقولوا: ابن فلان حيثُ لم تعلموا آباءهم على الحقيقة.

قال الزجاج(١): ويجوز: أن يكون مواليكم أولياءكم في الدين.

وقيل(٢): المعنى: فإن كانوا مُحرّرين، ولم يكونوا أحراراً، فقولوا: موالي فلان [٣/٣٩١].

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: لا إثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد، ﴿وَلَٰكِن﴾ الإثم في ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، وهو ما قلتموه على طريقة العمد مِنْ نسبة الأبناء إلى غير آبائهم مع علمكم بذلك.

قال قتادة(٣): لو دعوتَ رجلاً لغير أبيه، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر للمخطئ ويرحمه ويتجاوز عنه، أو غفوراً للذنوب رحيماً بالعباد، ومَنْ جملة من يغفر له ويرحمه مَنْ دعا رجلاً لغير أبيه خطأً، أو قبل النهي عن ذلك.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢١٥).

(٢) «روح المعاني» (٢١/ ١٩١ ـ ١٩٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١١) بسند صحيح.

ثم ذكر سبحانه لرسوله مزيةً عظيمة، وخصوصية جليلة لا يشاركه فيها أحد من العباد، فقال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: هو أحقّ بهم في كلّ أمور الدين والدنيا وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده مِنْ أموالهم، وإنْ كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبِّهم أنفسهم، ويجب عليهم أن يقدّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم، وبالجملة فإذا دعاهم النبيّ ﷺ لشيء ودعتهم أنفسُهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدّموا ما دعاهم إليه، ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرهم.

وقيل: المراد بأنفسهم في الآية بعضهم(١)، فيكون المعنى: أن النبيّ أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض. وقيل: هي خاصة بالقضاء؛ أي: هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى به بينهم. وقيل: أولى بهم في الجهاد بين يديه، وبذل النفس دونه، والأوّل أولى.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾؛ أي: مثل أمهاتهم في الحكم بالتحريم، ومنزّلات منزلتهنّ في استحقاق التعظيم، فلا يحلّ لأحد أَنْ يتزوج بواحدة منهنّ كما لا يحلّ له أن يتزوج بأمِّه، فهذه الأمومة مختصة بتحريم النكاح لهنّ وبالتعظيم لجنابهنّ، وتخصيص المؤمنين يدلّ على أَنهنّ لسن أمهات نساء المؤمنين، ولا بناتهنّ أخوات المؤمنين، ولا أخوتهنّ أخوال المؤمنين.

وقال القرطبي(٢): الذي يظهر لي أنهنّ أمهات الرجال والنساء تعظيماً لحقهنّ على الرجال، والنساء كما يدلّ عليه قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة.

قال(٣): ثم إن في مصحف أبيّ بن كعب «وأزواجه أمهاتهم، وهو أب لهم»، وقرأ ابن عباس(٤): «أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب وأزواجه أمهاتهم»(٥)، ثم

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٤٩ ـ ٥٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٦٢).
(٢) في «تفسيره» (١٧/ ٦٣).
(٣) القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٦٣).
(٤) «القراءات الشاذة» (ص١١٩).
(٥) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٥٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٦٣). وقراءة أبيّ وابن عباس شاذتان لمخالفة الرسم.

بيَّن سبحانه: أن القرابة أولى ببعضهم البعض، فقال: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ المراد بأولي الأرحام القرابات؛ أي: هم أحقّ ببعضهم البعض في الميراث.

وقد تقدّم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنفال، وهي ناسخة[١] لما كان في صدر الإسلام مِنْ التوارث بالهجرة والموالاة.

قال قتادة[٢]: لما نزل قوله سبحانه في سورة الأنفال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ [الأنفال: ٧٢]، فتوارث المسلمون بالهجرة، ثم نسخ ذلك بهذه الآية، وكذا قال غيره.

وقيل: إن هذه الآية ناسخة[٣] للتوارث بالحلف والمؤاخاة في الدين.

و﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يجوز: أَنْ يتعلق بأفعل التفضيل في قوله: ﴿أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾؛ لأنَّه يعمل في الظرف، ويجوز: أن يتعلق بمحذوف هو حال من الضمير؛ أي: كائناً في كتاب الله، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن أو آية المواريث، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يجوز أن يكون بياناً ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾.

والمعنى: أن ذوي القرابات من المؤمنين ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بعضهم أولى ببعض، ويجوز أن يتعلق بأولى؛ أي: وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين الذين هم أجانب.

وقيل[٤]: إنّ معنى الآية: وأولوا الأرحام ببعضهم أولى ببعض: إلا ما يجوز لأزواج النبيّ ﷺ من كونهم كالأمهات في تحريم النكاح، وفي هذا من الضعف ما لا يخفى ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ﴾ هذا الاستثناء إما متصل[٥] من أعمّ العام.

والتقدير: وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعض في كل شيء من الإرث، وغيره إلا أَنْ تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً من صدقةٍ أو وصية فإن ذلك جائز. قاله قتادة[٥] والحسن وعطاء.

---

(١) «جامع البيان» (١١/ ٢٩٢)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٩٤)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٧٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ٢٩٢) بسند صحيح.

(٣) «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٢٩٤).

(٤) ذكره المهدويُّ، كما في «تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٥)

(٥) ذكره عنهم ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٥١).

وقال محمد بن الحنفية[١]: نزلت في إجازة الوصية لليهودي والنصراني.

فالكافر وليّ في النّسب لا في الدين، فتجوز الوصية له، ويجوز أن يكون منقطعاً، والمعنى: لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به، ومعنى الآية: أن الله سبحانه لما نسخ التوارث بالحلف والهجرة أباح أن يوصى لهم.

وقال مجاهد[٢]: أراد بالمعروف النصرة، وحفظ الحرمة بحق الإيمان، والهجرة.

والإشارة بقوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم ذكره؛ أي: كان نسخ الميراث بالهجرة، والمحالفة والمعاقدة وردّه إلى ذوي الأرحام من القرابات ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾؛ أي: في اللّوح المحفوظ[٣] أو في القرآن مكتوباً.

وقد أخرج أحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والضياء في «المختارة» عن ابن عباس[٤] قال: قام النبيّ ﷺ يوماً يصلي، فخطر خطرة، فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترى أن له قلبين قلباً معكم، وقلباً معهم؟ فنزل: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾.

وأخرج ابن مردويه[٥] عنه من طريق أخرى بلفظ: صلى لله النبيّ ﷺ صلاة، فسها فيها، فخطرت منه كلمة، فسمعها المنافقون، فقالوا: إن له قلبين، فنزلت.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عنه[٦] أيضاً قال: كان رجل من قريش يسمى من دهائه ذا القلبين، فأنزل الله هذا في شأنه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/١٩) من طريق أبي معاوية، به.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٢٠) بسند صحيح.
(٣) «جامع البيان» (٩/ ٢١).
(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٤١٠)، والترمذي رقم (٣١٩٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٧)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١١٣)، والحاكم (٢/ ٤١٥)، والضياء (٩/ ٥٣٩ ـ ٥٤١ رقم ٥٢٨ ـ ٥٣١) بسند ضعيف.
(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦١).
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٧) بسند ضعيف.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن ابن عمر[1]: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنّا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ: «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل».

وأخرج البخاري، وغيره عَنْ أبي هريرة[2]، عن النبيّ ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ فأيّما مؤمن ترك مالاً فلترثه عصبته مَنْ كانوا، فإن ترك دَيْناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه».

وأخرج أحمد، وأبو داود، وابن مردويه من حديث جابر[3] نحوه.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والنسائي عن بريدة[4] قال: «غزوت مع عليّ إلى اليمن، فرأيت منه جفوةً، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت عليّاً، فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله ﷺ تغير، وقال: يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: مَنْ كنتُ مولاه فعليّ مولاه».

وقد ثبت في «الصحيح»[5]: أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه، وماله، وولده، والناس أجمعين».

وأخرج ابن سعد، وابن المنذر، والبيهقي في «سننه» عن عائشة[6]: أن امرأة قالت لها: يا أمه، فقالت: أنا أمّ رجالكم، ولستُ أمّ نسائكم.

وأخرج ابنُ سعد[7] عَنْ أم سلمة قالت: أنا أمّ الرجال منكم والنساء.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وإسحاق بن راهويه، وابن المنذر،

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٨٢)، ومسلم رقم (٢٤٥٢)، والترمذي رقم (٣٢٠٩) و(٣٨١٤)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٣٩٦، ١١٣٩٧)، والبيهقي (٧/ ١٦١)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٣٩٩، ٤٧٨١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٥).

(٣) أخرجه أحمد رقم (١٤١٥٨)، وأبو داود رقم (٢٩٥٦، ٣٣٤٣). وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٢٩٤٥)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٨٣، ٨٤)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٨١٤٥) بسند صحيح.

(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٦٩/ ٤٤) من حديث أنس بمعناه.

(٦) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٧٨، ١٧٩، ٢٠٠)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ٧٠).

(٧) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٧٩، ٢٠٠).

والبيهقي في دلائله عن بجالة[١] قال: مرّ عمر بن الخطاب بغلام، وهو يقرأ[٢] في المصحف «النبيّ أولى بالمؤمنين مِنْ أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»، فقال: يا غلام حكها، فقال: هذا مصحف أبيّ، فذهب إليه فسأله، فقال: إنه كان يلهيني القرآن ويلهيك الصفق في الأسواق.

وأخرج الفريابي، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن ابن عباس[٣]: أنه كان يقرأ «النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم»[٤].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

[غزوة الخندق أو الأحزاب]:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١٢)، وفي «المصنف» رقم (١٨٧٤٨)، وإسحاق بن راهويه كما في «المطالب العالية» رقم (٤٠٦٤)، والبيهقي (٧/ ٦٩).

(٢) وهي قراءة شاذة لمخالفتها رسم المصحف.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤١٥)، والبيهقي في «سننه» (٧/ ٦٩).

(٤) وهي قراءة شاذة لمخالفتها رسم المصحف.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ العامل في الظرف محذوف؛ أي: واذكر، كأنّه قال: يا أيها النبي اتق الله، واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيّين. قال قتادة(١): أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً أن يصدّق بعضُهم بعضاً ويتبع بعضهم بعضاً.

وقال مقاتل(٢): أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأن ينصحوا لقومهم. والميثاق هو اليمين.

وقيل: هو: الإقرار بالله، والأوّل أولى، وقد سبق تحقيقه.

ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم، ولغيرهم، فقال: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد(٣) شرفٍ وفضلٍ لكونهم مِنْ أصحاب الشرائع المشهورة، ومن أولي العزم مِنْ الرسل، وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى.

قال الزجاج(٤): وأخذ الميثاق حيث أُخرجوا مِنْ صُلْب آدم كالذرّ.

ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره، ووصفه بالغلظ، فقال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾؛ أي: عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا، وما أخذه الله عليهم.

ويجوز: أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرّتين، فأخذ عليهم في المرّة الأولى مجرّد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانياً مغلَّظاً مشدّداً، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، واللام في قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [٣/٣٩٢] يجوز أن تكون لام كي(٥)؛ أي: لكي

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/٢٣) بسند صحيح.
(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/٤٥٩).
(٣) «روح المعاني» (٢١/٢٠٥)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٣٩٦).
(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/٢١٦).
(٥) «روح المعاني» (٢١/٢٠٧)، و«البحر المحيط» (٨/٤٥٥).

يسأل الصادقين من النبيين عن صدقهم في تبليغ الرسالة إلى قومهم وفي هذا وعيد لغيرهم؛ لأنّهم إذا كانوا يُسألون عن ذلك فكيف غيرهم؟

وقيل: ليسأل الأنبياء عمَّا[١] أجابهم به قومهم كما في قوله: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أي: فعل ذلك ليسأل: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ معطوف[٢] على ما دل عليه ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ إذ التقدير: أثاب الصادقين وأعدّ للكافرين، ويجوز أن يكون معطوفاً على أخذنا؛ لأن المعنى: أكّد على الأنبياء الدعوة إلى دينه ليثيب المؤمنين وأعدّ للكافرين. وقيل: إنه قد حذف من الثاني ما أثبت مقابله في الأوّل ومن الأوّل ما أثبت مقابله في الثاني.

والتقدير: ليسأل الصادقين عن صدقهم فأثابهم، ويسأل الكافرين عمَّا أجابوا به رسلهم وأعدّ لهم عذاباً أليماً. وقيل: إنه معطوف على المقدّر عاملاً في ليسأل كما ذكرنا، ويجوز[٣] أنْ يكون الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، وتكون جملة: ﴿وَأَعَدَّ﴾ لهم، مستأنفة لبيان ما أعدّه للكفار ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معها خوف من أحد، وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بالنعمة إن كانت مصدراً، أو بمحذوف هو حال؛ أي: كائنة عليكم، ومعنى ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾: حين جاءتكم جنود، وهو ظرف للنعمة، أو للمقدّر عاملاً في ﴿عَلَيْكُمْ﴾، أو لمحذوف هو اذكر.

والمراد بالجنود: جنود الأحزاب الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ وغزوه إلى المدينة وهي الغزوة المسماة «غزوة الخندق»، وهم: أبو سفيان بن حرب بقريش، ومَنْ معهم من الألفاف، وعيينة بن حصن الفزاري، ومن معه من قومه غطفان، وبنو قُريظة والنضير، فضايقوا المسلمين مضايقة شديدة كما وصف الله سبحانه في هذه الآيات، وكانت هذه الغزوة في شوّال سنة خمس من الهجرة. قاله ابن إسحاق[٤].

---

(١) «البحر المحيط» (٨/٤٥٦).

(٢) «الفريد» (٤/ ٣٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨)، و«الكشاف» (٤/ ٥٢).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٤٥٦)، و«الفريد» (٤/ ٣٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (٨/ ٤٥٦).

وقال ابن وهب، وابن القاسم عن مالك[١]: كانت في سنة أربع. وقد بسط أهل السير في هذه الوقعة ما هو معروف، فلا نطيل بذكرها. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ معطوف على جاءتكم.

قال مجاهد[٢]: هي: الصَّبا أرسلت على الأحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم، ونزعت فساطيطهم، ويدلّ على هذا ما ثبت عنه ﷺ من قوله: «نصرت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدبور»[٣]، والمراد بقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ الملائكة.

قال المفسرون[٤]: بعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيل بعضها في بعض، وأرسل الله عليهم الرعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر حتى كان سيد[٥] كل قوم يقول لقومه: يا بني فلان هلمّ إليّ، فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ قرأ الجمهور[٦] «تعملون» بالفوقية؛ أي: بما تعملون أيها المسلمون من ترتيب الحرب وحفر الخندق واستنصاركم به وتوكلكم عليه، وقرأ أبو عمرو بالتحتية[٧]؛ أي: بما يعمله الكفار من العناد لله ولرسوله والتحزّب على المسلمين، واجتماعهم عليهم من كل جهة ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ «إذ» هذه، وما بعدها بَدل[٨] من «إذ» الأولى، والعامل في هذه هو العامل في تلك، وقيل: منصوبة بمحذوف هو اذكر.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٣٩٧) وقال: «لا اختلاف بينهم في الحقيقة... فمن قال سنة أربع، أراد بعد أربع سنين وقبل بلوغ الخمس، ومن قال: سنة خمس، أراد بعد الدخول في السنة الخامسة وقبل انقضائها».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٨) بسند صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٣)، والبخاري رقم (١٠٣٥)، ومسلم رقم (١٧/ ٩٠٠) كلهم من حديث ابن عباس ﷺ.

(٤) «جامع البيان» (١٨/ ٢٩)، و«الوسيط» (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦١)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٧١ ـ ٧٣).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٢٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١٣) عن قتادة بسند صحيح.

(٦) «زاد المسير» (٦/ ٣٥٧)، و«التيسير» (ص١٧٧)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧).

(٧) انظر: المصادر المتقدمة.

(٨) «التبيان» (٢/ ١٠٥٣)، و«الفريد» (٤/ ٣٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢١١).

ومعنى ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾: مِنْ أعلى الوادي، وهو من جهة المشرق، والذين جاءوا من هذه الجهة هم غَطَفان، وسيدهم عُيينة بن حصن وهوازن وسيدهم عوف بن مالك وأهل نَجْد وسيدهم طليحة بن خويلد الأسدي، وانضمّ إليهم عوف بن مالك وبنو النضير.

ومعنى ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾: مِنْ أسفل الوادي من جهة المغرب من ناحية مكة، وهم قريش، ومَنْ معهم مِنْ الأحابيش وسيدهم أبو سفيان بن حرب وجاء أبو الأعور السلمي، ومعه حييّ بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة من وجه الخندق، ومعهم عامر بن الطفيل.

وجملة: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ معطوفة على ما قبلها؛ أي: مالت عن كل شيء فلم تنظر إلّا إلى عدوّها مقبلاً من كل جانب(١).

وقيل: شخصت دهشاً من فرط الهول والحيرة.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ جمع حَنْجرة وهي جوف الحلقوم؛ أي: ارتفعت القلوب عَنْ مكانها، ووصلت من الفزع والخوف إلى الحناجر، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها، وهو الذي نهايته الحنجرة لخرجت، كذا قال قتادة(٢). وقيل: هو على طريق المبالغة المعهودة(٣) في كلام العرب، وإن لم ترتفع القلوب إلى ذلك المكان، ولا خرجت عَنْ موضعها ولكنه مثل في اضطرابها، وجبنها.

قال الفراء(٤): والمعنى: أنهم جبنوا وجزع أكثرهم، وسبيل الجبان إذا اشتدّ خوفه أن تنتفخ رئته، فإذا انتفخت الرئة ارتفع القلب إلى الحنجرة، ولهذا يقال للجبان: انتفخ سَحْره. ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾؛ أي: الظنون المختلفة فبعضهم ظنّ النصر ورجا الظفر وبعضهم ظنّ خلاف ذلك.

وقال الحسن(٥): ظنّ المنافقون أنّه يستأصل محمد وأصحابه وظنّ المؤمنون أنه ينصر.

---

(١) «النكت والعيون» (٤/ ٣٧٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢١٠)، و«السيرة النبوية» (٢/ ٢١٤ ـ ٢٢٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١٣) بسند صحيح.

(٣) «الوسيط» (٣/ ٤٦١)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢١٢).

(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٦١).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٣٥ ـ ٣٦) بسند حسن.

وقيل[١]: الآية خطاب للمنافقين والأولى ما قاله الحسن. فيكون الخطاب لمن أظهر الإسلام على الإطلاق أعمّ مَنْ أن يكون مؤمناً في الواقع أو منافقاً.

واختلف القراء في هذه الألف في «الظُّنونا»: فأثبتها وصلاً[٢] ووقفاً نافع، وابن عامر، وأبو بكر، ورُويت هذه القراءة عَنْ أبي عمرو، والكسائي، وتمسكوا بخط المصحف العثماني، وجميع المصاحف في جميع البلدان، فإن الألف فيها كلها ثابتة، واختار هذه القراءة أبو عُبيد[٣] إلا أنه قال: لا ينبغي للقارئ أن يدرج القراءة بعدهنّ بل يقف عليهنّ، وتمسكوا أيضاً بما في أشعار العرب من مثل هذا.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والجحدري، ويعقوب بحذفها[٤] في الوصل والوقف معاً، وقالوا: هي من زيادات الخط، فكتبت كذلك، ولا ينبغي النطق بها. وأما في الشعر، فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره.

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وابن محيصن بإثباتها وقفاً[٥] وحذفها وصلاً، وهذه القراءة راجحة باعتبار اللّغة العربية، وهذه الألف هي التي تسميها النحاة ألف الإطلاق، والكلام فيها معروف في علم النحو.

وهكذا اختلف القراء في الألف التي في قوله: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦]، و﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] كما سيأتي آخر هذه السورة.

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الظرف منتصب بالفعل الذي بعده. وقيل: بتظنون، واستضعفه ابن عطية[٦].

وهو ظرف مكان، يقال: للمكان البعيد: هنالك كما يقال: للمكان القريب: هنا، وللمتوسط: هناك. وقد يكون ظرف زمان؛ أي: عند ذلك الوقت ابتلي

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٩٣).
(٢) «التيسير» (ص١٧٨)، و«جامع البيان» (١٨/ ٣٦)، و«النشر» (٢/ ٣٤٧)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩٤ ـ ١٩٥).
(٣) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٩٣).
(٤) «التيسير» (ص١٧٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٩)، و«جامع البيان» (١٨/ ٣٦). هي ثلاث قراءات متواترة فمنهم مَنْ أثبتها وقفاً ووصلاً أبو جعفر وبحذفها وصلاً ووقفاً يعقوب، وبإثباتها وقفاً لا وصلاً حفص وخلف أما الرواية عن أبي عمرو والكسائي بإثباتها في الحالين فشاذ. انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٧).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٥٥).

المؤمنون، ومنه قول الشاعر[١]:

وإذا الأُمُورَ تعاظمتْ وتشاكلتْ فهُناك[٢] يَعترفون أينَ المَفزعُ؟

أي: في ذلك الوقت، والمعنى: أن في ذلك المكان، أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف والقتال والجوع والحصر والنزال؛ ليتبيّن المؤمن من المنافق ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ قرأ الجمهور[٣] «زُلزِلوا» بضم الزاي الأولى، وكسر الثانية على ما هو الأصل في المبنيّ للمفعول، وروي عن أبي عمرو: أنه قرأ بكسر الأولى[٤].

وروى الزمخشري[٥] عنه أنَّه قرأ بإشمامها كسراً، وقرأ الجمهور[٦] «زِلْزالاً» بكسر الزاي الأولى، وقرأ عاصم والجحدري، وعيسى بن عمر بفتحها[٧].

قال الزجاج[٨]: كل مصدر من المضاعف على فَعْلال يجوز فيه الكسر والفتح: نحو قلقلته قَلِقالاً، وزلزلوا زلزالاً، والكسر أجود.

قال ابن سلام[٩]: معنى زلزلوا: حرّكوا بالخوف تحريكاً شديداً.

وقال الضحاك[١٠]: هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق.

وقيل: المعنى: أنهم اضطربوا اضطراباً مختلفاً، فمنهم من اضطرب في نفسه،

---

(١) هو: الأفوه الأودي، والأفوه لقب له؛ لأنه غليظ الشفتين، ظاهر الأسنان، واسمه: صلاءة بن عمرو بن مالك. انظر: «ديوانه» (ص١٩).

(٢) استشهد به على أنَّ «هناك» قد يشار بها إلى الزّمان، وأصل وضعه في الإشارة إلى المكان. «تلخيص الشواهد» (ص١٢٨)، و«المقاصد النحوية» (١/ ٤٢١).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٤٥٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢١٤)، و«الكشاف» (٥/ ٥٤ ـ ٥٥).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٤٥٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢١٤).

(٥) في «الكشاف» (٥/ ٥٤ ـ ٥٥). المتواتر عن لبي عمرو كباقي العشرة بضم الزاي الأولى، ورواية الكسر أو اشمامها كسراً فشاذ.

(٦) «البحر المحيط» (٨/ ٤٥٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢١٤).

(٧) «القراءات الشاذة» (ص١١٨)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢١٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٥٩). القراءة في كلمة (زِلزالاً) العشرة بكسر الزاي الأولى، أما الفتح فقراءة شاذة وهي رواية شاذة عن عاصم.

(٨) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

(٩) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٨٠).

(١٠) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٨١).

ومنهم من اضطرب في دينه[١].

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ معطوف على «إذ زاغت الأبصار»، والمرض في القلوب هو: الشك والريبة، والمراد بالمنافقين: عبد الله بن أبيّ، وأصحابه، وبالذين في قلوبهم مرض: أهل الشك والاضطراب.

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من النصر والظفر ﴿إِلَّا﴾؛ غروراً أي: باطلاً من القول، وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين[٢] رجلاً من أهل النفاق والشك، وهذا القول المحكي عن هؤلاء هو كالتفسير للظنون المذكورة؛ أي: كان ظنّ هؤلاء هذا الظنّ، كما كان ظنّ المؤمنين بالنصر، وإعلاء كلمة الله ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من المنافقين. قال مقاتل[٣]: هم بنو سالم من المنافقين.

وقال السديّ[٤]: هم: عبد الله بن أبيّ وأصحابه، وقيل: هم أوس بن قبطي وأصحابه، والطائفة تقع على الواحد فما فوقه، والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾؛ أي: لا موضع إقامة لكم، أو لا إقامة لكم ها هنا في العسكر.

قال أبو عبيد[٥]: يَثْرب اسم الأرض، ومدينة النبي ﷺ في ناحية منها، قال السهيلي[٦]: وسميت يثرب؛ لأنّ الذي نزلها من العمالقة اسمه يثرب بن عميل، قرأ الجمهور «لا مقام لكم» بفتح الميم[٧]، وقرأ حَفْص، والسلمي، والجحدري، وأبو حيوة بضمها[٨]، على أنّه مصدر مِنْ أقام يقيم، وعلى القراءة الأولى هو اسم مكان ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾؛ أي: إلى منازلكم، أمروهم بالهرب مِنْ عسكر النبيّ ﷺ، وذلك «أن

---

(١) «النكت والعيون» (٤/ ٣٨٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٩٦).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٩٦).
(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٦٢).
● بنو سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج. «جمهرة أنساب العرب» (ص٣٥٣).
(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٦٢).
(٥) في «مجاز القرآن» له (٢/ ١٣٤).
(٦) في «التعريف والإعلام» (ص١٣٧).
(٧) «التيسير» (ص١٧٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٩٧)، و«جامع البيان» (١٨/ ٤٣)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩٥)، و«النشر» (٢/ ٣٤٨).
(٨) انظر: المصادر المتقدمة.

رسول الله ﷺ والمسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع، والخندق بينهم وبين القوم، فقال هؤلاء المنافقون: ليس ها هنا موضع إقامة، وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم بالمدينة».

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ معطوف على «قالت طائفة منهم»؛ أي: يستأذنون في الرجوع إلى منازلهم، وهم: بنو حارثة وبنو سلمة، وجملة: ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من قوله: «يستأذن»، أو حال، أو استئناف جواباً لسؤال مُقدَّر، والقول الذي قالوه هو قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ أي: ضائعة سائبة ليست بحصينة ولا ممتنعة مِنْ العدوّ.

قال الزجّاج[1]: يقال: عَوِرَ المكان يعور عَوَراً، وعورة وبيوت عوْرة وعَوِرة وهي مصدر.

قال مجاهد ومقاتل والحسن[2]: قالوا: بُيوتنا ضائعة نخشى عليها السرّاق.

وقال قتادة[3]: قالوا: بُيوتنا مما يلي العدوّ، ولا نأمن على أهلنا.

قال الهروي[4]: كلُّ مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة، والعورة في الأصل: الخلَلُ، فأطلقت على المختل، والمراد: ذات عورة.

وقرأ ابنُ عباس، وعكرمة، ومجاهد، وأبو رجاء العطاردي: «عَوِرة» بكسر الواو[5]؛ أي: قصيرة الجدران.

قال الجوهري[6]: العورة كل حال يتخوّف منه في ثغر أو حرب.

قال النحاس[7]: يقال: أعور المكان: إذا تبينت فيه عورة وأعور الفارس: إذا تبين منه موضع الخلل.

ثم ردّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [٣/٣٩٣] فكذّبهم الله سبحانه فيما ذكروه، والجملة في محل[8] نصب على الحال، ثم بيّن سبب استئذانهم وما

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).

(٢) ذكره عنهم الواحدي في «التفسير» (٣/ ٤٦٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٨/ ٤٤) بسند صحيح.

(٤) في «الغريبين» (٤/ ١٣٤٢).

(٥) «المحتسب» (٢/ ١٧٦)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٢٠). هي قراءة شاذة.

(٦) في «الصحاح» (٢/ ٧٦٢).

(٧) في «إعراب القرآن» (٣/ ٣٠٦).

(٨) «الفريد» (٤/ ٣٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٢٠).

يريدونه به، فقال: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ أي: ما يُريدون إلا الهرب من القتال، وقيل: المراد: ما يريدون إلا الفرار[١] من الدين ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ يعني: بيوتهم أو المدينة والأقطار: النّواحي جمع قُطْر، وهو الجانب والناحية.

والمعنى: لو دخلت عليهم بيوتهم، أو المدينة من جوانبها جميعاً لا من بعضها، ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة واستبيحت ديارهم، وهُتكت حرمهم ومنازلهم ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ مِنْ جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم ﴿لَآتَوْهَا﴾؛ أي: لجاءوها أو أعطوها، ومعنى الفتنة هنا: إمّا القتال في العصبية كما قال الضحاك[٢]، أو الشرك بالله، والرجعة إلى الكفر الذي يبطنونه ويظهرون خلافه كما قال الحسن[٣].

قرأ الجمهور «لآتوها» بالمدّ[٤]؛ أي: لأعطوها مِنْ أنفسهم، وقرأ نافع، وابن كثير بالقصر[٥]؛ أي: لجاءوها ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾؛ أي: بالمدينة بعد أن أتوا الفتنة إلا تلبّثاً يسيراً حتى يهلكوا، كذا قال الحسن[٦]، والسديّ[٧]، والفراء[٨]، والقتيبي[٩].

وقال أكثر المفسرين[١٠]: إنّ المعنى: وما احتبسوا عَنْ فتنة الشرك إلا قليلاً؛ بل هم مسرعون إليها راغبون فيها لا يقفون عنها إلّا مجرّد وقوع السؤال لهم، ولا يتعللون عَنْ الإجابة بأنّ بيوتهم في هذه الحالة عورة مع أنها قد صارت عورة على الحقيقة كما تعلّلوا عن إجابة الرسول والقتال معه بأنّها عورة، ولم تكن إذ ذاك عورة.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٩٨)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٨٣).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٠٠).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١٤) بسند صحيح.
(٤) «التيسير» (ص١٧٨)، و«النشر» (٢/ ٣٤٨)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٦١)، و«فتح الباري» (٨/ ٣٩٨).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.
(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٣٣).
(٧) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٦/ ٣٦٢).
(٨) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٧).
(٩) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣٤٩).
(١٠) «الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٦٣)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٣٣٣).

ثم حكى الله سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل من المعاهدة لله ولرسوله ﷺ بالثبات في الحرب وعدم الفرار عنه، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾؛ أي: مِنْ قبل غزوة الخندق ومن بعد بدر قال قتادة[(١)]: وذلك أنّهم غابوا عن بدر، ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلنّ، وهم: بنو حارثة، وبنو سلمة ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: مسؤولاً عَنْه، ومطلوباً صاحبه بالوفاء به، ومجازياً على ترك الوفاء به ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فإن من حضر أجله مات أو قتل فرّ أو لم يفرّ ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً بعد فرارهم إلى أن تنقضي آجالهم، وكل ما هو آت فهو قريب.

قرأ الجمهور «تُمتعون» بالفوقية[(٢)]، وقرأ يعقوب الحضرمي في رواية الساجي عنه بالتحتية[(٣)]. وفي بعض[(٤)] الروايات «لا تمتعوا» بحذف النون إعمالاً لـ «إذن»، وعلى قراءة الجمهور هي ملغاة ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾؛ أي: هلاكاً أو نقصاً في الأموال وجَدْباً ومرضاً ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ يرحمكم بها من خَصْب ونصر وعافية ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يواليهم ويدفع عنهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم من عذاب الله.

وقد أخرج الطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي مريم[(٥)] الغساني: أن أعرابياً قال: يا رسول الله أيّ شيء كان أوّل نبوّتك؟ قال: «أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النَّبيين ميثاقهم، ثم تلا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾، ودعوة إبراهيم قال: ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وبشرى عيسى ابن مريم ورأت أمّ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٤٧) بسند صحيح.
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٤٦٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٢٤)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٠١).
(٣) «روح المعاني» (٢١/ ٢٢٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٦٢)، و«حاشية الجمل» (٣/ ٤٢٨).
(٤) انظر: المصادر المتقدمة. قراءة الجمهور هي المتواترة عن العشرة، أما الرواية عن يعقوب بالتحتية وبحذف النون فشاذ.
(٥) أخرجه الطبراني (ج٢٢ رقم ٨٣٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٤): «ورجاله وثقوا».

رسول الله ﷺ في منامها: أنّه خرج من بين رجليها سراج أضاءت له قصور الشام.

وأخرج ابن مردويه[١] عن ابن عباس قال: «قيل: يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال: وآدم بين الروح والجسد».

وأخرج البزار، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الدلائل عنه[٢] قال: قيل: يا رسول الله متى كنت نبيّاً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وفي الباب أحاديث قد صُحّح بعضها.

وأخرج الحسن بن سفيان وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والديلمي وابن عساكر من طريق قتادة عن الحسن، عن أبي هريرة[٣] عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ الآية قال: كنتُ أوّل النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»، فبدأ به قبلهم.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس[٤] قال: ﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾ عهدهم.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس[٥] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ قال: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم.

وأخرج الحاكم وصحّحه وابن مردويه وأبو نعيم، والبيهقي كلاهما في «الدلائل»، وابن عساكر من طرق عن حذيفة[٦] قال: لقد رأيتُنا ليلة الأحزاب، ونحن

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٦٩).

(٢) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٣٦٤ ـ «كشف»)، والطبراني رقم (٤١٧٥)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٣): «وفيه جابر بن يزيد الجعفي، وهو ضعيف».

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٠).
وأخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٢١)، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (٣)، والديلمي في «مسنده» رقم (٤٨٥٠). وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٠).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٦٩٣)، والطبراني رقم (١٢٣٥٣) بسند صحيح.

(٦) أخرجه الحاكم (٣/ ٣١) وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الدلائل» رقم (٤٣٢)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٥٠ ـ ٤٥٥)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٢/ ٢٨٢، ٢٨٣).

صافون قعود وأبو سفيان ومَنْ معه من الأحزاب فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا؛ نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشدّ ظلمة، ولا أشدّ ريحاً، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحد منا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ، و﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له فيتسلّلون، ونحن ثلثمائة، أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى مرّ عليّ، وما عليّ جُنة من العدوّ ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي، فأتاني، وأنا جاث على ركبتي، فقال: «مَنْ هذا؟» فقلت: «حذيفة»، قال حذيفة: فتقاصرت إلى الأرض، فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم، قال: «قُمْ»، فقمتُ، فقال: «إنّه كان في القوم خبر، فأتني بخبر القوم»، قال: وأنا من أشدّ القوم فزعاً وأشدّهم قرّاً، فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعَنْ يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته»؛ قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قرّاً في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد منه شيئاً؛ فلما وليت قال: «يا حذيفة لا تُحدثنّ في القوم شيئاً حتى تأتيني»، فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرتُ في ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل ثم دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز شبراً، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم.

ثم خرجتُ نحو النبيّ ﷺ، فلما انتصفت في الطريق، أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته، وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزَبه أمرٌ صلّى، فأخبرته خبر القوم أني تركتهم يترحلون، وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس[1] في قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ قال: كان يوم أبي سفيان يوم الأحزاب.

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٣).

=

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في الكنى، وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الدلائل» عن ابن عباس[1] قال: لمّا كان ليلة الأحزاب جاءت الشمال إلى الجنوب، فقالت: انطلقي، فانصري الله ورسوله، فقالت الجنوب: إن الحرّة لا تسري بالليل، فغضب الله عليها، وجعلها عقيماً، فأرسل عليهم الصَّبا، فأطفأت نيرانهم، وقطعت أطنابهم، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدبور»، فذلك قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما من حديث ابن عباس[2] قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور».

وأخرج البخاري، وغيره عن عائشة[3] في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الآية قالت: كان ذلك يوم الخندق.

وفي الباب: أحاديث في وصف هذه الغزوة، وما وقع فيها، وقد اشتملت عليها كتب الغزوات والسِّيَر.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة[4] قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرتُ بقرية تأكل القُرى يقولون: يثرب، وهي: المدينة تنفي البأس كما ينفي الكير خَبَث الحديد».

[كراهة تسمية المدينة يثرباً]:

وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن البراء بن عازب[5] قال: قال

= وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٢٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٣٣) بسند ضعيف.

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٢٥)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٢٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» رقم (٨٦٨) بسند صحيح.

(٢) أخرجه البخاري رقم (١٠٣٥، ٣٢٠٥، ٣٣٤٣، ٤١٠٥)، ومسلم رقم (٩٠٠)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٦١٧)، وأحمد رقم (٢٠١٣، ٢٩٨٢، ٣١٧١، ٣٣٣٨).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٤١٠٣)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٣٩٨)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٤١٦)، وابن جرير (١٩/ ٣٠)، والبيهقي (٣/ ٤٣٣).

(٤) أخرجه مالك (٢/ ٨٨٧)، وأحمد رقم (٧٢٣٢، ٧٣٧٠، ٨٩٨٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» رقم (١٧١٦٥)، والبخاري رقم (١٨٧٦)، ومسلم رقم (١٣٨٢)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٣٩٩).

(٥) أخرجه أحمد رقم (١٨٥١٩)، وابن مردويه كما في «القول المسدد» (ص٤٠) بسند ضعيف.

رسول الله ﷺ: «مَنْ سمى المدينة يثرب فليستغفر الله، هي طابة هي طابة هي طابة» ولفظ أحمد «إنما هي طابة» وإسنادُه ضعيف.

وأخرج ابن مردويه(١) عن ابن عباس مرفوعاً نحوه.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس(٢) في قوله: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ قال: هم بنو حارثة قالوا: ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ أي: مختلة نخشى عليها السرق.

وأخرج ابن مردويه(٣) عن جابر نحوه.

وأخرج البيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس(٤) قال: جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا﴾ قال: لأعطوها: يعني: إدخال بني حارثة أهل الشام على المدينة.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾
أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ
فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ
أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ
أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا
﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ
إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ
وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن
شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟
خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «القول المسدد» (ص٤٠ ـ ٤١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٤٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٣٣) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧٩).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٠).

قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ يقال: عاقه[١]، واعتاقه وعوّقه: إذا صرفه عن الوجه الذي يريده. قال الواحدي[٢] قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يُثبّطون أنصار النبي ﷺ، وذلك أنهم قالوا لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحماً لالتقمهم أبو سفيان وحزبه، فخلوهم وتعالوا إلينا.

وقيل: إن القائل هذه المقالة اليهود قالوا: ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ من المنافقين ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾، ومعنى هلُمَّ: أقبل[٣] وأحضر، وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث وغيرهم من العرب يقولون: هلُمَّ للواحد الذكر، وهلُمِّي للمؤنث، وهلُمَّا للاثنين، وهلُمُّوا للجماعة.

وقد مرّ الكلام على هذا في سورة الأنعام.

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾؛ أي: الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ خوفاً من الموت، وقيل[٤]: المعنى: لا يحضرون القتال إلا رياء وسمعة من غير احتساب ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: بخلاء عليكم لا يعاونوكم بحفر الخندق ولا بالنفقة في سبيل الله، قاله مجاهد وقتادة.

وقيل: أشحة بالقتال معكم وقيل: بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم، وقيل: أشحة بالغنائم إذا أصابوها، قاله السديّ[٥].

وانتصابه على الحال من فاعل يأتون أو من المعوقين.

وقال الفراء[٦]: يجوز في نصبه أربعة أوجه: منها النصب على الذم، ومنها بتقدير فعل محذوف؛ أي: يأتونه أشحة. [٣/٣٩٤].

قال النحاس[٧]: ولا يجوز أن يكون العامل فيه للمعوقين، ولا القائلين لئلا يفرق بين الصلة والموصول.

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٩٧). (٢) في «الوسيط» (٣/ ٤٦٣).
(٣) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٤٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣٠٨)، و«الصحاح» (٥/ ٢٠٦٠)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٣١٥).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٠٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨).
(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٨٦).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٨).
(٧) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٧).

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ أي: تدور يميناً وشمالاً، وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: كعين الذي يغشى عليه من الموت، وهو الذي نزل به الموت، وغشيته أسبابه فيذهل ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف، ويقال للميت إذا شخص بصره: دارت عيناه، ودارت حماليق عينيه، والكاف[1] نعت مصدر محذوف. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ يقال: سلق[2] فلان فلاناً بلسانه: إذا أغلظ له في القول مجاهراً.

قال الفراء[3]: أي: آذوكم بالكلام في الأمن بألسنة سليطة ذَرِبة، ويقال: خطيب مِسْلاق ومِصْلاق: إذا كان بليغاً، ومنه قول الأعشى[4]:

فيهم المجدُ والسَّماحةُ والنَّجـ ـدة فيهم والخاطبُ السَّلَّاقُ

قال القتيبي[5]: المعنى آذوكم بالكلام الشديد، والسّلْق الأذى، ومنه قول الشاعر[6]:

ولقد سَلَقْنَ هوازناً بنَواهِلٍ حتى انحنينا

قال قتادة[7]: معنى الآية: بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون: أعطنا فإنا قد شهدنا معكم، فعند الغنيمة أشحّ قوم وأبسطهم لساناً، ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم.

قال النحاس[8]: وهذا قول حسن، وانتصاب ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ على الحالية[9] من فاعل سلقوكم، ويجوز أن يكون نصبه على الذمّ.

وقرأ ابن أبي عبلة[10] برفع «أشحة»، والمراد هنا: أنهم أشحة على الغنيمة

---

(١) «الفريد» (٤/ ٣٦)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٣٠)، و«التبيان» (٣/ ١٠٥٤).
(٢) «الصحاح» (٥/ ١٤٩٧)، و«تهذيب اللغة» (٨/ ٤٠٢).
(٣) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٣٩). (٤) انظر: «ديوانه» (ص٢٦٥).
(٥) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣٤٩).
(٦) هو: عبيد بن الأبرص. انظر: «ديوانه» (ص١٤٢).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٥٤) بسند صحيح.
(٨) في «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٣٣٦).
(٩) «روح المعاني» (٢١/ ٢٣١)، و«الفريد» (٤/ ٣٦)، و«التبيان» (٢/ ١٠٥٤).
(١٠) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٤٦٤)، والألوسي في «روح المعاني» (٢١/ ٢٣١). وهي قراءة شاذة.

يشاحون المسلمين عند القسمة، قاله يحيى بن سلام[(١)]، وقيل: على المال أن ينفقوه في سبيل الله.

قاله السديّ[(٢)]. ويمكن أن يقال معناه: أنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه.

والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ إيماناً خالصاً بل هم منافقون: يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾؛ أي: أبطلها بمعنى: أظهر بطلانها؛ لأنها لم تكن لهم أعمال تقتضي الثواب حتى يبطلها الله.

قال مقاتل[(٣)]: أبطل جهادهم؛ لأنه لم يكن في إيمان. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ أي: وكان ذلك الإحباط لأعمالهم، أو كان نفاقهم على الله هيناً.

[جبن المنافقين يوم الأحزاب]:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْۖ﴾؛ أي: يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم[(٤)] أن الأحزاب باقون في معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم، وذلك لما نزل بهم من الفشل والرَّوْع ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مرةً أخرى بعد هذه المرة ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ أي: يتمنون أنهم في بادية الأعراب لما حلّ بهم من الرهبة، والبادي خلاف الحاضر، يقال: بدا يبدو بداوةً إذا خرج إلى البادية ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ﴾؛ أي: عَنْ أخباركم، وما جرى لكم، كل قادم عليهم من جهتكم، أو يسأل بعضهم بعضاً عن الأخبار التي بلغته من أخبار الأحزاب ورسول الله ﷺ.

والمعنى: أنهم يتمنون أنهم بعيدٌ عنكم يسألون عن أخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جُبْنهم[(٥)] وضعف نياتهم ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: لو كانوا معكم في هذه الغزوة مشاهدين للقتال ما قاتلوا معكم إلا قتالاً قليلاً خوفاً من العار وحمية على الديار.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/٣٨٦).

(٢) «النكت والعيون» (٤/٣٨٦).

(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٦٤).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/١٠٦)، و«جامع البيان» (١٩/٥٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أي: قدوة صالحة، يقال: لي في فلان أُسْوة؛ أي: لي به، والأسوة من الائتساء؛ كالقدوة من الاقتداء: اسم يوضع موضع المصدر. قال الجوهري(١): والأُسوة والإِسوة بالضم، والكسر، والجمع أسى، وإِسى.

قرأ الجمهور «أُسوة» بالضم للهمزة(٢)، وقرأ عاصم بكسرها(٣)، وهما لغتان كما قال الفراء(٤)، وغيره.

وفي هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله ﷺ؛ أي: لقد كان لكم في رسول الله حيثُ بذل نفسه للقتال، وخرج إلى الخندق لنصرة دين الله أسوة، وهذه الآية، وإنْ كان سببها خاصّاً، فهي عامة في كل شيء، ومثلها ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، واللام في ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ متعلق بحسنة، أو بمحذوف هو صفة لحسنة؛ أي: كائنة لمن يرجو الله.

وقيل: إن الجملة بدل من الكاف في لكم، وردّه أبو حيان، وقال: إنه لا يبدل من ضمير المخاطب بإعادة الجار.

ويجاب عنه بأنّه قد أجاز ذلك الكوفيون(٥)، والأخفش(٦)، وإن منعه البصريون.

والمراد بمن كان يرجو الله: المؤمنون، فإنّهم الذين يرجون الله، ويخافون عذابه، ومعنى يرجون الله: يرجون ثوابه، أو لقاءه، ومعنى يرجون اليوم الآخر: أنهم يرجون رحمة الله فيه، أو يصدقون بحصوله، وأنه كائن لا محالة، وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ معطوف على كان؛ أي: ولمن ذكر الله في جميع أحواله ذكراً كثيراً، وجمع بين الرجاء لله، والذكر له، فإن بذلك تتحقق الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ.

---

(١) في «الصحاح» (٦/ ٢٢٦٨).
(٢) «جامع البيان» (١٩/ ٥٨)، و«التيسير» (ص١٧٨)، و«النشر» (٢/ ٢٤٨)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٦٩). الصواب في هذا الجمهور بكسر الهمزة، وعاصم قرأ بضمها.
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) في «معاني القرآن» (٢/ ٣٤٠).
(٥) في «البحر المحيط» (٨/ ٤٦٦).
(٦) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٤٦٦).

ثم بيّن سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب، ومشاهدتهم لتلك الجيوش التي أحاطت بهم كالبحر العُباب، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الإشارة بقوله: «هذا» إلى ما رأوه من الجيوش، أو إلى الخَطْب الذي نزل والبلاء الذي دهم، وهذا القول منهم قالوه استبشاراً بحصول ما وعدهم الله ورسوله من مجيء هذه الجنود، وإنّه يتعقب مجيئهم إليهم نزول النصر والظَّفَر من عند الله، و «ما» في ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب: ١٢] هي: الموصولة[١]، أو المصدرية، ثم أردفوا ما قالوه بقولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ أي: ظهر صدق خبر الله، ورسوله ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾؛ أي: ما زادهم ما رأوه إلا إيماناً بالله وتسليماً لأمره.

قال الفرّاء[٢]: ما زادهم النظر إلى الأحزاب إلا إيماناً وتسليماً.

قال عليّ بن سليمان[٣]: «رأى» يدل على الرؤية، وتأنيث الرؤية غير حقيقي، والمعنى: ما زادهم الرؤية إلا إيماناً للرب وتسليماً للقضاء. ولو قال[٤]: ما زادتهم لجاز. ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: من المؤمنين المخلصين رجال صدقوا: أتوا بالصدق، من صدقني إذا قال الصدق، ومحل «ما عاهدوا الله عليه» النصب بنزع الخافض.

والمعنى: أنهم وفّوا بما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ ليلة العقبة من الثبات معه والمقاتلة لمن قاتله، بخلاف مَنْ كذب في عهده، وخان الله ورسوله، وهم: المنافقون، وقيل: هم الذين نذروا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا له ولم يفروا، ووجه إظهار الاسم الشريف، والرسول في قوله: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ هو قصد[٥] التعظيم كما في قول الشاعر:

أرى الموتَ لا يسبق الموتَ شيء

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ٢٣٩)، و«الفريد» (٤/ ٣٧ ـ ٣٨)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣١٠).
(٢) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٤٠).
(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٣٨٩).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١١٠).
(٥) «روح المعاني» (٢١/ ٢٤٠)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٤٠٣).

وأيضاً لو أضمرهما، لجمع بين ضمير الله وضمير رسوله في لفظ واحد. وقال: صدقا.

وقد ورد النهي عَنْ جمعهما كما في حديث[(١)]: «بئس خطيب القوم أنت» لمن قال: ومَنْ يعصهما، فقد غوى.

ثم فصّل سبحانه حال الصادقين بما وعدوا الله ورسوله، وقسمهم إلى قسمين، فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ النّحْبُ: ما التزمه الإنسان واعتقد الوفاء به، ومنه قول الشاعر:

عشيةَ فرّ الحارِثيون بعدَ ما قضى نحَبه في مُلْتقى القوم هوبرُ[(٢)]

وقال الآخر[(٣)]:

بطخفةَ جالدنا الملوكَ وخيلُنا عشيةَ بسطام جرين على نَحْبِ

أي: على أمر عظيم، والنحب يطلق على النذر والقتل والموت.

قال ابن قتيبة[(٤)]: قضى نَحْبه؛ أي: قُتل، وأصل النّحْب: النذر. كانوا يوم بدر نذروا إنْ لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا، أو يفتح الله لهم، فقُتلوا، فقيل: فلان قضى نحبه؛ أي: قُتل.

والنحب أيضاً الحاجة وإدراك الأُمْنية، يقول قائلهم: مالي عندهم نحب. والنحب: العهد، ومنه قول الشاعر:

لقد نحبتْ كَلْبٌ على الناس أيُّهم أحقّ بتاجِ الماجد المتكرّمِ[(٥)]

وقال آخر:

قد نحبَ المجدَ علينا نَحْبا[(٦)]

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٦)، ومسلم رقم (٨٧/٤٨)، وأبو داود رقم (١٠٩٩)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١/ ٥٥٣٠) كلهم من حديث عدي بن حاتم.

(٢) هو: لذي الرمة. انظر: «ديوانه» (٢/ ٦٤٧).
وهوبر: هو يزيد بن هوبر الحارثي.

(٣) هو: جرير. انظر: «ديوانه» (٢/ ٦٣٢).

(٤) في «تفسير غريب القرآن» (ص٣٤٩)، وفي «تأويل المشكل» (ص١٤٠).

(٥) البيت للفرزدق. انظر: «ديوانه» (ص٧٥٩).

(٦) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١١٢).

ومن ورود النحب في الحاجة وإدراك الأمنية قول الشاعر[١]:

أنحبٌ فيُقضى أم ضلالٌ وباطلُ[٢]

ومعنى الآية: أنّ من المؤمنين[٣] رجالاً أدركوا أمنيتهم وقضوا حاجتهم، ووفّوا بنذرهم فقاتلوا حتى قُتلوا، وذلك يوم أُحدٍ كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ قضاء نحبه حتى يحضر أجلُه كعثمان بن عفان وطلحة والزبير، وأمثالهم فإنّهم مستمرّونَ على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله ﷺ، والقتال لعدوّه، ومنتظرون لقضاء حاجتهم وحصول أمنيتهم بالقتل وإدراك فضل الشهادة.

وجملة: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ معطوفة على صدقوا؛ أي: ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم؛ بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمراً، أما الذين قضوا نحبهم، فظاهر، وأمّا الذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا ولم يغيروا، ولا بدّلوا.

واللام في قوله: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ يجوز أن يتعلّق بصدقوا أو بزادهم، أو بما بدّلوا أو بمحذوف، كأنه قيل: وقع جميع ما وقع ليجزي الله الصادقين بصدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ بما صدر عنهم من التغيير، والتبديل جعل المنافقين كأنّهم قَصدوا عاقبة السوء، وأرادوها بسبب تبديلهم وتغييرهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم، فكل من الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب، والعقاب، فكأنّهما استويا في طلبها، والسعي لتحصيلها، ومفعول «إن شاء»، وجوابها محذوفان؛ أي: إن شاء تعذيبهم عذبهم، وذلك إذا أقاموا على النفاق ولم يتركوه، ويتوبوا عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: لمن تاب منهم، وأقلع عمّا كان عليه مِنْ النفاق.

ثم رجع سبحانه إلى حكاية بقية القصة، وما امتنّ به على رسوله والمؤمنين من النعمة، فقال: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وهم: الأحزاب، والجملة معطوفة على

---

(١) هو: لبيد بن ربيعة. انظر: «ديوانه» (ص١٣١).

(٢) وصدر البيت:

ألا تسألان المرء ماذا يحاولُ

(٣) «جامع البيان» (١٩/ ٦١ ـ ٦٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٤٢).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ [الأحزاب: ٩]، أو على المقدّر عاملاً في ليجزي الله الصادقين بصدقهم، كأنه قيل: وقع ما وقع من الحوادث، وردّ الله الذين كفروا، ومحل ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ النصب[١] على الحال، والباء للمصاحبة؛ أي: حال كونهم متلبسين بغيظهم ومصاحبين له، ويجوز أن تكون للسببية.

وجملة: ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ في محل نصب[٢] على الحال أيضاً من الموصول، [٣/٣٩٥] أو من الحال الأولى على التعاقب أو التداخل.

والمعنى: أنّ الله ردّهم بغيظهم لم يشف صدورهم، ولا نالوا خيراً في اعتقادهم، وهو الظفر بالمسلمين، أو لم ينالوا خيراً أيّ خير؛ بل رجعوا خاسرين لم يربحوا إلا عناء السفر وغُرْم النفقة ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بما أرسله من الريح والجنود من الملائكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ على كل ما يريده إذا قال له كن كان، عزيزاً غالباً قاهراً لا يغالبه أحد من خلقه، ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر وابن أبي حاتم[٣] في قوله: ﴿سَلَقُوكُم﴾ قال: استقبلوكم.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عنه ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ قال: هيّناً.

وأخرج ابن مردويه، والخطيب وابن عساكر وابن النجار عن عمر[٥] في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال: في جوع رسول الله ﷺ.

وقد استدلّ بهذه الآية جماعة من الصحابة في مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السُّنَّة، وهي خارجة عمَّا نحن بصدده.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عَنْ ابن عباس[٦] في

---

(١) «التبيان» (٢/ ١٠٥٥)، و«الفريد» (٤/ ٣٨).

(٢) «روح المعاني» (٢١/ ٢٤٧)، و«التبيان» (٢/ ١٠٥٥)، و«الفريد» (٤/ ٣٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٥٤)، وابن أبي حاتم كما في «الإتقان» (٢/ ٣٧) بسند صحيح.

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١٢٢).

(٥) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٣).
وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤/ ١٢٨).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٦٠)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٣٣، ٤٣٤) بسند ضعيف.

قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ إلى آخر الآية قال: إنّ الله قال لهم في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: ٢١٤] فلما مسّهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فتأوّل المسلمون ذلك، فلم يزدهم ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وأخرج البخاري وغيره عن أنس[١] قال: نُرَى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

وأخرج ابنُ سعد، وأحمد، ومُسْلم، والترمذي، والنسائي، والبغوي في «معجمه»، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نُعيم، والبيهقي عن أنس[٢] قال: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر، فشق عليه، وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ فيما بعد ليرينّ الله ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو وأين؟ قال: واهاً لريح الجنّة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوُجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، ونزلت هذه الآية ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه.

وقد رُوي[٣] عنه نحوه من طريق أخرى عند الترمذي، وصححه، والنسائي، وغيرهما.

وأخرج الحاكم، وصححه، والبيهقي في «الدلائل» عن أبي هريرة[٤]: «أن رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد مرّ على مصعب بن عمير وهو مقتول، فوقف

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٧٨٣)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/ ٢٢٥ رقم ٧٨٨).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٣٦٥٨)، ومسلم رقم (١٩٠٣)، والترمذي رقم (٣٢٠٠)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٨٢٩١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٦٥)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢١)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٣) أخرجه الطيالسي رقم (٢١٥٧)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٢، ٣١٣)، و(١٤/ ٣٩٥)، والترمذي رقم (٣٢٠١)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٤٠٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٦٥، ٦٦)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٣٦)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١/ ٢٢٤ رقم ٧٨٦).

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٤٨)، والبيهقي (٣/ ٢٨٤)، وقال الذهبي: «أحسبه موضوعاً».

عليه، ودعا له، ثم قرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ الآية، ثم قال: أشهد أنّ هؤلاء شهداء عند الله فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردّوا عليه»، وقد تعقب الحاكم في تصحيحه الذهبي كما ذكر ذلك السيوطي(١)، ولكنه قد أخرج(٢) الحاكم حديثاً آخر، وصحّحه.

وأخرجَه أيضاً البيهقي(٣) في «الدلائل» عَنْ أبي ذرّ قال: «لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أُحد مرّ على مصعب بن عمير مقتولاً على طريقه، فقرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ الآية».

وأخرج ابنُ مردويه(٤) مِنْ حديث خبّاب مثله، وهما يشهدان لحديث أبي هريرة.

وأخرج الترمذي وحسنه، وأبو يعلى، وابن جرير، والطبراني، وابن مردويه عن طلحة(٥): «أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابيّ جاهل: سلْه عمن قضى نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترئون على مسألته يوقرونه ويهابونه، فسأله الأعرابي، فأعرض عنه، ثم سأله، فأعرض عنه، ثم إنّي اطلعت من باب المسجد، فقال: أين السائل عمن قضى نحبه؟ قال الأعرابي: أنا، قال: هذا ممن قضى نحبه».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه من حديثه(٦) نحوه.

وأخرج الترمذي، وابنُ جرير، وابنُ أَبي حاتم، وابن مردويه عن معاوية(٧) قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «طلحة ممّن قضى نحبه».

وأخرج سعيد بن منصور، وأبو يعلى، وأبو نعيم، وابن المنذر، وابن مردويه عن عائشة(٨): أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سرّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة».

---

(١) في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٠٠).

(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٧).

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» رقم (١٣٩٩)، والترمذي رقم (٣٢٠٣، ٣٧٤٢)، وأبو يعلى رقم (٦٦٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٦٦) بسند حسن.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٦٧)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٣٧)، والطبراني رقم (٢١٧).

(٧) أخرجه الترمذي رقم (٣٢٠٢، ٣٧٤٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٦٦) بسند حسن.

(٨) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٨). =

وأخرج ابنُ مردويه[١] مِنْ حديث جابر مثله.

وأخرج ابن منده، وابن عساكر من حديث أسماء بنت أبي بكر[٢] نحوه.

وأخرج أبو الشيخ، وابنُ عساكر عن عليّ[٣]: أنّ هذه الآية نزلت في طلحة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٤] ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ قال: الموت على ما عاهدوا الله عليه، ومنهم من ينتظر الموت على ذلك.

وأخرج أحمد، والبخاري، وابن مردويه عن سليمان بن صُرد[٥] قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «الآن نغزوهم، ولا يغزونا».

وأخرج ابنُ جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عمر[٦] في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ قال: مات على ما هو عليه من التصديق، والإيمان ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ذلك ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ لم يغيروا كما غير المنافقون.

[غزوة بني قريظة]:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

= وأخرجه أبو يعلى رقم (٤٨٩٨)، وأبو نعيم (١/ ٨٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٤٨): «فيه صالح بن موسى وهو متروك».

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٨).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٥/ ٨٢) وقال: قال ابن منده: «هذا حديث غريب بهذا الإسناد».

(٣) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٨).
وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٥/ ٨٥).

(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٨٨).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٦٤) بسند صحيح.

(٥) أخرجه أحمد رقم (١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٢٧٢٠٦)، والبخاري رقم (٤١٠٩، ٤١١٠).

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٦٤، ٦٧، ٦٨) عن ابن زيد بسند صحيح.
وذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١٢٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

[نتيجة الغزوة]:

قولُه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: عاضدوهم وعاونوهم على رسول الله ﷺ، وهم بنو قريظة، فإنَّهم عاونوا الأحزاب، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وصاروا يداً واحدة مع الأحزاب.

والصياصي[(١)] جمع صِيْصِية: وهي الحصون، وكل شيء يتحصن به يقال له: صيصية، ومنه صِيصية الديك، وهي الشوكة التي في رجله، وصَّياصي البقر قرونها؛ لأنها تمتنع بها، ويقال: لشوكة الحائك التي يسوّي بها السَّدَاة واللُّحمة صيصية، ومنه قول دريد بن الصمة[(٢)]:

فجئتُ إليه والرِّماحُ تنوشهُ ... كوقع الصَّياصي في النَّسيجِ المُمددِ

ومن إطلاقها على الحصون قول الشاعر:

فأصبحتِ الثِّيران صَرْعى وأصبحتْ ... نساءُ تميمٍ يبتدرن الصَّياصيا[(٣)]

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾؛ أي: الخوف الشديد حتى سلّموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبي، وهي معنى قوله: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فالفريق الأوّل هم: الرجال، والفريق الثاني هم: النساء والذرية وهذه الجملة مبيّنة، ومقرّرة لقذف الرعب في قلوبهم.

قرأ الجمهور «تقتلون» بالفوقية[(٤)] على الخطاب، وكذلك قرءوا «تأسرون»[(٥)]، وقرأ ابن ذكوان في رواية عنه بالتحتية[(٦)] فيهما، وقرأ اليماني[(٧)] بالفوقية في الأوّل، والتحتية في الثاني، وقرأ أبو حيوة[(٨)]: «تأسُرون» بضم السين.

وقد حكى الفراء[(٩)] كسر السين، وضمها، فهما لغتان، ووجه تقديم[(١٠)] مفعول

(١) «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٦٥)، و«الصحاح» (٣/ ١٠٤٤)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٥٠٠).
(٢) انظر: «ديوان دريد بن الصمة» (ص٤٨).
(٣) هو لسحيم عبد بني الحسحاس. «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٤٩).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٤٧٠)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٥٤).
(٥) انظر: التعليقة المتقدمة.
(٦) «القراءات الشاذة» (ص١١٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٠).
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).
(٨) «القراءات الشاذة» (ص١١٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٥٥).
(٩) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٤١). (١٠) «روح المعاني» (٢١/ ٢٥٤).

الفعل الأوّل، وتأخير مفعول الفعل الثاني أنّ الرجال لما كانوا أهل الشوكة، وكان الوارد عليهم أشدّ الأمرين، وهو: القتل، كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام.

وقد اختلف[١] في عدد المقتولين، والمأسورين، فقيل: كان المقتولون من ستمائة إلى سبعمائة، وقيل: ستمائة، وقيل: سبعمائة، وقيل: ثمانمائة، وقيل: تسعمائة. وكان المأسورون سبعمائة، وقيل: سبعمائة وخمسين، وقيل: تسعمائة.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ المراد بالأرض: العقار والنخيل، وبالديار: المنازل والحصون، وبالأموال: الحليّ والأثاث، والمواشي والسلاح والدراهم والدنانير ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾؛ أي: وأورثكم أرضاً لم تطئوها، وجملة لم تطئوها صفة لأرضاً.

قرأ الجمهور: «لم تطئوها» بهمزة مضمومة[٢]، ثم واو ساكنة، وقرأ زيد بن علي: «تطَوها» بفتح الطاء[٣]، وواو ساكنة.

واختلف المفسرون في تعيين هذه الأرض المذكورة، فقال يزيد بن رومان[٤] وابن زيد[٥]، ومقاتل[٦]: إنها خيبر، ولم يكونوا إذ ذاك قد نالوها، فوعدهم الله بها.

وقال قتادة[٧]: كنا نتحدّث أنها مكة.

وقال الحسن[٨]: فارس والروم.

وقال عكرمة[٩]: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾؛ أي: هو سبحانه قدير على كل ما أراده من خير وشرّ ونعمة، ونقمة وعلى إنجاز ما وعد به من الفتح للمسلمين.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٢٣٣ ـ ٢٤٣)، و«معالم التنزيل» (٦/ ٣٤٤).
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٤٧١)، و«النشر» (١/ ٣٩٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٦٣).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة. وهي قراءة أبي جعفر وهي متواترة.
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٨٣) بسند صحيح.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٨٣) بسند صحيح.
(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٤٥).
(٧) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٤٥)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٦/ ٣٧٥).
(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٨٢) بسند حسن.
(٩) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٤٥).

وقد أخرج ابن المنذر(١) عن ابن عباس في قوله: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ قال: حصونهم.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن مردويه عن عائشة(٢) قالت: «خرجت يوم الخندق أقفو الناس، فإذا أنا بسعد بن معاذ، ورماه رجل من قريش يقال له: ابن العرقة بسهم، فأصاب أكحله فقطعه، فدعا الله سعدٌ، فقال: اللَّهُمَّ لا تمتني حتى تُقرّ عيني من قريظة، فبعث الله الريح على المشركين ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾، ولحق أبو سفيان ومَنْ معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومَنْ معه بنجد، ورجعت بنو قُريظة فتحصّنوا في صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبّةٍ من أدم، فضربت على سعد في المسجد، قالت: فجاء جبريل، وإن على ثناياه لوقع الغبار، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ لا، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح: اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم، فلبس رسول الله ﷺ لأْمَته، وأذّن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتدّ حصرهم واشتدّ البلاء عليهم قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله، قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فنزلوا، وبعث رسول الله إلى سعد بن معاذ، فأُتي به على حمار، فقال رسول الله: احكم فيهم، قال: فإنّي أحكم فيهم أنْ تُقتل مقاتلتهم، وتُسْبي ذراريهم، وتقسم أموالهم، فقال: لقد حكمت فيهم بحكم الله، وحكم رسوله».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩١).

(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٢).

وأخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٠٨ ـ ٤١١)، وأحمد رقم (٢٥٠٩٧)، وقال محققوه: «بعضه صحيح وجزء منه حسن. وهذا إسناد فيه ضعف».

فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ [٣/٣٩٦] لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ قيل: هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدّمها من المنع من إيذاء النبيّ ﷺ، وكان قد تأذّى ببعض الزوجات.

قال الواحدي(١): قال المفسِّرون: إن أزواج النبي ﷺ سألنه شيئاً من عرض الدنيا، وطلبن منه الزيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهنّ على بعض؛ فآلى رسولُ الله ﷺ منهنّ شهراً، وأنزل الله آية التخيير هذه، وكنّ يومئذ تسعاً: عائشة وحفصة وأمّ سلمة وأمّ حبيبة وسودة هؤلاء من نساء قريش، وصفية الخيبرية وميمونة الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية.

ومعنى ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾: سعتها ونضارتها ورفاهيتها والتنعم فيها ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾؛ أي: أقبلن إليّ ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ بالجزم جواباً للأمر؛ أي: أعطكنّ المتعة كذا ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾ بالجزم؛ أي: أطلقكنّ وبالجزم(٢) في الفعلين قرأ الجمهور، وقرأ حُميد الخراز بالرفع(٣) في الفعلين على الاستئناف، والمراد بالسراح الجميل: هو الواقع مِنْ غير ضرار على مقتضى السُّنّة.

وقيل: إن جزم الفعلين على أنهما جواب الشرط، وعلى هذا يكون قوله: «فتعالين» اعتراض بين الشرط، والجزاء.

و﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾؛ أي: الجنة، ونعيمها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾؛ أي: اللاتي عملن عملاً صالحاً ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يمكن وصفه، ولا يقادر قدره، وذلك بسبب إحسانهن، وبمقابلة صالح عملهنّ.

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ٤٦٧).
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٤٧٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٦٥). قراءة الجزم هي المتواترة، أما الرفع فشاذة.
(٣) «القراءات الشاذة» (ص١١٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٦٦).

[الاختلاف في كيفية التخيير]:

وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبيّ ﷺ أزواجه على قولين(١):

القول الأوّل: أنه خيرهنّ بإذن الله في البقاء على الزوجية أو الطلاق، فاخترن البقاء، وبهذا قالت عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبي والزهري وربيعة.

والقول الثاني: أنّه إنما خيرهنّ بين الدنيا فيفارقهنّ، وبين الآخرة فيمسكهن، ولم يخيرهنّ في الطلاق، وبهذا قال عليّ والحسن وقتادة، والراجح الأوّل.

واختلفوا(٢) أيضاً في المخيَّرة إذا اختارت زوجها هل يحسب مجرّد ذلك التخيير على الزوج طلقة أم لا؟ فذهب الجمهور مِنْ السلف والخلف إلى أنه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقاً لا واحدة ولا أكثر. وقال علي، وزيد بن ثابت: إن اختارت زوجها، فواحدة بائنة، وبه قال الحسن والليث: وحكاه الخطابي(٣)، والنّقاش عن مالك.

والراجح الأوّل لحديث عائشة الثابت في «الصحيحين»(٤) قالت: «خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه فلم يعدّه طلاقاً».

ولا وجه لجعل مجرّد التخيير طلاقاً.

ودعوى أنّه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بأنَّ المخير لم يرد الفرقة لمجرّد التخيير؛ بل أراد تفويض المرأة، وجعل أمرها بيدها، فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية، وإن اختارت الفرقة صارت مطلقة.

واختلفوا في اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلقة رجعية أو بائنة. فقال بالأوّل عمر وابن مسعود وابن عباس وابن أبي ليلى والثوري والشافعي(٥).

وقال بالثاني عليّ وأبو حنيفة(٦) وأصحابه وروي عن مالك(٧). والراجح

---

(١) «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٥١٤ ـ ١٥١٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٢٨).

(٢) «الإشراف» (٤/ ١٧٨)، و«الاستذكار» (١٧/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٣) في «معالم السنن» (٣/ ٢٤٧).

(٤) أخرجه البخاري رقم (٥٢٦٣) و(٥٢٦٤)، ومسلم رقم (٢٥، ٢٧/ ١٤٧٧)، وأحمد رقم (٢٤٦٥٣، ٢٥٣٧٦).

(٥) «روضة الطالبين» (٨/ ٥٢)، و«تكملة المجموع» (١٧/ ٩١ ـ ٩٢).

(٦) «شرح فتح القدير» (٣/ ٤١٢ ـ ٤١٣)، و«الهداية» (١/ ٢٦٥).

(٧) «المدونة» (٢/ ٢٧٠)، و«القوانين الفقهية» (ص٢٣٣ ـ ٢٣٤).

الأوّل؛ لأنه يبعد كل البعد أَنْ يطلق رسول الله ﷺ نساءه على خلاف ما أمره الله به، وقد أمره بقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وروي عن زيد بن ثابت[١]: أَنَّها إذا اختارت نفسها، فثلاث طلقات، وليس لهذا القول وجه.

وقد روي[٢] عن عليّ: أَنّها إذا اختارت نفسها فليس بشيء وإذا اختارت زوجها فواحدة رجعية.

ثم لما اختار نساء رسول الله ﷺ رسولَ الله أنزل فيهنّ هذه الآيات تكرمة لهنّ، وتعظيماً لحقهنّ، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: ظاهرة القُبح واضحة الفُحْش، وقد عصمهنّ الله عن ذلك، وبرأهنّ، وطهرهنّ ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾؛ أي: يعذبهنّ مِثْلي عذاب غيرهنّ من النساء إذا أتين بمثل تلك الفاحشة، وذلك لشرفهنّ، وعلوّ درجتهنّ، وارتفاع منزلتهنّ. وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع أنّ تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه إذا عصى تضاعف العقوبات.

وقرأ أبو عمرو: «يُضَعَّف» على البناء للمفعول[٣]، وفرق هو وأبو عبيدة[٤] بين يُضاعَف، ويُضعَّف، فقالا: يكون يضاعف ثلاثة عذابات، ويضعف عذابين.

قال النحاس[٥]: هذه التفرقة التي جاء بها لا يعرفها أحد من أهل اللغة، والمعنى في يضاعف ويضعَّف واحد؛ أي: يُجعل ضعفين، وهكذا ضَعّفَ ما قالاه ابن جرير[٦]. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يتعاظمه ولا يصعب عليه ﴿وَمَن يَقْنُتْ

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٣٤٦)، وابن حزم في «المحلى» (٩/ ٢٩٦).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٣٤٥)، وابن حزم في «المحلى» (٩/ ٢٩١ ـ ٢٩٢)، وعبد الرزاق رقم (١١٩٧٤) و(١١٩٧٧)، وابن أبي شيبة (٥/ ٩٥).

(٣) «التيسير» (ص١٧٩)، و«النشر» (٢/ ٣٤٨)، و«جامع البيان» (١٩/ ٩١). ومع أبي عمرو يعقوب وأبو جعفر وقرأ نافع والكوفيون بألف بعد الضاد وفتح العين مخففّة (يُضاعَف) وقرأ ابن كثير وابن عامر (نُضَعِّف) بضم النون وفتح الضاد وكسر العين مشددة على البناء للفاعل أما (نضاعِف) بكسر العين للبناء للفاعل فشاذة.

(٤) في «مجاز القرآن» (٢/ ١٣٦ ـ ١٣٧).

(٥) في «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٣٤٣).

(٦) في «جامع البيان» (١٩/ ٩١).

مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قرأ الجمهور: «يقنت» بالتحتية[١]، وكذا قرءوا: «يأت منكنّ» حملاً على لفظ مَنْ في الموضعين، وقرأ الجحدري، ويعقوب، وابن عامر في رواية، وأبو جعفر بالفوقية[٢] حملاً على المعنى، ومعنى «من يقنت»: مَنْ يُطع، وكذا اختلف القراء في «مبيّنة»، فمنهم من قرأها بالكسر[٣]، ومنهم من قرأها بفتح الياء كما تقدّم في النساء[٤].

وقرأ ابن كثير، وابن عامر: «نُضَعِّف» بالنون[٥]، ونصب العذاب، وقرئ: «نُضاعِف» بكسر[٦] العين على البناء للفاعل.

﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ قرأ حمزة، والكسائي بالتحتية، وكذا قرأ: «يعمل» بالتحتية[٧]، وقرأ الباقون[٨]: «تعمل» بالفوقية، ونؤت بالنون، ومعنى إتيانهنّ الأجر مرّتين: أَنَّه يكون لهنّ من الأجر على الطاعة مثلاً ما يستحقه غيرهنّ من النساء إذا فعلن تلك الطاعة.

وفي هذا دليل قويّ على أن معنى «يضاعف لها العذاب ضعفين»: أنه يكون العذاب مرّتين لا ثلاثاً؛ لأن المراد إظهار شرفهنّ، ومزيتهنّ في الطاعة والمعصية بكون حسنتهنّ كحسنتين، وسيئتهنّ كسيئتين، ولو كانت سيئتهنّ كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهنّ كحسنتين، فإن الله أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهنّ مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا﴾ زيادةً على الأجر مرّتين ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾. قال المفسّرون: الرزق الكريم هو: نعيم الجنّة حكى ذلك عنهم النحاس[٩].

---

(١) «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩٦)، و«التيسير» (ص١٧٩)، و«النشر» (٢/ ٣٤٨)، و«جامع البيان» (١٩/ ٩٣).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٣). الرواية عن يعقوب وأبي جعفر شاذة.

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٤٧٤)، و«النشر» (٢/ ٣٤٨)، و«التيسير» (ص١٧٩).

(٤) انظر: المصادر المتقدمة.

(٥) «البحر المحيط» (٨/ ٤٧٣)، و«التيسير» (ص١٧٩). تقدم في الصفحة السابقة.

(٦) وهي قراءة شاذة. «البحر المحيط» (٨/ ٤٧٣).

(٧) «التيسير» (ص١٧٩)، و«النشر» (٢/ ٣٤٨)، و«التبيان» (٢/ ١٠٥٦).

(٨) انظر: المصادر المتقدمة.

(٩) في «إعراب القرآن» (٣/ ٣١٢).

ثم أظهر سبحانه فضيلتهنّ على سائر النساء تصريحاً، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال الزجّاج[1]: لم يقل: كواحدة مِنْ النساء؛ لأن أحد نفي عام للمذكر، والمؤنث، والواحد، والجماعة.

وقد يقال: على ما ليس بآدميّ كما يقال: ليس فيها أحد لا شاة، ولا بعير. والمعنى: لستنّ كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف. ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد، فقال: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ فبيَّن سبحانه: أن هذه الفضيلة لهنّ إنما تكون بملازمتهنّ للتقوى لا لمجرّد اتصالهنّ بالنبيّ ﷺ.

وقد وقعت منهنّ ولله الحمد التقوى البينة والإيمان الخالص والمشي على طريقة رسول الله ﷺ في حياته، وبعد مماته. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ أي: إن اتقيتنّ، فلستنّ كأحد من النساء. وقيل: إن جوابه: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ والأوّل أولى. ومعنى ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾: لا تلنّ القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات مِنْ النساء، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة، وهي قوله: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾؛ أي: فجور وشك ونفاق.

وانتصاب «يطمع» لكونه جواب النهي. كذا قرأ الجمهور[2].

وحكى أبو حاتم: أن الأعرج قرأ: «فيَطمِع» بفتح الياء[3]، وكسر الميم.

قال النحاس[4]: أحسب هذا غلطاً، ورويت هذه القراءة عن أبي السمّال[5]، وعيسى بن عمر، وابن محيصن، وروي عنهم[6]: أنهم قرءوا بالجزم عطفاً على محل فعل النهي ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عند الناس بعيداً مِنْ الريبة على سنن الشرع، لا ينكر منه سامعه شيئاً، ولا يطمع فيهنّ أهل الفسق والفجور بسببه ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ الجمهور[7]: «وقِرْن» بكسر القاف من وَقَرَ يَقِرَ وقاراً؛ أي: سَكَنَ، والأمر منه قِرْ بكسر القاف، وللنساء قِرْن مثل: عِذْنَ وزِنّ.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٢٤).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٤٧٦)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٣٨)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٨٢). قراءة الجمهور هي المتواترة وما عداها فشاذ.

(٣) «القراءات الشاذة» (ص١١٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٦)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٨٢).

(٤) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣١٣).

(٥) وهي قراءة شاذة. «القراءات الشاذة» (ص١١٩).

(٦) «المحتسب» (٢/ ١٨١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٦).

(٧) «روح المعاني» (٢١/ ٢٨٣)، و«التيسير» (ص١٧٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٣٩).

وقال المبرد[(١)]: هو من القرار لا من الوقار، تقول: قررت بالمكان بفتح الراء، والأصل اقرِرن بكسر الراء، فحذفت الراء الأولى تخفيفاً كما قالوا في: ظللت ظلت، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغنى عن ألف الوصل بتحريك القاف.

وقال أبو علي الفارسي[(٢)]: أبدلت الراء الأولى ياء كراهة التضعيف كما أبدلت في قيراط، ودينار، وصار للياء حركة الحرف الذي أبدلت منه، والتقدير: اقْيرن، ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر، فتسقط الياء لاجتماع الساكنين، وتسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها فيصير قِرْن.

وقرأ نافع، وعاصم بفتح القاف[(٣)] وأصله: قَرِرْتُ بالمكان: إذا أقمت فيه بكسر الراء، أَقَرّ بفتح القاف كحَمِد يَحْمَد، وهي: لغة أهل الحجاز، ذكر ذلك أبو عُبيد[(٤)] عن الكسائي، وذكرها الزجاج[(٥)] وغيره.

قال الفراء[(٦)]: هو كما تقول هل حَسْت صاحبَك؛ أي: هل أحْسَسته؟ قال أبو عُبيد[(٧)]: كان أشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف، وذلك لأن قررت بالمكان أقرّ لا يجوّزه كثير من أهل العربية.

والصحيح قررت أقرّ بالكسر، ومعناه: الأمر لهنّ بالتوقر والسكون في بيوتهنّ، وأنْ لا يخرجن، وهذا يخالف ما ذكرناه هنا عنه عَنْ الكسائي، وهو من أجلّ مشايخه. وقد وافقه على الإنكار لهذه القراءة أبو حاتم[(٨)]، فقال: إن «قَرْن» بفتح القاف لا مذهب له في كلام العرب.

قال النحاس[(٩)]: قد خولف أَبو حاتم في قوله: إنّه لا مذهب له في كلام العرب بل فيه مذهبان:

أحدهما: حكاه الكسائي، والآخر عن عليّ بن سليمان[(١٠)]. فأما المذهب

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٤٧٦)، و«روح المعاني» (٢١/ ٢٨٣).
(٢) في «الحجة» للقرّاء السبعة (٥/ ٤٧٥).
(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧).
(٤) في «الغريب المصنف» (٢/ ٤٨٩).
(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٢٥).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٤٢).
(٧) في «الغريب المصنف» (٢/ ٤٨٩).
(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٤٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣١٤).
(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٣١٣).
(١٠) في «إعراب القرآن» (٣/ ٣١٣).

الذي حكاه الكسائي، فهو ما قدّمناه من رواية أبي عبيد عنه، وأما المذهب الذي حكاه عليّ بن سليمان، فقال: إنه من قررت به عيناً أقرّ. والمعنى: واقررن به عيناً في بيوتكنّ. قال النحاس(١): وهو وجه حسن.

وأقول: ليس بحسنٍ، ولا هو معنى الآية، فإن المراد بها أمرهنّ بالسكون والاستقرار في بيوتهنّ، وليس مِنْ قرّة العين. وقرأ ابن أبي عبلة(٢): «واقرِرن» بألف وصل وراءين الأولى مكسورة على الأصل.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ التبرّج: أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة الرجل.

وقد تقدّم معنى التبرّج في سورة النور.

قال المبرد(٣): هو مأخوذ من السّعة، يقال: في أسنانه بَرَج: إذا كانت متفرّقة. وقيل: التبرّج هو: التبختر في المشي، وهذا ضعيف جدّاً [٣/٣٩٧].

وقد اختلف في المراد بالجاهلية الأولى، فقيل: ما بين آدم(٤) ونوح، وقيل: ما بين نوح(٥) وإدريس، وقيل: ما بين نوح(٦) وإبراهيم، وقيل: ما بين موسى(٧) وعيسى، وقيل: ما بين عيسى(٨) ومحمد.

وقال المبرد(٩): الجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء. قال: وكان نساء الجاهلية تُظهر ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها، فينفرد خليلها بما فوق الإزار إلى أعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٣١٤).

(٢) في «إعراب القرآن» (٣/ ٣١٤). قراءة ابن أبي عبلة شاذة مخالفة للرسم.

(٣) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٧١)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٧٧).

(٤) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٣١٤).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٩٨)، عن الحكم بسند صحيح.

(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٩٨ ـ ٩٩)، والحاكم (٢/ ٥٤٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥٤٥١)، عن ابن عباس بسند حسن.

(٧) «جامع البيان» (١٩/ ٩٩)، و«المحرر الوجيز» (١٣/ ٧٢)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٩٩).

(٨) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٧٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٤٢)، و«النكت والعيون» (٤/ ٣٩٩).

(٩) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٣١٤).

قال ابنُ عطية[(١)]: والذي يظهر لي أنّه أشار إلى الجاهلية التي لحقنها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهنّ فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرَة عندهم، وليس المعنى: أنّ ثَمَّ جاهلية أخرى كذا قال، وهو قول حسن.

ويمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى ما يقع في الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنى: ولا تبرّجن أيها المسلمات بعد إسلامكنّ تبرّجاً مثل تبرّج أهل الجاهلية التي كنتنّ عليها، وكان عليها من قبلكنّ؛ أي: لا تُحْدثن بأفعالكنّ وأقوالكنّ جاهليةً تُشابه الجاهلية التي كانت من قبل.

﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ خصّ الصلاة والزكاة لأنّهما أصل الطاعات البدنية والمالية.

ثم عمم فأمرهنّ بالطاعة لله ولرسوله في كل ما هو شرع ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: إنما أوصاكنّ الله بما أوصاكنّ من التقوى، وأنْ لا تخضعن بالقول، ومِنْ قول المعروف، والسكون في البيوت، وعدم التبرّج، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة؛ ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، والمراد بالرجس: الإِثْم والذنب المُدنِّسان للأعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، فيدخل تحت ذلك كل ما ليس فيه لله رضا، وانتصاب أهل البيت على المدح كما قال الزجاج[(٢)]، قال: وإن شئت على البدل.

قال: ويجوز الرفع والخفض.

قال النّحاس[(٣)]: إن خفض فعلى أنه بدل من الكاف والميم، واعترضه المبرد بأنَّه لا يجوز البدل من المخاطب، ويجوز أن يكون نصبه على النداء ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؛ أي: يطهركم مِنْ الأرجاس والأدران تطهيراً كاملاً. وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ، وزجر لفاعلها شديد.

وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية، فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير: إن أهل البيت المذكورين في الآية

---

(١) في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٧٢).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٢٦).
(٣) في «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣١٥).

هنّ: زوجات النبيّ ﷺ خاصة[١].

قالوا: والمراد بالبيت بيت النبي ﷺ، ومساكن[٢] زوجاته لقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾. وأيضاً السياق في الزوجات من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾. وقال أَبُو سعيد الخَدْري، ومجاهد، وقتادة، وروي عن الكلبي: أَنّ أهل البيت[٣] المذكورين في الآية هم: عليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين خاصة، ومن حججهم الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، وهو قوله: «عنكم ويطهركم»، ولو كان للنساء خاصة لقال عنكنّ، ويطهركنّ.

وأجاب الأولون عَنْ هذا أن التذكير باعتبار لفظ الأهل كما قال سبحانه: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾ [هود: ٧٣] وكما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد زوجته، أو زوجاته، فيقول: هم بخير.

ولنذكر ههنا ما تمسك به كلّ فريق: أما الأوّلون: فتمسكوا بالسياق، فإنه في الزوجات. كما ذكرنا، وبما أخرجه ابن أبي حاتم، وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس[٤] في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ قال: نزلت في نساء النبيّ ﷺ خاصة.

وقال عكرمة[٥]: من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبيّ ﷺ.

وأخرج نحوه ابن مردويه[٦] من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن عكرمة[٧] نحوه.

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٧٤ ـ ٧٥)، و«جامع البيان» (١٩/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٤٦).

(٢) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٧٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٧٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٤٦).

(٤) ذكره ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٣١٣٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦٩/ ١٥٠) بسند حسن.

(٥) وهو مرسل.

(٦) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٣).

(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٧، ١٠٨) مرسلاً من طريق الأصبغ بن علقمة، به.

وأخرج ابن سعد[١] عن عروة نحوه.

وأما ما تمسك به الآخرون فأخرج الترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» من طرق عن أمّ سلمة[٢] قالت: في بيتي نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وفي البيت فاطمة، وعليّ، والحسن، والحسين، فجلّلهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أمّ سلمة[٣] أيضاً: أن النبيّ ﷺ كان في بيتها على منامة له عليه كساء خيبريّ، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فقال رسول الله ﷺ: «ادعي زوجك، وابنيك حسناً، وحسيناً، فدعتهم، فبينما هم يأكلون إذ نزلت على النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فأخذ النبيّ ﷺ بفضلة كسائه، فغشاهم إياها، ثم أخرج يده من الكساء، وألوى بها إلى السماء، ثم قال: اللَّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي، وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، قالها ثلاث مرّات. قالت أمّ سلمة: فأدخلتُ رأسي في الستر، فقلت: يا رسول الله، وأنا معكم؟ فقال: إنَّك إلى خير مرّتين».

وأخرجه أيضاً أحمد[٤] مِنْ حديثها قال: حدّثنا عبد الله بن نمير. حدّثنا عبد الملك بن أبي سليمان عَنْ عطاء بن أبي رباح، حدّثني من سمع أمّ سلمة تذكر: أن النبيّ ﷺ، فذكره. وفي إسناده مجهول، وهو شيخ عطاء، وبقية رجاله ثقات.

وقد أخرجه الطبراني[٥] عنها من طريقين بنحوه. وقد ذكر ابن كثير[٦] في «تفسيره» لحديث أمّ سلمة طرقاً كثيرة في مسند أحمد، وغيره.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي قم (٣٨٧١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٣ ـ ١٠٥)، والبيهقي (٢/ ١٥٠)، والحاكم (٢/ ٤١٦) (٣/ ٢٤٦). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٣ ـ ١٠٧)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٧٧٣)، وأحمد رقم (٢٦٥٠٨). وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٢٩٢)، وفي سنده شهر بن حوشب. قال الحافظ في «التقريب» (١/ ٣٥٥ رقم ١١٢): «صدوق كثير الإرسال والأوهام...».

(٥) انظر: ما تقدم.

(٦) في «تفسيره» (١١/ ١٥٥ ـ ١٥٨).

وأخرج ابن مردويه، والخطيب من حديث أبي سعيد الخدري[١] نحوه.

وأخرج الترمذي وابنُ جرير، والطبراني، وابن مردويه عن عمر بن أبي سلمة[٢] ربيب النبيّ ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية على النبيّ ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، وذكر نحو حديث أمّ سلمة.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، ومسلم، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عن عائشة[٣] قالت: «خرج النبيّ ﷺ غداة، وعليه مُرْط مرجّل من شعر أسود، فجاء الحسن والحسين، فأدخلهما معه، ثم جاءت فاطمة، فأدخلها معه، ثم جاء عليّ، فأدخله معه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصحّحه، والبيهقي في «سننه» عن واثلة بن الأسقع[٤] قال: «جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة، ومعه عليّ، وحسن، وحسين حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة، وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً، وحسيناً كل واحد منهما على فخذه، ثم لفّ عليهم ثوبه، وأنا مستدبرهم، ثم تلا هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ وقال: اللّٰهُمَّ هؤلاء أهل بيتي، اللّٰهُمَّ أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، قلت: يا رسول الله، وأنا مِنْ أهلك؟ قال: وأنت من أهلي». قال واثلة: إنه لأرجا ما أرجوه. وله طرق في مسند أحمد.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن المنذر،

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٤)، وأخرجه الخطيب في «تاريخه» (٩/ ١٢٦، ١٢٧) و(١٠/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٢٠٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٦)، والطبراني رقم (٨٢٩٥). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٧٢)، وأحمد رقم (٢٥٢٩٥)، ومسلم رقم (٢٤٢٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٢)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٥٧)، والحاكم (٣/ ١٤٧) (٤/ ١٨٨).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٧٣)، وأحمد رقم (١٦٩٨٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٣، ١٠٤)، والطبراني رقم (٢٦٦٧)، وفي (ج٢٢ رقم ١٦٠)، والحاكم (٢/ ٤١٦) (٣/ ١٤٧)، والبيهقي (٢/ ١٥٢). وهو حديث صحيح.

والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أنس[١]: «أن رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

وأخرج مسلم[٢] عَنْ زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ قال: «أذكركم الله في أهل بيتي» فقيل لزيد: ومن أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته مَنْ حرم الصدقة بعده: آل عليّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس.

وأخرج الحكيم الترمذي، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهما قسماً، فذلك قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٧] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١] فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني في خيرها ثلاثاً، فذلك قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٤]، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٩]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠] فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين. ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني في خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وأنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله، ولا فخر. ثم جعل القبائل بيوتاً، فجعلني في خيرها بيتاً، فذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فأنا، وأهل بيتي مطهرون مِنْ الذنوب».

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن أبي الحمراء[٤] قال: رابطت المدينة سبعة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ١٢٧)، وأحمد رقم (١٣٧٢٨) و(١٤٠٤٠)، والترمذي رقم (٣٢٠٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٢)، والطبراني رقم (٢٦٧١)، والحاكم (٣/ ١٥٨). وهو حديث ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» رقم (٢٤٠٨).

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي (١/ ٣٣٠، ٣٣١)، والطبراني رقم (٢٦٧٤، ١٢٦٠٤)، والبيهقي (١/ ١٧٠، ١٧١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢١٥): «فيه يحيى بن عبد الحميد وعبابة بن ربعي وكلاهما ضعيف».

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٣) بسند ضعيف جدّاً.
أبو داود الأعمى وهو نفيع بن الحارث كذَّاب. كما قال ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ١٥٣).

أشهر على عهد رسول الله، قال: «رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب عليّ، وفاطمة، فقال: الصلاة الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾». وفي إسناده أبو داود الأعمى، وهو وضاع كذّاب.

وفي الباب أحاديث، وآثار، وقد ذكرنا ههنا ما يصلح للتمسك به دون ما لا يصلح.

وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات، ولعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، أما الزوجات، فلكونهنّ المرادات في سياق هذه الآيات كما قدّمنا، ولكونهنّ الساكنات في بيوته ﷺ النازلات في منازله، ويعضد ذلك ما تقدّم عن ابن عباس، وغيره. وأما دخول عليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين، فلكونهم قرابته، وأهل بيته في النّسب، ويؤيد ذلك ما ذكرناه من الأحاديث المصرّحة بأنّهم سبب النزول، فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين، [٣/٣٩٨] فقد أعمل بعضَ ما يجب إعماله، وأهمل ما لا يجوز إهماله.

وقد رجّح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي(١) وابن كثير(٢) وغيرهما.

وقال جماعة: هم بنو هاشم، واستدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس، وبقول زيد بن أرقم المتقدّم حيث قال: ولكن آله من حرّم الصدقة بعده: آل عليّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، فهؤلاء ذهبوا إلى أن المراد بالبيت: بيت النّسب.

قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾؛ أي: اذكرن موضع النِّعمة إذ صيركنّ الله في بيوت يتلى فيها آيات الله، والحكمة، أو اذكرنها، وتفكّرن فيها لتتعظن بمواعظ الله، أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهداها، أو اذكرنها بالتلاوة لها؛ لتحفظنّها، ولا تتركن الاستكثار من التلاوة.

قال القرطبي(٣): قال أهل التأويل: آيات الله هي: القرآن، والحكمة: السُّنَّة. وقال مقاتل(٤): المراد بالآيات والحكمة: أمره ونهيه في القرآن.

---

(١) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٤٦). (٢) في «تفسيره» (١١/ ١٥٢).
(٣) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٤٧).
(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٧٠).

وقيل: إن القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد، وصدق النبوة، وبين كونه حكمة مشتملة على فنون من العلوم والشرائع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾؛ أي: لطيفاً بأوليائه خبيراً بجميع خلقه، وجميع ما يصدر منهم من خير وشرّ وطاعة ومعصية، فهو يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقد أخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وابن مردويه من طريق أبي الزبير عن جابر[1] قال: «أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، والناس ببابه جلوس، والنبيّ ﷺ جالس، فلم يُؤذن له، ثم أقبل عمر، فاستأذن، فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر، فدخلا، والنبيّ ﷺ جالس، وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمنّ النبيّ ﷺ لعلّه يضحك، فقال عمر: يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألت النفقة آنفاً فوجأت في عُنقها، فضحك النبيّ ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال: هنّ حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها، وقام عمر إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسولَ الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وأنزل الله الخيار، فنادى بعائشة، فقال: إنِّي ذاكر لك أمراً ما أحبّ أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك، قالت: ما هو؟ فتلا عليها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآية، قالت عائشة: أفيك أستأمر أبويّ؟ بل أختار الله ورسوله، وأسألك أن لا تذكر لنسائك ما اخترت، فقال: إن الله لن يبعثني متعنتاً، ولكن بعثني مُعلِّماً مبشراً، لا تسألني امرأة منهن عمَّا اخترت إلا أخبرتها».

وأخرج البخاري، ومسلمٌ، وغيرهما عن عائشة[2]: «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه قالت: فبدأ بي، فقال: إني ذاكر لك أمراً، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك، وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه،

---

(١) أخرجه أحمد رقم (١٤٥١٥) واللفظ له، ومسلم رقم (١٤٧٨)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٩٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٧٨٥)، ومسلم رقم (١٤٧٥)، والترمذي رقم (٣٢٠٤)، والنسائي رقم (٣٢٠١، ٣٤٤٠)، وابن ماجه رقم (٢٠٥٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٨٩، ٩٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، وابن مردويه كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٢١)، والبيهقي (٧/ ٣٤٤، ٣٤٥).

فقال: إن الله قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إلى تمام الآية، فقلت له: ففي أيّ هذا أستأمر أبويّ؟ فإني أريدُ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وفعل أزواج النبيّ ﷺ مثل ما فعلت».

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس(١) في قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قال: يقول: من يطع الله منكنّ، وتعمل منكنّ لله ورسوله بطاعته.

وأخرج ابن المنذر(٢) عنه في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ قال: يقول: لا ترخَّصن بالقول ولا تخضعن بالكلام.

وأخرج ابن المنذر(٣) عنه أيضاً في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ قال: مقاربة الرجال في القول حتى يطمع الذي في قلبه مرض.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر عن محمد بن سيرين(٤) قال: نبئت: أنه قيل لسودة زوج النبيّ ﷺ: مالك لا تُحجين ولا تعتمرين كما تفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججتُ واعتمرتُ، وأمرني الله أن أقرّ في بيتي، فوالله لا أخرج من بيتي حتى أموت؛ قال: فوالله ما خرجت من باب حُجرتها حتى أُخرجت بجنازتها.

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن سعد، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن المنذر عن مسروق(٥) قال: كانت عائشة إذا قرأت: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ بكت حتى تبلّ خمارها.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه،

---

(١) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٨).

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٩) إلى ابن جرير وابن مردويه.
أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٩٤) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٩).

(٤) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠).

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٨١) من طريق عمارة بن عمير قال: ثنى من سمع عائشة.
وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص١٦٤) من طريق أبي الضحى، حدثنا من سمع عائشة.

والبيهقي في «الشعب» عن ابن عباس[(١)] قال: كانت الجاهلية الأولى فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[(٢)]: أن عمر بن الخطاب سأله، فقال: أرأيت قول الله لأزواج النبيّ ﷺ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ هل كانت جاهلية غيرَ واحدةٍ؟ فقال ابن عباس: ما سمعت بأولى إلا ولها آخرة، فقال له عمر: فأتني من كتاب الله ما يصدّق ذلك، فقال: إنّ الله يقول: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] أوّل مرّة فقال عمر: من أُمرنا أنْ نجاهد؟ قال: مخزوم وعبد شمس.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٣)] عن ابن عباس أيضاً في الآية قال: تكون جاهلية أخرى.

وأخرج ابن أبي حاتم[(٤)] عن عائشة: أنها تلت هذه الآية فقالت: الجاهلية الأولى كانت على عهد إبراهيم.

وأخرج ابن مردويه[(٥)] عن ابن عباس قال: الجاهلية الأولى ما بين عيسى ومحمد.

وقد قدّمنا ذكر الآثار الواردة في سبب نزول قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة[(٦)] في قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قال: القرآن والسُّنَّة يمتنّ بذلك عليهنّ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/٩٨ ـ ٩٩)، والحاكم (٢/٥٤٨) وصحَّحه ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥٤٥١)، وابن أبي حاتم كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٢٠) بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٠)، وابن أبي حاتم كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٢٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٢٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٢٠).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٢).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١٦)، وابن سعد (٨/ ١٩٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٠٨)، وابن أبي حاتم كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٢٠) بسند صحيح.

وأخرج ابن سعد عن أبي أمامة بن سهل[١] في قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ الآية قال: كان رسول الله ﷺ يُصلّي في بيوت أزواجه النوافل بالليل والنهار.

[الصفات التي تحقق القيم التي جاء بها الإسلام]:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بدأ سبحانه بذكر الإسلام الذي هو مجرّد الدخول في الدين، والانقياد له مع العمل، كما ثبت في الحديث الصحيح[٢]: أن النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإسلام قال: «هو أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان.

ثم عطف على المسلمين ﴿وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ تشريفاً لهنّ بالذكر» وهكذا فيما بعد، وإن كنّ داخلات في لفظ المسلمين، والمؤمنين، ونحو ذلك، والتذكير إنما هو لتغليب الذكور على الإناث كما في جميع ما ورد في الكتاب العزيز من ذلك.

ثم ذكر ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وهم مَنْ يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشرّه كما ثبت ذلك في الصحيح[٣] عن رسول الله ﷺ، والقانت: العابدُ المطيع، وكذا القانتة، وقيل: المداومين على العبادة، والطاعة، والصادق والصادقة هما: مَنْ يتكلم بالصدق، ويتجنّب الكذب، ويفي بما عوهد عليه، والصابر والصابرة هما: مَنْ يصبر عن الشهوات، وعلى مشاق التكليف، والخاشع والخاشعة هما: المتواضعان لله الخائفان منه الخاضعان في عباداتهم لله، والمتصدّق والمتصدّقة هما: مَنْ تصدّق من ماله بما أوجبه الله عليه.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٩٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم نصّه وتخريجه.

وقيل: ذلك أعمّ من صدقة الفرض والنفل، وكذلك الصائم والصائمة، قيل: ذلك مختصّ بالفرض، وقيل: هو أعمّ، والحافظ، والحافظة لفرجيهما عن الحرام بالتعفف، والتنزّه، والاقتصار على الحلال، والذاكر والذاكرة هما: مَنْ يذكر الله على أحواله، وفي ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر الله سبحانه بالقلب واللسان، واكتفى في الحافظات بما تقدّم في الحافظين من ذكر الفروج.

والتقديرُ: والحافظين فروجَهم، والحافظات فروجهنّ، وكذا في الذاكرات، والتقدير: والذاكرين الله كثيراً، والذاكرات الله كثيراً، والخبر لجميع ما تقدّم هو قولُه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ أي: مغفرةً لذنوبهم التي أذنبوها، وأجراً عظيماً على طاعاتهم التي فعلوها مِنْ الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، والعفاف، والذكر، ووصف الأجر بالعظم للدلالة على أنّه بالغ غاية المبالغ، ولا شيء أعظم من أجرٍ هو الجنّة ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع، ولا ينفد، اللَّهُمَّ اغفر ذنوبنا، وأعظم أجورنا [٣/٣٩٩]

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: ما صحّ[1] ولا استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين، ولفظ ما كان، وما ينبغي ونحوهما معناها: المنْعُ، والحَظْر مِنْ الشيء والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعاً.

وقد يكون لما يمتنع عَقْلاً كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠] ومعنى الآية: أنّه لا يحلّ لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمراً أن يختار من أمر نفسه ما شاء؛ بل يجب عليه أَنْ يُذْعن للقضاء، ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه واختاره له، وجمع الضميرين[2] في قوله: ﴿لَهُمُ﴾، و﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ لأنّ مؤمن ومؤمنة وقعا في سياق النفي فهما يُعمّان كل مؤمن، ومؤمنة.

قرأ الكوفيون «أَنْ يكون» بالتحتية[3]، واختار هذه القراءة أبو عُبيد[4]؛ لأنه قد فرّق بين الفعل وفاعله المؤنث بقوله: ﴿لَهُمُ﴾ مع كون التأنيث غير حقيقي، وقرأ

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ٣١٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٥٢).
(٢) «روح المعاني» (٢١/ ٣١٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٤١٤).
(٣) «التيسير» (ص١٧٩)، و«النشر» (٢/ ٣٤٨).
(٤) «البحر المحيط» (٨/ ٤٨١).

الباقون بالفوقية[١] لكونه مسنداً إلى ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾، وهي مؤنثة لفظاً، والخيرة مصدر بمعنى: الاختيار.

وقرأ ابنُ السميفع: «الخيْرة» بسكون التحتية[٢]، والباقون بتحريكها[٣].

ثم توعد سبحانه مَنْ لم يُذْعن لقضاء الله وقدره، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في أمرٍ من الأمور، ومن ذلك عدم الرضا بالقضاء ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾؛ أي: ضلّ عن طريق الحق ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى.

وقد أخرج أحمدُ، والنَّسائي، وابنُ جرير، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه عَنْ أمّ سلمة[٤] قالت: قلتُ: يا رسول الله مالنا لا نُذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ فلم يرعني منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر، وهو يقول: إنّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى آخر الآية.

وروي نحو هذا عنها[٥] مِنْ طريق أخرى أخرجها الفريابي وابن سعد وابن أبي شيبة وعبد بن حُميد والنّسائي وابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذي وحسنه والطبراني وابن مردويه عن أمّ عمارة الأنصارية[٦]: أنها أتت النبيّ ﷺ، فقالت: ما أرى كلّ شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾.

وأخرج ابن جرير، والطبراني، وابن مردويه بإسناد. قال السيوطي[٧]: حسن، عن ابن عباس[٨] قال: قالت النّساء: يا رسولَ الله ما باله يذكر المؤمنين، ولا يذكر المؤمنات؟ فنزلت ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الآية.

---

(١) «الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩٨)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣١٨)، و«التيسير» (ص١٧٩). في رواية هشام عن ابن عامر بالتحتية كالكوفين.

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١١٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٨١)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣١٨).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٤٨١)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣١٨)، و«زاد المسير» (٦/ ٣٨٦).

(٤) أخرجه أحمد رقم (٢٦٥٧٥، ٢٦٦٠٣، ٢٦٦٠٤)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٤٠٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١١١)، والطبراني (ج٢٣ رقم ٥٥٤) بسند صحيح.

(٥) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٩٩)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٤٠٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١١٠) بسند صحيح.

(٦) أخرجه الترمذي رقم (٣٢١١)، والطبراني (ج٢٥ رقم ٥١ ـ ٥٣) بسند صحيح.

(٧) في «الدر المنثور» (٦/ ٦٠٨).

(٨) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١١١)، والطبراني رقم (١٢٦١٤)، وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ١٠٨) بسند حسن لغيره.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ مردويه عن ابن عباس[١] ﵄ قال: إنّ رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاة زيد بن حارثة، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها، قالت: لست بناكحته، قال: بلى فانكحيه، قالت: يا رسول الله أؤامر نفسي فبينما هما يتحدّثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، قالت: قد رضيتُه لي يا رسول الله مُنْكِحاً؟ قال: نعم، قالت: إذن لا أعصي رسول الله قد أنكحته نفسي.

وأخرج نحوه عنه ابن جرير[٢] من طريق أخرى.

وأخرج ابنُ مردويه[٣] عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ لزينب: «إني أريد أن أزوّجك زيد بن حارثة، فإنّي قد رضيتُه لك، قالت: يا رسول الله لكنّي لا أرضاه لنفسي وأَنا أيم قومي، وبنت عمَّتك، فلم أكن لأفعل، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾؛ يعني: زيداً ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾؛ يعني: زينب ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾؛ يعني: النِّكاح في هذا الموضع ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يقول: ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر الله به ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قالت: قد أطعتك فاصنع ما شئت، فزوّجها زيداً، ودخل عليها».

وأخرج ابنُ أبي حاتم[٤] عن ابن زيد قال: نزلت في أمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط، وكانت أوّل امرأة هاجرت، فوهبت نفسَها للنبيّ ﷺ، فزوّجها زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها وقالا: إنّما أردنا رسول الله فزوّجنا عبده.

[قصة زينب بنت جحش مع زيد بن حارثة]:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١١٢، ١١٣) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١١٣) بسند ضعيف.
(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٠).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١١٤) بسند صحيح.

قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾.

[إبطال آثار التبنّي وإحلال مطلقات الأدعياء]:

لما زوّج رسول(١) الله ﷺ زيد بن حارثة بزينب بنت جحش كما مرّ في تفسير الآية التي قبل هذه أنزل الله سبحانه: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: واذكر إذ تقول للذي أنعم الله عليه، وهو: زيد بن حارثة، أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه رسول الله ﷺ بأن أعتقه من الرق، وكان من سبي الجاهلية اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية وأعتقه وتبنّاه، وسيأتي في بيان سبب نزول الآية في آخر البحث ما يوضح المراد منها.

قال القرطبي(٢): وقد اختلف في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة(٣)، وابن زيد(٤)، وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبري(٥) وغيره إلى أن النبي ﷺ وقع

---

(١) «جامع البيان» (١٩/ ١١٤ ـ ١١٥)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣١٩ ـ ٣٢٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٢) في «تفسيره» (١٧/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١١٥ ـ ١١٦)، والطبراني (ج٢٤ رقم ١١٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١٧) من طرق بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١١٦).

(٥) وهذا القول غير صحيح عند أهل التحقيق من المفسرين، وقد ردَّ العلماء هذه الأخبار ونزّهوا النبي ﷺ عما نسب إليه.

● قال أبو العباس في «المفهم» (١/ ٤٠٦): قد اجترأ بعض المفسرين في تفسير هذه الآية، ونسب إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به، ويستحيل عليه؛ إذ قد عصمه الله منه، ونزّهه عن مثله.

وقال القاضي عياض في «الشفا» (٢/ ٤٢٥): وذكر عن القشيري قوله: وهذا إقدامٌ عظيم من قائله، وقلةُ معرفةٍ بحقِّ النبي وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهي ابنة عمته ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ وهو زوَّجها لزيد.

وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٥٣٤): وورد آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها، والذي أوردته منها هو المعتمد، =

منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد، فيتزوّجها هو، ثم إنّ زيداً لما أخبره بأنّه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول، وعصيان أمر، وأذى باللسان، وتعظماً بالشرف قال له: اتق الله فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك، وهو يُخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يُخفي في نفسه، ولكنّه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف. انتهى.

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؛ يعني: زينب ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ في أمرها، ولا تعجل بطلاقها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وهو: نكاحها إن طلقها زيد، وقيل: حبّها ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾؛ أي: تستحييهم، أو تخاف من تعييرهم بأن يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته، ثم تزوّجها ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ في كل حال، وتخاف منه، وتستحييه والواو للحال؛ أي: تُخْفي في نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ قضاء الوَطَر[١] في اللغة: بلوغ مُنْتهى ما في النفس من الشيء، يقال: قضى وَطَراً منه: إذا بلغ ما أراد مِنْ حاجته فيه، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة[٢]:

أَيُّها الرَّائِحُ المُجِدُّ ابتِكارا قَدْ قَضَى مِنْ تِهامَةَ الأَوْطَارا

أي: فرغ من أعمال الحج وبلغ ما أراد منه.

والمراد هنا: أنه قضى وطره منها بنكاحها، والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وقيل: المراد به: الطلاق؛ لأنّ الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة، وقال المبرِّد[٣]: الوطر الشهوة والمحبة، وأنشد:

وكيفَ ثُوائي بالمدينةِ بَعْدَ مَا قَضَى وَطَراً منها جَميلُ بنُ مَعْمر[٤]

وقال أبو عبيدة[٥]: الوطر: الأرَب والحاجة، وأنشد قول الفزاري:

= والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة الذي يدعى ابناً، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم، وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية، والله أعلم.

(١) «تهذيب اللغة» (١٤/ ١٠)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٨٧٤).

(٢) انظر: «شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة» (ص٤٩٣) ط. الأندلس.

(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢١/ ٣٢٤).

(٤) «روح المعاني» (٢١/ ٣٢٤)، و«مجاز القرآن» (٢/ ١٣٨).

(٥) في «مجاز القرآن» (٢/ ١٣٨).

وَدّعــنــا قـبــلَ أن نُـودّعــه   لـمّـا قَـضَـى مـن شَـبَـابِـنـا وَطَـرَا[١]

قرأ الجمهور[٢] ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وقرأ عليّ وابناه الحسن[٣] والحسين «زوّجتُكها» فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا عقد ولا تقدير صداق، ولا شيء مما هو مُعْتبر في النكاح في حق أمّته. وقيل: المراد به الأمر له بأن يتزوّجها، والأوّل أولى، وبه جاءت الأخبار الصحيحة.

ثم علَّل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾؛ أي: ضيق ومشقة ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾؛ أي: في التزوّج بأزواج من يجعلونه ابناً كما كانت تفعله العرب، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون.

وكان النبيّ ﷺ قد تبنّى زيد بن حارثة، فكان يقال: زيد بن محمد حتى نزل قوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] وكانت العرب تعتقد أنه يحرم عليهم نساء من تبنوه كما تحرم عليهم نساء أبنائهم حقيقة. والأدعياء جمع دعيّ، وهو الذي يدعي ابناً مِنْ غير أن يكون ابناً على الحقيقة، فأخبرهم الله أن نساء الأدعياء حلال لهم ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ بخلاف ابن الصلب، فإن امرأته تحرّم على أبيه بنفس العقد عليها ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ أي: كان قضاء الله في زينب أن يتزوّجها رسول الله ﷺ قضاء ماضياً مفعولاً لا محالة.

ثم بيّن سبحانه: أنّه لم يكن على رسول الله ﷺ حرج في هذا النكاح، فقال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾؛ أي: فيما أحلّ الله له وقدّره وقضاه، يقال: فرض له كذا: أي: قدّر له ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: إن هذا هو السّنن الأقدم في الأنبياء والأمم الماضية أَنْ ينالوا ما أحلَّه الله لهم من أمر النكاح وغيره ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾؛ أي: قضاءً مقضياً.

قال مقاتل[٤]: أخبر الله أن أمر زينب كان من حكم الله وقدره، وانتصاب[٥]

---

(١) «روح المعاني» (٢١/ ٣٢٤).
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٤٨٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣٢٦)، و«الكشاف» (٥/ ٧٤). قراءة الجمهور هي المتواترة وقراءة علي وولديه الحسن والحسين شاذة.
(٣) انظر: المصادر المتقدمة.
(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٧٤).
(٥) «روح المعاني» (٢١/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، و«الفريد» (٤/ ٤٣).

سُنَّة على المصدر: أي: سنّ الله سُنَّة الله، أو اسم وضع موضع المصدر، أو منصوب بجعل، أو بالإغراء.

وردّه أبو حبان[١] بأن عامل الإغراء لا يحذف.

ثم ذكر سبحانه الأنبياء الماضين، وأثنى عليهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾، والموصول[٢] في محلّ جر صفة «للذين خلوا»، أو منصوب على المدح، مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده، وخشيته في كل فعل وقول، ولا يخشون سواه ولا يبالون بقول الناس ولا بتعييرهم؛ بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ حاضراً في كل مكان، يكفي عباده كل ما يخافونه أو محاسباً لهم في كل شيء، ولما تزوّج ﷺ زينب قال الناس: تزوّج امرأة ابنه، فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾؛ أي: ليس بأب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته، ولا هو أب لأحد لم يلده.

قال الواحدي[٣]: قال المفسِّرون: لم يكن أبا أحد لم يلده، وقد ولد له من الذكور إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر.

قال القرطبي[٤]: ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً، قال: وأما الحسن والحسين، فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرين له [٣/٤٠٠] ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ قال الأخفش[٥]، والفراء[٦]: ولكن كان رسول الله، وأجازا الرفع[٧].

وكذا قرأ ابن أبي عبلة بالرفع[٨] في «رسولُ» وفي «خاتمُ» على معنى: ولكن هو رسول الله وخاتم النبيين، وقرأ الجمهور[٨] بتخفيف ﴿وَلَٰكِن﴾ ونصب ﴿رَّسُولَ﴾ و﴿وَخَاتَمَ﴾، ووجه النصب على خبرية «كان» المقدرة كما تقدّم، ويجوز أن يكون بالعطف على أبا أحد.

---

(١) في «البحر المحيط» (٨/ ٤٨٤).
(٢) «الفريد» (٤/ ٤٣)، و«التبيان» (٢/ ١٠٥٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣٢٩).
(٣) في «الوسيط» (٣/ ٤٧٤).
(٤) في «تفسيره» (١٧/ ١٦٥).
(٥) في «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٦٦٠).
(٦) في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٤٤).
(٧) «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٣١٧).
(٨) «المحتسب» (١/ ٣٥٠)، و«القراءات الشاذة» (ص١٢٠)، و«مشكل إعراب القرآن» (٢/ ١٩٩). قراءة الرفع في «رسولُ» وفي شاذة.

وقرأ أبو عمرو[١] في رواية عنه بتشديد «لكنّ» ونصب «رسولَ» على أنه اسمها وخبرها محذوف: أي: ولكن رسول الله هو. وقرأ الجمهور[٢] «خاتِم» بكسر التاء. وقرأ عاصم[٣] بفتحها.

ومعنى القراءة الأولى: أنّه خَتَمُهم: أي: جاء آخرهم. ومعنى القراءة الثانية: أنه صار كالخاتم لهم الذي يتختمون به، ويتزينون بكونه منهم. وقيل: كسر التاء، وفتحها لغتان.

قال أبو عبيدة[٤]: الوجه الكسر؛ لأن التأويل: أنه ختمهم، فهو: خاتمهم، وأنه قال: «أنا خاتم النبيين»، وخاتم الشيء آخره، ومنه قولهم: خاتمة المسك.

وقال الحسن[٥]: الخاتمُ هو: الذي خُتم به ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ قد أحاط علمه بكل شيء، ومِنْ جملة معلوماته هذه الأحكام المذكورة هنا.

وقد أخرج أحمد، والبخاري، والترمذي، وغيرهم عن أنس[٦] قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو زينب إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك، فنزلت: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾» قال أنس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية فتزوّجها رسول الله ﷺ فما أولم على امرأة مِنْ نسائه ما أولم عليها: ذبح شاة. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فكانت تفخر على أزواج النبيّ ﷺ تقول: زوّجكنّ أهاليكنّ، وزوّجني الله من فوق سبع سماوات.

وأخرج أحمد، ومسلم، والنسائي، وغيرهم عن أنس[٧] قال: لما انقضت عدّة

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٤٨٥)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣٣٧)، و«القراءات الشاذة» (ص١٢٠)، و«حاشية الشهاب» (٧/ ١٧٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٨١).

(٢) «التيسير» (ص١٧٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩٩)، و«زاد المسير» (٦/ ٢٣٧)، و«النشر» (٢/ ٤٢٨).

(٣) «التيسير» (ص١٧٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٨٥).

(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٧٤). (٥) «جامع البيان» (١٩/ ١٢٢ ـ ١٢٣).

(٦) أخرجه أحمد رقم (١٢٥١١)، والبخاري رقم (٧٤٢٠)، والترمذي رقم (٣٢١٣)، والحاكم (٢/ ٤١٧)، والبيهقي (٧/ ٥٧)، وعبد بن حميد رقم (١٢٠٥ ـ المنتخب).

(٧) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٠٥)، وأحمد رقم (١٢٠٢٣، ١٣٠٢٥، ١٣٥٧٥)، ومسلم رقم (١٤٢٨)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٦٩٠٨)، وأبو يعلى رقم (٣٣٣٢)، والطبراني (ج٢٤ رقم ١٣٠، ١٣١).

زينب، قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها عليّ فانطلق، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، فقلت: يا زينب أبشري أرسلني رسول الله يَذْكُرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ، ودخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس، وبقي رجال يتحدّثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل يتتبع حُجَر نسائه يسلم عليهنّ، ويقولون: يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أنّ القوم قد خرجوا أو أُخبر، فانطلق حتى دخل البيت، فذهبتُ أدخل معه، فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣] الآية».

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والترمذي وصححه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن عائشة(١) قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ يعني: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾؛ يعني: بالعتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وإن رسول الله ﷺ لما تزوّجها قالوا: تزوّج حليلة ابنه، فأنزل الله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّـۧنَ﴾، وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلاً يقال له: زيد بن محمد فأنزل الله ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]؛ يعني: أعدل عند الله.

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي(٢) في قوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ قال: يعني: يتزوّج من النساء ما شاء هذا فريضةٌ، وكان من قبل من الأنبياء هذا سُنَّتهم، قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة، وكان لداود مائة امرأة.

وأخرج ابن المنذر، والطبراني، عن ابن جريج(٣) في قوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ قال: داود والمرأة التي نكح وزوجها، واسمها اليسيه، فذلك

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٢٠٧، ٣٢٠٨)، والطبراني (ج٢٤ رقم ١١١)، ومسلم رقم (١٧٧/ ٢٨٧)، وأحمد (٦/ ٢٤١، ٢٦٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٤٠٨).

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٢٠٢).

(٣) أخرجه الطبراني (ج٢٤ رقم ١١٩، ١٢٠).

سنة في محمد وزينب ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ كذلك من سنته في داود والمرأة، والنبي وزينب.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس[1] في قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ قال: نزلت في زيد بن حارثة.

وأخرج أحمد، ومسلم عن أبي سعيد الخدري[2] قال: قال رسول الله : «مثلي ومثل النَّبيين كمثل رجل بنى داراً، فانتهى إلّا لَبِنة واحدة، فجئت أنا، فأتممت تلك اللبنة».

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن جابر[3] قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي، ومَثَلُ الأنبياء كمثل رجل ابتنى داراً، فأكملها وأحسنها إلّا موضع لَبِنة، فكان مَنْ دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلّا موضع اللَّبِنة، فأنا موضع اللبنة حتى خُتم بي الأنبياء».

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة[4] نحوه.

وأخرج أحمد، والترمذي وصححه من حديث أبيّ بن كعب[5] نحوه أيضاً.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وكل ما هو ذكر لله تعالى.

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦١٧).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١١٠٦٧) واللفظ له، ومسلم رقم (٢٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٥٣٤)، ومسلم رقم (٢٢٨٧)، والترمذي رقم (٢٨٦٢).

(٤) أخرجه أحمد رقم (٧٣٢٢، ٧٤٨٥، ٨١١٦، ٩١٦٧، ٩٣٣٧)، والبخاري رقم (٣٥٣٥)، ومسلم رقم (٢٠، ٢١، ٢٢/ ٢٢٨٦)، والنسائي في «الكبرى» رقم (١١٤٢٢).

(٥) أخرجه أحمد رقم (٢١٢٤٣)، والترمذي رقم (٣٦١٣). وهو حديث صحيح.

قال مجاهد(١): هو أن لا ينساه أبداً، وقال الكلبي(٢): ويقال: ذكراً كثيراً بالصلوات الخمس، وقال مقاتل(٢): هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: نزّهوه عما لا يليق به في وقت البكرة، ووقت الأصيل، وهما أوّل النهار وآخره، وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما، وخصّ التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ تنبيهاً على مزيد شرفه، وإنافة ثوابه على غيره من الأذكار.

وقيل: المراد بالتسبيح بكرة صلاة الفجر، وبالتسبيح أصيلاً: صلاة المغرب.

وقال قتادة(٣)، وابن جرير(٤): والمراد: صلاة الغداة، وصلاة العصر.

وقال الكلبي(٥): أما بكرة: فصلاة الفجر، وأما أصيلاً: فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

قال المبرّد(٦): والأصيل العشيّ، وجمعه أصائل ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ والصلاة مِنْ الله على العباد رحمتُه لهم، وبركته عليهم، ومن الملائكة الدعاء لهم والاستغفار كما قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧] قال مقاتل بن سليمان(٧) ومقاتل بن حيان: المعنى: ويأمر ملائكته بالاستغفار لكم، والجملة مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر والتسبيح. وقيل: الصلاة من الله على العبد هي: إشاعة الذكر الجميل له في عباده، وقيل: الثناء عليه، وعطف ملائكته على الضمير المستكن في يصلي لوقوع الفصل بقوله: «عليكم» فأغنى ذلك عن التأكيد بالضمير المنفصل(٨).

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٧٥)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٦٠).
(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٧٥).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٢٤) من طريق سعيد بن أبي عروبة، به، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١١٩) من طريق معمر، به بسند صحيح.
(٤) في «جامع البيان» (١٩/ ١٢٣).
(٥) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٧٥).
(٦) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٣١٨).
(٧) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٤٨٦)، و«تفسير الرازي» (٢٥/ ٢١٤)، و«النكت والعيون» (٤/ ٤١٠).
(٨) «روح المعاني» (٢١/ ٣٦١).

والمراد بالصلاة هنا معنى مجازي يعمّ صلاة الله بمعنى: الرحمة، وصلاة الملائكة بمعنى: الدعاء لئلا يجمع بين حقيقة ومجاز في كلمة واحدة، واللام في ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ متعلّق بيصلي: أي: يعتني بأموركم هو وملائكته؛ ليخرجكم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات، ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهدى.

ومعنى الآية: تثبيت المؤمنين على الهداية، ودوامهم عليها؛ لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية. ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيساً لهم وتثبيتاً فقال: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وفي هذه الجملة تقرير لمضمون[١] ما تقدّمها.

ثم بيّن سبحانه: أنّ هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب بل هي عامة لهم ولمن بعدهم، وفي الدار الآخرة، فقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾؛ أي: تحية المؤمنين مِنْ الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت أو عند البعث أو عند دخول الجنة هي: التسليم عليهم منه ﷻ.

وقيل: المراد: تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربّهم سلام، وذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيماً فلما شملتهم رحمته، وأمنوا من عقابه حيًّا بعضُهم بعضاً سروراً، واستبشاراً. والمعنى: سلامة لنا من عذاب النار.

قال الزجّاج[٢]: المعنى: فيسلمهم الله من الآفات، ويبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه.

وقيل: الضمير[٣] في «يلقونه» راجع إلى ملَك الموت، وهو الذي يحييهم كما ورد أنّه لا يقبض روح مؤمن إلّا سلم عليه.

وقال مقاتل[٤]: هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الربّ كما في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤] ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾؛ أي: أعدّ لهم في الجنة رزقاً حسناً ما تشتهيه أنفسهم، وتلذه أعينهم.

ثم ذكر سبحانه صفات رسول الله ﷺ التي أرسله لها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٤١٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣٦٣).
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٣١).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٧٠)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣٦٣).
(٤) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٧٥).

أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾؛ أي: على أمته يشهد لمن صدّقه وآمن به، وعلى من كذبه وكفر به.

قال مجاهد[١]: شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين برحمة الله، وبما أعدّه لهم من جزيل الثواب، وعظيم الأجر ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين والعصاة بالنار، وبما أعدّه الله لهم من عظيم العقاب.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ يدعو عباد الله إلى التوحيد والإيمان بما جاء به، والعمل بما شرعه لهم، ومعنى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: بأمره له بذلك وتقديره، وقيل: بتبشيره ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾؛ أي: يُستضاء به في ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح في الظلمة.

قال الزجاج[٢]: ﴿وَسِرَاجًا﴾؛ أي: ذا سراج منير؛ أي: كتاب نيّر، وانتصاب[٣] شاهداً، وما بعده على الحال ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مقدّر يقتضيه المقام كأنه قال: فاشهد، وبشّر، أو فدبّر أحوال الناس ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أو هو من عطف جملة على جملة، وهي: المذكورة سابقاً، ولا يمنع مِنْ ذلك الاختلاف بين الجملتين بالإخبار والإنشاء. أمره سبحانه بأن يبشرهم بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً على سائر الأمم.

وقد بيّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢] ثم نهاه سبحانه عَنْ طاعة أعداء الدين، فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: لا تُطعْهم فيما يشيرون عليك[٤] به مِنْ المداهنة في الدين، وفي الآية تعريض[٥] لغيره مِنْ أمته؛ لأنّه ﷺ معصوم عَنْ طاعتهم في شيء مما يريدونه، ويشيرون به عليه.

وقد تقدّم تفسير هذه الآية في أوّل السورة.

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾؛ أي: لا تُبال بما يصدر منهم إليك من الأذى بسبب يصيبك في

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/١٢٦)، عن قتادة بسند صحيح.
(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/٢٣١).
(٣) «الفريد» (٤/٤٥).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/١٧٣)، و«جامع البيان» (١٩/١٢٦ ـ ١٢٧).
(٥) «روح المعاني» (٢١/٣٦٩)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٤١٨).

دين الله، وشدّتك على أعدائه، أو دع أن تؤذيهم مجازاة لهم على ما يفعلونه من الأذى لك؛ فالمصدر[1] على الأوّل مضاف إلى الفاعل، [٣/٤٠١] وعلى الثاني مضاف إلى المفعول، وهي مَنْسوخة[2] بآية السيف ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في كل شؤونك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تُوكَل إليه الأمور، وتفوّض إليه الشؤون، فمن فوّض إليه أموره كفاه، ومَنْ وكل إليه أحواله لم يحتج فيها إلى سواه.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[3] في قوله: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يقول: لا يَفْرض على عباده فريضة إلّا جعل لها أجلاً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العُذر غير الذكر، فإنّ الله لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولم يَعذر أحداً في تركه إلّا مغلوباً على عقله، فقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] بالليل والنهار، في البرّ والبحر، في السفر والحضر، في الغنى والفقر، في الصحة والسقم، في السرّ والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ إذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته قال الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾.

وقد ورد في فضل الذكر والاستكثار منه أحاديث كثيرة، وقد صنّف في الأذكار المتعلقة بالليل والنهار، جماعة من الأئمة كالنسائي، والنووي، والجزري، وغيرهم، وقد نطقت الآيات القرآنية بفضل الذاكرين، وفضيلة الذكر ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقد ورد أنه أفضل من الجهاد كما في حديث أبي سعيد الخدري[4] عند أحمد، والترمذي، والبيهقي: «أن رسول الله ﷺ سئل: أيّ العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً، قلت: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون أفضل منه درجة».

---

(١) «البحر المحيط» (٨/٤٨٨)، و«روح المعاني» (٢١/٣٦٩)، و«الفريد» (٤/٤٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/١٧٤)، و«جامع البيان» (١٩/١٢٧).

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٦١٨ ـ ٦١٩)، وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/١٢٤) بسند صحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٣/٧٥)، والترمذي رقم (٣٣٧٦)، وقال: «هذا حديث غريب». وهو حديث ضعيف، والله أعلم.

وأخرج أحمد عَنْ أبي الدرداء[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوِرق، وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: ذكر الله ﷻ».

وأخرجه أيضاً الترمذي، وابن ماجه.

وفي «صحيح مسلم»[٢] وغيره من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المفرّدون، قالوا: وما المفرّدون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً».

وأخرج أحمد، وأبو يعلى، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي عن أبي سعيد الخدري[٣]: أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا مِن ذكر الله حتى يقولوا: مجنون».

وأخرج الطبراني[٤] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله حتى يقول المنافقون: إنَّكم مراءون».

[فضل التسبيح]:

وورد في فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة في الصحيحين، وغيرهما، فمن ذلك حديث أبي هريرة[٥] قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في يوم مائة مرّة سبحان الله وبحمده حطت خطاياه، ولو كانت مثل زبد البحر».

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٥)، ومالك (١/ ٢١١)، والترمذي رقم (٣٣٧٧)، وابن ماجه رقم (٣٧٩٠).
قال الترمذي: «وقد رواه بعضهم عن عبد الله بن سعيد بهذا الإسناد وبعضهم أرسله». وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٣)، ومسلم رقم (٤/ ٢٦٧٦)، وابن حبان رقم (٨٥٥)، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥٠٥). وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٦٨، ٧١)، وأبو يعلى رقم (١٣٧٦)، وابن حبان رقم (٨١٤)، والحاكم (٤٩٩١١)، وصححه وسكت عنه الذهبي.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٩): «وفيه دراج وقد ضعَّفه جماعة وبقية رجال أحد إسنادي أحمد ثقات»، والبيهقي في «الشعب» رقم (٥٢٣) إسناده ضعيف لضعف دراج.

(٤) أخرجه الطبراني رقم (١٢٧٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٨٠، ٨١).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٧٩): «وفيه الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف».

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٥)، والبخاري رقم (٦٤٠٥)، ومسلم رقم (٢٨/ ٢٦٩١)، والنسائي في «اليوم والليلة» رقم (١٠٦٦٢).

وأخرج أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص[(١)] قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فقال لنا: أيعجز أحدكم أن يكتسب في اليوم ألف حسنة؟ فقال رجل: كيف يكتسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: يسبّح الله مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة ويُحط عنه ألف خطيئة».

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن البراء بن عازب[(٢)] في قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ قال: يوم يلقون ملَك الموت ليس مِنْ مؤمن يُقبض روحه إلّا سلم عليه.

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر عن ابن عباس[(٣)] قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وقد كان أمر عليّاً ومعاذاً أن يسيرا إلى اليمن، فقال: «انطلقا فبشِّرا، ولا تنفِّرا ويسِّرا ولا تعسِّرا، فإنها قد أنزلت عليّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾» قال: شاهداً على أُمتك، ومبشراً بالجنة، ونذيراً من النار، وداعياً إلى شهادة أن لا إلٰه إلّا الله ﴿بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ بالقرآن.

وأخرج أحمد، والبخاري، وغيرهما عن عطاء بن يسار[(٤)] قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في القرآن «يا أيها النبيّ إنا أرسلناك

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٨٥)، ومسلم رقم (٣٧/ ٢٦٩٨)، والترمذي رقم (٣٤٦٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٩٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «الزهد» رقم (١٦٦١٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ٢١٤)، والحاكم (٢/ ٣٥٢) وصححه، وقال الذهبي: «عبد الله بن عدي لا يحتج به، ومحمد، قال ابن حبان: لا يحتج به، والبيهقي في «الشعب» رقم (٣٩٩) وفي إسناده من لا يعرف.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٨٦)، والطبراني رقم (١١٨٤١)، والخطيب في «تاريخه» (٣/ ٣١٩).
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٢): «فيه عبد الرحمٰن بن محمد بن عبيد الله العزرمي وهو ضعيف». وانظر: «لسان الميزان» رقم (٤٦٧٧).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٧٤)، والبخاري رقم (٢١٢٥، ٤٨٣٨)، والبيهقي (١/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥).

شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك: المتوكل. ليس بفظّ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا تَجْزي بالسيئة السيئة، ولكن تعفو، وتصفح» زاد أحمد «ولن يقبضه الله حتى يُقيم الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إلٰه إلّا الله فيفتح بها أعيناً عُمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً».

وقد ذكر البخاري[1] في «صحيحه» في البيوع هذا الحديث، فقال: وقال سعيد عَنْ هلال، عَنْ عطاء، عن عبد الله بن سلام، ولم يقل: عبد الله بن عمرو، وهذا أولى، فعبد الله بن سلام هو الذي كان يسأل عَنْ التوراة، فيخبر بما فيها.

[حكم المطلقات قبل الدخول]:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

[تحقيق الكلام في لفظ النكاح]:

لما ذكر سبحانه قصة زيد وطلاقه لزينب، وكان قد دخل بها، وخطبها النبيّ ﷺ بعد انقضاء عدتها كما تقدّم خاطب المؤمنين مبيناً لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾؛ أي: عقدتم بهنّ عقد النكاح، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلّا في معنى العقد كما قاله صاحب

(١) أخرجه البخاري رقم (٢١٢٥).

«الكشاف»[١] والقرطبي[٢]، وغيرهما.

وقد اختلف في لفظ النكاح هل هو حقيقة في الوطء أو في العقد، أو فيهما على طريقة الاشتراك؟ وكلام صاحب «الكشاف»[٣] في هذا الموضع يشعر بأنّه حقيقة في الوطء، فإنّه قال: النكاح: الوطء، وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له من حيث أنه طريق إليه، ونظيره تسمية الخمر إثماً؛ لأنّها سبب في اقتراف الإثم.

ومعنى ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾: من قبل أن تجامعوهنّ، فكنَّى[٤] عن ذلك بلفظ المسّ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ وهذا مجمع عليه كما حكى ذلك القرطبي[٥]، وابن كثير[٦].

ومعنى تعتدّونها: تستوفون عددها من عَددتُ الدراهم، فأنا أعتدّها. وإسناد ذلك إلى الرجال للدلالة على أن العدّة حق لهم كما يفيده ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ قرأ الجمهور[٧] «تعتدّونها» بتشديد الدال.

وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة بتخفيفها[٨].

وفي هذه القراءة وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى الأولى، مأخوذة مِنْ الاعتداد: أي: تستوفون عددها، ولكنّهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف.

قال الرازي[٩]: ولو كان مِنْ الاعتداء الذي هو الظلم لضعف؛ لأن الاعتداء يتعدّى بعلى.

---

(١) أي: الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٧٩).
(٢) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٧٤ ـ ١٧٥).
(٣) في «الكشاف» (٥/ ٧٩).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٧٥)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣٧٢).
(٥) في «تفسيره» (١٧/ ١٧٤).
(٦) في «تفسيره» (١١/ ١٨٩).
(٧) «البحر المحيط» (٨/ ٤٩٠)، و«السبعة» (ص٥٢٢).
(٨) «القراءات الشاذة» (ص١٢٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٠)، و«حاشية الشهاب» (٧/ ١٧٨). القراءة بالتخفيف شاذة، والرواية عن ابن كثير شاذة والصواب مع الجمهور.
(٩) أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامح في شواذ القراءات» كما في «البحر المحيط» (٨/ ٤٩٠).

وقيل: يجوز أَنْ يكون مِنْ الاعتداء بحذف حرف الجرّ: أي: تعتدّون عليها: أي: على العدّة مجازاً، ومثله قوله:

تَحنّ فتُبدي ما بها مِن صَبَابةٍ ... وأُخفي الذي لولا الأَسَى لقَضَاني[١]

أي: لقضى عليّ.

والوجه الثاني: أَنْ يكون المعنى: تعتدون فيها، والمراد بالاعتداء هذا هو ما في قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ﴾ [البقرة: ٢٣١] فيكون معنى الآية على القراءة الآخرة: فما لكم عليهنّ من عدّة تعتدّون عليهنّ فيها بالمضارة.

وقد أنكر ابنُ عطية[٢] صحة هذه القراءة عن ابن كثير وقال: إن البزيّ غلط عليه.

وهذه الآية مُخصّصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وبقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤] والمتعة المذكورة هنا قد تقدّم الكلام فيها في البقرة.

وقال سعيد بن جبير[٣]: هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التي في البقرة، وهي قوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقيل: المتعة هنا هي أعمّ من أن تكون نصف الصداق، أو المتعة خاصة إن لم يكن قد سمي لها، فمع التسمية للصداق تستحق نصف[٤] المسمى عملاً بقوله:

---

(١) عزاه المبرد في «الكامل» (١/ ٤٦)، لأعرابي من بني كلاب.

(٢) في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٨٣).
وقال أبو حيان في «البحر المحيط» (٨/ ٤٩٠): وقال ابن عطية: وروي عن أبي برزة، عن ابن كثير: تخفيف الذال من العدوان، كأنه قال: فما لكم عدة تلزمونها عدواناً وظلماً لهنَّ، والقراءة الأولى أشهر عن ابن كثير، وتخفيف الدال وهم من أبي برزة. انتهى.
قال أبو حيان: وليس بوهم، إذ قد نقلها عن ابن كثير ابن خالويه وأبو الفضل الرازي في «كتاب اللوامح في شواذ القراءات» ونقلها الرازي المذكور عن أهل مكة وقال: هو من الاعتداد لا محالة، لكنهم كرهوا التضعيف فخففوه.

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ ٢٩٧) و(١٩/ ١٢٩) من طريق شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب.

(٤) تقدم ذكره عند تفسير الآية (٢٣٧) من سورة البقرة.

﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] لهنّ، ومع عدم التسمية تستحق المتعة عملاً بهذه الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وهذا الجمع لا بدّ منه، وهو مقدّم على الترجيح، وعلى دعوى النسخ.

وتُخصّص من هذه الآية المتوفى عنها زوجها، فإنّه إذا مات بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها كان الموت كالدخول، فتعتدّ أربعة أشهر وعشراً.

قال ابن كثير[(١)] بالإجماع، فيكون المخصص هو: الإجماع وقد استدلّ بهذه الآية القائلون بأنّه لا طلاق قبل النكاح، وهم الجمهور[(٢)]، وذهب مالك[(٣)]، وأبو حنيفة[(٤)] إلى صحة الطلاق قبل النكاح إذا قال: إن تزوّجت فلانة فهي: طالق، فتطلق إذا تزوّجها.

ووجه الاستدلال بالآية لما قاله الجمهور أنه قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فعقّب الطلاق بالنكاح بلفظ ﴿ثُمَّ﴾ المشعرة بالترتيب، والمهلة ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ أي: أخرجوهنّ من منازلكم: إذ ليس لكم عليهنّ عدّة، والسراح الجميل الذي لا ضرار فيه، وقيل: السراح الجميل أَنْ لا يطالبها بما كان قد أعطاها، وقيل: السراح الجميل هنا كناية[(٥)] عن الطلاق، وهو بعيد لأنه قد تقدّم ذكر الطلاق، ورتب عليه التمتيع، وعطف عليه السراح الجميل، فلا بدّ أن يراد به معنى غير الطلاق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ذكر سبحانه في هذه الآية أنواع الأنكحة التي أحلّها لرسوله، وبدأ بأزواجه اللاتي قد أعطاهنّ أجورهنّ: أي: مُهورهنّ، فإنّ المهور أجور الأبضاع، وإيتاؤها: إما تسليمها مُعجّلة أو تسميتها في العقد.

واختلف في معنى قوله: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ فقال ابن زيد[(٦)]، والضحاك[(٧)]:

---

(١) في «تفسيره» (١١/ ١٨٩).
(٢) انظر: «المغني» (١٠/ ٥٣٣)، و«البيان» للعمراني (١٠/ ٧٤).
(٣) «الاستذكار» (١٨/ ١٢٥ رقم ٢٧١٦١)، و«التهذيب في اختصار المدونة» (٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥).
(٤) «البناية في شرح الهداية» (٥/ ١٦٩ ـ ١٧٠).
(٥) ذكر القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٧٧)، عن أبي حنيفة.
(٦) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٢٠) بسند صحيح.
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٢٠) بسند حسن.

إن الله أحلّ له أن يتزوّج كلَّ امرأة يؤتيها مهرها، فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم.

وقال الجمهور[1]: المراد أحللنا لك أزواجك الكائنات عندك؛ لأنهنّ قد اخترنك على الدنيا وزينتها، وهذا هو الظاهر؛ لأنّ قوله: ﴿أَحْلَلْنَا﴾، و﴿ءَاتَيْتَ﴾ ماضيان، وتقييد الإحلال بإيتاء الأجور ليس لتوقف الحلّ عليه؛ لأنّه يصح العقد بلا تسمية، ويَجب مهر المثل مع الوطء والمتعة مع عدمه، فكأنه لقصد الإرشاد إلى ما هو أفضل ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [٣/٤٠٢]؛ أي: السراري اللاتي دخلن في مُلكه بالغنيمة.

ومعنى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ممّا ردّه الله عليك من الكفار بالغنيمة لنسائهم، المأخوذات على وجه القهر والغلبة، وليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة، فإنّها تحلّ له السرية المشتراة والموهوبة ونحوهما، ولكنّه إشارة إلى ما هو أفضل كالقيد الأوّل المصرّح بإيتاء الأجور، وهكذا قيد المهاجرة في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فإنّه للإشارة إلى ما هو أفضل، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف مَنْ هاجر.

والمراد بالمعية هنا: الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها. وقيل: إن هذا القيد: أعني: المهاجرة مُعتبر، وأنّها لا تحلّ له مَنْ لم تهاجر من هؤلاء كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢] ويؤيد هذا حديث أم هانئ، وسيأتي آخر البحث هذا إن شاء الله تعالى.

ووجه إفراد العم والخال، وجمع العمة والخالة ما ذكره القرطبي[2]: أن العم والخال في الإطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز، وليس كذلك العمة والخالة. قال: وهذا عُرف لغوي، فجاء الكلام عليه بغاية البيان. وحكاه عن ابن العربي[3].

وقال ابن كثير[4]: إنه وحّد لفظ الذكر لشرفه، وجمع الأنثى كقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨] وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وله نظائر كثيرة. انتهى.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٧٩)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٥٤٣).
(٢) في «تفسيره» (١٧/ ١٨١).
(٣) في «أحكام القرآن» (٣/ ١٥٤٤ ـ ١٥٤٥).
(٤) في «تفسيره» (١١/ ١٩٠).

وقال النيسابوري[١]: وإنما لم يُجمع العمّ والخال اكتفاء بجنسيتهما مع أن لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد، ولم يحسن هذا الاختصار في العمة والخالة لإمكان سبق الوهم إلى أن التاء فيهما للوحدة. انتهى.

وكل وجه مِنْ هذه الوجوه يحتمل المناقشة[٢] بالنقض والمعارضة، وأحسنها تعليل جمع العمة والخالة بسبق الوهم إلى أنّ التاء للوحدة، وليس في العم والخال ما يسبق الوهم إليه بأنّه أريد به الوحدة إلّا مجرّد صيغة الإفراد، وهي لا تقتضي ذلك بعد إضافتها لما تقرّر من عموم أسماء الأجناس المضافة، على أن هذا الوجه الأحسن لا يصفو عَنْ شوب المناقشة.

﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ هو معطوف على مفعول أحللنا: أي: وأحللنا لك امرأةً مصدقة بالتوحيد، إنْ وهبت نفسها منك بغير صَداق.

وأما مَنْ لم تكن مؤمنة، فلا تحلّ لك بمجرّد هبتها نفسها لك، ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك؛ بل مقيداً بإرادتك، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ أي: يُصيّرها منكوحةً له، ويتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر. وقد قيل: إنّه لم ينكح النبيّ ﷺ من الواهبات أنفسهن أحداً، ولم يكن عنده منهنّ شيء. وقيل: كان عنده منهنّ خولة بنت حكيم كما في «صحيح البخاري»[٣] عن عائشة.

وقال قتادة[٤]: هي: ميمونة بنت الحارث.

وقال الشعبي[٥]: هي: زينب بنت خزيمة الأنصارية أمّ المساكين.

وقال عليّ بن الحسين والضحاك ومقاتل: هي: أمّ شريك[٦] بنت جابر الأسدية.

---

(١) في «غرائب القرآن» (٢٢/ ٢٤).
(٢) انظر: «روح المعاني» (٢١/ ٣٩٢ ـ ٣٩٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٢).
(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٥١١٣).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٣٥).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٣٦) من طريق عبد الله بن أبي السَّفر عن الشعبي.
(٦) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٨٢)، و«جامع البيان» (١٩/ ١٣٥).

وقال عروة بن الزبير[١]: هي أمّ حكيم بنت الأوقص السلمية.

ثم بيَّن سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله ﷺ لا يحلّ لغيره مِنْ أمته، فقال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: هذا الإحلال الخالص هو خاص بك دون غيرك من المؤمنين. ولفظ خالصةً إما حال من امرأة، قاله الزجاج[٢]: أو مصدر مؤكد كوعد الله: أي: خالص لك خلوصاً.

قرأ الجمهور «وامرأةً» بالنصب. وقرأ أبو حيوة بالرفع على الابتداء.

وقرأ الجمهور[٣] «إنْ وهبت» بكسر إن.

وقرأ أُبيّ، والحسن، وعيسى بن عمر بفتحها[٤] على أنه بدل من امرأة بدل اشتمال. أو على حذف لام العلة: أي: لأنْ وهبت.

وقرأ الجمهور «خالصةً» بالنصب[٥]، وقرئ بالرفع[٦] على أنها صفة لامرأة على قراءة مَنْ قرأ امرأة بالرفع.

وقد أجمع[٧] العلماء على أن هذا خاص بالنبيّ ﷺ، وأنَّه لا يجوز لغيره، ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها إلّا ما روي عن أبي حنيفة، وصاحبيه أنه يصحّ النكاح إذا وهبت، وأشهد هو على نفسه بمهر.

وأما بدون مهر فلا خلاف في أن ذلك خاص بالنبيّ ﷺ، ولهذا قال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾؛ أي: ما فرضه الله سبحانه على المؤمنين في حقّ أزواجهم من شرائط العقد، وحقوقه، فإن ذلك حق عليهم مفروض لا يحلّ لهم

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٣٦)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣١٥)، وعبد الرزاق رقم (١٢٢٦٨، ١٢٢٦٩)، والبخاري رقم (٥١١٣).

(٢) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٣٣).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٤٩٢)، و«التبيان» (٢/ ١٠٥٩)، و«جامع البيان» (١٩/ ١٣٣)، و«روح المعاني» (٢١/ ٣٩٥).

(٤) «القراءات الشاذة» (ص١٢٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٢)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٢). والقراءة بفتح همزة (أن) شاذة.

(٥) «روح المعاني» (٢١/ ٤٠٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٣)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٤٥).

(٦) انظر: المصادر المتقدمة. القراءة بالرفع شاذة.

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ١٨٥).

الإخلال به، ولا الاقتداء برسول الله ﷺ فيما خصه الله به توسعة عليه وتكريماً له، فلا يتزوّجوا إلّا أَرْبعاً بمهرٍ وبيّنةٍ ووليّ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾؛ أي: وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهنّ ممن يجوز سبيه وحربه، لا من كان لا يجوز سبيه أو كان له عهد من المسلمين ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

قال المفسِّرون[(١)]: هذا يرجع إلى أوّل الآية: أي: أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك، والموهوبة لكيلا يكون عليك حرج، فتكون اللام متعلقة بأحللنا، وقيل: هي متعلقة بخالصة، والأوّل أولى.

والحرج: الضيق: أي: وسعنا عليك في التحليل لك لئلا يضيق صدرك، فتظن أنك قد أثمت في بعض المنكوحات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر الذنوب ويرحم العباد، ولذلك وسّع الأمر ولم يضيقه ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ قُرئ «ترجئ» مهموزاً[(٢)]، وغير مهموز[(٣)] وهما لغتان، والإرجاء التأخير، يقال: أرجأت الأمر، وأرجيته: إذا أخرته ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾؛ أي: تضم إليك، يقال: آواه إليه بالمد: ضمه إليه.

وأوى مقصوراً: أي: ضم إليه، والمعنى: أن الله وسع[(٤)] على رسوله، وجعل الخيار إليه في نسائه، فيؤخر مَنْ شاء منهنّ ويؤخر نوبتها ويتركها، ولا يأتيها من غير طلاق، ويضم إليه مَنْ شاء منهنّ ويضاجعها، ويبيت عندها، وقد كان القَسْم واجباً عليه حتى نزلت هذه الآية فارتفع الوجوب وصار الخيار إليه، وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وأمّ سلمة، وزينب وممن أرجأ سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية، فكان ﷺ يسوّي بين من آواه في القسم وكان يقسم لمن أرجأه ما شاء.

هذا قول جمهور[(٥)] المفسرين في معنى الآية، وهو الذي دلت عليه الأدلة الثابتة في الصحيح، وغيره.

---

(١) «معالم السنن» (٦/ ٣٦٤)، و«الوسيط» (٣/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٨٩).
(٢) «التيسير» (ص١١٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٨٩)، و«النشر» (١/ ٤٠٦).
(٣) انظر: المصادر المتقدمة. هما قراءتان متواترتان فقرأ بالهمز ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر ويعقوب وقرأ الباقون بدون همز.
(٤) «الوسيط» (٣/ ٤٧٨)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٩٠).
(٥) انظر: المصادر المتقدمة.

وقيل: هذه الآية في الواهبات أنفسهنّ، لا في غيرهنّ من الزوجات. قاله الشعبي[١] وغيره.

وقيل: معنى الآية في الطلاق[٢]: أي: تُطلّق مَنْ تشاء منهنّ وتمسك من تشاء.

وقال الحسن[٣]: إنّ المعنى: تنكح من شئت من نساء أمتك وتترك نكاح من شئت منهنّ.

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ وسيأتي بيان ذلك.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ الابتغاء: الطلب، والعزل: الإزالة، والمعنى: أنّه إن أراد أن يؤوي إليه امرأةً ممن قد عزلهنّ من القَسْمة، ويضمها إليه فلا حرج عليه في ذلك.

والحاصل أنّ الله سبحانه فوّض الأمر إلى رسوله يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم وتأخير، وعزل وإمساك، وضمّ من أرجأ وإرجاء من ضمّ إليه، وما شاء في أمرهنّ فعل توسعةً عليه، ونفياً للحرج عنه.

وأصل الجناح[٤]: الميل، يقال: جنحت السفينة: إذا مالت. والمعنى: لا ميل عليك بلوم ولا عتب فيما فعلت.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدّم من التفويض إلى مشيئته، وهو مبتدأ وخبره ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾؛ أي: ذلك التفويض الذي فوّضناك أقرب إلى رضاهنّ؛ لأنّه حكم الله سبحانه. قال قتادة[٥]: أي: ذلك التخيير الذي خيرناك في صحبتهنّ أدنى إلى رضاهنّ إذْ كان من عندنا؛ لأنهنّ إذا علمن أنه من الله قرّت أعينهنّ.

قرأ الجمهور «تقرّ» على البناء للفاعل[٦] مسنداً إلى أعينهنّ، وقرأ ابن محيصن

---

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٩١).
وأخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٥٤ ـ ١٥٥).
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٤٠) بسند ضعيف.
(٣) انظر: «روح المعاني» (٢١/ ٤٠٤).
(٤) «تهذيب اللغة» (٤/ ١٥٤)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (ص٢٠٧).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٤٥) بسند صحيح.
(٦) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٨٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٤٩٦).

«تُقرّ» بضم التاء[١] من أقرر، وفاعله ضمير المخاطب، ونصب أعينهنّ على المفعولية وقُرئ على البناء للمفعول[٢].

وقد تقدّم بيان معنى قرّة العين في سورة مريم.

معنى ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾: لا يحصل معهنّ حزن بتأثيرك بعضهنّ دون بعض ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾؛ أي: يرضين جميعاً بما أعطيتهنّ من تقريب، وإرجاء وعزل وإيواء. قرأ الجمهور[٣] «كلُّهنّ» بالرفع تأكيداً لفاعل يرضين.

وقرأ أبو إياس بالنصب[٤] تأكيداً لضمير المفعول في آتيتهنّ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من كل ما تضمرونه، ومن ذلك ما تضمرونه من أمور النساء ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء لا تخفى عليه خافية ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل العصاة بالعقوبة.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ قرأ الجمهور ﴿لَّا يَحِلُّ﴾ بالتحتية[٥] للفصل بين الفعل وفاعله المؤنث، وقرأ ابن كثير بالفوقية[٦].

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال:

الأوّل: أنها محكمة، وأنه حُرّم على رسول الله ﷺ أن يتزوّج على نسائه مكافأة لهنّ بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة، لمّا خيرهنّ رسول الله ﷺ بأمر الله له بذلك، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام وابن زيد وابن جرير[٧].

وقال أبو أمامة بن سهل[٨] بن حنيف: لما حرّم الله عليهنّ أن يتزوجن من بعده حرّم عليه أن يتزوّج غيرهن.

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٢٠)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٠٥).
(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٤٩٦)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٠٥).
(٣) «روح المعاني» (٢١/ ٤٠٥)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٩٤).
(٤) «المحتسب» (٢/ ١٨٢)، و«القراءات الشاذة» (ص١٢٠). وهي قراءة شاذة.
(٥) «النشر» (٢/ ٣٤٩)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/ ١٩٩)، و«التيسير» (ص١٧٩).
(٦) انظر: المصادر المتقدمة. وهي قراءتان متواترتان وابن كثير ممّن قرأ بالتحتية، والذي قرأ بالفوقية أبو عمرو ويعقوب.
(٧) «جامع البيان» (١٩/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٩٦).
(٨) انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٩١).

وقال أبيّ بن كعب[١] وعكرمة وأبو رزين: إنّ المعنى: لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سمّاها الله.

قال القرطبي[٢]: وهو: اختيار ابن جرير[٣].

وقيل: لا يحلّ لك اليهوديات[٤] ولا النصرانيات؛ لأنهنّ لا يصح أن يتصفن بأنهنّ أمهات المؤمنين. وهذا القول فيه بُعد؛ لأنه يكون التقدير: لا يحلّ لك النساء مِنْ بعد المسلمات، ولم يجر للمسلمات ذكر.

وقيل: هذه الآية مَنْسوخة[٥] بالسُّنَّة وبقوله سبحانه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ وبهذا[٦] قالت عائشة، وأم سلمة، وعلي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وغيرهم، وهذا هو الراجح، وسيأتي في آخر البحث ما يدل عليه من الأدلة.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾؛ أي: تتبدل، فحذفت إحدى التاءين: أي: ليس لك أن تُطلّق واحدة منهنّ، أو أكثر وتتزوّج بدل من طُلقت منهنّ، و«من» في قوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ مزيدة للتأكيد.

وقال ابن زيد[٧]: هذا شيء كانت العرب تفعله يقول: خذ زوجتي وأعطني زوجتك، وقد أنكر النحاس[٨] وابن جرير[٩] ما ذكره ابن زيد.

قال ابن جرير[١٠]: ما فعلت العرب هذا قط. ويدفع هذا الإنكار منهما ما

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٩٧).
(٢) في «تفسيره» (١٧/ ١٩٧).
(٣) في «جامع البيان» (١٩/ ١٥٠).
(٤) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٩١).
(٥) يشير إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي رقم (٣٢١٦)، وأحمد رقم (٢٤١٣٧)، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أَحلَّ الله تعالى له النساء» بسند صحيح.
(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٨٣ ـ ١٨٤).
(٧) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٥٢) بسند صحيح.
(٨) في «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٩٢).
(٩) في «جامع البيان» (١٩/ ١٥٢).
(١٠) بل قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ٩١).
وقال ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٥٣): «وأما الذي قاله ابن زيد في ذلك أيضاً، فقولٌ لا معنى له؛ لأنّه لو كان بمعنى المبادلة، لكانت القراءة والتنزيل: ولا أن تبادِلَ بهنَّ من أزواج، أو: ولا تُبدِّل بهنَّ، بضمِّ التاء، ولكنَّ القراءات المجمع عليها: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ بفتح التاء، بمعنى: لا تستبدل بهنَّ، مع أن الذي ذكر ابن زيد من فعل الجاهلية غير =

أخرجه الدارقطني عن أبي هريرة[١] قال: كان البدل في الجاهلية أَنْ يقول الرجل للرجل: تنزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾، وأخرجه أيضاً عنه البزار، وابن مردويه.

وجملة: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في محل نصب[٢] على الحال من فاعل تبدّل.

والمعنى: [٣/٤٠٣] أنَّه لا يحل التبدّل بأزواجك، ولو أعجبك حسن غيرهنّ ممن أردت أن تجعلها بدلاً من إحداهنّ، وهذا التبدّل أيضاً من جملة ما نسخه الله في حق رسوله على القول الراجح، وقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناء من النساء؛ لأنه يتناول الحرائر والإماء.

وقد اختلف العلماء في تحليل الأَمَة الكافرة.

القول الأوّل: أنها تحلّ[٣] للنبيّ ﷺ لعموم هذه الآية، وبه قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحكم.

القول الثاني: أنها لا تحلّ له تنزيهاً لقدره[٤] عن مباشرة الكافرة.

ويترجح القول الأوّل بعموم هذه الآية، وتعليل المنع بالتنزّه ضعيف، فلا تنزّه عمَّا أحلَّه الله سبحانه، فإن ما أحلّه، فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النّكاح، لا باعتبار غير ذلك؛ فالمشركون نجس بنص القرآن. ويمكن ترجيح القول الثاني بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فإنه نهي عام ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾؛ أي: مراقباً حافظاً مهيمناً لا يخفى عليه شيء، ولا يفوته شيء.

= معروف في أمةٍ نعلمُه من الأمم، أن يبادل الرجل آخرَ امرأته الحرّة بامرأته الحرّة، فيقال: كان ذلك من فعلهم، فنُهي رسول الله ﷺ عن فعل مثله».

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٢١٨ رقم ٣)، والبزار في «مسنده» رقم (٢٢٥١ ـ «كشف») بسند ضعيف جدّاً.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٢): فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك.
وانظر: «الجرح والتعديل» (٢/ ٢٢٧)، و«الميزان» (١/ ١٩٣).
قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٩/ ١٨٤): إسناده ضعيف جدّاً.

(٢) «الفريد» (٤/ ٨٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤١٢).

(٣) «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٣٦٩).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٠١).

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(١)] في قوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ قال: هذا في الرجل يتزوّج المرأة ثم يطلقها من قبل أنْ يمسها، فإذا طلقها واحدةً بانت منه، ولا عدّة عليها تتزوّج من شاءت، ثم قال: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ يقول: إنْ كان سمّى لها صداقاً فليس لها إلّا النصف، وإن لم يكن سمى لها صداقاً متّعها على قدر عُسره ويسره وهو السراح الجميل.

وأخرج ابن مردويه[(٢)] عن ابن عمر قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ منسوخة نسختها التي في البقرة: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير عن سعيد بن المسيب[(٣)] نحوه.

وأخرج عبد بن حميد[(٤)] عن الحسن وأبي العالية قالا: ليست بمنسوخة، لها نصف الصداق، ولها المتاع.

وأخرج عبد الرزاق عن ابن جريج قال: بلغ ابن عباس[(٥)] أن ابن مسعود يقول: إنْ طلّق ما لم ينكح فهو جائز، فقال ابن عباس: أخطأ في هذا، إن الله يقول: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ ولم يقل: إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهنّ.

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن عباس[(٦)]: أنه تلا هذه الآية، وقال: لا يكون طلاق حتى يكون نكاح.

وقد وردت أحاديث منها: أنه «لا طلاق إلّا بعد نكاح»[(٧)]، وهي معروفة.

وأخرج ابن سعد، وابن راهويه، وعبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي عن

---

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٥).
أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٢٨) بسند صحيح.
(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٦).
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٢٩) وقد تقدم.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٦).
(٥) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» رقم (١١٤٦٨).
(٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤١٩).
(٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٢٠)، والبيهقي (٧/ ٣١٩)، والطيالسي رقم (١٦٨٢) من حديث جابر بن عبد الله.

أم هانئ[(١)] بنت أبي طالب. قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت: فلم أكن أحلّ له لأنّي لم أهاجر معه، كنتُ مِنْ الطلقاء.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه من وجه آخر عنها[(٢)] قالت: نزلت فيّ هذه الآية ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أراد النبيّ أن يتزوّجني، فنهي عني إذ لم أهاجر.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[(٣)] في قوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ قال: فحرّم الله عليه سوى ذلك من النساء. وكان قبل ذلك ينكح في أيّ النساء شاء لم يحرم ذلك عليه، وكان نساؤه يجدن من ذلك وجداً شديداً أن ينكح في أيّ النساء أحبّ، فلما أنزل إني حرّمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «السُّنن» عن عائشة[(٤)] قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم.

وأخرج عبد الرزاق، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والبخاري، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي، وابن مردويه عن عروة[(٥)]: أن خولة بنت حكيم كانت من اللاتي وهبن أنفسهنّ لرسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٥٣)، وابن راهويه في «مسنده» رقم (٨)، وعبد بن حميد كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ١١٦)، والترمذي رقم (٣٢١٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٣٠)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٩٠)، والطبراني (ج٢٤ رقم ١٠٠٧)، والحاكم (٢/ ٤٢٠)، وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ١١٦)، والبيهقي (٧/ ٥٤) بسند ضعيف جداً.

(٢) عزاه إليهما السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٢٤) بسند ضعيف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٩٢)، وابن مردويه كما في «التغليق» (٤/ ٤١١)، والبيهقي (٧/ ٥٥).

(٥) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٥٨)، وعبد الرزاق رقم (١٢٢٦٨، ١٢٢٦٩)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣١٥)، =

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة[(١)] قالوا: تزوّج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة: ست من قريش: خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وثلاث من بني عامر بن صعصعة، وامرأتين من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهي التي وهبت نفسها للنبيّ ﷺ، وزينب أم المساكين، والعامرية وهي التي اختارت الدنيا وامرأة من بني الجون، وهي التي استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية والسبيتين صفية بنت حيي، وجويرية بنت الحارث الخزاعية.

وأخرج البخاري، وابن مردويه عن أنس[(٢)] قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا نبيّ الله هل لك بي حاجة؟ فقالت ابنة أنس: ما كان أقلّ حياءها، فقال: هي خير منك رغبت في النبي ﷺ، فعرضت نفسها عليه.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن سهل بن سعد الساعدي[(٣)]: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ، فوهبت نفسها له، فصمت، الحديث بطوله.

وأخرج ابن مردويه[(٤)] عن ابن عمر في قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ قال: فرض الله عليهم أنه لا نكاح إلّا بوليّ، وشاهدين.

وأخرج ابن مردويه[(٤)] عن ابن عباس مثله، وزاد: ومهر.

وأخرج ابن أبي شيبة[(٥)] عن عليّ قال: نهى رسول الله ﷺ أن توطأ الحامل حتى تضع، والحائض حتى تستبرأ بحيضة.

= والبخاري رقم (٥١١٣)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٣٦).
وقال الحافظ في «فتح الباري» (٩/ ١٦٤): «هذا مرسل؛ لأن عروة لم يدرك زمن القصة، لكن السياق يشعر بأنّه حمله عن عائشة».

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٩٣)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٧٠) بسند ضعيف؛ لضعف موسى بن عبيدة وهو الربذي.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٥١٢٠، ٥١٢٣).

(٣) أخرجه مالك (٢/ ٥٢٦)، والبخاري رقم (٢٣١٠، ٥٠٢٩، ٥٠٣٠، ٥١٤٩)، ومسلم رقم (١٤٢٥)، وأبو داود رقم (٢١١١)، والترمذي رقم (١١١٤)، والنسائي رقم (٣٣٥٩)، وأحمد رقم (٢٢٧٩٨، ٢٢٨٣٢، ٢٢٨٥٠).

(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٣٢).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٣٧٠).
قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإرواء» (١/ ٢٠١): «في إسناده ضعف وانقطاع».

وأخرج ابن جرير[1] عن ابن عباس ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ قال: تؤخر.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه[2] عنه في قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ يقول: مَنْ شئت خليت سبيله منهنّ، ومن أحببت أمسكت منهنّ.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة[3] قالت: كنت أغار من اللّاتي وهبن أنفسهنّ لرسول الله ﷺ، وأقول: تهب المرأة نفسَها! فلما أنزل الله ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية قلتُ: ما أرى ربَّك إلّا يسارع في هواك.

وأخرج ابن سعد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزين[4] قال: همّ رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رأين ذلك أتينه، فقلن: لا تخلّ سبيلنا، وأنت في حلّ فيما بيننا وبينك، افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت، فأنزل الله ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ يقول: تعزل من تشاء فأرجأ منهن نسوة وآوى نسوة، وكان ممن أرجى ميمونة، وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة، وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء وكان ممن أوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب، فكانت قسمته من نفسه وماله بينهنّ سواء.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة[5]: أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول: إن كان ذلك إليّ فإني لا أريد أن أوثر عليك أحداً.

وأخرج الروياني والدارمي وابن سعد وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عن زياد

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٣٨) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٤٠) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد رقم (٢٥٢٥١)، والبخاري رقم (٤٧٨٨، ٥١١٣)، ومسلم رقم (١٤٦٤، ٥٠٤٩)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٤٢).

(٤) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٩٦)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٠٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٤٠، ١٤١) من طريق سفيان، به.

(٥) أخرجه البخاري رقم (٤٧٨٩)، ومسلم رقم (١٤٧٦)، وأبو داود رقم (٢١٣٦)، والنسائي في «الكبرى» رقم (٨٩٣٦).

رجل مِنْ الأنصارِ[١] قال: قلتُ لأبّي بن كعب: أرأيت لو أن أزواج النبيّ ﷺ متن أما كان يحلّ له أَنْ يتزوّج؟ قال: وما يمنعه من ذلك؟ قلت: قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال: إنما أحلّ له ضرباً مِنْ النساء، ووصف له صفة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً﴾ ثم قال: لا يحلّ لك النساء من بعد هذه الصفة.

وأخرج عبد بن حميد، والترمذي وحسنه، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن ابن عباس[٢] قال: نهي رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلّا ما كان من المؤمنات المهاجرات قال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾، فأحلّ له الفتيات المؤمنات ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وحرّم كل ذات دين غير الإسلام وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ وحرّم ما سوى ذلك من أصناف النساء.

وأخرج ابن مردويه[٣] عنه قال: «نهي النبيّ ﷺ أن يتزوّج بعد نسائه الأول شيئاً».

وأخرج ابن مردويه[٣] عنه أيضاً في الآية قال: حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه.

وأخرج أبو داود في ناسخه، وابن مردويه، والبيهقي في «سننه» عن أنس[٤] قال: لما خيرهنّ فاخترن الله ورسوله قصره عليهن، فقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾.

وأخرج ابن سعد، وابن أبي حاتم عن أم سلمة[٥] قالت: لم يمت رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه الدارمي (٢/ ١٥٣، ١٥٤)، وابن سعد (٨/ ١٩٦)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» رقم (٢١٢٠٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٤٧، ١٤٨)، و«الضياء» رقم (١١٧١، ١١٧٢) بسند ضعيف لإبهام الراوي عن أُبي بن كعب.

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٢١٥)، والطبراني رقم (١٣٠١٣) بسند ضعيف.

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٣٧).

(٤) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٣٧).
وأخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٥٣، ٥٤).

(٥) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٩٤)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ١٩٨) بسند حسن.

حتى أحلّ الله له أن يتزوّج من النساء ما شاء إلّا ذات محرم، وذلك قول الله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

وأخرج عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وابن سعد، وأحمد، وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، والترمذي وصححه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي من طريق عطاء عن عائشة(١) قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له أن يتزوّج من النساء ما شاء إلّا ذات مَحْرمٍ لقوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

وأخرج ابن سعد(٢) عن ابن عباس مثله.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي رزين(٣) ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ قال: من المشركات إلّا ما سَبيت فملكَتْهُ يمينُك.

وأخرج البزار، وابن مردويه عن أبي هريرة(٤) قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلني امرأتك وأبادلك امرأتي؛ أي: تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي، فأنزل الله ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ قال: فدخل عيينة بن حصن الفزاري إلى النبيّ ﷺ وعنده عائشة فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: «أين الاستئذان؟ قال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل مِنْ الأنصار منذ أدركت، ثم قال: من هذه الحُميراء إلى جنبك؟ فقال رسول الله: هذه عائشة أم المؤمنين، قال: أفلا أنزل لك عن أحسن خلق الله؟ قال: يا عيينة إن الله حرّم ذلك، فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا؟ قال: أحمق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه».

---

(١) أخرجه عبد الرزاق رقم (١٤٠٠١)، وابن سعد (٨/ ١٩٤)، وأحمد في «مسنده» رقم (٢٤١٣٧، ٢٥٦٥٢)، والترمذي رقم (٣٢١٦)، والنسائي رقم (٣٢٠٤، ٣٢٠٥)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٥٤)، والحاكم (٢/ ٤٣٧)، والبيهقي (٧/ ٥٤) بسند صحيح.

(٢) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٩٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٥١)، وابن سعد (٨/ ١٩٦)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢٦٩) من طريق منصور، به.

(٤) أخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٥١ ـ «كشف») بسند ضعيف جدّاً.
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٢): «إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة متروك».

[من آداب دخول البيوت]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

[ما وجب على المؤمنين نحو بيت النبي مع آية الحجاب]:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ هذا نهي عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله إلّا بإذن منه. وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة في وليمة زينب، وسيأتي بيان ذلك آخر البحث إن شاء الله.

وقولُه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء(١) مفرّغ من أعمّ الأحوال: أي: لا تدخلوها في حال من الأحوال إلّا في حال كونكم مأذوناً لكم، وهو في موضع نصب على الحال؛ أي: إلّا مصحوبين بالإذن، أو بنزع الخافض؛ أي: إلّا بأن يؤذن لكم، [٣/٤٠٤] أو منصوب(٢) على الظرفية؛ أي: إلّا وقت أن يؤذن لكم، وقوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلق بيؤذن على تضمينه معنى: الدعاء(٣)؛ أي: إلّا أن يؤذن لكم مدعوّين إلى طعام، وانتصاب ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ على الحال، والعامل فيه يؤذن، أو مقدّر: أي: ادخلوا غير ناظرين، ومعنى ناظرين: منتظرين، وإناه: نضْجُه وإدراكه، يقال: أَنى يأْنِي أنًى: إذا حان وأدرك.

---

(١) «روح المعاني» (٢١/٤١٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٤٢٤).
(٢) «التبيان» (٢/١٠٦٠)، و«الفريد» (٤/٤٩)، و«البحر المحيط» (٨/٤٩٩).
(٣) «روح المعاني» (٢١/٤١٧)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٤٢٥).

قرأ الجمهور «غيرَ ناظرين» بالنصب(١). وقرأ ابن أبي عبلة «غيرِ» بالجرّ صفة(٢) لطعام، وضعّف النحاةُ هذه القراءة؛ لعدم بروز الضمير لكونه جارياً على غير مَنْ هو له، فكان حقه أن يقال: ﴿غَيْرَ نَظِرِينَ﴾ إناه أنتم. ثم بيّن لهم سبحانه ما ينبغي في ذلك، فقال: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾، وفيه تأكيد للمنع، وبيان الوقت الذي يكون فيه الدخول وهو عند الإذن.

قال ابن العربي(٣): وتقدير الكلام: ولكن إذا دُعيتم، وأُذن لكم فادخلوا، وإلّا فنفس الدعوة لا تكون إذناً كافياً في الدخول.

وقيل: إنّ فيه دلالةً بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام: هو الدعوة إليه ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أمرهم سبحانه بالانتشار بعد الطعام وهو: التفرّق، والمراد الإلزام بالخروج مِنْ المنزل الذي وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الأكل.

﴿وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عطف على قوله غير ناظرين، أو على مقدّر: أي: ولا تدخلوا ولا تمكثوا مستأنسين. والمعنى: النهي لهم عن أن يجلسوا بعد الطعام يتحدّثون مستأنسين بالحديث.

قال الرازي(٤) في قوله: ﴿إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ إما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديرُه: ولا تدخلوا إلى طعام إلّا أن يؤذن لكم فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير إذن، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير، فيكون معناه: ولا تدخلوا إلّا أَنْ يؤذن لكم إلى طعام، فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى طعام، فإن لم يؤذن إلى طعام، فلا يجوز الدخول، فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام، فلا يجوز، فنقول: المراد هو الثاني؛ ليعمّ النهي عن الدخول.

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٤٩٩)، و«التبيان» (٢/ ١٠٦٠)، و«جامع البيان» (١٩/ ١٥٩)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٢١).

(٢) انظر: المصادر المتقدمة. وقراءة الجر شاذة.
قال ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٦٠): والصواب من القول في ذلك عندنا القول بإجازة جر «غيرَ» في «غيرَ ناظرين» في الكلام، لا في القراءة،... فأما القراءة فغير جائز في «غير» غيرُ النصب، لإجماع الحجة من القرأةِ على نصبها.

(٣) في «أحكام القرآن» (٣/ ١٥٦٥).

(٤) في «تفسيره» (٢٥/ ٢٢٤).

وأما كونه لا يجوز إلّا بإذن إلى طعام فلما هو مذكور في سبب النزول أن الخطاب مع قوم كانوا يتحيّنون(١) حين الطعام، ويدخلون من غير إذن، فَمُنعوا من الدخول في وقتهم بغير إذن.

وقال ابن عادل: الأولى(٢) أَنْ يقال: المراد هو: الثاني؛ لأنّ التقديم والتأخير خلاف الأصل، وقوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ مِنْ باب التخصيص بالذكر، فلا يدلّ على نفي ما عداه، لا سيما إذا علم مثله، فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه جاز دخوله بإذنه إلى غير الطعام. انتهى.

والأولى في التعبير عَنْ هذا المعنى الذي أراده أن يقال: قد دلت الأدلة على جواز دخول بيوته ﷺ بإذنه لغير الطعام، وذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذي نزلت فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ، فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه، وأمثالهم، فلا تدلّ على المنع مِنْ الدخول مع الإذن لغير ذلك، وإلّا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام، واللازم باطل؛ فالملزوم مثله.

قال ابن عطية(٣): وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة، أو نحوه أن يبكر مَنْ شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي ﷺ.

ودخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أدب الله لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلّا بإذنٍ عند الأكل لا قبله لانتظار نضج الطعام.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إلى الانتظار والاستئناس للحديث، وأشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالمذكور كما في قوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]؛ أي: إن ذلك المذكور من الأمرين ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾؛ لأنهم كانوا يضيقون المنزل عليه وعلى أهله ويتحدّثون بما لا يريده.

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٨٨).
(٢) «روح المعاني» (٢١/ ٤١٧ ـ ٤١٨)، و«الكشاف» (٥/ ٨٩).
(٣) في «المحرر الوجيز» (٣/ ٩٤ ـ ٩٥).

قال الزجّاج[(١)]: كان النبيّ ﷺ يحتمل إطالتهم كرماً منه، فيصبر على الأذى في ذلك، فعلَّم الله من يحضره الأدبَ فصار أدباً لهم ولمن بعدهم ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ﴾؛ أي: يستحيي أَنْ يقول لكم: قوموا أو أخرجوا ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾؛ أي: لا يترك أَنْ يبين لكم ما هو الحق، ولا يمتنع مِنْ بيانه وإظهاره؛ والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة.

قرأ الجمهور[(٢)]: «يستحيي» بياءين، وروي عن ابن كثير[(٣)]: أنه قرأ بياء واحدة، وهي لغة تميم يقولون: استحى يستحي مثل استقى يستقي.

ثم ذكر سبحانه أدباً آخر متعلقاً بنساء النبيّ ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا﴾؛ أي: شيئاً يتمتع به من الماعون وغيره ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾؛ أي: مِنْ وراء سترٍ بينكم وبينهنّ. والمتاع يُطلق على كلِّ ما يتمتع به، فلا وجه لما قيل من أن المراد به العارية أو الفتوى أو المصحف والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى سؤال المتاع من وراء حجاب.

وقيل: الإشارة إلى جميع ما ذكر مِنْ عدم الدخول بغير إذن، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤال المتاع، والأوّل أولى، واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾؛ أي: أكثر تطهيراً لها من الريبة، وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء، وللنساء في أمر الرجال.

وفي هذا أدب[(٤)] لكل مؤمن، وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحلّ له، والمكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما صحّ لكم ولا استقام أن تؤذوه بشيء مِنْ الأشياء كائناً ما كان، ومِنْ جملة ذلك دخول بيوته بغير إذنٍ منه، واللَّبث فيها على غير الوجه الذي يريده، وتكليم نسائه مِنْ دون حجاب ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾؛ أي: ولا كانَ لكم ذلك بعد وفاته؛ لأنهنّ أمهات

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٣٥).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٥٠٠)، و«المحرر الوجيز» (١٣/ ٩٥)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٢٤).

(٣) انظر: المصادر المتقدمة. ابن كثير المتواتر عنه كالجمهور والرواية عنه أنه قرأ بياء واحدة شاذة.

(٤) «روح المعاني» (٢١/ ٤٢٥ ـ ٤٢٧)، و«جامع البيان» (١٩/ ١٦٢).

المؤمنين، ولا يحلّ للأولاد نكاح الأُمّهات، والإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إلى نكاح أزواجه مِنْ بعده ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾؛ أي: ذنباً عظيماً وخطباً هائلاً شديداً.

وكان سبب نزول الآية أنّه قال قائل: لو قد مات محمد لتزوّجنا نساءه، وسيأتي بيان ذلك ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ يعلم كل شيء من الأشياء، ومِنْ جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله وما تكتمونه في صدوركم.

وفي هذا وعيد شديد؛ لأنّ إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها وشرّها.

ثم بيَّن سبحانه من لا يلزم الحجاب منه، فقال: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله ﷺ ولا غيرهنّ من النساء الاحتجاب منهم، ولم يذكر العمّ والخال؛ لأنّهما يجريان مجرى الوالدين.

وقال الزجاج[١]: العمّ والخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحلّ لابن العمّ وابن الخال فكره لهما الرؤية، وهذا ضعيف جدّاً، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحلّ له ممكن مِنْ غيرهما ممن يجوز له النظر إليها، لا سيما أبناء الإخوة وأبناء الأخوات.

واللازم باطل فالملزوم مثله، وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الأجنبيات أن ينظرن إليها؛ لأنهنّ يصفنها، واللازم باطل فالملزوم مثله. وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي، وعكرمة من أنه يكره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها، والأولى أن يقال: أنّه سبحانه اقتصر ههنا على بعض ما ذكره من المحارم في سورة النور اكتفاء بما تقدّم ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ هذه الإضافة تقتضي أن يكون المراد بالنساء المؤمنات؛ لأن الكافرات غير مأمونات على العورات، والنساء كلهنّ عورة ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من العبيد، والإماء، وقيل: الإماء خاصة، ومَنْ لم يبلغ من العبيد، والخلاف في ذلك معروف.

وقد تقدّم في سورة النور ما فيه كفاية.

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/٢٣٦).

ثم أمرهنّ سبحانه بالتقوى التي هي ملاك الأمر كله، والمعنى: ﴿وَٱتَّقِينَ﴾ الله في كل الأمور التي مِنْ جملتها ما هو مذكور هنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لم يغب عنه شيء مِنْ الأشياء كائناً ما كان، فهو مجازٍ للمحسن بإحسانه، وللمسيء بإساءته.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن أنس[١] قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله إنّ نساءك يدخل عليهنّ البَرّ والفاجر فلو حجبتهنّ، فأنزل الله آية الحجاب. وفي لفظ: أنّه قال عمر: يا رسول الله يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب.

وأخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن أنس[٢] قال: «لما تزوّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدّثون، وإذا هو كأنه يتهيّأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام مَنْ قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ، ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقتُ، فجئت، فأخبرت النبيّ ﷺ أنّهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل فذهبت أدخل، فألقى الحجابَ بيني وبينه، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير[٣] عن عائشة: أن أزواج النبيّ ﷺ كنّ يخرجن بالليل إذا تبرّزَن إلى المناصع، وهو صعيد أفيَحُ، وكان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشاء، وكانت امرأةً طويلةً، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله الحجاب قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية.

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٤٠٢، ٤٤٨٣، ٤٧٩٠، ٤٩١٦)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٦٤).

(٢) أخرجه أحمد رقم (١٢٠٢٣، ١٢٦٩، ١٢٧١٦، ١٣٠٢٥، ١٣٠٧٢، ١٣٣٦١، ١٣٥٣٨)، وعبد بن حميد رقم (١٢٠٤ ـ منتخب)، والبخاري رقم (٤٧٩١ ـ ٤٧٩٤، ٥١٥٤، ٥١٦٦، ٥٤٦٦، ٦٢٣٨، ٦٢٣٩، ٦٢٧١)، ومسلم رقم (١٤٢٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» رقم (١١٤١٦، ١١٤١٧، ١١٤٢٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٠٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٨٧).

(٣) أخرجه جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٦٧).
وأخرجه البخاري رقم (١٤٦، ٦٢٤٠)، ومسلم رقم (٢١٧٠).

وأخرج ابن سعد[١] عن أنس قال: نزل الحجاب مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، وذلك سنة خمس مِنْ الهجرة، وحجب نساءه من يومئذ وأنا ابن خمس عشرة سنة.

وكذا أخرج ابن سعد[٢] عن صالح بن كيسان، وقال: نزل الحجاب على نسائه في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة، وبه قال قتادة، والواقدي. وزعم أبو عبيدة وخليفة بن خياط: أنّ ذلك كان في سنة ثلاث.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٣] في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ قال: نزلت في رجل همّ أن يتزوّج بعض نساء النبيّ ﷺ بعده. قال سفيان: وذكروا أنّها عائشة.

وأخرج ابن أبي حاتم[٤] عن السدّي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا محمد عَنْ بنات عمِّنا. ويتزوّج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوّجنّ نساءه من بعده، فنزلت هذه الآية.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة[٥] قال: قال طلحة بن عبيد الله: لو قبض النبيّ ﷺ لتزوّجت عائشة. فنزلت.

وأخرج ابن سعد عن أَبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم[٦] قال: نزلت في طلحة؛ لأنه قال: إذا توفّي النبيّ ﷺ تزوّجت عائشة. قال ابن عطية: وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله.

قال القرطبي[٧]: قال شيخُنا الإمام أبو العباس[٨]: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة، وحاشاهم عَنْ مثله، وإنما الكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال.

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٧٨).
(٢) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٧٦).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٠٨)، وابن مردويه كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ١٢٨) سنده حسن.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٠٨) بسند ضعيف لإرساله.
(٥) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٣).
وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٢٢) بسند صحيح.
(٦) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٢٠١).
(٧) في «تفسيره» (١٧/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).
(٨) في «المفهم» (٤/ ١٤٩).

وأخرج البيهقي[١] في «السُّنن» عن ابن عباس قال: قال رجل من أصحاب النبيّ : لو قد مات رسول الله ﷺ تزوّجت [٣/٤٠٥] عائشة، أو أمّ سلمة، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير[٢] عنه: «أنّ رجلاً أتى بعض أزواج النبيّ ﷺ، فكلّمها، وهو: ابن عمها، فقال النبيّ ﷺ: لا تقومنّ هذا المقام بعد يومك هذا، فقال: يا رسول الله إنّها ابنةُ عمي، والله ما قلت لها منكراً، ولا قالت لي، قال النبيّ ﷺ: قد عرفتُ ذلك إنّه ليس أحد أغير من الله، وإنه ليس أحد أغير مني فمضى، ثم قال: يمنعني مِنْ كلام ابنة عمي، لأتزوّجنّها من بعده، فأنزل الله هذه الآية، فأعتق ذلك الرجل رقبةً، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله، وحجَّ ماشياً توبة مِنْ كلمته.

وأخرج ابن مردويه[٣] عن أسماء بنت عميس قالت: خطبني عليّ، فبلغ ذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إن أسماء متزوّجة عليّاً، فقال لها النبيّ ﷺ: ما كان لها أن تؤذي اللهَ ورسولَه.

وأخرج ابن سعد[٤] عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف في قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: إن تكلّموا به، فتقولون: تتزوّج فلانة، لبعض أزواج النبيّ ﷺ، أو تُخفوا ذلك في أنفسكم، فلا تنطقوا به يعلمْه الله.

وأخرج ابن مردويه[٥] عن ابن عباس في قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ إلى آخر الآية قال: أُنزلت هذه في نساء النبيّ ﷺ خاصة، وقوله: «نساء النبي»؛ يعني: نساء المسلمات ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من المماليك والإماء ورخص لهنّ: أن يروهنّ بعد ما ضُرب الحجاب عليهنّ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٦٩) وفي إسناده مهران بن أبي عمر، قال البخاري: «في حديثه اضطراب». وقال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (٢/ ٢٧٩ ـ ٢٤١٩): صدوق سيئ الحفظ، وفيه محمد بن حميد الرازي، قال البخاري: «فيه نظر» وكذبه أبو زرعة «ميزان الاعتدال» (٣/ ٥٣٠).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٤).

(٣) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٤).

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ٢٠١).

(٥) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٥).

[مكانة الرسول ﷺ وجزاء من يؤذيه هو والمؤمنين]:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

قرأ الجمهور ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ بنصب[١] الملائكة عطفاً على لفظ اسم إنّ. وقرأ ابن عباس: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ بالرفع[٢] عطفاً على محل اسم «إنّ»، والضمير في قوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ راجع إلى الله، وإلى الملائكة، وفيه تشريفٌ للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم ولله سبحانه واحداً، فلا يرد الاعتراض بما ثبت[٣] عنه ﷺ لما سمع قول الخطيب يقول: مَنْ يطع الله ورسوله فقد رشد، ومَنْ يعصهما فقد غوى، فقال: بئس خطيب القوم أنت، قُلْ: ومَنْ يعص الله ورسولَه، ووجه ذلك: أنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله سبحانه مع غيره في ضميرٍ واحد، وهذا الحديث ثابت في الصحيح.

وثبت أيضاً في «الصحيح»[٤]: أن رسول الله ﷺ أمر منادياً ينادي يوم خيبر: إن الله ورسوله ينهيانكم عَنْ لحوم الحمر الأهلية.

ولأهل العلم أبحاث في الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها، والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله، ولملائكته واحداً، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله ﷺ، ويُحمل الذمّ لذلك الخطيب الجامع بينهما على أنه ﷺ فهم منه إرادة التسوية بين الله سبحانه، وبين رسوله، فيختص المنع بمثل ذلك، وهذا أحسن ما قيل في الجمع.

وقالت طائفة: في هذه حذف، والتقدير: إنَّ الله يصلي، وملائكته يصلون،

---

(١) «البحر المحيط» (٨/ ٥٠٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٣٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢١٤).

(٢) «القراءات الشاذة» (ص١٢٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٣٧). والقراءة بالرفع شاذة.

(٣) تقدم نصه وتخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» رقم (٤١٩٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

وعلى هذا القول، فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر الله، وذكر غيره في ضمير واحد، ولا يرد أيضاً ما قيل: إنَّ الصلاة من الله الرحمة، ومن ملائكته الدعاء، فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين في لفظ يصلون؟ ويقال: على القول الأوّل: أنّه أريد بيصلون معنى مجازي يعمّ المعنيين، وذلك بأن يراد بقوله: يصلون يهتمون بإظهار شرفه، أو يعظمون شأنه، أو يعتنون بأمره.

وحكى البخاري عَنْ أبي العالية: أَنّ صلاةَ الله سبحانه ثناؤهُ عليه عند ملائكته، وصلاة الملائكة الدعاء[١].

وروى الترمذي[٢] في «سننه» عَنْ سفيان الثوري، وغير واحد من أهل العلم: أنَّهم قالوا: صلاة الربّ الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار.

وحكى الواحدي[٣] عَنْ مقاتل: أنّه قال: أما صلاة الربّ؛ فالمغفرة، وأما صلاة الملائكة؛ فالاستغفار.

وقال عطاء بن أبي رباح[٤]: صلاته تبارك وتعالى: سبوح قدوس سبقتْ رحمتي غضبي.

والمقصود مِنْ هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيِّه عنده في الملأ الأعلى بأنَّه يثني عليه عند ملائكته، وأن الملائكة تصلي عليه، وأمر عباده بأن يقتدوا بذلك ويصلوا عليه.

وقد اختلف أهل العلم في الصلاة على النبيّ ﷺ هل هي واجبة أم مستحبة؟ بعد اتفاقهم على أنَّ الصلاة عليه فرضٌ في العمر مرةً.

وقد حكى هذا الإجماع القرطبي[٥] في تفسيره، فقال قوم من أهل العلم: إنها واجبة عند ذكره، وقال قوم: تجب في كل مجلس مرة. وقد وردت أحاديث مصرّحة بذمّ من سمع ذكر النبيّ ﷺ، فلم يصلّ عليه.

واختلف العلماء في الصلاة على النبيّ ﷺ في تشهد الصلاة المفترضة هل

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٧٢).
(٢) أخرجه الترمذي بإثر رقم (٤٨٥).
(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٨١).
(٤) انظر: «البحر المحيط» (٨/ ٤٨٦)، و«الوسيط» (٣/ ٤٨١).
(٥) في «تفسيره» (١٧/ ٢١٥).

هي: واجبة أم لا؟ فذهب الجمهور[١] إلى أنّها فيها سُنَّة مؤكدة غير واجبة. قال ابن المنذر[٢]: يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلّا صلَّى فيها على رسول الله ﷺ، فإن ترك ذلك تارك، فصلاته مجزئة في مذهب مالك[٣]، وأهل المدينة، وسفيان الثوري، وأهل الكوفة من أصحاب الرأي[٤]، وغيرهم، وهو قول جمهور أهل العلم.

قال: وشذّ الشافعي[٥]، فأوجب على تاركها الإعادة مع تعمّد تركها دون النسيان، وهذا القول عَنْ الشافعي لم يروه عنه إلّا حرملة بن يحيى، ولا يوجد عن الشافعي إلّا مِنْ روايته.

قال الطحاوي[٦]: لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعي.

وقال الخطّابي[٧]، وهو مِنْ الشافعية: إنها ليست بواجبة في الصلاة. قال: وهو قول جماعة الفقهاء إلّا الشافعي، ولا أعلم له في ذلك قدوة. انتهى.

وقد قال بقول الشافعي: جماعة من أهل العلم منهم الشعبي، والباقر، ومقاتل بن حيان، وإليه ذهب أحمد بن حنبل[٨] أخيراً، كما حكاه أبو زرعة الدمشقي، وبه قال ابن راهويه[٩]، وابن الموّاز[١٠] من المالكية.

وقد جمعتُ في هذه المسألة رسالةً مستقلة[١١] ذكرتُ فيها ما احتج به

---

(١) «الكافي» لابن عبد البر (١/ ٢٠٥)، و«البناية في شرح الهداية» (٣١٩١٢)، و«المحلى» (٣/ ٢٧٢).
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢١٩).
(٣) «الكافي» لابن عبد البر (١/ ٢٠٥).
(٤) «تبيين الحقائق» (١/ ١٠٨)، و«البناية في شرح الهداية» (١/ ٢٧٢).
(٥) «المجموع شرح المهذب» (٣/ ٤٥٠)، وانظر: «المغني» (٢/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩).
(٦) انظر: «مختصر اختلاف العلماء» للجصاص (١/ ٢١٩).
(٧) في «معالم السنن» (١/ ٢٢٧).
(٨) «المغني» (٢/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩).
(٩) قال ابن قدامة في «المغني» (٢/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩): «... وعن أحمد أنّها غير واجبة، قال المروزيُّ: قيل لأبي عبد الله: إنَّ ابن راهويه يقول: لو أنَّ رجلاً ترك الصلاة على النبيِّ ﷺ في التشهد، بطلت صلاته، قال: ما أجترئُ أن أقول هذا.
وقال في موضع: هذا شذوذ. «وهذا يدل على أنّه لم يوجبها».
(١٠) «التمهيد» (١٦/ ١٩١)، و«الشفا» للقاضي عياض (٢/ ١٤٦).
(١١) انظر: «الرسالة» رقم (١٣٠) من «الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني» بعنوان: «عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد»، ط. الجيل الجديد صنعاء.

الموجبون لها، وما أجاب به الجمهور، وأشفّ ما يستدلّ به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ: «إنّ الله أمرنا أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك في صلاتنا، فقال: قولوا» الحديث(١).

فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب. وأما على بطلان الصلاة بالترك، ووجوب الإعادة لها، فلا؛ لأنّ الواجبات لا يستلزم عدمها العدم كما يستلزم ذلك الشروط والأركان.

واعلم أنّه قد ورد في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة لو جُمعتْ لجاءت في مصنف مستقلّ، ولو لم يكن منها إلّا الأحاديث الثابتة في الصحيح من قوله ﷺ: «مَنْ صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً»(٢)، فناهيك بهذه الفضيلة الجليلة والمكرمة النبيلة.

وأما صفة الصلاة عليه ، فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة في الصحيحين وغيرهما منها ما هو مُقيد بصفة الصلاة عليه في الصلاة، ومنها ما هو مطلق، وهي معروفة في كتب الحديث فلا نطيل بذكرها.

والذي يحصل به الامتثال لمُطلق الأمر في هذه الآية هو: أَنْ يقول القائل: اللَّهُمَّ صلّ وسلم على رسولك أو على محمد أو على النبيّ، أو اللَّهُمَّ صلّ على محمد وسلم. ومَنْ أراد أن يصلي عليه ويسلم عليه بصفة من الصفات التي ورد التعليم بها، والإرشاد إليها، فذلك أكمل وهي صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السُّنَّة المطهرة، وسيأتي بعضها آخر البحث، وسيأتي الكلام في الصلاة على الآل.

وكان ظاهر هذا الأمر بالصلاة والتسليم في الآية أن يقول القائل: صليت عليه وسلمت عليه، أو الصلاة عليه والسلام عليه، أو عليه الصلاة والتسليم؛ لأن الله

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤)، ومسلم رقم (٤٠٥)، والنسائي في «المجتبى» (٣/ ٤٥) وفي «السنن الكبرى» رقم (١٢٠٩)، وأبو داود رقم (٩٨٠، ٩٨١)، وابن خزيمة رقم (٧١١)، وابن حبان رقم (١٩٥٩)، والدارقطني (١/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥)، والحاكم (١/ ٢٦٨)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. ومالك رقم (٦٧)، والبيهقي (٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧) كلهم من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٢)، ومسلم رقم (٧٠/ ٤٠٨)، وأبو داود رقم (١٥٣٠)، والترمذي رقم (٤٥٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» والنسائي (٥٠١٣) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سبحانه أمرنا بإيقاع الصلاة عليه والتسليم منا؛ فالامتثال هو: أن يكون ذلك على ما ذكرنا، فكيف كان الامتثال لأمر الله لنا بذلك أن نقول: اللَّهُمَّ صلّ عليه وسلم، بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بأن يصلي عليه، ويسلم عليه؟

وقد أجيب عن هذا بأن هذه الصلاة والتسليم لما كانتا شعاراً عظيماً للنبيّ ﷺ وتشريفاً كريماً، وكلنا ذلك إلى الله ﷻ، وأرجعناه إليه، وهذا الجواب ضعيف جدّاً.

وأحسن ما يجاب به: أَنْ يقال: إن الصلاة والتسليم المأمور بهما في الآية هما: أن نقول: اللَّهُمَّ(١) صلّ عليه وسلم، أو نحو ذلك مما يؤدّي معناه كما بينه رسول الله ﷺ لنا، فاقتضى ذلك البيان في الأحاديث الكثيرة: أن هذه هي الصلاة الشرعية.

واعلم أنّ هذه الصلاة مِنْ الله على رسوله، وإنْ كان معناها: الرحمة، فقد صارت شعاراً له يختصّ به دون غيره، فلا يجوز لنا أن نصلي على غيره من أمته كما يجوز لنا أن نقول: اللَّهُمَّ ارحم فلاناً، أو رحم الله فلاناً، وبهذا قال جمهور العلماء مع اختلافهم هل هو محرّم، أو مكروه كراهة شديدة، أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال.

وقد قال ابن عباس(٢) كما رواه عنه ابن أبي شيبة، والبيهقي في «الشعب»: لا تصلح الصلاة على أحدٍ إلّا على النبيّ ﷺ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار.

وقال قوم: إن ذلك جائز لقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، ولقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولحديث عبد الله بن أبي أوفى الثابت في الصحيحين، وغيرهما قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللَّهُمَّ صلّ عليهم، فأتاه أبي بصدقته، فقال: اللَّهُمَّ صلّ على آل أبي

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١١/ ١٦١ ـ ١٦٢)، و«المغني» (٢/ ٢٣٣).

(٢) نسبه ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٥٣٤) إلى القاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في «أحكام القرآن». وصحح سنده.

أوفى»[(١)]، ويجاب عَنْ هذا بأن هذا الشعار الثابت لرسول الله ﷺ له أن يخص به مَنْ شاء، وليس لنا أن نطلقه على غيره. وأما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٧]، فهذا [٣/٤٠٦] ليس فيه إلّا أنّ الله سبحانه يُصلي على طوائف من عباده كما يصلي على من صلى على رسوله مرّةً واحدة عشر صلوات، وليس في ذلك أمر لنا، ولا شرعه الله في حقنا؛ بَلْ لم يشرع لنا إلّا الصلاة والتسليم على رسوله. وكما أن لفظ الصلاة على رسول الله شعار له، فكذا لفظ السلام عليه.

وقد جرت عادة جمهور هذه الأمة، والسواد الأعظم مِنْ سلفها وخلفها على الترضي عن الصحابة، والترحم على مَنْ بعدهم، والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أرشدنا إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠].

ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قيل: المراد بالأذى هنا هو: فعل ما يكرهانه من المعاصي لاستحالة التأذي منه سبحانه.

قال الواحدي[(٢)]: قال المفسِّرون هم: المشركون واليهود والنصارى وصفوا الله بالولد، فقالوا: عزيرٌ ابن الله، والمسيح ابن الله، والملائكة بنات الله، وكذَّبوا رسول الله، وشجُّوا وجهه، وكسروا رباعيته، وقالوا: مجنون، شاعر، كذاب، ساحر.

قال القرطبي[(٣)]: وبهذا قال جمهور العلماء.

وقال عكرمة[(٤)]: الأذية لله سبحانه بالتصوير، والتعرّض لفعل ما لا يفعله إلّا الله بنحت الصور وغيرها.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٥٣)، والبخاري رقم (١٤٩٧)، ومسلم رقم (١٧٦/١٠٧٨)، وأبو داود رقم (١٥٩٠)، والنسائي (٥/٣١)، وابن ماجه رقم (١٧٩٦).

(٢) في «الوسيط» (٣/٤٨٢). (٣) في «تفسيره» (١٧/٢٢٢).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/١٧٨)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٨/٤٨٥) بسند جيد.

وقال جماعة[١]: إنّ الآية على حذف مضاف، والتقدير: إن الذين يؤذون أولياء الله.

وأما أذية رسوله، فهي: كل ما يؤذيه من الأقوال والأفعال.

ومعنى اللعنة: الطردُ والإبعادُ مِنْ رحمته، وجعل ذلك في الدنيا، والآخرة لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلّا واللعنة واقعة عليهم ومصاحبة لهم.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك اللّعن عذاباً مهيناً يصيرون به في الإهانة في الدار الآخرة لما يفيده معنى الإعداد مِنْ كونه في الدار الآخرة. ثُمّ لما فرغ من الذمّ لمن آذى الله ورسوله ذكر الأذية لصالحي عباده، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بوجه من وجوه الأذى من قول، أو فعل.

ومعنى ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾: أنّه لم يكن ذلك لسببٍ فعلوه يوجب عليهم الأذية ويستحقونها به، فأمّا الأذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبه مما يوجب عليه حدّاً أو تعزيراً أو نحوهما، فذلك حق أثبته الشرع وأمرٌ أمرنا الله به، وندبنا إليه، وهكذا إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضرب، فإن القصاص مِنْ الفاعل ليس من الأذية المحرّمة على أيّ وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه الله.

ثم أَخبَر عمَّا لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين، والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقال: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾؛ أي: ظاهراً واضحاً لا شك في كونه من البهتان والإثم، وقد تقدّم بيان حقيقة البهتان وحقيقة الإثم.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٢] ﴿يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ يبرّكون.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة»، وابن مردويه عن ابن عباس[٣]: أن بني إسرائيل قالوا لموسى: هل يصلي ربك؟، فناداه ربه: يا موسى

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٣/ ٩٩).
(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٦).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٧٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٤٠)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢١٠) بسند حسن.

سألوك: هل يصلي ربك؟، فقل: نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي، فأنزل الله على نبيّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ الآية.

وأخرج ابن مردويه[١] عنه قال: إن صلاة الله على النبيّ هي: المغفرة، إن الله لا يصلي ولكن يغفر، وأمّا صلاة الناس على النبيّ، فهي: الاستغفار له. وأخرج ابن مردويه[٢] عن ابن عباس أنه قرأ: «صلُّوا عليه كما صلَّى الله عليه، وسلموا تسليماً».

وأخرَج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن كعب بن عجرة[٣] قال: لما نزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ الآية، قلنا: يا رسول الله قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللَّهُمَّ صلّ على مُحمدٍ وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وأخرجه البخاريُّ، ومسلم، وغيرهما من حديثه[٤] بلفظ: قال رجل: يا رسول الله: أمّا السلام عليك فقد علمناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قل: اللَّهُمَّ صلّ على مُحمّد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللَّهُمَّ بارك على مُحمّد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وأخرج ابنُ أبي شيبة وعبد بن حُميد وأحمد والنسائي من حديث طلحة بن

---

(١) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٦).

(٢) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٤٦)، عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢١١)، والطبراني (ج١٩ رقم ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٦ ـ ٢٩٠) بسند صحيح.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٣١٠٥، ٣١٠٦، ٣١٠٧)، وابن أبي شيبة (٢/ ٥٠٧)، وأحمد رقم (١٨١٠٤، ١٨١٠٥، ١٨١٢٧، ١٨١٣٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب» رقم (٣٦٨)، والبخاري رقم (٤٧٩٧، ٦٣٥٧)، ومسلم رقم (٤٠٦)، وأبو داود رقم (٩٧٦ ـ ٩٧٨)، والترمذي رقم (٤٨٣)، والنسائي رقم (١٢٨٦ ـ ١٢٨٨)، وابن ماجه رقم (٩٠٤)، وابن مردويه كما في «فتح الباري» (٨/ ٥٣٣).

عُبيد الله[١] قال: قلتُ: يا رسولَ الله كيف الصلاة عليك؟ قال: «قل: اللَّهُمَّ صلّ على محمد وعلى آل مُحمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وفي الأحاديث اختلاف، ففي بعضها على إبراهيم فقط، وفي بعضها على آل إبراهيم فقط، وفي بعضها بالجمع بينهما كحديث طلحة هذا.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي حُميد الساعدي[٢]: أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللَّهُمَّ صلّ على محمد، وأزواجه، وذرّيته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وأزواجه، وذرّيته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً.

وفي بعضها التقييد بالصلاة كما في حديث أَبي مسعود[٣] عند ابن خزيمة والحاكم وصحّحه والبيهقي في «سُننه»: أَنْ رجلاً قال: يا رسول الله أما السلام عليك، فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا؟ الحديث.

وأخرج الشافعي[٤] في مسنده من حديث أبي هريرة مثله.

وجميع التعليمات الواردة عنه ﷺ في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلّا النادر اليسير من الأحاديث، فينبغي للمصلي عليه: أَنْ يضم آله إليه في صلاته عليه، وقد قال بذلك جماعة، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي كما رواه عنهما ابن كثير في «تفسيره»[٥].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٥٠٧)، وأحمد رقم (١٣٩٦)، والنسائي رقم (١٢٨٩، ١٢٩٠٢)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» رقم (٢٠٠٠)، والهيثم بن كليب الشاشي رقم (٥). وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه مالك (١/ ١٦٥)، وأحمد رقم (٢٣٦٠٠)، والبخاري رقم (٣٣٦٠، ٦٣٦٩)، ومسلم رقم (٤٠٧)، وأبو داود رقم (٩٧٩)، والنسائي رقم (١٢٩٣)، وابن ماجه رقم (٩٠٥).

(٣) أخرجه ابن خزيمة رقم (٦٤٠)، والحاكم (١/ ٢٦٨)، والبيهقي (٢/ ١٤٦، ١٤٧، ٣٧٨) بسند صحيح.

(٤) أخرجه الشافعي في «مسنده» رقم (٢٦٨ ـ بدائع المنن).

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ٢١٤)

ولا حاجة إلى التمسّك بقول قائل في مثل هذا مع تصريح الأحاديث الصحيحة به، ولا وجه لقول مَنْ قال: إنّ هذه التعليمات الواردة عَنْه في صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة في الصلاة حَمْلاً لمطلق الأحاديث على المقيد منها بذلك القيد، لما في حديث كعب بن عجرة وغيره أَنّ ذلك السؤال لرسول الله ﷺ كان عند نزول الآية.

وأخرج عبد الرزاق، وابن مردويه، والبيهقي في «الشعب» عن أبي هريرة(١): أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني».

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(٢) في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية قال: نزلت في الذين طعنوا على النبيّ ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي، وروي عنه: أنها نزلت في الذين قذفوا عائشة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

لما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذي رسولَه، والمؤمنين، والمؤمنات من عباده أمر رسوله ﷺ: بأنْ يأمر بعض مَنْ ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه،

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» رقم (٣١١٨)، والبيهقي في «الشعب» رقم (١٣٠) بسند ضعيف؛ لضعف موسى بن عبيدة الربذي. وفيه محمد بن ثابت وهو مجهول.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٧٨، ١٧٩) بسند ضعيف. وقال ابن كثير في «تفسيره» (١١/ ٢٤٠): «والظاهر أنَّ الآية عامة في كل من أذاه بشيء».

فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ «من» للتبعيض، والجلابيب جمع جلباب، وهو: ثوب أكبر مِنْ الخمار.

قال الجوهري(١): الجلباب الملحفة، وقيل: القناع، وقيل: هو ثوب يستر جميع بدن المرأة، كما ثبت في «الصحيح»(٢) من حديث أم عطية أنها قالت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب، فقال: «لِتُلْبسها أختُها من جلبابها»، قال الواحدي(٣): قال المفسّرون: يغطين وجوههنّ، ورؤوسهنّ إلّا عيناً واحدة، فيعلم: أنهنّ حرائر، فلا يُعرض لهنّ بأذى. وقال الحسن(٤): تغطي نصف وجهها.

وقال قتادة(٥): تلويه فوق الجبين وتشدّه، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها لكنّه يستر الصدر، ومعظم الوجه.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى إدناء الجلابيب، وهو مبتدأ، وخبره ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾؛ أي: أقرب أَنْ يعرفن، فيتميزن عن الإماء، [٣/٤٠٧] ويظهر للناس أنهنّ حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرّض(٦) لهنّ مراقبة لهنّ، ولأهلهنّ، وليس المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أَنْ تُعرف الواحدة منهن من هي؛ بل المراد: أَنْ يُعرفن أنهنّ حرائر لا إماء؛ لأنهنّ قد لبسن لبسةً تختص بالحرائر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلف منهنّ من ترك إدناء الجلابيب ﴿رَّحِيمًا﴾ بهنّ، أو غفوراً لذنوب المذنبين رحيماً بهم فيدخلن في ذلك دخولاً أوّلياً.

ثم توعد سبحانه أهل النفاق والإرجاف، فقال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ﴾ عمَّا هم عليه مِنْ النفاق ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: شك وريبة عمَّا هم عليه من الاضطراب ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ عمَّا يصدر منهم من الإرجاف بذكر

---

(١) في «الصحاح» (١/ ١٠١).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٨٤)، والبخاري رقم (٣٥١)، ومسلم رقم (١٢/ ٨٩)، وأبو داود رقم (١١٣٦)، والترمذي رقم (٥٣٩)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٣/ ١٨٠)، وابن ماجه رقم (١٣٠٧).
(٣) في «الوسيط» (٣/ ٤٨٢).
(٤) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٣٧٨).
(٥) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ١٠٠) عن قتادة.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٨٢)، عن ابن عباس بسند ضعيف.
(٦) «المحرر الوجيز» (١٣/ ١٠٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٣٢).

الأخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين وظهور المشركين عليهم.

قال القرطبي[١]: أهل التفسير على أنّ الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، والمعنى: أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق، ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين فهو على هذا من باب قوله[٢]:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وَابْنِ الهُمَامِ وَلَيْثِ الكَتِيْبَةِ في المُزْدَحَمُ

أي: إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة.

وقال عكرمة[٣]، وشهر بن حوشب[٤]: الذين في قلوبهم مرض هم: الزناة.

والإرجاف في اللغة[٥]: إشاعة الكذب والباطل، يقال: أرجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبراً متزلزلاً غير ثابت، مِنْ الرجفة، وهي الزلزلة. يقال: رَجَفت الأرض؛ أي: تَحرّكت، وتزلزلت تَرجُف رَجْفاً، والرَّجَفَان: الاضطراب الشديد، وسمي البحر: رجَّافاً لاضطرابه، ومنه قول الشاعر:

المُطعمون اللَّحمَ كلَّ عشيةٍ حتى تغيبَ الشمسُ في الرجّافِ[٦]

والإرجاف واحد الأراجيف، وأرجفوا في الشيء خاضوا فيه، ومنه قول الشاعر:

فإنَّا وإنْ عيَّرتمُونا بقلَّةٍ وأَرجفَ بالإسلامِ باغٍ وحاسدَ[٧]

وقول الآخر:

أَبالأَراجيفِ يابن اللُّؤم تُوعدني وفي الأراجيفِ خِلت اللؤمَ والخور[٨]

وذلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا[٩] المسلمين بأنهم هُزموا

(١) في «تفسيره» (١٧/ ٢٣٣). (٢) تقدم ذكره في سورة البقرة.
(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٨٤)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٢٣)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٣، ٣٤) بسند صحيح.
(٤) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٣٧٩).
(٥) «تهذيب اللغة» (١١/ ٤٢)، و«الصحاح» (٤/ ١٣٦٢ ـ ١٣٦٣).
(٦) ذكره الأزهري في «تهذيب اللغة» (١١/ ٤٣)، والجوهري في «الصحاح» (٤/ ١٣٦٣).
(٧) قائله: عبد الله بن جحش ﷺ. «السيرة النبوية» (١/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦).
(٨) نُسب للَّعين المِنْقَري. «خزانة الأدب» (١/ ٢٥٧).
(٩) «روح المعاني» (٢١/ ٤٧١).

وتارةً بأنهم قُتلوا، وتارة بأنهم غُلبوا، ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار، فتوعدهم الله سبحانه بقوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ أي: لنسلطنك عليهم، فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك.

قال المبرِّد[1]: قد أغراه الله بهم في قوله بعد هذه الآية ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ فهذا فيه معنى: الأمر بقتلهم وأخذهم: أي: هذا حكمهم إذا كانوا مقيمين على النفاق والإرجاف. قال النحاس[2]: وهذا من أحسن ما قيل في الآية.

وأقول: ليس هذا بحسن، ولا أحسن، فإن قوله: ملعونين إلخ، إنما هو لمجرّد الدعاء عليهم لا أنّه أمر لرسول الله ﷺ بقتالهم ولا تسليط لهم عليهم، وقد قيل: إنّهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عَنْ الإرجاف فلم يُغْرِه الله بهم.

وجملة: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ جواب القسم.

وجملة: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معطوفة على جملة جواب القسم؛ أي: لا يجاورونك فيها إلّا جواراً قليلاً حتى يهلكوا، وانتصاب ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ على الحال كما قال المبرد[3] وغيره، والمعنى: مطرودين ﴿أَيْنَمَا﴾ وجدوا وأدركوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ﴾ دعاء عليهم بأنْ يؤخذوا ويقتّلوا ﴿تَقْتِيلًا﴾ وقيل: إن هذا هو الحكم فيهم وليس بدعاء عليهم، والأوّل أولى.

وقيل: معنى الآية: أنّهم إن أصرّوا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة إلّا وهم مطرودون ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: سنّ الله ذلك في الأمم الماضية، وهو لعن المنافقين، وأخذهم وتقتيلهم، وكذا حكم المرجفين وهو منتصب على المصدر[4].

قال الزجاج[5]: بيَّن الله في الذين ينافقون الأنبياء ويرجفون بهم: أن يُقتلوا حيثما ثقفوا.

---

(١) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٣٢٦).

(٢) في «إعراب القرآن» (٣/ ٣٢٦).

(٣) ذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٣٢٦).

(٤) «التبيان» (٢/ ١٠٦٠)، و«الفريد» (٤/ ٥٢).

(٥) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/ ٢٣٧).

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾؛ أي: تحويلاً وتغييراً؛ بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف.

﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾؛ أي: عَنْ وقت قيامها وحصولها؛ قيل: السائلون عن الساعة هم: أولئك المنافقون والمُرْجِفون لما تُوعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة استبعاداً[1] وتكذيباً.

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ يا محمد؛ أي: ما يعلمك ويخبرك ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾؛ أي: في زمان قريب، وانتصاب ﴿قَرِيبًا﴾ على الظرفية والتذكير لكون الساعة في معنى: اليوم أو الوقت مع كون تأنيث الساعة ليس بحقيقي، والخطاب لرسول الله ﷺ لبيان أنّها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها ـ وهو رسول الله ـ فكيف بغيره من الناس؟، وفي هذا تهديد لهم عظيم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: طردهم، وأبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ﴾ في الآخرة مع ذلك اللعن منه لهم في الدنيا ﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً شديدة التسعّر ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ بلا انقطاع ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يواليهم ويحفظهم من عذابها ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصرهم، ويخلصهم منها، ويوم في قوله: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ ظرف[2] لقوله: لا يجدون، وقيل: لخالدين، وقيل: لنصيرا، وقيل: لفعل مقدر، وهو: اذكر.

قرأ الجمهور: «تُقَلَّب» بضم التاء[3]، وفتح اللام على البناء للمفعول. وقرأ عيسى الهمداني وابن أبي إسحاق: «نُقلِّب» بالنون[4] وكسر اللام على البناء للفاعل وهو الله سبحانه.

وقرأ عيسى[5] أيضاً بضم التاء، وكسر اللام على معنى: تقلب السعير وجوههم.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٣٧)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٧٥).

(٢) «التبيان» (٢/ ١٠٦١)، و«الفريد» (٤/ ٥٢)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٧٧).

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٥٠٧)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٣٨). قراءة الجمهور هي المتواترة وما عداها فشاذ، وما روى عن أبي جعفر بفتح التاء منكلمة (تَقلب) فرواية شاذة عنه.

(٤) «المحتسب» (٢/ ١٨٤)، و«القراءات الشاذة» (ص١٢٠)، و«حاشية الجمل» (٢/ ٤٥٢).

(٥) «المحتسب» (٢/ ١٨٤)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٧).

وقرأ أبو حيوة، وأبو جعفر، وشيبة بفتح التاء[١] واللام على معنى: تتقلب.

ومعنى هذا التقلّب المذكور في الآية: هو: تقلبها تارةً على جهة منها وتارة على جهة أخرى ظهراً لبطن، أو تغير ألوانهم[٢] بلفح النار فتسودّ تارة وتخضرّ أخرى، أو تبديل جلودهم بجلود أخرى، فحينئذ ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾، والجملة مستأنفة كأنّه قيل: فما حالهم؟ فقيل: يقولون ويجوز: أن يكون المعنى: يقولون يوم تقلب وجوههم في النار يا ليتنا إلخ. تمنوا: أنهم أطاعوا الله والرسول، وآمنوا بما جاء به؛ لينجوا مما هم فيه من العذاب كما نجا المؤمنون.

وهذه الألف في ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾، والألف التي ستأتي في السبيلا هي: الألف التي تقع في الفواصل ويسميها النحاة ألف الإطلاق[٣].

وقد سبق بيان هذا في أوّل هذه السورة ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى، والمراد بالسادة والكبراء هم: الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم، وفي هذا زَجْر عن التقليد شديد وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله ويقتدي به، وينصف مِنْ نفسه لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم ومزيد البلادة وشدّة التعصب.

وقرأ الحسن، وابن عامر «ساداتِنا» بكسر التاء[٤] جمع سادة، فهو: جمع الجمع.

وقال مقاتل[٥]: هم: المطعمون في غزوة بدر، والأوّل أولى، ولا وجه للتخصيص بطائفة معينة ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾؛ أي: عن السبيل بما زينوا لنا من

---

(١) «القراءات الشاذة» (ص١٢٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٣٨)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٧)، و«جامع البيان» (١٩/ ١٨٨).

(٣) «روح المعاني» (٢١/ ٤٧٩).

(٤) «التيسير» (ص١٧٩)، و«الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٣٩)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٧). وهي قراءة متواترة وكذلك قرأ بها يعقوب. وباقي العشرة قرأوا بالأفراد وفتح التاء (سادتنا). انظر: «النشر» (٢/ ٣٤٩).

(٥) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٨٣).

الكفر بالله، ورسوله، والسبيل هو: التوحيد، ثم دعوا عليهم في ذلك الموقف، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: مثل عذابنا مرتين.

وقال قتادة[١]: عذاب الدنيا، والآخرة، وقيل: عذاب الكفر، وعذاب الإضلال ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ قرأ الجمهور[٢] «كثيراً» بالمثلثة؛ أي: لعناً كثير العدد عظيم القدر شديد الموقع، واختار هذه القراءة أبو حاتم[٣]، وأبو عبيد، والنحاس[٤].

وقرأ ابن مسعود، وأصحابه، ويحيى بن وثاب، وعاصم بالباء[٥] الموحدة؛ أي: كبيراً في نفسه شديداً عليهم ثقيل الموقع.

وقد أخرج البخاري، ومسلم، وغيرهما عن عائشة[٦] قال: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأةً جسيمةً لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر، فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين؟ قال: فانكفأت راجعةً، ورسول الله ﷺ في بيتي وإنّه ليتعشى، وفي يده عَرْق فدخلت، وقالت: يا رسول الله إنّي خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر: كذا وكذا، فأوحي إليه، ثم رفع عنه وإن العَرْق في يده ما وضعه فقال: إنّه قد أذن لكنّ أن تخرجن لحاجتكنّ.

وأخرج سعيد بن منصور، وابن سعد، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي مالك[٧] قال: كان نساء النبيّ ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن، وكان ناس من المنافقين يتعرّضون لهن فيؤذين، فقيل: ذلك للمنافقين، فقالوا إنما نفعله بالإماء فنزلت هذه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآية.

---

(١) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ٣٤٤).
(٢) «جامع البيان» (١٩/ ١٨٩ ـ ١٩٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٨).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٣٩).
(٤) في «إعراب القرآن» (٣/ ٣٢٨).
(٥) «جامع البيان» (١٩/ ١٩٠)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٨)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٧٩).
(٦) أخرجه البخاري رقم (١٤٦، ٤٧٩٥، ٤٩٣٩، ٦٢٤٠)، ومسلم رقم (٢١٧٠)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٦٨، ١٦٩)، والبيهقي (٧/ ٨٨)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٧٥).
(٧) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٩).
وأخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٧٦).

وأخرج ابن سعد[١] عن محمد بن كعب القُرظي قال: كان رجل من المنافقين يتعرّض لنساء المؤمنين يؤذيهنّ، فإذا قيل له قال: كنتُ أحسبها أَمةً، فأمرهن الله أن يخالفن زيّ الإماء، ويُدنين عليهن من جلابيبهن، تُخَمّر وجهها إلّا إحدى عينيها ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ يقول: ذلك أحرى أنْ يعرفن.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس[٢] في هذه الآية قال: أمر الله نساء المؤمنات إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههنّ من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وأبو داود، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن أمّ سلمة[٣] قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأنّ رؤوسهنّ الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها هكذا في «الزوائد» بلفظ مِنْ السكينة وليس لها معنى، فإن المراد تشبيه الأكسية السود بالغربان، لا أنّ المراد وصفهن بالسكينة كما يقال: كأن على رؤوسهم الطير.

وأخرج ابن مردويه[٤] عن عائشة قالت: رحم الله نساء الأنصار لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ الآية شققن مروطهن فاعتجرن بها، وصلين خلف رسول الله ﷺ كأنّما على رؤوسهنّ الغربان.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه عن ابن عباس[٥] في الآية قال: كانت الحرّة تلبس لباس الأَمَة فأمر الله نساء المؤمنين أنْ يدنين عليهن من جلابيبهن، وإدناء الجلباب: أنْ تَقنَّع وتشدّه على جبينها [٣/٤٠٨].

وأخرج ابن سعد[٦] عن محمد بن كعب في قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾؛

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ١٧٦، ١٧٧).
(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٥٩).
وأخرجه ابن جرير (١٩/ ١٨١) بسند صحيح.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٢٣)، وأبو داود رقم (٤١٠١)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣). وهو حديث صحيح.
(٤) عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٠).
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٨٢) بسند ضعيف.
(٦) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٧٧).

يعني: المنافقين بأعيانهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك؛ يعني: المنافقين أيضاً.

وأخرج ابن سعد(١) أيضاً عن عبيد بن حُنين قال: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ هم: المنافقون جميعاً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس(٢) في قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال: لنسلطنك عليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ﴾ هو قولهم: إن به أدرة أو بَرَصاً أو عيباً، وسيأتي بيان ذلك آخر البحث، وفيه تأديب للمؤمنين، وزجر لهم عَنْ أن يدخلوا في شيء من الأمور التي تؤذي رسول الله. قال مقاتل(٣): وعظ الله المؤمنين: أن لا يؤذوا محمداً ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى.

وقد وقع الخلاف فيما أوذي به نبينا محمد ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فحكى النقاش(٤): أن أذيتهم محمداً قولهم: زيد بن محمد.

وقال أبو وائل(٥): إنه ﷺ قسم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨/ ١٧٧).
(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٣).
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم كما في «الإتقان» (٢/ ٣٧) بسند صحيح.
(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٨٣).
(٤) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٢٦).
(٥) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٢٦).

وقيل: نزلت في قصة زيد بن ثابت، وزينب بنت جحش، وما سمع فيها من قالة الناس.

ومعنى ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾: وكان عند الله عظيماً ذا وجاهة، الوجيه عند الله: العظيم القَدْر[١] الرفيع المنزلة، وقيل: في تفسير الوجاهة: إنه كلّمه تكليماً.

قرأ الجمهور[٢]: «وكان عند الله» بالنون على الظرفية المجازية، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وأبو حيوة «عبد الله» بالباء الموحدة[٣] من العبودية.

و«ما» في قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ﴾ هي الموصولة أو المصدرية؛ أي: من الذي قالوه أو من قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: في كل أمر من الأمور ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: قولاً صواباً، وحقّاً. قال قتادة[٤] ومقاتل: يعني: قولوا قولاً سديداً في شأن زيد، وزينب، ولا تنسبوا النبيّ ﷺ إلى ما لا يحلّ.

وقال عكرمة[٥]: إن القول السديد: لا إلٰه إلّا الله.

وقيل[٦]: هو الذي يوافق ظاهره باطنه، وقيل: هو ما أريد به وجه الله دون غيره.

وقيل: هو الإصلاح بين الناس.

والسديد مأخوذ مِنْ تسديد السهم ليصاب به الغَرَض، والظاهر من الآية: أنه أمرهم بأنْ يقولوا قولاً سديداً في جميع ما يأتونه ويذرونه، فلا يخص ذلك نوعاً دون نوع، وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي[٧] العموم؛ فالمقام يفيد هذا المعنى؛ لأنه

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٤٢).

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٥٠٨)، و«زاد المسير» (٦/ ٤٢٦)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٨١ ـ ٤٨٢).

(٣) «القراءات الشاذة» (ص١٢٠)، و«المحتسب» (٢/ ١٨٥)، و«البحر المحيط» (٨/ ٥٠٨)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٨٢). وهي قراءة شاذة.

(٤) ذكره عنهما القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٤٣).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٩٦) بسند ضعيف؛ لضعف حفص بن عمر العدني.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٢٨).

(٧) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٤٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣).

أرشد سبحانه عباده إلى أن يقولوا قولاً يخالف قول أهل الأذى. ثم ذكر ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالتقوى، والقول السديد من الأجر، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: يجعلها صالحةً لا فاسدة بما يهديهم إليه ويوفقهم فيه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: يجعلها مكفرة مغفورة ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في فعل ما هو طاعة واجتناب ما هو معصية ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ أي: ظفر بالخير ظفراً عظيماً، ونال خير الدنيا والآخرة، وهذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما سبقها.

ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما لأهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب، بيّن عِظم شأن التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها، فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

واختلف في تفسير هذه الأمانة المذكورة هنا، فقال الواحدي(١): معنى الأمانة ههنا في قول جميع المفسرين: الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب، وبتضييعها العقاب.

قال القرطبي(٢): والأمانة تعمّ جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور.

وقد اختلف في تفاصيل بعضها، فقال ابن مسعود(٣): هي في أمانة الأموال كالودائع وغيرها، وروي عنه: أنها في كل الفرائض، وأشدها أمانة المال.

وقال أبيّ بن كعب: مِنْ الأمانة أن ائتُمنتْ المرأة على فرجها.

وقال أبو الدرداء(٤): غسل الجنابة أمانة، وإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها.

---

(١) في «الوسيط» (٣/ ٤٨٤).

(٢) في «تفسيره» (١٧/ ٢٤٤).

(٣) «جامع البيان» (١٩/ ٢٠٢)، و«المحرر الوجيز» (١٣/ ١٠٤)، و«روح المعاني» (٢١/ ٤٨٢)، و«الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٤٥).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ٢٠٠)، وأبو داود رقم (٤٢٩) من طريق أبي العوام عمران بن داود القطان، به. وهو حديث حسن.

• وأخرجه الطبراني في «الصغير» (٢/ ٥) من طريق عمران، به دون ذكر أبي الدرداء.

وأخرجه أبو نعيم في «أخبار أصفهان» (٢/ ١٨٩) من طريق عمران، به بدون ذكر أبي الدرداء.

وقال ابن عمرو[١]: أوّل ما خلق الله من الإنسان فرجه، وقال: هذه أمانة استودعكها، فلا تلبسها إلّا بحق، فإن حفظتها حفظتك. فالفرج أمانة، والأذن أمانة والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له.

وقال السدّي[٢]: هي: ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده هابيل، وخيانته إياه في قتله.

وما أبعد هذا القول، وليتَ شعري ما هو الذي سوّغ للسدّي تفسير هذه الآية بهذا، فإن كان ذلك لدليل دله على ذلك فلا دليل، وليست هذه الآية حكاية عن الماضين من العباد حتى يكون له في ذلك مُتمسك أبعد من كل بعيد، وأوهن من بيوت العنكبوت، وإنْ كان تفسير هذا عملاً بما تقتضيه اللغة العربية فليس في لغة العرب ما يقتضي هذا، ويوجب حمل هذه الأمانة المطلقة على شيء كان في أوّل هذا العالَم، وإنْ كان هذا تفسيراً منه بمحض الرأي، فليس الكتاب العزيز عُرْضةً لتلاعب آراء الرجال به، ولهذا ورد الوعيد على من فسّر القرآن برأيه، فاحذر أيها الطالب للحق عَنْ قبول مثل هذه التفاسير، واشدد يديك في تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية، فهو قرآن عربيّ كما وصفه الله، فإن جاءك التفسير عن رسول الله ﷺ، فلا تلتفت إلى غيره، «وإذا جاء نهر الله بطل نهر مَعْقِل»، وكذلك ما جاء عَنْ الصحابة ﷺ، فإنّهم مِنْ جملة العرب، ومن أهل اللغة، وممن جمع إلى اللغة العربية العلم بالاصطلاحات الشرعية، ولكن إذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسّروه به في لغة العرب، فعليك أن تضم إلى ما ذكره الصحابي ما تقتضيه لغة العرب، وأسرارها، فخذ هذه كلّيةً تنتفع بها.

وقد ذكرنا في خطبة هذا التفسير ما يرشدك إلى هذا.

قال الحسن[٣]: إن الأمانة عرضت على السماوات والأرض والجبال، فقالت:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» رقم (٢٧٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/٢٠٣ ـ ٢٠٤) مطولاً من طريق أسباط عن السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مُرَة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/٢٥٢) بسند صحيح.

وما فيها؟ فقال لها: إن أحسنت آجرتك، وإنْ أسأت عذبتك، فقالت: لا.

قال مجاهد(١): فلما خلق الله آدم عرضها عليه، وقيل له ذلك، فقال: قد تحملتها. وروي نحو هذا عن غير الحسن، ومجاهد.

قال النحاس(٢): وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير.

وقيل(٣): هذه الأمانة هي ما أودعه الله في السمٰوات والأرض والجبال وسائر المخلوقات مِنْ الدلائل على ربوبيته أن يظهروها فأظهروها، إلّا الإنسان، فإنه كتمها، وجحدها. كذا قال بعض المتكلمين مفسراً للقرآن برأيه الزائف، فيكون على هذا معنى ﴿عَرَضْنَا﴾: أظهرنا.

قال جماعة من العلماء(٤): ومن المعلوم أن الجماد لا يفهم ولا يجيب، فلا بدّ من تقدير الحياة فيها، وهذا العَرْض في الآية هو عرض تخيير لا عرض إلزام.

وقال القفّال(٥) وغيره: العرض في هذه الآية ضَرُب مَثَلٍ؛ أي: إن السماوات والأرض، والجبال على كُبْر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب؛ أي: أنّ التكليف أمر عظيم حقه أن تعجز عنه السماوات والأرض والجبال، وقد كلفه الإنسان، وهو ظلوم جهول لو عقل، وهذا كقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١] وقيل: إن ﴿عَرَضْنَا﴾ بمعنى: عارضنا؛ أي: عارضنا الأمانة بالسماوات والأرض والجبال، فضعفت هذه الأشياء عَنْ الأمانة ورجحت الأمانة بثقلها عليها.

وقيل: إن عرض الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال إنما كان من آدم عليه السلام، وأن الله أمره أن يعرض ذلك عليها، وهذا أيضاً تحريف لا تفسير ومعنى ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أي: التزم بحقِّها وهو في ذلك ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه، أو جهول لقدر ما دخل فيه كما قال سعيد بن جبير(٦)، أو جهول بربِّه كما قال الحسن(٧).

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٩) إلى ابن أبي حاتم وهو مرسل.

(٢) في «معاني القرآن» (٥/ ٣٨٣).

(٣) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٤/ ٤٢٩).

(٤) «المحرر الوجيز» (١٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

(٥) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٤٨).

(٦) ذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٣/ ١٠٥).

(٧) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٥٠).

وقال الزجّاج[١]: معنى حملها: خان فيها، وجعل الآية في الكفار والفساق العصاة.

وقيل: معنى حملها: كُلّفها وأُلزمها، أو صار مستعدّاً لها بالفطرة، أو حملها عند عرضها عليه في عالم الذرّ عند خروج ذرية آدم من ظهره، وأخذ الميثاق عليهم، واللام في ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ متعلق بحملها؛ أي: حملها الإنسان؛ ليعذّب الله العاصي، ويثيب المطيع، وعلى هذا، فجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ معترضة بين الجملة، وغايتها للإيذان[٢] بعدم وفائه بما تحمّله.

قال مقاتل بن سليمان[٣]، ومقاتل بن حيان: ليعذبهم بما خانوا من الأمانة، وكذّبوا من الرسل، ونقضوا من الميثاق الذي أقرّوا به حين أخرجوا من ظهر آدم.

وقال الحسن[٤]، وقتادة[٥]: هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها، وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أدّوها.

وقال ابن قتيبة[٦]: أي: عرضنا ذلك؛ ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك، فيعذبهما الله ويظهر إيمان المؤمن، فيتوب الله عليه؛ أي: يعود عليه بالمغفرة والرحمة إنْ حصل منه تقصير في بعض الطاعات؛ ولذلك ذكر بلفظ التوبة، فدلّ على أن المؤمن العاصي خارج من العذاب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة للمؤمنين من عباده إذا قصروا في شيء مما يجب عليهم.

وقد قيل: إنّ المراد بالأمانة: العقل والراجح ما قدّمنا عَنْ الجمهور، وما عداه، فلا يخلو عَنْ ضعف لعدم وروده على المعنى العربي، ولا انطباقه على ما يقتضيه الشرع ولا موافقته لما يقتضيه تعريف الأمانة [٣/٤٠٩].

وقد أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة[٧] قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) في «معاني القرآن وإعرابه» (٤/٢٣٨). (٢) «روح المعاني» (٢١/ ٤٨٤).
(٣) ذكره عنهما الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٤٨٥).
(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/٢٠٦) من طريق سوَّار بن عبد الله العنبريّ، به.
(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/٢٠٦) بسند صحيح.
(٦) انظر: «تفسير غريب القرآن» (ص٣٥٢)، و«تأويل المشكل» (ص٢٣٨).
(٧) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٢٤)، وأحمد رقم (٨١٧٣، ٩٠٩١، ١٠٦٧٨، ١٠٩١٤)، =

«إنّ موسى كان رجلاً حيياً ستِّيراً لا يُرى مِنْ جلده شيء استحياء منه، فأذاه من أذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما تستر هذا الستر إلّا من عيب بجلده، إما برص وإما أدُرة وإما آفة، وإن الله ﷻ أراد أن يبرئ موسى مما قالوا، فخلا يوماً وحده، فخلع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإنّ الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، فطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حَجَرُ ثوبي حَجَرُ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله، وأبرأه ممّا يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطَفِق بالحجر ضرباً بعصاه، فوالله إن بالحجر لنَدَباً مِنْ أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً».

وأخرج نحوه البزار، وابن الأنباري، وابن مردويه من حديث أنس(١).

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس(٢) في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ قال: قال له قومه: إنّه آدَر، فخرج ذات يوم ليغتسل، فوضع ثيابه على حجر فخرجت الصخرة تشتد بثيابه، فخرج موسى يتبعها عرياناً حتى انتهت به إلى مجالس بني إسرائيل، فرأوه وليس بآدر، فذلك قوله: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وأخرج الحاكم وصححه من طريق السدّي عن أبي مالك، عن ابن عباس، وعن مُرّة، عن ابن مسعود، وناس من الصحابة(٣): أن الله أوحى إلى موسى: إني مُتوفّ هارون فأتِ به جبل كذا وكذا، فانطلقا نحو الجبل، فإذا هم بشجرة وبيت فيه سرير عليه فُرش وريح طيب، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه

= والبخاري رقم (٢٧٨، ٣٤٠٤، ٤٧٩٩) ورقم (٣٢٢١)، وابن جرير (١٩/ ١٩٢، ١٩٣)، وابن مردويه كما في «فتح الباري» (٦/ ٤٣٧).

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٥).
وأخرجه البزار في «مسنده» رقم (٢٢٥٢ ـ «كشف»)، وقال الهيثمي: في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٣): وفيه علي بن زيد، وهو ثقة سيئ الحفظ، وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٣٥)، وابن جرير (١٩/ ١٩٠، ١٩١)، والحاكم (٢/ ٤٢٢) بسند حسن.

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٦).
وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٧٨، ٥٧٩) وقد تقدم.

قال: يا موسى إنّي أحبّ أن أنام على هذا السرير، قال: نَمْ عليه، قال: نَمْ معي، فلما ناما أخذ هارون الموت، فلما قُبض رفع ذلك البيت، وذهبت الشجرة، ورفع السرير إلى السماء؛ فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: قَتَل هارون، وحسده حبّ بني إسرائيل له، وكان هارون أءلف بهم وألين لهم، وكان في موسى بعض الغِلْظة عليهم، فلما بلغه ذلك قال: ويحكم إنّه كان أخي أفتروني أقتله؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله، فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدّقوه.

وأخرج البخاري ومسلم، وغيرهما عن ابن مسعود(١) قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبيّ ﷺ فاحمرّ وجهه، ثم قال: رحمة الله على موسى لقد أوذي أكثر من هذا، فصبر.

وأخرج أحمد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري(٢) قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر، ثم قال: «على مكانكم اثبتوا»، ثم أتى الرجال، فقال: «إن الله أمرني أن آمركم: أن تتقوا الله وأن تقولوا قولاً سديداً»، ثم أتى النساء، فقال: «إن الله أمرني أن آمركنّ: أن تتقين الله، وأن تقلن قولاً سديداً».

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب الأضداد عن ابن عباس(٣) في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ الآية قال: الأمانة: الفرائض عرضَها الله على السماوات والأرض والجبال إنْ أدّوها أثابهم، وإن ضيعوها عذّبهم فكرهوا ذلك، وأشفقوا من غير معصية ولكن تعظيماً لدين الله أن

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٣١٥٠، ٣٤٠٥، ٤٣٣٦، ٦٠٥٩، ٦١٠٠، ٦٢٩١، ٦٣٣٦)، ومسلم رقم (١٠٦٢).

(٢) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٧).
وأخرجه أحمد رقم (١٩٤٨٨، ١٩٧٠٣)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢٥٠)، والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٤) وسنده ضعيف؛ لضعف ليث وهو ابن أبي سُليم.

(٣) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٨).
وأخرجه ابن جرير (١٩/ ١٩٨)، وابن الأنباري في كتاب «الأَضداد» (ص٣٨١، ٣٩٠) بسند صحيح.

لا يقوموا بها، ثم عرضها على آدم، فقبلها بما فيها، وهو قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾؛ يعني: غرّاً بأمر الله.

وأخرجَ سعيد بن منصور، وابنُ أبي شيبة، وعبد بن حُميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن الأنباري في كتاب «الأضداد»، والحاكم وصحّحه[١] عنه في الآية قال: عرضت على آدم، فقيل: خذها بما فيها، فإن أطعتَ غفرتُ لك، وإن عصيتَ عذبتُك، قال: قبلتها بما فيها، فما كان إلّا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصابَ الذَّنْبَ.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير[٢] عنه أيضاً من طريق أخرى نحوه.

❁ ❁ ❁

---

(١) عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٦٩ ـ ٦٧٠).
أخرجه ابن جرير (١٩/ ١٩٧)، وابن الأنباري (ص٣٨٨، ٣٨٩) بسند ضعيف.
(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٩/ ١٩٧) بسند ضعيف.

فهرس موضوعات الجزء السابع

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

۞ ۞ ۞

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 298749